فهرسة الجزء الثالث من تفسير الخطيب الشربيني

(تمت)

وهي مائتان وست وعشرون آية وألف ومائتان وسبع وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة واثنان وأربعون حرفا روى البغوي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه السلام (بسم الله) الذي دل علو كلامه على عظمة شأنه وعز مرامه (الرحمن) الذي لا يعجل على من عصاه (الرحيم) الذي يحيي قلوب أهل وده بالتوفيق لما يرضاه (طسم) قال ابن عباس عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفي رواية عنه أنه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقال قتادة اسم من أسماء القرآن وقال مجاهد اسم السورة وقال محمد بن كعب القرظي أقسم بطوله وسناه وملكه ولهذا الاختلاف قال الجلال المحلي الله أعلم بمراده بذلك وقد قدمنا الكلام على أوائل السور في أول سورة البقرة وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بإمالة الطاء والباقون بالفتح وأظهر حمزة النون من سين عن الميم وأدغمها الباقون وهي في مصحف عبد الله بن مسعود ط س م مقطوعة من بعضها (تلك) أي هذه الآيات العالية المرام الحائزة أعلى مراتب التمام المؤلفة من هذه الحروف التي تتناطقون بها وكلمات ألسنتكم (آيات الكتاب) أي القرآن الجامع لكل فرقان (المبين) أي الظاهر إعجازه المظهر الحق من الباطل * ولما كان عنده صلى الله عليه وسلم من مزيد الشفقة وعظيم الرحمة على قومه قال تعالى تسلية له (لعلك باخع) أي هالك (نفسك) غما وأسفا من أجل

(ألا يكونوا) أى قومك (مؤمنين) أى راسخين فى الإيمان أى لا تبالغ فى الحزن والأسف
فإن هذا الكتاب فى غاية البيان فى نفسه والإبانة للغير وقد تقدم فى غير موضع أنه ليس عليك
إلا البلاغ ولو شئنا لهديناهم طوعا أو كرها والبخع أن يبلغ بالذبح البخاع بالخاء وبالباء وهو
عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذابح ولعل للإشفاق أى اشفق على نفسك أن تقتلها
حسرة على ما فاتك من إيمان قومك فصبره وعزاه وعرفه أن حزنه وغمه لا ينفع كما أن وجود
الكتاب ووضوحه لا ينفع ثم إنه تعالى أعلمه بأن كل ما هم فيه إنما هو بإرادته بقوله تعالى (إن
نشأ ننزل عليهم) وعبر بالمضارع فيهما إعلاما بدوام القدرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون
النون الثانية وإخفائها عند الزاى وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى ثم قال
تعالى محققا للمراد (من السماء) أى التى جعلنا فيها بروجا للمنافع وأشار إلى تمام القدرة
بتوحيدها بقوله تعالى (آية) أى قاهرة كما فعلنا ببعض من قبلهم بنتق الجبل ونحوه * (تنبيه) *
هنا همزتان مختلفتان أبدل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية المفتوحة بعد المكسورة ياء
خالصة وحققها الباقون ثم أشار تعالى إلى تحقق هذه الآية بالتعبير بالماضى فى قوله تعالى عطفا
على ننزل لأنه فى معنى أنزلنا (فظلت) أى عقب الإنزال من غير مهلة (أعناقهم) أى التى هى
موضع الصلابة وعنها تنشأ حركات الكبر والإعراض (لها خاضعين) أى منقادين * (تنبيه) *
خاضعين خبر عن أعناقهم واستشكل جمعه جمع سلامة لأنه مختص بالعقلاء وأجيب عنه بأوجه
أحدها أن المراد بالأعناق رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما يقال لهم الرؤس والنواصى
والصدور قال القائل * فى محفل من رؤس الناس مشهود * ثانيها أنه على حذف مضاف أى فظل
أصحاب الأعناق ثم حذف وبقى الخبر على ما كان عليه قبل حذف المخبر عنه مراعاة للمحذوف
ثالثها أنه لما أضيف إلى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالإضافة لمؤنث
فى قوله * كما شرقت صدر القناة من الدم * رابعها قال الزمخشرى أصل الكلام فظلوا لها
خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقولهم ذهبت أهل
اليمامة كأن الأهل غير مذكور ونوزع فى التنظير لأن أهل ليس مقحما ألبتة لأنه المقصود
بالحكم خامسها أنها عوملت معاملة العقلاء كقوله تعالى ساجدين وطائعين فى يوسف
والسجدة وقيل إنما قال تعالى خاضعين لموافقة رؤس الآى لتكون على نسق واحد
(وما يأتيهم) أى الكفار (من ذكر) أى موعظة أو طائفة من القرآن يذكرونهم به فيكون
سبب ذكرهم وشرفهم (من الرحمن) أى الذى أنكروه مع إحاطة نعمه بهم (محدث) أى
بالنسبة إلى تنزيله وعلمهم به وأشار تعالى إلى دوام كبرهم بقوله تعالى (إلا كانوا عنه معرضين)
أى إعراضا هو صفة لهم لازمة ولما كان حال المعرض عن الشىء حال المكذب به قال تعالى
(فقد) أى فتسبب عن هذا الفعل منهم أنه قد (كذبوا) أى بالذكر بعد إعراضهم
وأمعنوا فى تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمنا فى قوله تعالى
(فسيأتيهم) أى إذا مسهم عذاب الله تعالى يوم بدر ويوم القيامة (أنباء) أى عظيم أخبار

قوله من رؤس الناس
فى الكشاف من
نواصى الناس اهـ

وعواقب (ما) أى العذاب الذى (كانوا به يستهزؤن) أى يهزؤن من أنه كان حقاً أو باطلا وكان حقيقا بأن يصدق ويعظم أمره أو يكذب فيستخف أمره ثم قال تعالى معجبا منهم (أولم يروا الى الارض) أى على سعتها واختلاف نواحيها ونبه على كثرة ماصنع من جميع الاصناف بقوله تعالى (كم أنبتنا) أى بمالنا من العظمة (فيها) بعد أن كانت يابسة ميتة لانبات فيها (من كل زوج) أى صنف متشاكل بعضه لبعض فلم يبق صنف يليق بهم فى العاجلة الا أكثرنا من الانبات منه (كريم) أى كثير المنافع محمود العواقب وهو صفة لكل مايحمد ويرضى وهو ضد اللئيم وههنا يحتمل معنيين أحدهما النبات على نوعين نافع وضار فذكر كثرة ماأنبت فى الارض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار والثانى أن يعم جميع النبات نافعه وضاره ويصفهما جميعا بالكرم وينبه على أنه تعالى ماأنبت شيأ الا فيه فائدة لان الحكيم لايفعل فعلا الا لحكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتصل الى معرفتها العاقلون ولما كان ذلك باهرا للعقل منبها له فى كل حال على عظيم اقتدار صانعه وبديع اختياره وصل به قوله تعالى (ان فى ذلك) أى الامر العظيم (لآية) أى دلالة على كمال قدرته تعالى (فان قيل) حين ذكر الازواج دل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكان لايحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان فى ذلك لآية وهلا قال لآيات (أجيب) بوجهين أحدهما أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان فى ذلك الانبات لآية ثانيهما أن يراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية (و) الحال انه (ما كان أكثرهم) أى البشر (مؤمنين) فى علم الله تعالى وقضائه فلذلك لاينفعهم مثل هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان زائدة (وان) أى والحال ان (ربك) أى الذى أحسن اليك بالارسال وسخر لك قلوب الاصفياء وزوى عنك الاد والاشقياء (لهو العزيز) أى ذو العزة ينتقم من الكافرين (الرحيم) يرحم المؤمنين * ولما كان مع ماذكر فى ذكر القصص تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم فيما يقاسيه من الاذى والتكذيب وكان موسى عليه السلام قد اختص بالكتاب الذى مابعد القرآن مثله والآيات التى ماأتى بمثلها أحد قبله بدأ بذكره فقال تعالى (واذ) اى واذكر اذ (نادى ربك) أى المحسن اليك بكل مايمكن الاحسان به فى هذه الدار ثم ذكر المنادى بقوله تعالى (موسى) أى حين رأى الشجرة والنار واختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام أهو الكلام القديم أو صوت من الاصوات قال أبو الحسن الاشعرى رضى الله تعالى عنه هو الكلام القديم فكما أن ذاته تعالى لاتشبه سائر الذوات مع أن الدليل دال على انها معلومة ومرئية فى الآخرة من غير كيف ولا جهة فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحرف والصوت مع أنه مسموع وقال الماتريدى هو من جنس الحروف والاصوات وأما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك النداء كان بحروف وأصوات علم به موسى من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به موسى أن الله تعالى مخاطبا له فلم يحتج مع ذلك لواسطة ثم ذكر تعالى ماله النداء بقوله تعالى (ان) أى بأن (ائت القوم) أى الذين فيهم قوة وأى قوة (الظالمين) رسولا ووصفهم بالظلم لكفرهم

واستبعادهم

واستعبادهم بني اسرائيل وذبح أولادهم وقوله تعالى (قوم فرعون) أي معه بدل أو عطف بيان للقوم الظالمين وقوله تعالى (ألا يتقون) استئناف أتبعه ارساله اليهم للانذار تعجيبا من افراطهم في الظلم واجترائهم عليه ولما كان من المعلوم أن من أتى الناس بما يخالف أهواءهم لم يقبل (قال رب) أي أيها الرفيق بي (اني أخاف أن يكذبون) أي فلا يترتب على اتياني اليهم أثر فاجعل لي قبولا ومهابة تحرسني بهما ممن يريدني بسوء وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون (ويضيق صدري) من تكذيبهم لي (ولا ينطلق لساني) بأداء الرسالة للعقدة التي فيه بواسطة تلك الجمرة التي لذعته في الطفولية (فأرسل) أي فتسبب عن ذلك الذي اعتذرت به عن المبادرة الى الذهاب عند الامر طلب الارسال (الى هرون) أخي ليكون لي عضدا على ما أمضي له من الرسالة فيحتمل أن تكون تلك العقدة باقية عند الرسالة وأن تكون قد زالت عند الدعوة ولكن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع الذين أوتوا سلاطة الالسنة وبسطة المقال وهرون كان بتلك الصفة فاراد أن يقرن به ويدل عليه قوله تعالى وأخي هرون هو أفصح مني لسانا ومعنى فارسل الى هرون أرسل اليه جبريل واجعله نبيا وأزرني به واشدد به عضدي وهذا الكلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن في الاختصار حيث قال فأرسل الى هرون فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أولها وآخرها وهما الانذار والتدمير ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها وهو انهم قوم كذبوا بآيات الله فأراد الله الزام الحجة عليهم فبعث اليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم (فان قيل) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره ربه بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل وقد علم أن الله تعالى عليم بحاله (أجيب) بأنه قد امتثل وتقبل ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه ثم التمس بعد ذلك وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الامر ليس بتوقف في امتثال الامر ولا بتعلل فيه وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل ثم زاد في الاعتذار في طلب العون خوفا من أن يقتل قبل تبليغ الرسالة بقوله (ولهم علي ذنب) أي تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمي باسمه كما يسمى جزاء السيئة سيئة وهو قتله القبطي وسماه ذنبا على زعمهم وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع (فأخاف) بسبب ذلك (أن يقتلون) أي يقتلوني به (قال) الله تعالى (كلا) أي ارتدع عن هذا الكلام فانه لا يكون شيء مما خفت لا قتل ولا غيره وكأنه لما كان التكذيب مع ما قام عليه من الصدق من البراهين المقوية لصاحبها الشارحة لصدره العلية لامره عدما وقد أجبناك الى الاعانة بأخيك (فاذهبا) أي أنت وأخوك متعاضدين الى ما أمرتك به مؤيدين (بآياتنا) الدالة على صدقكما * (تنبيه) * فاذهبا عطف على ما دل عليه حرف الردع من الفعل كأنه قيل ارتدع عما تظن فاذهب أنت وأخوك بآياتنا (انا) أي بما لنا من العظمة

(معكم مستمعون) أى سامعون لانه تعالى لا يوصف بالمستمع على الحقيقة لان الاستماع جار مجرى الاصغاء والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية ومنه قوله تعالى قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ويقال استمع الى حديثه وسمع حديثه أصغى اليه وأدركه بحاسة السمع ومنه قوله عليه الصلاة والسلام من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه البرم وهو الكحل المذاب ويروى البيرم وهو بزيادة الياء (فان قيل) لم قال معكم بلفظ الجمع وهما اثنان (أجيب) بأنه تعالى أجراهما مجرى الجمع تعظيما لهما أو معكما ومع بنى اسرائيل بسمع ما يجيبكم فرعون (فأتيا) أى فتسبب عن ذهاب ماذكرت بالحراسة والحفظ انى أقول لكما ائتيا (فرعون) نفسه وان عظمت مملكته وجلت جنوده (فقولا) أى ساعة وصولكما له ولمن عنده (انا رسول رب العالمين) أى المحسن الى جميع الخلق المدبر لهم مصالحهم (فان قيل) هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله تعالى انا رسولا ربك (أجيب) بأن الرسول يكون بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وأما ههنا فهو اما لانه مصدر بمعنى الرسالة والمصدر يوحد ومن مجىء رسول بمعنى الرسالة قوله

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم * بسر ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة والواشون الساعون بالكذب عند ظالم وما فهت بمعنى ما تكلمت واما لانهما ذوا شريعة واحدة فنزلا منزلة رسول واما لانه من وضع الواحد موضع التثنية لتلازمهما فصارا كالشيئين المتلازمين كالعينين واليدين وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولى ووكيلى وهذان رسولى ووكيلى وهؤلاء رسولى ووكيلى كما قال تعالى وهم لكم عدو ثم ذكر له ما قصد من الرسالة اليه فقال معبرا باداة التفسير لان الرسول فيه بمعنى الرسالة التى تتضمن القول (أن) أى بأن (أرسل) أى خل وأطلق وأعاد الضمير على معنى رسول فقال (معنا بنى اسرائيل) أى قومنا الذين استعبدتهم ظلما ولا سبيل لك عليهم نذهب بهم الى الارض المقدسة التى وعدنا الله تعالى بها على ألسنة الانبياء من آبائنا عليهم الصلاة والسلام وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفا ويروى أن موسى رجع مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصاه ومكتل معلق فى رأس العصا وفيه زاده فدخل داره نفسه وأخبر هرون بأن الله تعالى أرسلنى الى فرعون وأرسل اليك حتى ندعو فرعون الى الله تعالى فخرجت أمهما وصاحت وقالت ان فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما اليه قتلكما فلم يمتنع بقولها وذهبا الى باب فرعون ليلا ودقا الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب ويروى أن البواب اطلع عليهما وقال من بالباب ومن أنتما فقال موسى انا رسول رب العالمين فذهب البواب الى فرعون وقال ان مجنونا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه وقيل لم يؤذن لهما الى سنة فدخلا عليه وأديا رسالة الله عز وجل فعرف فرعون موسى لانه نشأ فى بيته فلما عرفه (قال) له منكرا عليه (ألم نربك) حذف فأتيا فرعون فقالا له ذلك لانه معلوم لا يشتبه وهذا النوع من الاختصار كثير فى القرآن

(فينا) أى فى منازلنا (وليدا) أى صغيرا قريبا من الولادة بعد فطامه (ولبثت فينا) أى فى عزنا باعتبار انقطاعك الينا وتعززك بنا (من عمرك سنين) ثلاثين سنة فمالك عليك من الحق ينبغى أن يمنعك من مواجهتنا بمثل هذا وكأنه عبر عما يفهم النكد كناية عن مدة مقامه عنده بأنها كانت نكدة لانه وقع فيما كان يخافه وفاته ما كان يحتاط به من ذبح الاطفال وكان موسى يلبس من ملابس فرعون ويركب من مراكبه وكان يسمى ابنه وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء والباقون بالادغام ولما ذكر ما يحمله على الحياء منه ذكره ذنبا يخاف من عاقبته فقال مهوّلا له بالكناية (وفعلت فعلتك) أى من قتل القبطى ثم أكد نسبته الى ذلك مشيرا الى أنه عامله بالحلم تخجيلا له فقال (التى فعلت وأنت) أى والحال انك (من الكافرين) قال الحسن والسدى من الكافرين بالهك ومعناه على ديننا هذا الذى تعيبه وقال أكثر المفسرين أى الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد يقول ربيناك فكافأتنا ان قتلت منا نفسا وكفرت بنعمتنا وهذا رواية العوفى عن ابن عباس وقال ان فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية (قال) له موسى مجيبا على طريقة النشر المشوّش واثقا بوعد الله تعالى بالسلامة (فعلتها اذا) أى اذ قتلته (وأنا من الضالين) أى من الجاهلين بأن ذلك يؤدى الى قتله أو والمخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل قال ابن جرير والعرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال وقيل لا أعرف ذنبا فانا وانى من كل جهة حتى يوجهنى ربى الى ما شاء (ففررت) أى فتسبب عن فعلها انى فررت (منكم) أى منك لسطوتك ومن قومك لاغرائهم اياك علىّ (لما خفتكم) على نفسى أن تقتلونى بذلك القتيل الذى قتلته خطأ وأنا ابن اثنتى عشرة سنة مع كونه كافرا مهدر الدم (فوهب لى ربى) الذى أحسن الىّ بتربيتى عندكم تحت كنف أمى آمنة علىّ مما أحذرتم من الظلم (حكما) أى علما وفهما وقيل نبوّة (وجعلنى من المرسلين) أى فاجهد الآن جهدك فانى لا أخافك لقتل ولا غيره ولما اجتمع فى كلام فرعون منّ وتعيير بدأ بجوابه عن التعيير لانه الاخير فكان أقرب ولانه أهم وهو معنى ما تقدم من أنه على طريقة النشر المشوّش بأن بدأ بالاخير قبل الاوّل ولهذا كرّ على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من أصله وجعله مبكتا منكرا عليه غير أنه حذف حرف الانكار اجمالا فى القول واحسانا فى الخطاب وأبى أن تسمى نعمته الا نقمة بقوله (وتلك) أى التربية الشنيعة العظيمة فى الشناعة التى ذكرتها (نعمة تمنها علىّ أن عبدت) أى تعبيدك وتذليلك قومى (بنى اسرائيل) أى جعلتهم عبيدا ظلما وعدوانا وهم أبناء الانبياء وسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة باحياء نفوسكم أولا وعتق رقابكم ثانيا ما لا تقدرون له على جزاء أصلا ثم ما كفاك ذلك حتى فعلت ما لم يفعله مستعبد فأمرت بقتل أبنائهم فكان ذلك سبب وقوعى اليك لاسلم من ظلمك ولو لم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ولم يلقونى فى اليم فكيف تمن علىّ بذلك وقيل معناه انك تدعى أن بنى اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد فى تربيته وقال الحسن انك استعبدت بنى اسرائيل فأخذت أموالهم وأنفقت منها علىّ فلا نعمة لك بالتربية وقيل ان الذى

تولى تربيتى هم الذين استعبدتهم فلا منة لك على لان التربية كانت من قبل أمى ومن قومى ليس لك الا مجرد الاسم وهذا ما بعد انعاما (فان قيل) لم جمع الضمير فى منكم وخفتكم مع افراده فى تمنها وعبدت (أجيب) بأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله كما مرت الاشارة اليه بدليل قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد * ولما قال له بوابه ان ههنا من يزعم انه رسول رب العالمين وأدخله عليه (قال) له (فرعون) عند دخوله حائدا عن جوابه منكرا الخالقه على سبيل التجاهل كما أنكر هؤلاء الرحمن متجاهلين وهم أعرف الناس بغالب أفعاله كما كان فرعون يعرف لقول موسى عليه الصلاة والسلام لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر (وما رب العالمين) أى الذى زعمتما أنكما رسوله وانما أتى بما دون من لانها يسئل بها عن طلب الماهية كقولك ما العنقاء ولما كان جواب هذا السؤال لا يمكن تعريفه الا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب فى ذاته عدل موسى عليه السلام الى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى كما قال تعالى اخبارا عنه (قال رب) أى خالق ومبدع ومدبر (السموات) كلها (والارض) وان تباعدت أجرامها بعضها من بعض (وما بينهما) أى بين السموات والارض فأعاد ضمير التثنية على جمعين اعتبارا بالجنسين وخصه بهذه الصفات لانها أظهر خواصه وآثاره وفيه ابطال لدعواه انه اله ومعنى قوله (ان كنتم موقنين) أى ان كان يرجى منكم الايقان الذى يؤدى اليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب والا لم ينفع أو ان كنتم موقنين بشئ قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وانارة دليله ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق (قال) فرعون (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس وكانوا خمسمائة رجل عليهم الاسورة وكانت للملوك خاصة (الا تستمعون) جوابه الذى لم يطابق السؤال سألته عن حقيقته وهو يجيبنى بالفاعلية ولما كان يمكن أن يعتقد أن السموات والارضين واجبة لذاتها فهى غنية عن الخالق (قال) لهم موسى زيادة فى البيان (ربكم ورب آبائكم الاولين) فعدل عن التعريف بخالقية السموات والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقهم ولآبائهم اذ لا يمكن أن يعتقد فى نفسه وفى آبائه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لان المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته واستحال وجوده الا بالمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر أظهر ولكن فرعون لم يكتف بذلك ولهذا (قال ان رسولكم) على طريق التهكم اشارة الى أن الرسول ينبغى أن يكون أعقل الناس ثم زاد الامر بقوله (الذى أرسل اليكم) أى وأنتم أعقل الناس (لمجنون) لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فكيف يصلح للرسالة من الملوك فلما قال ذلك عدل موسى عليه السلام الى طريق ثالث أوضح من الثانى بأن (قال رب المشرق والمغرب) أى الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما (وما بينهما) من المخلوقات لان التدبير المستمر على هذا الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر قادر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع نمروذ فانه

قوله على جمعين لا يخفى ان الارض مفرد لا جمع وفى الكشاف فان قلت كيف قيل وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع قلت أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال فى الهيجا جمالين اه فتأمل اه مصححه

استدل

استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه الصلاة والسلام بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمروذ انا أحيي وأميت فقال ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله (ان كنتم تعقلون) فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك الا ماذكرت لك لانك طلبت منى تعريف حقيقته ولا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا باجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وقد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فمن كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن سؤالك الا ماذكرته لك فلما انقطع فرعون عن الجواب ولزمته الحجة تكبر عن الحق وعدل الى التخويف بأن (قال لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) أى واحدا ممن هم فى سجنى على ماتعلم من حالى فى اقتدارى ومن سجونى وفظاعتها ومن حال من فيها من شدة الحصر والغلظ فى الحجر قال الكلبي كان سجنه أشد من القتل لانه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الارض بعيدة العمق وحده لا يسمع ولا يبصر فيها شيأ وقرأ ابن كثير وحفص وعاصم باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام ثم ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق فرعون قلبه به فيعدل عن وعيده بأن (قال) مدافعا بالتى هى أحسن ارخاء للعنان لازادة البيان معنى لا يبقى معه عذر ولا نسيان لان من العادة الجارية السكون الى الانصاف والرجوع الى الحق والاعتراف (أولو) أى أتسجننى ولو (جئتك بشيء مبين) أى هل يحسن أن يذكر هذا مع اقتدارى على أن آتيك بشيء بدليلين يدلان على وجود الله تعالى وعلى أنى رسوله فعند ذلك (قال) طمعا فى أن يجد موضعا للتكذيب أو التلبيس (فأت به) أى تسبب عن قولك هذا أنى أقول ائت بذلك الشيء (ان كنت من الصادقين) أى فيما ادعيت من الرسالة *(تنبيه)* الواو فى أولو جئتك واو الحال وليتها الهمزة بعد حذف الفعل كما علم من التقرير (فان قيل) كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشيء مبين أى بآية بينة والمعجز لا يدل على ذلك كدلالة سائر ما تقدم (أجيب) بأنه يدل بما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى أنه صادق فى ادعاء الرسالة فالذى ختم به كلامه ما تقدم (فألقى) أى فتسبب عن ذلك وتعقبه أن ألقى موسى (عصاه) التى تقدم فى غير سورة ان الله تعالى أراه اياها ولم يصرح باسمه اكتفاء بضميره لانه غير ملتبس (فاذا هى ثعبان) أى حية فى غاية الكبر (مبين) أى ظاهر ثعبانيته روى انها لما انقلبت حية ارتفعت الى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أسألك بالذى أرسلك الا ما أخذتها فأخذها فعادت عصا (فان قيل) كيف قال هنا ثعبان مبين وفى آية أخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان الى الكبر (أجيب) بأن الحية اسم الجنس ثم لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل أنها كانت صغيرة

كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أراه آية العصا قال فرعون هل غيرها قال نعم (ونزع يده) أى التى كانت احترقت لما أخذ الجمرة وهو فى حجر فرعون وبذل فرعون جهده فى علاجها بجميع من قدر عليه من الاطباء فعجزوا عن ابرائها نزعها من جيبه بعد ان أراه اياها على ما يعهده منها ثم أدخلها فى جيبه (فاذا هى) بعد النزع (بيضاء للناظرين) يضىء الوادى من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر ويسد الافق فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر أمورا أولها ان (قال للملا حوله) لما رضخ له الامر يموه على عقولهم خوفا من ايمانهم (ان هذا لساحر عليم) أى شديد المعرفة بالسحر حوله حال من الملا ومفعول القول قوله ان هذا الساحر عليم ولما أوقعهم بما جبلهم به أحماهم لانفسهم فقال ملقيا لجلباب الالهية لما قهره من سلطان المعجزة (يريد أن يخرجكم من أرضكم) أى هذه التى هى قوامكم (بسحره) أى بسبب ما أتى به فانه يوجب استتباع الناس فيتمكن مما يريد ثم قال لقومه الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه الههم ما دل على أنه صارت قواه تحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه لما استولى عليه من الدهش والحيرة حتى جعل نفسه مأمورا بعد أن كان يدعى كونه آمرا بل الها قادرا (فماذا تأمرون) أى فى مدافعته عما يريد بنا (قالوا) أى الملأ الذين كانوا حوله (أرجئه وأخاه) أى أخر أمرهما ومناظرتهما الى اجتماع السحرة ولم يأمر بقتلهما ولا بما يقاربه فسبحان من يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شئ ولا يهاب هو غير خالقه وقرأ قالون بغير همز واختلاس كسرة الهاء وورش والكسائى بغير همز واشباع حركة كسرة الهاء وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة وصلة الهاء مضمومة وأبو عمرو بالهمزة وضم الها مقصورة وابن ذكوان بالهمزة وكسر الهاء مقصورة وعاصم وحمزة بغير همز واسكان الهاء (وابعث فى المدائن حاشرين) أى رجالا يحشرون السحرة وأصل الحشر الجمع بكره وقيل ان فرعون أراد قتل موسى فقالوا له لا تفعل فانك ان تقتله دخلت الناس شبهة فى أمره ولكن أخره واجمع له سحرة ليقاوموه ولا يثبت له عليك حجة وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم (يأتوك بكل سحار) أى بليغ فى السحر فجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا من بعض قلقه (عليم) أى متناه فى العلم به بعد ما تناهى فى السحرية وعبر بالبناء للمفعول فى قوله (فجمع السحرة) اشارة الى عظمة ملكه أى بأيسر أمر لما له عندهم من العظمة (لميقات يوم معلوم) أى فى زمانه ومكانه وهو ضحى يوم الزينة كما مر فى طه وعن ابن عباس وافق يوم السبت من أول يوم من سنتهم وهو يوم النيروز (وقيل) أى يقول من يقبل لكونه عن فرعون (للناس) أى عامة وقوله (هل أنتم مجتمعون) فيه استبطاء لهم فى الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم كما يقول الرجل لغلامه هل أنت منطلق اذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق كأنما يخيل له ان الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول تأبط شرا اسم شاعر

هل

هل أنت باعث دينار لحاجتنا * أو عبد رب أخا عون بن مخراق

أى هل أنت حث على ارسال دينار أو عبد رب اسمى رجلين والثانى منصوب على محل الاول وأخا عون منادى أو عطف بيان له وعليه اقتصر الكشاف (لعلنا نتبع السحرة) أى فى دينهم (ان كانوا هم الغالبين) أى لموسى فى دينه ولا نتبع موسى فى دينه وليس غرضهم اتباع السحرة وانما الغرض الكلى أن لا يتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية لانهم اذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى وقيل أرادوا بالسحرة موسى وهرون وقالوا ذلك على طريق الاستهزاء وعبر بالفاء فى قوله (فلما جاء السحرة) أى الذين كانوا فى جميع بلاد مصر ايذانا بسرعة حشرهم لفخامة ملكه ووفور عظمته (قالوا لفرعون) مشترطين الاجر فى حال الحاجة الى الفعل ليكون ذلك أجدر بحسن الوعد ومجاز التعهد (أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين) موسى وأتوا بأداة الشك مع جزمهم بالغلبة تخويفا له بأنه ان لم يحسن فى وعدهم لم ينصحوا له (قال) مجيبا الى ما سألوا (نعم) لكم ذلك وقرأ الكسائى بكسر العين والباقون بالفتح وزادهم بما لا أحسن منه عند أهل الدنيا مؤكدا بقوله (وانكم اذا) أى اذا غلبتم (لمن المقربين) أى عندى وزاد اذا هنا زيادة فى التأكيد ولما قال لهم فرعون ذلك قالوا لموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (قال لهم موسى) أى مريدا لابطال سحرهم لانه لا يتمكن منه الا بالقائهم (ألقوا ما أنتم ملقون) فان قيل كيف أمرهم بفعل السحر أجيب بأنه لم يرد بذلك أمرهم بالسحر والتمويه بل الاذن بتقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلا به الى اظهار الحق (فألقوا) أى فتسبب عن قول موسى عليه السلام وتعقبه أن ألقوا (حبالهم وعصيهم) أى التى اعدوها للسحر (وقالوا) مقسمين (بعزة فرعون) وهى من أيمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله ولا يصح فى الاسلام الا الحلف بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته كقولك والله والرحمن ورب العرش وعزة الله وقدرة الله وجلال الله وعظمة الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت ولا تحلفوا الا بالله ولا تحلفوا بالله الا وأنتم صادقون ولقد استحدث الناس فى هذا الباب فى اسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الاولى وذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شئ لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه فاذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التى ليس وراءها حلف لحالف ثم انهم أكدوا يمينهم بأنواع من التوكيد بقولهم (انا لنحن) أى خاصة لا نستثنى (الغالبون) وذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم أو لاتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى) أى فتسبب عن صنع السحرة وتعقبه أن ألقى (موسى عصاه) التى جعلت آية له وتسبب عن القائه قوله تعالى (فاذا هى تلقف) أى تبتلع فى الحال بسرعة وهمة (ما يأفكون) أى ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم ويزورونه فيخيلون فى حبالهم وعصيهم انها حيات تسعى بالتمويه على الناظرين أو افكهم سمى تلك الاشياء افكا مبالغة وقرأ حفص بسكون اللام وتخفيف القاف وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف وشدد البزى التاء فى الوصل

قوله اى هل أنت عبارة الكشاف يريد ابعثه الينا مسرعا ولا تبطئ به اه

وخففها الباقون (فألقى السحرة) أى عقب فعلهما من غير تلبث (ساجدين) أى فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كان ملقيا ألقاهم من قوة اسراعهم علما منهم بأن هذا من عند الله فأمسوا أتقياء بررة بعد ما جاؤا فى صبح ذلك اليوم سحرة كفرة روى أنهم قالوا ان يك ما جاء به موسى سحرا فلن يغلب وان يك من عند الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به علموا أنه من عند الله فآمنوا وعن عكرمة أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء وانما عبر عن الخرور بالالقاء لانه ذكر مع الالقاآت فسلك به طريقة المشاكلة وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة انهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم الى الارض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا (فان قيل) فاعل الالقاء ما هو لو صرح به (أجيب) بأنه الله تعالى بما خولهم من التوفيق أو ايمانهم أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة قال الزمخشرى ولك أن لا تقدر فاعلا لان القوا بمعنى خروا وسقطوا * ولما كان كأنه قيل هذا فعلهم فما كان قولهم قيل (قالوا آمنا برب العالمين) أى الذى دعا اليه موسى عليه السلام أول ما تكلم وقولهم (رب موسى وهرون) عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعى الربوبية وأرادوا أن يعدلوه ومعنى اضافته اليهما فى ذلك المقام انه الذى دعا اليه موسى وهرون عليهما السلام * ولما آمن السحرة بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول قومه ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وبصيرتهم لم يؤمنوا الا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون طريقهم فلبس على القوم وبالغ فى التنفير عن موسى من وجوه أحدها أن (قال آمنتم له) أى لموسى (قبل أن آذن) أى أنا (لكم) فمسارعتكم الى الايمان به دالة على ميلكم اليه * (تنبيه) * ههنا همزتان مفتوحتان قرأ الجميع بابدال الثانية ألفا وحقق الثانية حمزة والكسائى وشعبة وسهلها الباقون غير حفص فانه أسقط الاولى والثانية عنده هى المبدوء بها ثانيها قوله (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذا تصريح بما رمز به أولا وتعريض منه بأنهم فعلوا ذلك عن مواطاة بينهم وبين موسى وقصروا فى السحر ليظهروا أمر موسى والا ففى قوة السحر أن تفعلوا مثل ما يفعل ثالثها قوله (فلسوف تعلمون) وهو وعيد وتهديد شديد رابعها قوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى (ولاصلبنكم أجمعين) وهذا الوعيد من أعظم الاهلاكات ثم انهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين الاول قولهم (قالوا لا ضير) أى لا ضرر علينا وخبر لا محذوف تقديره فى ذلك (انا) أى بفعلك ذلك فينا ان قدرك الله تعالى عليه (الى ربنا) الذى أحسن الينا بالهداية بعد موتنا بأى وجه كان (منقلبون) أى راجعون فى الآخرة الثانى قولهم (انا نطمع) أى نرجو (أن يغفر) أى يستر سترا بليغا (لنا ربنا خطايانا) أى التى قدمناها على كثرتها ثم عللوا طمعهم مع كثرة الخطايا بقولهم (أن كنا) أى كوناهو لنا كالجبلة (أول المؤمنين) أى من أهل هذا المشهد أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم ولما ظهر من أمر فرعون ما شاهدوه وخيف أن يقع منه ببنى اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا فى قوم موسى عليه السلام ما يؤدى الى الاستئصال أمره الله تعالى أن يسرى بهم كما قال

تعالى (وأوحينا) أى بما لنا من العظمة حين أردنا فصل الامر وانجاز الموعود (الى موسى
أن أسر) ليلا (بعبادى) وذلك بعد سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات
فلم يزيدوا الا عتوا وفسادا وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون ووصل الهمزة بعدها من سرى
وقرأ الباقون بسكون النون وقطع الهمزة بعدها ثم علل أمره له بالسير فى الليل بقوله تعالى
(انكم متبعون) أى لا تظن أنهم لكثرة ما رأوا من الآيات يكفون عن اتباعكم فأسرع
بالخروج لتبعدوا عنهم الى الموضع الذى قدرت فى الازل أن يظهر بحرى والمراد توافقهم عند
البحر ولم يكتم اتباعهم عن موسى لعدم تأثره به والمعنى انى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن
تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم ويسلكوا مسلككم من طريق البحر فأطبقه عليهم
روى أنه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه
وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى أن اجمع بنى اسرائيل كل أربعة أبيات فى بيت ثم اذبحوا
الجداء واضربوا بدمائها أبوابكم فانى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم وآمرهم
بقتل أبكار القبط واختبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم اسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر
فيأتيك أمرى وروى أن قوم موسى قالوا القوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا ثم استعاروا
منهم حليهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جانب البحر فلما سمع فرعون ذلك
جمع قومه وتبعهم كما قال تعالى (فأرسل فرعون) أى لما أصبح وعلم بهم (فى المدائن حاشرين)
أى رجالا يجمعون الجنود بقوة وسطوة وان كرهوا ويقولون تقوية لقلوبهم وتحريكا لهممهم
(ان هؤلاء) اشارة بأداة القرب تحقيرا لهم الى انهم فى القبضة وان بعدوا لما بهم من العجز
وبآل فرعون من القوة فليسوا بحيث يخاف قوتهم (لشرذمة) أى طائفة وقطعة من الناس
(قليلون) أى بالنسبة الى مالنا من الجنود التى لا تحصى فذكرهم أولا بالاسم الدال على القلة
بالشرذمة وهى الطائفة القليلة ومنها قولهم ثوب شرذم للذى بلى وتقطع قطعا ثم جعلهم قليلا
بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة مع انهم
كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا وسماهم بشرذمة قليلين وذلك بالنسبة لما أرسله خلفهم فان الذى
أرسله فرعون فى اثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور ومع كل ملك ألف وخرج فرعون
فى جمع عظيم وكان مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس
خرج فرعون فى ألف ألف حصان سوى الاناث فلذلك استقل قوم موسى قال الزمخشرى
ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع
عليهم غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا كما قال تعالى عنهم
(وانهم لنا لغائظون) أى بما فعلوه بنا من أنفسهم وبما استعاروه من الزينة من الأوانى
الذهب والفضة وفاخر الكسوة فلا رحمة فى قلوبهم بجمعهم (وانا لجميع حذرون) أى
من عادتنا الحذر والتيقظ واستعمال الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى
حسم فساده وهذه معاذير اعتذر بها الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه

وقرأ ابن ذكوان والكوفيون بألف بعد الحاء والباقون بغير ألف قال أبو عبيدة والزجاج هما
بمعنى واحد يقال رجل حذر وحذور وحاذر بمعنى وقيل بل بينهما فرق فالحذر المتيقظ والحاذر
الخائف وقيل الاول للتجدد لانه اسم فاعل والثانى للثبات لانه صفة مشبهة وقيل الحاذر
المتسلح الذى له شوكة السلاح وهو أيضا من الحذر لان ذلك انما يفعل حذرا يحكى انه كان
يتصرف فى خراج مصر وأنه يجزئه أربعة أجزاء أحدها للوزرائه وكتابه وجنده والثانى لحفر
الانهار وعمل الجسور والثالث له ولولده والرابع يفرق فى المدن فان لحقهم ظلم او ظمأ
أو اشتجار أو فساد غلة أو موت عوامل قوّاهم به ويروى انه قصده قوم فقالوا نحتاج الى أن نحفر
خليجا لنعمر ضياعنا فأذن فى ذلك واستعمل عليهم عاملا فاستكثر ما حمل من خراج تلك الناحية
الى بيت المال فسأل عن مبلغ ما أنفقوه فى خليجهم فاذا هو مائة ألف دينار فأمر بحملها اليهم
فامتنعوا من قبولها فقال اطرحوها عليهم فان الملك اذا استغنى بمال الرعية يعنى رعيته افتقر
وان الرعية اذا استغنت بمال ملكهم استغنى واستغنوا ولما كان التقدير فأطاعوا
أمره ونفروا على كل صعب وذلوا عطف عليه قوله تعالى بما آل اليه أمرهم (فأخرجناهم)
أى فرعون وجنوده بما لنا من القدرة من مصر ليلحقوا بموسى وقومه اخراجا حثيثا مما لا يسمح
أحد بالخروج منه (من جنات) أى بساتين كانت على جانبى النيل يحق لها أن تذكر
(وعيون) أى أنهار جارية فى الدور من النيل وقيل عيون تخرج من الارض لا يحتاج معها
الى نيل ولا مطر (وكنوز) أى أموال ظاهرة من الذهب والفضة وسميت كنوزا لانه لم يعط
حق الله منها ومالم يعط حق الله تعالى منه فهو كنز وان كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثمانمائة
ألف غلام كل غلام على فرس عتيق فى عنق كل فرس طوق من ذهب (ومقام) من المنازل
(كريم) أى مجلس حسن للامراء والوزراء يحفه اتباعهم وعن الضحاك المنابر وقيل
السرر فى الحجال وذكر بعضهم انه كان اذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلثمائة كرسى من
ذهب يجلس عليها الاشراف عليهم الاقبية من الديباج مخوّصة بالذهب (كذلك) أى
اخراجنا كما وصفنا (وأورثناها) أى تلك النعم السنية بمجرد خروجهم بالقوة وبعد اغراق
فرعون وجنوده بالفعل (بنى اسرائيل) أى جعلناهم بحيث يرثونها لانا لم نبق لهم مانعا يمنعهم
منها بعد ان كانوا مستعبدين بين أيدى أربابها واستشكل ارثهم لها بالفعل لقوله تعالى
فى الدخان قوما آخرين وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى فى ذلك المحل بل قيل ان بنى
اسرائيل لم يرجعوا الى مصر بعد ذلك ولما وصف تعالى الاخراج وصف أثره بقوله تعالى مرتبا
عليه بالفعل وعلى الايراث بالقوة (فأتبعوهم) أى جعلوا أنفسهم تابعة لهم (مشرقين) أى
داخلين فى وقت شروق الشمس بطلوعها صبيحة الليلة التى سار فيها بنو اسرائيل ولولا تقدير
العزيز العليم بخرق ذلك للعادة لم يكن ذلك على حكم العادة فى أقل من عشرة أيام فانه تعجز الملوك
عن مثله واستمروا الى ان لحقوهم عند بحر القلزم (فلما تراءى الجمعان) أى رأى كل منهما
الآخر (قال أصحاب موسى) ضعفا وعجزا استعظاما لما كانوا فيه عندهم من الذل ولانهم

أقل منهم بكثير بحيث يقال ان طليعة آل فرعون كانت على عدد بنى اسرائيل وذلك محقق لتقليل فرعون لهم وكانه عبر عنهم بأصحاب دون بنى اسرائيل لانه كان قد آمن كثير من غيرهم (انا لمدركون) أى يدركنا فرعون وقومه وقد صرنا بين سدين العدو وراءنا والبحر أمامنا ولا طاقة لنا بذلك (قال) أى موسى عليه السلام وثوقا بوعد الله تعالى (كلا) أى لا يدركونكم أصلا ثم علل ذلك تسكينا لهم بقوله (ان معى ربى) أى بنصره فكأنهم قالوا وماعساه يفعل وقد وصلونا قال (سيهدين) أى يدلنى على طريق النجاة روى ان مؤمن آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال أين تذهب فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال أمرت بالبحر ولعلى أومر بما أصنع (فأوحينا) أى فتسبب عن كلامه الدال على المراقبة أنا أوحينا ونوه باسم الكليم جزاء له على ثقته به سبحانه وتعالى فقال تعالى (الى موسى) وفسر الوحى الذى فيه معنى القول بقوله تعالى (أن اضرب بعصاك البحر) أى الذى أمامكم وهو بحر القلزم الذى يتوصل أهل مصر منه الى الطور والى مكة المشرفة وماوالاها وقيل النيل فضربه (فانفلق) بسبب ضربه لما ضربه امتثالا لامر ربه وصار اثنى عشر فرقا على عدد اسباطهم (فكان كل فرق) أى جزء وقسم عظيم منه (كالطود) أى الجبل فى اشرافه وطوله وصلابته بعدم السيلان (العظيم) المتطاول فى السماء الثابت فى قعره لا يتزلزل لان الماء كان منبسطا فى أرض البحر فلما انفلق وانكشفت فيه الطريق انضم بعضه الى بعض فاستطال وارتفع فى السماء بين تلك الاجزاء مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب قال الزجاج لما انتهى موسى الى البحر هاجت الريح والبحر يرمى بموج كالجبال فقال يوشع يا كليم الله يابن امرأة عمران قد غشينا فرعون والبحر أمامنا فقال موسى ههنا فخاض يوشع الماء وجاز البحر ما يوارى حافر دابته الماء وقال الذى يكتم ايمانه يا كليم الله أين أمرت قال ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه ثم أقحمه البحر فارتسب فى الماء وصنع القوم مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق فان الرجل على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده روى ان موسى قال عند ذلك يامن كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ وهذا معجز عظيم من وجوه أحدها أن تفرق ذلك الماء معجز وثانيها ان اجتماع ذلك الماء فوق كل فرق منه حتى صار كالجبل معجز أيضا وثالثها انه ثبت فى الخبر انه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذى تكامل معه عدد بنى اسرائيل وهذا معجز ثالث ورابعها ان جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ينظر بعضهم الى بعض وهذا معجز رابع وخامسها ان ابقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب آل فرعون فطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص موسى عليه السلام وهذا معجز خامس *(فائدة)* لكل من جميع القراء فى الراء من فرق الترقيق والتفخيم ولما كان التقدير وأدخلنا كل شعب منهم فى طريق من تلك الطرق عطف عليه (وأزلفنا) أى قربنا بعظمتنا (ثم) أى هنالك (الآخرين) أى فرعون

وقومه حتى سلكوا مسالكهم وقال أبو عبيدة وأزلفنا أخلفنا ومنه ليلة المزدلفة أى ليلة الجمع عن عطاء بن السائب ان جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بنى اسرائيل ويقول ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط ويقول رويدكم ليلحق آخركم أولكم (وأنجينا موسى ومن معه) وهم من تبعوه من قومه وغيرهم (أجمعين) أى لم نقدر على أحد منهم الهلاك بل أخرجناهم من البحر على هيئته المذكورة (ثم أغرقنا الآخرين) أى فرعون وقومه أجمعين بانطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بنى اسرائيل منه ويقال هذا البحر بحر القلزم وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له اساف (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات (لآية) أى علامة عظيمة دالة على قدرة الله تعالى لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته وكون وقوعه مصلحة فى الدين والدنيا وعلى صدق موسى لكونه معجزة له وعلى التحذير عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه قد يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره (وما كان أكثرهم) أى أهل مصر الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها (مؤمنين) أى متصفين بالايمان الثابت اما القبط فما آمن منهم الا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التى دلتهم على عظام يوسف عليه السلام وأما بنو اسرائيل فكان كثير منهم متزلزلا يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر حتى تداركهم الله تعالى على يدى موسى عليه السلام ومن بعده وأول ما كان من ذلك سؤالهم اثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم الها كالاصنام التى مروا عليها وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف وأمرهم مشاهد مكشوف فقد سألوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة (وان ربك) أى المحسن اليك باعلاء أمرك واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك (لهو العزيز) أى القادر على الانتقام من كل فاجر (الرحيم) بعباده لانه تعالى أفاض عليهم نعمه وكان قادرا على أن يهلكهم فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ولما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من قصة موسى عليه السلام ليعرف محمدا صلى الله عليه وسلم ان تلك المحن التى أصابته كانت حاصلة لموسى أتبعه دلالة على رحمته وزيادة فى تسلية نبيه قصة ابراهيم عليه السلام وهى القصة الثانية بقوله تعالى (واتل) أى اقرأ قراءة متتابعة بأشرف الخلق (عليهم) أى كفار مكة وقوله تعالى (نبأ) أى خبر (ابراهيم) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بتسهيل الهمزة الثانية وحققها الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه (اذ) اى حين (قال لابيه وقومه) منبها لهم على ضلالهم لا مستعلما لانه كان عالما بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله (ما) اى اى شئ (تعبدون) اى تواطئون على عبادته ليريهم ان ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ كما تقول للتاجر ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال (قالوا) فى جوابه (نعبد اصناما) فان قيل قوله عليه السلام ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب

وقومه حتى سلكوا مسالكهم وقال أبو عبيدة وأزلفنا أخلفنا ومنه ليلة المزدلفة أى ليلة الجمع عن عطاء بن السائب ان جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بنى اسرائيل ويقول ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط ويقول رويدكم ليلحق آخركم أولكم (وأنجينا موسى ومن معه) وهم من تبعوه من قومه وغيرهم (أجمعين) أى لم نقدر على أحد منهم الهلاك بل أخرجناهم من البحر على هيئته المذكورة (ثم أغرقنا الآخرين) أى فرعون وقومه أجمعين بانطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بنى اسرائيل منه ويقال هذا البحر بحر القلزم وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له اساف (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات (لآية) أى علامة عظيمة دالة على قدرة الله تعالى لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته وكون وقوعه مصلحة فى الدين والدنيا أو على صدق موسى لكونه معجزة له وعلى التحذير عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه قد يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره (وما كان أكثرهم) أى أهل مصر الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها (مؤمنين) أى متصفين بالايمان الثابت اما القبط فما آمن منهم الا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التى دلتهم على عظام يوسف عليه السلام وأما بنو اسرائيل فكان كثير منهم متزلزلا يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر حتى تداركهم الله تعالى على يدى موسى عليه السلام ومن بعده وأول ما كان من ذلك سؤالهم اثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم الها كالاصنام التى مروا عليها وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف وأمرهم مشاهد مكشوف فقد سألوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة (وان ربك) أى المحسن اليك باعلاء أمرك واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك (لهو العزيز) أى القادر على الانتقام من كل فاجر (الرحيم) بعباده لانه تعالى أفاض عليهم نعمه وكان قادرا على أن يهلكهم فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ولما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من قصة موسى عليه السلام ليعرف محمدا صلى الله عليه وسلم ان تلك المحن التى أصابته كانت حاصلة لموسى أتبعه دلالة على رحمته وزيادة فى تسلية نبيه قصة ابراهيم عليه السلام وهى القصة الثانية بقوله تعالى (واتل) أى اقرأ قراءة متتابعة بأشرف الخلق (عليهم) أى كفار مكة وقوله تعالى (نبأ) أى خبر (ابراهيم) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بتسهيل الهمزة الثانية وحققها الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه (اذ) اى حين (قال لابيه وقومه) منبها لهم على ضلالهم لا مستعلما لانه كان عالما بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله (ما) اى اى شئ (تعبدون) اى تواظبون على عبادته ليريهم ان ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ كما تقول للتاجر ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال (قالوا) فى جوابه (نعبد اصناما) فان قيل قوله عليه السلام ما تعبدون سؤال عن المعبود فحسب

نفسه فاذا تذكروا قالوا ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى الى القبول وأبعث الى الاستماع منه ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ولانه دخل فى باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لانه يتأمل فيه فربما قاده التأمل الى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعى رضى الله عنه ان رجلا واجهه بشئ فقال لو كنت بحيث أنت لاحتجت الى أدب وسمع رجل ناسا يتحدثون فى الحجر فقال ما هو بيتى ولا بيتكم وقوله (الا رب العالمين) اى مدبر هذه الاكوان كلها يصح أن يكون استثناء منقطعا بمعنى انهم عدو لى لا أعبدهم لكن رب العالمين فانى أعبده وأن يكون متصلا على أن الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله تعالى فكأنه قال الا رب العالمين فانه ليس بعدوى بل هو وليى ومعبودى * ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من انه على الضد الاقصى من كل ما عليه أصنامهم بقوله (الذى خلقنى) أى أوجدنى على هيئة التقدير والتصوير (فهو) أى فتسبب عن تفرده بخلقى انه هو لا غيره (يهدين) أى الى الرشاد ولا يعلم باطن المخلوق ويقدر على التصرف فيه غير خالقه ولا يكون خالقه الا سميعا بصيرا ضارا نافعا له الكمال كله وذكر الخلق بالماضى لانه لا يتجدد فى الدنيا والهداية بالمضارعة لتجددها وتكررها لانه تعالى لما أتم خلقه ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التى لا تنقطع الى كل ما يصلحه ويعينه والا فمن هداه الى أن يغتذى بالدم فى البطن امتصاصا ومن هداه الى معرفة الثدى عند الولادة والى معرفة مكانه ومن هداه لكيفية الارتضاع الى غير ذلك دينا ودنيا (والذى) أى (هو) لا غيره (يطعمنى ويسقين) أى يرزقنى ويغذينى بالطعام والشراب ولو أراد أعدم ما آكل وما أشرب أو أصابنى بآفة لا أستطيع معها أكلا ولا شربا ونبه بذكر الطعام والشراب على ما عداهما *(تنبيه)* يجوز فى والذى يطعمنى ويسقين أن يكون مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه وكذا الذى بعده ويجوز أن تكون أوصافا للذى خلقنى ودخول الواو جائز كقوله

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على ان كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم (واذا مرضت) أى باستيلاء بعض الاخلاط على بعض لما بينهما من التنافر الطبيعى (فهو) أى وحده (يشفين) أى بسبب تعديل المزاج بتعديل الاخلاط وقسرها على الاجتماع لا بطبيب ولا غيره (فان قيل) لم أضاف المرض الى نفسه مع أن المرض والشفاء من الله تعالى (أجيب) بأنه قال ذلك استعمالا لحسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فأردت أن أعيبها وقال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما وأجاب الرازى بأن أكثر أسباب المرض يحدث بتفريط الانسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قال الحكماء لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا التخم وبأن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه الى الله تعالى

ولا ينتقض ذلك باسناد الاماتة اليه كما سيأتي فان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال الموت لا يحصل الاحساس به انما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض ولان الارواح اذا كملت في العلوم والاخلاق كان بقاؤها في هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (والذي يميتني) بقبض روحي في الدنيا ليخلصني من آفاتها (ثم يحيين) للمجازاة في الآخرة كما شفاني من المرض ولهذا التراخي بين الموت والاحياء أتى بثم هنا لان الاماتة في الدنيا والاحياء في الآخرة ولما ذكر البعث ذكر ما يترتب عليه بقوله (والذي أطمع) هضما لنفسه واطراحا لاعماله (أن يغفر) أي يمحو أو يستر (لي خطيئتي) أي تقصيري عن أن أقدره حق قدره (يوم الدين) أي الجزاء روي ان عائشة قالت قلت يارسول الله ان ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه قال لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على قومه انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال (فان قيل) لم قال والذي أطمع والطمع عبارة عن الظن والرجاء وهو عليه السلام كان قاطعا بذلك (أجيب) بأن في ذلك اشارة الى أن الله تعالى لا يجب عليه لاحد شيء فانه يحسن منه تعالى كل شيء ولا اعتراض لاحد عليه في فعله (فان قيل) لم أسند لنفسه الخطيئة مع أن الانبياء معصومون (أجيب) بأن مجاهدا قال هي قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هي أختي ورد بأن هذه معاريض كلام وتخيلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار والاولى في الجواب أن استغفار الانبياء تواضع منهم لربهم وهضم لانفسهم ويدل عليه قوله أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة وفيه تعليم لاممهم وليكون لطفا لهم باجتنابهم المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة عما يفرط منهم (فان قيل) لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما المغفرة في الدنيا (أجيب) بأن أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفي لا يعلم ولما حكى الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه عليه ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته بقوله (رب) أي أيها المحسن الي (هب لي حكما) أي عملا متقنا بالعلم وقال ابن عباس معرفة حدود الله وأحكامه وقال الكلبي النبوة لان النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله ثم بين أن الاعتماد انما هو على محض الكرم فان من نوقش الحساب عذب بقوله (وألحقني بالصالحين) أي الذين جعلتهم أئمة للمتقين في الدنيا والآخرة وهم الانبياء والمرسلون وقد أجابه الله تعالى حيث قال وانه في الآخرة لمن الصالحين وفي ذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات (فان قيل) لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء ولا سيما روي عنه انه قال حسبي من سؤالي علمه بحالي (أجيب) بأنه عليه السلام انما ذكر ذلك حين اشتغاله بدعوة الخلق الى الحق لانه قال فانهم عدو لي الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لما أن الشارع لا بد له من تعليم الشرع فاما حين خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع اقتصر على قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي *(تنبيه)* الالحاق بالصالحين أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في المنزلة والدرجة في الجنة ثم انه عليه السلام طلب زيادة في الآخرة بقوله (واجعل لي لسان

صدق) أى ذكرا جميلا وقبولا عاما وثناء حسنا بما أظهرت من خصال الخير (فى الآخرين)
أى من الناس الذين يوجدون بعدى الى يوم الدين لأكون للمتقين اماما فيكون لى مثل
أجورهم فان من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة قال ابن عباس
أعطاه الله تعالى بقوله وتركنا عليه فى الآخرين أن أهل الأديان يتولونه و يثنون عليه وقد
جعله الله شجرة مباركة فرع منها الانبياء الذين أحيا الله تعالى بهم ذكره الذى من
أعظمه ما كان على لسان أعظمهم النبى الامى صلى الله عليه وسلم من قوله اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم الى آخره ولما طلب عليه السلام سعادة الدنيا وكان
لا انفع لها الا باتصالها بسعادة الآخرة التى هى الجنة طلبها بقوله (واجعلنى) أى مع
ذلك كله بفضلك ورحمتك (من ورثة جنة النعيم) لان فيها النظر الى وجه الله الكريم
وهو السعادة الكبرى وشبهها بالارث الذى يحصل بغير اكتساب اشارة الى أنها لا تنال الا بمنه
وكرمه لا بشئ من ذلك ولما دعا لنفسه ثنى بأحق الخلق ببره بقوله (واغفر لابى) بالهداية
والتوفيق الى الايمان لان المغفرة مشروطة بالايمان وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط
فقوله واغفر لابى كانه دعاء له بالايمان وقيل ان أباه وعده بالاسلام لقوله تعالى وما كان
استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فدعا له قبل أن يتبين له انه عدو لله كما سبق فى
سورة التوبة وقيل ان أباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا وتقية وخوفا
فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه
(انه كان من الضالين) فلولا اعتقاده فيه انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك وقيل ان
الاستغفار للكفار لم يكن ممنوعا اذ ذاك (ولا تخزنى) أى تفضحنى (يوم يبعثون) أى
العباد (فان قيل) كان قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم كافيا عن هذا وأيضا
قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط كيف يخافه
المعصوم (أجيب) بأن حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار خزى
المقربين وخزى كل واحد بما يليق به ولما نبه عليه السلام على ان المقصود هو الآخرة صرح
بالتنزيه فى الدنيا بقوله (يوم لا ينفع) أى أحدا (مال) أى يفتدى به أو يبذله لشافع
أو ناصر وقاهر (ولا بنون) ينتصر بهم أو يعتضد فكيف بغيرهم وفى استثنائه قوله (الا من)
أوجه أحدها انه منقطع وجرى عليه الجلال المحلى أى لكن من (أتى الله بقلب سليم) فانه
ينفعه ذلك الثانى انه مفعول به لقوله تعالى لا ينفع اى لا ينفع المال والبنون الا هذا الشخص
فانه ينفعه ماله المصروف فى وجوه البر وبنوه الصلحاء لانه علمهم وأحسن اليهم الثالث
انه بدل من المفعول المحذوف ومستثنى منه اذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحدا من
الناس الا من كانت هذه صفته واختلف فى القلب السليم على أوجه قال الرازى أصحها
أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والاخلاق الرذيلة الثانى انه الخالص من الشرك
والنفاق وهو قلب المؤمن وجرى على هذا الجلال المحلى وأكثر المفسرين فان الذنوب قل أن يسلم

منها أحد وهذا معنى قول سعيد بن المسيب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن فان قلب الكافر والمنافق مريض قال تعالى في قلوبهم مرض الثالث انه الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم الرابع انه هو اللديغ أي القلق المنزعج من خشية الله لكن قال الزمخشري ان القولين الاخيرين من بدع التفاسير وقوله تعالى (وأزلفت الجنة) حال من واو يبعثون ومعنى أزلفت قربت أي قربت الجنة (للمتقين) فتكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها زيادة الى شرفهم (وبرزت الجحيم) أي كشفت وظهرت النار الشديدة (للغاوين) أي الكافرين فيرونها مكشوفة ويحشرون على انهم المسوقون اليها زيادة في هوانهم *(تنبيه)* في اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد على الوعيد حيث قال في حق المتقين وأزلفت أي قربت وفي حق الغاوين وبرزت أي أظهرت ولا يلزم من الظهور القرب (وقيل لهم) تبكيتا وتنديما وتوبيخا وأبهم القائل ليصلح لكل أحد تحقيرا لهم ولان المراد نفس القول لا كونه من معين (أينما) أي أين الذي (كنتم تعبدون) في الدنيا ثم حقر معبوداتهم بقوله تعالى (من دون) أي من أدنى رتبة من رتب (الله) أي الملك الذي لا كفء له وكنتم تزعمون انهم يشفعون لكم ويقونكم شر هذا اليوم (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم (فكبكبوا) أي فتسبب عن عجزهم أن ألقوا (فيها) أي في مهواة الجحيم (هم) أي الاصنام وماشابهها من الشياطين ونحوهم (والغاوون) أي الذين ضلوا بهم والكبكبة تكرار الكب لتكرير معناه كان من ألقي في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها وقال الزجاج طرح بعضهم فوق بعض وقال القتيبي ألقوا على رؤسهم (وجنود ابليس) وهم اتباعه ومن أطاعه من الانس والجن وقيل ذريته (أجمعون) ولما لم يتمكنوا من قول في جواب استفهامهم قبل القائهم (قالوا) أي العبدة (وهم فيها) أي الجحيم (يختصمون) أي مع المعبودات وقولهم (تالله) أي الذي له جميع الكمال (ان كنا لفي ضلال مبين) أي ظاهر جدا لمن كان له قلب سليم معمول القول ومابينهما وهو وهم فيها يختصمون جملة حالية معترضة بين القول ومعموله وقيل ان الاصنام تنطق وتخاصم العبدة ويؤيده الخطاب في قولهم (اذ) أي حين (نسويكم برب العالمين) في استحقاق العبادة *(تنبيه)* اذ منصوب اما بمبين أو بمحذوف أي ضللنا في وقت تسويتنا لكم بالله في العبادة (وما أضلنا) أي ذلك الضلال المبين عن الطريق البين (الا المجرمون) أي الاولون الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا وكبرائنا كما في آية أخرى ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا وعن ابن جريج ابليس وابن آدم الاول وهو قابيل وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصي (فما) أي فتسبب عن ذلك أنه ما (لنا) اليوم وزادوا في تعميم النفي بزيادة الجار فقالوا (من شافعين) يكونون سببا لادخالنا الجنة كالمؤمنين تشفع لهم الملائكة والنبيون (ولا صديق حميم) أي قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديق هو الصادق في ودادك الذي يهمه

ما أهمك مع موافقة الدين وعن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى اخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول من بقي في النار فما لنا من شافعين ولا صديق حميم قال الحسن استكثروا من الاصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فان قيل) لم جمع الشافع ووحد الصديق (أجيب) بأن الشفعاء كثيرون في العادة رحمة له وحسبة وان لم يسبق له بأكثرهم معرفة وأما الصديق وهو الصادق في وداده الذي يهمه ما أهمك قال الزمخشري فاعز من بيض الانوق انتهى قال الجوهري الانوق على فعول طير وهو الرخمة وفي المثل أعز من بيض الانوق لانها محرزة فلا يكاد يظفر بها لان أوكارها في رؤس الجبال والاماكن الصعبة البعيدة وعن بعض الحكماء انه سئل عن الصديق فقال اسم لا معنى له أي لا يوجد ولما وقعوا في هذا الهلاك واتقى عنهم الخلاص تسبب عنه تمنيهم المحال فقالوا (فلو أن لنا كرة) أي رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) أي الذين صار الايمان لهم وصفا لازما فأزلفت لهم الجنة * (تنبيه) * انظر ما أحسن ما رتب ابراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الاقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ثم صور المسئلة في نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله عز وجل فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وانشائه الى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلك ان دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الاوابين ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله تعالى وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا (ان في ذلك) أي المذكور من قصة ابراهيم وقومه (لآية) أي عظة على بطلان الباطل وحقوق الحق (وما) أي والحال انه ما (كان أكثرهم) أي الذين شهدوا منهم هذا الامر العظيم الذي سمعوه عنه (مؤمنين) أي بحيث صار الايمان صفة لهم ثابتة وفي ذلك أعظم تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم (وان ربك) أي المحسن اليك بارسالك وهداية الامة بك (لهو العزيز) أي القادر على ايقاع النقمة بكل من خالفه حين يخالفه (الرحيم) أي الفاعل فعل الراحم في امهاله العصاة مع ادرار النعم ودفع النقم وارسال الرسل ونصب الشرائع لكي يؤمنوا أو أحد من ذرياتهم * ولما أتم سبحانه وتعالى قصة الاب الاعظم الاقرب ابراهيم عليه السلام أتبعها بقصة الاب الثاني وهو نوح عليه السلام وهي القصة الثالثة مقدما لها على غيرها لما له من القدم في الزمان اعلاما بأن البلاء قديم ولانها أدل على صفتي الرحمة والنقمة اللتين هما أثر الغرة بطول الاملاء لهم على طول مدتهم ثم تعميم النعمة مع كونهم جميع أهل الارض فقال (كذبت قوم نوح) وهم أهل الارض كلها من الآدميين قبل اختلاف الامم بتفرق اللغات (المرسلين) أي بتكذيبهم نوحا عليه السلام لانه أقام الدليل على نبوته بالمعجزة ومن كذب بالمعجزة فقد كذب بجميع المعجزات لتساوي

اقدامها فى الدلائل على صدق الرسول وقد سئل الحسن البصرى عن ذلك فقال من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الكل لان الآخر جاء بما جاء به الاول *(تنبيه)* القوم يؤنث باعتبار معناه ولذا يصغر على قويمة ويذكر باعتبار لفظه وتذكيره أشهر واختير التأنيث ههنا للتنبيه على أن فعلهم أخس الافعال والى أنهم مع عتوهم وكثرتهم كانوا عليه سبحانه وتعالى أهون شئ وأضعفه بحيث جعلهم هباء منثورا وكذا من بعدهم ولأجل التسلية عبر بالتكذيب فى كل قصة (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لا فى الدين (نوح) وذكر الاخوة زيادة فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وأشار تعالى الى حسن أدب نوح عليه السلام مع قومه واستجلابهم برفقه ولينه بقوله لهم (ألا تتقون) الله بأن تجعلوا بينكم وبينه وبين الحنطة وقاية بطاعته بالترحيد وترك الالتفات الى غيره ثم علل أهليته للامر عليهم بقوله (انى لكم) أى مع كونى أخاكم يسرنى ما يسركم ويسوءنى ما يسوءكم (رسول) أى من عند خالقكم فلا مندوحة لى عما أمرت به (أمين) أى مشهور بالامانة بينكم لا غش عندى كما تعلمون ذلك منى على طول خبرتكم لى ثم تسبب عن ذلك الرفق الجزم بالامر فقال (فاتقوا الله) أى أوجدوا الخوف والحذر والتحرز الذى اختص بالجلال والجمال لتحوزوا أصل السعادة فتكونوا من أهل الجنة (وأطيعون) فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ثم نفى عن نفسه التهمة بعد أن أثبت أمانته بقوله (وما أسألكم عليه) أى على هذا الحال الذى أتيتكم به وأشار الى الاغراق فى النفى بقوله (من أجر) لتظنوا أنى جعلت الدعاء سببا لذلك ثم أكد النفى بقوله (ان) أى ما (أجرى) أى ثوابى فى دعائى لكم (الا على رب العالمين) أى الذى دبر جميع الخلائق ورباهم وقرأ نافع وابو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء فى أجرى فى المواضع الخمسة فى هذه السورة والباقون بالسكون ولما انتفت التهمة تسبب عن انتفائها اعادة ما قدمه اعلاما بالاهتمام به زيادة فى الشفقة عليهم فقال (فاتقوا الله) أى الذى حاز جميع صفات العظمة (وأطيعون) ولما أقام الدليل على نصحه وأمانته (قالوا) أى قومه منكرين عليه ومنكرين لاتباعه استنادا الى الكبر الذى نشأ عنه بطر الحق وغمص الناس أى احتقارهم (أنؤمن لك) أى لأجل قولك هذا وما أوتيته من أوصافك (و) الحال انه قد (اتبعك الارذلون) أى فيكون ايماننا بك سببا لاستوائنا معهم والرذالة الخسة والذلة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة والصناعة لا تزرى بالديانة وهكذا كانت قريش تقول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومازالت اتباع الانبياء كذلك حتى كادت من سماتهم وأماراتهم ألا ترى الى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ضعفاء الناس وأراذلهم قال مازالت اتباع الانبياء كذلك وعن ابن عباس هم الغاغة وعن عكرمة الحاكة والاساكفة وعن مقاتل السفلة * ولما كانت هذه الشبهة فى غاية الركاكة لان نوحا بعث الى جميع قومه فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب وخستها أجابهم

بقوله (قال وما) أى أى شئ (علمى بما كانوا يعملون) قبل أن يتبعونى أى مالى وللبحث عن
سرائرهم وانما قال هذا لانهم قد طعنوا مع استرذالهم فى ايمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة
وانما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم فى قوله الذين هم أراذلنا بادى الرأى ثم أكد انه
لا يبحث عن بواطنهم بقوله (ان) أى ما (حسابهم) أى فى الماضى والآتى (الا على ربى) أى
المحسن الى فهو يحاسبهم ويجازيهم وأما أنا فلست بمحاسب ولا مجاز (لو تشعرون) أى لو كان
لكم نوع شعور لعلمتم ذلك فلم تقولوا ما قلتم مما هو دائر على أمور الدنيا فقط ولا نظر له الى يوم
الحساب فان الغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى * ولما أوهم قولهم هذا استدعاء طرد
هؤلاء الذين آمنوا معه وتوقيف ايمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه اجابهم بقوله
عليه السلام (وما) أى ولست (أنا بطارد المؤمنين) أى الذين صار الايمان لهم وصفا راسخا
فلم يرتدوا عنه للطمع فى ايمانكم ولا لغيره من اتباع شهواتكم ثم علل ذلك بقوله (ان أنا الا نذير)
أى محذر لا وكيل فاتش على البواطن ولا متعنت على الاتباع (مبين) أوضح ما أرسلت به فلا
أدع فيه لبسا وقرأ قالون بمد أنا فى الوصل بخلاف عنه والباقون بالقصر ولما أجابهم بهذا
الجواب وقد أيسوا مما راموه لم يكن منهم الا التهديد بأن (قالوا لئن لم تنته) ثم سموه باسمه جفاء
وقلة أدب بقولهم (يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) قال مقاتل والكلبى من
المقتولين بالحجارة وقال الضحاك من المشتومين فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من
فلاحهم فلذلك (قال) شاكيا الى الله ما هو أعلم به منه توطئة للدعاء عليهم معرضا عن تهديدهم
له صبرا واحتسابا لانه من لازم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (رب) أى أيها المحسن
الى (ان قومى كذبون) أى فيما جئت به فليس الغرض من هذا اخبار الله بالتكذيب لعلمه
بأنه عالم الغيب والشهادة ولكنه أراد لا أدعوك عليهم لما اذونى وانما أدعوك لاجلك ولاجل
دينك ولانهم كذبوك فى وحيك ورسالتك (فافتح) أى احكم (بينى وبينهم فتحا) أى حكما
يكون لى فيه فرج وبه من المضيق مخرج فاهلك المبطلين (ونجنى ومن معى) أى فى الدين
(من المؤمنين) مما تعذب به الكافرين ثم لما كان فى اهلاكهم وانجائه من بديع الصنع ما يجل
عن الوصف أظهره فى مظهر العظمة بقوله تعالى (فأنجيناه ومن معه) أى الذين اتبعوه فى الدين
على ضعفهم وقلتهم (فى الفلك) أى السفينة وجمعه فلك قال الله تعالى وترى الفلك فيه مواخر
فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد وقال تعالى (المشحون) أى الموقور المملوء من الناس
والطير والحيوان لان سلامة المملوء جدا أغرب ولما كان اغراقهم كلهم من الغرائب عظمه
باداة البعد فقال تعالى (ثم أغرقنا بعد) أى بعد انجاء نوح ومن معه (الباقين) أى من بقى
على الارض ولم يركب معه فى السفينة على قوتهم وكثرتهم (ان فى ذلك) أى الامر العظيم
من الدعاء والامهال ثم الانجاء والاهلاك (لآية) أى عظة لمن شاهد ذلك أو سمع به (وما) أى
والحال انه ما (كان أكثرهم) أى العالمين بذلك (مؤمنين) وقد كان ينبغى لهم اذ فاتهم
الايمان بمحض الدليل أن يبادروا بالايمان حين رأوا أوائل العذاب (وان ربك) المحسن

اليك بارسالك وتكثيراً تباعك وتعظيم اشياعك (لهو العزيز) أى القادر بعزته على كل من قسرهم على الطاعة واهلاكهم فى أول أوقات المعصية (الرحيم) أى الذى يخص من شاء من عباده بخالص وداده * ولما فرغ من ذكر قصة نوح عليه السلام شرع فى قصة هود عليه السلام وهى القصة الرابعة فقال تعالى (كذبت عاد) أى تلك القبيلة التى مكن الله تعالى لها فى الارض بعد قوم نوح (المرسلين) بالاعراض عن معجزة هود عليه السلام ثم سلى محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى النسب لا فى الدين (هود) بصيغة العرض تأدباً معهم وتلطفاً بهم (ألا تتقون) أى يكون منكم تقوى لربكم الذى خلقكم فتعبدونه ولا تشركون به ما لا يضركم ولا ينفعكم ثم علل ذلك بقوله (انى لكم رسول) أى فهو الذى حملنى على أن أقول لكم ذلك (أمين) أى لا أكتم عنكم شيأ مما أمرت به ولا أخالف شيأ منه (فاتقوا) أى فتسبب عن ذلك أن أقول لكم اتقوا (الله) أى الذى هو أعظم من كل شئ (وأطيعون) أى فى كل ما آمركم به من طاعة الله وترك معاصيه ومخالفته ثم نفى عن نفسه التهمة فى دعائه لهم بقوله (وما) أى والحال انى ما (أسألكم عليه) أى دعائى لكم (من أجر) فتتهمونى به وانما أنا رسول داع (ان) أى ما (أجرى) أى ثوابى (الا على رب العالمين) فهو الذى يثيب العبد على عمله ولما فرغ من دعائهم الى الايمان أتبعه انكار بعض ما هم عليه لان حالهم حال الناسى لذلك الطوفان الذى أهلك الحيوان وأهدم البنيان بقوله لهم (أتبنون بكل ريع) جمع ريعة وهو فى اللغة المكان المرتفع ومنه قولهم كم ريع ارضك وهو ارتفاعها وقال ابن عباس الريع كل شرف وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين وقال الضحاك هو كل طريق (آية) أى علامة على شدتكم لانه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعض ذلك ولكنكم (تعبثون) بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام وتسخرون منه والجملة حال من ضمير تبنون وقيل كانوا يبنون الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم فنهوا عن ذلك ونسبوا الى العبث وقال سعيد بن جبير هى بروج الحمام لانهم كانوا يلعبون بالحمام ثم ذكرهم بزوال الدنيا بقوله (وتتخذون مصانع) قال مجاهد قصوراً مشيدة وقال الكلبى هى الحصون وقال قتادة هى مأخذ الماء يعنى الحياض واحدها مصنعة ولما كان هذا الفعل حال الراجى للخلود قال لهم (لعلكم) أى كأنكم (تخلدون) فيها فلا تموتون ثم بين لهم أفعالهم الخبيثة بقوله (واذا بطشتم) أى أردتم البطش بأحد بضرب أو قتل (بطشتم جبارين) أى من غير رأفة قال البغوى والجبار الذى يضرب ويقتل على الغضب * (تنبيه) * انما قدرنا الارادة لئلا يتحد الشرط والجزاء وجبارين حال ولما خوفهم هود عليه السلام بهذا الانكار وهو أن اتخاذ الابنية العالية يدل على حب الدنيا واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو وهى ممتنعة الحصول للعبد وخوفهم بهذا الانكار عقاب الجبار تسبب عن ذلك قوله (فاتقوا الله) أى الذى له صفات الجلال والاكرام (وأطيعون) زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرهم عن حب الدنيا والاشتغال بالشرف والتجبر ثم وصل هذا

الوعظ بما أو كذا القبول بأن نبههم على نعم الله تعالى عليهم بقوله (واتقوا الذى أمدكم) أى
جعل لكم مددا وهو اتباع الشئ ما يتقوى به على الانتظام (بما تعلمون) اى ليس فيه نوع خفاء
حتى تغفلوا عن تقييده بالشكر ثم فصل ذلك المجمل بقوله (أمدكم بأنعام) تعينكم على الاعمال
وتأكلون منها وتبيعون (وبنين) يعينونكم على ما تريدون عند العجز (وجنات) أى
بساتين ملتفة الاشجار بحيث تستر داخلها (وعيون) أى أنهار تشربون منها وتسقون
أنعامكم وبساتينكم ثم خوفهم بقوله (انى أخاف عليكم) قال ابن عباس ان عصيتمونى أى
فانكم قومى يسوءنى ما يسوءكم (عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فانه كما قدر على الانعام
فهو قادر على الانتقام وتعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب * ولما بالغ عليه السلام فى وعظهم
وتنبيههم على نعم الله تعالى حيث أجملها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم وذلك انه أيقظهم عن سنة
غفلتهم عنها حين قال أمدكم بما تعلمون ثم عددها عليهم وعرفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته
وانه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة قادر على الانتقام منكم ولم يقدر الله تعالى هدايتهم
(قالوا) له راضين بما هم عليه (سواء علينا أوعظت) اى خوفت وحذرت (أم لم تكن من
الواعظين) فانا لا نرعوى عما نحن فيه (فان قيل) لو قيل أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى
واحد (أجيب) بأن ذلك لتواخى القوافى أو لأن المعنى ليس واحدا بل بينهما فرق لأن
المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه فهو
أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ وقرأ قوله تعالى (ان) أى ما (هذا) أى
الذى جئتنا به (الا خلق الاولين) نافع وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الخاء واللام أى ما هذا
الذى نحن فيه الا عادة الاولين فى حياة ناس وموت آخرين وعافية قوم وبلاء آخرين وقرأ
الباقون بفتح الخاء وسكون اللام أى ما هذا الا كذب الاولين (وما نحن بمعذبين) أى على
ما نحن عليه لانا أهل قوة وشجاعة ونجدة وبلاغة وبراعة * ولما تضمن هذا التكذيب تسبب
عنه قوله تعالى (فكذبوه) ثم تسبب عن تكذيبهم قوله تعالى (فأهلكناهم) فى الدنيا بريح
صرصر وسيأتى بيانه ان شاء الله تعالى فى سورة الحاقة (ان فى ذلك) أى الاهلاك فى كل قرن
للمكذبين والانجاء للمصدقين (لآية) أى عظيمة لمن بعدهم على أنه تعالى فاعل ذلك وحده
وانه مع أوليائه ومن كان معه لا يذل وانه على أعدائه ومن كان عليه لا يعز (وما كان أكثرهم)
أى أكثر من كان بعدهم (مؤمنين) أى فلا تحزن أنت يا أشرف الرسل على من أعرض عن
الايمان (وان ربك) أى المحسن اليك بارسالك وغيره من النعم (لهو العزيز) فى انتقامه
عن عصاه (الرحيم) فى انعامه واكرامه واحسانه مع عصيانه وكفرانه وارسال المرسلين
وتأييدهم بالآيات المعجزة * ثم اتبع قصة هود عليه السلام قصة صالح عليه السلام وهى
القصة الخامسة بقوله تعالى (كذبت ثمود) وهم أهل الحجر (المرسلين) وقرأ نافع وابن
كثير وعاصم باظهار المثناة عند المثلثة والباقون بالادغام وأشار تعالى الى زيادة التسلية
بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم)

أى فى النسب لا فى الدين (صالح) بصيغة العرض تأدبا معهم وتلطفا بهم كقول من تقدم قبله (ألا تتقون) الله ثم علل ذلك بقوله (انى لكم رسول) من رب العالمين فلذلك عرضت عليكم هذا لانى مأمور بذلك (أمين) فى جميع ما أرسلت به اليكم من خالقكم الذى لا أحد أرحم منه بكم ثم تسبب عن قوله انى لكم رسول قوله (فاتقوا الله) أى الذى له الغنى المطلق (وأطيعون) فيما آتيت به من عند الله ثم نفى عنه ما قد يتوهم من لا عقل له بقوله (وما أسألكم عليه) أى ما جئتكم به واغرق فى النفى بقوله (من أجر) ثم زاد فى تأكيد هذا النفى بقوله (ان) أى ما (أجرى) على أحد (الا على رب العالمين) فهو المتفضل المنعم على خلقه ثم شرع ينكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره بقوله (أتتركون) أى من ايدى النوائب التى لا يقدر عليها الا الله تعالى (فى ماههنا) أى فى بلادكم هذه من النعم حالة كونكم (آمنين) لا تخافون وأنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم * (فائدة) * تكتب فى ماههنا فى مقطوعة عن ما ثم فسر ما أجمله بقوله (فى جنات) أى بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه لكثرة أشجارها (وعيون) تسقيها مع ما لها من البهجة وغير ذلك من المنافع (وزروع) أى من سائر الانواع (ونخل طلعها) أى ما يطلع منها من الثمر (هضيم) قال ابن عباس هو اللطيف ومنه قولهم كشح هضيم وقيل هو الجواد الكريم من قولهم يد هضوم اذا كانت تجود بما لديها وقال أهل المعانى هو المنضم بعضه الى بعض فى وعائه قبل أن يظهر والطلع عنقود الثمر قبل خروجه من الكم وقال الزمخشرى الطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو والقنو هو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه (فان قيل) لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل أول شئ كما يتناول النعم الابل كذلك من بين الازواج حتى انهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون الا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون الا الابل قال زهير * تسقى جنة سحقا * وسحقا جمع سحوق ولا يوصف به الا النخل (أجيب) بوجهين أحدهما أنه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها الثانى أن يريد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل * ولما ذكر ما أنعم الله تعالى به عليهم أتبعه أفعالهم الخبيثة بقوله (وتنحتون) أى والحال انكم تنحتون اظهارا للقدرة (من الجبال) وقرأ (بيوتا) ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بكسرها وقرأ (فرهين) ابن عامر والكوفيون بألف بعد الفاء أى حاذقين وقرأ الباقون بغير ألف أى بطرين لا لحاجتكم الى شئ من ذلك (فاتقوا) أى فتسبب عن ذلك أنى أقول لكم اتقوا (الله) الذى له جميع العظمة بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية باتباع أوامره واجتناب زواجره (وأطيعون) أى فى كل ما أمرتكم به عنه فانى لا آمركم الا بما يصلحكم (ولا تطيعوا أمر المسرفين) أى المجاوزين للحدود وقال ابن عباس المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذين عقروا الناقة • (تنبيه) * استعير الطاعة التى هى انقياد للآمر لامتثال الامر أو جعل الامر مطاعا على المجاز الحكمى والمراد الآمر ومنه قولهم لك على امرة مطاعة وقوله تعالى وأطيعوا أمرى

ثم وصف المسرفين بما بين سرفهم بقوله (الذين يفسدون فى الارض) بالمعاصى (ولا يصلحون) أى ولا يطيعون الله فى أمرهم به (فان قيل) فما فائدة ولا يصلحون بعد قوله يفسدون (أجيب) بأن فى ذلك دلالة على خلوص فسادهم فليس فيه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطا ببعض الصلاح * ولما عجزوا عن الطعن فى شئ مما دعاهم اليه عدلوا الى التخييل على عقول الضعفاء بأن (قالوا انما أنت من المسحرين) قال مجاهد وقتادة من المسحورين المخدوعين أى ممن سحر مرة بعد مرة أى حتى غلب على عقله وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أى من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب واستعلك وعلى هذا يكون قولهم (ما أنت الا بشر مثلنا) تأكيدا له قيل المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة أى فما وجه خصوصيتك عنا بالرسالة (فأت بآية) أى علامة تدل على صدقك (ان كنت من الصادقين) أى الراسخين فى الصدق فقال لهم صالح ما تريدون قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فأخذ صالح يتفكر فقال له جبريل صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها فى العظم وعن أبى موسى رأيت مصدرها فاذا هو ستون ذراعا فلما رآها (قال) لهم صالح (هذه ناقة) أخرجها ربى من الصخرة كما اقترحتم (لها شرب) أى نصيب من الماء فى يوم معلوم (ولكم شرب يوم) أى نصيب من الماء فى يوم (معلوم) لا زحام بينكم وبينها وعن قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم ولا تشرب فى يومهم ماء (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر ثم خوفهم بما تسبب عن عصيانهم بقوله (فيأخذكم) أى يهلككم (عذاب يوم عظيم) بسبب ما حل فيه من العذاب فهو أبلغ من وصف العذاب بالعظيم وأشار الى سرعة عصيانهم بفاء التعقيب فى قوله (فعقروها) أى فقتلوها بضرب ساقها بالسيف وأسند العقر الى كلهم لان عاقرها انما عقر برضاهم فكأنهم فعلوا ذلك (فأصبحوا) أى فتسبب عن عقرهم لها أنهم أصبحوا حين رأوا مخايل العذاب (نادمين) على عقرها من حيث انه يفضى الى العقاب والهلاك لا من حيث انه معصية الله ورسوله وليس على وجه التوبة أو كان ذلك عند رؤية البأس فلم ينفعهم (فأخذهم العذاب) أى العذاب الموعود على عقرها (ان فى ذلك) أى ما تقدم فى هذه القصة من الغرائب (لآية) أى دلالة عظيمة على صحة ما أمروا به عن الله (وما) أى والحال انه مع ذلك ما (كان أكثرهم مؤمنين) بل استمروا على ما هم عليه (وان ربك) أى المحسن اليك بأحسن الاخلاق (لهو العزيز) أى فلا يخرج شئ عن قبضته وارادته (الرحيم) أى فى كونه لم يهلك أحدا حتى يرسل اليهم رسولا يبين لهم ما يرضيه الله تعالى وما يسخطه * ثم اتبع قصة صالح عليه السلام قصة لوط عليه السلام وهى القصة السادسة فقال (كذبت) أى كتكذيب من تقدم كأنهم تواصوا به (قوم لوط المرسلين) لان من كذب رسولا كما مضى فقد كذب الكل ثم بين اسراعهم فى الضلال بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم أخوهم) أى فى البلد لا فى الدين ولا فى النسب لانه ابن أخى ابراهيم عليهما السلام وهما من بلاد الشرق من أرض بابل وكانه عبر بالاخوة لاختياره

لمجاورتهم ومناسبتهم بمصاهرتهم وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدة وسنين عديدة وإتيانه بالأولاد من نسائهم مع موافقته لهم في أنه قروي ثم بينه بقوله تعالى (لوط) بصيغة العرض كغيره ممن تقدم (ألا تتقون) الله فتجعلون بينكم وبين سخطه وقاية ثم علل ذلك بقوله (إني لكم) أي خاصة (رسول) فلا تسعني المخالفة (أمين) لا غش عندي ولا خيانة ثم تسبب عن ذلك قوله (فاتقوا الله) أي الملك العظيم فإنه قادر على ما يريد فلا تعصوه (وأطيعون) أي لأن طاعتي سبب نجاتكم لأني لا آمركم إلا بما يرضيه ولا أنهاكم إلا عما يغضبه ثم نفى عن نفسه ما يتوهم كما تقدم لغيره بقوله (وما أسألكم عليه) أي الدعاء إلى الله تعالى (من أجر) أي فتتهموني بسببه (إن أجري إلا على رب العالمين) أي المحسن إلي بإيجادكم ثم بتربيتكم ثم وبخهم ووعظهم بقوله (أتأتون الذكران) وقوله (من العالمين) يحتمل عوده إلى الآتي أي أنتم من جملة العالمين مخصوصون بهذه الصفة وهي إتيان الذكور ولم يفعل هذا الفعل غيركم من الناكحين من الخلق ويحتمل عوده إلى المأتي أي أنتم اخترتم الذكران من العالمين كالإناث منهم وعلى هذا يحتمل أن يراد الذكران من الآدميين ومن غيرهم توغلا في الشر وتجاهرا بالتهتك قال البقاعي وإن يراد الآدميون وجرى عليه البغوي وأكثر المفسرين أي تريدون الذكران من أولاد آدم مع كثرة الإناث وغلبتهن (وتذرون) أي تتركون لهذا الغرض (ما خلق لكم) أي للنكاح (ربكم) أي المحسن إليكم وقوله (من أزواجكم) يصلح أن يكون تبيينا أي وهن الإناث وأن يكون للتبعيض ويكون المخلوق لذلك هو القبل وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ثم كأنهم قالوا نحن لم نترك نساءنا أصلا ورأسا وإن كانوا قد فهموا أن مراده تركهن حال الفعل في الذكور فقال مضربا عن مقالهم لما أرادوا به حيدة عن الحق وتماديا في الفجور (بل أنتم قوم عادون) أي متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل والحيوانات أي مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذلك أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان بارتكابكم هذه الجريمة ولما اتضح الحق عندهم وعرفوا أن لا وجه لهم في ذلك وانقطعت حجتهم (قالوا) مقسمين (لئن لم تنته) وسموه باسمه جفاء وغلظة بقولهم (يا لوط) أي عن مثل إنكارك هذا علينا (لتكونن من المخرجين) أي ممن أخرجناه من بلدنا على وجه فظيع من تعنيف واحتباس أملاك كما هو حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه وكما كان يفعل بعض أهل مكة بمن يريد المهاجرة وفي هذا إشارة إلى أنه غريب عندهم وأن عادتهم المستمرة نفي من اعترض عليهم (قال) مجيبا لهم (إني) مؤكدا لمضمون ما يأتي به (لعملكم من القالين) أي المبغضين غاية البغض لا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد * (تنبيه) * قوله من القالين أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال كما تقول فلان من العلماء فيكون أبلغ من قولك فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم والقلى البغض الشديد كأن البغض يقلي الفؤاد والكبد والقالي المبغض كما قال القائل

ووالله ما فارقتكم قاليا لكم * ولكن ما يقضى علي يكون

ثم انه عليه السلام دعا الى الله تعالى بقوله (رب نجني وأهلي) وقوله (مما يعملون) يحتمل أن يريد من عقوبة عملهم قال الزمخشري وهو الظاهر ويحتمل أن يريد بالتنجية العصمة ثم ان الله تعالى قبل دعاءه كما قال تعالى (فنجيناه وأهله) مما عذبناهم به باخراجنا لهم من بلادهم حين استخفافهم له ولم نؤخره عنهم الى حين خروجهم الا لاجله وأكد بقوله تعالى (أجمعين) اشارة الى أنه نجى أهل بيته ومن تبعه على دينه ثم استثنى تعالى من أهل بيته قوله تعالى (الا عجوزا) وهي امرأته كائنة (في) حكم (الغابرين) أي الماكثين الذين تلحقهم الغبرة بما يكون من الداهية فانها لم ينجها القضاء بذلك في الازل لكونها لم تتابعه في الدين ولم تخرج معه وكانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقيل انها اخرجت فأصابها حجر في الطريق فأهلكها (فان قيل) كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم (أجيب) بأن الاستثناء انما وقع من أهل بيته كما مرت الاشارة اليه وفي هذا الاسم لها معهم مشركة بحق الزواج وان لم تشاركهم في الايمان (فان قيل) في الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا في الغابرين غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم (أجيب) بان معناه الا عجوزا مقدرا غبورها أو في حكمهم كما مرت الاشارة اليه (ثم دمرنا) أي أهلكنا (الآخرين) أي المؤخرين عن اتباع لوط وفي التعبير بلفظ الآخرين اشارة الى تأخرهم من كل وجه ثم لما كان المراد بقوله تعالى دمرنا حكمنا بتدميرهم عطف عليه قوله (وأمطرنا عليهم مطرا) قال وهب ابن منبه الكبريت والنار وقال قتادة أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف الى المنذرين فاعل ساء وذلك لان فاعل فعل الذم أو المدح يجب ان يكون معرفا بلام الجنس أو مضافا الى المعرف بلام الجنس ليحصل الابهام المقصود ثم التفصيل ولا يأتي ذلك في لام العهد والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان في ذلك) أي انجاء لوط ومن معه واهلاك هؤلاء الكفار الفجار (لآية) أي دلالة عظيمة على ما يصدق الرسل في جميع ترغيبهم وترهيبهم ولما كان من أتى بعد هذه الامم كقريش ومن بعدهم قد علموا أخبارهم وضموا الى تلك الاخبار نظر الديار والتوسم في الآثار قال تعجيبا من حالهم في ضلالهم (وما) أي والحال انه ما (كان أكثرهم مؤمنين) بما وقع لهؤلاء (وان ربك) وحده (لهو العزيز) أي في بطشه لاعدائه (الرحيم) في لطفه بأوليائه ثم اتبع قصة لوط عليه السلام بقصة شعيب عليه السلام وهي القصة السابعة قال تعالى (كذب أصحاب الايكة) أي الغيضة ذات الارض الجيدة التي تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف (المرسلين) لتكذيبهم شعيبا عليه السلام فيما أتى به من المعجزة المساوية في خرق العادة وعجز المتحدين بها عن مقاومتها لبقية المعجزات الآتي بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ليكة بلام مفتوحة من غير ألف وصل وياء ساكنة ولا همزة قبلها وفتح تاء التأنيث والباقون باسكان اللام وقبلها وصل وبعد اللام همزة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وخفض تاء التأنيث قال أبو عبيدة وجدنا في بعض التفاسير الفرق

بين

بين ليكة والايكة فقيل ليكة هو اسم للقرية التى كانوا فيها والايكة البلاد كلها فصارا الفرق بينهما
شبيها بما بين مكة وبكة ثم بين تعالى وقت تكذيبهم بقوله تعالى (اذ) أى حين (قال لهم شعيب)
برفق ولطف (الا تتقون) الله الذى تفضل عليكم بنعمه ولم يقل أخوهم شعيب لانه لم يكن
من أهل الايكة فى النسب لانهم كانوا أهل بدو وكان عليه السلام قرويا لان الله تعالى لم يرسل
نبيا الا من أهل القرى تشريفا لهم لان البركة والحكمة فى الاجتماع ولذلك نهى النبى صلى الله
عليه وسلم عن التعرب بعد الهجرة وقال من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة ولما
ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لانه كان منهم وكان الله تعالى بعثه الى قومه أهل مدين وأصحاب
الايكة ثم أكد ما قاله بقوله (انى) وأشار الى تبشيرهم ان أطاعوه بقوله (لكم رسول) أى من
عند الله فهو أمرنى أن أقول لكم ذلك (أمين) أى لا خيانة عندى ولا غش فلذلك أبلغ جميع
ما أرسلت به ولذلك تسبب عنه قوله (فاتقوا الله) أى المحسن اليكم بهذه الغيضة وغيرها
(وأطيعون) لما ثبت من نصحى لكم ثم ذكر ما ذكر من تقدمه من الانبياء من نفى ما يتوهم ان لهم
رغبة فى أجرة على دعائهم فقال (وما أسألكم عليه) أى دعائى لكم الى الايمان بالله تعالى (من
أجر) ثم زاد فى البراءة من الطمع فى أحد من الخلق بقوله (ان) أى ما (أجرى الا على رب العالمين)
أى المحسن الى الخلائق كلهم فأنا لا أرجو أحدا سواه ثم نصحهم بقوله (أوفوا الكيل) أى أتموه
اتماما لا شبهة فيه اذا كلتم كما توفونه اذا اكتلتم (ولا تكونوا من المخسرين) أى الناقصين لحقوق
الناس فى الكيل والوزن كما قال تعالى ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون
أى الكيل واذا كالوهم أى كالوا لهم أو وزنوهم أى وزنوا لهم يخسرون ينقصون الكيل أو الوزن
(وزنوا) أى لانفسكم ولغيركم (بالقسطاس) أى الميزان الاقوم وأكد معناه بقوله (المستقيم)
وقيل هو بالرومية العدل وقرأ حمزة والكسائى وحفص بكسر القاف والباقون بالضم
* (تنبيه) * الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله
تعالى أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو الطفيف بقوله تعالى ولا تكونوا من المخسرين
ولم يذكر الزائد لانه ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه والوزن فى ذلك كالكيل ولهذا عمم
فى النهى عن النقص بقوله (ولا تبخسوا) أى تنقصوا (الناس أشياءهم) أى فى كيل أو وزن
أو غير ذلك ثم اتبع ذلك بما هو أعم بقوله (ولا تعثوا) أى لا تتصرفوا (فى الارض) من غير
تأمل حال كونكم (مفسدين) أى فى المال أو غير ذلك كقطع الطريق والقتل ثم خوفهم بعد
ان وعظهم ونهاهم عن الفساد من سطوة الجبار ما حل بمن هو أعظم منهم بقوله (واتقوا الذى
خلقكم) أى من نطفة فاعدامكم أهون شئ عليه وأشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله
(والجبلة) أى الجماعة والامم (الاولين) الذين كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة كأنها الجبال
قوة وصلابة لا سيما قوم هود الذين بلغت بهم الشدة حتى قالوا من أشد منا قوة وقد أخذهم الله
تعالى أخذ عزيز مقتدر ثم انهم أجابوه بالقدح فى الرسالة أولا وباستصغار الوعيد ثانيا بأن

(قالوا انما أنت من المسحرين) أى الذين كثر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختلفوا فصار
كلامهم على غير نظام أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى فى صالح عليه السلام أى فأنت
بعيد عن الصلاحية للرسالة ثم أشاروا الى عدم صلاحية البشر لها مطلقا ولو كانوا أعقل الناس
بقولهم (وما أنت الا بشر مثلنا) أى فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك وأتوا بالواو للدلالة على أنه
جامع بين وصفين مناقضين منافيين للرسالة مبالغة فى تكذيبه ولهذا قالوا (وان نظنك لمن
الكاذبين) أى فى دعواك * (تنبيه) * مذهب البصريين ان ان هذه هى المخففة من الثقيلة أى
وانا نظنك والذى يقتضيه السياق ترجيح مذهب الكوفيين هنا فى أن ان نافية فانهم أرادوا
باثبات الواو فى وما أنت المبالغة فى نفى الرسالة بتعداد ما ينافيه فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن
يتوجه الى غير الكذب وهو أبلغ من اثبات الظن به ثم ان شعيبا عليه السلام كان توعدهم
بالعذاب ان لم يؤمنوا فقالوا (فأسقط علينا كسفا) أى قطعا (من السماء) أى السحاب
أو الحقيقة (ان كنت من الصادقين) أى العريقين فى الصدق المشهورين فيما بين أهله لنصدقك
فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب * (تنبيه) * انظر الى حسن نظر شعيب عليه
السلام كيف هددهم بما الله عليهم من القدرة فى خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة
واهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسلهم وقرأ حفص بفتح السين والباقون
بالسكون وهنا همزتان مكسورتان فقالون والبزى يسهل الهمزة الاولى مع المد والقصر
وأسقطها أبو عمرو مع المد والباقون بتحقيق الاولى (قال) لهم شعيب فى جوابهم (ربى أعلم
بما تعملون) فيجازيكم به فان شاء عجل لكم العذاب وان شاء أخره الى أجل معلوم وأما أنا فليس
على الا البلاغ وأنا مأمور به فلم أخوفكم من نفسى ولا ادعيت قدرة على عذابكم فطلبكم
ذلك منى مضموم الى ظلمكم بالتكذيب (فكذبوه) أى استمروا على تكذيبه (فأخذهم) أى
فتسبب عن تكذيبهم ان أخذهم (عذاب يوم الظلة) وهى سحابة على نحو ما طلبوا من قطع
السماء روى ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمض وهو شدة الحر مع سكون
الريح فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا شراب فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم
سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى أن شعيبا
بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل وأصحاب الايكة
بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) وقدمنا أن تعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب
(ان فى ذلك) أى الامر العظيم من الانجاء المطرد لكل رسول ومن أطاعه والاخذ المطرد لمن
عصاه فى كل عصر بكل قطر بحيث لا يشذ من الفريقين انسان قاص ولا دان (لآية) أى دلالة
واضحة عظيمة على صدق الرسل وأن يكونوا جديرين بتصديق العباد لهم فى جميع ما قالوه من
البشائر والنذائر بأن الله تعالى يهلك من عصاه وينجى من والاه لانه الفاعل المختار لما يريد
(وما كان أكثرهم) أى أكثر قومك كما كان من قبلهم (مؤمنين) مع أنك قد أتيت قومك
بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم بك معرفة قبل ذلك فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة

أصدقهم لهجة وأعظمهم أمانة وأغزرهم عقلا وأعلاهم همة وأبعدهم عن كل ذي دنس (وانّ ربك) أي المحسن اليك بكل مايعلي شانك ويوضح برهانك (لهو العزيز) فلا يعجزه أحد (الرحيم) بالامهال لكي يؤمنوا أو أحد من ذريتهم وهذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديدا للمكذبين له (فان قيل) كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر (أجيب) بأن كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق على أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما اختتمت به ولان في التكرير تقريرا للمعاني في الانفس وتثبيتا لها في الصدور ألا ترى أنه لا طريق الى تحفظ العلوم الا بترديد ما يراد حفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولان هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الانصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا أو يشق ذهنا أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدا وفي ذلك دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى ثوابه ويبعده عن عقابه وأن الانبياء متفقون على ذلك وان اختلفوا في بعض التفاريع مبرؤن عن المطامع الدنية والاغراض الدنيوية ولما ذكر الله تعالى قصص الانبياء عليهم السلام أتبعه بما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وانه) أي الذكر الذي أتاهم بهذه الاخبار وهم عنه معرضون وله تاركون (لتنزيل رب العالمين) أي الذي رباهم بشمول علمه وعظيم قدرته بما يعجز عن أقل شئ منه غيره (نزل به) أي نجوما على سبيل التدريج من الافق الاعلى الذي هو محل البركات وعبر عن جبريل عليه السلام بقوله (الروح) دلالة على أنه مادة خير وأن الارواح تحيا بما ينزله من الهدى وقال تعالى (الامين) اشارة الى كونه عليه السلام معصوما من كل دنس فلا يمكن منه خيانة (على قلبك) يا أشرف الرسل ففي هذا تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على اعجاز القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الاخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون الا وحيا من الله تعالى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بتخفيف الزاي والروح الامين برفعهما والباقون بتشديد الزاي والروح الامين بنصبهما (فان قيل) لم قال على قلبك وهو انما نزل عليه (أجيب) بأنه ذكر ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ولان القلب هو المخاطب في الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له ويدل على ذلك الكتاب والسنة والمعقول فمن الكتاب قوله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك واستحقاق الجزاء ليس الا على ما في القلب قال الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ومن المعقول أن القلب اذا غشي عليه وقطع سائر الاعضاء لم يحصل به الشعور واذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالاعضاء من الآفات واذا فرح

القلب أو حزن تغير حال الاعضاء عند ذلك ولان المعانى الروحانية انما تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منه الى القلب لما بينهما من التعلق ثم تتصعد منه الى الدماغ فينتقش منه لوح المخيلة ولما كان السياق فى هذه السورة للتحذير قال تعالى معللا للجملة التى قبله (لتكون من المنذرين) أى المخوفين المحذرين لمن أعرض عن الايمان وفعل مانهى عنه من المعاصى وقوله تعالى (بلسان عربى) يجوز أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربى لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمى لتجافوا عنه أصلا ولقالوا مانصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به قال ابن عباس بلسان قرشى ليفهموا مافيه ولما كان فى العربى ماقد يشكل على بعض العرب قال تعالى (مبين) أى بين فى نفسه كاشف لما يراد منه غير تارك لبسا عند من تدبره على مايتعارفه العرب فى تخاطباتها من سائر لغاتها بحقائقها ومجازاتها على اتساع اراداتها وتباعد مراميها فى محاوراتها وحسن مقاصدها فى كناياتها واستعاراتها ومن يحيط بذلك حق الاحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير ولما كان الاستكثار من الادلة مما يسكن النفوس وتطمئن به القلوب قال تعالى (وانه) أى هذا القرآن أصوله وكثيرا من قصصه وأمهات فروعه (لفى زبر) أى كتب (الاولين) كالتوراة والانجيل وقيل وانه اى محمدا ونعته لفى كتب الاولين (أولم يكن لهم) أى لكفار مكة ذلك (آية) أى على صحة القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية ورفع آية على أنها الاسم والخبر لهم والباقون بالياء التحتية ونصب آية على أنها خبر وقوله تعالى (أن يعلمه) اى هذا الذى يأتى به نبينا من عندنا وهو اسمها (علماء بنى اسرائيل) أى يعرفوه بنعته المذكور فى كتبهم والمعنى أولم يكن لهؤلاء المنكرين علم بنى اسرائيل علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لان العلماء الذين كانوا من بنى اسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره فى كتبهم كعبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد قال الله تعالى واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين قال ابن عباس بعث أهل مكة الى اليهود بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا ان هذا لزمانه وانا لنجد فى التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه * (فائدة) * خط فى المصحف علماء بواو قيل الالف على لغة من يميل الالف الى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا قال الله تعالى (ولو نزلناه) أى القرآن على ماهو عليه من الحكمة والاعجاز (على بعض الاعجمين) أى على رجل ليس بعربى اللسان أو بلغة العجم (فقرأه عليهم) أى كفار مكة (ما كانوا به مؤمنين) لفرط عنادهم واستكبارهم أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وقالوا مانفقه قولك وجعلوه عذرا لجحودهم ونظيره ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته * (تنبيه) * الاعجمين جمع أعجمى بياء النسب على التخفيف بحذفها من الجمع ولكونه جمع أعجمى جمع جمع سلامة لانه حينئذ ليس من باب أفعل فعلاء بخلاف مالو كان جمع أعجم فان مؤنثه عجماء بوزن أفعل فعلاء وهو عند البصريين لا يجمع هذا الجمع الا لضرورة كقوله

* حلائل أسودين واحمرين * وقال ابن عطية جمع أعجم يقال الاعجمون جمع أعجم وهو الذى لا يفصح وان كان عربى النسب يقال له أعجم وذلك يقال للحيوانات ومنه قوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار وأسند الطبرى عن عبد الله بن مطيع أنه كان واقفا بعرفة وتحته جمل فقال جملى هذا أعجم ولو أنه أنزل عليهم ما كانوا يؤمنون ولما كان ذلك محل تعجب وكانه ربما ظن له أن الامر على خلاف حقيقته قرر مضمونه وحققه بقوله تعالى (كذلك) أى مثل ادخالنا التكذيب به بقراءة الاعجم (سلكناه) قال ابن عباس والحسن ومجاهد أدخلنا الشرك والتكذيب (فى قلوب المجرمين) أى كفار مكة بقراءة النبى صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أن الكل بقضاء الله تعالى وقدره وقيل الضمير فى سلكناه عائد الى القرآن قال ابن عادل وهو الظاهر أى سلكناه فى قلوب المجرمين كما سلكناه فى قلوب المؤمنين ومع ذلك لم ينجع فيهم وفى جملة (لا يؤمنون به) وجهان أحدهما الاستئناف على جهة البيان والايضاح لما قبله والثانى أنها حال من الضمير فى سلكناه أى سلكناه غير مؤمن به أى من أجل ما جبلوا عليه من الاجرام وجعل على قلوبهم من الطبع والختام (حتى يروا العذاب الاليم) أى الملجئ للايمان فحينئذ يؤمنون حيث لا ينفعهم الايمان ويطلبون الامان حيث لا أمان ولما كان اتيان الشر فجأة أشد قال تعالى (فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) باتيانه (فيقولوا) أى تأسفا واستسلاما وتلهفا فى تلك الحالة لعلمهم بأنه لا طاقة به بوجه (هل نحن منظرون) أى منسوح لنا فى آجالنا فنسمع ونطيع (فان قيل) ما معنى التعقيب فى فيأتيهم بغتة فيقولوا (أجيب) بأنه ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فى الوجود وانما المعنى ترتبها فى الشدة كأنه قيل لا يؤمنون بالقرآن حتى يكون رؤيتهم للعذاب عما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة عما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة مثال ذلك أن تقول لمن تعظه ان أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله فانه لا يقصد بهذا الترتيب ان مقت الله يوجد عقب مقت الصالحين وانما قصدك الى ترتيب شدة الامر على المسيء فانه يحصل له بسبب الاساءة مقت الصالحين عما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله وترى ثم تقع فى هذا الاسلوب فيحمل موقعها * ولما أوعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا الى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب قال الله تعالى (أفبعذابنا) أى وقد تبين لهم كيف أخذه للامم الماضية والقرون الخالية والاقوام العاتية (يستعجلون) أى بقولهم أمطر علينا حجارة أسقط علينا كسفا من السماء ونحو ذلك (أفرأيت) أى هب أن الامر كما يعتقدون من طول عيشهم فى النعيم فأخبرنى (ان متعناهم) أى فى الدنيا برغد العيش وصافى الحياة (سنين ثم جاءهم) أى بعد تلك السنين المتطاولة والدهور المتواصلة (ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما) أى أى شئ (أغنى عنهم) أى فيما أخذهم من العذاب (ما كانوا يمتعون) برفع العذاب أو تخفيفه أى لم يغن عنهم طول التمتع شيأ ويكون كأنهم لم يكونوا فى نعيم قط وعن ميمون بن مهران انه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظنى فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال له ميمون لقد وعظت فأبلغت (وما أهلكنا من قرية) أى من القرى السالفة بعذاب الاستئصال (الا لها منذرون) اى رسولهم

ومن تبعه من أمته ومن سمعوا من الرسل بأخبارهم مع أممهم من قبلهم ثم علل الانذار بقوله تعالى (ذكرى) أي تنبيها عظيما على ما فيه النجاة أو جعل المنذرين نفس الذكرى كما قال تعالى قد أنزلنا اليكم ذكرا رسولا وذلك اشارة الى امعانهم في التذكير حتى صاروا اياه (وما كنا ظالمين) أي في اهلاك شيء منها لانهم كفروا وانعمنا عليهم واعذرنا بعد الاعذار اليهم ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد * (تنبيه) * الواو في قوله وما كانوا والحال من نون أهلكنا (فان قيل) كيف عزلت الواو عن الجملة بعد الا ولم تعزل عنها في قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم (أجيب) بأن الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله تعالى سبعة وثامنهم كلبهم ولما كان الكفرة يقولون ان محمدا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما تتنزل به الشياطين أكذبهم الله سبحانه وتعالى بقوله (وما تنزلت به الشياطين) أي لكونه سحرا أو كهانة أو شعرا أو أضغاث أحلام كما يقولون (وما ينبغي) أي وما يصح (لهم) أن يتنزلوا به (وما يستطيعون) أي التنزل به وان اشتدت معالجتهم على تقدير أن يكون لهم قابلية لذلك ثم علل هذا بقوله تعالى (انهم عن السمع) أي لكلام الملائكة (لمعزولون) أي محجوبون بالشهب ولما كان القرآن داعيا الى الله تعالى ناهيا عن عبادة غيره تسبب عن ذلك قوله تعالى (فلا تدع مع الله) أي الحائز لكمال الصفات (الها آخر فتكون) أي فيتسبب عن ذلك أن تكون (من المعذبين) من القادر على ما يريد بأيسر أمر وأسهله وهذا خطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لانه معصوم من ذلك قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق لدي وأعزهم علي ولئن اتخذت الها غيري لعذبتك فيكون الوعيد أزجر له ويكون هو أقبل وروى محمد بن اسحق بسنده عن علي رضي الله عنه أنه قال لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (وأنذر عشيرتك الاقربين) دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا علي ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين وضقت بذلك ذرعا وعرفت أني متى أناديهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال يا محمد الا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لي صاعا من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعته فجئت به فلما وضعته تناول صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال كلوا بسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بادره أبو لهب فقال سحركم محمد صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا علي ان هذا الرجل قد سبقني الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فأعد لنا الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم

ثم دعاني بالطعام فقدمته ففعل كما فعل بالامس فاكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يابني عبد المطلب اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على أمري ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعا فقلت وأنا أحدثهم سنا أنا يارسول الله أكون وزيرك عليه قال فأخذ برقبتي ثم قال ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع وعن ابن عباس لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فجعل ينادي يابني فهر يابني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك الا الصدق قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال أبو لهب تبا لك ما جمعتنا الا لهذا ثم قام فنزلت تبت أي خسرت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وفي رواية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا اليه فقال أرأيتم ان أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي الى آخر ما مر وعن أبي هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله هذه الآية فقال يامعشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيأ يابني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيأ ياعباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيأ ياصفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيأ ويافاطمة بنت محمد سلي ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيأ وروى أبو يعلى عن الزبير بن العوام أن قريشا جاءته فحذرهم وأنذرهم فسألوه آيات سليمان في الريح وداود في الجبال وعيسى في احياء الموتى ونحو ذلك وأن يسير الجبال ويفجر الانهار ويجعل الصخرة ذهبا فأوحى الله تعالى اليه وهم عنده فلما سرى عنه أخبرهم أن أعطى ما سألوه ولكنه ان أراهم فكفروا عوجلوا فاختار صلى الله عليه وسلم الصبر عليهم ليدخلهم الله باب الرحمة فلما كانت النذارة انما هي للمشركين أمر بضدها لاضدادهم بقوله تعالى (واخفض جناحك) أي لن غاية اللين وذلك لان الطائر اذا أراد أن يرتفع رفع جناحيه واذا أراد أن ينحط كسرهما وخفضهما فجعل ذلك مثلا في التواضع ومنه قول بعضهم

وأنت الشهير بخفض الجناح * فلاتك في رفعه أجدلا

ينهاه عن التكبر بعد التواضع (لمن اتبعك من المؤمنين) أي سواء كانوا من الاقربين أم من الابعدين (فان قيل) المتبعون للرسول هم المؤمنون والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما معنى قوله تعالى لمن اتبعك من المؤمنين (أجيب) بوجهين أحدهما أن تسميتهم قبل الدخول في الايمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك الثاني ان يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان صنف صدق واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وصنف ما وجد منه الا التصديق فقط اما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح فمن على هذا للتبعيض وان أريد عموم الاتباع فهي للتبيين واختلف في الواو في قوله تعالى (فان عصوك)

على أوجه أحدها أنها ضمير الكفار أى فان عصاك الكفار فى أمرك لهم بالتوحيد الثانى أنها ضمير العشيرة وهذا أقرب كما جرى عليه السلف والجلال المحلى الثالث أنها ضمير المؤمنين أى فان عصاك المؤمنون فى فروع الاسلام وبعض الاحكام بعد تصديقك والايمان برسالتك وهذا كما قال ابن عادل فى غاية البعد (فقل) أى تاركا لما كنت تعاملهم من اللين (انى برىء) أى منفصل غاية الانفصال (مما تعملون) أى من العصيان الذى أنذر منه القرآن (وتوكل) أى فوض فى عصمتك ونجاتك وجميع أمورك (على العزيز) أى القادر على الدفع عنك والانتقام منهم (الرحيم) أى الذى نصرك عليهم برحمته وقرأ نافع وابن عامر فتوكل بالفاء على الابدال من جواب الشرط والباقون بالواو وثم أتبع الامر بالتوكل الوصف المقتضى لجميع أوصاف الكمال بقوله تعالى (الذى يراك) أى بصرا وعلما (حين تقوم) من نومك الى التهجد وقال مجاهد أى يراك أينما كنت وقال أكثر المفسرين كما قاله البغوى حين تقوم الى الصلاة أى من نوم أو غيره (و) يرى (تقلبك) فى الصلاة قائما وراكعا وساجدا (فى الساجدين) قال عكرمة عن ابن عباس أى فى المصلين وقال مقاتل مع المصلين فى الجماعة يقول يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك اذا صليت مع المصلين جماعة وقال مجاهد يرى تقلب بصرك فى المصلين فانه كان يبصر من خلفه كما يبصر أمامه وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل ترون قبلتى ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم انى لأراكم من وراء ظهرى وقال عطاء عن ابن عباس أراد وتقلبك فى أصلاب الانبياء من نبى الى نبى حتى أخرجك فى هذه الامة وقيل ترددك فى تصفح الاحوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون وتستبطن سرائرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير (انه هو) أى وحده (السميع) أى لجميع أقوالكم (العليم) أى بجميع ما تسرونه وتعلنونه من أعمالكم وشمول العلم يستلزم تمام القدرة فصار كأنه قال انه السميع البصير العليم القدير تثبيتا للتوكل عليه * ولما بين سبحانه وتعالى أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يصح أن ينزلوا عليه من وجهين ذكرهما بقوله تعالى (هل أنبئكم) أى أخبركم خبرا جليلا نافعا فى الدين عظيم الجدوى فى الفرقان بين أولياء الرحمن واخوان الشيطان (على من تنزل) وتتردد (الشياطين) حين تسترق السمع * ولما كان كأنه قيل نعم أشار الى أحد الوجهين بقوله تعالى (تنزل) على سبيل التدريج والتردد (على كل أفاك) أى كذاب (أثيم) أى فاجر مثل مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة وأشار الى ثانى الوجهين بقوله تعالى (يلقون السمع) أى الأفاكون يلقون السمع الى الشياطين فيتلقون وحيهم اليهم أو يلقون المسموع من الشياطين الى الناس فيضمون اليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ولا كذلك محمد صلى

الله عليه وسلم فانه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين ومعنى القائهم السمع انصاتهم الى الملا الاعلى قبل أن يرجعوا فيخطفون منهم بعض المغيبات ويوحونه الى أوليائهم أو يلقون الشئ المسموع الى الكهنة (وأكثرهم) اى الفريقين (كاذبون) أما الشياطين فانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وأما الافاكون فانهم يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم (فان قيل) كيف قال وأكثرهم كاذبون بعدما حكم عليهم أن كل واحد منهم أفاك (أجيب) بأن الافاكين هم الذين يكثرون الكذب لانهم الذين لا ينطقون الا بالكذب فأراد أن هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى وأكثرهم مفتر عليه * ولما قال الكفار لم لا يجوز أن يقال الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه تعالى فرق بين محمد عليه الصلاة والسلام وبين الكهنة ذكر مايدل على الفرق بينه وبين الشعراء بقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) أى الضالون المائلون عن السنن الاقوم الى كل فساد يجر الى الهلاك وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك بل هم الساجدون الباكون الزاهدون رضى الله تعالى عنهم وقرأ نافع بسكون التاء الفوقية وفتح الباء الموحدة والباقون بتشديد الفوقية وكسر الموحدة * ولما قرر حال اتباعهم علم منه انهم هم أغوى منهم لتمسكهم فى شهوة اللقلقة باللسان حتى حسن لهم الزور والبهتان دل على ذلك بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم (أنهم) أى الشعراء ومثل حالهم بقوله تعالى (فى كل واد) من أودية القول من المدح والهجو والتشبيب والرثاء والمجون وغير ذلك (يهيمون) أى يسيرون سير البهائم حائرين وعن طريق الحق حائدين كيفما جرهم القول انجروا من القدح فى الانساب والتشبيب بالحرم والهجو ومدح من لا يستحق المدح ونحو ذلك ولذلك قال تعالى (وانهم يقولون مالا يفعلون) أى لانهم لا يقصدونه وانما ألجأهم اليه الفن الذى سلكوه فأكثر أقوالهم لا حقائق لها وقيل انهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه ولا يفعلونه ويذمون البخل ويصرون عليه ويهجون الناس بأدنى شئ صدر منهم *(تنبيه)* قال المفسرون أراد شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم فقال منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى وأمية بن أبى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول كما قال محمد وقالوا الشعر واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين هجوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويروون عنهم قولهم فذلك قوله تعالى يتبعهم الغاوون وهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين وقال قتادة هم الشياطين ثم انه تعالى لما وصف شعراء الكفار بهذه الاوصاف استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الجاهلية ويهجون الكفار وينافحون عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى (الا الذين آمنوا) أى بالله ورسوله (وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى التى شرعها الله تعالى ورسوله (وذكروا الله) مستحضرين ماله من الكمال (كثيرا) أى

لم يشغلهم الشعر عن الذكر وروى أن كعب بن مالك قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله قد أنزل في الشعر ما أنزل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذى نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول

خلوا بني الكفار عن سبيله * اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهب الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول شعرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فهى أسرع فيهم من نضح النبل وعن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان اهج المشركين فان جبريل معك وعن عائشة رضى الله عنها قالت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل فأرسل الى ابن رواحة فقال اهجهم فلم يرض فأرسل الى كعب بن مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فقال حسان قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الاسد ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال والذى بعثك بالحق لأفرينهم بلسانى فرى الاديم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان أبا بكر أعلم قريش بانسابها وان لى فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد اخلص لى نسبك والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما يسل الشعر من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ان روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى قال حسان

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمدا برا حنيفا * رسول الله شيمته الوفاء
فان أبي ووالدتي وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس له كفاء

وورد في مدح الشعر عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر حكمة وعن ابن عباس قال جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال هل معك من شعر أمية ابن أبي الصلت شئ قال نعم قال هيه فأنشده بيتا فقال هيه حتى أنشده مائة بيت وعن جابر بن سمرة قال جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون شيأ من أمر الجاهلية فربما تبسم معهم وعن عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح وعن الشعبي كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده فروى انه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي واستنشده القصيدة التى أولها

أمن آل نعمى أنت غاد مبكر * غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشد ابن ربيعة القصيدة الى آخرها وهي قريبة من سبعين بيتا ثم ان ابن عباس أعاد القصيدة جميعا وكان حفظها بمرة واحدة ثم بين سبحانه وتعالى ما حل المؤمنين على الشعر وهو انتصارهم من المشركين بقوله تعالى (وانتصروا) أى بهجوهم الكفار (من بعد ما ظلموا) بهجو الكفار لهم لانهم بدؤا بالهجاء ثم أوعد شعراء المشركين وغيرهم من الكفار بقوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا) بالشرك وهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى منقلب) أى مرجع (ينقلبون) أى يرجعون بعد الموت قال ابن عباس الى جهنم والسعير وفي هذا تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفي أى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد تلا أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد اليه هذه الآية اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها وروى الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الاول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي تذكر فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله أعطاني السبع مكان التوراة وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الشعراء كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع

(سورة النمل مكية)

وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية وألف ومائة وتسع وأربعون كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله) أى الذى كمل علمه فبهرت حكمته (الرحمن) الذى عم بالهداية بأوضح البيان (الرحيم) أى الذى من بجنات النعيم على من اتبع الصراط المستقيم (طس) قال ابن عباس هو اسم من أسماء الله عز وجل وقد سبق الكلام في حروف الهجاء عليه وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بامالة الطاء والباقون بالفتح (تلك) أى هذه الآيات العالية المقام البعيدة المرام البديعة النظام (آيات القرآن) أى الكامل في قرآنيته الجامع للاصول الناشر للفروع الذى لا خلل فيه ولا فصم ولا صدع ولا وصم (وكتاب مبين) أى مظهر الحق من الباطل (فان قيل) كيف صح أن يشار لاثنين أحدهما مؤنث والآخر مذكر باسم الاشارة المؤنث ولو قلت تلك هند وزيد لم يجز (أجيب) من ثلاثة أوجه أحدها أن المراد بالكتاب هو الآيات لان الكتاب عبارة عن الآيات المجموعة فلما كانا شيأ واحدا صحت الاشارة اليهما باشارة الواحد المؤنث الثاني أنه على حذف مضاف أى وآيات كتاب مبين الثالث أنه لما ولى المؤنث ما تصح

قوله فان قيل كيف صح الخ ظاهر ان الاشارة الى الآيات المؤنث المضاف للقرآن المعطوف عليه وكتاب فلا يرد ما قاله اهـ مصححه

الاشارة به اليه اكتفى به وحسن ولو ولى المذكر لم يحسن ألا ترى أنك تقول جاءتنى هند وزيد ولو أخرت هند لم يجز تأنيث الفعل وقرأ ابن كثير بالنقل وصلا وابتداء وحمزة فى الوقف لا غير والباقون بغير نقل وقوله تعالى (هدى وبشرى) يجوز أن يكونا منصوبين على المصدر بفعل مقدر من لفظهما أى يهدى هدى ويبشر بشرى وأن يكونا فى موضع الحال من آيات والعامل فيهما ما فى تلك من معنى الاشارة وأن يكونا خبرا بعد خبر وان يكونا خبرى مبتدا مضمر أى هو هدى من الضلالة وبشرى (للمؤمنين) أى المصدقين به بالجنة كقوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما واهذا خص به المؤمنين وقيل المراد بالهدى الدلالة وانما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين أولانهم تمسكوا به كقوله تعالى انما أنت منذر من يخشاها أولانه يزيد فى هداهم كقوله تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى * ولما كان وصف الايمان خفيا وصفهم بما يصدقه من الامور الظاهرة بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) أى بجميع حدودها الظاهرة والباطنة من المواقيت والطهارات والشروط والاركان والخشوع والمراقبة والاحسان اصلاحا لما بينهم وبين الخالق (ويؤتون الزكاة) أى احسانا فيما بينهم وبين الخلائق (وهم بالآخرة هم يوقنون) أى يوجدون الايقان حق الايجاد بالاستدلال ويجددونه فى كل حين بما يوجد منهم من الاقدام على الطاعة والاحجام عن المعصية وأعيدهم لما فصل بينه وبين الخبر * ولما أفهم التخصيص ان ثم من يكذب بما ذكره بقوله تعالى (ان الذين لا يؤمنون) أى لا يوجدون الايمان ولا يجددونه (بالآخرة زينا) أى بعظمتنا التى لا يمكن دفاعها (لهم أعمالهم) أى القبيحة بتركيب الشهوة حتى أعرضوا عن الخوف من عاقبتها مع ظهور قباحتها والاسناد اليه حقيقى عند أهل السنة لانه الموجد الحقيقى والى الشيطان مجازى وعند المعتزلة بالعكس قال الزمخشرى فى تفسيره ان اسناده الى الشيطان حقيقة واسناده الى الله عز وجل مجاز (فهم) أى فتسبب عن ذلك أنهم (يعمهون) أى يتحيرون ويترددون فى أودية الضلال ويتمادون فى ذلك فهم كل لحظة فى خبط جديد بعمل غير سديد (أولئك) أى البعداء البغضاء (الذين لهم) أى خاصة (سوء العذاب) أى أشده فى الدنيا بالخوف والقتل (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسارة لانهم خسروا ما لا خسارة مثله لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم * ولما وصف تعالى القرآن بما اقتضى بيان أهل الفوز والخسران ذكر حال المنزل عليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم مخاطبا له بقوله تعالى (وانك) أى وأنت يا أشرف الخلق وأعلمهم وأعظمهم وأحكمهم (لتلقى القرآن) أى لتؤتاه وتلقنه أى يلقى عليك بشدة (من لدن) أى من عند (حكيم) أى بالغ الحكمة فلا شئ من أفعاله الا وهو فى غاية الاتقان (عليم) أى عظيم العلم واسعه تامه شامله والجمع بينهما مع أن العلم داخل فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والاشعار بأن علوم القرآن منها ما هو كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والاخبار عن المغيبات ثم شرع فى بيان تلك العلوم بقوله تعالى (اذ قال موسى) أى اذكر قصته حين قال (لاهله) أى زوجته

بنت شعيب عليه السلام عند مسيره من مدين الى مصر وهى القصة الاولى من قصص هذه السورة قال الزمخشرى روى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا وكانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفى مثل هذا الحال يقوى الناس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال (انى انست) أى أبصرت ابصارا حصل لى به الانس وأزال عنى الوحشة (نارا سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق وكان قد أضلها وعبر بلفظ الجمع كما فى قوله امكثوا (فان قيل) كيف جاء بسين التسويف (أجيب) بأن ذلك عدة لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ الاتيان أو كانت المسافة بعيدة (فان قيل) قال هنا سآتيكم منها بخبر وفى السورة الاخرى لعلى آتيكم منها بخبر وهما كالمتدافعين لان أحدهما ترج والآخر تيقن (أجيب) بأن الراجى قد يقول اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (أو آتيكم بشهاب قبس) أى شعلة نار فى رأس فتيلة أو عود قال البغوى وليس فى الطرف الآخر نار وقال بعضهم الشهاب شئ ذو نور مثل العمود والعرب تسمى كل شئ أبيض ذى نور شهابا والقبس القطعة من النار وقرأ الكوفيون بشهاب بالتنوين على أن القبس بدل منه أو وصف له لانه بمعنى المقبوس والباقون باضافة الشهاب اليه لانه يكون قبسا وغير قبس فهو من اضافة النوع الى جنسه نحو ثوب خز اذ الشهاب شعلة من النار والقبس قطعة منها يكون فى عود أو غيره كما مر (فان قيل) لم جاء بأو دون الواو (أجيب) بأنه بنى الرجاء على أنه ان لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وما أدراه حين قال ذلك انه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة ثم انه عليه السلام علل اتيانه بذلك افهاما لانها ليلة باردة بقوله (لعلكم تصطلون) أى لتكونوا فى حال من يرجى أن يستدفئ بذلك من البرد والطاء بدل من تاء الافتعال من صلى بالنار بكسر اللام وفتحها (فلما جاءها) أى تلك التى ظنها نارا (نودى) من قبل الله تعالى (أن بورك) أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك أو المصدرية أى بان بورك وقوله تعالى (من فى النار) أى موسى (ومن حولها) أى الملائكة هو نائب الفاعل لبورك والاصل بارك الله من فى النار ومن حولها وهذا تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة ومذهب أكثر المفسرين أن المراد بالنار النور وذكر بلفظ النار لان موسى حسبه نارا أو من فى النار هم الملائكة وذلك أن النور الذى رآه موسى عليه السلام كان فيه الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها هو موسى لانه كان بالقرب منها ولم يكن فيها وقال سعيد بن جبير كانت النار بعينها والنار احدى حجب الله تعالى كما جاء فى الحديث حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه الحديث * (تنبيه) * بارك يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال باركك الله وبارك عليك وبارك فيك وبارك لك وقال الشاعر

فبوركت مولودا وبوركت ناشئا * وبوركت عند الشيب اذ أنت أشيب

قال الزمخشري والظاهر أنه عام في كل من في تلك الارض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشأم ولقد جعل الله تعالى أرض الشأم الموسومة بالبركات لكثرتها مبعث الانبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا ومهبط الوحي عليهم وخصوصا تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام وقوله تعالى (وسبحان الله رب العالمين) من تمام ما نودي به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيها وللتعجب من عظمة الله في ذلك الامر فانه أتاه النداء كما ورد من جميع الجهات فسمعه بجميع الحواس أو تعجب من موسى لما دعاه من عظمته ولما تشوفت النفس الى تحقق الامر تصريحا قال تعالى تمهيدا لما أراد سبحانه اظهاره على يد موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات (ياموسى انه) أي الشأن العظيم الجليل الذي لا يبلغ وصفه وجمله (أنا الله) أي البالغ في العظمة ما تقصر عنه الاوهام مفسرة له أو المتكلم وأنا خبر والله بيان له ثم وصف تعالى نفسه بوصفين يدلان على ما يفعله مع موسى عليه السلام أحدهما (العزيز) أي الذي يصل الى سائر ما يريد ولا يرده عن مراده راد والثاني (الحكيم) أي الذي يفعل كل ما يفعله بحكمة وتدبير (فان قيل) هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى أنه من الله تعالى (أجيب) بأنه سمع الكلام المنزه عن شائبة كلام المخلوقين لان النداء أتاه من جميع الجهات وسمعه بجميع الحواس كما مر فعلم بالضرورة أنه صفة الله سبحانه وتعالى ثم أرى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام آية تدل على قدرته ليعلم علم شهود وهي قوله تعالى (وألق عصاك) فألقاها كما مر فصارت في الحال كما آذنت به الفاء حية عظيمة جدا ومع كونها في غاية العظم في نهاية الخفة والسرعة في اضطرابها عند محاولتها ما تريد (فلما رآها تهتز) أي تضطرب في تحركها مع كونها في غاية الكبر (كأنها جان) أي حية صغيرة في خفتها وسرعتها ولا ينافي ذلك كبر جثتها (ولى) أي موسى عليه السلام ثم ان التولية مشتركة بين معان فلذا بين المراد منها بقوله تعالى (مدبرا) أي التفت هاربا منها مسرعا جدا وقوله تعالى (ولم يعقب) أي لم يرجع على عقبه ولم يلتفت الى ما وراءه بعد توليه * (تنبيه) * قال الزمخشري وألق عصاك معطوف على بورك لان المعنى نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودي والمعنى قيل له بورك من في النار وقيل له ألق عصاك انتهى وانما احتاج الى تقدير وقيل له ألق لتكون جملة خبرية مناسبة للجملة الخبرية التي عطفت عليها لانه يرى في العطف تناسب الجمل المتعاطفة والصحيح كما قاله أبو حيان انه لا يشترط ذلك * ولما تشوفت النفس الى ما قيل له عند هذه الحالة أجيب بأنه قيل له (ياموسى لا تخف) أي منها ولا من غيرها ثقة بي ثم علل هذا النهي بقوله تعالى مبشرا بالامن والرسالة (اني لا يخاف لدي) أي عندي (المرسلون) أي من حية وغيرها لانهم معصومون من الظلم ولا يخاف من الملك العدل الا ظالم وقوله تعالى (الا من ظلم) فيه وجهان أحدهما أنه استثناء منقطع لان المرسلين معصومون من المعاصي وهذا هو الصحيح والمعنى لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف الا من تاب كما قال تعالى (ثم بدل) أي بتوبته

(حسنا بعد سوء) وهو الظلم الذى كان عمله أى جعل الحسن بدل السوء كالسحرة الذين آمنوا بعد ذلك بموسى عليه السلام (فانى) أرحمه بسبب انى (غفور) أى من شانى أن أمحو الذنوب محوا بل بجميع آثارها (رحيم) أى أعامله معاملة الراحم البليغ الرحمة والثانى أنه استثناء متصل وللمفسرين فيه عبارات قال الحسن ان موسى ظلم بقتل القبطى ثم تاب فقال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى وقال غيره ان ذلك محمول على ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل وقال بعض النحويين الا ههنا بمعنى ولا أى لا يخاف لدى المرسلون ولا المذنبون التائبون كقوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أى ولا الذين ظلموا ثم أراه الله تعالى بعد هذه الآية آية أخرى ذكرها بقوله تعالى (وأدخل يدك فى جيبك) أى فتحة ثوبك وهو ما قطع منه ليحيط بعنقك وكان عليه مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لانه يجاب أى يقطع (تخرج بيضاء) أى بياضا عظيما نيرا جدا له شعاع كشعاع الشمس وكانت الآية الاولى مما فى يده بقلب جوهرها الى جوهر شئ آخر حيوانى وهذه فى يده نفسها بقلب عرضها التى كانت عليه الى عرض آخر نورانى ثم نفى عنها أن يكون ذلك بسبب آفة بقوله تعالى (من غير سوء) أى برص ولا غيره من الآفات وقوله تعالى (فى تسع آيات) كلام مستأنف وحرف الجر فيه متعلق بمحذوف والمعنى اذهب فى تسع آيات (الى فرعون وقومه) كقول القائل

فقلت الى الطعام فقال منهم * فريق يحسد الانس الطعاما

ويجوز أن يكون بمعنى وألق عصاك وأدخل يدك فى تسع آيات وعدادهن ولقائل أن يقول كانت الآيات احدى عشرة آية ثنتان منها العصا واليد والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم وقيل فى بمعنى من أى من تسع آيات فتكون العصا واليد من التسع ثم علل ارساله اليهم بالخوارق بقوله تعالى (انهم كانوا قوما فاسقين) أى خارجين عن طاعتنا (فلما جاءتهم آياتنا) أى على يد موسى عليه السلام (مبصرة) أى بينة واضحة هادية الى الطريق اذ قوم (قالوا هذا سحر) أى خيال لا حقيقة له (مبين) أى واضح فى أنه خيال (وجحدوا بها) أى أنكروا كونها آيات موجبات لصدقه مع علمهم بابطالهم لان الجحود الانكار مع العلم (واستيقنتها أنفسهم) أى علموا أنها من عند الله تعالى وتخلل علمها صميم قلوبهم فكانت ألسنتهم مخالفة لما فى قلوبهم ولذلك أسند الاستيقان الى النفس ثم علل جحدهم ووصفهم لها بخلاف وصفها بقوله تعالى (ظلما وعلوا) أى شركا وتكبرا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر) يا أشرف الخلق (كيف كان عاقبة المفسدين) وهو الاغراق فى الدنيا بأيسر سعى وأيسر أمر فلم يبق منهم عين تطرف ولم يرجع منهم مخبر على كثرتهم وعظمتهم وقوتهم والاحراق فى الآخرة بالنار المؤبدة * القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد آتينا) أى بما لنا من العظمة (داود وسليمان) ابنه وهما من أتباع موسى عليهم السلام وبعده بازمان متطاولة (علما) أى جزأ من العلم عظيما من منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وغير ذلك لم نؤته لأحد من قبلهما * ولما كان التقدير

فعملا بمقتضاه عطف عليه قوله (وقالا) شكرا عليه ودلالة على شرف العلم وتنبيها لاهله على التواضع (الحمد) أي الاحاطة بجميع أوصاف الكمال (لله) أي الذي لا كفء له (الذي فضلنا) أي بما آتانا من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والانس وغير ذلك (على كثير من عباده المؤمنين) أي ممن لم يؤت علما أو مثل علمهما وفي ذلك تحريض للعالم أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله ويعتقد أنه وان فضل على كثير فقد فضل عليه كثير فلا يتكبر ولا يفتخر ويشكر الله تعالى وينفع به المسلمين كما نفعه الله تعالى به ثم انه تعالى أشار الى فضل سليمان بأنه جمع الى ما آتاه ما كان منح به أباه بقوله تعالى (وورث سليمان داود) أباه عليهما السلام دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا فاعطى سليمان ما أعطى داود من الملك وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين قال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى عليه (وقال) محدثا بنعمة ربه ومنبها على ما شرفه الله تعالى به ليكون أجدر في قبول الناس ما يدعوهم اليه من الخير (يا أيها الناس علمنا) أي أنا وأبي بأيسر أمر وأسهله (منطق الطير) أي فهم ما يريده كل طائر اذا صوت فسمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس روى عن كعب الاحبار أنه قال صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول سبحان ربي الاعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمرى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول سبحان ربي الاعلى قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغا تقول ويل لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس ويقول أيضا سبحان ربي المذكور بكل لسان والبازي يقول سبحان ربي وبحمده وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وروى عن فرقد السنجي قال مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وهو بالفتح والمد التراب وقال أبو عبيد هو الدروس وفي حديث صفوان اذا دخلت بيتي فأكلت رغيفا وشربت عليه فعلى الدنيا العفاء وروى أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس انا سائلوك عن سبعة أشياء فان أخبرتنا آمنا وصدقنا قال اسألوا تفقها ولا تسألوا تعنتا قالوا أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره والديك في صعيقه

والضفدع فى نعيقه والحمار فى نهيقه والفرس فى صهيله ومايقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فيقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد وأما الديك فيقول اذكروا الله ياغافلين وأما الضفدع فيقول سبحان المعبود فى لجج البحار وأما الحمار فيقول اللهم العن العشار وأما الفرس فيقول اذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور فيقول اللهم انى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق وأما الدراج فيقول الرحمن على العرش استوى قال فأسلم اليهود وحسن اسلامهم وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على قال اذا صاح النسر قال ابن آدم عش ماشئت آخره الموت واذا صاح العقاب قال فى البعد من الناس انس واذا صاح القنبر قال الهى العن مبغضى آل محمد واذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد ولا الضالين كما يمد القارئ وقول سليمان عليه السلام (وأوتينا من كل شئ) أى تؤتاه الانبياء والملوك قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس والرياح (ان هذا) أى الذى أوتيناه (لهو الفضل المبين) أى البين فى نفسه لكل من ينظره الموضح لعلو قدر صاحبه روى أن سليمان أعطى ملك مشارق الارض ومغاربها فملك أربعين سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا من الجن والانس والدواب والطير والسباع وأعطى مع ذلك منطق الطير وفى زمانه صنعت الصنائع العجيبة فقوله ان هذا لهو الفضل المبين تقرير لقوله الحمد لله الذى فضلنا والمقصود منه الشكر والحمد كما قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر (فان قيل) كيف قال علمنا وأوتينا وهو كلام المتكبر (أجيب) بوجهين الاول أنه يريد نفسه وأباه كما مر الثانى أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا ولما كان هذا مجرد خبر أتبعه مايصدقه بقوله تعالى (وحشر) أى جمع جمعا حتما بقهر وسطوة واكراه بأيسر أمر (لسليمان جنوده) ثم بين ذلك بقوله تعالى (من الجن) وبدأ بهم لعسر جمعهم ثم ثنى بقوله تعالى (والانس) لشرفهم ثم اتبع من يعقل بما لا يعقل بقوله (والطير) فقدم القسم الاول لشرفه وذلك كان فى مسيرله فى بعض الغزوات (فهم) أى فتسبب عن مسيره بذلك انهم (يوزعون) أى يكفون بحبس أولهم على آخرهم بأدنى أمر وأسهله ليتلاحقوا فيكون ذلك أجدر بالهيبة وأعون على النصرة وأقرب الى السلامة قال قتادة كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا فى المسير قال والوازع الحابس وهو النقيب وقال مقاتل يوزعون أى يساقون وقال السدى يوقفون وقيل يجمعون وأصل الوزع الكف والمنع قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وقيل نسجت له الجن بساطا من ذهب وحرير فرسخا فى فرسخ وكان يوضع كرسيه وسطه فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فتقعد الانبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة والناس حولهم والجن والشياطين حول الناس والوحش حولهم وتظلهم الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليه الشمس وكان له ألف بيت من قوارير

على الخشب فيها الثمانية منكوحة يعني حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم
يامر الرخاء فتسير به مسيرة شهر وأوحى اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت فى
فى ملكك أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشئ الا جاءت به الريح فأخبرتك به فيحكى أنه مر بحراث
فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح فى أذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انى
مشيت اليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل
داود واستمر سائرا بمن معه (حتى اذا أتوا) أى أشرفوا (على وادى النمل) روى عن كعب
الاحبار انه قال كان سليمان اذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها
تنانير الحديد وقدور عظام تسع كل قدر عشرة من الابل يطبخ الطباخون ويخبز الخبازون
واتخذ ميادين للدواب فتجرى بين يديه وهو بين السماء والارض والريح تهوى بهم فسار
من اصطخر يريد اليمن فمر بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبى
يخرج فى آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ولما وصل الى مكة رأى حول البيت
أصناما تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله تعالى الى البيت ما يبكيك
فقال يارب أبكانى ان هذا نبى من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا على فلم يهبطوا ولم يصلوا
عندى والاصنام تعبد حولى من دونك فأوحى الله تعالى اليه لا تبك فانى سوف أملؤك وجوها
سجدا وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك نبيا آخر الزمان أحب أنبيائى الى واجعل فيك
عمارا من خلقى يعبدوننى وأفرض على عبادى فريضة يزفون اليك زفيف النسور الى وكرها
ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها وحنين الحمامة الى بيضها وأطهرك من الاوثان وعبدة
الشياطين ثم مر سليمان حتى مر بوادى السدير من الطائف فأتى على وادى النمل هكذا قال كعب
انه واد بالطائف قال البقاعى وهو الذى تميل اليه النفس فانه معروف عندهم الى الآن بهذا
الاسم وقال قتادة ومقاتل هو واد بالشأم وجرى عليه البيضاوى وقيل واد كانت تسكنه الجن
وأولئك النمل مراكبهم وقال نوف الحميرى كان نمل ذلك الوادى مثل الذباب وقيل كان
كالبخاتى وقال البغوى والمشهور أنه النمل الصغير (فائدة) وقف الكسائى على وادى بالياء
والباقون بغير ياء (فان قيل) لم عدى أتوا بعلى (أجيب) بأنه يتوجه على معنيين أحدهما
ان اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء والثانى أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره
من قولهم أتى على الشئ اذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند مقطع الوادى
لانهم ما دامت الريح تحملهم فى الهوى لا يخاف حطمهم * ولما كانوا فى أمر مهول منظره
وقربوا من ذلك الوادى (قالت نملة) قال الشعبى كانت تلك النملة ذات جناحين وقيل
كانت نملة عرجاء فنادت (يا أيها النمل ادخلوا) أى قبل وصول ما أرى من الجيش
(مساكنكم) ثم عللت أمرها فقالت (لا يحطمنكم) أى يكسرنكم ويهشمنكم أى لا تبرزوا
فيحطمكم فهو نهى لهم عن البروز فى صورة نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لان من نهى
أميرا عن شئ كان لغيره أشد نهيا (سليمان وجنوده) أى لانهم لكثرتهم اذا صاروا فى هذا

الوادى

الوادى استعلوا عليه فضيقوه فلم يدعوا فيه موضع شبر خاليا (وهم) أى سليمان وجنوده (لايشعرون) أى بحطمهم لكم لاشتغالهم بما هم فيه من أحوال السير وقولها هذا يدل على علمها بأنهم لو شعروا بهم ما اذوهم لانهم اتباع نبى فهم رحماء وانما خاطبتهم خطاب من يعقل لانها لما جعلت قائلة والنمل مقولا له كما يكون فى أولى العقل أجرت خطابهم والنمل اسم جنس معروف واحده نملة ويقال نملة ونمل بضم النون وسكون الميم ونملة ونمل بضمهما وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلونى عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى حاضرا وهو غلام حديث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله وهو قوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال قال نملة قال الزمخشرى وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى انتهى ورد هذا أبو حيان فقال ولحاق التاء فى قالت لايدل على أن النملة مؤنثة بل يصح أن يقال فى الذكر قالت نملة لان النمل وان كان بالتاء هو مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث وما كان كذلك كالعامة والقملة مما بينه فى الجمع وبين واحده تاء التأنيث من الحيوان فانه يخبر عنه اخبار المؤنث ولا يدل كونه يخبر عنه اخبار المؤنث على كونه ذكرا وأنثى لان التاء دخلت فيه للفرق لا للدلالة على التأنيث له الحقيقى بل دالة على الواحد من هذا الجنس قال وكان قتادة بصيرا بالعربية وكونه أفحم يدل على معرفته باللسان اذا علم أن النملة يخبر عنها اخبار المؤنث وان كانت تطلق على الانثى والذكر اذ لا يتميز فيه أحد هذين ولحاق العلامة لايدل فلا يعلم التذكير والتأنيث الا بوحى من الله اهـ وقال الطيبى العجب من أبى حنيفة ان ثبت ذلك عنه لان النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر والانثى وأطال الكلام فى ذلك (فان قيل) كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والارض (أجيب) بأن من جنوده ركبانا ومنهم مشاة على الارض تطوى لهم أو أن ذلك كان قبل تسخير الريح لسليمان ويروى أن سليمان لما بلغ وادى النمل حبس جنده حتى دخل النمل بيوتهم فقد روى انه سمع كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية (فائدة) قال أهل المعانى فى كلام هذه النملة أنواع من البلاغة نادت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وأعذرت ووجهه نادت يا نبهت ها سمت النمل أمرت ادخلوا نصت مساكنكم حذرت لا يحطمنكم خصت سليمان عمت وجنوده أشارت وهم أعذرت لايشعرون * ولما كان هذا أمرا معجبا لما فيه من جزالة الالفاظ وجلالة المعانى تسبب عنه قوله (فتبسم ضاحكا من قولها) أى لما أوتيته من الفصاحة والبيان وسرورا بما وصفته به من العدل فى أنه وجنوده لا يؤذى أحدا وهم يعلمون وبما آتاه الله من سمعه كلام النملة واحاطته بمعناه * (تنبيه) * ضاحكا حال مؤكدة لانها مفهومة من تبسم وقيل هى حال مقدرة فان التبسم ابتداء الضحك وقيل التبسم قد يكون للغضب ومنه تبسم تبسم الغضبان فضاحكا مبينا له قال عنترة

لما رآني قد قصدت أريده * أبدى نواجذه لغير تبسم

وقال الزجاج أكثر ضحك الانبياء التبسم وقوله ضاحكا أى متبسما وعن عائشة رضى الله عنها قالت مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته انما كان يتبسم وعن عبد الله بن الحرث بن جبير قال مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك ثم حمد الله تعالى على هذه النعمة وسأل ربه توفيق شكره لما تذكر ما أولاه ربه سبحانه وتعالى بحسن تربيته من فهم كلامها الى ما أنعم عليه من غير ذلك (وقال رب) أى أيها المحسن الى (أوزعنى) أى ألهمنى (أن أشكر نعمتك) وقيل معناه لغة اجعلنى أزع شكر نعمتك أى أكفه وأمنعه حتى لا ينفلت منى فلا أزال شاكرا وأزع بفتح الزاى أصله أوزع فحذفت واوه كما فى أدع * ولما أفهم ذلك تعلق النعمة به حققه بقوله (التى أنعمت على) وأفهم قوله (وعلى والدى) ان أمه كانت أيضا تعرف منطق الطير وانما أدرج ذكر والديه لان النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصا النعمة الراجعة الى الدين فانه اذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته ودعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا رضى الله عنك وعن والديك * (تنبيه) * الشكر لغة فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث انه منعم على الشاكر أو غيره سواء كان ذكرا باللسان أم اعتقادا أو محبة بالجنان أم عملا وخدمة بالاركان كما قال القائل

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره الى ما خلق لاجله وهذا من حفته العناية الربانية نسأل الله الكريم الفتاح أن يحفنا ومن يلوذ بنا بعنايته روى عن داود عليه السلام أنه قال يارب كيف أشكرك والشكر نعمة أخرى منك أحتاج عليها الى شكر آخر فأوحى الله تعالى اليه ياداود اذا علمت أن ما بك من نعمة فمنى فقد شكرتنى والشكر ثلاثة أشياء الاول معرفة النعمة بمعنى احضارها فى الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة فرب جاهل يحسن اليه وتنعم عليه وهو لا يدرى فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر الثانى قبول النعمة بتلقيها من المنعم باظهار الفقر والفاقة فان ذلك شاهد بقبولها حقيقة الثالث الثناء بها بأن تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك فى الرتبة عن مقامه فان اليد العليا خير من اليد السفلى * ولما علم من كلامه أن الشاكر هو المستغرق فى الثناء على المنعم بما يجب عليه من العمل بحسب ما يقدر عليه وكان ذلك العمل مما يجوز أن يكون زين لذلك العبد كونه حسنا وهو ليس كذلك قال عليه السلام مشيرا الى هذا المعنى (وأن أعمل صالحا) أى فى نفس الامر وقيده بقوله (ترضاه) لان العمل الصالح قد لا يرضاه المنعم لنقص فى العامل كما قيل

اذا كان المحب قليل حظ * فحسناته الاذنوب

وقوله (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله

لا باستحقاق العبد والمعنى أدخلنى فى جملتهم وأثبت اسمى فى أسمائهم واحشرنى فى زمرتهم قال ابن عباس يريد مع ابراهيم واسحق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين (فان قيل) درجات الانبياء أفضل من درجات الصالحين والاولياء فما السبب فى أن الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين وقد تمنى يوسف عليه السلام بقوله فاطر السموات والارض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وقال ابراهيم هب لى حكما وألحقنى بالصالحين (أجيب) بأن الصالح الكامل هو الذى لا يعصى الله تعالى ولا يفعل معصية ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية ثم ان سليمان عليه السلام لما وصل الى المنزل الذى قصده تفقد أحوال جنوده كما تقتضيه العناية بأمور الملك (وتفقد الطير) أى طلبها وبحث عنها والتفقد طلب ما فقد ومعنى الآية طلب ما فقد من الطير (فقال مالى لا أرى الهدهد) أى أهو حاضر (أم كان من الغائبين) أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولم يره لساتر أو غيره فقال مالى لا أراه ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له وهذا يدل على أنه تفقد جماعة من الجند وتحقق غيبتهم وشك فى غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج الى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب من الجن والانس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ عسكره مائة فرسخ فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر فى كل يوم مدة مقامه بمكة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة وقال لمن حضره من أشراف قومه ان هذا المكان يخرج منه نبى عربى صفته كذا وكذا يعطى النصر على جميع ما يأواه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لا تأخذه فى الله لومة لائم قالوا فبأى دين يدين يا نبى الله قال بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبى الله قال مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه سيد الانبياء وخاتم الرسل فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج منها صباحا وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول ليصلى ويتغدى فلما نزل قال الهدهد ان سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فأنظر الى طول الدنيا وعرضها ففعل فنظر يمينا وشمالا فرأى بستانا لبلقيس فمال الى الخضرة فوقع فيه فاذا هو بهدهد فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير فقال عنفير هدهد اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت والى أين تريد قال أقبلت من الشأم مع صاحبى سليمان بن داود فقال ومن سليمان قال ملك الانس والجن والشياطين والطير والوحوش والرياح فمن أين أنت قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة يقال لها بلقيس وان لصاحبكم ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها ملكت اليمن كله وتحت يدها اثناعشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل أنت منطلق معى حتى تنظر الى ملكها قال أخاف أن يتفقدنى سليمان فى وقت الصلاة اذا احتاج الى الماء قال الهدهد اليمانى ان صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر الى

بلقيس وملكها وغاب الى وقت العصر وكان نزول سليمان على غير ماء قال ابن عباس وكان الهدهد دليل سليمان على الماء وكان يعرف الماء ويرى الماء تحت الارض كما يرى فى الزجاجة ويعرف بعده وقربه فينقر الارض ثم تجىء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الازرق انظر ما تقول ان الصبى منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجىء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع فى عنقه فقال له ابن عباس ويحك ان القدر اذا جاء حال بين البصر وفى رواية اذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمى البصر قال القائل

هى المقادير فدعنى والقدر * ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
اذا أراد الله أمرا بامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر
يعبر الجهل فيعمى قلبه * وسمعه وعقله ثم البصر
حتى اذا أنفذ فيه حكمه * ردّ عليه عقله ليعتبر
لا تقل لما جرى كيف جرى * كل شئ بقضاء وقدر

فلما دخل على سليمان وقت الصلاة سأل الانس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموه فتفقد الهدهد فلم يجده فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فقال اصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته مكانا فغضب سليمان عند ذلك وقال (لأعذبنه) أى بسبب غيبته فيما لم آذن فيه (عذابا شديدا) أى مع بقاء روحه ردعا لامثاله (أولأذبحنه) أى بقطع حلقومه أى تأديبا لغيره (أوليأتينى بسلطان مبين) أى بحجة واضحة واختلفوا فى تعذيبه الذى أوعده به على أقوال قال البغوى أظهرها ان عذابه أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه فى الشمس ممعطا لا يمتنع من النمل والذباب ولا من هوام الارض انتهى وقيل تعذيبه أن يؤذيه بما لا يحتمله ليعتبر به أبناء جنسه وقيل كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس وقيل أن يلقى للنمل تأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه وبين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد قال الزمخشرى وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه ثم دعا العقاب سيد الطير فقال له على بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم فالتفت يمينا وشمالا فاذا بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على الا رحمتنى ولم تتعرض لى بسوء فولى عنه العقاب وقال له ويلك ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف أن يعذبك أو ليذبحنك قال فما استثنى قال بلى قال أو ليأتينى بسلطان مبين ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهى الى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت فى يومك هذا فلقد توعدك نبى الله وأخبروه بما قال فقال الهدهد وما استثنى نبى الله عليه السلام قالوا بلى قال أو ليأتينى بسلطان مبين قال فنجوت اذا ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال

العقاب قد أتيتك به يا نبي الله (فمكث) أي الهدهد وقوله تعالى (غير بعيد) صفة
للمصدر أي مكثا غير بعيد فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على
الارض تواضعا لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمده اليه وقال له أين كنت لأعذبنك عذابا
شديدا فقال له الهدهد يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فلما سمع سليمان ذلك ارتعد
وعفا عنه ثم سأله فقال ما الذي أبطأك عني (فقال أحطت) أي علما (بما لم تحط به) أي
أنت مع اتساع علمك وامتداد ملكك ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على
ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه
وتنبيها له على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر
اليه علمه ويكون لطفا في ترك الاعجاب الذي هو فتنة العلماء والاحاطة بالشيء علما أن يعلم
من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم قالوا وفيه دليل على بطلان قول الروافضة ان الامام
لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه وقيل الضمير في مكث لسليمان وقيل غير بعيد
صفة للزمان أي زمانا غير بعيد وقرأ عاصم بفتح الكاف والباقون بضمها وهما لغتان الا
أن الفتح أشهر (وجئتك) أي الآن (من سبإ بنبإ) أي خبر عظيم (يقين) أي محقق وقرأ
أبو عمرو والبزي سبأ بفتح الهمزة من غير تنوين جعلاه اسما للقبيلة أو البقعة فمنعاه من الصرف
للعلمية والتأنيث والباقون بالجر والتنوين جعلوه اسما للحي أو المكان قال البغوي وجاء في
الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن سبإ فقال رجلا كان له عشرة من البنين تيامن
منهم ستة وتشاءم أربعة فقال سليمان وماذاك قال (اني وجدت امرأة تملكهم) وهي
بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون
ملكا هو آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الاطراف ليس أحد منكم
كفؤا لي وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت
بلقيس ولم يكن له ولد غيرها قال البغوي وجاء في الحديث ان أحد أبوي بلقيس كان جنيا فلما
مات أبو بلقيس طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون
وملكوا عليهم رجلا وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن ثم ان الرجل
الذي ملكوه أساء السير في أهل مملكته حتى كان يمد يده الى حرم رعيته ويفجر بهن فأراد قومه
خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت اليه تعرض نفسها عليه
فأجابها وقال ما منعني ان أبتدئك بالخطبة الا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك أنت كفؤ كريم
فاجمع رجال قومي واخطبني منهم فجمعهم وخطبها اليهم فقالوا لا نراها تفعل ذلك فقال لهم
انها قد ابتدأتني وأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاؤها فذكروا لها قالت نعم أحببت الولد
فزوجوها منه فلما زفت اليه خرجت في أناس كثير من حشمها فلما جاءته أسقته الخمر حتى سكر
ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل الى منزلها فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلا ورأسه منصوب
على باب دارها فعلموا أن تلك المناكحة كانت حيلة مكر وخديعة منها فاجتمعوا اليها وقالوا أنت

بهذا الملك أحق من غيرك فملكوها وعن الحسن عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم امرأة قال لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة وقوله (وأوتيت) يجوز أن يكون معطوفا على تملكهم وجاز عطف الماضي على المضارع لان المضارع بمعناه أي ملكتهم ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال من مرفوع تملكهم وقد معها مضمرة عند من يرى ذلك وقوله (من كل شئ) عام مخصوص بالعقل لانها لم تؤت ما أوتيه سليمان فالمراد من كل شئ يحتاج اليه الملوك من الآلة والعدة (ولها عرش) أي سرير (عظيم) أي ضخم لم أجد لاحد مثله طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وارتفاعه ثلاثون ذراعا مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد وقوائمه من الياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد عليه سبعة أبواب على كل باب بيت مغلق (فان قيل) كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان وأيضا كيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الرحمن في الوصف بالعظم (أجيب) عن الاول بأنه يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان واستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وان عظمت مملكته في كل شئ كما يكون لبعض أمراء الاطراف شئ يكون في العظم ابلغ مما لغيره من أبناء جنسه من الملوك ووصف عرش الرحمن بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض (فان قيل) كيف خفي على سليمان تلك المملكة العظيمة مع أن الانس والجن كانوا في طاعته فانه عليه السلام كان ملك الدنيا كلها مع انه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة أيام (أجيب) بأن الله تعالى أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ولما كان الهدهد في خدمة أقرب أهل ذلك الزمان الى الله تعالى فحصل له من النورانية ما هاله قال مستأنفا (وجدتها وقومها) أي كلهم على ضلال كبير وذلك أنهم (يسجدون للشمس) مبتدئين ذلك (من دون الله) أي من أدنى رتبة للملك الاعظم الذي لا مثل له (وزين لهم الشيطان أعمالهم) أي هذه القبيحة حتى صاروا يظنونها حسنة ثم تسبب عن ذلك أنه أعماهم عن طريق الحق فلهذا قال (فصدهم عن السبيل) أي الذي لا سبيل الى الله غيره وهو الذي بعث به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ثم تسبب عن ذلك ضلالهم فلهذا قال (فهم) أي بحيث (لا يهتدون) أي لا يوجد لهم هدى بل هم في ضلال صرف وعمى محض (ألا يسجدوا لله) أي ان يسجدوا له فزيدت لا وأدغم فيها نون ان كما في قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والجملة في موضع مفعول يهتدون باسقاط الى هذا اذا قرئ بالتشديد وهي قراءة غير الكسائي وأما الكسائي فقرأ بتخفيف الا فالا فيها تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال

الا يا اسلمي يا دارمي على البلا * ولا زال منهلا بجرعائك القطر

ويقف الكسائي على ألا وعلى يا وعلى اسجدوا واذا ابتدأ اسجدوا ابتدأ بالضم ثم وصف الله تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من الاتصاف بكمال القدرة والعلم حثا على

السجود

السجود له وردًا على من يسجد لغيره سبحانه وتعالى بقوله (ألذي يخرج الخبء) وهو مصدر بمعنى المخبوء من المطر والنبات وغيرهما وخصه بقوله (في السموات والارض) لان ذلك منتهى مشاهدتنا فننظر ما يكون فيهما بعد ان لم يكن من سحاب ومطر ونبات وتوابع ذلك من الرعد والبرق وما يشرق من الكواكب ويغرب الى غير ذلك من الرياح والحر والبرد وما لا يحصيه الا الله تعالى (ويعلم ما يخفون) في قلوبهم (وما يعلنون) بألسنتهم وقرأ الكسائي وحفص بالتاء الفوقية فيهما والباقون بالتحتية فالخطاب ظاهر على قراءة الكسائي لان ما قبله أمرهم بالسجود وخاطبهم به والغيبة على قراءة الباقين غير ظاهرة لتقدم الضمائر الغائبة في قوله أعمالهم وصدهم وفهم وأما قراءة حفص فتأويلها انه خرج الى خطاب الحاضرين بعد أن أتم قصة أهل سبا ويجوز أن تكون التفاتا على أنه نزل الغائب منزلة الحاضر فخاطبه ملتفتا اليه وقوله (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) أي الذي هو أول الاجرام وأعظمها والمحيط بجملتها يحتمل أن يكون من كلام الهدهد استدراكا لما وصف عرش بلقيس بالعظم وأن يكون من كلام الله تعالى ردا عليه في وصفه عرشها بالعظم فبين العظمتين بون عظيم (فان قيل) من أين للهدهد التهدي الى معرفة الله ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه (أجيب) بأنه لا يبعد أن يلهمه الله تعالى ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها خصوصا في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له وهذه آية سجدة واختلف في محلها هل هو هذه الآية أو عند قوله قبلها وما يعلنون الجمهور على الاول ولما فرغ الهدهد من كلامه (قال) له سليمان (سننظر) أي نختبر ما قلته (أصدقت) فيه فنعذرك (أم كنت من الكاذبين) أي معروفا بالانخراط في سلكهم فانه لا يجترئ على الكذب عندي الا من كان عريقا في الكذب فهو أبلغ من أم كذبت وأيضا لمحافظة الفواصل ثم شرع فيما يختبره به فكتب له كتابا على الفور في غاية الوجازة قصدا للاسراع في ازالة المنكر على تقدير صدق الهدهد بحسب الاستطاعة ودل على اسراعه في كتابته بقوله جوابا له (اذهب بكتابي هذا) فكأنه كان مهيأ عنده فدفعه اليه وأمره بالاسراع فطار كأنه البرق ولهذا أشار بالفاء في قوله (فألقه اليهم) أي الذين ذكرت أنهم يعبدون الشمس وذلك للاهتمام بأمر الدين وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد بخلاف عنه فألقه بسكون الهاء واختلس الكسرة قالون وهشام بخلاف عنه والباقون باشباع الكسرة (ثم) قال له اذا ألقيته اليهم (تول) أي تنح (عنهم) الى مكان تسمع فيه كلامهم ولا يصلون معه اليك (فانظر ماذا يرجعون) أي يردون من الجواب وقال ابن زيد في الآية تقديم وتأخير مجازها اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم أي انصرف الى فأخذ الهدهد الكتاب وأتى الى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام قال قتادة فوافاها في قصرها وقد غلقت الابواب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب وأخذت

المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون اليه حتى رفعت المرأة رأسها فالقى الكتاب فى حجرها وقال وهب بن منبه وابن زيد كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فاذا نظرت اليها سجدت لها فجاء الهدهد الى الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم بها فلما استبطأت الشمس قامت تنظر اليها فرمى بالصحيفة اليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لان ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت أن الذى أرسل الكتاب أعظم ملكا منها وقرأت الكتاب وتأخر الهدهد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد ألف مقاتل وعن ابن عباس قال كان مع بلقيس مائة الف قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الاعظم وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاؤا أخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ) وهم أشراف الناس وكبراؤهم (انى ألقى الى) أى بالقاء ملق على وجه غريب (كتاب) أى صحيفة مكتوب فيها كلام وخبر جامع قال الزمخشرى وكانت كتب الانبياء جملا لا يطنبون ولا يكثرون ولما حوى هذا الكتاب من الشرف أمرا باهرا لم يعهد مثله وصفته بقولها (كريم) وقال عطاء والضحاك سمته كريما لانه كان مختوما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال كرامة الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاصطنع له خاتما وعن ابن المقنع من كتب الى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به وقال مقاتل كريم أى حسن وعن ابن عباس أى شريف لشرف صاحبه وقيل سمته كريما لانه كان مصدرا ببسم الله الرحمن الرحيم ثم بينت عمن الكتاب فقالت (انه من سليمان) ثم بينت المكتوب فيه فقالت (وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على) قال ابن عباس لا تتكبروا على وقيل لا تتعظموا ولا تترفعوا على أى لا تمتنعوا عن الاجابة فان ترك الاجابة من العلو والتكبر (وأتونى مسلمين) أى منقادين خاضعين فهو من الاستسلام أو مؤمنين فهو من الاسلام (فان قيل) لم قدم سليمان اسمه على البسملة (أجيب) بانه لم يقع منه ذلك بل ابتدأ الكتاب بالبسملة وانما كتب اسمه عنوانا بعد ختمه لان بلقيس انما عرفت كونه من سليمان بقراءة عنوانه كما هو المعهود ولذلك قالت انه بسم الله الرحمن الرحيم أى ان الكتاب فالتقديم واقع فى حكاية الحال واعلم أن قوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما قال الطيبى وقال القاضى هذا كلام فى غاية الوجازة مع اثبات كمال الصانع واثبات كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الاله وصفاته صريحا أو التزاما والنهى عن الترفع الذى هو أم الرذائل والامر بالاسلام الذى هو جامع لامهات الفضائل ولما سكتوا عن الجواب (قالت) لهم (يا أيها الملأ) ثم بينت ما داخلها من الرعب من صاحب هذا الكتاب بقولها

(أفتونى)

(أفتونى) أى تكرموا على بالاثابة عما أفعله (فى أمرى) هذا الذى أجيب به هذا الكتاب جعلت الشورى فتوى توسعا لأن الفتوى الجواب فى الحادثة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة واوا والباقون بتحقيقها وفى الابتداء الجميع بالتحقيق ثم علّلت أمرها لهم بقولها (ما كنت قاطعة أمرا) أى فاعلته وفاصلته غير مترددة فيه (حتى تشهدون) أفادت بذلك أن شأنها دائما مشاورتهم فى كل جليل وحقير فكيف بهذا الأمر الخطير وفى ذلك استعطافهم بتعظيمهم واجلالهم وتكريمهم ودلالة على غزارة عقلها وحسن أدبها ثم انهم أجابوها عن ذلك بأن (قالوا) مائلين الى الحرب (نحن أولو قوة) أى بالمال والرجال (وأولو) أى أصحاب (بأس) عزم فى الحرب (شديد والأمر) أى فى كل من المصادمة والمسالمة راجع وموكول (اليك فانظرى) أى بسبب أنه لا نزاع معك (ماذا تأمرين) فانا نطيعك ونتبع أمرك * ولما علمت ان من سخر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شئ يريده (قالت) جوابا لما أحست فى جوابهم من ميلهم الى الحرب والحرب سجال لا يدرى عاقبتها (ان الملوك) أى مطلقا فكيف بهذا النافذ الأمر العظيم القدر (اذا دخلوا) عنوة بالقهر (قرية أفسدوها) أى بالنهب والتخريب (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى أهانوا أشرافها وكبراءها كى يستقيم لهم الأمر ثم أكدت هذا المعنى بقولها (وكذلك) أى ومثل هذا الفعل العظيم الشأن (يفعلون) أى هو وخلق لهم مستمر فى جميعهم فكيف بمن تطيعه الوحوش والطيور وغيرهما *(تنبيه)* هذه الجملة من كلامها وهو كما قال ابن عادل الظاهر ولهذا أجيبت عليه فتكون منصوبة بالقول ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تصديقا لها فهى استئنافية لا محل لها من الاعراب وهى معترضة بين قولها ولما بينت ما فى المصادمة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها (وانى مرسلة اليهم) أى الى سليمان وقومه (بهدية) وهى العطية على طريق الملاطفة وذلك أن بلقيس كانت امرأة كيسة قد سيست وساست فقالت للملا من قومها انى مرسلة الى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكى فاختبره بها أملك هو أم نبى فان يكن ملكا قبل الهدية وانصرف وان يكن نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا الا أن نتبعه على دينه فذلك قولها (فناظرة بم) أى بأى شئ (يرجع المرسلون) فأهدت اليه وصفاء ووصائف قال ابن عباس ألبستهم لباسا واحدا كى لا يعرف ذكر من أنثى وقال مجاهد ألبست الجوارى لباس الغلمان وألبست الغلمان لباس الجوارى واختلف فى عددهم فقال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة وقال مجاهد ومقاتل مائة غلام ومائتا جارية وقال قتادة أرسلت اليه بلبنات من ذهب فى حرير وديباج وقال ثابت البنانى أهدت اليه صفائح الذهب فى أوعية الديباج وقيل كانت أربع لبنات من ذهب وقال وهب وغيره عمدت بلقيس الى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجوارى لباس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجوارى وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب وفى أعناقهم أطواقا من ذهب وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت اليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة

من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت المسك والعنبر وعمدت الى حقة فجعلت
فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها
يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة
الهدية وقالت ان كنت نبيا فميز بين الوصف والوصائف واخبر بما فى الحقة قبل ان تفتحها واثقب
الدرة ثقبا مستويا وادخل خيطا فى الخرزة المثقوبة من غير علاج انس ولا جن وأمرت بلقيس
الغلمان اذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى أن
يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرجل انظر الى الرجل اذا دخلت عليه فان
نظر اليك نظر غضب فاعلم انه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعزمنه وان رأيت الرجل بشاشا لطيفا
فاعلم انه نبى مرسل فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا
الى سليمان فأخبره الخبر كله فأمر سليمان عليه السلام الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات
الفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذى هو فيه الى تسعة فراسخ ميدانا واحدا
بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميادين حائطا شرفها من الذهب والفضة ففعلوا ثم
قال أى الدواب أحسن مما رأيتم فى البر والبحر قالوا يانبى الله انا رأينا دواب فى بحر كذا وكذا
منقطة مختلفة ألوانها لها أجنحة واعراف ونواص قال على بها الساعة فأتوا بها فقال شدوها
عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا لها علوفتها فيها ثم قال للجن على
بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره
ووضع له أربعة آلاف كرسى على يمينه ومثلها على يساره وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا
فراسخ وأمر الانس فاصطفوا صفوفا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير
فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره فلما دنا القوم من الميدان ونظروا الى ملك سليمان ورأوا
الدواب التى لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا
مامعهم من الهدايا وفى بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب
والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعا على قدر موضع اللبنات التى معهم فلما رأى
الرسل موضع اللبنات خاليا وكل الارض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم
فى ذلك الموضع الخالى فلما رأوا الشياطين نظروا الى منظر عجيب ففزعوا فقالت لهم الشياطين
جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرون على كردوس من الجن والانس والطير والسباع
والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان فنظر اليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق وقال ماوراءكم
فأخبره رئيس القوم بما جاؤا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحقة فأتى بها فحركها
وجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما فى الحقة فقال ان فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة
معوجة الثقب فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرزة فقال سليمان عليه
السلام من لى بثقبها فسأل سليمان الانس ثم الجن فلم يكن عندهم علم بذلك ثم سأل الشياطين فقالوا
أرسل الى الارضة فجاءت الارضة فأخذت شعرة فى فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب

الآخر فقال لها سليمان سلي حاجتك قالت تصير رزقي في الشجر فقال لك ذلك وروى انها جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف فجعل لها ذلك فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر ثم قال من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يا رسول الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان سلي حاجتك قالت تجعل رزقي في الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الاخرى ثم تضرب به الوجه والغلام يأخذ من الآنية بيديه ويضرب بهما وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهر الساعد وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرا فميز بينهم بذلك ثم رد سليمان الهدية كما قال تعالى (فلما جاء) أي الرسول الذي بعثته والمراد به الجنس قال أبو حيان وهو يقع على الجمع والمفرد والمذكر والمؤنث (سليمان) ورفع اليه ذلك (قال) أي سليمان عليه السلام للرسول ولمن في خدمته استصغارا لما معه (أتمدونني) أي أنت ومن معك ومن أرسلك (بمال) وانما قصدي لكم لاجل الدين تحقيرا لامر الدنيا واعلاما بأنه لا التفات له نحوها بوجه ولا يرضيه شيء دون طاعة الله تعالى وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير باثبات الياء وصلا ووقفا وحمزة بادغام النون الاولى في الثانية واثبات الياء وصلا ووقفا ثم تسبب عن ذلك قوله استصغارا لما معهم (فما آتاني الله) أي الملك الاعظم من الحكمة والنبوة والملك وهو الذي يغني مطيعه عن كل شيء سواه فهما سأله أعطاه وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في الوصل ولقالون وأبي عمرو وحفص أيضا اثباتها وقفا والباقون بحذف الياء وقفا ووصلا وأمالها حمزة والكسائي محضة وورش بالفتح وبين اللفظين (خير) أي أفضل (مما آتاكم) أي من الملك الذي لا دين ولا نبوة فيه (بل أنتم) أي بجهلكم بالدين (بهديتكم) أي باهداء بعضكم الى بعض (تفرحون) وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتي لان الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحدا ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة ثم قال للمنذر ابن عمرو أمير الوفد (ارجع) أي بهديتهم وجمع في قوله (اليهم) اكراما لنفسه وصيانة لاسمها عن التصريح بضميرها وتعظيما لكل من يهتم بأمرها ويطيعها (فلنأتينهم بجنود لا قبل) أي لا طاقة (لهم بها) أي بمقابلتها (ولنخرجنهم منها) أي من أرضهم وبلادهم وهي سبا (أذلة وهم صاغرون) أي ذليلون لا يملكون شيأ من المنعة (فان قيل) فلنأتينهم ولنخرجنهم قسم فلا بد أن يقع (أجيب) بأنه معلق على شرط محذوف افهم المعنى أي ان لم يأتوني مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتب لما رجعت رسل بلقيس اليها من عند سليمان قالت لهم قد عرفت والله ما هذا بملك ومالنا به من طاقة فبعثت الى سليمان اني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو اليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعلته داخل سبعة

أبواب داخل قصرها وقصرها داخل سبعة قصور وأغلقت الابواب وجعلت عليها حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما وكلتك وبسرير ملكي لا يخلص اليه أحد حتى آتيك ثم أمرت مناديا ينادي في أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وتجهزت للمسير فارتحلت في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل ألوف كثيرة قال ابن عباس كان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فخرج يوما فجلس على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه فقال ما هذا قالوا بلقيس وقد نزلت منا على مسيرة فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده بأن (قال) لهم (يا أيها الملأ) أي الاشراف (أيكم) وفي الهمزتين ما تقدم (يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) أي مؤمنين وقال ابن عباس واختلفوا في السبب الذي لاجله أمر سليمان باحضار عرشها فقال أكثرهم لان سليمان علم أنها ان أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه باسلامها وقيل ليريها قدرة الله تعالى ببعض ما خصه به من العجائب الدالة على عظيم القدرة وصدقه في دعوى النبوة في معجزة يأتي بها في عرشها وقال قتادة لانه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد بالعظم فأحب أن يراه وقال ابن زيد يريد أن يأمر بتنكيره وتغييره فيختبر بذلك عقلها (قال عفريت من الجن) وهو المارد القوي قال وهب اسمه كودي وقيل ذكوان وقال ابن عباس العفريت الداهي وقال الضحاك هو الخبيث وقال الربيع الغليظ وقال الفراء القوي الشديد قيل ان الشياطين أقوى من الجن وان المردة أقوى من الشياطين وان العفريت أقوى منهما قال بعض المفسرين العفريت من الرجال الخبيث المتكبر وقيل هو صخر الجني وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه وقوله تعالى (أنا آتيك به) قرأه في الموضعين نافع باثبات الالف من أنا وصلا ووقفا والباقون وصلا لا وقفا ثم بين سرعة اسراعه بقوله (قبل أن تقوم من مقامك) أي الذي تجلس فيه للقضاء قال ابن عباس كان له غداة كل يوم مجلس يقضي فيه الى نصف النهار ثم أوثق الامر وأكده بقوله (واني عليه) أي على الاتيان به سالما (لقوي) أي على حمله لا يحصل عجزي عنه (أمين) أي على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) المنزل وهو علم الوحي والشرائع وقيل كتاب سليمان وقيل اللوح المحفوظ والذي عنده علم من الكتاب جبريل قال البقاعي ولعله التوراة والزبور انتهى وفي ذلك اشارة الى أن من خدم كتاب الله حق الخدمة كان الله تعالى معه كما ورد في شرعنا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها أي أنه يفعل له ما يشاء (واختلفوا) في تعيينه فقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا كاتب سليمان وقيل اسمه اسطوم وكان صديقا عالما يعلم اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى وقيل ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام وعن ابن لهيعة بلغني أنه الخضر عليه السلام (أنا آتيك به) ثم بين فضله على العفريت بقوله (قبل أن يرتد) أي يرجع (اليك طرفك) أي بصرك اذا طرفت أجفانك فأرسلته الى منتهاه ثم رددته فالطرف تحريك

أجفانك

قوله وقال ابن عباس واختلفوا الخ كذا في الاصول ولعله محرف عن عياش أو وقال محرف عن قاله اه مصححه

قوله والباقون وصلا لا وقفا كذا في الاصول ولعله وقفا لا وصلا وليحرر اه مصححه

أجفانك اذا انطرت فوضع فى موضع النظر ولما كان الناظر موصوفا بارسال الطرف فى نحو قوله
وكنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما اتعبتك المناظر
وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد روى ان آصف قال لسليمان مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله تعالى الملائكة فحملوا السرير من تحت الارض يخدون خدا حتى انخرقت الارض بالسرير بين يدى سليمان وقال الكلبى خر آصف ساجدا ودعا باسم الله الاعظم فغار عرشها تحت الارض حتى نبع تحت كرسى سليمان بقدرة الله تعالى وقيل كانت المسافة شهرين وقال سعيد بن جبير يعنى من قبل أن يرجع اليك أقصى من ترى وهو أن يصل اليك من كان منك على مد بصرك وقال قتادة قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر وقال مجاهد يعنى ادامة النظر حتى يرد البصر خاسئا قال الزمخشرى ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجىء به كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة وفى ردة طرف والتفت ترنى وما أشبه ذلك تريد السرعة انتهى * واختلفوا فى الدعاء الذى دعا به آصف فقال مجاهد ومقاتل يا ذا الجلال والاكرام وقال الكلبى ياحى ياقيوم وروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها وروى عن الزهرى قال دعاء الذى عنده علم من الكتاب يا الهنا واله كل شىء الها واحدا لا اله الا أنت ائتنى بعرشها وعن الحسن يا الله يارحمن وقال محمد بن المنكدر انما هو سليمان قال له عالم من بنى اسرائيل آتاه الله تعالى علما وفهما أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك قال سليمان هات قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد أوجه عند الله منك فان دعوت الله كان عندك فقال صدقت ففعل ذلك فجىء بالعرش فى الوقت قال الرازى وهذا القول أقرب واستدل لذلك بوجوه منها ان سليمان كان أعرف بالكتاب من غيره لانه هو النبى فكان صرف اللفظ اليه أولى ومنها أن احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق ومنها انه قال هذا من فضل ربى فظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (فلما رآه) أى رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) أى حاصلا بين يديه (قال) شاكرا لربه لما آتاه الله تعالى من هذه الخوارق (هذا) أى الاتيان المحقق (من فضل ربى) أى المحسن الىّ لابعمل استحق به شيأ فانه أحسن الىّ باخراجى من العدم وتطرانى بتوفيقى للعمل فكل عمل نعمة يستوجب علىّ بها الشكر ولذلك قال (ليبلونى) أى ليختبرنى (أأشكر) فاعترف بكونه فضلا (أم أكفر) بظنى انى أوتيته باستحقاق *(تنبيه)* ههنا همزتان مفتوحتان فنافع يسهل الهمزة الثانية وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو وهشام ولم يدخل ورش وابن كثير ولورش أيضا ابدالها ألفا والباقون بالتحقيق وعدم الادخال ثم زاد فى حث نفسه على الشكر بقوله (ومن شكر) أى أوقع الشكر لربه (فانما يشكر لنفسه) فان نفعه لها وهو ان يستوجب تمام النعمة ودوامها لان الشكر قيد للنعمة الموجودة وجلب للنعمة المفقودة (ومن كفر) أى بالنعمة (فان ربى) أى المحسن الىّ

بتوفيق لما أنا فيه من الشكر (غنى) عن شكره لا يضره تركه شيأ (كريم) أى بادر بالانعام عليه فلا يقطعه عنه بسبب عدم شكره ولما حصل العرش عنده (قال) عليه السلام (نكروا) أى غيروا (لها عرشها) أى سريرها الى حالة تنكره اذا رأته قال قتادة ومقاتل هو أن يزاد فيه وينقص وروى انه جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه وجعل مكان الجوهر الاحمر أخضر ومكان الاخضر أحمر اختبارا لعقلها كما اختبرتنا بالوصفاء والوصائف والدرة وغير ذلك واليه أشار بقوله (ننظر أتهتدى) أى الى معرفته فيكون ذلك سببا لهدايتها فى الدين (أم تكون من الذين) شأنهم أنهم (لا يهتدون) بل هم فى غاية الغباوة ولا يتجدد لهم اهتداء وقال وهب ومحمد بن كعب الحامل لسليمان على ذلك أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشى له اسرار الجن لان أمها كانت جنية واذا ولدت له ولدا لا ينفكون عن تسخير سليمان وذريته من بعده فأساؤا الثناء عليها ليزهدوه فيها فقالوا ان فى عقلها شيأ وان رجليها كحافر الحمار وانها شعراء الساقين فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر الى قدميها ببناء الصرح ثم أشار الى سرعة مجيئها اشارة الى خضوعها بالتعبير بالفاء فى قوله (فلما جاءت) وكانت قد وضعت عرشها فى بيت خلف سبعة أبواب ووكلت به حراسا أشداء (قيل) لها وقد رأت عرشها بعد تنكيره (أهكذا عرشك) أى مثل هذا عرشك (قالت كأنه هو) قال مقاتل عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقال عكرمة كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من أن تكذب ولم تقل لا خوفا من التكذيب فقالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها أمر العرش لانها خلفته فى بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فقيل لها فانه عرشك فما أغنى عنك اغلاق الابواب وقوله تعالى (وأوتينا العلم من قبلها) فيه وجهان أحدهما انه من كلام بلقيس فالضمير فى قبلها راجع للمعجزة والحالة الدال عليها السياق والمعنى وأوتينا العلم بنبوة سليمان من قبل ظهور هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة وذلك لما رأت قبل ذلك من أمر الهدهد ورد الهدية والرسل من قبلها من قبل الآية فى العرش (وكنا مسلمين) أى منقادين طائعين لامر سليمان والثانى انه من كلام سليمان واتباعه فالضمير فى قبلها عائد على بلقيس فكان سليمان وقومه قالوا انها قد أصابت فى جوابها وهى عاقلة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم يعنى بالله تعالى وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة فى مثل علمها وغرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى ان خصهم بمزيد التقديم فى الاسلام قاله مجاهد وقيل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله تعالى واختلف فى فاعل قوله عز وجل (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) على ثلاثة أوجه أحدها ضمير البارى تعالى والثانى ضمير سليمان عليه السلام أى منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس وعلى هذا فما كانت تعبد منصوب على اسقاط الخافض أى وصدها الله تعالى أو سليمان عما كانت تعبد من دون الله قاله الزمخشرى مجوزا له قال أبو حيان وفيه نظر من حيث ان حذف الجار ضرورة كقوله

تمرون الديار فلم تعوجوا * وقد تقدم آيات كثيرة من هذا النوع والثالث أن الفاعل هو ما كانت

أى صدّها ما كانت تعبد عن الاسلام أى صدّها عبادة الشمس عن التوحيد وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) استئناف أخبر الله تعالى انها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف العبادة ولم تعرف الا عبادة الشمس ولما تم ذلك فكأنه قيل هل كان بعد ذلك اختبار فقيل نعم (قيل لها) أى قائل من جنود سليمان عليه السلام فلم يمكنها المخالفة (ادخلى الصرح) وهو سطح من زجاج أبيض شفاف تحته ماء جار فيه سمك اصطنعه سليمان ولما قالت له الشياطين ان رجليها كحافر الحمار وهى شعراء الساقين فأراد أن ينظر الى ساقيها من غير أن يسألها كشفهما وقيل الصرح صحن الدار أجرى تحته الماء وألقى فيه كل شئ من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما ثم وضع سريره فى صدره وجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وقيل اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع فكان الواحد اذا رآه ظنه ماء (فلما رأته حسبته لجة) وهى معظم الماء (وكشفت عن ساقيها) لتخوضه فنظر اليها سليمان فرآها أحسن الناس ساقا وقدما الا انها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف نظره عنها وناداها بأن (قال) لها (انه) أى هذا الذى ظننته ماء (صرح ممرد) أى مملس ومنه الامرد لملاسة وجهه من الشعر (من) أى كائن من (قوارير) أى زجاج وليس بماء ثم ان سليمان دعاها الى الاسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت بأن (قالت رب) أى أيها المحسن الى (انى ظلمت نفسى) أى بما كنت فيه من العمى بعبادة غيرك عن عبادتك (وأسلمت مع سليمان لله) أى مقرّة له بالالوهية والربوبية على سبيل الوحدانية ثم رجعت اشارة للعجز عن معرفة الذات حق المعرفة الى الافعال التى هى بحر المعرفة فقالت (رب العالمين) فعمت بعد أن خصت اشارة الى الترقى من حضيض دركات العمى الى أوج درجات الهدى وقيل انها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت فى نفسها ان سليمان يريد أن يغرقنى وكان القتل أهون من هذا فقوله ظلمت نفسى أى بذلك الظن واختلفوا فى أمرها بعد اسلامها هل تزوجها سليمان عليه السلام فالذى عليه أكثر المفسرين فيما رأيت انه تزوج بها وكره ما رأى من شعر ساقيها فسأل الانس ما يذهب هذا فقالوا الموسى فقالت المرأة لا تمسنى حديدة قط فسأل الجن فقالوا لا ندرى فسأل الشياطين فقالوا انا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرّها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا قال الطيبى سلحين ومومنة باليمن وغمدان قال فى النهاية هو بضم الغين وسكون الميم البناء العظيم وكان يزورها فى الشهر مرّة ويقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل انها لما أسلمت قال لها سليمان اختارى رجلا من قومك أن أزوجك له قالت ومثلى يا نبى الله ينكح الرجال وقد كان لى فى قومى من الملك والسلطان ما كان قال نعم انه لا يكون فى الاسلام الا ذلك ولا ينبغى لك ان تحرّمى ما أحل الله فقالت ان كان ولا بدّ فزوّجنى ذا تبع ملك همدان فزوجه بها ثم ردّها الى اليمن وسلطن زوجها ذا تبع على اليمن وأمر زوبعة أمير جن

اليمن أن يطيعه فبقي له المصانع ولم يزل أميرا حتى مات سليمان عليه السلام فلما ان حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى اذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يامعشر الجن ان الملك سليمان قدمات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان وقيل ان الملك وصل الى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه * ولما أتم سبحانه وتعالى قصة سليمان وداود عليهما السلام ذكر قصة صالح عليه السلام وهي القصة الثالثة بقوله تعالى (ولقد أرسلنا) أي بمالنا من العظمة (الى ثمود أخاهم) أي من القبيلة (صالحا) ثم ذكر المقصود من الرسالة بما لا أعدل منه ولا أحسن بقوله (ان اعبدوا الله) أي الملك الاعظم وحده ولا تشركوا به شيأ ثم تعجب منهم بما أشارت اليه الفاء واذا المفاجأة من المبادرة الى الافتراق بما يدعو الى الاجتماع بقوله (فاذاهم) أي ثمود (فريقان) وبين بقوله تعالى (يختصمون) انهم فرقة افتراق بكفر وايمان لا فرقة اجتماع في هدى وعرفان ففريق صدق صالحا واتبعه وفريق استمر على شركه وكذبه وكل فريق يقول أنا على الحق وخصمي على الباطل ثم استعطف صالح عليه السلام على المكذبين بأن (قال) لهم (ياقوم لم تستعجلون) أي تطلبون العجلة بالاتيان (بالسيئة) أي التي مساءتها ثابتة وهي العقوبة التي أنذرت بها من كفر (قبل) الحالة (الحسنة) من الخيرات التي أبشركم بها في الدنيا والآخرة ان آمنتم والاستعجال طلب الاتيان بالامر قبل الوقت المضروب واستعجالهم لذلك بالاصرار على سببه وقولهم استهزاء ائتنا بما تعدنا وكانوا يقولون ان العقوبة التي يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله تعالى توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب عقولهم واعتقادهم فقال (لولا) أي هلا ولم لا (تستغفرون الله) أي تطلبون غفرانه قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر (لعلكم ترحمون) تنبيها لهم على الخطا فيما قالوه فان العذاب اذا نزل بهم لا تقبل توبتهم *(تنبيه)* وصف العذاب بأنه سيئة مجازا اما لان العقاب من لوازمه أو لانه يشبهه في كونه مكروها وأما وصف الرحمة بأنها حسنة فقيل حقيقة وقيل مجاز ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر لهم هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد بأن (قالوا) فظاظة وغلظة (اطيرنا) أي تشاءمنا (بك وبمن معك) أي وبمن آمن بك وذلك أن الله تعالى قد أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا فقالوا حل بنا هذا الضرر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك قال الزمخشري كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشاءم قال الجوهري السنيح والسانح ما ولاك ميامنه من ظبي أو طائر أو غيرهما وبرح الظبي بروحا اذا ولاك مياسره يمر من ميامنك الى مياسرك والعرب تتطير بالبارح وتتفاءل بالسانح فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله تعالى وقسمته *(تنبيه)* أصل اطيرنا تطيرنا أدغمت التاء في الطاء واجتلبت

همزة وصل ثم أجابهم صالح عليه السلام بأن (قال) لهم (طائركم) أى مايصيبكم من خير وشر (عند الله) أى الملك الاعظم المحيط بكل شئ علما وقدرة وهو قضاؤه وقدره وليس شئ منه بيد غيره وسمى طائرا لسرعة نزوله بالانسان فانه لاشئ أسرع من قضاء محتوم وقال ابن عباس الشؤم أتاكم من عند الله تعالى بكفركم وقيل طائركم عملكم عند الله سمى طائرا لسرعة صعوده الى السماء ومنه قوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر كقوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة وقال محمد بن كعب تعذبون وقيل يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم بالتطير ولما أخبر الله تعالى عن عامة هذا الفريق بالشر نبه على بعض شرهم بقوله تعالى (وكان فى المدينة) أى مدينة ثمود وهى الحجر (تسعة رهط) أى رجال وانما جاز تمييز التسعة بالرهط لانه فى معنى الجماعة فكأنه قيل تسعة أنفس أو رجال كما قدرته والفرق بين الرهط والنفر أن الرهط من الثلاثة الى العشرة أو من السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم عن وهب الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم رياب بن مهرج مصدع بن مهرج عمير بن كردبة عاصم بن مخرمة سبيط بن صدقة سمعان ابن صفى قدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم ورأسهم قدار بن سالف وهو الذى تولى عقر الناقة وقوله (يفسدون فى الارض) اشارة الى عموم فسادهم ودوامه وقوله (ولا يصلحون) يحتمل أن يكون مؤكدا للاول ويحتمل أن لا يكون وهو الاولى لان بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح فنفى عنهم ذلك فليس شأنهم الا الفساد المحض الذى لا يخالطه شئ من الصلاح ولما اقتضى السياق السؤال عن بعض حالهم أجاب بقوله (قالوا تقاسموا) أى قال بعضهم لبعض احلفوا (بالله) أى الملك العظيم (لنبيتنه) أى صالحا (وأهله) أى من آمن به لنهلكن الجميع ليلا فان البيات مباغتة العدو ليلا * (تنبيه) * محل تقاسموا جزم على الامر ويجوز أن يكون فعلا ماضيا وحينئذ يجوز أن يكون مفسرا لقالوا كأنه قيل ما قالوا فقيل تقاسموا ويجوز أن يكون حالا على اضمار قد أى قالوا ذلك متقاسمين واليه ذهب الزمخشرى (ثم لنقولن) أى بعد اهلاك صالح ومن معه (لوليه) أى المطالب بدمه ان بقى منهم أحد (ما شهدنا) أى ما حضرنا (مهلك) أى اهلاك (أهله) أى أهل ذلك الولى فضلا عن أن نكون باشرنا أو أهل صالح عليه السلام فضلا عن أن نكون شهدنا مهلكه أو باشرنا قتله ولا موضع اهلاكه وقرأ حمزة والكسائى بعد اللام من لنبيتنه بتاء فوقية مضمومة وبعد الباء التحتية بتاء فوقية مضمومة وبعد اللام من لتقولن بتاء فوقية مفتوحة وضم اللام بعد الواو والباقون بعد اللام من لنقولن بنون مفتوحة ونصب اللام من لنقولن وقرأ عاصم مهلك بفتح الميم والباقون بضمها وكسر اللام حفص وفتحها الباقون ولما سموا على هذا الامر وطنوا أنفسهم على المبالغة فى الحلف بقولهم (وانا لصادقون) أى فى قولنا ما شهدنا مهلك أهله ذلك (فان قيل) كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه (أجيب) على التفسير الثانى بأنهم اعتقدوا أنهم اذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله فجمعوا بين

البياتين ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين لانهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم الا انهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لانفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سوّوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون فيها عن الكذب ولما كان منهم عمل من لم يظن ان الله عالم به قال تعالى محذرا أمثالهم عن أمثال ذلك (ومكروا مكرا) وهو ما أخفوه من تدبيرهم الفتك بصالح وأهله (ومكرنا مكرا) أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة (وهم لا يشعرون) أي لا يتجدد لهم شعور بما قدرناه عليهم شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة وقيل ان الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذلك مكر الله تعالى في حقهم (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) في ذلك (انا دمرناهم) أي أهلكناهم (وقومهم أجمعين) روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاثة فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاثة فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من أهضب جبالهم فبادروا الى الشعب فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل الله تعالى بهم وبقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم في مكانه بصيحة جبريل عليه السلام ورمتهم الملائكة بحجارة يرونها ولا يرونهم وقال ابن عباس أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة الى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وقال مقاتل نزلوا في سفح الجبل ينتظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فأهلكهم وأهلك الله تعالى قومهم بالصيحة (فتلك بيوتهم) أي ثمود كلهم (خاوية) أي خالية من خوى البطن اذا خلا أو ساقطة متهدمة من خوى النجم اذا سقط *(تنبيه)* خاوية منصوب على الحال والعامل فيها معنى اسم الاشارة وقرأ الكوفيون أنا دمرناهم بفتح الهمزة اما على حذف حرف الجر أي لانا دمرناهم واما أن يكون خبر مبتدا محذوف أي هي أنا دمرناهم أي العاقبة تدميرنا اياهم وقيل غير ذلك والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وهو تفسير للعاقبة وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة وكسرها الباقون ولما ذكر تعالى هلاكهم اتبعه بقوله تعالى (بما ظلموا) أي بسبب ظلمهم وهو عبادتهم من لا يستحق العبادة وتركهم من يستحقها ثم زاد في التهويل بقوله تعالى (ان في ذلك) أي هذا الامر الباهر للعقول الذي فعل بثمود (لآية) أي عبرة عظيمة ولكنها (لقوم يعلمون) قدرتنا فيتعظون أما من لا علم عنده فقد نادى على نفسه في عداد البهائم ولما ذكر تعالى الذين أهلكهم اتبعه بذكر الذين نجاهم فقال (وأنجينا) أي بعظمتنا وقدرتنا (الذين آمنوا) وهم الفريق الذين كانوا مع صالح كلهم (وكانوا يتقون) أي متصفين بالتقوى أيضا فكأنهم مجبولون عليه فيجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية من الاعمال الصالحة * ولما ذكر تعالى قصة صالح عليه السلام اتبعها قصة لوط عليه السلام وهي القصة الرابعة بقوله تعالى (ولوطا)

وهو اما منصوب عطفا على صالحا أى وأرسلنا لوطا واما عطفا على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا واما باذكر مضمرة ويبدل منه على هذا (اذ) أى حين (قال لقومه) أى الذين كان سكن فيهم لما فارق عمه ابراهيم الخليل عليه السلام وصاهرهم وكانوا يأتون الاحداث منكرا موبخا (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى الفحش (وأنتم تبصرون) من بصر القلب أى تعلمون فحشها واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح أو يبصرها بعضكم من بعض لانهم كانوا فى ناديهم يرتكبونها معلنين لا يستتر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة وانهماكا فى المعصية قال الزمخشرى وكان أبا نواس بنى على مذهبهم قوله

وبح باسم ما تأتى وذرنى من الكنى * فلا خير فى اللذات من دونها ستر

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم (فان قيل) اذا فسر تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء جهلاء (أجيب) بأنهم يفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمهم بذلك أو يجهلون العاقبة أو أن المراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ثم عين ما أبهمه بقوله (أئنكم لتأتون) وقال (الرجال) اشارة الى أن فعلتهم هذه مما يعى الوصف ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدق ذو عقل أن أحدا يفعلها ثم علل ذلك بقوله (شهوة) انزالا لهم الى رتبة البهائم التى ليس فيها قصد ولد ولا اعفاف وقال (من دون النساء) اشارة الى أنهم أساؤا من الطرفين فى الفعل والترك وقوله (بل أنتم قوم تجهلون) تقدم فى جواب تبصرون تفسيره (فان قيل) تجهلون صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب فهلا طابقت الصفة الموصوف (أجيب) بأنه قد اجتمعت الغيبة والمخاطبة فغلبت المخاطبة لانها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة وقرأ أئنكم نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة كالياء وحققها الباقون وأدخل بينهما قالون وأبو عمرو ألفا وهشام بخلاف عنه ولما بين تعالى جهلهم بين انهم أجابوا بما لا يصلح أن يكون جوابا بقوله تعالى (فما كان جواب قومه) أى لهذا الكلام الحسن لما لم يكن لهم حجة ولا شبهة فى دفعه (الا أن قالوا) عدولا الى المغالبة وتماديا فى الخبث (أخرجوا آل لوط) أى أهله وقالوا (من قريتكم) منا عليه باسكانه عندهم وعللوا ذلك بقولهم (انهم أناس يتطهرون) أى يتنزهون عن القاذورات كلها فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا انكارهم وعن ابن عباس هو استهزاء أى قالوه تهكما بهم ولما وصلوا فى الخبث الى هذا الحد تسبب سبحانه وتعالى عن قولهم وفعلهم قوله تعالى (فأنجيناه وأهله) أى كلهم من أن يصلوا اليهم بأذى ويلحقهم من عذابنا (الا امرأته قدرناها) أى قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا (من الغابرين) أى الباقين فى العذاب وقرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد (وأمطرنا عليهم مطرا) هو حجارة السجيل اى أهلكتهم ولذلك تسبب عنه قوله (فساء) أى فبئس (مطر المنذرين) بالعذاب مطرهم * ولما أتم سبحانه وتعالى هذه القصص الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه وما خص به رسله من الآيات والانتصار من البعداء أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحمده على هلاك الامم الخالية بقوله (قل) يا أفضل الخلق (الحمد)

أي الوصف بالاحاطة بصفات الكمال (لله) على اهلاك هؤلاء البعداء البغضاء وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك بقوله تعالى (وسلام على عباده الذين اصطفى) أي اصطفاهم واختلف فيهم فقال مقاتل هم الانبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى وسلام على المرسلين وقال ابن عباس في رواية أبي مالك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين *(تنبيه)* سلام مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء ولما بين أنه تعالى أهلكهم ولم تغن عنهم آلهتهم من الله شيأ قال تعالى (آلله) أي الذي له الجلال والاكرام (خير) أي لعباده الذين اصطفاهم وأنجاهم (أم ما يشركون) أي الكفار من الآلهة خير لعابدها فانهم لا يغنون عنهم شيأ *(تنبيه)* الكل من القراء السبعة في هاتين الهمزتين وجهان الاول تحقيق همزة الاستفهام وابدال همزة الوصل الفا مع المد والثاني تحقيق همزة الاستفهام أيضا وتسهيل همزة الوصل مع القصر وقرأ أبو عمرو وعاصم يشركون بالياء التحتية بالغيبة حملا على ماقبله من قوله تعالى وأمطرنا عليهم مطرا وما بعده من قوله تعالى بل أكثرهم والباقون بالتاء الفوقية على الخطاب وهو التفات للكفار بعد خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا تبكيت للمشركين بحالهم لانهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شيء الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها لهم على نهاية ضلالهم وجهلهم وتهكما بهم وتسفيها لرأيهم اذ من المعلوم أنه لا خير فيما أشركوه رأسا حتى يوازنوا بينه وبين من هو مبدأ كل خير وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم * ثم عدد سبحانه وتعالى أنواعا من الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله الاول منها قوله تعالى (أم من خلق السموات والارض) أي التي هي أصول الكائنات ومبادي المنافع فان قيل ما الفرق بين أم وأم في أم ما يشركون وأم من خلق السموات (أجيب) بأن تلك متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال الله خير أم الآلهة قال بل أم من خلق السموات والارض خير تقريرا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء (وأنزل لكم) أي لاجلكم خاصة وأنتم تكفرون به وتنسبون ما تفرد به من ذلك لغيره (من السماء ماء) هو للارض كالماء الدافق للارحام (فأنبتنا به حدائق) جمع حديقة وهي البستان وقيل القطعة من الارض ذات الماء قال الراغب سميت بذلك تشبيها بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها وقال غيره سميت بذلك لاحداق الجدران بها قاله ابن عادل وليس بشيء لانه يطلق عليها ذلك مع عدم الجدران (ذات بهجة) أي بهاء وحسن ورونق وسرور على تقارب أصولها مع اختلاف أنواعها وتباين طعومها وأشكالها ومقاديرها وألوانها ولما أثبت الانبات له نفاه عن غيره بقوله تعالى (ما كان) أي ما صح وما تصور بوجه من الوجوه (لكم) وأنتم أحياء فضلا عن شركائكم الذين هم أموات بل موات (أن تنبتوا شجرها) أي شجر تلك الحدائق (أإله مع الله) اعانه على ذلك أي ليس معه اله (بل هم) أي في ادعائهم معه سبحانه شريكا

(قوم يعدلون) أي عن الحق الذي لا مرية فيه الى غيره وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر ونظير هذه الآية أول سورة الانعام * الثاني منها قوله تعالى (أم من جعل الارض قرارا) وهو بدل من أم من خلق السموات وحكمه حكمه ومعنى قرارا لا تميد بأهلها وكان القياس يقتضي أن تكون هادئة أو مضطربة كما يضطرب ما هو معلق في الهواء ولكن الله تعالى أبدى بعضها من الماء بحيث يتأتى استقرار الانسان والدواب عليها (وجعل خلالها) أي وسطها (أنهارا) أي جارية على حالة واحدة فلو اضطربت الارض أدنى اضطراب لتغيرت مجاري المياه ثم ذكر تعالى سبب القرار بقوله تعالى (وجعل لها رواسي) أي جبالا لاثبت بها الارض على ميزان دبره سبحانه وتعالى في مواضع من ارجائها بحيث اعتدلت جميع جوانبها فامتنعت من الاضطراب ولما كان بعض مياه الارض عذبا وبعضها ملحا مع القرب جدا بين الله تعالى ان أحدهما لم يختلط بالآخر بقوله تعالى (وجعل بين البحرين) أي العذب والملح (حاجزا) من قدرته يمنع أحدهما أن يختلط بالآخر (أإله مع الله) أي المحيط علما وقدرة معين له على ذلك (بل أكثرهم) أي الذين ينتفعون بهذه المنافع (لا يعلمون) توحيد ربهم بل هم كالبهائم لاعراضهم عن هذا الدليل الواضح *(تنبيه)* في قراءة أإله مثل أئنكم * الثالث منها قوله تعالى (أم من يجيب المضطر) أي المكروب وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى اللجا والتضرع الى الله تعالى (اذا دعاه) وقت اضطراره وعن ابن عباس هو المجهود وعن السدي هو الذي لا حول له ولا قوة (فان قيل) هذا يعم كل مضطر وكم مضطر يدعو فلا يجاب (أجيب) بأن اللام فيه للجنس لا للاستغراق ولا يلزم منه اجابة كل مضطر وقوله تعالى (ويكشف السوء) كالتفسير للاستجابة وانه لا يقدر أحد على كشف ما وقع له من فقر الى غنى ومرض الى صحة الا القادر الذي لا يعجزه شيء والقاهر الذي لا ينازع والاضافة في قوله تعالى (ويجعلكم خلفاء الارض) بمعنى في أي يخلف بعضكم بعضا لا يزال يتجدد ذلك باهلاك قرن وانشاء آخر الى قيام الساعة (أإله مع الله) أي الملك الذي لا كفؤ له ثم استأنف التبكيت تفظيعا له ومواجها به بقوله تعالى (قليلا ما يذكرون) أي يتعظون وقرأ أبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالخطاب وفيه ادغام التاء في الذال وما زائدة لتقليل القليل * الرابع منها قوله تعالى (أم من يهديكم) أي يرشدكم الى مقاصدكم (في ظلمات البر) أي بالنجوم والجبال والرياح (والبحر) بالنجوم والرياح (ومن يرسل الرياح) أي التي هي دلائل السير (نشرا) أي تنشر السحاب وتجمعها (بين يدي رحمته) أي التي هي المطر تسمية للمسبب باسم السبب والرياح التي يهتدى بها في المقاصد أربع التي من تجاه الكعبة الصبا ومن ورائها الدبور ومن جهة يمينها الجنوب ومن شمالها الشمال ولكل منها طبع فالصبا حارة يابسة والدبور باردة رطبة والجنوب حارة رطبة والشمال باردة يابسة وهي ريح الجنة التي تهب على أهلها جعلنا الله ووالدينا ومشايخنا وأصحابنا ومن انتفع بشيء من هذا التفسير ودعا لنا بالمغفرة منهم وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير الريح

بالافراد والباقون بالجمع وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نشرا بضم النون والشين وابن عامر بضم النون وسكون الشين وحمزة والكسائى بفتح النون وسكون الشين وعاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين ولما انكشف بما مضى من الآيات ما كانوا فى ظلامه من واهى الشبهات واتضحت الادلة ولم يبق لاحد فى شئ من ذلك علة كرر سبحانه وتعالى الانكار فى قوله تعالى (أإله مع الله) أى الذى كل علمه (تعالى الله) أى الفاعل القادر المختار (عما يشركون) به غيره وأين رتبة العجز من رتبة القدرة * الخامس منها قوله تعالى (أم من يبدأ الخلق) أى كلهم فى الارحام من نطفة ما علمتم منهم ومالم تعلموا (ثم يعيده) أى بعد الموت لان الاعادة أهون (فان قيل) كيف قيل لهم ثم يعيده (أجيب) بأنهم كانوا مقرين بالابتداء ودلالته على الاعادة ظاهرة قوية لان الاعادة أهون عليه من الابتداء فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لا عذر لهم فى انكار الاعادة لقيام البراهين عليها ولما كان الامطار والانبات من أدل ما يكون على الاعادة قال مشيرا اليهما على وجه عم جميع ما مضى (ومن يرزقكم من السماء) أى بالمطر والحر والبرد وغيرها مما له سبب فى التكوين أو التلوين (والارض) أى بالنبات والمعادن والحيوان وغيرها مما لا يعلمه الا الله تعالى وعبر عنها بالرزق لان به تمام النعمة (أإله مع الله) أى الذى له صفات الجلال والاكرام ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة ودلائل قاطعة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم اعراضا عنهم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء المدعين للعقول (هاتوا برهانكم) أى حجتكم على نفى شئ من ذلك عن الله تعالى أو على اثبات شئ منه لغيره (ان كنتم صادقين) أى فى أنكم على حق فى أن مع الله تعالى غيره وأضاف تعالى البرهان اليهم تهكما بهم وتنبيها على أنهم أبعدوا فى الضلال وأغرقوا فى المحال ثم انهم سألوه عن وقت قيام الساعة فنزل (قل) أى لهم (لا يعلم من فى السموات والارض) من الملائكة والناس (الغيب) أى ما غاب عنهم وقوله تعالى (الا الله) استثناء منقطع أى لكن الله يعلمه ولما كان الله تعالى منزها عن أن يحويه مكان جعل الاستثناء هنا منقطعا (فان قيل) من حق المنقطع النصب (أجيب) بأنه رفع بدلا على لغة بنى تميم يقولون ما فى الدار أحد الا حمار يريدون ما فيها الا حمار كان أحدا لم يذكر ومنه قولهم ما أتانى زيد الا عمرو وما أعانه اخوانكم الا اخوانه (فان قيل) ما الداعى الى المذهب التميمى على الحجازى (أجيب) بأنه دعت اليه حاجة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله الا اليعافير بعد قوله ليس بها أنيس * الا اليعافير والا العيس ليؤل المعنى الى قولك ان كان الله ممن فى السموات والارض فهم يعلمون الغيب بمعنى أن علمهم الغيب فى استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أن معنى ما فى البيت ان كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس ابتاء عن خلوها عن الانيس ويصح أن يكون متصلا والظرفية فى حقه تعالى مجاز بالنسبة الى علمه وان كان فيه جمع بين الحقيقة والمجاز كما قال به امامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه وان منعه بعضهم ومن ذلك قول المتكلمين الله تعالى فى كل مكان على معنى أن علمه فى الاماكن كلها

فكان ذاته فيها وعلى هذا فيرتفع على البدل والصفة والرفع أفصح من النصب لانه منفى وعن عائشة رضى الله تعالى عنها من زعم أنه يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وعن بعضهم أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدا لئلا يأمن أحد من عبيده مكره وقوله تعالى (وما يشعرون) صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم بالغيب وان اجتمعوا وتعاونوا (أيان) أى أى وقت (يبعثون) أى ينشرون وقوله تعالى (بل) بمعنى هل (أدرك) أى بلغ وتناهى (علمهم فى الآخرة) أى بها حتى سألوا عن وقت مجيئها ليس الامر كذلك (بل هم فى شك) أى ريب (منها) كمن تحير فى الامر لا يجد عليه دليلا (بل هم منها عمون) لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم وهذا وان اختص بالمشركين ممن فى السموات والارض نسب الى جميعهم كما يسند فعل البعض الى الكل (فان قيل) هذه الاضرابات الثلاثة ما معناها (أجيب) بأنها تنزيل أحوالهم وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون بوقت البعث ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية فلا يزيلونه والازالة مستطاعة ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقا ولا باطلا ولا يفكر فى عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون ووصفهم باستحكام علمهم فى أمر الآخرة تهكما وقرأ أبو عمرو وابن كثير بقطع الهمزة مفتوحة وسكون اللام قبلها وسكون الدال بعدها والباقون بكسر اللام واسقاط الهمزة بعدها وتشديد الدال وبعدها ألف بمعنى تتابع حتى استحكم أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك وقوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا) أى نحن وآباؤنا الذين طال العهد بهم (لمخرجون) كالنبات والعامل فى اذا محذوف يدل عليه لمخرجون تقديره نبعث ونخرج لان بين يدى عمل اسم المفعول فيه عقبات وهى همزة الاستفهام وانا ولام الابتداء وواحدة منها كافية فكيف اذا اجتمعت والمراد الاخراج من الارض أو من حال الفناء الى حال الحياة وتكرير حرف الاستفهام بادخاله على اذا وانا جميعا انكار على انكار وجحود عقب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والضمير فى انا لهم ولآبائهم لان كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم *(تنبيه)* آباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل بالخبر مقام الفصل بالتوكيد وقرأ نافع بالخبر فى اذا وبالاستفهام فى أئنا وابن عامر والكسائى بالاستفهام فى الاول والخبر فى الثانى وزادا فيه نونا ثانية وباقى القراء بالاستفهام فى الاول والثانى وهم على مذاهبهم من التسهيل والتحقيق والمد والقصر فذهب قالون وأبى عمرو التسهيل فى الهمزة الثانية وادخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام ومذهب ورش وابن كثير التسهيل وعدم الادخال ومذهب هشام الادخال وعدمه مع التحقيق ومذهب الباقين التحقيق وعدم الادخال ثم أقام الكفار الدليل فى زعمهم على ذلك فقالوا تعليلا لاستبعادهم (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج

من القبور كما كنا أول مرة (نحن وآباؤنا من قبل) أى قبل محمد فقد مرت الدهور وعلى هذا الوعد ولم يقع منه شئ فذلك دليل على أنه لا حقيقة له فكأنه قيل فما فائدة المراد به فقالوا (ان) أى ما (هذا الا أساطير الاولين) أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها ولا حقيقة لها *(تنبيه)* أساطير الاولين جمع أسطورة بالضم أى ما سطر من الكذب (فان قيل) لم قدم فى هذه الآية هذا على نحن وآباؤنا وفى آية أخرى قدم نحن وآباؤنا على هذا (أجيب) بأن التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المقصود بالذكر وان الكلام انما سيق لاجله ففى احدى الآيتين دل على أن ايجاد البعث هو الذى تعمد بالكلام وفى الاخرى على أن ايجاد المبعوث بذلك الصدد ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم بما فى صورة التهديد بقوله تعالى (قل سيروا فى الارض) أى أيها العمى الجاهلون (فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بانكارهم وهى هلاكهم بالعذاب فانكم ان نظرتم وتأملتم أخبارهم حق التأمل أسرع بكم ذلك الى التصديق فنجوتم والا هلكتم كما هلكوا وأراد بالمجرمين الكافرين (فان قيل) فلم لم يقل عاقبة الكافرين (أجيب) بأن هذا يحصل به التخويف لكل العصاة ثم ان الله تعالى صبر نبيه صلى الله عليه وسلم على ما يناله من جهلاتهم وعماهم عن السبيل الذى هدى اليه الدليل بقوله تعالى (ولا تحزن عليهم) أى فى عدم ايمانهم فانما عليك البلاغ (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) أى لا تهتم بمكرهم عليك فأنا ناصرك عليهم وجاعل تدميرهم فى تدبيرهم كطغاة قوم صالح *(تنبيه)* الضيق الحرج يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر ولهذا قرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بالفتح ولما أشار تعالى الى أنهم لم يبقوا فى المبالغة فى التكذيب بالساعة وجها أشار تعالى الى أنهم فى التكذيب بالوعد بالساعة وغيرها من عذاب الله أشد مبالغة بقوله تعالى (ويقولون) بالمضارع المؤذن بالتجدد كل حين والاستمرار (متى هذا الوعد) أى العذاب والبعث والمجازاة الموعود بها وسموه وعدا اظهارا لحيثية تمكنا به (ان كنتم) أى أنت ومن تبعك (صادقين) فيه ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى (قل) لهم (عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم وردفكم ولحقكم فاللام مزيدة على هذا للتأكيد كالباء فى قوله ولا تلقوا بأيديكم ويصح أن يكون تضمن ردف معنى فعل فتعدى باللام نحو دنا وقرب وأردف وبهذا فسره ابن عباس وقد عدى بمن فى قول القائل

فلما ردفنا من عمير وصحبه * تولوا سراعا والمنية تعنق

يعنى دنونا من عمير (بعض الذى تستعجلون) أى فحصل لهم القتل ببدر وباقى العذاب يأتى بعد الموت *(تنبيه)* عسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك كالجزم بها وانما يطلقون اظهارا لوقارهم واشعارا بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيده ولما كان التقدير فان ربك لا يعجل على هذا العاصى بالانتقام مع تمام قدرته عطف عليه (وان ربك) أى المحسن اليك بالحلم على أمتك (لذو فضل) أى تفضل وانعام (على الناس) أى كافة (ولكن أكثرهم لا يشكرون) أى لا يعرفون حق النعمة له ولا يشكرونه بل

يستعجلون

يستعجلون بجهلهم العذاب قال ابن عادل وهذه الآية تبطل قول من قال لا نعمة لله على كافر (وان ربك) أى والحال انه (ليعلم ماتكن) أى تضمر وتسر وتخفى (صدورهم) أى الناس كلهم فضلا عن قومك (ومايعلنون) أى يظهرون من عداوتك وغيرها فيجازيهم على ذلك (ومامن غائبة فى السماء والارض) أى فى أى موضع كان منهما وأفردهما دلالة على ارادة الجنس الشامل لكل فرد * (تنبيه) * فى هذه التاء قولان أحدهما أنها للمبالغة كراوية وعلامة فى قولهم ويل للشاعر من راوية السوء كأنه تعالى قال ومامن شئ شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى * والثانى أنها كالتاء الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية قال الزمخشرى ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية فى أنها أسماء غير صفات (الا فى كتاب) هو اللوح المحفوظ كتب فيه ذلك قبل ايجاده لانه لا يكون شئ الا بعلمه وتقديره (مبين) أى ظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة * ولما تمم تعالى الكلام فى اثبات المبدا والمعاد ذكر بعده مايتعلق بالنبوة بقوله تعالى (ان هذا القرآن) أى الآتى به هذا النبى الامى الذى لم يعرف قبله علما ولا خالط عالما (يقص على بنى اسرائيل) أى الموجودين فى زمان نبينا صلى الله عليه وسلم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) أى من أمر الدين وان بالغوا فى كتمه كقصة الزانى المحصن فى اخفائهم ان حده الرجم وقصة عزير والمسيح واخراج النبى صلى الله عليه وسلم ذلك مما فى توراتهم فصح بحقيقته على لسان من لم يعلم قط نبوته صلى الله عليه وسلم لان ذلك لا يكون الا من عند الله ثم وصف تعالى فضل هذا القرآن بقوله تعالى (وانه لهدى) أى من الضلالة لما فيه من الدلائل على التوحيد والحشر والنشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى (ورحمة) أى نعمة واكرام (للمؤمنين) أى الذين طبعهم على الايمان فهو صفة لهم راسخة كما أنه للكافرين وقر فى آذانهم وعمى فى قلوبهم * ولما ذكر تعالى دليل فضله أتبعه دليل عدله بقوله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بما لم يصل اليه أحد (يقضى بينهم) أى بين جميع المختلفين (بحكمه) أى الذى هو أعدل حكم وأتقنه وأنفذه (فان قيل) القضاء والحكم شئ واحد فقوله تعالى يقضى بينهم بحكمه أى بما يحكم به كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه (أجيب) بأن معنى قوله تعالى بحكمه أى بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضى الا بالعدل فسمى المحكوم به حكما أو أراد بحكمته (وهو) أى والحال أنه هو (العزيز) أى فلا يرد له أمر (العليم) فلا يخفى عليه سر ولا جهر فلما ثبت له تعالى العلم والحكمة والعظمة والقدرة تسبب عن ذلك قوله تعالى (فتوكل على الله) أى ثق به لتدع الامور كلها اليه وتستريح من تحمل المشاق وثوقا بنصره ثم علل ذلك بقوله تعالى (انك على الحق المبين) أى البين فى نفسه الموضح لغيره فصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله تعالى ونصره وقوله تعالى (انك لا تسمع الموتى) تعليل آخر للامر بالتوكل من حيث انه يقطع طمعه من معاضدتهم وانما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع مايتلى عليهم كما شبهوا بالصم فى قوله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) أى معرضين (فان قيل) مامعنى قوله تعالى ولوا مدبرين (أجيب) بأنه تأكيد لحال

الاصم لانه اذا تباعد عن محل الداعي بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته وقرأ
ابن كثير ولا يسمع بالياء التحتية المفتوحة وفتح الميم الصم برفع الميم والباقون بالتاء الفوقية
مضمومة وكسر الميم الصم بالنصب وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية من الدعاء
اذا كالياء مع تحقيق الاولى والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المد ثم قطع طمعه في
ايمانهم بقوله تعالى (وما أنت بهادي العمي) أي في أبصارهم وبصائرهم مزيلا لهم وناقلا
ومبعدا (عن ضلالتهم) أي عن الطريق بحيث تحفظهم عن أن يزلوا عنها أصلا فان هذا
لا يقدر عليه الا الحي القيوم وقرأ حمزة تهدي بتاء فوقية وسكون الهاء والعمي بنصب الياء
والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء بعدها ألف والعمي بكسر الياء ولما كان هذا
رعبا وقف عن دعائهم رجاء في انقيادهم وارعوائهم بقوله تعالى (ان) أي ما (تسمع) أي
سماع انتفاع على وجه الكمال في كل حال (الا من يؤمن) أي من علمنا أنه يصدق (بآياتنا)
بأن جعلنا فيه قابلية السمع ثم تسبب عنه قوله دليلا على ايمانه (فهم مسلمون) أي مخلصون
في غاية الطواعية لك كما في قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أي جعله سالما خالصا
ثم ذكر تعالى ما يوعدون مما تقدم استعجالهم له استهزاء بقوله تعالى (واذا وقع القول عليهم)
أي مضمون القول وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله أو أطلق
المصدر على المفعول أي المقول (أخرجنا) اي بما لنا من العظمة (لهم) حين مشارفة
العذاب والساعة وظهور اشراطها حين لا تنفع التوبة (دابة من الارض) وهي الجساسة
جاء في الحديث ان طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى ان لها أربع
قوائم وزغبا وهو شعر أصفر على ريش الفرخ وريشا وجناحين وعن ابن جريج في وصفها
فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن ايل وعنقها عنق
نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش
وخفها خف بعير ومابين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وروى أنها
لا تخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أي يبلغ السحاب وعن أبي هريرة فيها من كل لون
ومابين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضي
الله تعالى عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها وروى انه صلى الله
عليه وسلم سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فبينما هم
الا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون
وقوم يقفون نظارا وقيل تخرج من الصفا ولما كان التعبير بالدابة يفهم أنها كالحيوانات
العجم لا كلام لها قال (تكلمهم) أي بالعربية كما قاله مقاتل بكلام يفهمونه بلسان طلق ذلق
فتقول (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أي ان الناس كانوا لا يوقنون بخروجي لان
خروجها من الآيات وتقول ألا لعنة الله على الظالمين وعن السدي تكلمهم ببطلان الاديان
كلها سوى دين الاسلام وعن ابن عمر تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل

المشرق ثم الشأم ثم اليمن فتفعل مثل ذلك وروى أنها تخرج من أجياد روى بينما عيسى
عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق
الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب
المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في
وجهه حتى يضيء لها وجهه أو تترك وجهه كأنه كوكب درى وتكتب بين عينيه مؤمن
وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر
وروى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم يا فلان أنت من
أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة وخاصة أحدكم
وأمر العامة وقال صلى الله عليه وسلم ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج
الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها وقال صلى الله
عليه وسلم للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها في البادية
ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة
فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوما في أعظم المساجد على
الله حرمة وأكرمها على الله عز وجل يعني المسجد الحرام لم يرعهم الا وهي في ناحية المسجد تدنو
وتدنو قال الراوى ما بين الركن الاسود الى باب بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد
في وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم
تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت
في الارض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى ان الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه
من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه فيتجاور الناس في
ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الاموال ويعرف الكافر من المؤمن فيقال
للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر وعن علي رضي الله تعالى عنه انه قال ليست بدابة لها ذنب
ولكن لها لحية يشير الى أنها رجل والاكثرون على أنها دابة وعن ابن عباس انه قرع الصفا
بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه
الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين وقال وهب وجهها وجه الرجل
وسائر خلقها خلق الطير فتخبر من يراها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرأ
الكوفيون بفتح الهمزة من أن على تقدير الباء أي بأن الناس الخ والباقون بكسرها على
الاستئناف (ويوم نحشر) أي الناس على وجه الاكراه قال أبو حيان الحشر الجمع على عنف
(من كل أمة) أي قرن (فوجا) أي جماعة (ممن يكذب بآياتنا) أي وهم رؤساؤهم
المتبوعون (فهم يوزعون) أي يجمعون برد آخرهم الى أولهم وأطرافهم على أوساطهم

لئلا يلحقوا ولا يشذ منهم أحد ولا يزالون كذلك (حتى اذا جاؤا) الى مكان الحساب (قال) أى الله تعالى لهم (أكذبتم) أى أنبيائى (بآياتى) التى جاؤا بها (و) الحال أنكم (لم تحيطوا بها) أى من جهة تكذيبكم (علما) أى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى الاحاطة بما فى معانيها وما أظهرت لاجله حتى تعلموا ما تستحقه وما يليق بها بدليل الامر به فيه وأم فى قوله تعالى (أم ماذا) منقطعة وتقدم حكمها وماذا يجوز أن يكون برمته استفهاما منصوبا بتعملون الواقع خبرا عن كنتم وأن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا موصول خبره والصلة (كنتم تعملون) وعائده محذوف أى أى شئ الذى كنتم تعملونه (ووقع القول) أى وجب العذاب الموعود (عليهم بما ظلموا) أى بسبب ما وقع منهم من الظلم من صريح التكذيب وما نشأ عنه من الضلال فى الاقوال والافعال (فهم لا ينطقون) قال قتادة كيف ينطقون ولا حجة لهم نظيره قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون وقيل لا ينطقون لان أفواههم مختومة ثم انه تعالى لما خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد والحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال (ألم يروا) مما يدلهم على قدرتنا على بعثهم بعد الموت وعلى كل ما أخبرناهم به (انا جعلنا) أى بعظمتنا الدالة على نفوذ مرادنا وفعلنا بالاختيار (الليل) أى مظلما (ليسكنوا فيه) عن الانتشار (والنهار مبصرا) أى يبصر فيه ليتصرفوا فيه ويبتغوا من فضل الله فحذف من الاول ما ثبت نظيره فى الثانى ومن الثانى ما ثبت نظيره فى الاول اذ التقدير جعلنا الليل مظلما كما مر ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ليتصرفوا فيه كما مر فحذف مظلما لدلالة مبصرا وليتصرفوا لدلالة لتسكنوا فيه وقوله تعالى مبصرا كقوله تعالى آية النهار مبصرة وتقدم الكلام على ذلك فى الاسراء قال الزمخشرى فان قلت ما للتقابل لم يراع فى قوله تعالى ليسكنوا ومبصرا حيث كان أحدهما علة والآخر حالا قلت هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لان معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب وأجاب غيره بأن السكون فى الليل هو المقصود ولانه وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية (ان فى ذلك) أى هذا المذكور (لآيات) أى دلالات بينة على التوحيد والبعث والنبوة وغير ذلك وخص المؤمنين بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون به وان كانت الادلة للكل كقوله تعالى هدى للمتقين ولما ذكر تعالى هذا الحشر الخاص والدليل على مطلق الحشر ذكر الحشر العام بقوله تعالى (ويوم ينفخ) أى بأيسر أمر (فى الصور) أى القرن ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام (ففزع) أى فصعق كما قال تعالى فى آية أخرى فصعق (من فى السموات ومن فى الارض) أى كلهم فماتوا والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع الى أن يموتوا وقيل ينفخ اسرافيل فى الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين (فان قيل) لم قال الله تعالى ففزع ولم يقل فيفزع (أجيب) بأن فى ذلك نكتة وهى الاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والارض لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند

النفخة الاولى حين يصعقون (الا من شاء الله) أى المحيط علما وقدرة وعزة وعظمة أن لا يفزع روى أنه صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عنهم فقال هم الشهداء يتقلدون أسيافهم حول العرش وعن ابن عباس هم الشهداء لانهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع اليهم وعن مقاتل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس اسرافيل ثم يقول الله تعالى من بقى يا ملك الموت فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس ميكائيل ثم يقول الله تعالى من بقى يا ملك الموت فيقول سبحانك ربى تباركت وتعاليت بقى جبريل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقى فيقول تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام وجهك الباقى الدائم وجبريل الميت الفانى قال يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه فيروى أن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الاربعة حملة العرش ثم روح اسرافيل ثم روح ملك الموت وعن الضحاك هم رضوان والحور ومالك والزبانية عليهم السلام وقيل عقارب النار وحياتها (وكل) أى من فزع ومن لم يفزع (أتوه) أى بعد ذلك للحساب بنفخة أخرى يقيمهم بها وفى ذلك دليل على تمام قدرته تعالى فى كونه أقامهم عما به أماتهم (داخرين) أى صاغرين وقرأ حفص وحمزة بقصر الهمزة وفتح التاء على انه فعل ماض وفعوله الهاء فالتعبير به لتحقق وقوعه والباقون بمد الهمزة وضم التاء على انه اسم فاعل مضاف للهاء وهذا حمل على معنى كل وهى مضافة تقديرا أى وكلهم * ولما ذكر تعالى دخورهم اتبعه بدخور ماهو أعظم منهم بقوله تعالى (وترى الجبال) أى تبصرها وقت النفخة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لكونه أنفذ الناس بصرا وأنورهم بصيرة أو لكل أحد (تحسبها) أى تظنها (جامدة) أى قائمة ثابتة فى مكانها لا تتحرك لان الاجرام الكبار اذا تحركت فى سمت واحد لا تكاد تتبين حركتها (وهى تمر) أى تسير حتى تقع على الارض فتسوى بها مبثوثة ثم تصير كالعهن ثم تصير هباء منثورا وأشار تعالى الى أن سيرها خفى وان كان حثيثا بقوله تعالى (مر السحاب) أى مرا سريعا لا يدرك على ماهو عليه لانه اذا أطبق الجو لا يدرك سيره مع انه لا شك فيه والا لم تنكشف الشمس بلا لبس وكذلك كبير الجرم أو كثير العدد يقصر عن الاحاطة به لبعد ما بين أطرافه ولكثرته البصر والناظر الحاذق يظنه واقفا وقرأ تحسبها بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائى وفتحها الباقون وقوله تعالى (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله أضيف الى فاعله بعد حذف عامله اى صنع الله ذلك صنعا ثم زاد فى التعظيم بقوله دالا على تمام الاحكام فى ذلك الصنع (الذى أتقن) أى أحكم (كل شئ) صنعه ولما ثبت هذا على هذا الوجه المتقن والنظام الامكن أنتج قطعا قوله تعالى (انه) أى الذى أتقن هذه الامور (خبير بما يفعلون) أى عالم بظواهر الاحوال وبواطنها ليجازيهم عليها كما قال تعالى (من جاء بالحسنة) أى الكاملة وهى الايمان وعن ابن عباس الحسنة كلمة الشهادة (فله خير) أى

أفضل (منها) مضاعفاً أقل ما يكون عشرة أضعاف الى ما لا يعلمه الا الله تعالى وقيل له خير حاصل من جهتها وهو الجنة وفسر الجلال المحلي الحسنة بلا اله الا الله وقال في قوله خير منها أي بسببها فليس للتفضيل اذ لا فعل خير منها وهذا يناسب القول الثاني (وهم) أي الجاؤن بها (من فزع يومئذ) أي يومئذ اذ وقعت هذه الاحوال العظيمة (آمنون) أي حتى لا يحزنهم الفزع الاكبر وقرأ يفعلون ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب وقرأ وهم من فزع يومئذ آمنون الكوفيون بتنوين العين والباقون بغير تنوين وهو أعم فانه يقتضي الامن من جميع فزع ذلك اليوم وأما قراءة التنوين فتحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العذاب وأما ما يلحق الانسان من الرعب ومشاهدته فلا ينفك منه أحد ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وقرأ نافع والكوفيون بفتح الميم من يومئذ والباقون بكسرها (فان قيل) أليس قال تعالى في أول الآية ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله فكيف نفى الفزع ههنا (أجيب) بأن الفزع الاول لا يخلو منه أحد عند الاحساس بشدة تقع أو هول يفجأ الا ما استثنى وان كان المحسن آمنا من لحاق الضرر وأما الثاني فهو الخوف من العذاب (ومن جاء بالسيئة) أي التي لا سيئة مثلها وهي الشرك لقوله تعالى (فكبت) أي بأيسر أمر (وجوههم في النار) بأن وليتها مع انه ورد في الصحيح ان مواضع السجود التي أشرفها الوجه لا سبيل للنار عليها والوجه أشرف ما في الانسان فاذا هان كان ما سواه أولى بالهوان والمكبوب عليه منكوس ويقال له تبكيتا (هل) أي ما (تجزون الا) جزاء (ما كنتم تعملون) أي من الشرك والمعاصي *(تنبيه)* جعل مقابلة الحسنة بالثواب والسيآت بالعقاب من جملة احكامه للاشياء واتقانه لها واجرائه لها على قضايا الحكمة انه عليم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك فانظر الى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ افراغا واحدا ولامر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق والادعياء ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه (انما أمرت) أي بأمر من لا يرد له أمر (أن أعبد) أي بجميع ما آمركم به (رب) أي موجد ومدبر (هذه البلدة) أي مكة التي تخرج الدابة منها فيفزع كل من رآها ثم تؤمن أهل السعادة أخصه بذلك لا أعبد شيأ مما تعبدونه (الذي حرمها) أي جعلها الله تعالى حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولما خص مكة بهذه الاضافة تشريفا لها وتعظيما لشأنها قال احترازا عما قد يتوهم (وله كل شئ) أي من غيرها مما أشركتموه به وغيره خلقا وملكا ولما كانوا ربما قالوا نحن نعبده بعبادة من نرجو يقربنا اليه زلفى عين له الدين الذي تكون به العبادة بقوله (وأمرت) أي مع الامر بالعبادة له وحده (أن أكون) أي كونا هو في غاية الرسوخ (من المسلمين) أي المنقادين لجميع ما يأمر به كتابه أتم انقياد ثابتا على ذلك غاية الثبات (وان) أي وأمرت أن (أتلو القرآن) عليكم تلاوة الدعوة الى

الايمان أو أن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيأ فشيأ (فمن اهتدى) أي باتباع هذا القرآن الداعي الى الجنان (فانما يهتدي لنفسه) أي لاجلها لان ثواب هدايته له (ومن ضل) أي عن الايمان الذي هو الطريق المستقيم (فقل) أي له كما تقول لغيره (انما أنا من المنذرين) أي المخوفين له عواقب صنعه فلا على من وبال ضلاله شئ اذ ما على الرسول الا البلاغ وقد بلغت (وقل) أي انذارا لهم وترغيبا وترجية وترهيبا (الحمد) أي الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أي الذي له العظمة كلها على نعمة النبوة وعلى ما علمني ووفقني للعمل به (سيريكم آياته) القاهرة في الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الارض وفي الآخرة بالعذاب الاليم (فتعرفونها) أي فتعرفون أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة (وما ربك) أي المحسن اليك بجميع ما أقامك فيه من هذه الامور العظيمة والاحوال الجسيمة (بغافل عما تعملون) أي فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب لان المعنى عما تعمل أنت وأتباعك من الطاعة وهم من المعصية والباقون بالياء على الغيبة وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أن من قرأ طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وابراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا اله الا الله حديث موضوع

(سورة القصص مكية)

الا قوله تعالى ان الذي فرض الآية نزلت بالجحفة والا الذين آتيناهم الكتاب الى لا نبتغي الجاهلين وهي سبع أو ثمان وثمانون آية وألف وأربعمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف وتسمى سورة موسى عليه السلام لاشتمالها على قصته فقط من حين ولد الى أن أهلك الله تعالى فرعون وخسف بقارون كما سميت سورة نوح وسورة يوسف لاشتمالهما على قصتهما ولا يقال سميت بذلك لذكر القصص فيها في قوله تعالى فلما جاءه وقص عليه القصص لان سورة يوسف فيها ذكر القصص مرتين الاولى نقص عليك أحسن القصص والثانية قوله تعالى لقد كان في قصصهم فكانت سورة يوسف أولى بهذا الاسم وأيضا فكانت سورة هود أولى بهذا الاسم لانه ذكر فيها قصص سبعة أنبياء وهذه ليس فيها الا قصة واحدة فكان ينبغي العكس وأن تسمى سورة هود القصص وهذه سورة موسى (بسم الله) الذي اختص بالكبرياء والعظمة (الرحمن) الذي عم بنعمه أهل الايمان والكفران (الرحيم) الذي خص بنعمه بعد البعث أهل الايمان (طسم) تقدم الكلام على أوائل السور أول البقرة (تلك) أي هذه الآيات العالية الشأن (آيات الكتاب) أي المنزل على قلبك الجامع لجميع المصالح الدنيوية والاخروية والاضافة بمعنى من (المبين) أي المظهر الحق من الباطل (نتلو) أي نقص قصا متتابعا متواليا بعضه في اثر بعض (عليك) بواسطة جبريل عليه السلام (من نبأ) أي خبر (موسى وفرعون بالحق) أي بالصدق الذي يطابقه الواقع *(تنبيه)* يجوز أن يكون مفعول

تلو محمد وقادات عليه صنته وهي من نبا موسى تقديره تلو عليك شيأ من نبا موسى ويجوز أن
تكون من مزيدة على رأى الاخفش أى تلو عليك نبأ موسى وبالحق يجوز أن يكون حالا من
فاعل تلو ومن مفعوله أى تلو عليك بعض خبرهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق ثم نبه على أن هذا
البيان كما سبق انما ينفع أولى الاذعان بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) فغيرهم لا ينتفع بذلك
ولما كان كأنه قيل ما المقصود من هذا قال (ان فرعون) ملك مصر الذى ادّعى الالهية (علا)
أى بادعاء الالهية وتجبره على عباد الله وقهره لهم (فى الارض) أى أرض مصر واطلاقها
يدل على تعظيمها وانها كجميع الارض لاشتمالها على ما قل أن يشتمل عليه غيرها (وجعل)
أى بما جعلنا له من نفوذ الكلمة (أهلها) أى أهل الارض المرادة (شيعا) أى فرقا تتبع كل
فرقة شيأ يتبعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يكون عتيقه أو اصنافا
فى استخدامه يسخر صنفا فى بناء وصنفا فى حفر وصنفا فى حرث ومن لم يستعمله ضرب عليه
الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء وهم بنو اسرائيل والقبط وقوله تعالى
(يستضعف طائفة منهم) يجوز فيه ثلاثة أوجه أن يكون حالا من فاعل جعل أى جعلهم كذلك
حالة كونه مستضعفا طائفة منهم وأن يكون صفة لشيعا وأن يكون استئنافا بيانا لحال الاهل
الذين جعلهم فرقا وأصنافا وهم بنو اسرائيل الذين كانت حياة جميع أهل مصر على يدى
واحد منهم وهو يوسف عليه السلام وفعل معهم من الخير ما لم يفعله والد مع ولده ومع ذلك كافؤه
فى أولاده وأولاد اخوته بأن استعبدوهم ثم ما كفاهم ذلك حتى ساؤهم على يدى العنيد سوء
العذاب قال البقاعى وهذا حال الغرباء بينهم قديما وحديثا ثم بين الاستضعاف بقوله تعالى
(يذبح أبناءهم) أى عند الولادة وكل بذلك أناسا ينظرون كلما ولدت امرأة ذكرا ذبحوه
وسبب ذلك ان كاهنا قال له سيولد مولود فى بنى اسرائيل يذهب ملكك على يديه فولد تلك
الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وبقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة وكان ذلك من
غاية حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فلا وجه القتل
(ويستحيى نساءهم) أى يريد حياة الاناث فلا يذبحهن وقال السدى ان فرعون رأى فى منامه
نارا أقبلت من بيت المقدس الى مصر فأحرقت القبط دون بنى اسرائيل فسأل عن رؤياه فقيل له
يخرج من هذا البلد من بنى اسرائيل رجل يكون هلاك مصر على يديه فأمر بقتل الذكور وقيل
ان الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه فسمع فرعون ذلك
فأمر بذبح بنى اسرائيل (انه) أى فرعون (كان من المفسدين) فلذلك اجترأ على قتل
خلق كثير من أولاد الانبياء لتخيل فاسد قال وهب ذبح فرعون فى طلب موسى سبعين ألفا من
بنى اسرائيل وقوله تعالى (ونريد أن نمن) عطف على قوله ان فرعون علا فى الارض لانها
نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا للنبا موسى وفرعون وقصصا له ونريد حكاية حال ماضية أى
نعطى بقدرتنا وعلمنا ما يكون جديرا أن نمن به (على الذين استضعفوا) أى حصل
استضعافهم وأهانهم بهذا الفعل الشنيع ولم يراقب فيهم مولاهم (فى الارض) أى أرض مصر

فذلوا وأهينوا ونريهم فى أنفسهم وأعدائهم فوق ما يحبون وفوق ما يأملون (ونجعلهم أئمة) أى مقدمين فى الدين والدنيا علماء يدعون الى الجنة عكس ما يأتى من عاقبة آل فرعون وقال مجاهد دعاة الى الخير وقال قتادة ولاة وملوكا لقوله تعالى وجعلكم ملوكا وقيل يقتدى بهم فى الخير (ونجعلهم) أى بعظمتنا وقدرتنا (الوارثين) أى لملك مصر لا ينازعهم فيه أحد من القبط يخلفونهم فى مساكنهم (ونمكن) أى نوقع التمكين (لهم فى الارض) أى كلها لاسيما أرض مصر والشأم باهلاك أعدائهم وتأييد ملكهم وتأييدهم بكلمة الله ثم بالانبياء من بعده صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بحيث يسلطهم بسببهم على من سواهم بما يؤيدهم به من الملائكة ويظهر لهم من الخوارق (ونرى) أى بما لنا من العظمة (فرعون) أى الذى كان هذا الاستضعاف منه (وهامان) وزيره (وجنودهما) أى الذين كانا يتوصلان بهم الى ما يريدانه من الفساد فيقوى كل منهم بالآخر فى الارض فعلوا وطغوا وقوله تعالى (منهم) أى المستضعفين متعلق بنرى أو بنريد لا بيحذرون لان ما بعد الموصول لا يعمل فيما قبله (ما كانوا يحذرون) أى من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم وقرأ حمزة والكسائى ويرى بالياء مفتوحة وفتح الراء مع الامالة وسكون الياء بعد الراء ورفع فرعون وهامان وجنودهما مضارع رأى مسندا الى فرعون وما عطف عليه فلذلك رفعوا وقرأ الباقون بالنون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الاسماء الثلاثة مضارع أرى فلذلك نصب فرعون وما عطف عليه مفعولا أول وما كانوا هو الثانى ثم ذكر تعالى أول نعمة من بها على الذين استضعفوا بقوله تعالى (وأوحينا) أى وحى الهام أو منام (الى أم موسى) لا وحى نبوة قال قتادة قذفنا فى قلبها واسمها يوحانذ وهى بنت لاوى بن يعقوب وهذا هو الذى أمضينا فى قضائنا أن يسمى بهذا الاسم وأن يكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يده بعد ان ولدته وخافت أن يذبحه الذابحون (أن أرضعيه) ما كنت آمنة عليه ولم يشعر بولادته غير أخته قيل أرضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر كانت ترضعه فى حجرها وهو لا يبكى ولا يتحرك وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى من داخله بالقار (فاذا خفت عليه) أى منهم أن يصيح فيسمع فيذبح (فألقيه) أى بعد أن تضعيه فى شئ يقيه من الماء (فى اليم) وهو البحر ولكن أراد هنا النيل (ولا تخافى) أى لا يتجدد لك خوف أصلا من أن يغرق أو يموت من ترك الرضاع (ولا تحزنى) أى ولا يوجد لك حزن لوقوع فراقه (فان قيل) ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر (أجيب) بأن الخوف الاول هو الخوف عليه من القتل لانه كان اذا صاح خافت عليه أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه وأما الثانى فالخوف من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع فى بعض العيون المبعوثة من قبل فرعون فى تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف (فان قيل) ما الفرق بين الخوف والحزن (أجيب) بأن الخوف غم يلحق الانسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والاخطار به فنهيت عنهما جميعا وأومنت بالوحى لها ووعدت ما يسليها ويطمن قلبها ويملؤها غبطة وسرورا وهو رده اليها كما قال تعالى

(انا رادوه اليك) فأزال مقتضى الخوف والحزن ثم زادها بشرى وأى بشرى بقوله تعالى (وجاعلوه من المرسلين) أى الذين هم خلاصة المخلوقين * وروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال ان بنى اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم الى أن أنجاهم الله تعالى على يد نبيه وكليمه قال ابن عباس ان أم موسى لما تقاربت ولادتها وكانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى اسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت اليها فقالت قد نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك اياى اليوم قال فعالجت قبالها فلما أن وقع موسى عليه السلام بالارض هالها نور بين عينى موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت اليك حين دعوتنى الا ومن ورائى قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حبا شديدا ما وجدت حب شئ مثل حبه فاحفظى ابنك فانى أراه هو عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤا الى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس بالباب فلفت موسى فى خرقة ووضعته فى التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور وأم موسى لم يتغير لها لون فقالوا ما أدخل عليك القابلة فقالت هى مصافية لى دخلت على زائرة فخرجوا من عندها فرجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى فأين الصبى قالت لا أدرى فسمعت بكاء الصبى من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فاحتملته قال ثم ان أم موسى لما رأت الحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله تعالى فى نفسها أن تتخذ له تابوتا صغيرا فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت قالت ابن لى أخبؤه فى هذا التابوت وكرهت الكذب قال ولم قالت أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار الى الذباحين ليخبرهم بأمر موسى عليه السلام فلما هم بالكلام أمسك الله تعالى لسانه فلم يطق الكلام وجعل يشير بيديه فلم يدروا ما يقول فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما أتى النجار الى موضعه رد الله تعالى لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الامناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله تعالى لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيأ فضربوه وأخرجوه فوقع فى واد يهوى فيه فجعل لله عليه ان رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وان يكون معه يحفظه حيثما كان فعرف الله تعالى منه الصدق فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجدا فقال يارب دلنى على هذا العبد الصالح فدل عليه فخرج من الوادى وآمن به وصدقه وعلم أن ذلك من الله عز وجل * وقال وهب بن منبه لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطلع على حبلها أحد من خلق الله وذلك شئ ستره الله لما أراد أن يمن به على بنى اسرائيل فلما كانت السنة التى يذبح فيها بعث فرعون القوابل وتقدم اليهن وفتش تفتيشا لم يفتش قبل ذلك وحملت أم موسى فلم تكبر بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها وكانت القوابل لا يتعرضن لها فلما كانت الليلة التى ولدته فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد الا أخته مريم فلما خافت عليه عملت له تابوتا مطبقا ثم ألقته فى البحر ليلا (فالتقطه) بالتابوت

صبيحة النيل (آل) أى أعوان (فرعون) فوضعوه بين يديه قال ابن عباس وغيره كان لفرعون
يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات
ترفعها الى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا فى
أمرها فقالوا له أيها الملك لا تبرأ الا من قبل البحر يوجد فيه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه
فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان يوم
الاثنين غدا فرعون الى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة
فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على
وجوههن اذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الامواج فقال فرعون ان هذا الشئ فى البحر قد تعلق
بالشجر فائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم
يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا لم يره
غيرها فعالجته ففتحت الباب فاذا هى بصبى صغير فى مهده واذا نور بين عينيه وقد جعل الله تعالى
رزقه فى ابهامه يمصه لبنا فألقى الله تعالى لموسى المحبة فى قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه
وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبى من التابوت عمدت بنت فرعون الى ما يسيل من ريقه
فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك
انا نظن ان ذلك المولود الذى تحذر منه من بنى اسرائيل هو هذا رمى به فى البحر فرقا منك فاقتله
فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لى ولك واستوهبت موسى من فرعون وكانت لا تلد فوهبه
لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لى فيه وفى حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال
يومئذ هو قرة عين لى كما هو لك لهداه الله كما هداها قال الزمخشرى وهذا على سبيل الفرض
والتقدير أى لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولاسلم كما أسلمت هذا ان صح
الحديث تأويله والله أعلم بصحته انتهى ثم قال لآسية ما تسميه قالت سميته موسى لانا وجدناه فى
الماء والشجر فمو هو الماء وسى هو الشجر فذلك قوله تعالى فالتقطه آل فرعون (ليكون لهم
عدوا) أى يطول خوفهم منه بمخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق وقتل رجالهم (وحزنا) أى
بزوال ملكهم لانه يظهر فيهم الآيات التى يهلك الله تعالى بها من يشاء منهم ويستعبد نساءهم
ثم يظفر بهم حتى يهلكهم الله تعالى بالغرق على يده اهلاك نفس واحدة فيعم الحزن والنواح أهل
ذلك الاقليم كله *(تنبيه)* فى هذه اللام الوجهان المشهوران أحدهما أنها للعلة المجازية
دون الحقيقية لانهم لم يكن داعيهم الى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن المحبة والتبنى
غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لاجله وهو
الاكرام الذى هو نتيجة المجىء والتأدب الذى هو ثمرة الضرب ليتأدب وتحريره ان هذه اللام
حكمها حكم الاسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما استعير الاسد لمن يشبه الاسد والثانى
أنها للعاقبة والصيرورة لانهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولكن صار عاقبة أمره الى
ذلك وقرأ حمزة والكسائى بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بفتحهما وهما لغتان بمعنى

واحد كالعدم والعدم * ثم بين تعالى ان هذا الفعل لا يفعله الا أحمق مقهور أو مغفل مخذول لا يكاد يصيب بقوله تعالى (ان فرعون وهامان) وزيره (وجنودهما) أى كلهم على طبع واحد (كانوا خاطئين) أى فى كل شئ فلا بدع منهم أن قتلوا ألوفا لاجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم وقال وهب لما وضع التابوت بين يدى فرعون فتحه فوجد فيه موسى فلما نظر اليه قال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكان فرعون قد استنكح امرأة من بنى اسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الانبياء عليهم السلام وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وهى المذكورة فى قوله تعالى (وقالت امرأت فرعون) أى له وهى قاعدة لجنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وانما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة فدعه (قرت عين لى) أى به (ولك) أى يا فرعون لانهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه وروى أنها قالت انه أتانا من أرض أخرى ليس من بنى اسرائيل ولما أثبتت له انه ممن تقر به العيون قالت (لا تقتلوه) أى لا أنت بنفسك ولا أحد ممن تأمره بذلك ثم عللت ذلك واستأنفت بقولها (عسى أن ينفعنا) ولو كان له أبوان معروفان فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما رأت من النور بين عينيه وارتضاعه من ابهامه لبنا وبرء البرصاء بريقه (أو نتخذه ولدا) أى اذا كان لم يعرف له أبوان فيكون نفعه أكثر فانه أهل لان تتشرف به الملوك * (تنبيه) * التاء فى قرت عين مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء وهى خبر مبتدأ مضمر أى هو قرة عين والعامة من القراء والمفسرين وأهل العلم على ذلك ونقل ابن الانبارى بسنده الى ابن عباس انه وقف على لا أى هو قرة عين لى فقط ولك لا أى ليس هو لك قرة عين ثم يبتدئ بقوله تقتلوه وقال ابن عادل وهذا لا ينبغى أن يصح عنه وكيف يبقى تقتلوه من غير نون رفع ولا مقتض لحذفها فلذلك قال الفراء هو لحن وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) جملة حالية من كلام الله تعالى أى لا شعور لهم أصلا لان من لا يكون له علم الا باكتساب فكيف اذا كان مطبوعا على قلبه واذا كانوا كذلك فلا شعور لهم بما يؤل اليه أمرهم معه من الامور الهائلة المؤدية الى هلاك المفسدين وقيل ان ذلك من كلام امرأة فرعون كأنها لما رأت ملأه أشاروا بقتله قالت له افعل أنت ما أقول لك وقومك لا يشعرون أنا التقطناه * قال الكلبى ولما أخبر الله تعالى عن حال من التقطه أخبر عن حال من فارقه بقوله تعالى (وأصبح) أى عقب الليلة التى حصل فيها فراقه (فؤاد أم موسى) أى قلبها الذى زاد احتراقه شوقا وخوفا وحزنا وهذا يدل على انها ألقته ليلا واختلف فى معنى قوله (فارغا) فقال أكثر المفسرين خاليا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام وقال الحسن أى ناسيا للوحى الذى أوحاه الله تعالى اليها حين أمرها ان تلقيه فى البحر ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذى عهد أن يرده اليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته فى البحر وأغرقتيه وقال الزمخشرى أى صفرا من العقل والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها لما

دهشها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى وأفئدتهم هواء أى جوف لا عقول فيها وذلك ان القلوب مراكز العقول الا ترى الى قوله تعالى فتكون لهم قلوب يعقلون بها وقوله تعالى (ان) هى المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى انها (كادت) أى قاربت (لتبدى) أى يقع منها الاظهار لكل ما كان من أمره مصرحة (به) أى بأمر موسى عليه السلام من أنه ولدها وقال عكرمة عن ابن عباس كادت تقول وا ابناه وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها وقال الكلبى كادت تظهر انه ابنها حين سمعت الناس يقولون لموسى بعد ما شب موسى ابن فرعون فشق عليها فكادت تقول هو ابنى وقيل ان الهاء عائدة الى الوحى أى كادت لتبدى بالوحى الذى أوحى الله تعالى اليها أن يرده عليها وجواب (لولا أن ربطنا) محذوف أى لابدت به كقوله تعالى وهم بها لولا أن رأى برهان ربه والمعنى لولا ان ربطنا (على قلبها) بالعصمة والصبر والتثبت وقوله تعالى (لتكون من المؤمنين) متعلق بربطنا أى من المصدقين بوعد الله تعالى وهو قوله تعالى انا رادوه اليك ثم أخبر تعالى عن فعلها فى تعرف خبره بعد ان أخبر عن كتمها بقوله تعالى (وقالت) أى أمه (لاخته) أى بعد ان أصبحت على تلك الحالة قد خفى عليها أمره (قصيه) أى اتبعى أثره وتشممى خبره برا وبحرا ففعلت (فبصرت) أى أبصرت (به عن جنب) أى مكان بعيد اختلاسا (وهم لا يشعرون) جملة حالية ومتعلق الشعور محذوف أى أنها أخته وأنها ترقبه بل هم فى غاية الغفلة التى هى فى غاية البعد عن رتبة الالهية أو أنها تقصه أو أنه سيكون لهم عدوا وحزنا ثم ذكر تعالى أخذ الاسباب فى رده بقوله تعالى (وحرمنا) أى منعنا بعظمتنا (عليه المراضع) جمع مرضعة وهى من تكترى للارضاع من الاجانب أى حكمنا بمنعه من الارتضاع منهن فاستعير التحريم للمنع لانه منع فيه رحمة قال الرازى فى اللوامع تحريم منع لا تحريم شرع (من قبل) أى من قبل أن تأمر أمه أخته بما أمرتها به أو قبل قصها أثره أو قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا وهو أنه تعالى غير طبعه عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرتضع أو أحدث فى لبنهن طعما ينفر عنه طبعه أو وضع فى لبن أمه لذة تعود بها فكان يكره لبن غيرها فلما رأت أخت موسى التى أرسلتها أمه فى طلبه أنه لا يقبل ثدى امرأة وفى القصة ان موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثديا ويصيح فقالوا لها هل عندك مرضعة تدلينا عليها لعله يقبل ثديها قال ابن عباس ان امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة فكلما أتوه بمرضعة لم يأخذ ثديها فدنت أخته منه بعد نظرها له (فقالت) لما رأتهم فى غاية الاهتمام برضاعه (هل) لكم حاجة فى أنى (أدلكم على أهل بيت) ولم تقل على امرأة لتوسع دائرة النظر (يكفلونه لكم) أى يأخذونه ويتولونه ويقومون بجميع مصالحه من الرضاع وغيره لاجلكم ثم أبعدت التهمة عن نفسها فقالت هى امرأة قتل ولدها فأحب شئ اليها أن تجد صغيرا ترضعه ثم زادتهم رغبة بقولها (وهم له ناصحون) أى ثابت نصحهم له لا يغشونه نوعا من الغش قال البغوى والنصح ضد الغش وهو تصفية العمل من شوائب الفساد قال السدى لما قالت ذلك أخذوها وقالوا قد عرفت هذا

الغلام فدلّينا على أهله فقالت ما أعرفه وقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فتخلصت منهم بذلك قال ابن عادل وهذا يسمى عند أهل البيان الكلام الموجه ومثله لما سئل بعضهم وكان بين أقوام بعضهم يحب عليا دون غيره وبعضهم يحب أبا بكر وبعضهم عمر وبعضهم عثمان رضي الله تعالى عنهم فقيل له أيهم أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من كانت ابنته تحته وقيل لما تفرسوا أنها عرفته قالت انما قلت هذا رغبة في سرور الملك واتصالنا به وقيل انها لما قالت ذلك قالوا لها من فقالت أمي قالوا ولامك ابن قالت نعم هرون وكان ولد في سنة لا يقتل فيها قالوا صدقت فائتينا بها فانطلقت الى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها اليهم فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا فقالوا أقيمي عندنا فقالت لا أقدر على فراق بيتي ان رضيتم أن أكفله في بيتي والا فلا حاجة لي به وأظهرت الزهد فيه نفيا للتهمة فرضوا بذلك فرجعت به الى بيتها فذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه) ثم علله بقوله تعالى (كي تقر عينها) أي تبرد وتستقر وأصل قرة العين من القر وهو البرد أي بردت ونامت بخلاف سخنت عينه يقال أقر الله تعالى عينك من الفرح وأسخنها من الحزن فلهذا قالوا دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارة هذا قول الاصمعي قال أبو تمام

فأما عيون العاشقين فأسخنت * وأما عيون الشامتين فقرت

وقال أبو العباس ليس كما قال الاصمعي بل كل دمع حار فمعنى أقر الله تعالى عينك صادفت سرورا فنامت وذهب سهرها وصادفت ما يرضيك أي بلغك الله أقصى أملك حتى تقر عينك من النظر الى غيره استغناء ورضا بما في يديك (ولا) أي وكي لا (تحزن) أي بفراقه (ولتعلم) أي علما هو عين اليقين كما كانت عالمة به علم اليقين وعلم شهادة كما كانت عالمة به علم غيب (أن وعد الله) أي الامر الذي وعدها به الذي له الكمال كله في حفظه وارساله (حق) أي هو في غاية الثبات في مطابقة الواقع (ولكن أكثرهم) أي أكثر آل فرعون وغيرهم (لا يعلمون) ان وعد الله حق فيرتابون فيه أو لا يعلمون ان الله وعدها ردّه اليها قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فما له قبل ثديك من بين النسوة قالت أيها الملك اني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن فما شم ريحي صبي الا أقبل على ثديي قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون الا أهدى اليها وأتحفوها بالذهب والجوهر وأجرى عليها أجرها قال السدي وكانوا يدفعون اليها كل يوم دينارا (فان قيل) كيف حل لها أن تأخذ الاجر على ارضاع ولدها منه (أجيب) بأنها ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على الاستباحة فمكث عندها الى أن فطمته واستمر عند فرعون يأكل من مأكوله ويشرب من مشربه ويلبس من ملبوسه الى أن كمل كما قال تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (ولما بلغ أشده) وهو ثلاثون سنة أو وثلاث كما قال مجاهد وغيره (واستوى) أي بلغ أربعين سنة كما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل اعتدل في السن

قوله فان قيل كيف حل لها الخ في حاشية الجمل والظاهر أن هذا السؤال لا يرد من أصله لانه لم يكن اذ ذاك شرع حتى تلتزم حكمه وعلى فرض أن يكون فليس بلازم أن يكون كشرعنا لجواز أن يكون له تفاريع أخر اه مصححه

وتم استحكامه بانتهاء شبابه وهو من العمر ما بين احدى وعشرين سنة الى اثنتين وأربعين (آتيناه) أى ابتداء من غير اكتساب أصلا خرقا للعادة اسوة اخوانه من الانبياء (حكما) أى عملا محكما بالعلم (وعلما) أى فقها فى الدين تهيئة لنبوته وارصادا لرسالته وقيل المراد بالعلم علم التوراة والحكم السنة قال الزمخشرى وحكمة الانبياء سنتهم قال الله تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وقيل معناه آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه قال البقاعى واختار الله تعالى هذا السن للارسال ليكون من جملة الخوارق لانه به يكون ابتداء الانتكاس الذى قال الله تعالى فيه ومن نعمره اى الى اكمال سن الشباب ننكسه فى الخلق أى نوقفه فلا يزداد بعد ذلك فى قواه الظاهرة ولا الباطنة شئ أولا يوجد فيه غريزة لم تكن موجودة أصلا عشر سنين ثم يأخذ فى النقصان هذه عادة الله فى جميع بنى آدم الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم فى حد الوقوف يؤتون من بحار العلوم ما يقصر عنه الوصف بغير اكتساب بل غريزة يغرزها الله تعالى فيهم حينئذ ويؤتون من قوة الابدان أيضا مقدار ذلك ففى انتكاس غيرهم يكون نموهم وكذا من ألحقه الله تعالى بهم من صالحى أتباعهم كما قال تعالى (وكذلك) أى مثل هذا الجزاء العظيم (نجزى المحسنين) أى كلهم على احسانهم ولما أخبر تعالى بتهيئته للنبوة أخبر بما هو سبب لهجرته وكأنها سنة بعد ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى (ودخل) أى موسى عليه السلام (المدينة) قال السدى هى مدينة منف من أرض مصر وقال مقاتل كانت قرية تدعى حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل مدينة عين شمس وقيل غير ذلك (على حين غفلة من أهلها) وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة وقال محمد بن كعب القرظى دخلها فيما بين المغرب والعشاء وقيل يوم عيد لهم وهم مشتغلون فيه بلهوهم وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية الا على تغفل واختلف فى السبب الذى من أجله دخل المدينة فى هذا الوقت قال السدى وذلك أن موسى كان يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوما وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له ان فرعون قد ركب فركب فى اثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس فى طرقها أحد وقال ابن اسحق كان لموسى شيعة من بنى اسرائيل يسمعون منه ويقتدون برأيه فلما عرف ماهو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم فى دينهم فأخافوه فكان لا يدخل قرية الا خائفا مستخفيا وقال ابن زيد لما علا موسى فرعون بالعصا فى صغره فأراد فرعون قتله فقالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر باخراجه من مدينته فلم يدخل عليهم الا بعد أن كبر وبلغ أشده (فوجد فيها) أى المدينة (رجلين يقتتلان) أى يفعلان مقدمات القتل مع الملازمة من الضرب والخنق وهما اسرائيلى وقبطى ولهذا قال تعالى مجيبا لمن كان يسأل عنهما وهو ينظر اليهما (هذا من شيعته) أى من بنى اسرائيل (وهذا من عدوه) أى من القبط قال مقاتل كانا كافرين الا أن أحدهما من القبط والآخر من بنى اسرائيل لقول موسى عليه السلام انك لغوى مبين والمشهور أن الاسرائيلى كان مسلما

قوله حابين كذا فى جميع الاصول التى بأيدينا وفى حاشية الجمل وقيل هى قرية يقال لها أم خنان على فرسخين من مصر اهـ

قيل انه السامرى والقبطى طباخ فرعون فكان القبطى يسخر الاسرائيلى ليحمل الحطب الى المطبخ وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص الى أحد من بنى اسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو اسرائيل عزوا لمكان موسى لكونه ربيب الملك مع أن مرضعته منهم لا يظنون أن سبب ذلك الا الارضاع (فاستغاثه) أى طلب منه (الذى من شيعته) أن يغيثه (على الذى من عدوه) فغضب موسى عليه السلام واشتد غضبه وقال للفرعونى خل سبيله فقال انما أخذته ليحمل الحطب الى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعونى لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى عليه السلام قد أوتى بسطة فى الخلق وشدة فى القوة والبطش (فوكزه موسى) أى دفعه بجمع كفه والفرق بين الوكز واللكز ان الاول بجمع الكف والثانى باطراف الاصابع وقيل بالعكس وقيل اللكز فى الصدر والوكز فى الظهر (فقضى) أى فأوقع القضاء الذى هو القضاء على الحقيقة وهو الموت الذى لا ينجو منه مخلوق (عليه) فقتله وفرغ منه وكل شئ فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه وخفى هذا على الناس لما هم فيه من الغفلة فلم يشعر به أحد فندم موسى عليه السلام عليه ولم يكن قصده القتل فدفنه فى الرمل (قال هذا) أى قتله (من عمل الشيطان) أى لانى لم أومر به على الخصوص ولم يكن من قصدى وان كان المقتول كافرا حربيا ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه بقوله (انه عدو) فينبغى الحذر منه (مضل) لا يقود الى خير أصلا (مبين) أى عداوته واضلاله فى غاية البيان ما فى شئ منهما خفاء ولما لم يكن فى قتله الا الندم لعدم اذن خاص (قال رب) أى أيها المحسن الى (انى ظلمت نفسى) أى بالاقدام على ما لم تأمرنى به بالخصوص وان كان مباحا (فاغفر) أى امح هذه الهفوة عينها وأثرها (لى) أى لاجلى لا تؤاخذنى (فغفر) أى أوقع المحو لذلك كما سأل اكراما (له انه هو) أى وحده (الغفور) أى البالغ فى صفة الستر لكل من يريد (الرحيم) أى العظيم الرحمة بالاحسان بالتوفيق الى الافعال المرضية لمقام الالهية ولاجل أن هذه صفته رده الى فرعون وقومه حين أرسله اليهم فلم يقدروا على مؤاخذته بذلك بقصاص ولا غيره بعد أن نجاه منهم قبل ارساله على غير قياس ثم شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه بأن (قال رب) أى أيها المحسن الى (بما أنعمت على) أى بسبب انعامك على بالمغفرة (فلن أكون) أى ان عصمتنى (ظهيرا) أى عونا وعشيرا وخليطا (للمجرمين) قال ابن عباس للكافرين وهو اما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون واما مظاهرة من تؤدى مظاهرته الى الجرم والاثم كما فى مظاهرة الاسرائيلى المؤدية الى القتل الذى لم يؤمر به وهذا نحو قوله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا وعن عطاء أن رجلا قال له ان أخى يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه قال فمن الرأس يعنى من يكتب له قال خالد بن عبد الله القسرى قال فأين قول موسى وتلا هذه الآية وفى الحديث ينادى مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه

الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى بهم فى جهنم وقول ابن عباس يدل على أن الاسرائيلى الذى أعانه موسى عليه السلام كان كافرا وهو قول مقاتل وقال قتادة انى لا أعين بعدها على خطيئة وقيل بما أنعمت على من القوة فلن أستعملها الا فى مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والايمان بك قال ابن عباس لم يستثن أى لم يقل فلن أكون ان شاء الله تعالى فابتلى به فى اليوم الثانى كما قال تعالى (فأصبح فى المدينة) أى التى قتل القتيل فيها (خائفا) أى بسبب قتله له (يترقب) أى ينتظر ما يناله من جهة القتيل قال البغوى والترقب انتظار المكروه وقال الكلبى ينتظر متى يؤخذ به (فاذا) أى ففجأه (الذى استنصره) أى طلب نصرته من شيعته (بالامس) أى اليوم الذى يلى يوم الاستصراخ (يستصرخه) أى يطلب أن يزيل ما يصرخ بسببه من النصر من قبطى آخر كان يظلمه فكانه قيل فما قال له موسى بعد ما أوقعه فيما يكره فقيل (قال له) أى لهذا المستصرخ (موسى انك لغوى) أى صاحب ضلال بالغ (مبين) أى واضح الضلال غير خفيه لكون ما وقع بالامس لم يكفك عن الخصومة لمن لا تطيقه وان كنت مظلوما ثم دنا منهما لينصره (فلما أن أراد) أى شاء فان مزيدة (أن يبطش) أى موسى عليه السلام (بالذى هو عدو لهما) أى لموسى والاسرائيلى لانه لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا أعداء بنى اسرائيل بان يأخذه بعنف وسطوة لخلاص الاسرائيلى منه (قال) أى الاسرائيلى الغوى لاجل ما رأى من غضبه وتكلمه له ظانا أنه يريد البطش به (ياموسى) ناصا عليه باسمه (أتريد أن تقتلنى) أى اليوم وأنا من شيعتك (كما قتلت نفسا بالامس) أى من شيعة أعدائنا والذى يدل على أن الاسرائيلى هو الذى قال له هذا الكلام السياق وعليه الاكثرون لانه لم يعلم بقتل القبطى غير الاسرائيلى وقيل انما قال موسى للفرعونى انك لغوى مبين بظلمك ويناسبه قوله (ان) أى ما (تريد الا أن تكون جبارا) أى قاهرا عاليا فلا يليق ذلك الا بقول الكافر أو أن الاسرائيلى لما ظن قتله قال ذلك وقد قيل فى الاسرائيلى انه كان كافرا قال أبو حيان وشأن الجبار أن يقتل بغير حق (فى الارض) أى التى تكون بها فلا يكون فوقك أحد (وما تريد) أى تختار ذلك ارادة (أن تكون) أى كونا هو لك كالجبلة (من المصلحين) أى العريقين فى الصلاح فان الصلح بين الناس لا يصل الى القتل على هذه الصورة فلما سمع القبطى هذا ترك الاسرائيلى وكان القبط لما قتل ذلك القبطى ظنوا فى بنى اسرائيل فأغروا فرعون بهم وقالوا ان بنى اسرائيل قتلوا منا رجلا لا نخذلنا بحقنا فقال ابغوا الى قاتله ومن يشهد عليه فان الملك وان كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقضى بغير بينة ولا تثبت فلما قال هذا الغوى هذه المقالة علم القبطى أن موسى عليه السلام هو الذى قتل الفرعونى فانطلق الى فرعون فأخبره بذلك فأمر فرعون بقتل موسى قال ابن عباس فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الاعظم (وجاء رجل) أى ممن يحب موسى عليه السلام واختلف فى اسمه فقيل حزقيل مؤمن آل فرعون وقيل شمعون وقيل شمعان وكان ابن عم فرعون (من أقصى المدينة) أى أبعدها مكانا (يسعى) أى يسرع

فى مشيه فأخذ طريقا قريبا حتى سبق الى موسى فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقا آخر فكأنه قيل فما قال الرجل له فقيل (قال) مناديا لموسى تعطفا وازالة للبس (يا موسى ان الملأ) أى اشراف القبط الذين فى أيديهم الحل والعقد لان لهم القدرة على الامر والنهى (يأتمرون بك) أى يتشاورون فى شأنك (ليقتلوك) حتى وصل حالهم فى تشاورهم الى أن كلا منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره لانهم سمعوا انك قتلت صاحبهم (فاخرج) أى من هذه المدينة ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد ليزيل مايطرقه من احتمال عدم القتل لكونه عزيزا عند الملك (انى لك من الناصحين) أى الغريقين فى نصحك (فخرج) أى موسى عليه السلام مبادرا (منها) أى المدينة لما علم صدق قوله بما تحققه من القرائن حال كونه (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) أى يكثر الالتفات بادارة رقبته فى الجهات ينظر هل يتبعه أحد ثم دعا الله تعالى بأن (قال رب) أى أيها المحسن الى بالنجاة وغير ذلك من وجوه البر (نجنى) أى خلصنى (من القوم الظالمين) أى الذين يضعون الامور فى غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل مع قوتهم فاستجاب الله تعالى دعاءه فوفقه لسلوك الطريق الاعظم نحو مدين فكان ذلك سبب نجاته وذلك ان الذين انتدبوا اليه قطعوا بأنه لا يسلك الطريق الاكبر جريا على عادة الخائفين الهاربين وفى القصة أن فرعون لما بعث فى طلبه قال اركبوا ثنيات الطريق فانبثوا فيما ظنوه يمينا وشمالا ففاتهم (ولما توجه) أى أقبل بوجهه قاصدا (تلقاء) أى الطريق الذى يلاقى سالكه أرض (مدين) قال ابن عباس خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى ومشى من غير معرفة فهداه الله تعالى الى مدين وقيل وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم وكان من بنى اسرائيل سميت البلدة باسمه فخرج ولم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى وقيل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين خائفا بلا زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر (قال عسى) أى جدير وحقيق (ربى) أى المحسن الى (أن يهدينى سواء) أى أعدل ووسط (السبيل) أى الطريق الذى يطلعنى الله تعالى عليها من غير اعوجاج وقال ذلك قبل أن يعرف الطريق اليها قيل فلما دعا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به الى مدين قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام الا ورق الشجر والبقل حتى ترى خضرته فى بطنه وما وصل الى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى عليه السلام (ولما ورد) أى وصل (ماء مدين) وهو بئر كان يسقى منها الرعاة مواشيهم (وجد عليه) أى الماء (أمة) أى جماعة كثيرة (من الناس) مختلفين (يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى مكان سواهم أسفل من مكانهم (امرأتين) عبر بذلك لما جعل لهما سبحانه من المروأة ومكارم الاخلاق كما يعلم من أمعن النظر فيما يذكر عنهما (تذودان) أى تحبسان وتمنعان أغنامهما اذا فزعت من العطش الى الماء حتى يفرغ الناس ويخلولهما البئر وقال الحسن تكفان الغنم لئلا تختلط بغنم الناس وقال قتادة تكفان الناس عن أغنامهما وقيل لئلا يختلطن بالرجال وقيل كانتا تذودان

عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما وقيل غير ذلك فكأنه قيل فما قال موسى لهما قيل (قال) لهما رحمة لهما (ما خطبكما) أى ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس (قالتا لا نسقى) أى مواشينا وحذف للعلم به (حتى يصدر) أى ينصرف ويرجع (الرعاء) أى عن الماء خوف الزحام فنسقى وقرأ أبو عمرو وابن عامر بفتح الياء وضم الدال والباقون بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر يعدى بالهمزة * (تنبيه) * المفعول محذوف أى يصدرون مواشيهم والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار أى نحن امرأتان لا يليق أن نزاحم الرجال فاذا اصدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) أى لا يستطيع لكبره أن يسقى فاضطررنا الى ما ترى (تنبيه) اختلف فى أبيهما فقال مجاهد والضحاك والسدى والحسن أبوهما هو شعيب النبى عليه السلام وانه عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته وقال وهب وسعيد بن جبير هو يثرون ابن أخى شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام وزمزم وقيل رجل ممن آمن بشعيب قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها الا جماعة من الناس وقال ابن اسحق ان موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين ويروى أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه الا عشرة نفر وقيل أربعون وقيل مائة فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين ويقال انه سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لا ينزعها الا الأربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم (فان قيل) كيف ساغ لنبى الله تعالى شعيب أن يرضى لابنتيه الرعى بالماشية (أجيب) بأن الناس اختلفوا فيه هل هو شعيب أو غيره واذا قلنا انه هو كما عليه الاكثر فليس ذلك بمحظور فلا يأباه الدين والناس مختلفون فى ذلك بحسب المروأة وعادتهم فيها متباينة وأحوال العرب والبدو تباين أحوال العجم والحضر لاسيما اذا دعت الى ذلك ضرورة (فسقى) أى موسى عليه السلام (لهما) والمفعول محذوف أى غنمهما لعلمه ضرورتهما انتهازا للفرصة الاجر وكرم الخلق فى مساعدة الضعيف مع ما به من النصب والجوع وسقوط خف القدم ولكنه رحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقى فى مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده وما آتاه الله تعالى من الفضل فى متانة الفطرة ورصانة الجبلة (ثم تولى) أى انصرف جاعلا ظهره يلى ما كان يليه وجهه (الى الظل) أى ظل سمرة فجلس فى ظلها ليقيل ويستريح مقبلا على الخالق بعد ما قضى من نصيحة الخلائق وهو جائع قال الضحاك لبث سبعة أيام لم يذق طعاما الا بقل الارض (فقال رب انى) وأكد الافتقار بالالصاق باللام دون الى بقوله (لما أنزلت الى من خير) قليل أو كثير غث أو سمين (فقير) أى محتاج سائل * (تنبيه) * لما أنزلت متعلق بفقير قال الزمخشرى عدى فقير باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب ويحتمل انى فقير من الدنيا لاجل ما أنزلت الى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين وليس فى الشكوى الى الغنى المطلق نقص قال ابن عباس سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه وقال الباقر لقد قالها وانه لمحتاج الى شق تمرة وقال

سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه وانه كان قد بلغ به من الضر أن اخضر بطنه من أكل البقل وضعف حتى اصق بطنه الشريف بظهره وانما قال ذلك في نفسه مع ربه وهو اللائق به وقيل رفع به صوته لاستماع المرأتين وطلب الطعام وهذا لا يليق بموسى عليه السلام فانظر الى هذا النبي عليه السلام وهو خلاصة ذلك الزمان ليكون لك في ذلك سوة وتجعله اماما وقدوة وتقول مالقى الانبياء ولصالحون من الضيق والاهوال في سجن الحياة الدنيا صونا لهم منها واكراما من ربهم عنها رفعة لدرجاتهم واستهانة لها وان ظنه الجاهل المغرور على غير ذلك وفي القصة ترغيب في الخير وحث على المعاونة على البر وبعث على بذل المعروف مع الجهد فلما رجعتا الى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحيما فسقى لنا أغنامنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي (فجاءته احداهما) ممتثلة أمر أبيها وقوله (تمشي) حال وقوله (على استحياء) حال أخرى أي مستحيية اماما جاءته واما من تمشي قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءته مستترة وضعت كم درعها على وجهها استحياء ثم استأنف الاخبار عما تشوف اليه السامع بقوله تعالى (قالت) وأكدت اعلاما بما لأبيها من الرغبة الى لقائه (ان أبي) وصورت حاله بالمضارع بقولها (يدعوك ليجزيك) أي يعطيك مكافأة لك لان المكافأة من شيم الكرام (أجر ما سقيت لنا) أي مواشينا قال ابن اسحق اسم الكبرى صفورا والصغرى لبنى وقيل ليا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا وقال الاكثرون التي جاءت لموسى الكبرى وقال الكلبي هي الصغرى قال الرازي وليس في القرآن دلالة على شئ من هذه التفاصيل (فان قيل) في الآية اشكالات احداها كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا مواضع التهم وثانيها أنه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الاجرة عليه وذلك غير جائز في الشريعة وثالثها أنه عرف فقرهما وفقر أبيهما وانه عليه السلام كان في نهاية القوة بحيث يمكنه الكسب بأقل سعي فكيف يليق بمروأة مثله طلب الاجرة على ذلك القدر من الشيخ الفاني الفقير والمرأة الفقيرة وراءهما كيف يليق بالنبي شعيب عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون الرجل عفيفا أو فاسقا (أجيب) عن الاول بأن الخبر يعمل فيه بقول المرأة فان الخبر يعمل فيه بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى وهي ما كانت مخبرة الا عن أبيها وأما المشي مع المرأة بعد الاحتياط والتورع فلا بأس به وعن الثاني بأن المرأة لما قالت ذلك لموسى عليه السلام ماذهب اليهم طلبا للاجرة بل للتبرك بذلك الشيخ الكبير لما روى أنه لما دخل على شعيب عليه السلام اذا هو بالعشاء مهيأ فقال اجلس ياشاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا وفي رواية لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ بالمعروف ثمنا فقال له شعيب لا والله ياشاب ولكنها

عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام وأكل وأيضا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق تحمله ففعل ذلك اضطرارا وهو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات وعن الرابع بأن شعيبا عليه السلام كان يعلم طهارة ابنته وبراءتها اما بوحي أو بغيره فكان أمن عليها قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقام يمشي والجارية امامه فهبت الريح فوصفت ردفها فكره موسى عليه السلام أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي أو قال موسى اني من عنصر ابراهيم فكوني خلفي حتى لا يرفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل وفي رواية كوني خلفي ودليني على الطريق برمي الحصا لان صوت المرأة عورة (فان قيل) لم خشي موسى عليه السلام أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره مع الخضر عليه السلام ذلك حين قال لو شئت لتخذت عليه أجرا أجيب بأن أخذ الاجرة على الصدقة لا يجوز وأما الاستئجار ابتداء فغير مكروه (فلما جاءه) أي موسى شعيبا (وقص) أي موسى عليه السلام (عليه) أي شعيب عليه السلام (القصص) أي حدثه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم واذلالهم لعباد الله تعالى * (تنبيه) * القصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص قال الضحاك قال له من أنت يا عبد الله قال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب عليه السلام وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وانهم يطلبونه ليقتلوه ثم ان شعيبا عليه السلام امنه بأن (قال) له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أي فان فرعون لا سلطان له بأرضنا (فان قيل) ان المفسرين قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى ركب في ألف ألف وستمائة ألف والملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام (أجيب) بان هذا ليس بمحال وان كان نادرا ولما امنه واطمأن (قالت احداهما) أي المرأتين وهي التي دعته الى أبيها مشيرة بالنداء بأداة البعد الى استصغارها لنفسها وجلالة أبيها (يا أبت استأجره) أي اتخذه أجيرا يرعى أغنامنا (ان خير من استأجرت القوي الأمين) أي خير من استعملت من قوي على العمل الشئ من الاشياء وأداء الامانة قال أبو حيان وقولها قول حكيم جامع لا يزاد عليه لانه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والامانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بارسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته وانما جعل خير من استأجرت اسما والقوي الأمين خبرا مع أن العكس أولى لان العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرا اسما وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف وعن ابن عباس أن شعيبا احتفظته الغيرة فقال وما علمك بقوته وأمانته فذكرت اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب أي خفض رأسه حين بلغته رسالة أبيها اليه وأمرها بالمشي خلفه وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر في عمر ولما أعلمته ابنته بذلك (قال) لموسى عليه السلام عند ذلك (اني أريد) يا موسى والتأكيد لان الغريب قلما يرغب فيه أول ما يقدم

لاسيما من الرؤساء اتم الرغبة (أن أنكحك احدى ابنتي هاتين) أي الحاضرتين اللتين سقيت
لهما البنأ تأملهما فينظر من يقع اختياره عليه منهما ليعقد له عليها قال أكثر المفسرين انه زوجه
الصغرى منهما وهي التي ذهبت لطلب موسى واسمها صفورا على خلاف تقدم في اسمها وقوله
هاتين فيه دليل على أنه كان له غيرهما وقوله (على أن تأجرني ثماني حجج) امامن أجرته اذا
كنت له أجيرا كقولك أبوته اذا كنت له أبا وثماني حجج ظرفه أي ترعى غنمي ثماني حجج واما من
أجرته كذا اذا أثبته اياه قاله الفراء أي تجعل ثوابي من تزويجها أي تجعل أجرى على ذلك
ثوابي ثماني حجج تقول العرب أجرك الله يأجرك أي أثابك ومنه تعزية رسول الله صلى الله
عليه وسلم أجركم الله ورحمكم وثماني حجج مفعول به ومعناه رعية ثماني حجج (فان قيل) كيف صح
أن ينكحه احدى ابنتيه من غير تمييز (أجيب) بأن ذلك لم يكن عقدا ولكن مواعدة ومواصفة
أمر قد عزم عليه ولو كان عقدا لقال أنكحتك ولم يقل انى أريد أن أنكحك وقد مرت الاشارة
الى ذلك والحجج السنون واحدها حجة (فان أتممت عشرا) أي عشر سنين وقوله (فمن عندك)
يجوز أن يكون في محل رفع خبر المبتدا المحذوف تقديره فهي من عندك أو نصب أي فقد
زدتها من عندك أو تفضلت بها من عندك وليس ذلك بواجب عليك (تنبيه) هذا اللفظ يدل على
أن العقد وقع على أقل الاجلين والزيادة كالتبرع فالعقد وقع على معين ودلت الآية على أن
العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى أن عقد النكاح لا يفسد بالشروط التي لا يوجبها العقد
ان كان وقع شرط هذه الزيادة في العقد ولما ذكر له ذلك أراد أن يعلمه أن الامر بعد الشرط
بينهما على المسامحة فقال (وما أريد أن أشق عليك) أي أدخل عليك مشقة بمناقشة ومراعاة
أوقات ولا في اتمام عشر ولا غير ذلك ثم أكد معنى المساهلة بقوله (ستجدني) وفتح الياء نافع
عند الوصل والباقون بسكونها ثم استثنى على قاعدة أنبياء الله وأوليائه في المراقبة على سبيل
التبرك بقوله (ان شاء الله) أي الذي له جميع الامر (من الصالحين) قال عمر أي في حسن الصحبة
والوفاء بما قلت أي وكل ما تريد من كل خير وقيل أراد الصلاح على العموم (فان قيل) كيف
ينعقد العقد بهذا الشرط ولو قلت أنت طالق ان شاء الله لم تطلق (أجيب) بأن هذا مما يختلف
بالشرائع أو ان ذلك ذكر للتبرك (قال) أي موسى عليه السلام (ذلك) أي الذي ذكرته وعاهدتني
فيه وشارطتني عليه (بيني وبينك) أي قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت على ولا
أنت عما شرطت على نفسك *(تنبيه)* ذلك مبتدأ والظرف خبره وأضيفت بين لمفرد
لتكررها وعطفت بالواو ولو قلت المال لزيد فعمرو لم يجز والاصل ذلك بيننا كما مر ففرق بالعطف
ثم فسر ذلك بقوله (أيما) أي أي (الاجلين) ما زائدة (قضيت) أي فرغت أطولهما
الذي هو العشر او اقصرهما الذي هو الثمان (فلا عدوان) أي اعتداء بسبب ذلك لك ولا
لاحد (على) في طلب أكثر منه لانه كما لا تجب الزيادة على العشر لا تجب الزيادة على الثمان
(فان قيل) تصور العدوان انما هو في أحد الاجلين الذي هو أقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما
معنى تعليق العدوان بهما جميعا (أجيب) بأن معناه كما انى ان طولبت بالزيادة على العشر

كان عدوانا الاشك فيه فكذلك ان طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وانه ثابت مستقر وان الاجلين على السواء اما هذا واما هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء وأما التتمة فموكلة الى رأيي ان شئت أتيت بها والا لم أجبر عليها وكأنه أشار بنفى صيغة المبالغة الى أنه لا يؤاخذ لسعة صدره وطهارة أخلاقه بمطلق العدوان (والله) أى الملك الاعظم (على ما نقول) أى كله فى هذا الوقت وغيره (وكيل) قال ابن عباس ومقاتل شهيد فيما بينى وبينك وقيل حفيظ وعن سعيد بن جبير قال سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الاجلين قضى موسى فقلت لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وروى عن أبى ذر مرفوعا اذا سئلت أى الاجلين قضى موسى فقل خيرهما واذا سئلت فأى المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهى التى جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما وقال وهب أنكحه الكبرى وروى عن شداد بن أوس مرفوعا بكى شعيب عليه السلام حتى عمى فرد الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله تعالى عليه بصره وقال له ما هذا البكاء أشوقا الى الجنة أم خوفا من النار قال لا يا رب ولكن شوقا الى لقائك فأوحى الله تعالى اليه ان يكن ذلك فهنيأ لك يا شعيب لذلك أخدمتك موسى كليمى ولما تم العقد بينهما امر شعيب ابنته أن تعطى موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه واختلفوا فى تلك العصا فقال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقى بها موسى ليلا فدفعها اليه وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الانبياء وكان لا يأخذها غير نبى الا أكلته فصارت من آدم الى نوح ثم الى ابراهيم حتى وصلت الى شعيب وكانت عصى الانبياء عليهم الصلاة والسلام عنده فأعطاها موسى وقال السدى كانت تلك العصا استودعها اياه ملك فى صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت فأخذت العصا فأتت بها فلما رآها شعيب قال لها ردى هذه العصا وأتيه بغيرها فدخلت فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع فى يدها الا هى حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى فأخذها موسى معه ثم ان الشيخ ندم فقال كانت وديعة فذهب فى اثره فطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هى عصاى فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فلقيهما ملك فى صورة رجل فحكم أن تطرح العصا فمن حملها فهى له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ فلم يطقها فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ وروى ان شعيبا عليه السلام كان عنده عصى الانبياء فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب فمسها وكان مكفوفا فضن أى بخل بها فقال غيرها فما وقع فى يده الا هى سبع مرات فعلم ان له شأنا وعن الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبى الشجرة التى منها نودى موسى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها كثيرا الا أن فيها تنينا أخشاه عليك فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على اثرها فاذا عشب وريف

لم يرمثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا (فلما قضى موسى الاجل) أى أتمه وفرغ منه وزوجه ابنته قال مجاهد مكث بعد ذلك عند صهره عشرا أخرى فأقام عنده عشرين سنة ثم ان شعيبا عليه السلام أراد أن يجازي موسى على رعيته اكراما له وصلة لابنته فقال له انى وهبت لك من الجداء التى تضعها أغنامى هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى فى المنام أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الاغنام قال فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الاغنام منه فما أخطأت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله عز وجل الى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وسلم الاغنام اليه ثم ان موسى استأذنه فى العود الى مصر فأذن له فخرج (وسار بأهله) أى امرأته راجعا الى أقاربه بمصر (آنس) أى أبصر من بعيد (من جانب الطور) اسم جبل (نارا) آنسه رؤيتها وكان فى البرية فى ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق حينئذ (قال لاهله امكثوا) أى ههنا وقرأ حمزة فى الوصل بضم الهاء قبل همزة الوصل وعبر موسى عليه السلام بضمير المذكور فلعله كان معه بنون فغلبهم على امرأته وقد ذكرت غير ذلك فى السورة التى قبل هذه ثم علل ذلك بقوله مؤكدا لاستبعاد أن يكون فى ذلك المكان القفر وفى ذلك الوقت الشديد البرد نارا (انى آنست نارا) فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون كأنه قيل فماذا تعمل بها فقال معبرا بالترجى لانه اليق بالتواضع (لعلى آتيكم منها) أى من عندها (بخبر) أى عن الطريق لانه كان قد أخطأها (أو جذوة) أى قطعة وشعلة (من النار) وقال قتادة ومقاتل هو العود الذى احترق بعضه *(تنبيه)* من النار صفة لجذوة ولا يجوز تعلقها بآتيكم كما تعلق به منها لان هذه النار هى النار المذكورة والعرب اذا قدمت نكرة وأرادت اعادتها اعادتها مضمرة أو معرفة بأل العهدية وقد جمع الامرين هنا وقرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها والباقون بالكسر وكلها لغات وجمعها جذى ثم استأنف قوله (لعلكم تصطلون) أى لتكونوا على رجاء من أن تقربوا من النار فتعطفوا عليها للتدفؤ وهذا دليل على أن الوقت كان شتاء (فلما أتاها) أى النار وهى (نودى) للمفعول لان آخر الكلام يدل دلالة واضحة على أن المنادى هو الله تعالى ولما كان نداؤه تعالى لا يشبه نداء غيره بل يكون من جميع الجوانب ومع ذلك قد يكون لبعض المواضع مزيد شرف بوصف من الاوصاف اما بأن يكون أول السماع منه أو غير ذلك أو يكون باعتبار موسى عليه السلام قال (من شاطئ الوادى) فمن لابتداء الغاية وقوله تعالى (الايمن) صفة للشاطئ أو للوادى والايمن من اليمن وهو البركة أو من اليمين المعادل لليسار من العضوين ومعناه على هذا بالنسبة الى موسى أى الذى يلى يمينك دون يسارك والشاطئ ضفة الوادى والنهر أى حافته وطرفه وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى وجمع الشاطئ أشطاء قاله الراغب وشاطأت فلانا ماشيته سايرتها على الشاطئ

وقوله تعالى (فى البقعة المباركة) متعلق بنودى أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ ومعنى المباركة جعلها الله تعالى مباركة لان الله تعالى كلم موسى عليه السلام هنالك وبعثه نبيا وقال عطاء يريد المقدسة وقوله تعالى (من الشجرة) بدل من شاطئ الوادى باعادة الجار بدل اشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ قال البقاعى ولعل الشجرة كانت كبيرة فلما وصل اليها دخل النور من طرفها الى وسطها فدخلها ووراءه بحيث توسطها فسمع وهو فيها الكلام من الله تعالى حقيقة وهو المتكلم سبحانه وتعالى لا الشجرة قال القشيرى وحصل الاجماع على انه عليه السلام سمع تلك الليلة كلام الله تعالى ولو كان ذلك نداء الشجرة لكانت المتكلم الشجرة وقال التفتازانى فى شرح المقاصد ان اختيار حجة الاسلام انه سمع كلامه الازلى بلا صوت ولا حرف كما ترى ذاته فى الآخرة بلا كم ولا كيف واختلف فى الشجرة ما هى فقال ابن مسعود كانت سمرة خضراء وقال قتادة ومقاتل والكلبى كانت عوسجة وقال وهب من العليق وعن ابن عباس انها العناب ثم ذكر المنادى به بقوله تعالى (أن ياموسى) فان هى مفسرة لا مخففة (انى أنا الله) أى المستجمع للاسماء الحسنى والصفات العليا وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون ثم وصف نفسه سبحانه تعالى بقوله (رب العالمين) أى خالق الخلائق أجمعين ومربيهم قال البيضاوى هذا وان خالف ما فى طه والنمل فى اللفظ فهو طبقه فى المقصود انتهى وقال ابن عادل واعلم انه تعالى قال فى سورة النمل نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وقال ههنا انى أنا الله رب العالمين وقال فى سورة طه انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه تعالى حكى فى كل سورة ما اشتمل عليه ذلك النداء ثم ان الله تعالى أمره أن يلقى عصاه ليريه آية بقوله تعالى (وأن ألق عصاك) أى لاريك فيها آية فألقاها فصارت فى الحال حية عظيمة وهى مع عظمها فى غاية الخفة (فلما رآها) أى العصا (تهتز) أى تتحرك كأنها فى سرعتها وخفتها (جان) أى حية صغيرة (ولى مدبرا) خوفا منها ولم يلتفت الى جهتها وهو معنى قوله تعالى (ولم يعقب) أى موسى عليه السلام وذلك كناية عن شدة التصميم على الهرب والاسراع فيه خوفا من الادراك فى الطلب فقيل له (ياموسى أقبل) أى التفت وتقدم اليها (ولا تخف) ثم أكد له الامن لما الآدمى مجبول عليه من النفرة وان اعتقد صحة الخبر بقوله تعالى (انك من الآمنين) أى العريقين فى الامن كعادة اخوانك من المرسلين فانه لا يخاف لدى المرسلون ثم زاد طمأنينته بقوله تعالى (اسلك) أى ادخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة (يدك فى جيبك) أى القطع الذى فى ثوبك وهو الذى يخرج منه الرأس أو هو الكم كما يدخل السلك وهو الخيط الذى ينظم فيه الدر (تخرج بيضاء) بياضا عظيما يكون له شأن خارق للعادات (من غير سوء) أى عيب من أثر الحريق الذى عجز فرعون عن مداواته أو غيره فخرجت ولها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر *(تنبيه)* قد ذكر هذا المعنى بثلاث عبارات احداها هذه وثانيتها واضمم يدك الى جناحك وثالثتها وادخل يدك فى جيبك (واضمم اليك جناحك) أى يديك المبسوطتين تتقى بهما الحية

فرعون وقومه فعند ذلك طلب من يعينه بأن (قال رب) أي أيها المحسن الى (انى قتلت منهم نفسا) هو القبطى السابق وأنت تعلم أنى ماخرجت الاهاربا منهم لاجلها (فأخاف) ان بدأتهم بمثل ذلك (أن يقتلون) به لوحدتى وغربتى وثقل لسانى فى اقامة الحجج فأخاف أن يفوت المقصود بقتلى ولا يحمى من ذلك الا أنت وان لسانى فيه عقدة (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا) أى من جهة اللسان للعقدة التى كانت حصلت له من وضع الجمرة فى فيه وهو طفل فى كفالة فرعون وقيل كانت من أصل الخلقة والفصاحة لغة الخلوص ومنه فصح اللبن خلص من رغوته وفصح الرجل جادت لغته وأفصح تكلم بالعربية (فأرسله) أى بسبب ذلك (معى ردأ) أى معينا من ردأت فلانا بكذا أى جعلته له قوة وعاضدا وردأت الحائط اذا دعمته بخشب أو كبش يدفعه أن يسقط وقرأ نافع بنقل حركة الهمزة الى الدال وحذف الهمزة والباقون بسكون الدال وتنوين الهمزة بعدها * ولما كان له عليه من العطف والشفقة ما يقصر الوصف عنه نبه على ذلك باجابة السؤال بقوله (يصدقنى) أى بأن يخلص بفصاحته ما قلته ويبينه ويقيم الادلة عليه حتى يصير كالشمس وضوحا فيكون مع تصديقه لى بنفسه سببا فى تصديق غيره لى وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف على الاستئناف أو الصفة لردأ والباقون بالسكون جوابا للامر قال الرازى ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو ان يخلص بلسانه الفصيح وجوب الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد وفائدة الفصاحة انما تظهر فى ذلك لا فى مجرد قوله صدقت قال السدى نبيان وآيتان أقوى من نبى واحد وآية واحدة وهذا ظاهر من جهة العادة وأما من جهة الدلالة فلا فرق بين معجز ومعجزين ثم علل سؤاله هذا بقوله (انى أخاف أن يكذبون) أى فرعون وقومه ولسانى لا يطاوعنى عند المحاجة (قال) الله تعالى له مجيبا لسؤاله (سنشد عضدك) أى أمرك (بأخيك) أى سنقويك ونعينك به (ونجعل لكما سلطانا) أى ظهورا عظيما وغلبة لهم بالحجج والهيبة لاجل ماذكرت من الخوف (فلا) أى فتسبب عن ذلك أنهم لا (يصلون اليكما) بنوع من أنواع الغلبة (بآياتنا) أى نجعل ذلك بسبب ما يظهر على أيديكما من الآيات العظيمة بنسبتها الينا ولذلك كانت النتيجة (أنتما ومن اتبعكما) من قومكما وغيرهم (الغالبون) أى لا غيركم وهذا يدل على أن فرعون لم يصل الى السحرة بشئ مما هددهم به لانهم من أكبر الاتباع الباذلين أنفسهم فى الله تعالى وليس فى القرآن ما يدل على أنه فعل بهم ما أوعدهم به قال البقاعى وكأنه حذف أمرهم هنا لانه فى بيان أمر فرعون وجنوده بدليل ما كرر من ذكرهم وقد كشفت العاقبة عن أن السحرة ليسوا من جنوده بل من حزب الله تعالى وجنده ومع ذلك فقد أشار اليهم بهذه الآية والتى بعدها اهـ * ولما كان التقدير فأتاهم كما أمره الله تعالى وعاضده أخوه كما أخبر الله تعالى ودعاهم الى الله تعالى وأظهر ما أمرا به من الآيات بنى عليه مبينا بالفاء سرعة امتثاله (فلما جاءهم) أى فرعون وقومه ولما كانت رسالة هرون عليه السلام انما هى تأييد لموسى عليه السلام أشار

الى ذلك بالتصريح باسم الجاني بقوله تعالى (موسى بآياتنا) أي التي أمرناه بها الدالة على جميع الآيات للتساوي في خرق العادة حال كونها (بينات) أي في غاية الوضوح (قالوا) أي فرعون وقومه (ما هذا) أي الذي أظهرته من الآيات (الا سحر مفترى) أي مختلق لا أنه معجزة من عند الله ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم (وما سمعنا) أي ما حدثنا (بهذا) أي الذي تدعونا اليه وتقوله من الرسالة عن الله تعالى (في آبائنا) وأشاروا الى البدعة التي أضلت كثيرا من الخلق وهي تحكيم عوائد التقليد لاسيما عند تقادمها على القواطع في قولهم (الأولين) وقد كذبوا وافتروا ولقد سمعوا بذلك على أيام يوسف عليه السلام * وما بالعهد من قدم * فقد قال لهم الذي آمن يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب الى قوله ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات (و) لما كذبوه وهم الكاذبون (قال) لهم (موسى ربي) أي المحسن الي (أعلم) أي عالم (بمن جاء بالهدى) أي الذي أذن الله تعالى فيه وهو حق في نفسه (من عنده) فيعلم أني محق وأنتم مبطلون وقرأ ابن كثير بغير واو وقبل القاف لانه قاله جوابا لمقالهم والباقون بالواو لان المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما ليميز صحيحهما من فاسدهما (ومن تكون له) أي لكونه منصورا مؤيدا (عاقبة الدار) أي الراحة والسكن والاستقرار (فان قيل) العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسميا عاقبة الدار لان الدنيا اما ان تكون خاتمتها بخير أو بشر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمها بالشر (أجيب) بأن الله تعالى قد وضع الدنيا مجازا الى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها الا الخير وما خلقهم الا لأجله ليبلغوا خاتمة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من تائج تحويف الفجار وقرأ حمزة والكسائي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث * ثم علل ذلك بما أجرى الله تعالى به عادته فقال معلما بأن المخذول هو الكاذب اشارة الى أنه الغالب لكون الله تعالى معه مؤكدا لما استقر في الانفس من أن القوي لا يغلبه الضعيف (انه لا يفلح) أي لا يظفر ولا يفوز (الظالمون) أي الكافرون الذين يمشون كما يمشي من هو في الظلام بغير دليل (وقال فرعون) جوابا لهذا الترغيب والترهيب (يا أيها الملأ) أي الاشراف معظما لهم استجلابا لقلوبهم (ما علمت لكم من اله غيري) فتضمن كلامه نفي الهية غيره واثبات الهية نفسه فكأنه قال ما لكم من اله الا أنا كما قال الله تعالى قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض أي بما ليس فيهن وذلك ان العلم تابع للموجود لا يتعلق به الا على ما هو عليه فاذا كان الشيء معدوما لم يتعلق به موجودا فمن ثم كان انتفاء العلم بوجوده انتفاء لوجوده فعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وان الها غيره معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله واني لأظنه من الكاذبين واذا ظنه كاذبا في اثباته الها غيره ولم يعلمه كاذبا فقد ظن ان في الوجود الها غيره ولو لم يكن المخذول ظانا ظنا كاليقين بل عالما بصحة قول موسى لقول موسى عليه السلام له لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر

قوله ولو لم يكن المخذول الخ لم يذكر جواب لو على ما في النسخ التي بأيدينا وقد ذكره الكشاف بقوله لما تكلف ذلك البنيان العظيم فراجعه اهـ مصححه

* ثم تسبب عن جهله قوله لوزيره معلما له صنعة الآجر لانه أول من عمله قال عمر رضي الله تعالى عنه حين سافر الى الشأم ورأى القصور المشيدة بالآجر ما علمت ان أحدا بنى بالآجر غير فرعون (فأوقد لي) وأضاف الايقاد اليه اعلاما بأنه لا بد منه (يا هامان) وهو وزيره (على الطين) أى المتخذ لبنا ليصير آجرا ثم تسبب عن الايقاد قوله (فاجعل لي) أى منه (صرحا) أى قصرا عاليا وقيل منارة وقال الزجاج هو كل بناء متسع مرتفع (لعلي أطلع) أى أتكلف الطلوع (الى اله موسى) اى الذي يدعو اليه فانه ليس في الارض أحد بهذا الوصف الذي ذكره فأنا أطلبه في السماء موهما الهم انه مما يمكن الوصول اليه وهو قاطع بخلاف ذلك ولكنه يقصد المدافعة من وقت الى وقت قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع العمال والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله تعالى أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه فأمر بنشابة فضرب بها نحو السماء فردت اليه وهي ملطخة دما فقال قد قتلت اله موسى وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقع منها قطعة على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد ممن عمل فيه بشيء الاهلك ثم زادهم شكا بقوله مؤكدا لاجل رفع ما استقر في الانفس من صدق موسى عليه السلام (واني لاظنه) أى موسى عليه السلام (من الكاذبين) أى دأبه ذلك وفرعون هو الذي قد لبس وكذب ووصف أصدق أهل ذلك الزمان بصفة نفسه الغريقة في العدوان (واستكبر) اى أوجد الكبر بغاية الرغبة فيه (هو) بقوله هذا الذي صدهم به عن السبيل (وجنوده) باعراضهم لشدة رغبتهم في الكبر على الحق والاتباع للباطل (في الارض) أى أرض مصر قال البقاعي ولعله عرفها اشارة الى أنه لو قدر على ذلك في غيرها فعل (بغير الحق) أى بغير استحقاق قال البقاعي والتعبير بالتعريف يدل على أن التعظيم بنوع من الحق ليس بكبر وان كانت صورته كذلك وأما تكبره سبحانه فهو بالحق كله قال صلى الله عليه وسلم فيما حكاه عن ربه الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار (وظنوا) اى فرعون وجنوده ظنا بنوا عليه اعتقادهم في أصل الدين الذي لا يكون الا بقاطع (أنهم الينا) أى الى حكمنا خاصة الذي يظهر عند انقطاع الاسباب (لا يرجعون) بالنشور وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم والباقون بضم الياء وفتح الجيم * ولما تسبب عن ذلك اهلاكهم قال تعالى (فأخذناه وجنوده) كلهم أخذ قهر ونقمة وذلك علينا هين وأشار تعالى الى احتقارهم بقوله تعالى (فنبذناهم) أى طرحناهم (في اليم) أى البحر المالح فغرقوا فكانوا على كثرتهم وقوتهم كحصيات صغار قذفها الرامي الشديد الذراع من يده في البحر ونحو ذلك قوله تعالى وألقينا فيها رواسي شامخات وقوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة * ولما تسبب عن هذه الآيات من العلوم ما لا تحيط به الفهوم قال تعالى (فانظر) أى أيها

المعتبر بالآيات الناظر فيها نظر اعتبار (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (الظالمين) حيث صاروا الى الهلاك فحذر قومك عن مثلها وفي هذا اشارة الى أن كل ظالم تكون عاقبته هكذا ان صابره المظلوم المحق ورابطه حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين * ولما كان من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة قال الله تعالى (وجعلناهم) أي في الدنيا (أئمة) أي قدوة للضلال بالحمل على الاضلال وقيل بالتسمية كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أو بمنع الالطاف الصارفة عنه (يدعون) أي يوجدون الدعاء لمن اغتر بحالهم فضل بضلالهم (الى النار) أي الى موجباتها من الكفر والمعاصي وأما أئمة الحق فانهما يدعون الى موجبات الجنة من فعل الطاعات والنهي عن المنكرات جعلنا الله تعالى وأحبابنا معهم بمحمد وآله * ولما كان الغالب من حال الائمة النصرة وقد أخبر عن خذلانهم في الدنيا قال تعالى (ويوم القيامة) اي الذي هو يوم التغابن (لا ينصرون) أي لا يكون لهم نوع نصرة تدفع العذاب عنهم (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) أي طردا عن الرحمة ودعاء عليهم بذلك من كل من سمع خبرهم بلسانه ان خالفهم أو بفعله الذي يكون عليهم مثل وزره ان وافقهم وانما قال الله تعالى الدنيا ولم يقل الحياة قال البقاعي لان السياق لتحقير أمرهم ودناءة شأنهم (ويوم القيامة هم) أي خاصة ومن شاكلهم (من المقبوحين) أي المبعدين أيضا المخزيين مع قبح الوجوه والاشكال والشناعة في الاقوال والافعال والاحوال من القبح الذي هو ضد الحسن من قولهم قبح الله العدو وأبعده عن كل خير وقال أبو عبيدة من المهلكين قال البقاعي فياليت شعري أي صراحة بعد هذا في أن فرعون عدو الله في الآخرة كما كان عدو الله في الدنيا فلعنة الله على من يقول انه مات مؤمنا وانه لا صراحة في القرآن بأنه من أهل النار وعلى من يشك في كفره بعد ما ارتكبه من جلي أمره انتهى وقد قدمت الكلام في سورة يونس على قول فرعون وأنا من المسلمين * ثم انه تعالى أخبر عن أساس امامة بني اسرائيل مقسما عليه مع الافتتاح بحرف التوقع بقوله (ولقد آتينا) أي بما لنا من الجلال والكمال (موسى الكتاب) أي التوراة الجامعة للهدى والخير في الدارين قال أبو حيان وهو أول كتاب نزلت فيه الفرائض والاحكام (من بعد ما أهلكنا القرون الاولى) أي من قوم نوح الى قوم فرعون وقوله تعالى (بصائر للناس) حال من الكتاب جمع بصيرة وهي نور القلب أي أنوار القلوب فيبصر بها الحقائق ويميز بين الحق والباطل كما أن البصر نور العين الذي تبصر به (وهدى) أي للعامل بها الى كل خير (ورحمة) أي نعمة هنيئة شريفة لانها قائدة اليهما ولما ذكر حالها ذكر حالهم بعد انزالها بقوله تعالى (لعلهم يتذكرون) أي ليكون حالهم حال من يرجى تذكره * ثم ان الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وما كنت) أي يا أفضل الخلق (بجانب الغربي) قال قتادة بجانب الجبل الغربي وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي أي الوادي من الطور الذي رأى موسى عليه السلام فيه النار وهو مما يلي البحر

من جهة الغرب على يمين المتوجه الى ناحية مكة المشرفة من ناحية مصر فناداه فيه العزيز الجبار وهو ذو طوى (اذ) أى حين (قضينا) أى أوحينا (الى موسى الامر) أى أمر الرسالة الى فرعون وقومه وما يريد أن يفعل من ذلك فى أوله وأثنائه وآخره مجملا فكان كل ما أخبرنا به مطابقا تفصيله لاجماله (وما كنت) أى بوجه من الوجوه (من الشاهدين) لتفاصيل ذلك الامر الذى أجملناه لموسى عليه السلام حتى تخبر به كله على هذا الوجه الذى اتيناك به فى هذه الاساليب المعجزة ولاشك أن معرفتك لذلك من قبيل الاخبار عن المغيبات التى لا تعرف الا بالوحى ولذلك استدرك عنه بقوله تعالى (ولكنا) أى بما لنا من العظمة (أنشأنا) بعدما أهلكنا أهل ذلك الزمان الذين علموا هذه الامور بالمشاهدة وهم السبعون المختارون للميقات أو بالاخبار كلهم (قرونا) أى أمما كثيرة بعد موسى عليه السلام (فتطاول) أى بمروره وعلوه (عليهم العمر) أى ولكنا أوحينا اليك أنا أنشأنا قرونا مختلفة بعد موسى عليه السلام فتطاولت عليهم المدد فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحى فحذف المستدرك وهو أوحينا وأقام سببه وهو الانشاء مقامه على عادة الله تعالى فى اختصاراته فهذا الاستدراك شبيه بالاستدراك بعده (فان قيل) ما الفائدة فى اعادة قوله تعالى وما كنت من الشاهدين بعد قوله وما كنت بجانب الغربى لانه ثبت بذلك أنه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد أن يكون حاضرا (أجيب) بأن ابن عباس قال التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت ما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم وحمزة فى الوقف بضم الهاء وسكون الميم والباقون فى الوصل بكسر الهاء وضم الميم * ولما نفى العلم عن ذلك بطريق الشهود نفى سبب العلم بذلك بقوله تعالى (وما كنت ثاويا) أى مقيما اقامة طويلة مع الملازمة بدين (فى أهل مدين) أى قوم شعيب عليه السلام كمقام موسى وشعيب فيهم (تتلو) أى تقرأ (عليهم) تعلما منهم (آياتنا) العظيمة التى منها قصتهما لتكون ممن يتهم بأمور الوحى ويتعرف دقيق أخباره فيكون خبرهم وخبر موسى عليه السلام معك (ولكنا كنا مرسلين) اياك رسولا وأنزلنا عليك كتابا فيه هذه الاخبار تتلوها عليهم ولولا ذلك ما علمتها ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) أى ناحية الجبل الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام (اذ) أى حين (نادينا) أى أوقعنا النداء لموسى عليه السلام فأعطيناه التوراة وأخبرناه بما لا غنى عن الاطلاع عليه الا من قبلنا أو من قبله ومن المشهور أنك لم تطلع على شئ من ذلك من قبله لانك ما خالطت أحدا ممن حمل تلك الاخبار عن موسى عليه السلام ولا أحدا حملها ممن حملها عنه ولكن كان ذلك اليك منا وهو معنى قوله تعالى (ولكن) أى أنزلنا ما أردناه وأرسلناك به (رحمة من ربك) لك خصوصا وللخلق عموما وقيل اذ نادينا موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى يارب أرنى محمدا قال انك لن تصل الى ذلك وان شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم قال بلى يارب فقال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم وقال أبو زرعة نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى

وروى عن ابن عباس ورفعه بعضهم قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك ان الحمد لله والنعمة لك والملك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة محمد ان رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم من قبل أن تستغفروني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبدي ورسولي دخل الجنة وان كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر *(تنبيه)* قال البيضاوي لعل المراد به أي بقوله تعالى وما كنت بجانب الطور اذ نادينا وقت ما أعطاه التوراة وبالاول أي قوله تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا حيث استنبأناه لانهما المذكوران في القصة وقوله تعالى (لتنذر) أي لتحذر تحذيرا كثيرا (قوما) أي أهل قوة ونجدة ليس بهم عائق عن أعمال الخير العظيمة الا الاعراض عنك وهم العرب ومن في ذلك الزمان من الخلق يتعلق بالفعل المحذوف (ما أتاهم) وعم النفي بزيادة الجار في قوله تعالى (من نذير) وزيادة الجار في قوله تعالى (من قبلك) يدل على الزمن القريب وهو زمن الفترة بينه وبين عيسى عليهما الصلاة والسلام وهو خمسمائة وخمسون سنة ونحو هذا قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وقيل ليس المراد زمن الفترة بل ما بينه وبين اسمعيل عليهما السلام على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني اسرائيل وما حولهم (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون (ولولا أن تصيبهم) أي في وقت من الاوقات (مصيبة) أي عظيمة (بما قدمت أيديهم) أي من المعاصي التي قضينا بأنها مما لا يعفى عنها (فيقولوا ربنا) أي أيها المحسن الينا (لولا) أي هلا ولم لا (أرسلت الينا) أي على وجه التشريف لنا لنكون على علم بأنا ممن يعتني الملك الاعلى به (رسولا) وأجاب التحضيض الذي شبهوه بالامر ليكون كل منهما باعثا على الفعل بقوله تعالى (فنتبع) أي فيتسبب عن ارسال رسولك ان نتبع (آياتك ونكون) أي كونا هو في غاية الرسوخ (من المؤمنين) أي المصدقين لك في كل ما أتى به عنك رسولك *(تنبيه)* لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف تقديره كما قال الزجاج ما أرسلنا اليهم رسولا يعني ان الحامل على ارسال الرسل ازاحة عللهم بهذا القول فهو كقوله تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والثانية تحضيضية وتتبع جوابها كما مر فلذلك أضمر أن (فان قيل) كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الارسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه (أجيب) بأن القول هو المقصود بأن يكون سببا للارسال ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب للارسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤل معناه الى قولك ولولا قولهم هذا اذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما الجؤا به الى العلم اليقيني ببطلان دينهم لم يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا بل انما يقولون اذا نالهم العقاب وانما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الايمان بخالقهم عز وجل

وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى وهو كقوله تعالى ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه * ولما كان التقدير ولكنا أرسلناك بالحق لقطع حجتهم هذه بنى عليه (فلما جاءهم) أى أهل مكة (الحق) أى الذى هو أعم من الكتاب والسنة وما يقاس عليهما وهو فى نفسه جدير بأن يقبل لكونه فى الذروة العليا من الثبات فكيف وهو (من عندنا) على ما لنا من العظمة وهو على لسانك وأنت أعظم الخلق (قالوا) أى أهل الدعوة من العرب وغيرهم تعنتا وكفرا به (لولا) أى هلا ولم لا (أوتى) أى هذا الآتى بما زعم أنه الحق من الآيات (مثل ما أوتى موسى) من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما من كون الكتاب أنزل عليه جملة واحدة قال الله تعالى (أولم يكفروا) أى العرب ومن بلغته الدعوة من بنى اسرائيل ومن كان مثلهم فى البشرية والعقل فى زمن موسى (بما أوتى موسى) عليه السلام (من قبل) أى من قبل مجىء الحق على لسان محمد صلى الله عليه وسلم * ولما كان كأنه قد قيل ما كان كفرهم به قيل (قالوا) أى فرعون وقومه ومن كفر من بنى اسرائيل (ساحران) أى موسى وأخوه عليهما السلام (تظاهرا) أى أعان كل منهما صاحبه على سحره حتى صار سحرهما معجزا فغلبا جميع السحرة وتظاهر الساحرين من تظاهر السحرين على قراءة الكوفيين بكسر السين وسكون الحاء وقرأ الباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما *(تنبيه)* يجوز أن يكون الضمير لمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام قال البقاعى وهو أقرب وذلك لانه روى أن قريشا جاءت الى اليهود فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أن نعته فى كتابهم فقالوا هذه المقالة فيكون الكلام استئنافا لجواب من كأنه قال ما كان كفرهم بهما فقيل قالوا أى العرب الرجلان ساحران أو الكتابان ساحران ظاهر أحدهما الآخر مع علم كل ذى لب أن هذا القول زيف لانه لو كان شرط اعجاز السحر التظاهر لكان سحر فرعون أعجز اعجازا لانه تظاهر عليه جميع سحرة بلاد مصر وعجزوا عن معارضة ما أظهر موسى عليه السلام من آياته كالعصا وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد دعا أهل الارض من الجن والانس الى معارضة كتابه وأخبرهم أنهم عاجزون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فعجزوا عن آخرهم * ولما تضمن قولهم ذلك الكفر صرح بوابه (وقالوا) أى كفار قريش (انا بكل) أى من الساحرين أو السحرين اللذين تظاهرا بهما وهما ما أتيا به من عند الله (كافرون) جراءة على الله تعالى وتكبرا على الحق ثم قال الله تعالى (قل) أى لهم الزاما ان كنتم صادقين فى انى ساحر وكتابى سحر وكذلك موسى عليه السلام (فأتوا بكتاب من عند الله) أى الملك العلى الاعلى (هو) أى الذى تأتون به (أهدى منهما) أى من الكتابين وقوله (أتبعه) أى وأترككما جواب الامر وهو فأتوا (ان كنتم) أى أيها الكفار (صادقين) أى فى انا ساحران فأتوا بما ألزمتكم به قال البيضاوى وهذا من الشروط التى يراد بها الالزام والتبكيت ولعل مجىء حرف الشك للتهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أى دعاءك الى الكتاب الاهدى فحذف المفعول

للعلم به ولان فعل الاستجابة يتعدى بنفسه الى الدعاء وباللام الى الداعى فاذا عدى اليه حذف الدعاء غالبا كقول القائل

وداع (أى ورب داع) دعا يامن يجيب الى الندا * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

الشاهد فى يستجبه حيث عداه الى الداعى وحذف الدعاء والتقدير فلم يستجب دعاءه (فاعلم) أنت (أنما يتبعون) أى بغاية جهدهم فيما هم عليه من الكفر والتكذيب (أهواءهم) أى دائماً وأكثر الهوى مخالف للهدى فهم ضالون غير مهتدين بل هم أضل الناس وذلك معنى قوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع) أى بغاية جهده (هواه) أى لا أحد أضل منه فهو استفهام بمعنى النفى وقوله تعالى (بغير هدى من الله) فى موضع الحال للتوكيد والتقييد فان هوى النفس قد يوافق الهدى (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) أى وان كانوا أقوى الناس لاتباعهم أهواءهم (ولقد وصلنا) قال ابن عباس بينا وقال الفراء أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضا (لهم) أى خاصة فكان تخصيصهم بذلك منة عظيمة يجب عليهم شكرها (القول) أى القرآن قال مقاتل بينا لكفار مكة بما فى القرآن من أخبار الامم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم وقال ابن زيد وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا (لعلهم يتذكرون) أى ليكون حالهم حال من يرجى لهم أن يرجعوا الى عقولهم فيجدوا فيما طبع فيها ما يذكرهم بالحق ثم كأنه قيل هل تذكر منهم أحد قيل نعم أهل الكتاب الذين هم أهله حقا تذكروا وذلك معنى قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أى قبل القرآن أو قبل محمد صلى الله عليه وسلم (هم به) أى بما تقدم (يؤمنون) أيضا نزل فى جماعة أسلموا من اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه وقال مقاتل هم أهل الانجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هم أربعون رجلا قدموا مع جعفر من الحبشة على النبى صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا يا نبى الله ان لنا أموالا فان أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزل فيهم ذلك الى قوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون وعن ابن عباس نزلت فى ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشأم ثم وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (واذا يتلى) أى تتجدد تلاوة القرآن (عليهم قالوا) أى مبادرين لذلك (آمنا به) ثم عللوا ذلك بقولهم (انه الحق) أى الكامل الذى ليس وراءه الا الباطل مع كونه (من ربنا) أى المحسن الينا ثم عللوا مبادرتهم بقولهم (انا كنا من قبله) أى القرآن (مسلمين) أى منقادين غاية الانقياد مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم انه نبى حق (أولئك) أى العالو الرتبة (يؤتون أجرهم مرتين) أى لايمانهم به غيبا وشهادة أى بالكتاب الاول ثم بالكتاب الثانى (بما صبروا) أى بسبب صبرهم على دينهم وقال مجاهد نزلت فى قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا وعن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم قال ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها ورجل كان من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله تعالى ونصح لسيده * ولما كان الصبر لا يتم الا بالاتصاف بالمحاسن والانخلاع من المساوى قال تعالى عاطفا على يؤمنون مشيرا الى تجديد هذه الافعال كل حين (ويدرؤن) أى يدفعون (بالحسنة) من الاقوال والافعال (السيئة) أى فيمحونها بها وقال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا اله الا الله الشرك وقال مقاتل يدفعون بما سمعوا من الاذى والشتم من المشركين أى بالصفح والعفو (ومما رزقناهم) أى بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة قليلا كان أو كثيرا (ينفقون) أى يتصدقون معتقدين فى الخلف على الذى رزقه * ولما ذكر الله أن السماح بما تضن النفوس به من فضول الاموال من امارات الايمان أتبعه أن خزن ما تبذله الانفس من فضول الاقوال من علامات العرفان بقوله تعالى (واذا سمعوا اللغو) أى ما لا ينفع فى دين ولا دنيا من شتم وتكذيب وتعيير ونحوه (أعرضوا عنه) تكرما عن الخنا وقيل اللغو القبيح من القول وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمنى أهل الكتاب ويقولون لهم تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم (وقالوا) وعظا وتسميعا لقائله (لنا) خاصة (أعمالنا) لا تثابون على شئ منها ولا تعاقبون (ولكم) أى خاصة (أعمالكم) لا نطالب بشئ منها فنحن لا نشتغل بالرد عليكم (سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعا ودعاء لهم بالسلامة عما هم فيه لا سلام تحية واكرام ونظيره ذلك واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد ذلك تعالى بقوله تعالى حاكيا عنهم (لا نبتغى) أى لا نكلف أنفسنا أن نطلب (الجاهلين) أى لا نريد شيأ من أموالهم وأقوالهم أو غير ذلك من خلالهم وقيل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه قيل نسخ ذلك بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب اليه وان كان القتال واجبا * ونزل فى حرصه صلى الله عليه وسلم على ايمان عمه أبى طالب (انك لا تهدى من أحببت) أى نفسه أو هدايته بخلق الايمان فى قلبه روى سعيد بن المسيب عن ابيه أنه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال أى عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها ويصدانه بتلك الكلمة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فأنزل الله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وأنزل الله تعالى فى أبى طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم انك لا تهدى من أحببت الآية وفى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بالتوحيد فقال له لولا أن تعيرنى قريش تقول انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك فأنزل الله تعالى الآية وروى أن أبا طالب قال عند موته يا معشر بنى هاشم أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا عم

تأمرهم بالنصيحة لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك كلمة واحدة فانك في آخر يوم من أيام الدنيا تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله قال يا ابن أخي قد علمت انك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة وسبة بعدي لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وعبد مناف (فان قيل) قال الله تعالى في هذه الآية انك لا تهدي من أحببت (ولكن الله يهدي من يشاء) وقال تعالى في آية أخرى وانك لتهدي الى صراط مستقيم (أجيب) بأنه لا تنافي بينهما فان الذي أثبته وأضافه اليه الدعوة والذي نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدور وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس (وهو أعلم) أي عالم (بالمهتدين) أي الذين قد هيأهم لطلب الهدى عند خلقه لهم سواء كانوا من أهل الكتاب أم من العرب أقارب كانوا أم أباعد ثم حكى الله تعالى عن كفار قريش شبهة تتعلق بأحوال الدنيا بقوله تعالى (وقالوا ان نتبع الهدى) أي الاسلام فنوحد الله تعالى من غير اشراك (معك) وأنت على ما أنت عليه من مخالفة الناس (نتخطف) أي من أي خاطف أرادنا لانا صبر قليلا في كثير من غير نصير (من أرضنا) كما تتخطف العصافير لمخالفة كافة العرب لنا وليس لنا نسبة الى كثرتهم ولا قوتهم فيسرعوا الينا فيتخطفونا أي يقصدون خطفنا واحدا واحدا فانه لا طاقة لنا على ادامة الاجتماع وأن لا يشذ بعضنا عن بعض قال المبرد والخطف الانتزاع بسرعة نزلت في الحرث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا لنعلم أن الذي تقوله حق ولكنا ان اتبعناك على دينك وخالفنا العرب بذلك وانما نحن أكلة رأس خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة ثم رد الله تعالى عليهم هذه الشبهة وألقمهم الحجر بقوله تعالى (أولم نمكن) أي غاية التمكين (لهم) أي في أوطانهم ومحل سكناهم بما لنا من القدرة (حرما آمنا) أي ذا أمن يأمن فيه كل خائف حتى الطير من كواسرها والوحش من جوارحها حتى ان سيل الحل لا يدخل الحرم بل اذا وصل اليه عدل عنه وروى أن مكة كانت في الجاهلية لا يعرضها ظلم ولا بغي ولا يبغي فيها أحد الا أخرجته وكان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه فيها فلا يهيجه ولا يتعرض له بسوء وروى الازرقي في تاريخ مكة عن حويطب بن عبد العزى قال كان في الكعبة حلق يدخل الخائف يده فيها فلا يريبه أحد فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده فلقد رأيته في الاسلام وانه لاشل وعن ابن عباس قال أخذ رجل ذودا ابن عم له فأصابه في الحرم فقال ذودي فقال اللص كذبت قال فاحلف فحلف عند المقام فقام رب الذودين الركن والمقام باسطا يديه يدعو فما برح مقامه يدعو حتى ذهب عقل اللص وجعل يصيح بمكة مالي ولفلان رب الذود فبلغ ذلك عبد المطلب فجمع الذود ودفعه الى المظلوم فخرج به وبقي الآخر حتى وقع من جبل فتردى فأكلته السباع وعن ابن جريج ان غير قريش من العرب

كانوا يطوفون بالبيت عراة الا أن أعارتهم قريش ثيابا فجاءت امرأة بها جمال فطافت عريانة فرآها رجل فأعجبته فدخل فطاف الى جنبها فادنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها فخرجا من المسجد هاربين فزعين على وجوههما لما أصابهما من العقوبة فلقيهما شيخ من قريش فأفتاهما أن يعودا الى المكان الذى أصابا فيه الذنب فيدعوان و يخلصان أن لا يعودا فعادا ودعوا وأخلصا النية فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما فى ناحية وعن عبد العزيز بن رواد ان قوما انتهوا الى ذى طوى فاذا ظبى قد دنا منهم فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه فقال له أصحابه ويحك أرسله فجعل يضحك وأبى أن يرسله فبعر الظبى وبال ثم أرسله فناموا فى القائلة ثم انتبهوا فاذا بحية متطوقة على بطن الرجل الذى أخذ الظبى فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبى وعن مجاهد قال دخل قوم مكة تجارا من الشام فى الجاهلية فنزلوا ذا طوى فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم ادام فرمى رجل منهم ظبية من ظباء الحرم وهى حولهم ترعى فقاموا اليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها فبينما قدرهم على النار يغلى بها اذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعا ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم وعن أيوب بن موسى ان امرأة فى الجاهلية كان معها ابن عم لها صغير فقالت له يا بنى انى أغيب عنك وانى أخاف أن يظلمك أحد فان جاءك ظالم بعدى فان لله بمكة بيتا سيمنعك فجاءه رجل فذهب به فاسترقه فلما رأى الغلام البيت عرفه بالصفة فنزل يشتد حتى تعلق بالبيت فجاءه سيده فمد يده اليه ليأخذه فيبست يده فمد الاخرى فيبست فاستفتى فأفتى أن ينحر عن كل واحدة من يديه بدنة ففعل فأطلقت يداه وترك الغلام وخلى سبيله وعن أبى ربيع ابن سالم الكلاعى أن رجلا من كنانة بن هذيل ظلم ابن عم له فخوفه بالدعاء فى الحرم فقال هذه ناقتى فلانة اركبها فاذهب اليه فاجتهد فى الدعاء فى الحرم فجاء فى الحرم فى الشهر الحرام فقال اللهم انى أدعوك جاهدا مضطرا على ابن عمى فلان ترميه بداء لا دواء له ثم انصرف فوجد ابن عمه قد رمى فى بطنه فصار مثل الزق فما زال ينتفخ حتى انشق وعن عمر رضى الله عنه انه سأل رجلا من بنى سليم عن ذهاب بصره فقال يا أمير المؤمنين كنا بنى ضبعاء عشرة وكان لنا ابن عم فكنا نظلمه فكان يذكرنا الله والرحم فلما رأى أنا لا نكف عنه انتهى الى الحرم فى الاشهر الحرم فجعل يرفع يديه ويقول

لاهم أدعوك دعاء جاهدا * اقتل بنى ضبعاء الا واحدا
ثم اضرب الرجل ودعه قاعدا * أعمى اذا قيد يعنى القائدا

قال فمات اخوتى التسعة فى تسعة أشهر فى كل شهر واحد و بقيت أنا فعميت ورمانى الله عز وجل فى رجلى فليس يلائمنى قائد فقال عمر رضى الله تعالى عنه جعل الله هذا فى الجاهلية اذ لا دين حرمة حرمها وشرفها ليرجع الناس عن انتهاك ما حرم مخافة تعجيل العقوبة فلما جاء الدين صار التوعد للساعة ويستجيب الله تعالى لمن يشاء فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وانما أكثرت من هذه الحكايات ليكون الداخل للحرم على حذر فان الله تعالى حماه ومكن أهله فى الحرم الذى

امنه بحرمة البيت وامن قطانه بحرمته وكانت العرب فى الجاهلية حولهم يتغاورون
ويتناجدون وهم آمنون فى حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذى زرع
والثمرات والارزاق تجبى اليهم كما قال تعالى (يجبى) أى يجمع ويحمل (اليه) أى خاصة
دون غيره من جزيرة العرب (ثمرات كل شئ) من النبات الذى بأرض العرب من ثمر البلاد
الحارة كالبسر والرطب والنبق والباردة كالعنب والتفاح والرمان والخوخ فاذا خولهم الله
تعالى ما خولهم من الامن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم
أن يعرّضهم للخوف والتخطف ويسلبهم الامن اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة الاسلام واسناد
الامن الى أهل الحرم حقيقة والى الحرم مجاز *(تنبيه)* معنى الكلية هنا الكثرة كقوله
تعالى وأوتيت من كل شئ ولكن فى تعبيره بالمضارع وما بعده اشارة الى الاستمرار وانه يأتى اليه
بعد ذلك من كل ما فى الارض من المال ما لم يخطر لاحد منهم فى بال وقرأ نافع بالتاء الفوقية
والباقون بالياء التحتية وأمال حمزة والكسائى محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون
بالفتح ثم انه تعالى بين ان الرزق من عنده بقوله تعالى (رزقا من لدنا) أى فلا صنع لاحد فيه
بل هو محض تفضل *(تنبيه)* انتصاب رزقا على المصدر من معنى يجبى أو الحال من ثمرات
لتخصيصها بالاضافة كما تنتصب عن النكرة المخصصة وان جعلته اسما للمرزوق انتصب على
الحال من ثمرات (ولكن أكثرهم) أى أهل مكة وغيرهم ممن لا هداية له (لا يعلمون) أى
ليس لهم قابلية للعلم حتى يعلموا انا نحن الفاعلون لذلك بل هم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون
ليعلموا وقيل انه متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون ان ذلك رزق من عند
الله اذ لو علموا لما خافوا غيره ثم بين تعالى ان الامر بالعكس فانهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله
تعالى على ما هم عليه بقوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية) أى من أهل قرية وأشار الى سبب
الاهلاك بقوله تعالى (بطرت معيشتها) أى وقع منها البطر فى زمن عيشها الرخى الواسع
فكان حالهم كحالكم فى الامن وادرار الرزق فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم ومعنى بطرهم لها
قال عطاء انهم أكلوا رزق الله وعبدوا غيره وقيل البطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ
حق الله تعالى فيه *(تنبيه)* انتصاب معيشتها اما بحذف الجار واتصال الفعل كما فى قوله
تعالى واختار موسى قومه أو بتقدير حذف ظرف الزمان وأصله بطرت أيام معيشتها واما بتضمين
بطرت معنى كفرت أو خسرت أو على التميز أو على التشبيه بالمفعول به وهو قريب من سفه نفسه
(فتلك مساكنهم) خاوية (لم تسكن من بعدهم) بعد ان طال ما تعالوا فيها وعقوها وزخرفوها
وزهوا فيها الابكار وفرحوا بالاعمال الكبار (الا) سكونا (قليلا) قال ابن عباس لم يسكنها
الا المسافرون ومارّ والطريق يوما أو ساعة من ليل أو نهار ثم تصير يبابا موحشة كالقفار بعد
ان كانت متمنعة الفناء ببيض الصفاح وسمر القنا قال الزمخشرى ويحتمل ان شؤم معاصى
المهلكين بقى أثره فى ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها الا قليلا (وكنا) أى ازلا

وابدا

وابدا (نحن) لاغيرنا (الوارثين) منهم اذلم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر متصرفاتهم قال القائل

تتخلف الآثار عن أصحابها * حينا ويدركها الفناء فتتبع

(وما كان ربك) أى المحسن اليك بالاحسان بارسالك الى الناس (مهلك القرى) أى هذا الجنس كله بجرم وان عظم (حتى يبعث فى أمها) أى اعظمها وأشرفها (رسولا) لان غيرها تبع لها ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه السلام من الناصرة وبعث الى بيت المقدس (يتلوا عليهم) أى أهل القرى كلهم (آياتنا) الدالة على ما ينبغى لنا من الحكمة وعما لها من الاعجاز على نفوذ الكلمة وباهر العظمة الزاما للحجة وقطعا للمعذرة لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء من أم القرى كلها وهى مكة البلد الحرام (وما كنا مهلكى القرى) أى كلها بعد الارسال (الا وأهلها ظالمون) أى عريقون فى الظلم بالعصيان بترك ثمرات الايمان وتكذيب الرسل (وما أوتيتم من شئ) أى من أسباب الدنيا (فمتاع) أى فهو متاع (الحياة الدنيا) تتمتعون بها أيام حياتكم وليس يعود نفعه الى غيرها فهو آيل الى فساد وان طال زمن التمتع به (وزينتها) أى فهو زينة الحياة الدنيا التى هى كلها فضلا عن زينتها الى فناء فليست هى ولا شئ بأزلى ولا أبدى (وما عند الله) أى الملك الاعلى وهو ما لا عين رأت ولا اذن سمعت (خير) على تقدير مشاركة ما فى الدنيا له فالخيرية فى ظنكم لان الذى عنده اطيب واكثر واشهى وازهى (و) هو مع ذلك كله (ابقى) لانه وان شارك متاع الدنيا فى انه لم يكن ازليا فهو ابدى وهذا جواب عن شبههم فانهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ما عند الله خير وابقى من وجهين الاول ان المنافع هنالك اعظم والثانى انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر وأما أنها ابقى فلانها دائمة غير منقطعة ومن قابل المتناهى بغير المتناهى كان عدما فظهر بهذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة فلا جرم نبه على ذلك بقوله تعالى (أفلا يعقلون) ان الباقى خير من الفانى فيستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا فانه يكون خارجا عن حد العقل قال ابن عادل ورحم الله الشافعى حيث قال من أوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله تعالى انما أخذه من هذه الآية انتهى وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ فى الموعظة لاشتماله على الالتفات للاعراض به عن خطابهم والباقون بالتاء على الخطاب جريا على ما تقدم (أفمن وعدناه) على عظمتنا فى الغنى والقدرة والصدق (وعدا حسنا) لاشئ أحسن منه فى موافقته للامنية وبقائه وهو الجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود ولذلك سمى الله تعالى الجنة بالحسنى (فهو لاقيه) أى مدركه لامتناع الخلف فى وعده ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) أى الذى هو

مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب للحسرة على الانقطاع وعن ابن عباس أن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع (ثم هو) مع ذلك كله (يوم القيامة) الذي هو يوم التغابن من خسر فيه لم يربح أصلا (من المحضرين) أي المقهورين على الحضور الى مكان يود لو افتدى منه بملء الارض ذهبا لم يقبل منه قال قتادة يحضره المؤمن والكافر قال مجاهد نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وقال محمد بن كعب نزلت في حمزة وعلي وفي أبي جهل وقال السدي نزلت في عمار والوليد بن المغيرة *(تنبيه)* ثم لتراخي حال الاحضار عن حال التمتع في الزمان أو الرتبة وقرأ ثم هو قالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بالضم (ويوم) أي واذكر يوم (يناديهم) أي ينادي الله هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله (فيقول) أي الله تعالى (أين شركائي) من الاوثان وغيرهم ثم بين أنهم لا يستحقون هذا الاسم بقوله تعالى (الذين كنتم) أي كونا غير يقين فيه (تزعمون) أنهم انشفع ليدفعوا عنكم وعن أنفسهم فيخلصكم من هذا الذي نزل بكم *(تنبيه)* تزعمون مفعولاه محذوفان أي تزعمونهم شركائي (قال الذين حق) أي ثبت ووجب (عليهم القول) أي بدخول النار وهم رؤس الضلالة وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وقولهم (ربنا هؤلاء) اشارة للاتباع (الذين أغوينا) أي أوقعنا الاغواء وهو الاضلال بهم صفته والعائد حذف وقولهم (أغويناهم) أي فغووا باختيارهم (كما غوينا) أي نحن فهؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع الى الموصول محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون انا لم نغو الا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسرهم والجاء أو دعونا الى الغي وسولوه لنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن اغواءنا لهم لم يكن الا وسوسة وتسويلا لا قسرا والجاء فلا فرق اذا بين غينا وغيهم وان كان تسويلنا لهم داعيا الى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله تعالى لهم الى الايمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وبما بعث اليهم من الرسل وأنزل اليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعيا الى الايمان وهذا معنى ما حكاه الله تعالى عن الشيطان ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم *(تنبيه)* اعترض أبو علي على الزمخشري في هذا الاعراب بأن الخبر ليس فيه زيادة فائدة على ما في صفته فان قلت قد وصل الخبر بقوله كما غوينا وفيه زيادة قلت الزيادة بالظرف لا تصيره أصلا في الجملة لان الظروف فضلات ثم انه أعرب هو هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا خبره وأغويناهم مستأنف وأجاب أبو البقاء وغيره بأن الظروف قد تلزم كقولك زيد عمرو قائم في داره ثم أشاروا بقولهم (تبرأنا اليك) أي من أمورهم الى أنه لا لوم علينا في الحقيقة بسببهم فهو تقرير للجملة الاولى ولهذا خلت عن العاطف وعلى تقدير اغوائنا لهم (ما كانوا ايانا) أي خاصة (يعبدون) بل كانوا يعبدون الاوثان بما زينت لهم أهواؤهم وان كان لنا فيه نوع دعاء اليه وحث

عليه

عليه فأقل ما فيه أن يوزع العذاب على من كان سببا فى ذلك وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أى تبرأنا من عبادتهم ايانا * ولما لم يلتفت الى هذا الكلام منهم بل عد عدما لانه لا طائل تحته أشير الى الاعراض عنه لانه لا يستحق جوابا كما قيل رب قول جوابه السكوت بقوله تعالى (وقيل) أى ثانيا للاتباع تهكما بهم واظهارا لعجزهم الملزوم لتحيرهم وعظم تأسفهم وذكر ذلك بصيغة المجهول للاستهانة بهم وانهم من الذل والصغار بحيث يجيبون كل آمر كائنا من كان (ادعوا) أى كلكم (شركاءكم) أى الذين ادعيتم جهلا شركتهم ليدفعوا عنكم العذاب (فدعوهم) تعللا بما لا يغنى وتمسكا بما يتحقق أنه لا يجدى لفرط الغباوة واستيلاء الحيرة والدهشة (فلم يستجيبوا لهم) أى لم يجيبوهم لعجزهم عن الاجابة والنصرة قال ابن عادل والاقرب أن هذا على سبيل التقريع لانهم يعلمون أنه لا فائدة فى دعائهم (ورأوا) أى هم (العذاب) عالمين بأنه مواقعهم لا منزع له عنهم فكان الحال حينئذ مقتضيا لان يقال من كل من يراهم (لو أنهم كانوا يهتدون) أى تحصل منهم هداية ساعة من الدهر تأسفا على أمرهم وتمنيا لخلاصهم ولو أن ذلك كان فى طاقتهم وجواب لو محذوف أى لنجوا من العذاب ولما رأوه أصلا قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ما أبصروه فى الآخرة (ويوم يناديهم) أى الله تعالى وهم بحيث يسمعهم الداعى وينفذهم البصر قد برزوا لله جميعا من كان منهم عاصيا ومن كان منهم مطيعا فى صعيد واحد قد أخذ بأنفاسهم الزحام وتراكب الاقدام على الاقدام وألجمهم العرق وعمهم الغرق (فيقول ماذا) أى أوضحوا وعينوا جوابكم الذى (أجبتم المرسلين) اليكم * (تنبيه) * ويوم معطوف على الاول فانه تعالى يسأل عن اشراكهم به ثم تكذيبهم الانبياء ولما لم يكن لهم قدم صدق ولا سابق حق بما أتتهم الرسل به من الحجج لم يكن لهم جواب الا السكوت وهو المراد بقوله تعالى (فعميت) أى خفيت وأظلمت (عليهم الانباء) أى الاخبار المنجية (يومئذ) التى هى من العظمة بحيث يحق لها فى ذلك اليوم أن تذكر * (تنبيه) * الاصل فعموا عن الانباء لكنه عكس مبالغة ودلالة على ان ما يحضر الذهن انما يفيض ويرد عليه من خارج واذا أخطأه لم يكن له حيلة الى استحضاره واذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام فى ذلك اليوم يفوضون الى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال فلهذا قال تعالى (فهم لا يتساءلون) أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو للعلم بأنه مثله هذا حال من أصر على كفره (فأما من تاب) عنه وقوله تعالى (وآمن) تصريح بما علم التزاما فان الكفر والايمان ضدان لا يمكن ترك أحدهما الا بأخذ الآخر وقوله تعالى (وعمل صالحا) لاجل أن يكون مصدقا لدعواه باللسان (فعسى) اذا فعل ذلك (أن يكون من المفلحين) عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح * ولما كان كأنه قيل ما لاهل القسم الاول لا يتوخون النجاة من ضيق ذلك البلاء الى رحب هذا الرجاء وكان الجواب ربك منعهم من ذلك وماله لم يقطع لهذا القسم بالفلاح كما قطع لاهل القسم الاول بالشقاء كان الجواب (وربك يخلق ما يشاء ويختار) لا موجب عليه ولا مانع له (ما كان لهم الخيرة) أى أن يفعلوا

يفعل لهم كل ما يختارونه *(تنبيه)* الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسا قال البيضاوي والامر كذلك عند التحقيق فان اختيار العبد مخلوق منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقال الرازي في اللوامع وفيه دليل على أن العبد في اختياره غير مختار فلهذا أهل الرضا حطوا الرحال بين يدي ربهم وسلموا الامور اليه بصفاء التفويض يعني فان أمرهم أو نهاهم بادروا وان أصابهم سهام المصائب العظام صابروا وان أعزهم أعزوا انفسهم وأكرموا وان أذلهم رضوا وسلموا فلا يرضيهم الا ما يرضيه ولا يريدون الا ما يريده فيمضيه قال القائل

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمني اللوم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا * ما من يهون عليك ممن يكرم

وقيل ما موصولة مفعول ليختار والراجع محذوف والمعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير والصلاح (سبحان الله) تنزيها له ان يزاحمه أحد أو ينازع اختياره (وتعالى) أي علا علوا لا تبلغ العقول توجيه كنه مداه (عما يشركون) أي عن اشراكهم أو مشاركة ما يشركونه به * ولما كانت القدرة لا تتم الا بالعلم قال تعالى (وربك) أي المحسن اليك المتولي أمر تربيتك (يعلم ما تكن) أي تخفي وتستر (صدورهم) من كونهم يؤمنون على تقدير أن تأتيهم آيات مثل آيات موسى عليه السلام أولا يؤمنون ومن كون ما أظهر من أظهر الايمان بلسانه خالصا أو مشوبا ومن كونهم يخفون عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم (وما يعلنون) أي يظهرون من ذلك كل ذلك لديه سواء فلا يكون لهم مراد الا بخلقه (فان قيل) هلا اكتفي بقوله تعالى ما تكن صدورهم عن قوله وما يعلنون (أجيب) بأن علم الخفي لا يستلزم علم الجلي اما البعد أو لغط او اختلاط أصوات يمنع تمييز بعضه عن بعض أو غير ذلك * ولما كان علمه تعالى بذلك انما هو لكونه الها واحدا فردا صمدا وكان غيره لا يعلم من علمه الا ما علمه قال تعالى (وهو الله) أي المستأثر بالالهية الذي لا سمي له الذي لا يحيط الواصفون بكنه عظمته ثم شرح معنى الاسم الاعظم بقوله تعالى (لا اله الا هو) وهذا تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات ثم علل ذلك بقوله تعالى (له) أي وحده (الحمد) أي الاحاطة بأوصاف الكمال (في الاولى والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا (فان قيل) الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة (أجيب) بأنهم يحمدونه بقولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين والتوحيد هنالك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث يلهمون التسبيح والتقديس (وله الحكم) أي القضاء النافذ في كل شئ وقال ابن عباس حكم لاهل الطاعة بالمغفرة ولاهل المعصية بالشقاء (واليه) لا الى غيره (ترجعون) أي بأيسر أمر يوم النفخ في الصور لبعثرة ما في القبور بالبعث والنشور مع أنكم الآن راجعون في جميع أحكامكم اليه ومقصورون عليه ان شاء امضاها وان أراد ردها ولولاها في الآية غاية التقوية لقلوب

المطيعين ونهاية الزجر والردع للمتمردين ثم بين سبحانه وتعالى بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه بقوله تعالى (قل) أي يا أفضل الخلق لاهل مكة (أرأيتم) أي أخبروني (ان جعل الله) أي الملك الاعلى (عليكم الليل) أي الذي به اعتدال حر النهار (سرمدا) أي دائما (الى يوم القيامة) لانها رمعه (من اله غير الله) أي العظيم الشأن الذي لا كفء له (يأتيكم بضياء) أي بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) أي ما يقال لكم سماع اصغاء وتدبر (قل أرأيتم ان جعل الله) أي الذي له الامر كله (عليكم النهار) أي الذي توازن حرارته برطوبة الليل فيتم بها صلاح النبات وغير ذلك من جميع المقدرات (سرمدا) أي دائما (الى يوم القيامة) لا ليل فيه (من اله غير الله) أي الجليل الذي ليس له مثل (يأتيكم بليل) أي ينشأ منه ظلام (تسكنون فيه) استراحة عن متاعب الاشغال (فان قيل) هلا قيل بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه (أجيب) بأنه تعالى ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعايش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدرك البصر من ذلك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل (أفلا تبصرون) لان غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون قال البقاعي فالآية من الاحتباك ذكر الضياء أولا دليلا على حذف الظلام ثانيا والليل والسكون ثانيا دليلا على حذف النهار والانتشار أولا ولما كان التقدير ومن رحمته جعل لكم السمع والابصار لتتدبروا آياته وتبصروا في مصنوعاته عطف عليه (ومن رحمته) أي التي وسعت كل شئ لا من غيرها من خوف أو رجاء أو تعلق غرض من الاغراض (جعل لكم الليل والنهار) آيتين عظيمتين دبر فيهما وبهما جميع مصالحكم فجعل آية الليل (لتسكنوا فيه) فلا تسعوا فيه لمعاشكم (و) جعل آية النهار مبصرة (لتبتغوا من فضله) بأن تسعوا في معاشكم بجهدكم قال البقاعي فالآية من الاحتباك ذكر أولا السكون دليلا على حذف السعي في المعاش ثانيا وذكر الابتغاء من فضله ثانيا دليلا على حذف عدم السعي في المعاش أولا (ولعلكم تشكرون) أي وليكون حالكم حال من يرجى منه الشكر لما يتجدد لكم من تقلبهما من النعم المتوالية التي لا يحصرها الا خالقها وأما الآخرة فلما كانت غير مبنية على الاسباب وكانت الجنة لا تعب فيها بوجه كان لا حاجة فيها الليل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) تقريع بعد تقريع للاشعار بأنه لا شئ أجلب لغضب الله تعالى من الاشراك به كما أنه لا شئ أدخل في مرضاته من توحيده اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك فأدخلنا في الناجين من وعيدك ومتعنا بالنظر الى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ويحتمل أن يكون الاول لتقرير فساد رأيهم والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند وانما كان محض تشه وهوى أو أنه ذكر الثاني كما قال الجلال المحلي ليبني عليه (ونزعنا) أي أخرجنا وأفردنا بقوة وسطوة (من كل أمة شهيدا) أي وهو رسولهم يشهد عليهم بما قالوه (فقلنا) أي فتسبب عن ذلك ان قلنا للامم (هاتوا برهانكم) أي دليلكم القطعي الذي فزعتم في الدنيا اليه وعولتم في شرككم عليه كما هو شأن ذوي العقول انهم لا يبنون شيأ على غير أساس (فعلموا) أي بسبب هذا

السؤال لما اضطروا ولم يجدوا الهم سندا (ان الحق) فى الالهية (لله) أى الملك الذى له الامر كله لايشاركه فيه أحد (وضل عنهم) أى غاب غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) أى يقولونه قول الكاذب المتعمد للكذب لكونه لادليل عليه ولا شبهة للغلط فيه (ان قارون) ويسمى فى التوراة تورح (كان من قوم موسى) قال أكثر المفسرين كان ابن عمه لان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث بن لاوى وقال ابن اسحق كان قارون عم موسى فكان أخا عمران وهما ابنا يصهر ولم يكن فى بنى اسرائيل اقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامرى وكان يسمى النور لحسن صورته وعن ابن عباس كان ابن خالته (فبغى عليهم) أى تجاوز الحد فى احتقارهم بما خولناه فيه قيل كان عاملا لفرعون على بنى اسرائيل وكان يبغى عليهم ويظلمهم وقال قتادة بغى عليهم بكثرة المال ولم يرع لهم حق الايمان بل استخف بالفقراء وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك وقال شهر بن حوشب زاد فى طول ثيابه شبرا روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء وقال القفال طلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت يده وقال ابن عباس تكبر عليهم وتجبر وقال الكلبى حسد هرون عليه السلام على الحبورة روى أهل الاخبار ان قارون كان أعلم بنى اسرائيل بعد موسى وهرون وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه ان الله تعالى أوحى الى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرون اذا انظروا اليها السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى فقال موسى عليه السلام يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بنى اسرائيل تحتقر هذه الخيوط فقال الله تعالى ياموسى ان الصغير من أمرى ليس بصغير فان لم يطيعونى فى الامر الصغير لم يطيعونى فى الامر الكبير فدعاهم موسى عليه السلام وقال ان الله تعالى يأمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكى تذكروا ربكم اذا رأيتموها ففعل بنو اسرائيل ما أمرهم به واستكبر قارون ولم يفعل وقال انما يفعل هذا الارباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم وكان هذا بدء عصيانه وبغيه ولما قطع الله تعالى لبنى اسرائيل البحر وأغرق فرعون جعل الحبورة لهرون عليه الصلاة والسلام فحصلت له النبوة والحبورة وكان له القربان والذبح وكان لموسى عليه السلام الرسالة فوجد قارون لذلك فى نفسه وقال ياموسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست فى شئ لا أصبر أنا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ماصنعت ذلك لهرون بل الله تعالى جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى ترينى بيانه فجمع موسى عليه السلام رؤساء بنى اسرائيل وأمرهم أن يجئ كل رجل منهم بعصا فجاؤا بها فحزمها وألقاها موسى عليه السلام فى قبة له كان يعبد الله تعالى فيها وكان ذلك بأمر الله تعالى ودعا موسى عليه السلام أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون عليه السلام وقد اهتزلها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى عليه السلام لقارون ألا ترى ماصنع لهرون عليه السلام فقال والله ماهذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون

ومعه ناس كثيرو ولي هرون عليه السلام الحبورة وهي رياسة الذبح والقربان وكانت بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون عليه السلام فيضعها في المذبح وتنزل نار من السماء فتأكلها واعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال والتبع من بني اسرائيل فكان لا يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان قارون كان من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى * ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر سببه الحقيقي بقوله تعالى (وآتيناه من الكنوز) أي الاموال المدفونة المذخورة فضلا عن الظاهرة التي هي بصدد الانفاق منها لما عساه يعرض من المهمات (ما) أي الذي أوتي شيء كثير لا يدخل تحت حصر حتى (ان مفاتحه) أي مفاتح الاغلاق التي هو مدفون فيها وراء أبوابها (لتنوء) أي تميل بجهد ومشقة بثقلها (بالعصبة) أي الجماعة الكثيرة التي تعصب أي يقوى بعضهم بعضا (أولي) أي أصحاب (القوة) أي تميلهم من اثقالها اياهم * (تنبيه) * في المبالغة بالتعبير بالكنوز والمفاتح والنوء والعصبة الموصوفة ما يدل على انه أوتي من ذلك ما لم يؤته أحد ممن هو في عداده وكل ذلك مما تستبعده العقول فلذلك وقع التأكيد واختلفوا في عدد العصبة فقال مجاهد ما بين العشرة الى خمسة عشر وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة الى العشرة وقال قتادة ما بين العشرة الى الاربعين وقيل أربعون رجلا وقيل سبعون وروى عن ابن عباس قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلا أقوى ما يكون من الرجال وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت في الانجيل ان مفاتح خزائن قارون وقر ستين بغلا ما يزيد فيها مفتاح على اصبع لكل مفتاح كنز ويقال كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما أثقلت عليه جعلت من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الاصابع وكانت تحمل معه اذا ركب على أربعين بغلا وفي الباء في بالعصبة وجهان أنها للتعدية كالهمزة ولا قلب في الكلام والمعنى لتنيء المفاتح العصبة الاقوياء كما تقول أجأته وجئت به وأذهبته وذهبت به والثاني قال أبو عبيدة ان في الكلام قلبا والاصل لتنوء العصبة بالمفاتح أي لتنهض بها كقولهم عرضت الناقة على الحوض ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر وقته بقوله تعالى (اذ قال له قومه) أي من بني اسرائيل (لا تفرح) أي بكثرة المال فرح بطر فان الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون اليه وذلك يدل على نسيان الآخرة وعلى غاية الجهل وقلة التأمل بالعواقب قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله عز وجل (ان الله) أي الذي له صفات الكمال (لا يحب) أي لا يعامل معاملة المحب (الفرحين) أي البطرين الاشرين الراسخين في الفرح بما يفني الذين لا يشكرون الله تعالى بما أعطاهم فان فرحهم يدل على سقوط الهمم كما قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وقال القائل في ذلك

ولست بمفراح اذا الدهر سرني * وقال آخر

أشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا يفرح بالدنيا الا من رضي بها واطمأن فأما من قلبه الى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح (وابتغ) أي اطلب طلبا تجتهد نفسك فيه (فيما آتاك الله) أي

الملك الذى الامر كله بيده من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تقوم بشكر الله فيما أنعم الله
عليك وتنفقه فى رضا الله تعالى فيجازيك بالجنة (ولا تنس) أى ولا تترك (نصيبك من الدنيا)
قال مجاهد لا تترك أن تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لان حقيقة نصيب
الانسان من الدنيا أن يعمل للآخرة وقال السدى بالصدقة وصلة الرحم وقال على رضى الله
تعالى عنه وكرم الله وجهه لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك ان تطلب بها الآخرة روى
أنه صلى الله عليه وسلم قال فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة
قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد
الدنيا دار الا الجنة والنار وعن ميمون الازدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل
وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك
وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه وقال
منصور بن زادان قوتك وقوت أهلك (وأحسن) أى أوقع الاحسان بدفع المال الى المحاويج
والانفاق فى جميع الطاعات ويدخل فى ذلك الاعانة بالجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن
الذكر (كما أحسن الله) الجامع لصفات الكمال (اليك) بأن تعطى عطاء من لا يخاف الفقر كما
أوسع الله عليك (ولا تبغ) أى ولا ترد ارادة ما (الفساد فى الارض) بتقتير ولا تبذير ولا تكبر على
عباد الله تعالى ولا تحقير ثم اتبع ذلك علته مؤكدا لان أكثر المفسدين يبسط لهم فى الدنيا وأكثر
الناس يستبعد أن يبسط فيه الغير محبوب فقيل (ان الله) أى العالم بكل شئ القدير على كل شئ
(لا يحب المفسدين) أى لا يعاملهم معاملة من يحبه وقيل ان القائل له هذا موسى عليه السلام
وقيل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما فيه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد
عليه كفر النعمة بأن (قال) أى قارون فى الجواب (انما أوتيته) أى هذا المال (على علم) حاصل
(عندى) فانه كان أعلم بنى اسرائيل بالتوراة اى فرأى له أهلا ففضلنى بهذا المال عليكم كما فضلنى
بغيره وقيل هو علم الكيمياء وقال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلث
ذلك العلم وعلم كالب بن يوفنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه
فكان ذلك سبب أمواله وقيل على علم عندى بالتصرف فى التجارات والزراعات وأنواع المكاسب
ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله تعالى (أولم يعلم ان الله) أى بماله من صفات الجلال والعظمة
والكمال (قد أهلك) وقوله تعالى (من قبله من القرون) فيه تنبيه على أنه لم يتعظ مع مشاهدته
للمهلكين الموصوفين مع قرب الزمان وبعده وقوله تعالى (من هو أشد منه قوة) أى فى البدن
والمعانى من العلم وغيره والانصار والخدم (وأكثر جمعا) فى المال والرجال آخرهم فرعون
الذى شاهده فى ملكه وحقق أمره يوم هلكه فيه تعجيب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع
علمه بذلك لانه قرأ فى التوراة وكان أعلمهم بها وسمعه من حفاظ التواريخ واختلف فى معنى قوله
عز وجل (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فقال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب
وقال مجاهد لا تسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم وقال الحسن لا يسئلون سؤال

استعلام

استعلام وانما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع وقيل المراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى سؤالهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة الى السؤال (فان قيل) كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون (أجيب) بحمل ذلك على وقتين وقال أبو مسلم السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتوبيخ والتقريع وقد يكون للاستعتاب قال ابن عادل وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله تعالى ثم لا يؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (فخرج) أى فتسبب عن تجبره واغتراره بماله ان خرج (على قومه) أى الذين نصحوه فى الاقتصاد فى شأنه والاكثار فى الجود على اخوانه وقوله تعالى (فى زينته) فيه دليل على أنه خرج بأظهر زينته وأكملها وليس فى القرآن الا هذا القدر والناس ذكروا وجوها مختلفة فقال ابراهيم النخعى انه خرج هو وقومه فى ثياب حمر وصفر وقال ابن زيد فى تسعين ألفا عليهم المعصفرات وقال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الارجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال * ولما كان كأنه قيل ماذا قال قومه له قيل (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) منهم لسفول هممهم وقصور نظرهم على الفانى لكونهم أهل جهل وان كان قولهم من باب الغبطة لا من باب الحسد الذى هو تمنى زوال نعمة المحسود (ياليت لنا) أى تمنى تمنيا عظيما أن نؤتى من أى مؤت كان وعلى أى وصف كان (مثل ما أوتى قارون) أى من هذه الزينة وما تسبب عنه من العلم حتى لا نزال أصحاب أموال ثم عظموها بقولهم مؤكدين لعلمهم ان ثم من يريد ان ينكر عليهم (انه لذو حظ) أى نصيب وبخت من الدنيا (عظيم) بما أوتيه من العلم الذى كان سببا الى جمع هذا المال وهؤلاء الراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وان يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ودل على جهلهم وفضل العلم الربانى وحقارة ما أوتى قارون من المال والعلم الظاهر الذى أدى الى اتباعه قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) وهم أهل الدين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى الاحبار من بنى اسرائيل وقال مقاتل أوتوا العلم بما وعد الله فى الآخرة فقالوا للذين تمنوا (ويلكم) ويل أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما يضر وهو منصوب بمحذوف أى ألزمكم الله ويلكم (ثواب الله) أى الجليل العظيم (خير) أى من هذا الحطام الذى أوتيه قارون فى الدنيا بل من الدنيا ومافيها ومن فاته الخير حل به الويل ثم بينوا مستحقه تعظيما له وترغيبا للسامع فى حاله بقولهم (لمن آمن وعمل) تصديقا لايمانه (صالحا) ثم بين تعالى عظمة هذه النصيحة وعلو قدرها بقوله تعالى (ولا يلقاها) أى هذه النصيحة التى قالها أهل العلم وهى الزهد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله أو الجنة المثاب بها (الا الصابرون) أى على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار الذين صار الصبر لهم خلقا * ولما تسبب عن بطره هذا الذى أوصله الى الكفر بربه أخذه بالعذاب أشار الى ذلك بقوله سبحانه وتعالى (فخسفنا) أى بما لنا من العظمة (به وبداره الارض) روى أنه كان

يؤذى موسى عليه الصلاة والسلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه كل وقت
ولا يزيد الا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها
صفائح الذهب وكان الملأ من بنى اسرائيل يغدون اليه ويروحون فيطعمهم الطعام
ويضاحكونه قال ابن عباس نزلت الزكاة على موسى عليه السلام فأتاه قارون فصالحه عن كل
ألف دينار بدينار وعن كل ألف درهم بدرهم وعن كل ألف شاة بشاة فلم تسمح بذلك نفسه فجمع بنى
اسرائيل وقال لهم ان موسى قد أمركم بكل شئ فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم
فقالوا أنت كبيرنا فأمرنا بما شئت قال آمركم ان تجيؤا بفلانة البغى فنجعل لها جعلا حتى تقذف
موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو اسرائيل ورفضوه فدعاها فجعل لها قارون ألف
درهم وقيل ألف دينار وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها انى أمونك وأخلطك بنسائى على ان
تقذفى موسى بنفسك غدا اذا حضر بنو اسرائيل فلما كان من الغد وكان يوم عيد لهم قام موسى
عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه
فقال له قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال ان بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال
ادعوها فان قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء
فعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لبنى اسرائيل وأنزل التوراة الا صدقت فتداركها الله تعالى
بالتوفيق وقالت فى نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من ان أوذى رسول الله فقالت لا كذبوا
ولكن جعل لى قارون جعلا على ان أرميك بنفسى فخر موسى ساجدا يبكى ويقول اللهم ان
كنت رسولك فاغضب لى فأوحى الله تعالى اليه انى أمرت الارض ان تطيعك فمرها بما شئت فقال
موسى عليه السلام يا بنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلبث
مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا ولم يبق مع قارون الا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم
فأخذت الارض بأقدامهم وفى رواية كان على فراشه وسريره فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال
خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال يا أرض خذيهم
فأخذتهم الى الاعناق وقارون وصاحباه فى كل ذلك يتضرعون الى موسى ويناشده قارون بالله
والرحم حتى روى انه ناشده سبعين مرة وموسى فى كل ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه ثم قال
يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الارض فأوحى الله تعالى اليه ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين
مرة فلم ترحمه وعزتى وجلالى لو دعانى مرة واحدة لاجبته وفى بعض الآثار لا أجعل الارض
بعدك طوعا لاحد قال قتادة خسف به فهو يتجلجل فى الارض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها الى
يوم القيامة قال وأصبح بنو اسرائيل يتناجون فيما بينهم ان موسى انما دعا على قارون ليستبد بداره
وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وبأمواله فاياكم يا أمة هذا النبى ان تردوا ما أتاكم به
من الرحمة فتهلكوا وان كنتم أقرب الناس اليه فان قارون كان من أقارب موسى عليه السلام
فان الانبياء عليهم السلام كما انهم لا يوجدون الهدى فى قلوب العدا فكذلك لا يغنون من الردى
ولا يشفعون الا لمن ارتضى (فما) أى فتسبب عنه انه ما (كان له) أى لقارون وأكد النفى لما استقر
فى الاذهان ان الاكابر منصورون بزيادة الجار فى قوله تعالى (من فئة) أى أعوان وأصل الفئة

الجماعة

الجماعة من الطير كأنها سميت بذلك لكثرة رجوعها وسرعتها الى المكان الذى ذهبت منه (ينصرونه من دون الله) أى غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك (وما كان من المنتصرين) أى الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر اذا منعه منه فامتنع ولما خسف به واستبصر الجهال الذين هم كالبهائم لا يرون الا المحسوسات ذكر حالهم بقوله (وأصبح) أى وصار ولكنه ذكر لمقابلة المساء (الذين تمنوا) أى أرادوا ارادة عظيمة بغاية الشهوة ان يكونوا (مكانه) أى تكون حاله ومنزلته فى الدنيا لهم (بالامس) أى الزمان الماضى القريب وان لم يكن يلى يومهم الذى هم فيه فالامس قد يذكر ولا يراد به اليوم الذى قبل يومك ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة (يقولون ويكأن الله يبسط) أى يوسع (الرزق لمن يشاء من عباده) بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه (ويقدر) أى يضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء منه وفتنة ووى اسم فعل بمعنى أعجب أى أنا والكاف بمعنى اللام وهذه الكلمة والتى بعدها متصلة باجماع المصاحف واختلف القراء فى الوقف فالكسائى وقف على الياء قبل الكاف ووقف أبو عمرو على الكاف ووقف الباقون على النون وعلى الهاء وحمزة يسهل الهمزة فى الوقف على أصله وأما الوصل فلا خلاف فيه بينهم * ولما لاح لهم من واقعته ان الرزق انما هو بيد الله اتبعوه ما دل على انهم اعتقدوا أيضا ان الله قادر على ما يريد من غير الرزق كما هو قادر على الرزق من قولهم (لولا أن من الله) أى تفضل الملك الاعظم (علينا) بجوده ولم يعطنا ما تمنيناه من الكنوز على مثل حاله (لخسف بنا) مثل ما خسف به (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى كقارون والمكذبين لرسله وبما وعدهم من ثواب الآخرة وقوله تعالى (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم لشأنها أى تلك الدار التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها وتلك مبتدأ والدار صفته والخبر (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض) بالبغى (ولا فسادا) بعمل المعاصى فلم يعلق تعالى الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلوب اليهما كما قال تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن على رضى الله تعالى عنه ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال ذهبت الامانى ههنا وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه انه كان يرددها حتى قبض قال الزمخشرى ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقا بقوله تعالى ان فرعون علا فى الارض وبقوله تعالى ولا تبغ الفساد فى الارض فيقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله تعالى (والعاقبة) أى المحمودة (للمتقين) أى عقاب الله تعالى بعمل طاعته كما تدبره على والفضيل وعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهم ولما بين تعالى ان الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا فى الارض ولا فسادا بل هى للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل فقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) من عشرة أضعاف الى سبعين الى سبعمائة ضعف الى ما لا يحيط به الا الله تعالى (ومن جاء بالسيئة) وهى ما نهى الله تعالى عنه ومنه اخافة المؤمنين (فلا يجزى) أى من أى جاز واظهر ما فى هذا الفعل من الضمير العائد على

من بقوله تعالى (الذين عملوا السيآت) تصويراً لحالهم وتقبيحاً لها وتنفيراً من عملها (الا) جزاء (ما كانوا يعملون) أى مثله وهذا من فضل الله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة الا بمثلها ويجزى الحسنة بأكثر منها كما مرّ (فان قيل) قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها كرر ذكر الاحسان واكتفى فى ذكر الاساءة بمرة واحدة فما السبب فى ذلك (أجيب) بأن هذا المقام مقام ترغيب فى الدار الآخرة فكانت المبالغة فى النهى عن المعصية مبالغة فى الدعوة الى الآخرة وأما الآية الأخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم أولى (فان قيل) كيف انه تعالى لا يجزى السيئة الا بمثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا مات فى الحال عذب أبد الآباد (أجيب) بأنه كان على عزم أنه لو عاش أبداً لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه (ان الذى فرض) أى أنزل (عليك القرآن) قاله أكثر المفسرين وقال عطاء أوجب عليك العمل بالقرآن وقال أبو على فرض عليك أحكامه وفرائضه (لرادّك الى معاد) أى معاد ليس لغيرك من البشر وهو المقام المحمود الذى وعدك ان يبعثك فيه وتنكير المعاد لذلك وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس يعنى الى الموت وقال الزهرى وعكرمة الى يوم القيامة وقيل الى الجنة وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى الى مكة وهو قول مجاهد وقال القتيبى معاد الرجل بلده ينصرف ثم يعود الى بلده وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجراً الى المدينة سار فى غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع الى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة اشتاق اليها فأتاه جبريل عليه السلام فقال اشتقت الى بلدك ومولدك قال نعم قال فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد قال الرازى وهذا أقرب لان ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل له العود اليه وذلك لا يليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا آخر مما يدل على نبوته لانه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً * ونزل جواباً لقول كفار مكة انك لفى ضلال مبين (قل) أى للمشركين (ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب فى المعاد يعنى نفسه (ومن هو فى ضلال مبين) يعنيهم وما يستحقونه من العذاب فى معادهم فهو الجائى بالهدى وهم فى الضلال * (تنبيه) * من جاء منصوب بمضمر أى يعلم أو بأعلم ان جعلناها بمعنى عالم وأعملناها اعماله (وما كنت ترجو) أى فى سالف الدهر بحال من الاحوال (أن يلقى) أى ينزل على وجه لم تقدر على ردّه (اليك الكتاب) أى يوحى اليك القرآن قال البيضاوى أى سيردك الى معاد كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه وهو ظاهر على أن المراد بالمعاد مكة وقوله تعالى (الا رحمة) استثناء منقطع أى لكن ألقى اليك الكتاب رحمة (من ربك) أى فأعطاك القرآن وقيل متصل قال الزمخشرى هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة فيكون استثناء من الاحوال أو من المفعول له (فلا تكونن ظهيراً) أى معينا (للكافرين) على دينهم الذى دعوك اليه قال مقاتل وذلك حين دعى الى دين آبائه فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه (ولا يصدّنك عن آيات الله) أى قراءتها والعمل بها (بعد اذ نزلت

اليك

اليك) أى لا ترجع اليهم فى ذلك (وادع) أى أوجد الدعاء (الى ربك) أى الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) أى باعانتهم ولم يؤثر الجازم فى الفعل لبنائه بخلافه فى يصدنك فانه حذف منه نون الرفع اذ أصله يصدوننك حذفت نون الرفع للجازم ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين (ولا تدع) أى تعبد (مع الله) أى الجامع لجميع صفات الكمال (الها آخر) (فان قيل) هذا وما قبله لا يقع منه صلى الله عليه وسلم فما فائدة ذلك النهى (أجيب) بانه ذكر للتهييج وقطع اطماع المشركين عن مساعدته لهم أوان الخطاب وان كان معه لكن المراد غيره كما فى قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك ثم علل ذلك بقوله تعالى (لا اله الا هو) أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع الا هو كقوله تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه ثم علل وحدانيته بقوله تعالى (كل شئ هالك الا وجهه) أى ذاته فان الوجه يعبر به عن الذات وقال ابو العالية الا ما أريد به وجهه وقيل الا ملكه واختلفوا فى قوله تعالى هالك فمن الناس من فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا به بالاماتة أو بتفريق الاجزاء وان كانت أجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء اجزائه بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته فان كل ما عداه تعالى ممكن الوجود قابل للعدم فكان قابلا للهلاك فأطلق عليه اسم الهالك نظرا الى هذا الوجه وعلى هذا يحمل قول النسفى فى بحر الكلام سبعة لا تفنى العرش والكرسى واللوح والقلم والجنة والنار بأهلهما من ملائكة العذاب والحور العين والارواح (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه) وحده (ترجعون) أى فى جميع أحوالكم فى الدنيا وبالنشور من القبور للجزاء فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من قوله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق بموسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الا شهد له يوم القيامة انه كان صادقا حديث موضوع

(سورة العنكبوت مكية)

الا عشر آيات من أولها الى قوله تعالى وليعلمن المنافقين قال الحسن فانها مدنية وهى سبع وستون آية وألف وتسعمائة واحدى وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفا (بسم الله) الذى أحاط بجميع القوة فأعز جنده (الرحمن) الذى شمل جميع العباد بنعمه (الرحيم) بجميع خلقه وقوله تعالى (الم) سبق القول فيه فى أول البقرة ووقوع الاستفهام بعده دليل على استقلاله بنفسه فيكون اسما للسورة أو للقرآن او لله أو أنه سر استأثر بعلمه الله تعالى او استقلاله بما يضمر معه بتقديره مبتدأ أو خبرا وغيره مما مر أول سورة البقرة وقيل فى الم اشار بالالف الدال على القائم الاعلى المحيط ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز الى انه تعالى أرسل جبريل الى محمد عليهما الصلاة والسلام ولما قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الحراب والضراب والطعان لان النبى صلى الله عليه وسلم

وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد فشق على البعض ذلك فقال تعالى (أحسب الناس) أي كافة (أن يتركوا) أي أظنوا انهم يتركون بغير اختبار وابتلاء في وقت ما بوجه من الوجوه * (تنبيه) * ان يتركوا سد مسد مفعولي حسب عند الجمهور (أن) أي بأن (يقولوا) أي بقولهم (آمنا وهم) أي والحال انهم (لا يفتنون) أي يختبرون بما تميز به حقية ايمانهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات وأنواع المصائب في الانفس والاموال ليتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال الشعبي نزلت في اناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام ثم هاجروا فاتبعهم الكفار فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال انها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام كانوا يعذبون بمكة وقال ابن جريج نزلت في عمار بن ياسر كان يعذب في الله عز وجل وقال مقاتل نزلت في مهجع ابن عبد الله مولى عمر كان أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر فقال صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة فجزع عليه أبواه وامرأته فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية وقيل وهم لا يفتنون بالاوامر والنواهي وذلك ان الله تعالى أمرهم في الابتداء بمجرد الايمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعض فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم عزاهم فقال (ولقد فتنا الذين من قبلهم) أي من الانبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلي بنو اسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب فذلك سنة قديمة جارية في الامم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه (فليعلمن الله) أي الذي له الكمال كله (الذين صدقوا) في ايمانهم علم مشاهدة للخلق والا فالله تعالى لا يخفى عليه خافية (وليعلمن الكاذبين) فيه أي فيظهر الله الصادقين من الكاذبين في الايمان (فائدة) لبعض المحبين

للهوى آية (أي علامة) بها يعرف الصا * دق في عشقه من الكذاب
سهر الليل دائما ونحول الـ جسم والموت في رضا الاحباب

(أم حسب) أي ظن (الذين يعملون السيئات) أي الشرك والمعاصي فان العمل يعم أفعال القلوب والجوارح (أن يسبقونا) أي يفوتونا فلا ننتقم منهم وهذا ساد مسد مفعولي حسب وأم منقطعة والاضراب فيها لان هذا الحساب أبطل من الاول لان صاحب ذلك يقدر ان لا يمتحن لايمانه وصاحب هذا يظن ان لا يجازي بمساويه ولهذا عقبه بقوله تعالى (ساء ما يحكمون) أي بئس الذي يحكمونه أو حكما يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم ولما بين بقوله أحسب الناس أن يتركوا ان العبد لا يترك في الدنيا سدى وبين في قوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ان من ترك ما كلف به يعذب عذابا بين ان من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله بقوله تعالى (من كان يرجو لقاء الله) أي الملك الاعلى قال ابن عباس ومقاتل من كان يخشى البعث والحساب والرجاء بمعنى الخوف وقال سعيد بن جبير من كان يطمع

في ثواب الله (فان أجل الله) أي الوقت المضروب للقائه (لآت) أي لجاء لا محالة فانه لا يجوز عليه الخلاف الوعد (فان قيل) كيف وقع فان أجل الله لآت جوابا للشرط (أجيب) بأنه اذا كان وقت اللقاء آتيا كان اللقاء آتيا لا محالة كما تقول من كان يرجو لقاء الملك فان يوم الجمعة قريب اذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة وقال مقاتل يعني يوم القيامة لكائن ومعنى الآية ان من يخشى الله تعالى ويأمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم كما قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا (وهو السميع) أي لما قالوه (العليم) يعلم من صدق فيما قال ومن كذب فيثيب ويعاقب على حسب علمه قال الرازي وههنا لطيفة وهي أن للعبد أمورا هي أصناف حسناته عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وانما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله تعالى لمسموعه مالا اذن سمعت ولمرئيه مالا عين رأت ولعمل قلبه مالا خطر على قلب بشر كما وصف في الخبر في وصف الجنة اهـ (تنبيه) لم يذكر الله تعالى من الصفات غير هذين الصفتين كالعزيز والحكيم وذلك لانه سبق القول في قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وسبق الفعل بقوله تعالى وهم لا يفتنون وبقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما يدرك بالبصر ومنه مالا يدرك به كما علم عامّ والعلم يشملهما ولما بين تعالى أن التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طلب الله تعالى ذلك من المكلف ليس لنفع يعود اليه بقوله تعالى (ومن جاهد) أي بذل جهده في جهاد حرب أو نفس حتى كانه يسابق آخر في الاعمال الصالحة (فانما يجاهد لنفسه) لان منفعة جهاده له لا لله تعالى فانه غني مطلق كما قال تعالى (ان الله) أي المتصرف في عباده بما شاء (لغني عن العالمين) أي الانس والجن والملائكة وعن عبادتهم ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم فينبغي للعبد أن يكثر من العمل الصالح ويخلصه لان من عمل فعلا يطلب به ملكا ويعلم ان الملك يراه يحسن العمل ويتقنه واذا علم ان عمله لنفسه لا لاحد يكثر منه نسأل الله الكريم الفتاح أن يوفقنا للعمل الصالح وأن يفعل ذلك بأهلينا وذريتنا ومحبينا بمحمد وآله ولما بين تعالى حال المسيء مجملا بقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن بقوله تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه وكان التقدير فالذين جاهدوا والذين عملوا السيئات لنجزينهم أجمعين ولكنه طواه لان السياق لاهل الرجاء عطف عليه قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أي في الشدة والرخاء على حسب طاقتهم وفي ذلك اشارة الى ان رحمته تعالى أتم من غضبه وفضله أتم من عدله وأشار بقوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم) الى ان الانسان وان اجتهد لا بد من ان يزل عن الطاعة لانه مجبول على النقص فالصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما مالم تؤت الكبائر والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان ونحو ذلك مما وردت به الاخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم المختار فالصغائر تكفر بعمل الصالحات وأما الكبائر فتكفر بالتوبة ولما بشرهم

بالعفو عن العقاب أتم البشرى بالامتنان بالثواب فقال عاطفا على ما تقديره ولنثبتن لهم حسناتهم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء ما عملوه وهو الصالحات وأحسن نصب بنزع الخافض وهو الباء * ولما كان من جملة العمل الصالح الاحسان الى الوالدين ذكر ذلك بقوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) أى وان عليا (حسنا) أى برا بهما وعطفا عليهما أى وصيناه بايتاء والديه حسنا أو بايلاء والديه حسنا لانهما سبب وجود الولد وسبب بقائه بالتربية المعتادة والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه فيطيعهما ما لم يأمرا بمعصية الله كما قال تعالى (وان جاهداك لتشرك بى) وقوله تعالى (ما ليس لك به علم) أى لا علم لك بالهيته موافق للواقع فلا مفهوم له أو أنه اذا كان لا يجوز أن يتبع فيما لا يعلم صحته فبالاولى أن لا يتبع فيما يعلم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك كما جاء فى الحديث لا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر قبل ثم علل ذلك بقوله تعالى (الى مرجعكم) أى من آمن منكم ومن كفر ومن بر والديه ومن عق ثم تسبب عنه قوله تعالى (فأنبئكم بما كنتم تعملون) أى أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها نزلت هذه الآية فى سعد ابن أبى وقاص الزهرى وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس روى أنها لما سمعت باسلامه قالت له يا سعد بلغنى انك قد صبأت فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح وهو بكسر الضاد المعجمة وبحاء مهملة الشمس والريح وان الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد وكان أحب أولادها اليها فأبى سعد ولبثت ثلاثة أيام لا تنتقل من الضح ولا تأكل ولا تشرب فلم يطعها سعد بل قال والله لو كانت مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم جاء سعد الى النبى صلى الله عليه وسلم وشكا اليه فنزلت هذه الآية وهى التى فى لقمان والتى فى الاحقاف فأمره صلى الله عليه وسلم ان يداريها ويترضاها بالاحسان وروى أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما مترافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لامه أسماء بنت مخرمة امرأة من بنى تميم بن حنظلة فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تأكل ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك وهى أشد حبا لك منا فاستشار عمر فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر فقال عمر أما اذ عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتى قد كلت فاحملنى معك قال نعم فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه وشداه وأوثقاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد فنزلت رضى الله تعالى عنه وأرضاه ونفعنا به فى الدنيا والآخرة * ولما كان التقدير فالذين أشركوا وعملوا السيئات لندخلنهم فى المفسدين ولكنه طواه لدلالة السياق عليه عطف عليه زيادة فى الحث على الاحسان الى الوالدين قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا) تحقيقا لايمانهم (الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى الانبياء والاولياء بأن نحشرهم معهم أو ندخلهم وهم

الجنة والصلاح منتهى درجات المؤمنين ومنتهى أنبياء الله والمرسلين * ولما بين سبحانه وتعالى المؤمن بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وبين الكافر بقوله تعالى وليعلمن الكاذبين بين أنه بقي قسم ثالث مذبذب بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله) بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) أي له عما يصيبه من أذيتهم في منعه عن الايمان الى الكفر (كعذاب الله) أي في الصرف عن الكفر الى الايمان (ولئن) لام قسم (جاء نصر) أي للمؤمنين (من ربك) أي بفتح وغنيمة (ليقولن) حذف منه نون الرفع لتوالي النونات والواو ضمير الجمع لالتقاء الساكنين (انا كنا معكم) في الايمان فاشركونا في الغنيمة وأما عند الشدة فيحيدون كما قال الشاعر

وما أكثر الاصحاب حين تعدهم * ولكنهم في النائبات قليل

قال الله تعالى (أوليس الله بأعلم) أي بعالم (بما في صدور) أي قلوب (العالمين) من الايمان والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) أي بقلوبهم (وليعلمن المنافقين) فيجازي الفريقين واللام في الفعلين لام قسم * ولما بين الفرق الثلاثة وأحوالهم ذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت الى الكفر بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أي ظاهرا وباطنا (للذين آمنوا) أي ظاهرا وباطنا لم تتحملون الاذى والذل (اتبعوا سبيلنا) أي الذي نسلكه في ديننا تدفعوا عن أنفسكم ذلك فقالوا نخاف من عذاب الله تعالى على خطيئة اتباعكم فقالوا لهم اتبعونا (ولنحمل خطاياكم) ان كان ذلك خطيئة أو ان كان بعث ومؤاخذة قال الجلال المحلي والامر بمعنى الخبر وهو أولى من قول البيضاوي وانما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة في تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم ان كان تشجيعا للمؤمنين على الاتباع وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله (وما هم) أي الكفار (بحاملين من خطاياهم) أي المؤمنين (من شيء انهم لكاذبون) في ذلك قال الزمخشري وترى في المتسمين بالاسلام من يستن بأولئك فيقول لصاحبه اذا أراد ان يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا واثمه في عنقي وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع اليه بعض أهل الحشو حوائجه فلما قضاها قال يا أمير المؤمنين بقيت الحاجة العظمى قال وما هي قال شفاعتك يوم القيامة فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله اياك وهؤلاء فانهم قطاع الطريق في المأمن (فان قيل) كيف سماهم الله تعالى كاذبين وانما ضمنوا شيأ علم الله تعالى انهم لا يقدرون على الوفاء به وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذبا لا حين ضمن ولا حين عجز لانه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه (أجيب) بأن الله تعالى شبه حالهم حيث علم ان ما ضمنوه لا طريق لهم الى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنهم ويجوز أن يراد انهم كاذبون لانهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف * (تنبيه) * من الاولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير وما هم بحاملين

شيأ من خطاياهم (فان قيل) قال الله تعالى وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ثم قال الله تعالى (وليحملن) أي الكفرة (أثقالهم) أي اثقال ما اقترفته أنفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) أي اثقالا بقولهم للمؤمنين اتبعوا سبيلنا و باضلالهم مقلديهم فكيف الجمع بينهما (أجيب) بأن قول القائل حمل فلان عن فلان يريد أن حمل فلان خف فان لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئا فقوله تعالى وما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة بل يحملون أوزار أنفسهم وأوزارا بسبب اضلالهم كقوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من وزره شيء وقال تعالى في آية أخرى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من غير أن ينقص من أوزار من تبعهم شيء (وليسئلن يوم القيامة) أي سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يفترون) أي يختلقون من الاكاذيب والاباطيل واللام في الفعلين لام قسم وحذف فاعلهما الواو ونون الرفع ولما كان السياق للبلاء والامتحان والصبر على الهوان ذكر من الرسل الكرام عليهم السلام من طال صبره على البلاء ولم يفتر عزمه عن نصيحة العباد بقوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا) أي أول رسل الله الى المخالفين من العباد وهو معنى (الى قومه) وعمره أربعون سنة فان الكفر كان قد عم أهل الارض وكان عليه السلام أطول الانبياء ابتلاء بهم ولذلك قال الله تعالى مسببا عن ذلك ومتعقبا (فلبث فيهم) أي بعد الرسالة (ألف سنة الا خمسين عاما) يدعوهم الى توحيد الله تعالى فكذبوه (فأخذهم الطوفان) أي الماء الكثير فغرقوا (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولتابعيه رضي الله تعالى عنهم وتثبيت لهم وتهديد لقريش قال ابن عباس كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين سنة ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وروي عن ابن عباس أنه بعث وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة وعاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة فان كان هذا محفوظا عن ابن عباس فيضاف الى لبثه في قومه وهو تسعمائة وخمسون سنة فيكون قد عاش ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والازرقي حديثا مرسلا ان قبره بالمسجد الحرام وقيل ببلدة البقاع يعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بني بسبب ذلك وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة والآية تدل على خلاف قول الاطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة ويسمونه العمر الطبيعي قال الرازي ونحن نقول ليس طبيعيا بل هو عطاء الهي وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عنده ولا يجد فضلا عن مائة أو أكثر (فان قيل) هلا قال تسعمائة سنة وخمسين ولم جاء التمييز أولا بالسنة وثانيا بالعام (أجيب) عن الاول بأن ما أورده الله تعالى أحكم لانه لو قيل كما ذكر لجاز أن يتوهم اطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك وكأنه قال تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد الا أن ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة وفيه نكتة أخرى وهي ان القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وتثبيتا

وتثبيتا له فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكبر منه أوقع وأوصل الى الغرض من استطالة السامع مدة صبره وعن الثاني بأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة الا اذا وقع ذلك لاجل غرض تنتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك والطوفان لغة ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام أو نحو ذلك قال العجاج

وعم طوفان الظلام الاثأبا * (فأنجيناه) أي نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أي الذين كانوا فيها من الغرق وكانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم وعن محمد بن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمسة نسوة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم (وجعلناها) أي السفينة أو الحادثة والقصة (آية) أي عبرة وعلامة على قدرة الله تعالى وعلمه وانجائه الطائع واهلاكه للعاصي (للعالمين) أي لمن بعدهم من الناس ان عصوا رسولهم فانه لم يقع في الدهر حادثة أعظم منها ولا أغرب ولا أشهر في تطبيق الماء جميع الارض بطولها والعرض واغراق جميع ما عليها من حيوان انسان وغيره ولما ذكر تعالى قصة نوح وكان بلاء ابراهيم عليه السلام عظيما في قذفه في النار واخراجه من بلاده اتبعه به بقوله تعالى (وابراهيم) وهو منصوب اما باذكر أو يكون (اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أي خافوا عقابه بدل اشتمال لان الاحيان تشتمل ما فيها واما معطوفا على نوحا واذ ظرف لارسلنا أي أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغا صلح فيه لان يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى (ذلكم) أي الامر العظيم الذي هو اخلاصكم في عبادتكم له وتقواكم (خير لكم) أي من كل شئ (ان كنتم تعلمون) أي في عداد من يتجدد له علم فينظر في الامور بنظر العلم دون نظر الجهل ولما أمرهم بما تقدم ونفى العلم عمن جهل خيريته دل عليه بقوله (انما تعبدون من دون الله) أي غيره (أوثانا) أي أصناما لا تستحق العبادة لانها حجارة منحوتة لا شرف لها (وتخلقون) أي تصورون بأيديكم (افكا) أي شيأ مصروفا عن وجهه فانه مصنوع وأنتم تسمونه باسم الصانع ومربوب وأنتم تسمونه ربا أو تقولون كذبا في تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله ثم ان الله تعالى نفى عنها النفع بقوله تعالى (ان الذين تعبدون) ضلالا وعدولا عن الحق الواضح (من دون) أي غير (الله) الذي له الملك كله (لا يملكون لكم رزقا) أي شيأ من الرزق الذي لا قوام لكم بدونه وأنتم تعبدونهم فكيف بغيركم فتسبب عن ذلك قوله تعالى (فابتغوا) أي اطلبوا (عند الله) أي الذي له صفات الكمال (الرزق) أي كله فانه لا شئ منه الا وهو بيده (فان قيل) لم نكر الرزق في قوله تعالى لا يملكون لكم رزقا وعرفه في قوله تعالى فابتغوا عند الله الرزق (أجيب) بأنه نكره في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلا وعرفه عند الاثبات عند الله تعالى اي كل رزق عنده فاطلبوه منه وأيضا الرزق من الله معروف لقوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير

معلوم فنكره لعدم حصول العلم به (واعبدوه) أي عبادة يقبلها وهي ما كانت خالصة من الشرك (واشكروا) أي أوقعوا الشكر (له) خاصة على ما أفاض عليكم من النعم ثم علل ذلك بقوله تعالى (اليه) وحده (ترجعون) اي معنى في الدنيا والآخرة فانه لا حكم في الحقيقة لاحد سواه وحسا بالنشر والحشر بأيسر أمر فيثيب الطائع ويعذب العاصي ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وان تكذبوا) اي وان تكذبوني (فقد) أي فيكفيكم في الوعظ والتهديد معرفتكم بأنه قد (كذب أمم) أي في الازمان الكائنة (من قبلكم) أي من قبلي من الرسل فجرى الامر فيهم على سنن واحد لم يختلف قط في نجاة المطيع للرسول وهلاك العاصي له ولم يضر ذلك الرسول شيأ وانما ضروا به الا أنفسهم (وما على الرسول) أن يقهركم على التصديق بل ما عليه (الا البلاغ المبين) الموضح مع ظهوره في نفسه بلا مرية بحيث لا يبقى فيه شك باظهار المعجزة واقامة الادلة على الوحدانية * (تنبيه) * في المخاطب بهذه الآية والآيات بعدها الى قوله تعالى فما كان جواب قومه وجهان * الاول أنه قوم ابراهيم عليه السلام لان القصة له فكان ابراهيم عليه السلام قال لقومه ان تكذبوني فقد كذب أمم من قبلكم وانما أتيت بما على من التبليغ فان الرسول ليس عليه الا التبليغ والبيان (فان قيل) ان ابراهيم عليه السلام لم يسبقه الا قوم نوح وهم أمة واحدة (أجيب) بأن قبل قوم نوح أيضا كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم وأيضا فان نوحا عليه السلام عاش أكثر من ألف سنة وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع من الاتباع فكفى بقوم نوح أمما ولقد عاش ادريس ألف سنة في قومه الى أن رفع الى السماء وآمن به ألف انسان منهم على عدد سنيه وأعقابهم على التكذيب * الثاني ان الآية مع قوم محمد صلى الله عليه وسلم لان هذه القصص أكثرها المقصود منه تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب فقال في أثناء حكاياتهم يا قوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام هلكوا فان كذبتم فاني أخاف عليكم ان يقع بكم ما وقع بغيركم وعلى هذا اقتصر الجلال المحلي والبقاعي وهذه الآية تدل كما قال ابن عادل على أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فلم يأت بالبلاغ المبين (أولم يروا) أي ينظروا (كيف يبدئ الله) أي الذي له كل كمال (الخلق) أي يخلقهم الله تعالى ابتداء نطفة ثم مضغة ثم علقة (ثم) هو لا غيره (يعيده) أي الخلق كما كان (ان ذلك) أي المذكور من الخلق الاول والثاني (على الله) أي الجامع لكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص (يسير) فكيف ينكرون الثاني (فان قيل) متى رأى الانسان بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق (أجيب) بان المراد بالرؤية العلم الواضح الذي هو كالرؤية فالعاقل يعلم أن البدء من الله تعالى لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والا لما كان الخلق الاول خلقا أول فهو من الله تعالى (فان قيل) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق ولم يقل أولم يروا أن الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة (أجيب) بأن هذا القدر من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يك شيأ مذكورا

وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بامكان الاعادة (فان قيل) لم أبرز اسمه تعالى في ان ذلك على الله يسير ولم يقل ان ذلك عليه كما قال ثم يعيده من غير ابراز (أجيب) بأنه مع اقامة البرهان على أنه يسير أكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحي القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شيء محيط بذرات كل نافذ الارادة يقطع بجواز الاعادة وقرأ حمزة والكسائي وخلف ترو ابالتاء على الخطاب على تقدير القول والباقون بالياء على الغيبة * ولما ساق تعالى هذا الدليل الذي حاج به الخليل قومه قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء الذين تعبدوا عبادة تقلدوا فيها مذاهب آبائهم (سيروا) ان لم تقتدوا بأبيكم ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتتأملوا ما أقام من الدليل القاطع والبرهان الساطع (في الارض) ان لم يكفكم النظر في أحوال بلادكم (فانظروا) أي نظر اعتبار (كيف بدأ) ربكم الذي خلقكم ورزقكم (الخلق) من الحيوان والنبات والزروع والاشجار وغير ذلك مما تضمنته الجبال والسهول (ثم الله) أي الحائز لجميع صفات الكمال (ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الاولى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وألف بعد الشين ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين والهمزة بعد الشين ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله على كل شيء قدير) لان نسبة الاشياء كلها اليه واحدة (فان قيل) ابرز اسم الله في الآية الاولى عند البدء فقال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وههنا أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة فقال ثم الله ينشئ (أجيب) بأنه في الآية الاولى لم يسبق ذكر الله تعالى بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده اكتفاء بالاولى وفي الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله تعالى فاكتفى به ولم يبرزه وأما اظهاره عند الانشاء ثانيا فقال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفي أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهي انه مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسمه حتى ينبههم به صفات كماله ونعوت جلاله فيقطع بجواز الاعادة فقال ثم الله مظهرا ليقع في ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته فيعترف بوقوع بدئه وجواز اعادته (فان قيل) قال في الاولى أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق بلفظ المستقبل وههنا قال فانظروا كيف بدأ الخلق بلفظ الماضي فما الحكمة (أجيب) بأن الدليل الاول هو الدليل النفسي الموجب للعلم وهو موجب للعلم ببدء الخلق وأما الدليل الثاني فمعناه ان كان ليس لكم علم بأن الله يبدئ الخلق فانظروا الى الاشياء المخلوقة فيحصل لكم العلم بأن الله بدأ خلقا ويحصل من هذا القدر العلم بأنه ينشئ كما بدأ ذلك (فان قيل) قال في هذه الآية ان الله على كل شيء قدير وقال في الاولى ان ذلك على الله يسير فما فائدته (أجيب) بأن فيه فائدتين الاولى ان الدليل الاول هو الدليل النفسي وهو وان كان موجبا للعلم التام ولكن عند انضمام الدليل الآفاقي اليه يحصل العلم التام لانه بالنظر الى نفسه علم حاجته الى غيره ووجوده منه فتم علمه بأن كل شيء من الله تعالى فقال عند تمام الدليل ان الله على كل شيء قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو الاعادة على

الله يسير الثانية ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الاعم يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل قولك لمن يحمل مائة رطل انه قادر عليه فاذا سئلت عن حمله عشرة ارطال تقول ذلك سهل يسير عليه فتقول كان التقدير ان لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الامور عند الله سهلة يسيرة فسيروا فى الارض لتعلموا أنه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف فى امكان الاعادة ولما تم الدليل على الاعادة أنتج لا محالة أنه (يعذب) أى بعدله (من يشاء) تعذيبه أى منكم ومن غيركم فى الدنيا والآخرة (ويرحم) أى بفضله ورحمته (من يشاء) رحمته فلا عيب عليه (فان قيل) لم قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى سبقت رحمتى غضبى (أجيب) بأن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة فذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا تحقيق قوله رحمتى سبقت غضبى (واليه) وحده (تقلبون) أى تردون بعد موتكم بأيسر سعى (وما أنتم بمعجزين) ربكم عن ادراككم (فى الارض) كيف اتقلبتم فى ظاهرها وباطنها واختلف فى معنى قوله تعالى (ولا فى السماء) لان الخطاب مع الآدميين وهم ليسوا فى السماء فقال الفراء معناه ولا من فى السماء بمعجزان عصى كقول حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره فأضمر من يريد أنه لا يعجز أهل الارض من فى الأرض ولا أهل السماء من فى السماء فالمعنى ان من فى السماء عطف بتقدير ان يعصى وقال الفراء وهذا من غوامض العربية وقال قطرب وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء لو كنتم فيها كقول القائل ما يفوتنى فلان هنا ولا فى البصرة أى ولا فى البصرة لو كان بها وكقوله تعالى ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض أى على تقدير أن تكونوا فيها وقال ابن عادل وأبعد من ذلك من قدر موصولين محذوفين أى وما أنتم بمعجزين من فى الارض من الجن والانس ولا من فى السماء من الملائكة فكيف تعجزون خالقهما وعلى قول الجمهور يكون المفعول محذوفا أى وما أنتم بمعجزين أى فائتين ما يريد الله تعالى وقال البقاعى ويمكن أن يكون له نظر الى قصة نمروذ وبنائه الصرح الذى أراد به التوصل الى السماء لا سيما والآيات مكتنفة بقصة ابراهيم عليه السلام من قبلها ومن بعدها * ولما أخبرهم بأنهم مقدور عليهم وكان ربما توهم أن غيرهم ينصرهم صرح بنفيه فى قوله تعالى (وما لكم) أى أجمعين وأشار الى سفول رتبة كل من سواه بقوله تعالى (من دون الله) أى غيره وأكد النفى باثبات الجار بقوله (من ولى) أى قريب يحميكم لاجل القرابة (ولا نصير) ينصركم من عذابه * ولما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان هدد كل من خالفه على سبيل التفصيل بقوله تعالى (والذين كفروا) أى ستروا ما أظهرت لهم أنوار العقول (بآيات الله) أى بسبب دلائل الملك الاعظم المرئية والمسموعة التى لا أوضح منها (ولقائه) بالبعث بعد الموت الذى أخبر به وأقام الدليل عليه

(أولئك) أي البعداء البغضاء (يئسوا) أي متحققين بأسهم من الآن بل من الازل لانهم
لم يرجوا لقاء الله يوما ولا قال قائل منهم رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين (من رحمتى) أي من أن
أفعل بهم من الاكرام بدخول الجنة وغيرها فعل الراحم (وأولئك لهم عذاب أليم) أي
مؤلم بالغ ألمه (فان قيل) هلا اكتفى بقوله تعالى أولئك مرة واحدة (أجيب) بأن ذلك
كرر تفخيما للامر فاليأس وصف لهم لان المؤمن دائما يكون راجيا خائفا وأما الكافر فلا يخطر
بباله رجاء ولا خوف وعن قتادة ان الله تعالى ذم قوما هانوا عليه فقال أولئك يئسوا من
رحمتى وقال ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فينبغى للمؤمن أن لا ييأس من روح
الله ولا من رحمته وأن لا يأمن عذابه وعقابه فصفة المؤمن أن يكون راجيا لله خائفا ثم ان الله
تعالى أخبر عن فظاظة قوم ابراهيم وتكبرهم بقوله تعالى (فما كان جواب قومه) لما أمرهم
بالتوحيد وتقوى الله تعالى (الا أن قالوا) أي قال بعضهم لبعض او قاله واحد منهم وكان
الباقون راضين (اقتلوه أو حرقوه) بالنار (فان قيل) كيف سمى قولهم اقتلوه أو حرقوه
جوابا مع انه ليس بجواب (أجيب) عنه من وجهين أحدهما أنه خرج مخرج كلام المتكبر
كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا أقابل
بالجواب وانما أقابل بالسيف وثانيهما أن الله تعالى أراد بيان ضلالتهم وأنهم ذكروا
ما ليس بجواب فى معرض الجواب فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك أن من لا يجيب
غيره وسكت لا يعلم أنه يقدر على الجواب ام لا لجواز أن يكون سكوته عن الجواب لعدم
الالتفات وأما اذا أجاب بجواب فاسد علم انه قصد الجواب وما قدر عليه ثم انهم استقر رأيهم
على الاحراق فجمعوا الحطب الى أن ملؤا ما بين الجبال وأضرموا فيه النار حتى احرقت
ما دنا منها بعظيم الاشتعال وقذفوه فيها بالمنجنيق (فأنجاه الله) بما له من كمال العظمة
(من النار) أي من احراقها وأذاها ونفعته بأن أحرقت وثاقه (ان فى ذلك) أي ما ذكر من أمره
وما اشتملت عليه قصته من الحكم (لآيات) أي براهين قاطعة فى الدلالة على جميع أمر الله
من تصرفه فى الاعيان والمعانى لكون النار لم تحرقه وأحرقت وثاقه وكل ما مر عليها من طائر
واخمادها مع عظمتها فى زمان يسير وانشاء روض مكانها وروى انه لم ينتفع فى ذلك اليوم الذى
ألقى فيه ابراهيم عليه السلام بالنار وذلك لذهاب حرها (لقوم يؤمنون) أي يصدقون
بتوحيد الله وقدرته لانهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها (وقال) أي ابراهيم عليه
السلام غير هائب لتهديدهم بقتل أو غيره (انما اتخذتم) أي اخذتم باصطناع وتكلف وأشار الى
عظمة الله وعلو شأنه (من دون الله) الذى كل شئ تحت قهره (أوثانا) أي أصناما تعبدونها
وما مصدرية (مودة بينكم) أي توادتم على محبتها (فى الحياة الدنيا) بالاجتماع عندها
والتواصل فى أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق ناس على مذهب فيكون ذلك سبب تصادقهم
وهذا دال على أن جمع الفسوق لاهل الدنيا هو العادة المستمرة وان الحب فى الله والاجتماع له
عزيز جدا لما فيه من قطع علائق الدنيا وشهواتها التى زينت للناس على ما فيها من الالباس

وعظيم البأس وقرأ نافع وابن عامر وشعبة مودة بالنصب والتنوين وبينكم بنصب النون فنصب مودة على أنه مفعول له أي لأجل مودة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي برفع مودة من غير تنوين وكسر النون على أن مودة خبر مبتدأ محذوف أي هي مودة والباقون بنصب مودة من غير تنوين وكسر النون وهذا أيضا كاعراب المنونة * ولما أشار الى هذا النفع الذي هو في الحقيقة ضر أتبع ذلك ما يعقبه من الضر البالغ معبرا باداة البعد بقوله (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) فينكر كل منكم محاسن أخيه ويتبرأ منه تلعن الاتباع القادة وتلعن القادة الاتباع كما قال تعالى (ويلعن بعضكم بعضا) وتنكرون كلكم عبادة الاوثان تارة اذا تحققتم انها ضر لا نفع لها وتقرون بها أخرى طالبين نصرتها راجين منفعتها وتنكر الاوثان عبادتكم وتجحد منفعتكم (ومأواكم) أي جميعا أنتم والاوثان (النار ومالكم من ناصرين) يحمونكم منها * ثم بين تعالى أول من آمن بابراهيم بقوله تعالى (فآمن له) أي لأجل دعائه له مع ما رأى من الآيات (لوط) وكان ابن أخيه هاران وهو أول من صدقه من الرجال (وقال) أي ابراهيم عليه السلام لما وجد بالانكار من الهجرة أصعوبتها (اني مهاجر) أي خارج من أرضي وعشيرتي على وجه يهمّ فمنتقل ومنحاز (الى ربي) أي الى أرض ليس فيها أنيس ولا عشير ولا من ترجى نصرته ولا من تنفع مودته فهاجر من كوثى من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى الارض المقدسة فكانت هجرتان ومن ثم قالوا لكل نبي هجرة ولابراهيم عليه السلام هجرتان وهو أول من هاجر في الله وكان معه في هجرته لوط وامرأته سارة قال مقاتل وكان اذ ذاك ابن خمس وسبعين سنة (فان قيل) لم لم يقل اني مهاجر الى حيث أمرني ربي مع أن المهاجرة توهم الجهة (أجيب) بأن هذا القول ليس في الاخلاص كقوله الى ربي لأن الملك اذا صدر منه أمر برواح الاخيار ثم ان واحدا منهم سار الى ذلك الموضع لغرض نفسه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن ليس لاخلاص وجهه فلذا قال مهاجر الى ربي يعني بوجهي الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة وانما هو طلب لله ثم علل ذلك بما يسليه عن فراق أرضه وأهل ودّه من ذوي رحمه وأنسابه بقوله (انه هو) أي وحده (العزيز) أي فهو جدير باعزاز من انقطع اليه (الحكيم) فهو اذا أعز أحدا منعته حكمته من التعرض له بالاذلال بفعل أو مقال * ولما كان التقدير فأعززناه بما ظننّ بما عطف عليه قوله (ووهبنا له) أي بعظيم قدرتنا شكرا على هجرته (اسحق) من زوجته سارة رضي الله تعالى عنها التي جمعت الى العقم في شبابها اليأس في كبرها (ويعقوب) من ولده اسحق عليهما السلام (فان قيل) لم لم يذكر اسمعيل عليه السلام وذكر اسحق وعقبه (أجيب) بأن هذه السورة لما كان السياق فيها للامتحان وكان ابراهيم عليه السلام قد ابتلي في اسمعيل بفراقه مع أمه ووضعهما في مضيعة من الارض لا أنيس فيها لم يذكره تصريحا في سياق الامتنان وأفرد اسحق لانه لم يبتل فيه بشئ من ذلك ولان الامتنان به لكون أمه عجوزا عقيما أكبر وأعظم لانها أعجب وذكر اسمعيل تلويحا في قوله تعالى (وجعلنا) أي بعزتنا وحكمتنا (في ذريته) من ولد اسحق واسمعيل

عليهما

عليهما السلام (النبوة) فلم يكن بعده نبي أجنبي عنه بل جميع الانبياء من ذرية اسحق الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل قاله بعض العلماء (فان قيل) ان الله تعالى جعل في ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يسوي بين أولاده فكيف صارت النبوة في ولد اسحق عليه السلام أكثر (أجيب) بأن الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى يوم القيامة قسمين والناس أجمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله تعالى فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ذرية اسحق عليه السلام ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده اسمعيل عليه السلام واحدا اجتمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين أولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة ولا يبعد أن تبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل ذلك المقدار (والكتاب) فلم ينزل كتاب الا على أولاده (فان قيل) لم أفرد الكتاب مع انها أربعة التوراة والانجيل والزبور والفرقان (أجيب) بأنه أفرده ليدل مع تناوله جنسية الكتب الاربعة انه لا شئ يستحق أن يكتب الا ما أنزل فيها أو كان راجعا اليها ولو جمع لم يفد هذا المعنى (وآتيناه أجره) على هجرته (في الدنيا) بما خصصناه به مما لا يقدر عليه غيرنا من سعة الرزق ورغد العيش وكثرة الولد والحزم في الشيخوخة وكثرة النسل والثناء الحسن والمحبة من جميع الخلق وغير ذلك قال الرازي وفي الآية لطيفة وهي ان الله تعالى بدل جميع أحوال ابراهيم عليه السلام في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار كان وحيدا فريدا فبدل الله تعالى وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان أولا بعث الى قومه وأقاربه الاقربين ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله تعالى أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعلت فيهم النبوة والكتاب وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية المذلة الدنيوية آتاه الله تعالى من المال والجاه حتى كان له من المواشي ما علم الله تعالى عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق الذهب وأما الجاه فصار بحيث تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد أن كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا للمجهول عند الناس (وانه في الآخرة) أي التي هي الدار ومحل الاستقرار (لمن الصالحين) أي الذين خصصناهم بالسعادة وجعلنا لهم الحسنى وزيادة قال ابن عباس مثل آدم ونوح وفي اعراب قوله تعالى (ولوطا) ما تقدم في اعراب نصب ابراهيم (اذ) أي حين (قال لقومه) أهل سدوم الذين سكن فيهم وصاهرهم وانقطع اليهم فصار واقومه حين فارق عمه الخليل ابراهيم عليهما السلام منكرا ما رأى من حالهم وقبيح فعالهم مؤكدا له (أئنكم لتأتون الفاحشة) وهي ادبار الرجال المجاوزة للحد في القبح فكأنه لذلك لا فاحشة غيرها ثم علل كونها فاحشة استئنافا بقوله (ما سبقكم بها) وهي حالة مبينة لعظيم جراءتهم على المنكر أي غير مسبوقين به وأغرق في النفي بقوله (من أحد) وزاد بقوله (من العالمين) أي كلهم من الانس والجن أي فضلا عن خصوص الناس ثم كرر الانكار

تأكيد التجاوز وقبحها الذي ينكرونه بقوله (أئنكم لتأتون الرجال) اتيان الشهوة وعطف عليها ما ضموه اليها من المناكر بقوله (وتقطعون السبيل) أي طريق المارة بالقتل وأخذ المال بفعلكم الفاحشة بمن يمر بكم فترك الناس الممر بكم أو تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن الحرث واتيان ما ليس بحرث (وتأتون في ناديكم المنكر) أي تفعلون في متحدثكم فعل الفاحشة بعضكم ببعض وهو مما تنكره الشرائع والمروآت والعقول وأنتم لا تتحاشون عن شئ منه في المجمع الذي يتحاشى فيه الانسان من فعل خلاف الاولى من غير أن يستحيي بعضكم من بعض قال ابن عباس المنكر هو الحذف بالحصا والرمي بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازرار والسباب والتضارط في مجالسهم والفحش والمزاح وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كانوا يتحابقون وقيل السخرية بمن يمر بهم وقيل المجاهرة في ناديهم بذلك العمل وكل معصية فاظهارها أقبح من سترها ولذلك جاء من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له ولا يقال للمجلس ناديا الا ما دام فيه أهله فاذا قاموا عنه لم يسم ناديا وعن مكحول في أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازرار والصفير والحذف واللوطية ودل على عنادهم بقوله تعالى مسببا عن هذه الفضائح بالنهي عن تلك القبائح (فما كان جواب قومه) أي الذين فيهم قوة ونجدة بحيث يخشى شرهم ويتقى أذاهم لما أنكر عليهم ما أنكر (الا أن قالوا) عنادا وجهلا واستهزاء (ائتنا بعذاب الله) وعبروا بالاسم الاعظم زيادة في الجراءة (ان كنت من الصادقين) أي في استقباح ذلك وان العذاب نازل بفاعليه (فان قيل) قال قوم ابراهيم عليه السلام اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين وما هددوه مع ان ابراهيم كان أعظم من لوط فان لوطا كان من قومه (أجيب) بان ابراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم ويعدد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يغني والسب في الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم كلام ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه فان كنت صادقا فأتنا بالعذاب (فان قيل) ان الله تعالى قال في موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال هنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله فكيف الجمع (أجيب) بأن لوطا كان ثابتا على الارشاد مكررا على النهي والوعيد فقالوا أولا ائتنا ثم لما كثر ذلك منه ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ولما يئس منهم طلب النصرة من الله بأن (قال) أي لوط عليه السلام معرضا عنهم مقبلا بكليته على المحسن اليه (رب) أي أيها المحسن الي (انصرني على القوم) أي الذين فيهم من القوة ما لا طاقة لي بهم معه (المفسدين) أي العاصين باتيان الرجال ووصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب واشعارا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب ولما دعا لوط على قومه بقوله رب الى آخره استجاب الله تعالى دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم

وأرسلهم مبشرين ومنذرين كما قال تعالى (ولما جاءت) وأسقط ان لانه لم يتصل القول بأول المجيء بل كان قبله السلام والضيافة وعظم الرسل بقوله تعالى (رسلنا) أي من الملائكة تعظيما لهم في أنفسهم (ابراهيم بالبشرى) أي باسحق ولدا له ويعقوب ولدا لاسحق عليهما السلام (قالوا) أي الرسل عليهم السلام لابراهيم عليه السلام بعد أن بشروه وتوجهوا نحو سدوم (انا مهلكوا أهل هذه القرية) أي قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال ثم عللوا ذلك بقولهم (ان أهلها كانوا ظالمين) أي عريقين في هذا الوصف فلا حيلة في رجوعهم عنه (فان قيل) قال تعالى في قوم نوح فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ففي ذلك اشارة الى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وهنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل وهم ظالمون (أجيب) بأنه لا فرق في الموضعين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله تعالى عن الماضي حيث قال فأخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة عن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فذكروا ما أمروا به فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب وهم كانوا ظالمين في وقت الامر وكونهم يبقون كذلك لا علم لهم به * ولما قالت الملائكة لابراهيم عليه السلام ذلك (قال) لهم مؤكدا تنبيها على حالة ابن أخيه (ان فيها لوطا) ولم يقل عليه السلام ان منهم لوطا لانه نزيل عندهم فلذا جاء بالتصريح بالسؤال عنه (قالوا) أي الرسل عليهم السلام له (نحن أعلم) منك (بمن فيها) أي من لوط وغيره (لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) أي الباقين في العذاب وهم الفجرة لتعم وجهها معهم الغبرة وقرأ حمزة والكسائي بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم بعدها والباقون بفتح النون وتشديد الجيم بعدها (ولما أن جاءت رسلنا لوطا) أي المعظمون بنا (سيء) أي حصلت له المساءة والغم (بهم) أي بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء لما رأى من حسن أشكالهم وهو يظن انهم من الناس لانهم جاؤا من عند ابراهيم عليه السلام اليه على صورة البشر روي انهم كانوا يجلسون مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصا فاذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كان أولى به قيل انه كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك ولهذا يقال أجور من قاضي سدوم (وضاق) أي باعمال الحيلة في الدفع عنهم (بهم ذرعا) أي ذرعه أي طاقته والاصل في ذلك أن من طالت ذراعه نال ما لا يناله قصيرها فضرب مثلا في العجز والقدرة * ولما رأوه على هذه الحالة خفضوا عليه (قالوا) له (لا تخف) انا رسل ربك لاهلاكهم (ولا تحزن) أي على تمكنهم منا وعلى أحد ممن يهلك فانه ليس في أحد منهم خير يؤسف عليه بسببه فانهم وصلوا في الخبث الى حد لا مطمع في الرجوع عنه مع ملازمته لدعائهم من غير ملل ولا ضجر ثم عللوا ذلك بقولهم مبالغين في التأكيد (انا منجوك) أي مبالغون في انجائك وقولهم (وأهلك) منصوب على محل الكاف (الا امرأتك كانت من الغابرين) فان قيل القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها ذلك فكيف كانت من الغابرين معهم

أجيب بأن الدال على الشر كفاعله كما ان الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت كأحدهم (فان قيل) ما مناسبة قولهم انا منجوك لقولهم لا تخف ولا تحزن فان خوفه ما كان على نفسه (أجيب) بأن لوطا لما ضاق عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لا تخف اى علينا ولا تحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يا لوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك وقرأ ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية قالوا له (انا منزلون) اى لا محالة (على اهل هذه القرية رجزا) اى عذابا (من السماء) فهو عظيم وقعه شديد صدعه واختلف في ذلك الرجز فقيل حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا يكون المراد ان الامر بالخسف والقضاء به من السماء وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى * (تنبيه) * كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم عليه السلام فقدموا البشارة على انزال العذاب ثم قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون ولم يعللوا التنجية فلم يقولوا انا منجوك لانك نبي أو عابد وعللوا الاهلاك فقالوا (بما كانوا يفسقون) أي يخرجون في كل وقت من دائرة العقل والحياء كقولهم هناك ان أهلها كانوا ظالمين * ولما كان التقدير ففعلت رسلنا ما وعدوه به من انجائه واهلاك جميع قراهم فتركناها كان لم يسكنها أحد عطف عليه قوله تعالى (ولقد تركنا) أي بما لنا من العظمة (منها) أي من تلك القرى (آية) أي علامة على قدرتنا على كل ما نريد (بينة) أي ظاهرة قال ابن عباس منازلهم الخربة وقال قتادة هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الامة وقال مجاهد هو ظهور الماء الاسود على وجه الارض (فائدة) اتفق القراء على ادغام الدال في التاء * (تنبيه) * في هذه الآية اشارة الى غفلة المخاطبين بهذه القصة من العرب وغيرهم وأنه ليس بينهم وبين الهدى الا تفكرهم في أمرهم مع الانخلاع من الهوى وانما يكون ذلك (لقوم يعقلون) أي يتدبرون فعد من لم يستبصر بذلك غير عاقل * (تنبيه) * ههنا أسئلة الاول كيف جعل الآية في نوح وابراهيم عليهما السلام بالنجاة فقال فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات وجعل ههنا الهلاك آية الثاني ما الحكمة في قوله تعالى في السفينة جعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة الثالث ما الحكمة في قوله تعالى هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون (أجيب) عن الاول بأن الآية في ابراهيم كانت في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي وما به النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق له بعده أثر محسوس في البلاد فجعل الباقي آية وأما ههنا فنجاة لوط لم تكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي ههنا البلاد وهناك السفينة (وههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى آية قدرته موجودة

في

فى الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الهلاك لانها أثر الغضب ورحمته سابقة وعن الثانى بأن الانجاء بالسفينة لا يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وبزمان دون زمان فهى بينة لا يمكن الجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول فى السفينة أمرها يكون كذلك فيقال له فلو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كانت تحصل لهم النجاة ولو سلط الله تعالى عليهم الريح العاصفة كيف تكون أحوالهم وعن الثالث بأن السفينة موجودة معلومة فى جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حالة نوح واذا ركبوها يطلبون من الله النجاة منه ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً الى الله تعالى طالباً للنجاة وأما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لا يطلع عليه الا من مربها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله تعالى وارادته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده فى زمان دون زمان ولما كان شعيب عليه السلام أيضاً قد ابتلى بتكذيب قومه اتبع قصته بقصة لوط بقوله تعالى (والى مدين) أى ولقد أرسلنا أو بعثنا الى مدين (أخاهم) أى من النسب والبلد (شعيبا) ومدين قيل اسم رجل فى الاصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقيل اسم ماء نسب القوم اليه فاشتهر فى القوم قال الرازى والاول كأنه أصح لان الله تعالى أضاف الماء الى مدين بقوله تعالى ولما ورد ماء مدين ولو كان اسماً للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والاصل فى الاضافة التغاير والحقيقة (فان قيل) قال تعالى فى نوح ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقدم نوحاً فى الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك فى ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولاً وأضاف اليهم أخاهم شعيباً فما الحكمة فى ذلك (أجيب) بأن الاصل فى الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان الرسل لا تبعث الى غير معينين وانما تبعث الرسل الى قوم محتاجين الى الرسل فيرسل الله تعالى اليهم من يختاره غير ان قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاصة ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بنبيهم عليه السلام فقيل قوم نوح وقوم لوط فأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال تعالى والى عاد أخاهم هوداً والى مدين أخاهم شعيبا (فقال) أى فتسبب عن ارساله وبعثه ان قال (يا قوم اعبدوا الله) أى الملك الاعلى وحده ولا تشركوا به شيأ فان العبادة التى فيها شرك ظاهر أو خفى عدم لان الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل الا ما كان له خالصا (فان قيل) لم يذكر عن لوط عليه السلام انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك (أجيب) بأن لوطاً كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وكان ابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يحتج لوط الى ذكره وانما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها وان كان هو أبداً يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض ذلك الزمن

وذلك القوم فكان هو أصلا في التوحيد فبدأ به * ولما كان السياق لاقامة الادلة على البعث الذي هو من مقاصد السورة قال (وارجوا اليوم الآخر) أي وافعلوا ما ترجون به العاقبة فأقيم المسبب مقام السبب أو أمروا بالرجاء والمراد اشتراط ما يسوغه من الايمان كما يؤمر الكافر بالشرعيات على ارادة الشرط وقيل هو من الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا في الارض) حال كونكم (مفسدين) أي متعمدين الفساد * ولما تسبب عن هذا النصح وتعقبه تكذيبهم تسبب عنه وتعقبه اهلاكهم تحقيقا لان أهل السيآت لا يسبقوننا قال تعالى (فكذبوه) في ذلك (فان قيل) ما حكاه الله تعالى عن شعيب أمر ونهي والامر لا يكذب ولا يصدق فان من قال لغيره اعبد الله لا يقال له كذبت (أجيب) بأن شعيبا كان يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبر به (فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة وعن الضحاك صيحة جبريل لان القلوب رجفت بها (فأصبحوا في دارهم) أي في بلادهم أو دورهم فاكتفى بالواحد ولم يجمع لأمن اللبس (جاثمين) أي باركين على الركب ميتين (فان قيل) قال تعالى في الاعراف وههنا فأخذتهم الرجفة وقال في هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة (أجيب) بأنه لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة لان جبريل لما صاح تزلزلت الارض من صيحته فرجفت قلوبهم والاضافة الى السبب لا تنافي الاضافة الى سبب السبب (فان قيل) ما الحكمة في انه تعالى اذا قال فأخذتهم الصيحة قال في ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال في دارهم (أجيب) بان المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن اللبس كما مر وانما اختلف اللفظ للطيفة وهي ان الرجفة هائلة في نفسها فلم تحتج الى تهويلها وأما الصيحة فغيرها ئلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل احد فلم تحتج الى معظم لامرها * ولما كان معنى ختام قصة مدين فأهلكناهم عطف على ذلك المعنى قوله تعالى (وعادا) أي وأهلكنا أيضا عادا (وثمودا) مع ما كانوا فيه من العتو والتكبر والعلو لان من المقاصد العظيمة الدلالة على اتباع بعض هذه الامم بعضا في الخير والشر على نسق والجري بهم في اهلاك المكذبين وانجاء المصدقين طبقا عن طبق وقرأ حمزة وحفص في الوصل وثمود بغير تنوين على تأويل القبيلة وفي الوقف بسكون الدال والباقون بالتنوين وفي الوقف بالالف (وقد تبين لكم) أي ما حل بهم من مساكنهم أي ما وصف من هلاكهم وما كانوا فيه من شدة الاجسام وسفه الاحلام وعلو الاهتمام وتقرب الاذهان وعظم الشأن عند مروركم بتلك المساكن ونظركم اليها في ضربكم في التجارة الى الشأم فصرفوا في الاقبال على الاستمتاع بالعرض الفاني من هذه الدنيا فأملوا بعيدا وبنوا مشيدا ولم يغن عنهم شيء من ذلك شيأ من أمر الله (وزين لهم الشيطان) البعيد من الرحمة المحترق باللعنة بقوة احتياله ومحبوب ضلاله ومحاله (أعمالهم) أي الفاسدة من الكفر والمعاصي فأقبلوا بكليتهم عليها (فصدهم) أي

فتسبب

فتسبب عن ذلك صدهم (عن السبيل) أى منعهم عن سلوك الطريق الذى لا طريق الا هو لكونه يوصل الى النجاة وغيره يوصل الى الهلاك * ولما كان ذلك ربما ظن لفرط غباوتهم قال (وكانوا مستبصرين) أى معدودين بين الناس من البصراء العقلاء * ولما كان فرعون ومن ذكر معه من العتو بمكان لا يخفى لما أوتوا من القوة بالاموال والرجال قال (وقارون) أى وأهلكنا قارون وقومه لان وقوعه فى أسباب الهلاك أعجب لكونه من بنى اسرائيل ولانه ابتلى بالمال والعلم فكان ذلك سبب اعجابه فتكبر على موسى وهرون عليهما السلام فكان ذلك سبب هلاكه (وفرعون وهامان) وزيره الذى أوقد له على الطين فباع سعادته لكونه ذنبا لغيره (ولقد جاءهم) من قبل (موسى بالبينات) أى بالحجج الظاهرات التى لم تدع لبسا (فاستكبروا) أى طلبوا أن يكونوا أكبر من كل كبير بأن كانت أفعالهم افعال من يطلب ذلك (فى الارض) بعد مجىء موسى عليه السلام اليهم أكثر مما كانوا قبله (وما كانوا سابقين) أى فائتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه اذا فاته (فكلا) أى فتسبب عن تكذيبهم أن كلا (أخذنا) أى بما لنا من العظمة (بذنبه) أى أخذ عقوبة ليعلم أنه لا أحد يعجزنا (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) أى ريحا عاصفا فيها حصباء كقوم لوط وعاد (ومنهم من أخذته الصيحة) أى التى تظهر شدتها الريح الحاملة لها الموافقة لقصدها فترجف لعظمتها الارض كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) أى غيبناه فيها كقارون وجماعته (ومنهم من أغرقنا) بالغمر فى الماء كقوم نوح وفرعون وقومه وعذاب قوم صالح المعد فى الاغراق والمعد فى الخسف فتارة يهلك بريح تقذف بالحجارة من السماء كقوم لوط أو من الارض كعاد (وما كان الله) أى الذى لا شىء من الجلال والكمال الا له (ليظلمهم) أى فيعذبهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم) لا غيرها (يظلمون) بارتكاب المعاصى ولم يقبلوا النصح مع عجزهم ولا خافوا العقوبة على ضعفهم * ولما بين تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه معبوده مثل تعالى اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا فقال (مثل الذين اتخذوا) أى تكلفوا أن اتخذوا (من دون الله) أى الذى لا كفء له فرضوا بالدون الذى لا ينفع ولا يضر عوضا عمن لا تكيفه الاوهام والظنون (أولياء) ينصرونهم بزعمهم من معبودات وغيرها فى الضعف والوهن (كمثل العنكبوت) أى الدابة المعروفة ذات الارجل الكثيرة الطوال (اتخذت بيتا) أى تكلفت أخذه فى صنعتها له ليقيها الردى ويحميها البلاء كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم ليقوهم ويحفظوهم بزعمهم فكان ذلك البيت مع تكلفها فى أمره وتعبها الشديد فى شأنه فى غاية الوهن (وان) أى والحال ان (أوهن البيوت) أى أضعفها (لبيت العنكبوت) لا يدفع عنها حرا ولا بردا كذلك الاصنام لا تنفع عابديها (لو كانوا يعلمون) أى لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وان أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وأيضا انه اذا صح تشبيه ما اعتمدوه فى دينهم ببيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الاديان لو كانوا يعلمون أى لو كان لهم نوع ما من العلم لانتفعوا به وعلموا ان هذا مثلهم فأبعدوا عن اعتقاد ما هذا مثلهم ولقائل

قوله وعذاب قوم صالح الخ كذا فى جميع الاصول التى بأيدينا وهو غير مستقيم اهـ

أن يقول مثل المشرك الذى يعبد الوثن بالقياس الى المؤمن الذى يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر وكان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك الاديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الاوثان (فان قيل) لم مثل تعالى باتخاذ العنكبوت ولم يمثل بنسجها (أجيب) بأن نسجها فيه فائدة لولاه لما حصلت وهو اصطياد الذباب به من غير أن يفوتها ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ولكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت *(تنبيه)* نون العنكبوت أصلية والواو والتاء مزيدتان بدليل جمعه على عناكب وتصغيره عنيكب ويذكر ويؤنث فمن التأنيث قوله تعالى اتخذت ومن التذكير قول القائل

على هطالهم منهم بيوت * كأن العنكبوت هو ابتناها

وهذا مطرد فى أسماء الاجناس تذكر وتؤنث وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص البيوت بضم الباء والباقون بكسرها * ولما كان ضرب المثل بالشئ لا يصح الا من العالم بذلك الشئ قال الله تعالى (ان الله) أى الذى له صفات الكمال (يعلم ما) أى الذى (يدعون) أى يعبدون (من دونه) أى غيره (من شئ) اى سواء كان صنما أم انسيا أم جنيا (وهو العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه وقرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء التحتية والباقون بالفوقية * ولما ذكر مثلهم وما تتوقف صحته عليه كان كأنه قيل على وجه التعظيم هذا المثل مثلهم فعطف عليه قوله تعالى اشارة الى أمثال القرآن كلها تعظيما لها وتنبيها على جليل قدرها وعلو شأنها (وتلك الامثال) أى العالية عن أن تنال بنوع احتيال ثم استأنف قوله تعالى (نضربها) أى بما لنا من العظمة بيانا (للناس) أى تصويرا للمعانى المعقولات بصور المحسوسات لعلها تقرب من عقولهم فينتفعوا بها وهكذا حال التشبيهات كلها هى طرق الى افهام المعانى المحتجبة فى الاستار تبرزها وتكشف عنها وتصورها روى أن الكفار قالوا كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالذباب والبعوض والعنكبوت فقال الله تعالى مجهلا لهم (وما يعقلها) أى حق تعقلها فينتفع بها (الا العالمون) أى الذين هيؤا للعلم وجعل طبعا لهم عابث فى قلوبهم من أنواره وأشرق فى صدورهم من أسراره فهم يضعون الاشياء مواضعها روى الحرث بن أبى اسامة عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العالم الذى عقل عن الله وعمل بطاعته واجتنب سخطه قال البغوى والمثل كلام سائر يتضمن تشبيه الآخر بالاول يريد أمثال القرآن التى يشبه بها أحوال كفار هذه الامة بأحوال كفار الامم المتقدمة * ولما قدم تعالى أنه لا معجز له سبحانه ولا ناصر لمن خذله استدل على ذلك بقوله تعالى (خلق الله) أى الذى لا يدانى فى عظمته (السموات والارض بالحق) أى الامر الذى يطابقه الواقع أو بسبب اثبات الحق وابطال الباطل أو بسبب انه محق غير قاصد به باطلا فان المقصود بالذات من خلقهما افاضة الجود والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار

اليه

اليه بقوله تعالى (ان فى ذلك لآية) أى دلالة ظاهرة على قدرته تعالى (للمؤمنين) واختص المؤمنون بذلك لانهم المنتفعون به * ثم خاطب تعالى رأس أهل الايمان بقوله تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) أى القرآن الجامع لكل خير لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم * ولما أرشد تعالى الى مفتاح العلم دل على قانون العمل بقوله تعالى (وأقم الصلاة) أى التى هى أحق العبادات ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الصلاة تنهى) أى توجد النهى وتجدده للمواظب على اقامتها بجميع حدودها (عن الفحشاء) أى عن الخصال التى بلغ قبحها (والمنكر) وهو ما لا يعرف فى الشرع (فان قيل) كم من مصل يرتكب الفحشاء (أجيب) بأن المراد الصلاة التى هى الصلاة عند الله تعالى المستحق بها الثواب بأن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا لقوله تعالى انما يتقبل الله من المتقين ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح فقد روى عن حاتم كأن رجلى على الصراط والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت من فوقى وأصلى بين الخوف والرجاء ثم يحوطها بعد أن يصليها ولا يحبطها فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر وقال ابن مسعود وابن عباس ان الصلاة تنهى وتزجر عن معاصى الله عز وجل فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك الى أن ينتهى عن السيئات يوما ما فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال ان صلاته لتردعه وروى ان فتى من الانصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيأ من الفواحش الا ركبه فوصف له فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث ان تاب وقال ابن عوف معنى الآية ان الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ما دام فيها وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لا بد أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها وأيضا فكم من مصلين تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضى أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها كما تقول ان زيدا ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكر وانما تريد ان هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم وقيل المراد بالصلاة القرآن كما قال تعالى ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك وأراد به من يقرأ القرآن فى الصلاة فالقرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر روى انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا يقرأ القرآن الليل كله ويصبح سارقا قال ستنهاه قراءته ولما كان الناهى فى الحقيقة انما هو ذكر الله أتبع ذلك بقوله تعالى (ولذكر الله أكبر) أى لان ذكر المستحق لكل صفات كمال أكبر من كل شئ فذكر الله تعالى أفضل الطاعات قال صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير من اعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله قال ذكر الله وسئل صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل عند الله درجة يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا

يارسول الله ومن الغازين في سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر
ويختضب دما لكان الذاكر الله كثيرا أفضل منه درجة وروى ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم مر على جبل في طريق مكة يقال له جمدان فقال سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا
وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات أو والصلاة أكبر من غيرها
من الطاعات وسماها بذكر الله كما قال تعالى فاسعوا الى ذكر الله وانما قال ولذكر الله أكبر
ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لانها ذكر الله وعن ابن عباس ولذكر الله
تعالى اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته وقال عطاء ولذكر الله أكبر من أن تبقى معه
معصية (والله) أي المحيط علما وقدرة (يعلم) أي في كل وقت (ما تصنعون) من الخير
والشر فيجازيكم على ذلك * ولما بين تعالى طريقة ارشاد المشركين بين طريقة ارشاد أهل
الكتاب بقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أي اليهود والنصارى ظنا منكم أن الجدال
ينفع أو يزيد في اليقين أو يرد واحدا عن ضلال مبين (الا بالتي) أي بالمجادلة التي (هي
أحسن) كمعارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والدعاء الى الله تعالى بآياته والتنبيه على
حججه كما قال تعالى ادفع بالتي هي أحسن (الا الذين ظلموا منهم) بأن حاربوا وأبوا أن يقروا
بالجزية فجادلوهم بالسيف الى أن يسلموا أو يعطوا الجزية وقيل الا الذين آذوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقيل الا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة وعن قتادة الآية منسوخة
بقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا مجادلة أشد من السيف * ولما
بين تعالى من موجب الخلاف أمر بالاستعطاف بقوله تعالى (وقولوا) أي لمن قبل الاقرار
بالجزية اذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم (آمنا بالذي أنزل الينا) أي من هذا الكتاب المعجز
(وأنزل اليكم) من كتبكم أي لانه في أصله حق وان كان قد نسخ منه ما نسخ وان حدثوكم بشيء
منه وليس عندكم ما يصدقه ولا ما يكذبه فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم لما روى أبو داود انه
صلى الله عليه وسلم قال لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان
قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم أي فان هذا ادعى الى الانصاف وأنفى للخلاف
* ولما لم يكن هذا جامعا للفريقين أتبعه بما يجمعه بقوله تعالى (والهنا والهكم واحد) أي
لا اله لنا غيره وان ادعى بعضكم عزيرا والمسيح (ونحن له) خاصة (مسلمون) أي خاضعون
منقادون أتم انقياد فيما يأمرنا به بعد الاصول من الفروع سواء كانت موافقة لفروعكم
كالتوجه بالصلاة الى بيت المقدس أو ناسخة كالتوجه الى الكعبة ولا نتخذ الاحبار والرهبان
أربابا من دون الله لنأخذ ما يشرعونه لنا مخالفا الكتاب وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (وكذلك)
أي ومثل ذلك الانزال الذي أنزلناه الى أنبيائهم من التوراة وغيرها (أنزلنا اليك الكتاب)
أي القرآن مصدقا لسائر الكتب الالهية وهو تحقيق لقوله تعالى (فالذين آتيناهم الكتاب)
أي التوراة كعبد الله بن سلام وغيره (يؤمنون به) أي بالقرآن (ومن هؤلاء) أي أهل
مكة أو ممن في عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين (من يؤمن به) وهم مؤمنو أهل

مكة وأهل الكتابين (وما يجحد) أي ينكر قال قتادة والجحود انما يكون بعد المعرفة (بآياتنا) أي التي جاوزت أقصى غايات العظمة حتى انها استحقت الاضافة الينا (الا الكافرون) أي اليهود ظهر لهم أن القرآن حق والجائي به محق وجحدوا ذلك وهذا تنفير لهم عما هم عليه يعني انكم آمنتم بكل شئ وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلحقون بهم وتعطلون مزاياكم فان الجاحد بآية يصير كافرا (وما) أي وأنزلنا اليك الكتاب والحال انك ما (كنت تتلو) أي تقرأ أصلا (من قبله) أي هذا الكتاب الذي أنزلناه اليك وأكد استغراق الكتب بقوله تعالى (من كتاب) أصلا (ولا تخطه) أي تجدد وتلازم خطه وصور الخط وأكده بقوله (بيمينك) (فان قيل) ما فائدة قوله بيمينك (أجيب) بأنه ذكر اليمين التي هي أقوى الجارحتين وهي التي يزاول بها الخط زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبا الا ترى انك اذا قلت في الاثبات رأيت الامير يخط هذا الكتاب بيمينه كان أشد لاثباتك انه تولى كتبه فكذلك النفي وفي ذلك اشارة الى انه لا تحدث الريبة في أمره لعاقل الا بالمواظبة القوية التي ينشأ عنها ملكة فكيف اذا لم يحصل أصل الفعل ولذلك قال تعالى (اذا) أي لو كنت ممن يخط ويقرأ (لارتاب) أي شك (المبطلون) أي اليهود فيك وقالوا الذي في التوراة انه أمي لا يقرأ ولا يكتب أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الاولين وكتبه بيده (فان قيل) لم سماهم مبطلين ولو لم يكن أميا وقالوا ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين ولكان أهل مكة أيضا على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه بيده فانه رجل كاتب قارئ (أجيب) بأنه سماهم مبطلين لانهم كفروا به وهو أمي بعيد من الريب فكأنه قال هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أميا لارتابوا أشد الريب فحين ليس بقارئ ولا كاتب فلا وجه لارتيابهم وأيضا سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا أميين ووجب الايمان بهم وما جاؤا به لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات فهب انه قارئ كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى على ان المنزل اليهم معجز وهذا المنزل معجز فاذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا وهو أمي ومبطلون حيث لم يؤمنوا وهو غير أمي * ولما كان التقدير ولكنه لا ريب لهم أصلا ولا شبهة لقولهم انه باطل قال تعالى (بل هو) أي القرآن الذي جئت به وارتابوا فيه فكانوا مبطلين لذلك على كل تقدير (آيات) أي دلالات (بينات) أي واضحات جدا في الدلالة على صدقك (في صدور الذين أوتوا العلم) أي المؤمنين يحفظونه فلا يقدر أحد على تحريف شئ منه لبيان الحق لديهم وفي ذلك اشارة الى ان خفاءه عن غيرهم وقال ابن عباس وقتادة بل هو يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لانهم يجدونه نعته ووصفه في كتبهم (وما يجحد) وكان الاصل به ولكنه أشار الى عظمته بقوله تعالى (بآياتنا) أي ينكرها بعد المعرفة على ما لها من العظمة باضافتها الينا والبيان الذي لا يجهله أحد (الا الظالمون) أي المتوغلون في الظلم المكابرون (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى

ههنا الا الظالمون ومن قبل قال الا الكافرون (أجيب) بأن مامن حرف ولا حركة فى القرآن الا
وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل الى أكثرها وما أوتى البشر من
العلم الا قليلا ولكن الحكمة هنا أنه قبل بيان المعجزة قيل لهم ان أكثر المزايا فلا تبطلوها
بانكار محمد صلى الله عليه وسلم فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هنالك أبلغ فنههم عن ذلك
استنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية لزمكم انكار رسالة
الرسل فتلتحقون فى أول الامر بالمشركين حكما وتلتحقون عند جحد هذه الآيات بالمشركين
حقيقة فتكونوا ظالمين أى مشركين كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ
ولما كان التقدير بجحدوها بما لهم من الرسوخ فى الظلم ولم يعدوها آيات فضلا عن كونها بينات
عطف عليه قوله تعالى (وقالوا) موهمين مكر الاظهار للصفة بأدنى مايدل على الصدق (لولا)
أى هلا (أنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم على أى وجه كان من وجوه الانزال (آية)
تكون بحيث تدل قطعا على صدق الآتى بها (من ربه) أى الذى يدعى احسانه اليه كما
أنزل على الانبياء قبله كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام ليستدل بها على
صدق مقاله وصحة مايدعيه من حاله وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص آيات بالجمع لان
بعده قل انما الآيات بالجمع اجماعا والباقون آية بالافراد لان غالب ماجاء فى القرآن كذلك * ولما
كان هذا انكارا للشمس بعد شروقها ومكابرة فيما تحدى به من المعجزات بعد حقوقها أشار
اليه بقوله تعالى (قل) أى لهم ارخاء للعنان حتى كأنك ما أتيتم بشئ (انما الآيات عند الله)
أى الذى له الامر كله ينزل أيتها شاء فلا يقدر على انزال شئ منها غيره فانما الاله هو لا سواه ولو شاء
أن ينزل مايقترحونه لفعل (وانما أنا نذير مبين) أى فليس من شأنى الا الانذار وابانته بما
أعطيته من الآيات وليس لى أن أقترح عليه الآيات فأقول أنزل على آية كذا دون آية كذا
على ان المقصود من الآيات الدلالة على الصدق وهى كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك ولم يذكر
البشارة لانه ليس من أسلوبها وقوله تعالى (أولم يكفهم) جواب لقولهم لولا أنزل عليه
آيات من ربه أى ان كانوا طالبين للحق غير متعنتين آية مغنية عن كل آية (انا أنزلنا) أى
بما لنا من العظمة (عليك الكتاب) أى القرآن الجامع لسعادة الدارين بحيث صار خلقا لك
(يتلى عليهم) أى تتجدد متابعة قراءته عليهم شيأ بعد شئ فى كل مكان وفى كل زمان من كل مقال
مصدقا لما فى الكتب القديمة من نعتك وغيره من الآيات الدالة على صدقك فأعظم به آية باقية
لاتزول ولا تضمحل اذ كل آية سواه منقضية ماضية وتكون فى مكان دون مكان فالقرآن
أتم من كل معجزة لوجوه الاول ان تلك المعجزات وجدت ومادامت فان قلب العصا ثعبانا
واحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو أنكره واحد لم يمكن اثباته معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو
باق لو أنكره واحد فيقال ائت بآية من مثله الثانى أن قلب العصا ثعبانا كان فى آن واحد ولم يره
من لم يكن فى ذلك المكان وأما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد * (وههنا
لطيفة) * وهى ان آيات نبينا صلى الله عليه وسلم كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لان من

جملتها انشقاق القمر وهو يعم الارض لان الخسوف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاص بحر ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدمت الكنيسة بالروم فى قطر آخر اعلاما بأنه يكون أمرا عاما الثالث ان غير هذه المعجزة يقول الكافر المعاند هذا سحر وعمل يد والقرآن لا يمكن هذا القول فيه وقال أبو العباس المرسى خشع بعض الصحابة من سماع بعض اليهود يقرأ التوراة فعوتبوا اذ تخشعوا من غير القرآن وهم انما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله تعالى فاظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغناء * ولما كان هذا القرآن أعظم من كل آية يقترحونها قال تعالى (ان فى ذلك) أى انزال الكتاب على هذا الوجه البعيد المنال البديع المثال (لرحمة) أى نعمة عظيمة فى كل لحظة وتطهيرا لخبث النفوس فى كل لمحة (وذكرى) أى عظة مستمرا تذكرها * ولما عم بالقول خص من حيث النفع فقال (لقوم يؤمنون) لانهم المنتفعون بذلك * ولما كان من المعلوم أنهم يقولون نحن لا نصدق أن هذا الكتاب من عند الله فضلا عن أن نكتفى به قال تعالى (قل) أى جوابا لما قد يقولونه من نحو هذا (كفى بالله) أى الحائز لجميع العظمة وسائر الكمالات (بينى وبينكم شهيدا) أنى قد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ونصحتكم وأنذرتكم وأنهم قابلونى بالجحد والتكذيب وقد صدقنى بالمعجزات وروى أن كعب بن الاشرف وغيره قالوا يا محمد من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت ثم وصف الشهيد وعلل كفايته بقوله (يعلم ما فى السموات) أى كلها (والارض) أى كذلك لا يخفى عليه شئ من ذلك فهو عليم بما تنسبونه اليه من التقول عليه وبما أنسبه أنا اليه من هذا القرآن الذى يشهد لى به عجزكم عنه فهو شاهدى والله فى الحقيقة هو الشاهد لى فيه بالثناء على والشهادة لى بالصدق لانه قد ثبت بالعجز عنه أنه كلامه * ولما بين تعالى الطريقين فى ارشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الى الكامل الشامل لهما والانكار العام فقال (والذين آمنوا بالباطل) أى وهو ما يعبد من دون الله (وكفروا بالله) أى الذى يجب الايمان به والشكر له لان له الكمال كله وكل ما سواه هالك ليس له من ذاته الا العدم (أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الخاسرون) أى العريقون فى الخسارة فانهم خسروا أنفسهم أبد الآبدين (فان قيل) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضى الحصر فمن آمن بالباطل وكفر بالله فمن يأتى بأحدهما دون الآخر لا يكون كذلك (أجيب) بأنه يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر لان المؤمن بما سوى الله تعالى مشرك لانه جعل غير الله مثله وغير الله عاجز ممكن باطل فيكون الله تعالى كذلك ومن كفر بالله تعالى وأنكره فيكون قائلا بأن العالم واجب الوجود لذاته فيكون قائلا بأن غير الله اله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (فان قيل) اذا كان الايمان بما سواه كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد (أجيب) بأن فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح * ولما أنذرهم صلى الله عليه وسلم

وأوعد بالعذاب ان لم يؤمنوا أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت في النضر بن الحرث حين قال فأمطر علينا حجارة من السماء ان كنت من الصادقين ويجعلون تأخيره عنهم شبهة لهم فيما يزعمون من التكذيب (ولولا أجل مسمى) قد ضرب لوقت عذابهم فلا تقدم فيه ولا تأخر (لجاءهم العذاب) وقت استعجالهم لان القدرة تامة والعلم محيط (وليأتينهم بغتة) أي فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم (وهم لا يشعرون) بل هم في غاية الغفلة عنه والاشتغال بما ينسيه ثم زاد في التعجب من جهلهم بقوله تعالى مبدلا (يستعجلونك بالعذاب) أي يطلبون منك ايقاعه بهم ناجزا ولو كان في غير وقته اللائق به ولو علموا ما هم صائرون اليه لتمنوا أنهم لم يخلقوا فضلا عن أن يستعجلوا ولأعملوا جميع جهدهم في الخلاص منه (وان جهنم) التي هي من عذاب الآخرة (لمحيطة بالكافرين) أي ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب أو هي كالمحيطة بهم الآن لاحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم وأتى بالظاهر موضع المضمر تنبيها على ما استحقوا به عذابها وتعميما لكل من اتصف به ثم ذكر تعالى كيفية احاطة جهنم بقوله عز وجل (يوم يغشاهم العذاب) أي يلحقهم ويلصق بهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فعلم بذلك احاطته من جميع الجوانب (فان قيل) لم خص الجانبين ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام (أجيب) بأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربعة فان من يدخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل في العادة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التي تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق (أجيب) بأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرأس أم من موضع آخر عجب لان طبع النار الصعود الى فوق فلهذا لم يخصه بالرؤس وأما بقاء النار تحت القدم فهو عجب والا فمن جوانب القدم في الدنيا تكون الشعلة فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم تنطفئ بالدوس وأما فوق فعلى الاطلاق وقوله تعالى (ونقول) قرأ نافع والكوفيون بالياء أي الموكل بالعذاب من ملائكته بأمره والباقون بالنون أي نأمر بالعذاب * ولما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة (ذوقوا ما كنتم تعملون) جعل ذلك عين ما كانوا يعملون مبالغة بطريق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان سببا لعذابهم وهذا كثير في الاستعمال * ولما ذكر تعالى حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في ايذاء المؤمنين ومنعهم من العبادة قال تعالى (يا عبادي الذين آمنوا) فشرفهم بالاضافة اليه (ان أرضي واسعة) أي في الذات والرزق وكل ما تريدون من الرفق ان لم تتمكنوا بسبب هؤلاء المعاندين الذين يفتنونكم في دينكم قال مقاتل والكلبي نزلت في ضعفاء مسلمي مكة يقول الله تعالى

ان كنتم فى ضيق بمكة من اظهار الايمان فاخرجوا منها فان أرض المدينة واسعة آمنة وقال مجاهد ان أرضى واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها وقال سعيد بن جبير اذا عمل فى أرض بالمعاصى فاخرجوا منها فان أرضى واسعة وكذا يجب على كل من كان فى بلد يعمل فيها بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر الى حيث تتهيأ له العبادة ولكن صارت البلدان فى زماننا كلها متساوية فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وقرأ بفتح الياء ابن عامر والباقون بتسكينها وقيل نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى ان هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقال مطرف بن عبد الله أرضى واسعة يعنى رزقى لكم واسع فاخرجوا روى الثعلبى عن الحسن البصرى مرسلا من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما * (تنبيه) * قوله تعالى يا عبادى لا يدخل فيه الكافر لوجوه الاول قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يدخل فى قوله تعالى يا عبادى الثانى قوله تعالى يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الثالث أن العباد مأخوذ من العبادة والكافر لا يعبد الله فلا يدخل فى قوله تعالى يا عبادى وانما يختص بالمؤمنين الذين يعبدونه الرابع الاضافة بين الله تعالى والعبد يقول العبد الهى و يقول الله عبدى (فان قيل) اذا كان عباده لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة فى قوله الذين آمنوا مع أن الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون يا أيها الرجال العقلاء تمييزا بين الكافر والجاهل (أجيب) بأن الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبى مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثله قولنا الله العظيم فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون * ولما كانت الاقامة بمكة قبل الفتح مؤدية الى الفتنة قال تعالى (فاياى) أى خاصة بالهجرة الى أرض تأمنون فيها (فاعبدون) أى وحدون وان كان بالهجرة وكانت هجرة الاهل والاوطان شديدة (فان قيل) قوله تعالى يا عبادى يفهم منه كونهم عابدين فما الفائدة فى الامر بالعبادة (أجيب) بأن فيه فائدتين احداهما المداومة أى يا من عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى المستقبل الثانية الاخلاص أى يا من تعبدنى اخلص العمل لى ولا تعبد غيرى (فان قيل) ما معنى الفاء فى فاعبدون (أجيب) بأن الفاء جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضى واسعة فان لم تخلصوا العبادة لى فى أرضى فأخلصوها فى غيرها * ولما أمر الله تعالى عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وان بعدت وشق عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة بقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى كل نفس مفارقة ما ألفته حتى بدنها طالما لابسته وانسها وانسته فان أطاعت ربها أنجت نفسها ولم تنقصها الطاعة من الاجل شيأ والا أوبقت نفسها ولم تزدها المعصية فى الاجل شيأ فاذا قدر الانسان انه ميت سهلت عليه الهجرة فانه ان لم يفارق بعض مألوفه بها فارق كل مألوفه بالموت وقد ورد أكثروا

من ذكر هادم اللذات أي الموت فانه ما ذكر في قليل أي من العمل الا كثره ولا ذكر في كثير أي من أمل الدنيا الا قلله * ولما هوّن أمر الهجرة حذر من رضي في دينه بنقص شيء من الاشياء حثا على الاستعداد بغاية الجهد في التزود للمعاد بقوله تعالى (ثم الينا ترجعون) على أيسر وجه فنجازي كلا منكم بما عمل وقرأ أبو بكر بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية (والذين آمنوا وعملوا) أي تصديقا لايمانهم (الصالحات لنبوئنهم) أي لننزلنهم (من الجنة غرفا) أي بيوتا عالية قال البقاعي تحتها قاعات واسعة وقرأ حمزة والكسائي بعد النون ثاء مثلثة ساكنة وبعدها واو مكسورة وبعد الواو ياء مفتوحة أي لنثوينهم أي لنقيمنهم من الثواء وهو الاقامة يقال ثوى الرجل اذا أقام فيكون انتصاب غرفا لاجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض اتساعا أي في غرف أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم كقوله لاقعدن لهم صراطك والباقون بعد النون باء موحدة وبعدها واو مشددة وبعد الواو همزة مفتوحة وعلى هذه القراءة فانتصابها على أنها مفعول ثان لان بوأ يتعدى لاثنين قال الله تعالى تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ويتعدى باللام قال تعالى واذ بوأنا لابراهيم * ولما كانت العلالي لا تروق الا بالرياض قال تعالى (تجري من تحتها الانهار) ومن المعلوم انه لا يكون في موضع أنهار الا أن يكون فيه بساتين كبار وزروع ورياض وأزهار فيشرفون عليها من تلك العلالي * ولما كانت بحالة لا انكر فيها يوجب هجرة في لحظة ما كني عنه بقوله تعالى (خالدين فيها) أي لا يبغون عنها حولا ثم عظم أمرها وشرف قدرها بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) أي هذا الاجر وهذا في مقابلة قوله تعالى للكفار ذوقوا ما كنتم تعملون ثم وصفهم بما رغب في الهجرة بقوله تعالى (الذين صبروا) أي أوجدوا هذه الحقيقة حتى استقرت عندهم فكانت سجية لهم فأوقفوها على كل شاق من التكاليف من هجرة وغيرها فان الانسان قل أن ينفك عن أمر شاق ينبغي الصبر عليه ثم رغب في الاستراحة بالتفويض اليه بقوله تعالى (وعلى ربهم) أي المحسن اليهم وحده لا على أهل ولا وطن (يتوكلون) أي يوجدون التوكل ايجادا مستمرا التجديد كل مهم يعرض لهم * ولما أشار بالتوكل الى أنه الكافي في أمر الرزق في الوطن والغربة لا مال ولا أهل قال عاطفا على ما تقديره فكأين من متوكل عليه كفاه ولم يحوجه الى أحد سواه فليبادر من أنقذه من الكفر وهداه الى الهجرة طلبا لرضاه (وكأين من دابة) أي كثير من الدواب العاقلة وغيرها (لا تحمل) أي لا تطيق أن تحمل (رزقها) أي لا تدخر شيأ لساعة أخرى لانها قد لا تدرك نفع ذلك وقد تدركه وتتوكل وعن الحسن لا تدخر انما تصبح فيرزقها الله تعالى وعن ابن عيينة ليس شيء يخبأ الا الانسان والنملة والفارة وعن بعضهم قال رأيت البلبل يدخر في حضنيه ويقال للعقعق مخابئ الا أنه ينساها أو لا تجده أو لا تطيق حمله لضعفها ثم كأنه قيل فمن يرزقها فقيل (الله) أي المحيط علما وقدرة المتصف بكل كمال (يرزقها) على ضعفها وهي لا تدخر (واياكم) مع قوتكم وادخاركم واجتهادكم لا فرق بين ترزيقه لها على

ضعفها

ضعفها وعدم ادخارها وترزيقه لكم على قوتكم وادخاركم فانه هو المسبب وحده فان الفريقين تارة يجدون وتارة لايجدون فصار الادخار وعدمه غير معتمد به ولا منظورا اليه وقرأ ابن كثير بعد الكاف بالف وبعد الالف همزة مكسورة والباقون بعد الكاف همزة مفتوحة وبعدها ياء مشددة ووقف أبو عمرو على الياء ووقف الباقون على النون وحمزة فى الوقف يسهل الهمزة على أصله *(تنبيه)* كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ثم لم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأى تستعمل غير مركبة كما يقول القائل رأيت رجلا كأى رجل يكون وحينئذ لايكون كأى مركبا فاذا كان كأى ههنا مركبا كتب بالنون للتمييز (وهو السميع) لاقوالكم نخشى الفقر والضيعة (العليم) بما فى ضمائركم واختلف فى سبب نزول هذه الآية فعن ابن عمر أنه قال دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا من حوائط الانصار فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال كل يا ابن عمر قلت لا أشتهيه يارسول الله قال لكنى أشتهيه وهذه صبح رابعة لم أطعم طعاما ولم أجده فقلت يارسول الله ان الله المستعان فقال يا ابن عمر لو سألت ربى لاعطانى مثل ملك كسرى وقيصر أضعافا مضاعفة ولكنى أجوع يوما وأشبع يوما فكيف بك يا ابن عمر اذا عمرت وبقيت فى حثالة من الناس يخبؤن رزق سنة ويضعف اليقين فنزلت وكأين من دابة وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وآذاهم المشركون هاجروا الى المدينة فقالوا كيف نخرج الى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لايدخر شيأ وقال صلى الله عليه وسلم لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم أيها الناس ليس شئ يقربكم الى الجنة ويباعدكم من النار الا وقد أمرتكم به وليس شئ يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة الا وقد نهيتكم عنه وان الروح الأمين نفث فى روعى أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله فانه لايدرك ما عند الله الا بطاعته (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم) أى كفار مكة وغيرهم (من خلق السموات والارض) وسواهما على هذا النظام العظيم (وسخر الشمس والقمر) لاصلاح الاقوات ومعرفة الاوقات وغير ذلك من المنافع (ليقولن الله) أى الذى له جميع صفات الكمال لما تقرر فى نظرهم من ذلك وتلقوه من آبائهم موافقة للحق فى نفس الامر (فانى) أى فكيف ومن أى وجه (يؤفكون) أى يصرفون عن توحيده بعد اقرارهم بذلك (فان قيل) ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير (أجيب) بأن مجرد خلق السموات والارض آية ظاهرة بخلاف خلق الشمس والقمر فانهما لو كانا فى موضع واحد لايتحركان ما حصل الليل والنهار

ولا الصيف ولا الشتاء فذا الحكمة الظاهرة فى تحريكهما وتسخيرهما * ولما كان قد يشكل
على ذلك التفاوت فى الرزق عند من لم يتأمل حق التأمل فيقول ما بال الخلق متفاوتين فى الرزق
قال تعالى (الله) أى بماله من الاحاطة بصفات الكمال (يبسط الرزق) بقدرته التامة امتحانا
(لمن يشاء من عباده) على حسب ما يعلم من بواطنهم (ويقدر) أى يضيق (له) بعد البسط
أو لمن يشاء ابتلاء فظهر من ذلك قدرته وحكمته وأنت ترى الملوك وغيرهم من الاقوياء يفاوتون
فى الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون من علمهم الناقص بأحوالهم فاظنك بملك الملوك العالم
علما لا تدنو من ساحته ظنون ولا شكوك كما قال تعالى (ان الله) أى الذى له صفات الكمال
(بكل شئ) أى من المرزوقين ومن الارزاق وكيف يمنع أو يساق وغير ذلك (عليم)
يعلم مقادير الحاجات والارزاق فهو على ذلك كله قدير يعلم ما يصلح العباد من ذلك وما يفسدهم
ويعطيهم بحسب ذلك ان شاء وكم رام بعض الاقوياء اغناء فقير وافقار غنى فكشف الحال عن
فساد ما راموا من الانتقال * ولما قال الله تعالى الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك بقوله تعالى
(ولئن) اللام لام قسم (سألتهم من نزل من السماء ماء) بعد ان كان مضبوطا فى جهة العلو
(فأحيى به الارض) الغبراء وأشار باثبات الجار الى قرب الانبات من زمان الممات فقال
(من بعد موتها) فصارت خضراء تهتز بعد أن لم يكن لها شئ من ذلك (ليقولن الله) معترفين
بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى
لا يقدر على شئ من ذلك فلما ثبت أنه الخالق بدأ واعادة كما يشاهد فى كل زمان قال منبها على
عظمة صفاته اللازم من اثباتها صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) يا أفضل الخلق
متعجبا منهم فى جحودهم كيف يقرون بما يلزمهم التوحيد ثم لا يوحدون (الحمد لله) الذى
لا سمى له وليس لغيره احاطة من الاشياء فلزمتهم الحجة بما أقروا به من احاطته وهم لا يثبتون
ذلك باعراضهم (بل أكثرهم لا يعقلون) فيناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم انهم
يشركون به غيره مما هم معترفون بأنه خلقه فهم لا يعرفون معنى الحمد حيث لم يعملوا به ومنهم
من آمن بعد ذلك فكان فى الذروة من كمال العقل فى التوحيد الذى يلزمه سائر الفروع
ومنهم من كان دون ذلك فكان نفى العقل عنه مقيدا بالكمال * ولما بين بهذه الآيات ان الدنيا
مبنية على الفناء والزوال والتقلع والارتحال وصح ان السرور بها فى غير موضعه فلذلك قال
مشيرا بعد سلب العقل عنهم الى أنهم فيها كالبهائم يتهارجون (وما هذه الحياة الدنيا) حقرها
بالاشارة ولفظ الدناءة مع الاشارة الى هذا الاعتراف فهذا الاسم كاف فى الالزام بالاعتراف
بالاخرى (الا لهو) وهو الاستمتاع بلذات الدنيا (ولعب) وهو العبث وسميت بهما
لانها فانية وقيل اللهو الاعراض عن الحق واللعب الاقبال على الباطل (فان قيل) قد قال
تعالى فى الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه الحياة فما فائدته
(أجيب) بأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا فأحيا به الارض من بعد موتها فقال

هذه والمذكور قبلها هنالك الآخرة حيث قال ياحسرتنا على ما فرّطنا فيها وهم يحملون أوزارهم
على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال تعالى وما الحياة الدنيا (فان قيل)
ما الحكمة فى تقديمه هنالك اللعب على اللهو وههنا اخر اللعب عن اللهو (أجيب) بأنه لما كان
المذكور من قبل هنالك الآخرة واظهارهم الحسرة ففى ذلك الوعيد بعد الاستغراق فى الدنيا
بل نفس الاشتغال بها فأخذ الابعد وههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو
النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من
غير استغراق فيها أو لعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا وكان الاستغراق أقرب من عدمه فقدم
اللهو ولما كانوا ينكرون الحياة بعد الموت أخبر على سبيل التأكيد أنه لا حياة غيرها بقوله
تعالى (وان الدار الآخرة لهى) أى خاصة (الحيوان) أى الحياة التامة الباقية (فان قيل)
ما الحكمة فى قوله تعالى هنالك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان
(أجيب) بأنه لما كان الحاصل هنالك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى وازع
قوى فقال الآخرة خير ولما كان الحال هنا حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى وازع قوى فقال
لا حياة الا حياة الآخرة والحيوان مصدر حى وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا وبه سمى
ما فيه حياة حيوانا وهو أبلغ من الحياة لما فى بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم
للحياة ولذلك اختير عليها ههنا ولما كانوا قد غلطوا فى الدارين كليهما فنزلوا كل واحدة منهما
غير منزلتها فعدوا الدنيا وجودا دائما على هذه الحالة وعدوا الآخرة عدما لا وجود لها بوجه
قال تعالى (لو كانوا يعلمون) أى لم يؤثروا عليها الدنيا التى أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة
سريعة الزوال فان قيل ما الحكمة فى قوله تعالى فى الانعام أفلا يعقلون وقال ههنا لو كانوا
يعلمون (أجيب) بأن المثبت هنالك كون الآخرة خيرا ولانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل
والمثبت هنا أن لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع (فاذا) أى فتسبب
عن عدم عقلهم المستلزم لعدم علمهم انهم اذا (ركبوا) البحر (فى الفلك) أى السفن (دعوا
الله) أى الملك الاعلى (مخلصين) بالتوحيد (له الدين) معرضين عن الشركاء بالقلب واللسان
حيث لا يذكرون الا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد الا هو (فلما نجاهم)
أى الله سبحانه وتعالى موصلا لهم (الى البر اذا هم) أى حين الوصول الى البر (يشركون)
به كما كانوا فهذا اخبار عنهم بأنهم عند الشدائد مقرون أن القادر على كشفها هو الله عز وجل
وحده فاذا زالت عادوا الى كفرهم قال عكرمة كان أهل الجاهلية اذا ركبوا فى البحر حملوا معهم
الاصنام فاذا اشتد عليهم الريح القوها فى البحر وقالوا يارب يارب وقال الرازى فى اللوامع وهذا
دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل انسان وانهم ان غفلوا فى السراء فلا شك أنهم يلوذون
اليه فى حال الضراء انتهى فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصاد عن كل خير وان الانقطاع عنها
معين للفطرة الاولى المستقيمة ولهذا تجد الفقراء أقرب الى كل خير وفى اللام فى قوله تعالى
(ليكفروا بما آتيناهم) وجهان أظهرهما أن اللام فيه لام كى اى يشركون ليكونوا كافرين

بشركهم نعمة النجاة فيكون ذلك فعل من لا عقل له أصلا وهم يتحاشون عن مثل ذلك والثانى كونها للامر (وليتمتعوا) باجتماعهم على عبادة الاصنام وتوادهم عليها وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر وعاصم بالكسر وهى محتملة للوجهين المتقدمين والباقون بالسكون وهى ظاهرة فى الامر فان كانت اللام الاولى للامر فقد عطف أمرا على مثله فان قيل كونها للامر مشكل اذ كيف يأمر الله تعالى بالكفر وهو متوعد عليه (أجيب) بأن ذلك على سبيل التهديد كقوله تعالى اعملوا ماشئتم وان كانت للعلة فقد عطف كلاما على كلام فيكون المعنى لا فائدة لهم فى الاشراك الا الكفر والتمتع بما يستمتعون به فى العاجلة من غير نصيب فى الآخرة (فسوف يعلمون) يومئذ ما يحل بهم من العقاب * ولما كان الانسان يكون فى البحر على أخوف ما يكون وفى بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما اذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله ذكرهم حالهم عند الامن العظيم بقوله تعالى (أولم يروا) أى أهل مكة بعيون بصائرهم (أنا جعلنا) بعظمتنا لهم (حرما) وقال (آمنا) لانه لا خوف على من دخله فلما أمن كل من دخله كان كأنه هو نفسه الآمن وهو حرم مكة فانها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهى حصينة بحصن الله وآمنة موجبة للتوحيد والاخلاص لانكم فى أخوف ما أنتم دعوتم الله وفى آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص فما كان الا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير وهذه النعمة العظيمة التى حصلتم وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله فكيف تكفرون بها والاصنام التى قلتم فى حال الخوف انها لا أمن لها كيف آمنتم بها فى حال الامن (و) الحال انه (يتخطف الناس من حولهم) أى من حول من فيه من كل جهة قتلا وسبيا مع قلة من بمكة وكثرة من حولهم فالذى خرق العادة فى فعل ذلك حتى صار الى هذا السنن قادر على أن يعكس الحال فيجعل من بالحرم متخطفا ومن حوله آمنا أو يجعل الكل فى الخوف على منهاج واحد (أفبالباطل) من الشياطين والاديان وغيرهما (يؤمنون) والحال أنه لا يشك عاقل فى بطلانه (وبنعمة الله) التى أحدثها لهم من الانجاء وارسال محمد صلى الله عليه وسلم (يكفرون) حيث جعلوا موضع شكرهم له على النجاة وغيرها اشراكهم بعبادة غيره (ومن أظلم) أى أشد وضعا للاشياء فى غير مواضعها (ممن افترى) أى تعمد (على الله كذبا) أى أى كذب كان من الشرك وغيره كما كانوا يقولون اذا فعلوا فاحشة وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها (أو كذب بالحق) أى النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن المعجز المبين على لسان هذا الرسول الامين الذى ما أخبر خبرا الا طابقه الواقع (لما) أى حين (جاءه) من غير امهال الى أن ينظر ويتأمل بل سارع الى التكذيب أول ما سمعه وقوله تعالى (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) استفهام تقرير لمثواهم كقوله

ألستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راح

قال بعضهم ولو كان استفهاما ما أعطاه الخليفة مائة من الابل وحقيقته أن الهمزة همزة

الانكار دخلت على النفي فرجع الى معنى التقرير والمعنى اما لهذا الكافر المكذب مثوى فى جهنم حتى اجترأ مثل هذه الجراءة (والذين جاهدوا) أى أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على مادل عليه بالمفاعلة (فينا) أى بسبب حقنا ومراقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار وغيرهم من كل ما ينبغى الجهاد فيه بالقول والفعل فى الشدة والرخاء ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا (لنهدينهم) مما نجعل لهم من النور الذى لا يضل من صحبه هداية تليق بعظمتنا (سبلنا) أى طريق السير الينا وهى الطريق المستقيمة والطريق المستقيمة هى التى توصل الى رضا الله عز وجل قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فان الله تعالى قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال الحسن الجهاد مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الدارانى والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لم يعلم وقيل ان الذى نرى من جهلنا بما لم نعلم انما هو من تقصيرنا فيما نعلم وقيل المجاهدة هى الصبر على الطاعة وقرأ أبو عمرو بسكون الباء الموحدة والباقون بضمها (وان الله) أى بعظمته وجلاله وكبريائه (لمع المحسنين) أى المؤمنين بالنصرة والمعونة فى دنياهم والمغفرة والثواب فى عقباهم * وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المؤمنين والمنافقين فهو حديث موضوع ورواه ابن عادل عن أبى امامة عن أبى بن كعب

﴿ سورة الروم مكية ﴾

وهى ستون آية وثمانمائة وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا (بسم الله) الذى ملك الامر كله (الرحمن) الذى رحم الخلق كلهم بنصب الدلائل (الرحيم) الذى لطف بأوليائه وقوله تعالى (الم) تقدم الكلام على ذلك فى أول سورة البقرة وقال البقاعى لما ختم سبحانه وتعالى التى قبلها بأنه مع المحسنين قال الم مشيرا بألف القيام والعلو ولام الوصلة وميم التمام الى أن الله الملك الاعلى القيوم أرسل جبريل عليه الصلاة والسلام الذى هو وصلة بينه وبين أنبيائه عليهم السلام الى أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث لاتمام مكارم الاخلاق يوحى اليه وحيا معلما بالشاهد والغائب فيأتى الامر على ما أخبر به دليلا على صحة رسالته وكمال علم مرسله وشمول قدرته ووجوب وحدانيته (غلبت الروم) وهم أهل كتاب غلبتهم فارس وليسوا أهل كتاب بل يعبدون الاوثان (فى أدنى الارض) أى أقرب أرض الروم الى فارس بالجزيرة التى فيها الجيشان والبادى بالغزو الفرس (وهم) اى الروم (من بعد غلبهم) أضيف المصدر الى المفعول أى غلبة فارس اياهم (سيغلبون) فارس (فى بضع سنين) وهو ما بين الثلاث الى التسع أو العشر فالتقى الجيشان فى السنة السابعة

من الانتفاء الاول وغلبت الروم فارس وسبب نزول هذه الآية على ماذكره المفسرون انه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون أن تغلب فارس لان أهل فارس كانوا مجوسا أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا الى الروم واستعمل عليه رجلا يقال له شهريارو بعث قيصر جيشا واستعمل عليه رجلا يدعى بخنس فالتقى مع شهريار باذرعات و بصرى وهى أدنى الشأم الى أرض العرب فغلبت فارس الروم و بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن تظهر الاميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح كفار مكة وقالوا للمسلمين انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من أهل الروم ولنظهرن عليكم فنزلت هذه الآية فخرج أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه الى الكفار فقال فرحتم بظهور اخوانكم فلا تفرحوا فوالله لتظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقال له أبى بن خلف الجمحى كذبت ياأبا فصيل فقال أبو بكر أنت أكذب ياعدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما فان ظهرت الروم على فارس غرمت وان ظهرت فارس غرمت وجعلا الاجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال ماهكذا ذكرت انما البضع مابين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الاجل فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت قال لا فتعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص الى تسع سنين وقيل الى سبع سنين قال قد فعلت فلما خشى أبى بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال انى أخاف أن تخرج من مكة فأقم لى كفيلا فكفله له ابنه عبد الله بن أبى بكر فلما أراد أبى بن خلف أن يخرج الى أحد أتاه عبد الله بن أبى بكر فلزمه وقال والله لا أدعك حتى تعطينى كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج الى أحد ثم رجع أبى بن خلف فمات بمكة من جراحته التى جرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وان القرآن من عند الله لانه انبأ عن علم الغيب الذى لايعلمه الا الله تعالى (فان قيل) كيف صحت المناحبة وانما هى قمار (أجيب) بأن قتادة رحمه الله تعالى قال كان ذلك قبل تحريم القمار وقال الزمخشرى ومذهب أبى حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر رضى الله عنه بينه و بين أبى بن خلف ولما كان تغلب ملك على ملك من الامور الهائلة وكان الاخبار به قبل كونه أهول ذكر له ذلك بقوله تعالى (لله) أى وحده (الامر من قبل) أى قبل جولة فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس (ومن بعد) أى بعد دولة الروم عليهم ودولتهم على الروم ولما أخبر تعالى بهذه المعجزة أخبر بمعجزة

أخرى

أخرى بقوله تعالى (ويومئذ) أى تغلب الروم على فارس (يفرح المؤمنون) أى العريقون فى هذا الوصف من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (بنصر الله) أى الذى لا راد لأمره الروم على فارس وقد فرحوا بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبريل عليه السلام بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه قال السدى فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك وعن أبى سعيد الخدرى وافق ذلك يوم بدر وفى هذا اليوم نصر المؤمنون (ينصر من يشاء) من ضعيف وقوى لانه لا مانع له ولا يسئل عما يفعل فالغلبة لا تدل على الحق بل الله قد يزيد ثواب المؤمن فيبتليه ويسلط عليه الاعادى وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل يوم المعاد (وهو العزيز) فلا يعز من عادى ولا يذل من والى وقرأ قالون وابو عمرو والكسائى بسكون الهاء والباقون بالضم ولما كان السياق لبشارة المؤمنين قال (الرحيم) فيخصهم بالاعمال الزكية والاخلاق المرضية (وعد الله) أى الذى له جميع صفات الكمال مصدر مؤكد ناصبه مضمر أى وعدهم الله ذلك وعدا بظهور الروم على فارس (لا يخلف الله) أى الذى له الامر كله (وعده) به وهذا مقرر لمعنى هذا المصدر ويجوز أن يكون قوله تعالى لا يخلف الله وعده حالا من المصدر فيكون كالمصدر الموصوف فهو مبين للنوع كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس) لجهلهم وعدم تفكرهم (لا يعلمون) ذلك وقوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله تعالى لا يعلمون وفى هذا الابدال من النكتة انه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمه أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يجاوز الدنيا (ظاهرا من الحياة الدنيا) يفيد أن للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من أمر معايشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وكيف يبنون ويعرشون قال الحسن ان أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه وهو لا يخطئ وهو لا يحسن يصلى وأمثال هذا الهم كثير وهو وان كان عند أهل الدنيا عظيما فهو عند الله حقير فلذلك حقره لانهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم فى ادراكها ما ينفعها فتستجلبه بتنيروب من الحيل وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع وأما علم باطنها وهو أنها مجاز الى الآخرة يتزود منها بالطاعة فهو ممدوح وفى تنكير الظاهر اشارة الى انهم لا يعلمون الا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها (وهم) أى هؤلاء الموصوفون خاصة (عن الآخرة) أى التى هى المقصودة بالذات وما خلقت الدنيا الا للتوصل بها اليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والاكرام (هم غافلون) أى فى غاية الاستغراق والاضراب عنها بحيث لا تخطر فى خواطرهم * (تنبيه) * هم الثانية يجوز أن تكون مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبرهم الاولى وان تكون تكريرا للاولى وغافلون خبر الاولى وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومحلها وأنها منهم تنبع واليهم ترجع (أولم يتفكروا) أى يجتهدوا فى اعمال الفكر وقوله تعالى (فى أنفسهم) يحتمل أن يكون ظرفا كأنه قيل أولم يحدثوا الفكر فى أنفسهم

أي في قلوبهم الفارغة من التفكر والتفكر لا يكون الا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك وأن يكون صلة أي أولم يتفكروا في أحوالها خصوصا فيعلموا ان من كان منهم قادرا كاملا لا يخلف وعده وهو انسان ناقص فكيف بالاله الحق ويعلموا أن الذي ساوى بينهم في الايجاد من العدم وطورهم في أطوار الصور وفاوت بينهم في القوى والقدر وبين أحوالهم في الطول والقصر وسلط بعضهم على بعض بأنواع الضرر ومات أكثرهم مظلوما قبل القصاص والتناصر لابد في حكمته البالغة من جمعه العدل بينهم في جزاء من وفى أو غدر أو شكر أو كفر ففي ذلك دلالة على وحدانية الله تعالى وعلى الحشر ثم ذكر تعالى نتيجة ذلك وعلله بقوله في أسلوب التأكيد لاجل انكارهم وعلى التقدير الاول يكون المتفكر فيه (ما خلق الله) أي بعز جلاله وعلوه في كماله (السموات والارض) على ما هما عليه من النظام المحكم والقانون المتقن قال البقاعي وافرد الارض لعدم دليل حسي أو عقلي يدلهم على تعددها بخلاف السماء اه وقد يرد هذا بقوله تعالى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن (وما بينهما) من المعاني التي بها كمال منافعهما (الا) خلقا متلبسا (بالحق) أي الامر الثابت الذي يطابقه الواقع فاذا ذكر البعث الذي هو مبدأ الآخرة التي هذا اسلوبها وجد الواقع في تصوير النطف ونفخ الروح وتمييزا لصالح منهما للتصوير من الفاسد يطابق ذلك واذا تدبر النبات بعد أن كان هشيما قد نزل عليه الماء فزها واهتز وربا وجده مطابقا لأمر البعث واذا ذكر القدرة فرأى اختلاف الليل والنهار وسير الكواكب الصغار والكبار وامطار الامطار واجراء الانهار ونحو ذلك من الاسرار رآه مطابقا لذلك كل ما يخطر بالبال ولما كان عندهم ان هذا الوجود حياة وموت لا الى نفاد قال تعالى (واجل) لا بد أن ينتهي اليه (مسمى) أي في العلم من الازل لذلك يفنى عند انتهائه وبعده البعث ولما كانوا ينكرون أنهم على كفر أكده قوله تعالى (وان كثيرا من الناس) مع ذلك على وضوحه (بلقاء ربهم) أي الذي ملأهم احسانا برجوعهم في الآخرة الى العرض عليه للثواب والعقاب (لكافرون) أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت (فان قيل) ما الفائدة في قوله تعالى ههنا وان كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس (أجيب) بأن فائدته انه من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الراضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدليل لا بد أن يؤمن من ذلك جمع فلا يبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقال قبله ولكن أكثر الناس لانه بعد الدليل لا يمكن الذهول عنه وهو السموات والارض لان من البعيد أن يذهل الانسان عن السماء التي فوقه والارض التي تحته فلهذا ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمثالهم وحكاية أشكالهم فقال (أولم يسيروا في الارض) أي سير اعتبار وقوله تعالى (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم وهي اهلاكهم بتكذيبهم رسلهم تقرير لسيرهم في أقطار الارض ونظرهم الى آثار المدمرين كعاد وثمود (كانوا أشد منهم) أي العرب (قوة) أي في أبدانهم وعقولهم (وأثاروا الارض) أي

حرثوها وقلبوها للزرع والغرس والمعادن والمياه وغير ذلك (وعمروها) أى أولئك السالفون
(أكثر مما عمروها) أى هؤلاء الذين أرسلت اليهم بل ليس لهم من اثارة الارض وعمارتها
كبير أمر فان بلاد العرب انما هى فى جبال سود وفيافى غبر فما هو الا تهكم بهم وبيان لضعف
حالهم فى دنياهم التى لا فخر لهم بغيرها (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج الظاهرات مثل
ما أتاكم به رسولنا من وعوده الصادقة وأموره الخارقة كأمر الاسراء وما أظهر فيه من
الغرائب كالاخبار بأن العير تقدم فى يوم كذا يقدمها جمل صفته كذا وغرائره كذا فظهر
كذلك وما آمنتم به كما لم يؤمن من كان أشد منكم قوة (فما) أى تسبب أنه ما (كان الله) أى
على ماله من أوصاف الكمال مريدا (ليظلمهم) بأن يفعل معهم فعل من تعدونه أنتم ظالما بأن
يهلكهم فى الدنيا ثم يقتص منهم فى القيامة قبل اقامة الحجة عليهم بارسال الرسل بالبينات
(ولكن كانوا) بغاية جهدهم (أنفسهم) أى خاصة (يظلمون) أى يجددون الظلم لها باتباع
الضر موقع جلب النفع (ثم كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين أساؤا) وقوله تعالى (السوأى)
تأنيث الاسوأ وهو الاقبح كما أن الحسنى تأنيث الاحسن والمعنى أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار
ثم كان عاقبتهم السوأى الا أنه وضع المظهر موضع المضمر أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات
فى الآخرة وهى جهنم التى أعدت للكافرين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عاقبة بالرفع على أنها
اسم كان والسوأى خبرها والباقون بالنصب على أنها خبر كان وقيل السوأى اسم لجهنم كما أن
الحسنى اسم للجنة واساءتهم (أن) أى بأن (كذبوا بآيات الله) اى القرآن وقيل تفسير السوأى
ما بعده وهو قوله تعالى أن كذبوا أى ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب حملتهم تلك السيئات على
ان كذبوا بآيات الله (وكانوا بها) مع كونها أبعد شئ عن الهزء (يستهزؤن) أى يستمرون على
ذلك بتجديده فى كل حين * ولما كان حاصل ما مضى أنه تعالى قادر على الاعادة كما قدر على الابتدا
صرح بذلك فى قوله تعالى (الله) أى المحيط علما وقدرة (يبدأ الخلق) أى بدأ منه ما رأيتم
وهو يجدد فى كل وقت ما يريد من ذلك كما تشاهدون (ثم يعيده) أى خلقهم بعد موتهم أحياء
ولم يقل يعيدهم لرده الى الخلق (ثم اليه ترجعون) للجزاء فيجزيهم بأعمالهم وقرأ أبو عمرو
وشعبة بالياء على الغيبة على النسق الماضى والباقون بالتاء على الخطاب أى اليه ترجعون
معنى فى أموركم كلها فى الدنيا وان كنتم لقصور النظر تنسبونها للاسباب وحسا بعد قيام
الساعة وهى أبلغ من القراءة الاولى لانها أنص على المقصود * ولما ذكر الرجوع اتبعه ببعض
أحواله بقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة) سميت بذلك اشارة الى عظيم القدرة عليها مع كثرة
الخلائق على ما هم فيه من العظماء والكبراء والرؤساء (يبلس المجرمون) أى يسكت المشركون
لانقطاع حجتهم فالابلاس أن يبقى يائسا ساكتا متحيرا يقال ناظرته فابلس ومنه الناقة المبلاس
أى التى لا ترغو وقال مجاهد مفتضحون وقال قتادة المعنى ييأس المشركون من كل خير * ولما
كان الساكت ربما أغناه عن الكلام غيره نفى ذلك بقوله تعالى محققا له بجعله ماضيا (ولم يكن)
ومعناه لا يكون (لهم من شركائهم) أى ممن أشركوهم بالله وهم الاصنام (شفعاء) ينقذونهم

عماهم فيه ليتبين لهم غلطهم وجهلهم المفرط في قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله * ولما ذكر
تعالى حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله تعالى (وكانوا بشركائهم) أى خاصة
(كافرين) أى متبرئين منهم بأنهم ليسوا بآلهة وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم وكتب شفعاء
في المصحف بواو وقبل الالف كما كتب علماء بنى اسرائيل وكذلك كتب السواى بألف قبل الياء
اثباتا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها (ويوم تقوم الساعة) أى ويا له من يوم
وزاد في تهويله بقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) أى المؤمنون الذين يفرحون بنصر الله والكافرون
فرقة لا اجتماع بعدها هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل سافلين كما قال عز من قائل (فأما الذين
آمنوا) أى اقروا بالايمان بأنفسهم (وعملوا) تصديقا لاقرارهم (الصالحات فهم) أى خاصة
(في روضة) وهي أرض عظيمة جدا منبسطة واسعة ذات ماء غدق ونبات معجب بهيج هذا
أصلها في اللغة قال الطبرى ولا تجد أحسن منظرا ولا أطيب نشرا من الرياض اه والتنكير
لابهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء ومن أمثالهم أحسن
من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة (يحبرون) قال أبو بكر بن عياش التيجان على
رؤسهم وقال أبو عبيدة يسرون أى على سبيل التجدد كل وقت سرورا تشرق له الوجوه وتبسم
الافواه وتزهر العيون فيظهر حسنها وبهجتها فتظهر النعمة بظهور آثارها على أسهل
الوجوه وأيسرها وقال ابن عباس يكرمون وقال قتادة ينعمون وقال الاوزاعى عن يحيى بن
كثير يحبرون هو السماع في الجنة وقال الاوزاعى اذا أخذ في السماع لم يبق في الجنة شجرة
الا وردت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من اسرافيل فاذا أخذ في السماع قطع
على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه ذكر الجنة وما فيها
من النعيم وفي آخر القوم اعرابى قال يا رسول الله هل في الجنة من سماع قال نعم يا اعرابى
ان في الجنة نهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها
قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الدارمى فسألت أبا الدرداء بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان
في الجنة لاشجارا عليها اجراس من فضة فاذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت
العرش فتقع في تلك الاجراس باصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا (وأما الذين كفروا)
أى غطوا ما كشفته أنوار العقول (وكذبوا) عنادا (بآياتنا) التى لا أصدق منها ولا أضوأ من
أنوارها عما لها من عظمتنا وهو القرآن (ولقاء الآخرة) أى بالبعث وغيره (فأولئك) أى البغضاء
البعداء (في العذاب) الكامل لا غيره (محضرون) أى مدخلون لا يغيبون عنه (فسبحان الله)
أى سبحوا الله تعالى بمعنى صلوا (حين تمسون) أى حين تدخلون في المساء وفيه صلاتان المغرب
والعشاء (وحين تصبحون) أى تدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح وقوله تعالى (وله الحمد
في السموات والارض) اعتراض ومعناه يحمده أهلهما وقوله تعالى (وعشيا) عطف على حين
وفيه صلاة العصر (وحين تظهرون) أى تدخلون في الظهيرة وفيه صلاة الظهر قال نافع بن
الازرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس في مواقيتها في القرآن فقرأ هاتين الآيتين وقال

جمعت الآيتان الصلوات الخمس ومواقيتها وانما خص هذه الاوقات مع ان أفضل الاعمال أدومها لان الانسان لا يقدر أن يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لانه محتاج الى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة فى غالب الاوقات وأمره بها فى أول النهار ووسطه وآخره وفى أول الليل ووسطه فاذا صلى العبد ركعتى الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقى الركعات وهى سبع عشرة مع ركعتى الفجر فاذا صلى الانسان الصلوات الخمس فى أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات من جميع الليل والنهار وهى مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته بالتسبيح فى العبادة أو بمعنى نزهوه من السوء بالثناء عليه بالخير فى هذه الاوقات لما يتجدد فيها من نعم الله تعالى الظاهرة عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به الا أحد قال مثل ما قال وزاد عليه وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وعن جويرية بنت الحرث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أنه خرج ذات غداة من عندها وكان اسمها برة فحوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماها جويرية فكره أن يقال خرج من عند برة فخرج وهى فى مسجدها أى مصلاها فرجع بعد ما تعالى النهار فقال مازلت فى مجلسك هذا منذ خرجت بعد قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته وعن سعد بن أبى وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيعجز أحدكم أن يكتسب فى كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكتسب كل يوم ألف حسنة قال يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة وفى غير رواية مسلم ويحط بغير ألف * ولما كان الانسان عند الاصباح يخرج من سنة النوم الى سنة الوجود وهى اليقظة وعند العشاء يخرج من اليقظة الى النوم أتبعه الاحياء والاماتة حقيقة بقوله تعالى (يخرج الحى) كالانسان والطائر (من الميت) كالنطفة والبيضة (ويخرج الميت) كالبيضة والنطفة (من الحى) على عكس ذلك أو بعقب الحياة الموت وبالعكس وقيل يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن (ويحيى الارض) أى بالمطر واخراج النبات (بعد موتها) أى يبسها (وكذلك) أى ومثل هذا الاخراج (تخرجون) بأيسر أمر من الارض بعد تفرق أجسامكم فيها أحياء للبعث والحساب وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى الميت بكسر الياء المشددة والباقون بالسكون وقرأ حمزة والكسائى وابن ذكوان بخلاف عنه بفتح التاء قبل الخاء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول (ومن آياته) أى ومن جملة علامات توحيده وكمال قدرته (أن خلقكم) أى أصلكم وهو آدم عليه السلام (من تراب)

لم يكن له أصلا اتصاف ما بحياة أو أنه خلقكم من نطفة والنطفة من الغذاء والغذاء انما يتولد من الماء والتراب (ثم) أى بعد اخراجكم منه (اذا أنتم بشر تنتشرون) فى الارض كقوله تعالى وبث منهما رجالا كثيرا ونساء * (تنبيه)* الترتيب والمهلة ههنا ظاهران فانهم يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة وتنتشرون حال واذا هى الفجائية الا ان الفجائية اكثر ما تقع بعد الفاء لانها تقتضى التعقيب ووجه وقوعها مع ثم بالنسبة الى ما يليق بالحالة الخاصة أى بعد تلك الاطوار التى قصها علينا فى موضع آخر من كونها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مجردا ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار (ومن آياته) أى على ذلك (ان خلق لكم) أى لاجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد وفى تقديم الجار وهو قوله تعالى (من أنفسكم) أى جنسكم بعد ايجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام (أزواجا) اناثا هن شفع لكم دلالة ظاهرة على حرمة التزوج من غير الجنس كالجن قال البقاعى والتعبير بالنفس أظهر فى كونها من بدن الرجل أى لخلق حواء من ضلع آدم (لتسكنوا) مائلين (اليها) بالشهوة والالفة من قولهم سكن اليه اذا مال وانقطع واطمأن اليه ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها قال ابن عادل والصحيح أن المراد من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله تعالى لتسكنوا اليها يعنى أن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر أى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه * ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم الا بدوام الالفة قال تعالى (وجعل) أى صير بسبب الخلق على هذه الصفة (بينكم مودة) أى معنى من المعانى يوجب أن لا يحب أحد من الزوجين أن يصل الى صاحبه شئ يكرهه (ورحمة) أى معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر فى جلب الخير ودفع الضر وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقوله تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) أى الذى تقدم من خلق الازواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع (لآيات) أى دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته (لقوم يتفكرون) أى يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون فى ذلك فيعلمون ما فى ذلك من الحكم ولما بين تعالى دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق بقوله تعالى (ومن آياته) أى الدالة على ذلك (خلق السموات) على علوها واحكامها (والارض) على اتساعها واتقانها وقدم السماء على الارض لان السماء كالذكر لها ولما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بقوله تعالى (واختلاف ألسنتكم) أى لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما ونغماتكم وهيآتها فلا تكاد تسمع منطقين متفقين فى همس ولا جهارة ولا شدة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة (و) اختلاف (ألوانكم) من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الالوان وأنتم بنو رجل واحد وهو آدم عليه السلام والحكمة فى ذلك أن الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر لخلق اختلاف الصور وقد يكون

بالسمع لخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع التميز بين كل واحد بشكله وحليته وصورته ولو اتفقت الصور والاصوات وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان فى الحلية فيعرض الخطأ فى التميز بينهما فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وتفرعوا من أصل فذوهم على الكثرة التى لا يعلمها الا الله تعالى مختلفون متفاوتون * ولما كان هذا مع كونه فى غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى الرتبة فى بيانه وظهور برهانه (لآيات) أى دلالات واضحات جدا على وحدانيته تعالى (للعالمين) أى ذوى العقول والعلم ولا يختص به صنف منهم دون صنف من جن ولا انس ولا غيرهم فهذا هو حكمة قوله تعالى هنا للعالمين وفيما تقدم بقوله تعالى لقوم يتفكرون وقرأ حفص وحده بكسر اللام * ولما ذكر تعالى بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة فى النهار طلبا للرزق كما قال تعالى (ومن آياته) الدالة على القدرة والعلم (منامكم) أى نومكم ومكانه وزمانه الذى يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعا (بالليل والنهار) قيلولة (وابتغاؤكم من فضله) أى منامكم فى الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما فان كثيرا ما يكسب الانسان بالليل أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار خلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين وهما الواوان اشعارا بان كلا من الزمانين وان اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ويؤيده آيات أخر كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وقوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله وأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفضل اشارة الى ان العبد ينبغى ان لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلوة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله وقوله تعالى وابتغوا من فضله * (تنبيه) * قدم الله تعالى المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الا محتاج فى الحال أو خائف من المآل (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العلى الرتبة من ايجاد النوم بعد النشاط والنشاط بعد النوم الذى هو الموت الاصغر وايجاد كل من الملوين بعد اعدامهما والجد فى الابتغاء بعد المفارقة فى التحصيل (لآيات) عديدة على القدرة والعلم لاسيما البعث (لقوم يسمعون) أى من الدعاة والنصاح سماع تفهم واستبصار فان الحكمة فيه ظاهرة * (تنبيه) * قال هنا آيات لقوم يسمعون وقال تعالى من قبل لقوم يتفكرون وقال تعالى للعالمين لان المنام بالليل والابتغاء يظن الجاهل أو الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله تعالى فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهما اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم

لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان لجعلهما آيات عليه وأما قوله تعالى لقوم يتفكرون فان من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفى فيه مجرد الفكرة ومنها ما يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج بعض الناس فى تفهمه الى أمثال حسية كالاشكال الهندسية لان خلق الازواج لا يقع لاحد انه بالطبع الا اذا كان جامد الفكرة فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد معين لفكره فقال لقوم يسمعون و يجعلون بالهم من كلام المرشد * ولما ذكر تعالى العرضيات اللازمة للانفس والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق بقوله تعالى (ومن آياته) الدالة على عظيم قدرته (يريكم البرق) أى اراءتكم له على هيئات وكيفيات طال ماشاهدتموها تارة تأتى عما يضر وتارة عما يسر كما قال تعالى (خوفا) أى للاخافة من الصواعق المحرقة (وطمعا) أى وللاطماع فى المياه العذبة (وينزل من السماء ماء) أى الذى لا يمكن لاحد غيره دعواه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (فيحيى به) أى بذلك الماء خاصة لان أكثر الارض لا يسقى بغيره (الارض) أى بالنبات الذى هو لها كالروح لجسد الانسان (بعد موتها) أى يبسها (ان فى ذلك) أى الامر العظيم العالى القدر (لآيات) لاسيما على القدرة على البعث (لقوم يعقلون) أى يتدبرون فيستعملون عقولهم فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع * (تنبيه) * كما قدم السماء على الارض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الارض وهو الانبات والاحياء وكما أن فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى تقديم الرعد والبرق على المطر منفعة وهى أن البرق اذا لاح فالذى لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذى له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء وأيضا أهل البوادى لا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم ان دلائل البرق وفوائده وان لم تظهر للمقيمين فى البلاد فهى ظاهرة للبادين فلهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا آيات لقوم يعقلون وفيما تقدم لقوم يتفكرون (أجيب) بأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقوى الى الطبيعة من المختلف والبرق والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف بل يختلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة يكون قويا وتارة يكون ضعيفا فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن كان له عقل وان لم يتفكر تفكرا تاما * ثم ذكر تعالى من لوازم السماء والارض قيامهما بقوله تعالى (ومن آياته) أى على تمام القدرة وكمال الحكمة (أن تقوم السماء والارض بأمره) قال ابن مسعود قامتا على غير عمد بأمره أى بارادته فان الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء فى علوها يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان

الارض لاتخرج عن مكانها الذى هى فيه وانما أفرد السماء والارض لان السماء الاولى والارض الاولى لاتقبل النزاع لانها مشاهدة مع صلاحية اللفظ بالكل لانه جنس *(تنبيه)* ذكر تعالى من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله تعالى خلقكم وخلق لكم واستدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض فقال تعالى خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارض الآفاق البرق والامطار ومن لوازمهما قيام السماء والارض لان الواحد يكفى للاقرار بالحق والثانى يفيد الاستقرار ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبى (فان قيل) ما الفائدة فى قوله تعالى هنا ومن آياته أن تقوم وقال تعالى قبله ومن آياته يريكم البرق ولم يقل أن يريكم ليصير كالمصدر بأن (أجيب) بأن القيام لما كان غير معتبر أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل ولم يذكر معه الحروف المصدرية (فان قيل) ما الحكمة فى أنه تعالى ذكر ست دلائل وذكر فى أربع منها ان فى ذلك لآيات ولم يذكر فى الاول وهو قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا فى الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض (أجيب) عن ذلك أما عن الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما تقدم من أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير والتوكيد فلما قال فى الثانية ان فى ذلك لآيات كان عائدا اليهما وأما فى قيام السماء والارض فلانه ذكر فى الآيات السماوية أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون وذلك لظهورها فلما كان فى أول الامر ظاهرا ففى آخر الامر بعد سرد الادلة يكون أظهر فلم يميز أحدا فى ذلك عن الآخر * ثم انه تعالى لما ذكر الدليل على القدرة والتوحيد ذكر مدلوله وهو قدرته على الاعادة بقوله تعالى (ثم اذا دعاكم) وأشار الى هوان ذلك القول عنده بقوله عز وجل (دعوة) أى واحدة (من الارض) بأن ينفخ اسرافيل فى الصور للبعث من القبور فيها فيقول أيها الموتى اخرجوا (اذا أنتم تخرجون) أى منها أحياء بعد اضمحلالكم بالموت والبلا فلا تبقى نسمة من الاولين والآخرين الا قامت تنظر كما قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون (فان قيل) بم يتعلق من الارض بالفعل أم بالمصدر (أجيب) بهيهات اذا جاء نهر الله وهو الفعل بطل نهر معقل وهو المصدر وثم اما التراخى زمانه أو لعظم مافيه (فان قيل) ما الفرق بين اذا واذا (أجيب) بأن الاولى للشرط والثانية للمفاجأة وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط ولذلك نابت مناب الفاء فى جواب الاولى *(تنبيه)* قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال تعالى فى خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون لان هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما فى الاعادة فلا يكون تدريج وتراخ بل يكون بدأ خروج فلم يقل ههنا ثم * ولما ذكر تعالى الآيات التى تدل على القدرة على الحشر الذى هو الاصل الآخر والوحدانية التى هى الاصل الاول أشار اليهما بقوله تعالى (وله من فى السموات والارض) ملكا وخلقا (كل له قانتون) قال ابن عباس كل له

مطيعون فى الحياة والفناء والموت والبعث وان عصوا فى العبادة وقال الكلبى هذا خاص بمن كان منهم مطيعا ونفس السموات والارضين له وملكه فكل له منقادون فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر بقوله تعالى (وهو الذى يبدؤ الخلق) أى على سبيل التجديد كما تشاهدون * وأشار الى تعظيم الاعادة باداة التراخى فقال (ثم يعيده) أى بعد الموت للبعث وفى قوله تعالى (وهو أهون عليه) قولان أحدهما أنها للتفضيل على بابها وعلى هذا يقال كيف يتصور التفضيل والاعادة والبداءة بالنسبة الى الله تعالى على حد سواء وفى ذلك أجوبة أحدها أن ذلك بالنسبة الى اعتقاد البشر باعتبار المشاهدة من أن اعادة الشئ أهون من اختراعه لاحتياج الابتداء الى اعمال فكر غالبا وان كان هذا منتفيا عن البارى سبحانه وتعالى فخوطبوا بحسب ما ألفوه ثانيها أن الضمير فى عليه ليس عائدا على الله تعالى انما يعود على الخلق أى والعود أهون على الخلق أى أسرع لان البداءة فيها تدريج من طور الى طور الى أن صارت انسانا والاعادة لا تحتاج الى هذه التدريجات فكأنه قيل وهو أقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا والمعنى يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم يعنى أن يقوموا نطفا ثم علقا ثم مضغا الى أن يصيروا رجالا ونساء وهى رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ثالثها أن الضمير فى عليه يعود على المخلوق بمعنى والاعادة أهون على المخلوق أى اعادته شيأ بعدما أنشأه هذا فى عرف المخلوقين فكيف ينكرون ذلك فى جانب الله تعالى والثانى أن أهون ليس للتفضيل بل هى صيغة بمعنى هين كقولهم الله أكبر أى كبير وهى رواية العوفى عن ابن عباس وقد يجئ أفعل بمعنى الفاعل كقول الفرزدق

ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

أى عزيزة طويلة وعود الضمير على البارى تعالى أولى ليوافق الضمير فى قوله تعالى (وله المثل) أى الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة الشاملة قال ابن عباس هو أنه ليس كمثله شئ وقال قتادة هو أنه لا اله الا هو قال البيضاوى ومن فسره بلا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية (الاعلى) أى الذى ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه * ولما كان الخلق لقصورهم مقيدين بما لهم به نوع مشاهدة قال (فى السموات والارض) اى اللتين خلقهما ولم يستعصيا عليه فكيف يستعصى عليه شئ فيهما (وهو) أى وحده (العزيز) أى الذى اذا أراد شيأ كان له فى غاية الانقياد كائنا ما كان (الحكيم) أى الذى اذا أراد شيأ أتقنه فلم يقدر غيره الى التوصل الى بعض شئ منه ولا تتم حكمة هذا الكون على هذه الصورة الا بالبعث بل هى الحكمة العظمى ليصل كل ذى حق الى حقه بأقصى التحرير * ولما أبان من هذا أنه تعالى المنفرد بالملك بشمول العلم وتمام القدرة وكمال الحكمة اتصل بحسن أمثاله واحكام مقاله وفعاله قوله تعالى (ضرب) أى جعل (لكم) بحكمته أيها المشركون فى أمر الاصنام وبيان الابطال من بشر لتبها وفساد قوله بأجلى ما يكون من التقرير (مثلا) مبتدأ (من أنفسكم) التى هى أقرب الاشياء اليكم ثم بين المثل بقوله تعالى (هل لكم) أى يا من عبدوا مع

الله غيره (مما) أى من بعض ما (ملكت أيمانكم) أى من العبيد والاماء الذين هم بشر مثلكم وعمم فى النفى الذى هو المراد بالاستفهام بزيادة الجار بقوله تعالى (من شركاء) اى فى حالة من الحالات يسوغ لكم بذلك أن تجعلوا لله شركاء (فى ما رزقناكم) من الاموال وغيرها مع ضعف ملككم فيه * (فائدة) * فى مقطوعة عن ما (فأنتم) أى يا معاشر الاحرار والعبيد (فيه) أى الشئ الذى وقعت فيه الشركة (سواء) فيكون أنتم وهم شركاء يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم (فان قيل) أى فرق بين من الاولى والثانية والثالثة فى قوله تعالى من أنفسكم (أجيب) بأن الاولى للابتداء كأنه قال أخذ مثلا وانتزعه من أقرب شئ منكم وهى من أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى ثم بين المساواة بقوله تعالى (تخافونهم) أى معاشر السادة فى التصرف فى ذلك الشئ المشترك (كخيفتكم أنفسكم) أى كما تخافون بعض من تشاركونه ممن يساويكم فى الحرية والعظمة أن تتصرفوا فى الامر المشترك بشئ لا يرضيه وبدون اذنه وظهر أن حالكم فى عبيدكم مثل له فيما أشركتموهم به موضح لبطلانه فاذا لم ترضوا هذا لانفسكم وهو أن تستوى عبيدكم معكم فى الملك فكيف ترضونه لخالقكم فى هذه الشركاء التى زعمتموها فسوقا ونهاية وهى من أضعف خلقه أفلا تستحيون (كذلك) أى مثل هذا التفصيل العالى (نفصل الآيات) أى نبينها فان التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها (لقوم يعقلون) أى يتدبرون هذه الدلائل بعقولهم والامر لا يخفى بعد ذلك الاعلى من لا عقل له (بل اتبع الذين ظلموا) أى أشركوا فانهم وضعوا الشئ فى غير موضعه فعل الماشى فى الظلام (أهواءهم) وهى ما تميل اليه نفوسهم (بغير علم) أى جاهلين لا يكفهم شئ فان العالم اذا اتبع هواه ربما ردعه علمه * ثم بين تعالى ان ذلك بارادته بقوله تعالى (فمن يهدى من أضل الله) أى الذى له الامر كله أى لا يقدر أحد على هدايته (وما لهم من ناصرين) أى مانعين يمنعونهم من عذاب الله لا من الاصنام ولا من غيرها * ولما تحررت الادلة وانتصبت الاعلام أقبل تعالى على خلاصة خلقه ايذانا بأنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره بقوله سبحانه (فأقم وجهك) أى قصدك كله (للدين) أى أخلص دينك لله قاله سعيد ابن جبير وقال غيره سدد عملك والوجه ما يتوجه اليه وقيل أقبل بكلك على الدين عبر بالوجه عن الذات كقوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه أى ذاته بصفاته وقوله تعالى (حنيفا) حال من فاعل أقم أو مفعوله أو من الدين ومعنى حنيفا أى مائلا اليه مستقيما عليه ومل عن كل شئ لا يكون فى قلبك شئ آخر وهذا قريب من معنى قوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقوله تعالى (فطرت الله) أى خلقته منصوب على الاغراء أو المصدر بما دل عليه ما بعدها وهى بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء ثم أكد ذلك بقوله تعالى (التى فطر الناس) قال ابن عباس خلق الناس (عليها) وهو دينه وهو التوحيد قال صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا وهو يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فقوله على الفطرة على العهد الذى أخذه عليهم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى وكل مولود فى العالم

على ذلك الاقرار وهي الحنيفية التي وقعت الخلقة عليها وان عبد غيره قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ولكن لاعبرة بالايمان الفطرى فى أحكام الدنيا وانما يعتبر الايمان الشرعى المأمور به وهذا قول ابن عباس وجماعة من المفسرين وقيل الآية مخصوصة بالمؤمنين وهم الذين فطرهم الله تعالى على الاسلام روى عن عبد الله بن المبارك قال معنى الحديث أن كل مولود يولد على فطرته أى على خلقته التى جبل عليها فى علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر فى العاقبة الى مافطر عليه وعامل فى الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن علامات الشقاء أن يولد بين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه لشقائه على اعتقاده دينهما وقيل معنى الحديث أن كل مولود يولد فى مبدا الفطرة على الخلقة أى الجبلة السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لان هذا الدين موجود حسنه فى العقول وانما يعدل عنه من يعدل الى غيره لآفة من الفشو والتقليد فمن يسلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ذكر هذه المعانى أبو سليمان الخطابى فى كتابه * ولما كانت سلامة الفطرة أمرا مستمرا قال تعالى (لاتبديل لخلق الله) أى الملك الاعلى الذى لاكفء له فلا يقدر أحد أن يغيره فمن حمل الفطرة على الدين قال معناه لاتبديل لدين الله فهو خبر بمعنى النهى أى لاتبدلوا دين الله قاله مجاهد وابراهيم والمعنى الزموا فطرة الله أى دين الله واتبعوه ولاتبدلوا التوحيد بالشرك ومن حملها على الخلقة قال معناه لاتبديل لخلق الله أى ماجبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقى سعيدا وقال عكرمة معناه تحريم اخصاء البهائم أى فى غير المأكول وفى المأكول الكبير أما المأكول الصغير فانه يجوز ويلحق بالخصى المحرم كل تغيير محرم كالوشم (ذلك) أى الشأن العظيم (الدين القيم) أى المستقيم الذى لاعوج فيه توحيد الله تعالى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم لعدم تدبرهم وقوله تعالى (منيبين) أى راجعين (اليه) تعالى فيما أمر به ونهى عنه حال من فاعل أقم قال الزمخشرى فان قلت لم وحد الخطاب أولا ثم جمع قلت خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا وخطاب الرسول خطاب لامته مع مافيه من التعظيم للامام ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص (واتقوه) أى خافوه فانكم وان عبدتموه فلا تأمنوا أن تزيغوا عن سبيله (وأقيموا الصلوة) أى داوموا عليها وعلى أدائها فى أوقاتها (ولاتكونوا من المشركين) أى لاتكونوا ممن يدخل فى عدادهم بموادة أو معاشرة أو عمل تشابهونهم فيه فانه من تشبه بقوم فهو منهم وهو عام فى كل مشرك سواء كان بعبادة صنم أو نار أو غير ذلك وقوله تعالى (من الذين) بدل من المشركين باعادة الجار (فرقوا دينهم) أى الذى هو الفطرة الاولى فعبد كل قوم منهم شيأ ودانوا دينا غير دين من سواهم وهو معنى (وكانوا شيعا) أى فرقا متخالفين كل واحدة منهم تشايع من دان بدينها على من خالفهم حتى كفر بعضهم بعضا واستباحوا الدماء والاموال فعلم قطعا أنهم كلهم ليسوا على الحق وقرأ حمزة والكسائى بألف بعد الفاء وتخفيف الراء والباقون بغير ألف وتشديد

الراء فعلى القراءة الاولى فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به * ولما كان هذا أمرا يتعجب
من وقوعه زاده عجبا بقوله تعالى استئنافا (كل حزب) أى منهم (بما لديهم) أى عندهم
(فرحون) أى مسرورون ظنا منهم أنهم صادفوا الحق وفازوا به دون غيرهم * ولما بين تعالى
التوحيد بالدليل وبالمثل بين أن لهم حالة يعترفون بها وان كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة
الشدة بقوله تعالى (واذا مس الناس ضر) أى قحط وشدة (دعوا ربهم) أى الذى لم يشركه
فى الاحسان اليهم أحد (منيبين) أى راجعين من جميع ضلالاتهم (اليه) أى دون غيره علما منهم
بأنه لا فرج لهم عند شئ غيره قال الرازى فى اللوامع فى أواخر العنكبوت وهذا دليل على أن
معرفة الرب فى فطرة كل انسان وأنهم ان غفلوا فى السراء فلا شك انهم يلوذون اليه فى حال
الضراء (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) أى خلاصا من ذلك الضر (اذا فريق منهم بربهم) أى
المحسن اليهم دائما المجدد لهم هذا الاحسان من هذا الضر (يشركون) أى فاجأ فريق
منهم الاشراك بربهم الذى عافاهم فاذا الفجائية وقعت جواب الشرط لانها كالفاء فى أنها
للتعقيب ولا تقع أول كلام وقد تجامعها الفاء زائدة (فان قيل) ما الحكمة فى قوله ههنا اذا
فريق منهم وقال فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل فريق (أجيب)
بأن المذكور هناك غير معين وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل
والذى لا يشرك منهم بعد الخلاص فرقة منهم فهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا قلة من
خرج من الشرك وأما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البحر والامراض والاهوال
والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس قد يكونون قد وقعوا فى ضر ما فتخلصوا
منه والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهم خلق عظيم وهو جميع
المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر
بأجمعهم فلما كان الناجى من الضر المؤمن جمعا كثيرا سمى الباقى فريقا وقوله تعالى (ليكفروا
بما آتيناهم) يجوز أن تكون اللام فيه لام كى وان تكون لام الامر ومعناه التهديد كقوله
تعالى اعملوا ما شئتم ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد بقوله تعالى (فتمتعوا فسوف
تعلمون) عاقبة تمتعكم فى الآخرة وفى هذا التفات من الغيبة (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أى دليلا
واضحا قاهرا أو ذا سلطان أى ملك معه برهان فقوله تعالى (فهو يتكلم) على الاول كلاما
مجازيا وعلى الثانى كلاما حقيقيا وعلى كلا الحالين هو جواب للاستفهام الذى تضمنته أم
المنقطعة (بما) أى بصحة ما (كانوا به يشركون) أى فيأمرهم بالاشراك بحيث لا يجدوا بدا
من متابعته لتزول عنهم الملامة وهذا الاستفهام بمعنى الانكار أى ما أنزلنا بما يقولون سلطانا
قال ابن عباس حجة وعذرا وقال قتادة كتابا يتكلم بما كانوا به يشركون أى ينطق
بشركهم * ولما بين تعالى حال المشرك الظاهر شركه بين تعالى حال المشرك الذى دونه وهو من
تكون عبادته للدنيا بقوله تعالى (واذا) معبرا بأداة التحقيق اشارة الى أن الرحمة أكثر
من النقمة وأسند الفعل اليه فى مقام العظمة اشارة الى سعة جوده فقال (أذقنا الناس رحمة)

أى نعمة من خصب وكثرة مطر وغنى ونحوه لاسبب لها الا رحمتنا (فرحوا بها) أى فرح بطر مطمئنين من زوالها ناسين شكر من أنعم بها ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك (فان قيل) الفرح بالرحمة مأمور به قال تعالى بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة (أجيب) بأنه هنالك فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم اذا كان من الله تعالى (وان تصبهم سيئة) أى شدة من جدب وقلة مطر وفقر ونحوه (بما قدمت أيديهم) من السيآت (اذا هم يقنطون) أى ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمنين فانهم يشكرونه عند النعمة ويرجونه عند الشدة وقرأ أبو عمرو والكسائى بكسر النون بعد القاف والباقون بالفتح (أولم يروا) أى يعلموا (أن الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أى يضيق لمن يشاء ابتلاء وهذا شأنه دائما مع الشخص الواحد فى أوقات متعاقبة متباعدة ومتقاربة ومع الاشخاص ولو فى الوقت الواحد فلو اعتبروا حال قبضه سبحانه لم يبطروا ولو اعتبروا حال بسطه لم يقنطوا بل كان حالهم الصبر فى البلاء والشكر فى الرخاء والاقلاع عن السيئة التى نزل بسببها القضاء * ولما لم تغن عن أحد منهم فى استجلاب الرزق قوته وغزارة عقله ودقة مكره وكثرة حيله ولا ضره ضعفه وقلة عقله وعجز حيلته وكان ذلك أمرا عظيما ومنزعا مع شدة ظهوره وجلالته خفيا دقيقا قال بعضهم

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه * وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

أشار سبحانه الى عظمته بقوله مؤكدا لان عملهم فى شدة اهتمامهم بالسعى فى الدنيا عمل من يظن أن تحصيله انما هو على قدر الاجتهاد فى الاسباب (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من الاقتار فى وقت والاغناء فى آخر والتوسيع على شخص والتقتير على آخر والامن من زوال الحاضر من النعم مع تكرر المشاهدة للزوال فى النفس والغير واليأس من حصولها عند المحنة مع كثرة وجدان الفرج وغير ذلك من أسرار آلائه (لآيات) أى دلالات واضحات على الوحدانية لله تعالى وتمام العلم وكمال القدرة وانه لا فاعل فى الحقيقة الا هو لكن (لقوم) اى ذوى همم وكفاية القيام بما يحق لهم أن يقوموا به (يؤمنون) أى يوجدون هذا الوصف ويديمون تجديده كل وقت لما يتواصل عندهم من قيام الادلة بادامة التأمل والامعان والتذكر والاعتماد فى الرزق على من قال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر أى من طالب علم فيعان عليه فلا يفرحون بالنعم اذا حصلت خوفا من زوالها اذا أراد القادر ذلك ولا يغتمون بها اذا زالت رجاء فى اقبالها فضلا من الرازق لان أفضل العبادة انتظار الفرج بل هممهم بما عليهم من وظائف العبادة واجبها ومندوبها وعرضون عما سوى ذلك قد وكلوا أمر الرزق الى من تولى أمره وفرغ من قسمه وقام بضمانه وهو القدير العليم * ولما أفهم ذلك عدم الاكتراث بالدنيا لان الاكتراث بها لا يزيدها والتهاون بها لا ينقصها قال تعالى مخاطبا الاعظم المتأهلين لتنفيذ أوامره (فآت) يا خير الخلق (ذا القربى) أى القرابة (حقه) أى من البر والصلة

لانه أحق الناس بالبر صلة الرحم جودا وكرما (والمسكين) سواء كان ذا قرابة أم لا (وابن السبيل) وهو المسافر كذلك من الصدقة وأمة النبي صلى الله عليه وسلم تبع له في ذلك * (تنبيه) * عدم ذكر بقية الاصناف يدل على أن ذلك في صدقة التطوع ودخل الفقير من باب أولى لانه أسوأ حالا من المسكين (فان قيل) كيف تعلق قوله تعالى فآت ذا القربى حقه بما قبله حتى جيء بالفاء (أجيب) بأنه لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك وقد احتج أبو حنيفة بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم اذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رضي الله عنه لا نفقة بالقرابة الا على الولد والوالدين قاس سائر القرابة على ابن العم لانه لا ولادة بينهم * ولما أمر بالايثار رغب فيه بقوله تعالى (ذلك) أي الايثار العالي الرتبة (خير للذين يريدون وجه الله) أي ذاته أو جهته وجانبه أي يقصدون بمعروفهم اياه خالصا لوجهه كقوله تعالى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى أي يقصدون جهة التقرب الى الله تعالى لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة (وأولئك) أي العالو الرتبة لغناهم عن كل فان (هم المفلحون) أي الفائزون الذين لا يشوب فلاحهم شيء وأما غيرهم فخائب أما من لم ينفق فواضح وأما من أنفق على وجه الرياء فقد خسر ماله وأبقى عليه وباله كما قال تعالى (وما آتيتم من ربوا) اى مال على وجه الربا المحرم بزيادة في المعاملة أو المكروه بعطية يتوقع بها مزيد مكافأة وكان هذا مما حرم على النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ولا تمنن تستكثر أي لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيته تشريفا له وكره لعامة الناس فسمي باسم المطلوب من الزيادة في المعاملة فالربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه أو يجر منفعة والذي ليس بحرام أن يستدعي بهديته أو بهبته أكثر منها وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة بمعنى ما جئتم به من اعطاء ربا والباقون بمدها (ليربو) أي يزيد ويكثر ذلك (في أموال الناس) أي يحصل فيه زيادة تكون أموال الناس ظرفا لها فهو كناية عن أن الزيادة التي يأخذها المرابي من أموالهم لا يملكها أصلا وقرأ نافع بتاء الخطاب بعد اللام مضمومة وسكون الواو والباقون بالياء التحتية مفتوحة وفتح الواو (فلا يربو) أي يزكو وينمو فلا ثواب فيه (عند الله) أي الملك الاعلى الذي له الغنى المطلق وصفات الكمال وكل ما لا يربو عند الله فهو ممحوق لا وجود له فآله الى فناء وان كثر يمحق الله الربوا ويربي الصدقات * ولما ذكر ما زيادته نقص أتبعه ما نقصه زيادة بقوله (وما آتيتم) أي أعطيتم (من زكاة) أي صدقة وعبر عنها بذلك ليفيد الطهارة والزيادة أي تطهرون بها أموالكم من الشبه وأبدانكم من مواد الخبث وأخلاقكم من الغل والدنس * ولما كان الاخلاص عزيزا أشار الى عظمته بتكريره بقوله عز وجل (تريدون) أي بها (وجه الله) أي عظمة الملك الاعلى فيعرفون من حقه ما يتلاشى عندهم كل ما سواه فيخلصون له (فأولئك هم المضعفون) أي ذوو الاضعاف الذين ضاعفوا أموالهم في الدنيا بسبب ذلك بالحفظ والبركة وفي الآخرة بكثرة الثواب عند الله من عشر أمثال الى ما لا حصر له ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار * ولما وضح بهذا أنه لا زيادة الا فيما يزيده الله ولا تخير الا فيما يختاره

الله بين تعالى ذلك بطريق لا أوضح منه بقوله تعالى (الله) أى بعظيم جلاله لا غيره (الذى خلقكم) أى أوجدكم على ما أنتم عليه من التقدير لا تملكون شيأ (ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم) أى ممن أشركتم بالله (من يفعل من ذلكم) مشيرا الى علو رتبته بأداة البعد وخطاب الكل * ولما كان الاستفهام الانكارى التوبيخى فى معنى النفى قال مؤكدا له مستغرقا الكل ما يمكن منه ولو قل جدا (من شئ) أى يستحق هذا الوصف الذى تطلقونه عليه * ولما ألزمهم قطعا أن يقولوا لا وعزتك ما لهم ولا لاحد منهم فعل شئ من ذلك قال تعالى معرضا عنهم منزها لنفسه الشريفة (سبحانه) أى تنزه تنزها لا يحيط به الوصف من أن يكون محتاجا الى شريك (وتعالى) أى علوا لا تصل اليه العقول (عما يشركون) فى أن يفعلوا شيأ من ذلك * (تنبيه) * يجوز فى خبر الجلالة الكريمة وجهان أظهرهما أنه الموصول بعدها والثانى أنه الجملة من قوله تعالى هل من شركائكم والموصول صفة والراجع من ذلكم لانه بمعنى من أفعاله ومن الاولى والثانية يفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم النفى فكل منهما مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء وقرأ حمزة والكسائى بتاء الخطاب والباقون بالياء التحتية * ولما بين لهم تعالى من حقارة شركائهم ما كان حقهم به أن يرجعوا فلم يفعلوا أتبعه ما أصابهم به على غير ما كان فى أسلافهم عقوبة لهم على قبيح ما ارتكبوا استعظاما للتوبة بقوله تعالى (ظهر الفساد) أى النقص فى جميع ما ينفع الخلق (فى البر) بالقحط والخوف وقلة المطر ونحو ذلك (والبحر) بالغرق وقلة الفوائد من الصيد ونحوه من كل ما كان يحصل منه وقلة المطر كما تؤثر فى البر تؤثر فى البحر فتخلو أجواف الاصداف من اللؤلؤ وذلك لان الصدف اذا جاء المطر ترتفع على وجه الماء وينفتح فما وقع فيه من المطر صار لؤلؤا وقالوا اذا انقطع القطر عميت دواب البحر وقيل المراد بالبر البوادى والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التى على المياه الجارية قال عكرمة العرب تسمى المطر بحرا تقول أجدب البر وانقطعت مادة البحر * ثم بين سببه بقوله تعالى (بما كسبت أيدى الناس) أى بسبب شؤم ذنوبهم ومعاصيهم كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم قال ابن عباس الفساد فى البر قتل أحد ابنى آدم أخاه وفى البحر غصب الملك الجبار السفينة قال الضحاك كانت الارض خضرة مونقة لا يأتى ابن آدم شجرة الا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان لا يقصد الاسد البقر والغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الارض وشاكت الاشجار وصار ماء البحر ملحا زعاقا وقصد الحيوانات بعضها بعضا وقال قتادة هذا قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم امتلأت الارض ظلما فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة * ولما ذكر تعالى علية البدائية ثنى بعلية الجزائية بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) كرما وحلما ويعفو عن كثير اما أصلا ورأسا واما عن المعاجلة به ويؤخره الى وقت ما فى الدنيا أو الآخرة وقرأ قنبل بالنون بعد اللام والباقون بالياء التحتية ثم ثلث بالعلة الغائية بقوله تعالى (لعلهم يرجعون) أى عما هم عليه * ولما بين تعالى حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب

فساد

فساد أقوالهم بين لهم ضلال أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم بقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الذين لا همّ لهم سوى الدنيا (سيروا فى الارض) فان سيركم الماضى لكونه لم تصحبه عبرة عدم (فانظروا) نظر اعتبار (كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى من قبل أيامكم لتروا منازلهم ومساكنهم خالية فتعلموا أن الله تعالى أذاقهم وبال أمرهم وأوقعهم فى حفائر مكرهم (كان أكثرهم مشركين) أى فلذلك أهلكناهم ولم تغن عنهم كثرتهم وأنجينا المؤمنين وما ضرتهم قلتهم * ولما نهى الله تعالى الكفار عما هم عليه أمر المؤمنين بما هم عليه وخاطب النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء بقوله تعالى (فأقم وجهك للدين القيم) أى المستقيم وهو دين الاسلام (من قبل ان يأتى يوم) أى عظيم (لا مرد له) أى لا يقدر أن يرده أحد وقوله تعالى (من الله) يجوز ان يتعلق بيأتى أو بمحذوف يدل عليه المصدر أى لا يرده من الله أحد والمراد به يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الله وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ) أى اذ يأتى (يصدعون) أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير ثم أشار الى التفرق بقوله تعالى (من كفر) أى منهم (فعليه كفره) أى وبال كفره (ومن عمل صالحا) أى بالايمان وما يترتب عليه (فلانفسهم يمهدون) أى يوطئون منازلهم فى القبور وفى الجنة بل وفى الدنيا فان الله تعالى يعزهم بعز طاعته *(تنبيه)* أظهر قوله تعالى صالحا ولم يضمر لئلا يتوهم عود الضمير على من كفر وبشارة بان أهل الجنة كثير وان كانوا اقليلا لان الله تعالى هو مولاهم فهو من كيهم وأفرد الشرط وجمع الجزاء فى قوله تعالى فلانفسهم يمهدون اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته وفيه ترغيب فى العمل من غير نظر الى مساعد وبأنه ينفع نفسه وغيره لان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وأقل ما ينفع والديه وشيخه فى ذلك العمل وقوله تعالى (ليجزى) أى الله سبحانه وتعالى الذى أنزل هذه السورة لبيان انه ينصر أولياءه لاحسانه لانه مع المحسنين ولذلك اقتصر هنا على ذكرهم بقوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى تصديقا لايمانهم (من فضله) علة ليمهدون أو ليصدعون والاقتصار على جزاء الموصوفين للاشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء عن فحوى قوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان فيه اثبات البغض لهم فيعذبهم والمحبة للمؤمنين فيثيبهم وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم الى التصريح بهم تعليل لهم وقوله تعالى من فضله دال على أن الاثابة بمحض الفضل * ولما ذكر تعالى ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضداده سببا لئلا يتوهم به الظلم قال تعالى (ومن آياته) أى دلالاته الواضحة (أن يرسل الرياح مبشرات) أى بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدى رحمته أى قبل المطر وقيل مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى الريح بالافراد على ارادة الجنس والباقون بالجمع وهى الجنوب والشمال والصبا لانها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم

اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقوله تعالى (وليذيقكم) أى بها (من رحمته) أى من نعمته من المياه العذبة والاشجار الرطبة وصحة الابدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها الا خالقها معطوف على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم وليذيقكم أو على علة محذوفة دل عليها مبشرات أو على يرسل باضمار فعل معلل دل عليه أى وليذيقكم أرسلها (ولتجرى الفلك) أى السفن فى جميع البحار وما جرى مجراها عند هبوب بها وانما زاد (بأمره) لان الريح قد تهب ولا تكون موافقة فلا بد من ارساء السفن والاحتيال لحبسها وربما عصفت وأغرقتها (ولتبتغوا) أى تطلبوا (من فضله) من رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم) أى ولتكونوا اذا فعل بكم ذلك على رجاء من أنكم (تشكرون) على ما أنعم عليكم من نعمه ودفع عنكم من نقمه * (تنبيه) * قال تعالى فى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطبهم ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين وحينئذ فالمحسن قريب فيخاطب والمسئ بعيد فلم يخاطب وقال هناك بعض الذى عملوا فأضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته فقال تعالى من رحمته لان الكريم لا يذكر لرحمته واحسانه عوضا فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى وأيضا فلو قال أرسلت لسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة وأيضا فلو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما النقصان ثوابهم فى الآخرة وأما فى حق الكفار فاذا قال بما فعلتم أنبأ عن نقصان عقابهم وهو كذلك وقال هنالك لعلهم يرجعون وقال هنا ولعلكم تشكرون فالوا واشارة الى توفيقهم للشكر فى النعم وعطف على النعم قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما لنا من القوة وقال تعالى (من قبلك رسلا) تنبيها على أنه خاتم النبيين بتخصيص ارسال غيره بما قبل زمانه وقال (الى قومهم) اعلاما بأن أمر الله اذا جاء لا ينفع فيه قريب ولا بعيد (فجاؤهم بالبينات) فانقسم قومهم الى مسلمين ومجرمين (فانتقمنا) أى فكانت معاداة المسلمين للمجرمين فينا سببا لانا انتقمنا بما لنا من العظمة (من الذين أجرموا) أى أهلكنا الذين كذبوهم لاجرامهم وهو قطع ما أمرناهم بوصله * ولما كان محط الفائدة الزامه سبحانه لنفسه بما تفضل به قدمه تعجيلا للسرور وتطييبا للنفوس فقال تعالى (وكان) أى على سبيل الثبات والدوام (حقا علينا) أى مما أوجبناه بوعدنا الذى لا خلف فيه (نصر المؤمنين) أى العريقين فى ذلك الوصف فى الدنيا والآخرة ولم يزل هذا دأبنا فى كل ملة على مدى الدهر فليعتد هؤلاء لمثل هذا وليأخذوا المثل ذلك أهبة لينظروا من المغلوب وهل ينفعهم شئ روى الترمذى وحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا قوله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين قال البقاعى فالآية من الاحتباك أى وهو ان يؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شئ يكون نظمهما بحيث يدل ما أثبت فى كل على ما حذف من الآخر فحذف أولا الاهلاك الذى هو أثر الخذلان لدلالة النصر عليه وثانيا الانعام لدلالة الانتقام عليه * ثم نبه تعالى على كمال قدرته فهو

الناصر للمؤمنين بقوله تعالى (الله) أي وحده (الذي يرسل) مرة بعد أخرى (الرياح) مضطربة هائجة بعد ان كانت ساكنة (فتثير سحابا) أي تزعجه وتنشره (فيبسطه) بعد اجتماعه (في السماء) أي جهة العلو (كيف يشاء) في أي ناحية شاء قليلا تارة كثيرا ساعة وكثيرا أخرى كثيرا أيام على حسب ارادته واختياره لا مدخل فيه لطبيعة ولا غيرها (ويجعله) اذا أراد (كسفا) أي قطعا غير متصل بعضها ببعض اتصالا يمنع نزول الماء وقرأ ابن عامر بسكون السين بخلاف عن هشام والباقون بفتحها (فترى) بسبب ارسال الله له أو بسبب جعله ذا مسام وفروج يا من هو من أهل الرؤية أو يا أشرف خلقنا الذي لا يعرف هذا حق معرفته سواه (الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي السحاب الذي هو اسم جنس في حالتي الاتصال والانفصال (فاذا أصاب) أي الله (به) أي بالودق (من) أي أرض من (يشاء) ونبه على ان ذلك فضل منه لا يجب عليه لاحد شيء أصلا بقوله تعالى (من عباده) أي الذين لم تزل عبدته واجبة عليهم جديرون بملازمة شكره والخضوع لامره (اذا هم يستبشرون) أي يظهر عليهم البشر وهو السرور الذي تشرق له البشرة حال الاصابة ظهورا بالغا عظيما بما يرجونه مما يحدث عنه من الاثر النافع من الخصب والرطوبة واللين ثم بين تعالى عجزهم بقوله تعالى (وان) اى والحال أنهم (كانوا) في الزمن الماضي (من قبل ان ينزل عليهم) أي المطر وقرأ أبو عمرو وابن كثير بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي وقوله تعالى (من قبله) من باب التكرير والتأكيد كقوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ومعنى التوكيد فيه الدلالة على ان عهدهم بالمطر قد تطاول بعد ما استحكم يأسهم وقوله تعالى (لمبلسين) اشارة الى انه تمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم بذلك وقيل الاولى ترجع الى المطر والثانية الى انشاء السحاب فلا تأكيد (فانظر الى أثر رحمت الله) والرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بألف بعد الثاء المثلثة والباقون بغير ألف ورسمت رحمت هذه مجرورة فوقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء (كيف يحيي) أي الله (الارض) باخراج النبات (بعد موتها) أي يبسها (ان ذلك) أي القادر العظيم الشان الذي قدر على احياء الارض (لمحيي الموتى) كلها من الحيوانات والنباتات أي مازال قادرا على ذلك كما قال تعالى (وهو على كل شيء) من ذلك وغيره (قدير) لان نسبة القدرة منه سبحانه وتعالى الى كل ممكن على حد سواء * ولما بين أنهم عند توقف الاثر يكونون آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بقوله تعالى (ولئن أرسلنا) أي بعد وجود هذا الاثر الحسن (ريحا) عقيما (فرأوه) أي الاثر لان الرحمة هي الغيث وأثرها هو النبات أو الزرع لدلالة السياق عليه (مصفرا) قد بدل وأخذ في التلف من شدة يبس الريح اما بالحر أو البرد وقيل رأوا السحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ويجوز أن يكون الضمير للريح من التعبير بالسبب عن المسبب * (تنبيه) * اللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وقوله تعالى (لظلوا) أي اصاروا (من بعده) أي اصفراره

(يكفرون) أى يأسهم من روح الله جواب سد مسد الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال *(تنبيه)* سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه أحدها أن النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها لان فى كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة فى أعوام بل الضارة لا تهب فى الدهور ثانيها أن النافعة لا تكون الارياحا وأما الضارة فنفخة واحدة تقتل كريح السموم ثالثها جاء فى الحديث أن ريحا هبت فقال عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا اشارة الى قوله تعالى فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقوله تعالى ريحا صرصرا الى قوله تنزع الناس * ولما علم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وجوه الادلة ووعدوا وعدولم يزدهم دعاؤه الافرارا وكفرا واصرارا قال تعالى (فانك لا تسمع الموتى) أى ليس فى قدرتك اسماع الذين لا حياة لهم فلا نظر ولا سمع أو موتى القلوب اسماعا ينفعهم لانه مما اختص به الله تعالى وهؤلاء مثل الاموات لان الله تعالى قد ختم على مشاعرهم (ولا تسمع الصم) أى الذين لا اسماع لهم (الدعاء) اذا دعوتهم * ولما كان الاصم قد يحس بدعائك اذا كان مقبلا بحاسة بصره قال تعالى (اذا ولوا) وذكر الفعل ولم يقل ولت اشارة الى قوة التولى لئلا يظن انه أطلق على المجانبة مثلا ولهذا قال تعالى (مدبرين) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية فى الوصل والباقون بالتحقيق واذا وقف حمزة وهشام على الدعاء أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر (وما أنت بهادى العمى) أى بموجد لهم هداية (عن ضلالتهم) اذا ضلوا عن الطريق وقرأ حمزة بتاء الخطاب مفتوحة وسكون الهاء والعمى بنصب الياء والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء والعمى بالخفض *(تنبيه)* قد جعل الله تعالى الكافر بهذه الصفات وهو انه شبهه أولا بالميت وارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم بالاصم وارشاد الاصم صعب فانه لا يسمع الكلام وأعابفهم بالاشارة والافهام بالاشارة صعب ثم بالاعمى وارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له مثلا الطريق عن يمينك فانه يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب فارشاد الاصم أصعب ولهذا تكون المعاشرة مع الاعمى أسهل من المعاشرة مع الاصم الذى لا يسمع لان غاية الافهام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لا اشارة اليه فبدأ أولا بالميت لانه أعلى ثم بالادون منه وهو الاصم وقيده بقوله تعالى اذا ولوا مدبرين ليكون أدخل فى الامتناع لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى لا يكون نظره الى المشير فامتنع افهامه بالاشارة أيضا ثم بأدنى منه وهو الاعمى لما مر ثم قال تعالى (ان) أى ما (تسمع) أى سماع افهام وقبول (الا من يؤمن بآياتنا) أى القرآن فأثبت للمؤمن استماع الآيات فلزم أن يكون المؤمن حيا سميعا بصيرا لان المؤمن ينظر فى البراهين ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة ويفعل ما يجب عليه (فهم مسلمون) أى مطيعون كما قال تعالى عنهم وقالوا سمعنا وأطعنا * ولما أعاد تعالى دليل الآفاق بقوله تعالى الله الذى يرسل الرياح أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر

أحواله بقوله تعالى (الله) أى الجامع لصفات الكمال (الذى خلقكم من ضعف) أى ماء ذى ضعف لقوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين (ثم جعل من بعد ضعف) آخر وهو ضعف الطفولية (قوة) أى قوة الشباب (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) أى ضعف الكبر (وشيبة) أى شيب الهرم وهى بياض فى الشعر يحصل أوله فى الغالب فى السنة الثالثة والاربعين وهو أول سن الاكتهال والاخذ فى النقص بالفعل بعد الخمسين الى أن يزيد النقص فى الثالثة والستين وهو أول سن الشيخوخة ويقوى الضعف الى ماشاء الله تعالى وقرأ عاصم وحمزة بخلاف عن حفص بفتح الضاد فى الثلاثة وهو لغة تميم والباقون بالضم وهو لغة قريش * ولما كانت هذه هى العادة الغالبة وكان الناس متفاوتين فيها وكان من الناس من يطعن فى السن وهو قوى وأنتج ذلك كله أنه لا بد أن يكون التصرف بالاختيار مع شمول العلم وتمام القدرة قال تعالى (يخلق مايشاء) أى من هذا وغيره (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على مايشاء (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا وهو العليم القدير وقوله تعالى من قبل وهو العزيز الحكيم والعزة اشارة الى كمال القدرة والحكمة اشارة الى كمال العلم فقدم القدرة هناك على العلم (أجيب) بأن المذكور هناك الاعادة بقوله تعالى وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة بقوله تعالى كن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير فيه تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأحوال الخلق يكون عالما بأحوال المخلوق فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا وعلم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة والعلم قدم العلم وأما الآية الاخرى فالعلم بتلك الاحوال قبل العقاب فقال وهو العزيز الحكيم * ولما ثبتت قدرته تعالى على البعث وغيره عطف على قوله أول السورة ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (ويوم تقوم الساعة) أى القيامة سميت بذلك لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لانها تقع بغتة أو اعلاما بتيسيرها على الله تعالى وصارت علما عليها بالغلبة كالكوكب للزهرة (يقسم) أى يحلف (المجرمون) أى الكافرون وقوله تعالى (مالبثوا) جواب قوله تعالى يقسم وهو على المعنى اذ لو حكى قولهم بعينه لقيل مالبثنا أى فى الدنيا (غير ساعة) استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا فى الآخرة وقال مقاتل والكلبى مالبثوا فى قبورهم غير ساعة كما قال تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وكما قال تعالى كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وفى حديث رواه الشيخان مابين النفختين أربعون وهو محتمل للساعات والايام والاعوام (كذلك) أى مثل ذلك الصرف عن حقائق الامور الى شكوكها (كانوا) فى الدنيا كونا هو كالجبلة لهم (يؤفكون) أى يصرفون عن الحق فى الدنيا وقال مقاتل والكلبى كذبوا فى قولهم غير ساعة كما كذبوا فى الدنيا أن لا بعث والمعنى ان الله تعالى أراد أن يفضحهم فحلفوا على شئ تبين لاهل الجمع انهم كاذبون فيه * ثم ذكر انكار المؤمنين عليهم بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والايمان)

وهم الملائكة والانبياء والمؤمنون (لقد لبثتم في كتاب الله) أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه وقضائه أو في اللوح المحفوظ أو فيما وعدبه في كتابه من الحشر والبعث فيكون في كتاب الله متعلق بلبثتم وقال مقاتل وقتادة فيه تقديم وتأخير معناه وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والايمان لقد لبثتم (الى يوم البعث) وفي ترد بمعنى الباء فردوا ما قال هؤلاء الكفار وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على انكار البعث بقولهم (فهذا يوم البعث) الذي أنكرتموه وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند التاء المثناة والباقون بالادغام *(تنبيه)* سبب اختلاف الفريقين أن الموعود بوعد اذا ضرب له أجل ان علم أن مصيره الى النار وهو الكافر يستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء في القبر وان علم ان مصيره الى الجنة وهو المؤمن فيستكثر المدة ولا يريد تأخيرها فيختلف الفريقان وفي هذه الفاء قولان أظهرهما أنها عاطفة هذه الجملة على لبثتم وقال الزمخشري هي جواب شرط مقدر أي ان كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين بطلان ما قلتم * ولما كان التقدير قد أي فقد تبين أنه كما كان به عالمين فلو كان لكم نوع من العلم لصدقتمونا في اخبارنا به فنفعكم ذلك الآن عطف عليه قوله تعالى (ولكنكم كنتم) أي كونا هو كالجبلة لكم في انكاركم له (لا تعلمون) أي ليس لكم علم أصلا لتفريطكم في طلب العلم من أبوابه والتوصل اليه بأسبابه فلذلك كذبتم به فاستوجبتم جزاء ذلك التكذيب اليوم * ولما كانت الآيات دالة على أن هذه الدار دار عمل وان الآخرة دار جزاء وان البرزخ حائل بينهما فلا يكون في واحدة منهما ما للاخرى تسبب عن ذلك قوله تعالى (فيومئذ) أي اذ يقع ذلك ويقول الذين أوتوا العلم تلك المقالة (لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم) في انكارهم له (ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب منهم الرجوع الى ما يرضي الله تعالى كما دعوا اليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبته اي استرضاني فأرضيته وقرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتية لان المعذرة بمعنى العذر ولان تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما والباقون بالتاء الفوقية * ثم أشار تعالى الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار وانه لم يبق من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم تقصير بقوله تعالى (ولقد ضربنا) أي جعلنا (للناس في هذا القرآن) أي في هذه السورة وغيرها (من كل مثل) أي معنى غريب هو أوضح وأثبت من اعلام الجبال في عبارة هي أرشق من سائر الامثال فان طلبوا شيأ آخر غير ذلك فهو عناد محض لان من كذب دليلا حقا لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ذكره دليلا جيدا مستقيما ظاهر الاشكال عليه وعانده الخصم وهذا من العالم فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم (فان قيل) الانبياء عليهم الصلاة والسلام ذكروا أنواعا من الدلائل (أجيب) بأنهم سردوها سردا ثم قرروا فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثاني كذا والثالث كذا وفي مثل هذا عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يريد تضييع الوقت كي لا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ما وعد من الدليل فتنحط درجته والى هذا أشار بقوله تعالى (ولئن) اللام لام قسم (جئتهم) بأفضل

الخلق (بآية) مثل العصا واليد لموسى عليه السلام (ليقولن الذين كفروا) منهم (ان) أي ما (أنتم الا مبطلون) أي أصحاب أباطيل (فان قيل) لم وحد في قوله تعالى جئتهم وجمع في قوله تعالى ان أنتم (أجيب) بأن ذلك لنكتة وهي انه تعالى أخبر في موضع آخر فقال ولئن جئتهم بكل آية أي جاءت بها الرسل فقال الكفار ما أنتم أيها المدعون الرسالة كلكم الا كذا وقال الجلال المحلي ان أنتم أي محمد وأصحابه وأما الذين آمنوا فيقولون نحن بهذه الآية مؤمنون (كذلك) أي مثل هذا الطبع العظيم (يطبع الله) أي الذي له العظمة والكمال (على قلوب الذين لا يعلمون) توحيد الله (فان قيل) من لا يعلم شيئاً أي فائدة في الاخبار عن الطبع على قلبه (أجيب) بأن معناه أن من لا يعلم الآن فقد طبع على قلبه من قبل ثم انه تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فاصبر) أي على انذارهم مع هذا الجفاء والرد بالباطل والاذى فان الكل فعلنا لم يخرج منه شيء عن ارادتنا (ان وعد الله) أي الذي له الكمال كله بنصرك واظهار دينك على الدين كله وفي كل ما وعد به (حق) أي ثابت جداً بمطابقته الواقع كما يكشف عنه الزمان وتأتي به مطايا الحدثان * ولما كان التقدير فلا تعجل عطف عليه قوله تعالى (ولا يستخفنك) أي يحملنك على الخفة ويطلب أن تخف باستعجال النصر خوفاً من عواقب تأخيره وتنسيرك عن التبليغ (الذين لا يوقنون) أي أذى الذين لا يصدقون بوعدنا من البعث والحشر وغير ذلك تصديقاً ثابتاً في القلب بل هم اما شاكون وأدنى شيء يزلزلهم كمن يعبد الله على حرف أو مكذبون فهم بالغون في العداوة والتكذيب حتى انهم لا يصدقون في وعد الله بنصر الروم على فارس كأنهم على ثقة وبصيرة من أمرهم في أن ذلك لا يكون فاذا صدق الله وعده في ذلك باظهاره عن قرب علموا كذبهم عياناً وعلموا ان كان لهم علم أن الوعد بالساعة لاقامة العدل على الظالم والعود بالفضل على المحسن كذلك يأتي وهم صاغرون ويحشرون وهم داخرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فقد انعطف آخر السورة على أولها واتصل به اتصال القريب بالقريب وها أنا أسأل الله تعالى القريب المجيب أن يغفر ذنوب من كتب هذا وهو محمد الشربيني الخطيب ويفعل ذلك بوالديه وأولاده ومشايخه وكل محب له وحبيب وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله بين السماء والارض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته حديث موضوع رواه الثعلبي في تفسيره والله تعالى أعلم بالصواب

(سورة لقمان مكية)

أو الا ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام الآيتين وهي أربع أو ثلاث وثلاثون آية وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف (بسم الله) أي الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً (الرحمن) الذي شملت نعمته سائر بريته (الرحيم) بأوليائه فخصهم بمعرفته قوله تعالى (الم) تقدم الكلام عليه في أول سورة البقرة وقيل انه أشار بذلك الى أن الله الملك الاعلى أرسل جبريل عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم بوحي ناطق من الحكم والاحكام بما لم ينطق به من قبله امام

ولا يلحقه في ذلك نبي مدى الايام فهو المبدأ وهو الختام والى ذلك أومأ بتعبيره باداة البعد في قوله تعالى (تلك) أى الايات التى هى من العلو والعظمة بمكان (آيات الكتاب) أى الجامع لجميع أنواع الخير (الحكيم) بوضع الاشياء فى حواق مراتبها فلا يستطاع نقص شئ من ابرامه ولا معارضة شئ من كلامه الدال ذلك على تمام علم منزله وشمول عظمته وقدرته والاضافة بمعنى من وقوله تعالى (هدى ورحمة) بالرفع وهى قراءة حمزة خبر مبتدا مضمر هى أو هو وقرأ الباقون بالنصب على الحال من آيات والعامل ما فى اسم الاشارة من معنى الفعل وقال تعالى (للمحسنين) اشارة الى أن رحمة الله قريب من المحسنين فانه تعالى قال فى البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم لانه لما زاد ذكر وصف فى الكتاب زاد ذكرا من أحواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للمتقين فقوله تعالى هدى فى مقابلة قوله تعالى الكتاب وقوله تعالى ورحمة فى مقابلة قوله تعالى الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقوله تعالى فى عيشة راضية أى ذات رضا وقوله تعالى هناك للمتقين وقول تعالى هنا للمحسنين لانه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيأ آخر قال للمتقين أى يهدى به من يتقى الشرك والعناد وههنا زاد قوله تعالى ورحمة فقال للمحسنين كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فناسب زيادة قوله تعالى ورحمة ولان المحسن يتقى وزيادة ثم وصف المحسنين بقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) أى يجعلونها كانها قائمة بسبب اتقان جميع ما أمر به فيها وندب اليه ودخل فيها الحج لانه لا يعظم البيت فى كل يوم خمس مرات الا معظم له بالحج فعلا أو قوة (ويؤتون الزكاة) أى كلها فدخل فيها الصوم لانه لا يؤدى زكاة الفطر الا من صامه فعلا أو قوة * ولما كان الايمان أساس هذه الاركان وكان الايمان بالبعث جامعا لجميع أنواعه وحاملا على سائر وجوه الاحسان قال تعالى (وهم بالآخرة) أى التى تقدم أن المجرمين عنها غافلون (هم يوقنون) أى يؤمنون بها ايمان موقن فهو لا يفعل شيأ ينافى الايمان ولا يغفل عنه طرفة عين فهو فى الذروة العليا من ذلك فهو يعبد الله تعالى كأنه يراه فآية البقرة بداية وهذه نهاية * ولما كانت هذه الخلال أمهات الافعال الموجبة للكمال وكانت مساوية من وجه لآية البقرة ختمها بختامها بعد أن زمها بزمامها فقال (أولئك) أى العالو الرتبة الحائزون من منازل القرب أعظم رتبة (على هدى) أى متمكنون منه تمكن المستعلى على الشئ وقال (من ربهم) تذكيرا لهم بأنه لولا احسانه لما وصلوا الى شئ ليلزموا تمريغ الجباه على الاعتاب خوفا من الاعجاب (وأولئك هم المفلحون) أى الظافرون بكل مراد * ولما بين سبحانه وتعالى حال من تحلى بهذا الحال فترقى الى حلية أهل الكمال بين حال اضدادهم بقوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) أى ما يلهى عما يعنى كالاحاديث التى لا أصل لها والاساطير التى لا اعتبار فيها والمضاحك وفضول الكلام (فان قيل) ما معنى اضافة اللهو الى الحديث (أجيب) بأن معناها التبيين وهى الاضافة بمعنى من وان يضاف الشئ الى ما هو منه كقوله جبة خز وباب ساج والمعنى من يشترى اللهو من الحديث لان اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين بالحديث

والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش ويجوز أن تكون الاضافة بمعنى من التبعيضية كأنه قيل ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث بن كلدة كان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدث بها قريشا ويقول ان محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الاكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد يعني شراء المغنيات والمغنين ووجه الكلام على هذا التأويل من يشتري ذات أو ذا لهو الحديث وقيل كان النضر يشتري المغنيات ولا يظفر بأحد يريد الاسلام الا انطلق به الى قينة فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول هذا خير لك مما يدعوك اليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه وعن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وفي مثل هذا نزلت الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب المزمار وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه حتى يموت لم أصل عليه ان الله تعالى يقول ومن الناس من يشتري لهو الحديث الآية وعن الحسن وغيره قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشتري لهو الحديث يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وقال أبو الصهباء سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذي لا اله الا هو يرددها ثلاث مرات وقال ابراهيم النخعي الغناء ينبت النفاق في القلب قال وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف وقال ابن جريج لهو الحديث هو الطبل وقال الضحاك هو الشرك وقال قتادة هو كل لهو ولعب وقيل الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب (ليضل عن سبيل الله) أي الطريق الواضح الموصل للملك الاعلى المستجمع لصفات الكمال ضد ما كان عليه المحسنون من الهدى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء قبل الضاد من الضلالة بمعنى ليثبت على ضلاله والباقون بضمها ونكر قوله تعالى (بغير علم) ليفيد السلب العام لكل نوع من أنواع العلم أي لانه لا علم بشيء من حال السبيل ولا حال غيرها علما يستحق اطلاق العلم عليه (فان قيل) مامعنى قوله تعالى بغير علم (أجيب) بأنه تعالى لما جعله مشتريا لهو الحديث بالقرآن قال يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أي وما كانوا مهتدين بالتجارة وبصراء بها (ويتخذها) أي السبيل التي لا أشرف منها مع ما ثبت له من الجهل المطلق (هزوا) أي مهزوا بها وقرأ حمزة والكسائي وحفص بنصب الذال عطفا على يضل والباقون بالرفع على يشتري وسكن حمزة زاي هزوا وضمها الباقون * ولما انقح هذا الشقاء الدائم بينه بقوله تعالى

(أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (لهم عذاب مهين) لاهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه * ولما كان الانسان قد يكون غافلا فاذا انبه انتبه نبه سبحانه وتعالى على ان هذا الانسان المنهمك فى أسباب الخسران لا يزداد على ممر الزمان الا مفاجأة لكل ما يرد عليه من البيان بقوله تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا) أى تجدد عليه تلاوتها أى تلاوة القرآن من كل تال كان (ولى) أى بعد السماع مطلق التولية سواء كان على المجانبة أو مدبرا (مستكبرا) أى طالبا للكبر موجدا له بالاعراض عن الطاعة (كأن) أى كأنه لم (يسمعها) فهو لم يزل على حالة الكبر (كأن فى أذنيه وقرا) أى صمما يستوى معه تكليم غيره له وسكوته * (تنبيه) * جملتا التشبيه حالان من ضمير ولى أو الثانية بيان للاولى وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها * ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال تعالى (فبشره) أى أعلمه (بعذاب أليم) أى مؤلم وذكر البشارة تهكم به وهو النضر بن الحرث كما مرت الاشارة اليه * ولما بين تعالى حال المعرض عن سماع الآيات بين حال من يقبل على تلك الآيات بقوله تعالى (ان الذين امنوا) أى أوجدوا الايمان (وعملوا) أى تصديقا له (الصالحات لهم جنات) أى بساتين (النعيم) أى نعيم جنات فعكس للمبالغة كما أن لهؤلاء العذاب المهين ووحد العذاب وجمع الرحمة اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب * ولما كان ذلك قد لا يكون دائما وكان السرور بشئ قد ينقطع قال تعالى (خالدين فيها) أى دائما وقوله تعالى (وعد الله) أى الذى لا شئ أجل منه مصدر مؤكد لنفسه لان قوله تعالى جنات فى معنى وعدهم الله تعالى ذلك وقوله تعالى (حقا) مصدر مؤكد لغيره أى لمضمون تلك الجملة الاولى وعاملهما مختلف فتقدير الاولى وعد الله ذلك وعدا وتقدير الثانية أحق ذلك حقاقا كدنعيم الجنات ولم يؤكد العذاب المهين (وهو العزيز) أى فلا يغلبه شئ (الحكيم) أى الذى لا يضع شيأ الا فى محله * ولما ختم بصفتى العزة وهى غاية القدرة والحكمة وهى ثمرة العلم دل عليهما باتقان أفعاله بقوله تعالى (خلق السموات) على علوها وكبرها وضخامتها (بغير عمد) وقوله تعالى (ترونها) فيه وجهان أحدهما انه راجع الى السموات اذ ليست بعمد أصلا وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الثانى انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية وعلى كلا الوجهين هى ثابتة لا تزول وليس ذلك الا بقدرة قادر مختار * (تنبيه) * أكثر المفسرين ان السموات مبسوطة كصحف مستوية لقوله تعالى يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب وقال بعضهم انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالى رحمه الله تعالى حيث قال ونحن نوافقهم فى ذلك فان لهم على دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان فى الباب خبر يؤول بما يحتمله فضلا عن أن ليس فى القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحا بل فيه ما يدل على الاستدارة كقوله تعالى كل فى فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب أن السموات سواء كانت مستديرة أو صفيحة مستقيمة هى مخلوقة لله تعالى باختيار لا بايجاب وطبع * ولما ذكر تعالى العمد المقلة ذكر الاوتاد المقرة بقوله تعالى (وألقى فى الارض) أى التى أنتم عليها جبالا (رواسى) والعجب أنها من فوقها

وجميع

وجميع الرواسي التي تعرفونها تكون من تحت تنبيها عن (أن تميد) أي تضطرب (بكم) كما هو شأن ما على ظهر الماء (وبث) أي فرق (فيها من كل دابة) وقوله تعالى (وأنزلنا) أي بما لنا من القوة (من السماء ماء) فيه التفات عن الغيبة * ولما تسبب عن ذلك تدبير الاقوات وكان من آثار الحكمة التابعة للعلم دل عليه بقوله تعالى (فأنبتنا) أي بما لنا من العلو في الحكمة (فيها) أي الارض بخلط الماء بترابها (من كل زوج) أي صنف من النبات متشابه (كريم) بماله من البهجة والنضرة الجالبة للسرور وفي هذا دليل على عزته التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله تعالى (هذا) أي الذي تشاهدونه كله (خلق الله) أي الذي له جميع الكمال فلا كفء له فان ادعيتم ذلك (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي غيره بكتم بأن هذه الاشياء العظيمة مما خلقه تعالى وأنشأه فأروني ما خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة * (تنبيه) * ما استفهام انكار مبتدأ وذا بمعنى الذي بصلته خبره وأروني معلق عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين ثم أضرب عن تبكيتهم بقوله تعالى (بل) منبها على أن الجواب ليس لهم خلق هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى (الظالمون) أي العريقون في الظلم تعميما وتنبيها على الوصف الذي أوجب لهم كونهم (في ضلال) عظيم جدا محيط بهم (مبين) أي في غاية الوضوح وهو كونهم يضعون الاشياء في غير مواضعها لانهم في مثل الظلام لا نور لهم لانحجاب شمس الانوار عنهم بحجب الهوى فلا حكمة لهم ثم انه تعالى لما نفاها عنهم أثبتها لبعض أوليائه بقوله تعالى (ولقد آتينا) بما لنا من العظمة والحكمة (لقمان) وهو عبد من عبيدنا المطيعين لنا (الحكمة) وهو العلم المؤيد بالعمل أو العمل المحكم بالعلم قال ابن قتيبة لا يقال لشخص حكيم حتى يجتمع له الحكمة في القول والفعل قال ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيما حتى يكون عاملا بها وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي العقل والفهم والفطنة واختلف في نسبه وفي سبب حكمته فقيل هو لقمان بن باعورا ابن اخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته وقيل كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال الا أكتفي اذا كفيت وقيل كان قاضيا في بني اسرائيل وأكثر الاقاويل انه كان حكيما ولم يكن نبيا أخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه انه سئل أكان لقمان نبيا قال لا لم يوح اليه وكان رجلا حكيما وعن ابن عباس لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان راعيا أسود ورزقه الله تعالى العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته وقال ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطا وقال مجاهد كان عبدا أسود غليظ الشفتين مشقق القدمين وقيل كان نجارا وقيل كان راعيا وقيل كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة حطب وقال عكرمة والشعبي كان نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وعنه انه قال لرجل ينظر اليه ان كنت تراني أسود فقلبي أبيض وعن عكرمة قال كان لقمان أهون مملوك على سيده وأول ما روي من حكمته أنه بينما هو

مع مولاه اذ دخل المخرج وأطال فيه الجلوس فنادى لقمان ان طول الجلوس على الحاجة يسيح منه الكبد ويكون منه الباسور ويصعد الحر الى الرأس فخرج وكتب حكمته على الحش قال وسكر مولاه فخاطر قوما على أن يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ما وقع منه فدعا لقمان فقال لمثل هذا كنت أخبؤك قال اجمعهم فلما اجتمعوا قال على أى شئ خاطرتموه قالوا على أن يشرب ماء هذه البحيرة قال فان لها موادّ فاحبسوا موادها عنه قال وكيف نستطيع أن نحبس موادها قال فكيف يستطيع أن يشربها ولها مواد وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول عن أبى مسلم الخولانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لقمان كان عبدا كثير التفكر حسن الظن كثير الصمت أحب الله فأحبه الله فمنّ عليه بالحكمة نودى بالخلافة قبل داود فقيل له يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة فى الارض تحكم بين الناس قال لقمان ان أجبرنى ربى قبلت فانى أعلم أنه ان فعل ذلك أعاننى وعلمنى وعصمنى وان خيرنى اخترت العافية ولم أسأل البلاء فقالت الملائكة يا لقمان لم قال لان الحاكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل أو يعان فان أصاب فبالحرى أن ينجو وان أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن فى الدنيا ذليلا فهو خير من أن يكن شريفا ضائعا ومن تخير الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودى داود بعده بالخلافة فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فوقع فى الذى حكاه الله عنه فصفح الله تعالى عنه وتجاوز وكان لقمان يوازره أى يساعده بعلمه وحكمته فقال داود طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية وأوتى داود الخلافة فابتلى بالذنب والفتنة وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال خير الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة فأتاه جبريل وهو نائم فذرّ عليه الحكمة فأصبح ينطق بها فقيل له كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك فقال انه لو أرسل الىّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها الفوز منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكنه خيرنى فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب الىّ وروى انه دخل على داود وهو يصنع الدروع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فادركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود بحق ما سميت حكيما وروى ان مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما أطيب ما فيها اذا طابا وأخبث ما فيها اذا خبثا وروى انه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال ألست فلان الراعى فبم بلغت ما بلغت قال بصدق الحديث وأداء الامانة وترك ما لا يعنينى وعن ابن المسيب انه قال لاسود لا تحزن فانه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان كان أسود نوبيا ذا مشافر وروى سادات السودان أربعة لقمان الحبشى والنجاشى وبلال ومهجع وعن

أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت وقال لقمان لا مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس وقال ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع * ولما كانت الحكمة هي الاقبال على الله قال الله تعالى (أن اشكر لله) أي وقلنا له أن اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة (ومن يشكر) أي يجدد الشكر ويتعاهده بنفسه كائنا من كان (فانما يشكر لنفسه) أي لان ثواب شكره له (ومن كفر) أي النعمة (فان الله غني) عن الشكر وغيره (حميد) أي له جميع المحامد وان كفره جميع الخلق (و) اذكر (اذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني) تصغير اشفاق وقرأ حفص بفتح الياء وسكنها ابن كثير وكسرها الباقون (لا تشرك بالله) أي الملك الاعظم (ان الشرك) أي بالله (لظلم عظيم) فرجع اليه وأسلم ثم قال له أيضا يا بني اتخذ تقوى الله تعالى تجارة يأتيك الفرج من غير بضاعة يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فان الجنائز تذكر الآخرة والعرس يشهيك الدنيا يا بني لا تأكل شبعا من شبع فانك أن تلقيه للكلب خير من أن تأكله يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار وأنت النائم على فراشك يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة يا بني لا ترغب في ود الجاهل فترى انك ترضى عمله يا بني اتق الله ولا ترى الناس انك تخشى ليكرموك بذلك وقلبك فاجر يا بني ما ندمت على الصمت قط فان الكلام اذا كان من فضة كان السكوت من ذهب يا بني اعتزل الشر كما يعتزلك فان الشر للشر خلق يا بني اياك وشدة الغضب فان شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم يا بني عليك بمجالس العلماء واستمع كلام الحكماء فان الله تعالى يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الارض بوابل المطر فان من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه كثر غمه ونقل الصخور من مواضعها أيسر من افهام من لا يفهم يا بني لا ترسل رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما فكن رسول نفسك يا بني لا تنكح أمة غيرك فتورث بنيك حزنا طويلا يا بني يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حليم يا بني اختر المجالس على عينك فاذا رأيت المجلس يذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم فانك ان تك عالما ينفعك علمك وان تك غبيا يعلموك وان يطلع الله عز وجل عليهم برحمة تصيبك معهم يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله تعالى فانك ان تكن عالما لا ينفعك علمك وان تكن غبيا يزيدوك غباوة وان يطلع الله تعالى عليهم بعد ذلك بسخط يصيبك معهم يا بني لا يأكل طعامك الا الاتقياء وشاور في أمرك العلماء يا بني ان الدنيا أمر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله وحشوها الايمان بالله وشراعها التوكل على الله لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا يا بني اني حملت الجندل والحديد فلم أحمل شيأ أثقل من جار السوء وذقت المرارة كلها فلم أذق أشد من الفقر يا بني كن ممن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب مذمتهم فنفسه عنهم في غنى والناس منه في راحة يا بني ان الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض الميتة بوابل السماء يا بني لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم يا بني اذا أردت ان تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك فان أنصفك عند غضبه والا فاحذره يا بني انك

منذ نزلت الى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت اليها تسير أقرب من دار أنت عنها تباعد يا بني عود لسانك أن يقول اللهم اغفر لي فان لله ساعات لا ترد يا بني اياك والدين فانه ذل النهار وهم الليل يا بني ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته وخف الله خوفا لا يؤيسك من رحمته اهـ وانما أكثرت من ذلك لعل الله ينفعني ومن طالعه بذلك وسيأتي في كلام الله تعالى زيادة على ذلك واقتصرت على هذا القدر والا فمواعظه لابنه لو أراد شخص الاكثار منها لجعل منها مجلدات فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن حفص بن عمر الكندي قال وضع لقمان عليه السلام جرابا من خردل الى جنبه وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفد الخردل فقال يا بني وعظتك موعظة لو وعظتها جبلا لتفطر فتفطر ابنه فسبحان من يعز ويذل ويغني ويفقر ويشفي ويمرض ويرفع من يشاء وان كان عبدا فلا بدع أن يخص محمدا صلى الله عليه وسلم ذا النسب العالي والمنصب المنيف بالرسالة من بين قريش وان لم يكن من أهل الدنيا المتعظمين بها * ولما ذكر سبحانه ما أوصى به ولده من شكر المنعم الاول الذي لم يشركه في ايجاده أحد وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة أتبعه وصيته سبحانه للولد بالوالد لكونه المنعم الثاني بالسببية في وجوده بقوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه) أي أمرناه ان يبرهما ويطيعهما ويقوم بهما ثم بين تعالى السبب في ذلك بقوله تعالى (حملته أمه وهنا) أي حال كونها ذات وهن بحمله وبالغ في جعلها نفس الفعل دلالة على شدة ذلك الضعف (على وهن) أي ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف الولادة ثم أشار الى ما لها عليه من المنة بعد ذلك بالشفقة وحسن الكفالة وهو لا يملك لنفسه شيأ بقوله تعالى (وفصاله) أي فطامه من الرضاعة بعد وضعه (في عامين) تقاسي فيهما في منامه وقيامه ما لا يعلمه حق علمه الا الله تعالى (فان قيل) وصى الله تعالى بالوالدين وذكر السبب في حق الام مع ان الاب وجد منه أكثر من الام لانه حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ (أجيب) بان المشقة الحاصلة للام أعظم فان الاب حمله خفيفا لكونه من جملة جسده والام حملته ثقيلا آدميا مودعا فيها وبعد وضعه وتربيته ليلا ونهارا وبينهما ما لا يخفى من المشقة ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له من ابر أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك ثم أباك وقوله تعالى (ان اشكر لي) لاني المنعم في الحقيقة (ولوالديك) أي لكوني جعلتهما سببا لوجودك والاحسان بتربيتك تفسير لوصينا أو علة له ثم علل الامر بالشكر محذرا بقوله تعالى (الي) لا الى غيري (المصير) فأحاسبك على شركك ومعاصيك وعن القيام بحقوقهما قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر لله ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين * ولما ذكر تعالى وصيته بهما وأكد حقهما أتبعه الدليل على ما ذكر لقمان من قباحة الشرك بقوله تعالى (وان جاهداك) أي مع ما أمرتك به من طاعتهما (على ان تشرك بي) وقوله تعالى (ما ليس لك به علم) موافق للواقع لانه لا يمكن ان يدل علم من أنواع العلوم على شيء من الشرك بل العلوم كلها دالة على الوحدانية * ولما قرر ذلك على هذا المنوال البديع قال مسببا عنه (فلا تطعهما) أي في ذلك

ولو اجتمعا على المجاهدة لك عليه بل خالفهما وان أدى الامر الى السيف فجاهدهما به لان أمرهما بذلك مناف للحكمة حامل على محض الجور والسفه ففيه تنبيه لقريش على محض الغلط في التقليد لآبائهم في ذلك وربما أفهم ذلك الاعراض عنهما بالكلية فلهذا قال تعالى (وصاحبهما في الدنيا) أي في أمورها التي لا تتعلق بالدين مادمت حياتهما (معروفا) ببرهما ان كانا على دين يقران عليه ومعاملتهما بالحلم والاحتمال وما تقتضيه مكارم الاخلاق ومعالي الشيم * ولما كان ذلك قد يجر الى نوع وهن في الدين ببعض محاباة نفى ذلك بقوله تعالى (واتبع) أي بالغ في أن تتبع (سبيل) أي دين وطريق (من أناب) أي أقبل خاضعا (الي) لم يلتفت الى عبادة غيري وهم المخلصون فان ذلك لا يخرجك عن برهما ولا عن توحيد الله تعالى ولا عن الاخلاص له * (تنبيه) * في هذا حث على معرفة الرجال بالحق وأمر بعرض المشايخ وغيرهم على محك الكتاب والسنة فمن كان عمله موافقا لهما اتبع ومن كان عمله مخالفا لهما اجتنب واذا كان مرجع أمورهم كلها اليه في الدنيا ففي الآخرة كذلك كما قال تعالى (ثم الي) أي في الآخرة (مرجعكم فأنبئكم) أي أفعل فعل من يبالغ في التعقيب والاختيار عقب ذلك وتبينه لان ذلك أنسب شئ للحكمة وتعقب كل شئ بحسب ما يليق به (بما كنتم تعملون) أي تجددون عمله من صغير وكبير وجليل وحقير فأجازي من أريد وأغفر لمن أريد فأعد لذلك عدته ولا تعمل عمل من ليس له مرجع يحاسب فيه ويجازى على مثاقيل الذر من أعماله والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيد لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال تعالى ووصينا بمثل ما وصى به وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فانهما مع أنهما تلوا الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يتبعا في الاشراك فما ظنكم بغيرهما ونزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لاسلامه ثلاثا لم تطعم فيها شيأ ولذلك قيل من أناب الي هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه فان سعدا أسلم بدعوة أبي بكر له ثم ان ابن لقمان قال لابيه يا أبت ان عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله تعالى فقال (يا بني) مجيبا له مستعطفا مصغرا له بالنسبة الى حمل شئ من غضب الله تعالى (انها) أي الخطيئة (ان تك) وأسقط النون لغرض الايجاز في الايصاء (مثقال) أي وزن ثم حقرها بقوله (حبة) وزاد في ذلك بقوله (من خردل) أي ان تكن في الصغر كحبة الخردل وقرأ نافع مثقال بالرفع على أن الهاء ضمير الخطيئة كما مر أو القصة وكان تامة وتأنيثها الاضافة المثقال الى الحبة كقول الاعشى

وتشرق بالقول الذي قد أذعته * كما شرقت صدر القناة من الدم

والشرق الغصة يقال شرق بريقه أي غص والشاهد في شرقت حيث انه لاضافة الصدر الى القناة وصدرها ما فوق نصفها ثم أثبت النون في قوله مبينا عن صغرها (فتكن) اشارة الى ثباتها في مكانها وليزداد شوق النفس الى محط الفائدة ويذهب الوهم كل مذهب معبرا عن أعظم الخفاء وأتم الاحوال (في صخرة) أي صخرة كانت ولو أنها أشد الصخور وأخفاها * ولما أخفى وضيق أظهر ووسع ورفع وخفض ليكون أعظم لضياعها لحقارتها بقوله (أو في السموات)

أى فى أى مكان منهما على سعة ارجائها وتباعد انحائها وأعادا ونصا على ارادة كل منهما على حدته بقوله (أو فى الارض) أى كذلك وهذا كما ترى لا ينفى أن تكون الصخرة فيهما أو فى غيرهما أو فى أحدهما وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن رباح أنه لما وعظ لقمان ابنه وقال انها ان تك الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها الى اليرموك فألقاها فى عرضه ثم مكث ماشاء الله تعالى ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها فى راحته وقال بعض المفسرين المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لا فى الارض ولا فى السماء وقال الزمخشرى فيه اضمار تقديره ان تكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الارض وقيل هذا من تقديم الخاص وتأخير العام وهو جائز فى مثل هذا التقسيم وقيل خفاء الشئ يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدا ومنها أن يكون فى ظلمة ومنها أن يكون وراء حجاب فاذا امتنعت هذه الامور فلا يخفى فى العادة فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط بقوله ان تك مثقال حبة من خردل اشارة الى الصغر وقوله فتكن فى صخرة اشارة الى الحجاب وقوله أو فى السموات اشارة الى البعد فانها أبعد الابعاد وقوله أو فى الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض أظلم الاماكن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له شئ ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله أى يظهرها للاشهاد يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (ان الله) أى الملك العظيم (لطيف) أى نافذ القدرة يتوصل علمه الى كل خفى عالم بمكنه وعن قتادة لطيف باستخراجها (خبير) أى عالم ببواطن الامور فيعلم مستقرها روى فى بعض الكتب ان هذه آخر كلمة تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها فمات قال الحسن معنى الآية هو الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها * ولما نبه على احاطة علمه سبحانه واقامته للحساب أمره بما يدخره لذلك توسلا اليه وتخشعا لديه وهو رأس ما يصلح به العمل ويصحح التوحيد ويصدقه بقوله (يا بنى) مكررا للمناداة تنبيها على فرط النصيحة لفرط الشفقة (أقم الصلاة) أى بجميع حدودها وشروطها ولا تغفل عنها تسببا فى نجاة نفسك وتصفية سرك فان اقامتها وهو الاتيان بها على النحو المرضى مانعة من الخلل فى العمل ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لانها الاقبال على من وحدته فاعتقدت انه الفاعل وحده واعرضت عن كل ما سواه لانه فى التحقيق عدم ولهذا الاقبال والاعراض كانت ثانية للتوحيد وبهذا يعلم ان الصلاة كانت فى سائر الملل غير ان هيآتها اختلفت وترك ذكر الزكاة تنبيها على أنه من حكمته والحكمة تخليه وتخلى ولده من الدنيا حتى ما يكفيهم لقوتهم * ولما أمره بتكميله فى نفسه توفية لحق الحق عطف على ذلك تكميله لغيره بقوله (وأمر بالمعروف) أى كل من تقدر على أمره تهذيبا لغيرك وشفقة على نفسك لتخلص أبناء جنسك (وانه) أى كل من قدرت على نهيه (عن المنكر) حبا لاخيك ما تحب لنفسك تحقيقا لنصيحتك وتكميلا لعبادتك ومن هذا الطراز قول أبى الاسود رحمه الله تعالى

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فان انتهت عنه فأنت حكيم

لانه

لانه أمرها ولا بالمعروف وهو الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر فاذا أمر نفسه ونهاها ناسب أن يأمر غيره وينهاه وهذا وان كان من قول لقمان الا انه لما كان فى سياق المدح له كنا مخاطبين به (فان قيل) كيف قدم فى وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهى عن المنكر وحين أمر ابنه قدم النهى عن المنكر على الامر بالمعروف فقال لا تشرك بالله ثم قال أقم الصلاة (أجيب) بأنه كان يعلم ان ابنه معترف بوجود الاله فما أمره بهذا المعروف بل نهاه عن المنكر الذى ترتب على هذا المعروف وأما ابنه فأمره أمرا مطلقا والمعروف يقدم على المنكر * ولما كان القابض على دينه فى غالب الازمان كالقابض على الجمر قال له (واصبر) صبرا عظيما بحيث تكون مستعليا (على ما) أى الذى (أصابك) أى فى عبادتك وغيرها من الامر بالمعروف وغيره سواء أكان بواسطة العباد أم لا كالمرض وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر لانهما ملاك الاستعانة قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وأخرج أحمد عن هشام ابن عروة عن أبيه قال مكتوب فى الحكمة يعنى حكمة لقمان عليه السلام لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسيطا تكن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطايا وقال مكتوب فى الحكمة أو فى التوراة الرفق رأس الحكمة وقال مكتوب فى التوراة كما ترحمون ترحمون وقال مكتوب فى الحكمة كما تزرعون تحصدون وقال مكتوب فى الحكمة أحبب خليلك وخليل أبيك وقيل للقمان أى الناس شر قال الذى لا يبالى ان رآه الناس مسيأ ومن حكمته انه قال أقصر عن اللجاجة ولا أنطق فيما لا يعنينى ولا أكون مضحاكا من غير عجب ولا مشاء لغير أرب ومنها من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا والذل فى طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية ومنها انه كان يقول ثلاثة لا يعرفون الا فى ثلاثة مواطن الحليم عند الغضب والشجاع عند الحرب وأخوك عند حاجتك اليه * ولما كان ما أحكمه لولده عظيم الجدوى وجعل ختامه الصبر الذى هو ملاك الاعمال نبه بذلك بقوله على سبيل الاستئناف أو التعليل (ان ذلك) أى الامر العظيم الذى أوصيتك به لاسيما الصبر على المصائب (من عزم الامور) أى معزوماتها تسمية لاسم المفعول أو الفاعل بالمصدر أى الامور المقطوع بها المفروضة أو القاطعة الجازمة بجزم فاعلها ثم حذره عن الكبر معبرا عنه بلازمه لان نفى الاعم نفى للاخص بقوله (ولا تصعر خدك) أى لا تعله متعمدا امالته بامالة العنق متكلفا لها صرفا عن الحالة القاصدة قال أبو عبيدة وأصل الصعر داء يصيب البعير يلوى منه عنقه وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم بغير ألف بعد الصاد وتشديد العين والباقون بألف بعد الصاد وتخفيف العين والرسم يحتملهما فانه رسم بغير ألف وهما لغتان لغة الحجاز التخفيف وتميم التثقيل * ولما كان ذلك قد يكون لغرض من الاغراض التى لا تدوم أشار الى المقصود بقوله (للناس) بلام العلة أى لا تفعل ذلك لاجل الامالة عنهم وذلك لا يكون الا تهاونا بهم من الكبر بل أقبل عليهم بوجهك كله مستبشرا منبسطا من غير كبر ولا عتو وعن ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك اذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه الشحنة فيلقاك فتعرض

قوله فان قيل الخ لا يخفى ما فيه فتأمل

عنه وقيل هو الذى اذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقيل معناه لا تحتقر الفقير ليكن الفقير والغنى عندك سواء ثم اتبع ذلك ما يلزمه بقوله (ولا تمش) وأشار بقوله (فى الارض) الى أن أصله تراب وهو لا يقدر أن يعدوه وسيصير اليه وأوقع المصدر موقع الحال والعلة فى قوله (مرحا) أى اختيالا وتبخترا أى لا تكن منك هذه الحقيقة لان ذلك مشى أشر بطر متكبر فهو جدير بأن يظلم صاحبه و يفحش ويبغى بل امش هونا فان ذلك يفضى بك الى التواضع فتصل الى كل خير فترفق بك الارض اذا صرت فى بطنها (ان الله) أى الذى له الكبرياء والعظمة (لا يحب) أى يعذب (كل مختال) أى مراء للناس فى مشيه متبختر يرى له فضلا على الناس (فخور) على الناس بنفسه يظن ان اسباغ النعم الدنيوية من محبة الله تعالى له وذلك من جهله فان الله يسبغ نعمه على الكافر الجاحد فينبغى للعارف أن لا يتكبر على عباده فان الكبر هو الذى تردى به سبحانه فمن نازعه فيه قصمه * ولما كان النهى عن ذلك أمرا بضده قال (واقصد) أى اقتصد واسلك الطريق الوسطى (فى مشيك) بين ذلك قواما أى ليكن مشيك قصدا لا تخيلا ولا اسراعا أى بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار قال صلى الله عليه وسلم سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وأما قول عائشة فى عمر رضى الله تعالى عنهما كان اذا مشى أسرع فانما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت وقال عطاء امش بالوقار والسكينة لقوله تعالى يمشون على الارض هونا وعن ابن مسعود كانوا ينهون عن وثب اليهود ودبيب النصارى والقصد فى الافعال كالقسط فى الاوزان قاله الرازى فى اللوامع وهو المشى الهون الذى ليس فيه تصنع للخلق لا بتواضع ولا بتكبر (واغضض) أى انقص (من صوتك) لئلا يكون صوتك منكرا وتكون برفع الصوت فوق الحاجة كالاذان فهو مأمور به وكانت الجاهلية تمدحون برفع الصوت قال القائل

جهير الكلام جهير العطاس * جهير الروى جهير النغم

وقال مقاتل اخفض من صوتك (فان قيل) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى (أجيب) بأن رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذى داخل الاذن وأما سرعة المشى فلا تؤذى وان آذت فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشى يؤذى آلة المشى والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشى وأيضا فلان قبح القول أقبح من قبح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب * ولما كان رفع الصوت فوق الحاجة منكرا كما أن خفضه دونها تماوت وتكبر وكان قد أشار الى النهى عن هذا بن فأفهم ان الطرفين مذمومان علل النهى عن الاول بقوله (ان أنكر) أى أفظع وأبشع وأوحش (الاصوات) كلها المشتركة فى المكاره برفعها فوق الحاجة وأخلى الكلام من لفظ التشبيه وأخرجه مخرج الاستعارة تصوير الصوت الرافع صوته فوق الحاجة بصورة النهاق وجعل المصوت كذلك حمارا مبالغة فى التهجين وتنبيها على أنه من الكراهة بمكان

فقال

فقال (لصوت الحمير) أى هذا الجنس لماله من العلو المفرط من غير حاجة فان كل حيوان قد يفهم من صوته انه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو لغير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح و ينهق بصوت أوله زفير وآخره شهيق وهما فعل أهل النار وأفرد الصوت ليكون نصا على ارادة الجنس لئلا يظن ان الاجتماع شرط فى ذلك ولذكر الحمار مع ذلك من بلاغة الشتم والذم ما ليس لغيره ولذلك يستهجن التصريح باسمه بل يكنون عنه و يرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الاذنين كما يكنى عن الاشياء المستقذرة وقد عد فى مساوى الآداب ان يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من ذوى المروأة ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ان بلغت منه الرجلة واغار كبه صلى الله عليه وسلم لمخالفته عادتهم واظهاره التواضع من نفسه وأمّا الرفع مع الحاجة فغير مذموم فانه ليس بمستنكر ولا مستبشع (فان قيل) كيف يفهم كونه أنكر الاصوات مع ان حز المنشار بالمبرود دق النحاس بالحديد أشد صوتا (أجيب) من وجهين الاوّل ان المراد أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد السؤال والثانى ان الصوت الشديد لحاجة ومصلحة لا يستبشع ولا ينكر صوته كما مرت الاشارة اليه بخلاف صوت الحمير قال موسى بن أعين سمعت سفيان الثورى يقول فى قوله تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير قال صياح كل شئ تسبيح لله تعالى الا الحمار وقال جعفر الصادق فى ذلك هى العطسة القبيحة المنكرة وقال وهب تكلم لقمان باثنى عشر ألف كلمة من الحكمة أدخلها الناس فى كلامهم قال خالد الربعى كان لقمان عبدا ومن حكمته أنه دفع اليه مولاه شاة فقال له اذبحها وائتنى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ثم دفع اليه شاة أخرى فقال اذبحها وائتنى بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شئ أطيب منهما اذا طابا ولا أخبث منهما اذا خبثا وقد مرت الاشارة الى ذلك ومن حكمته أنه قال لابنه يا بنى لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته الا جعلت فى الضمير منك ان ذلك خير لك ثم قال لابنه يا بنى ان الله قد بعث نبيا هلم حتى نأتيه فنصدقه فخرج على حمار وابنه على حمار وتزودا ثم سارا أياما وليالى حتى لقيتهما مفازة فأخذا أهبتهما لها فدخلا فسارا ما شاء الله تعالى حتى ظهرا وقد تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد واستبطآ حماريهما فنزلا وجعلا يشتدان على سوقهما فبينما هما كذلك اذ نظر لقمان امامه فاذا هو بسواد ودخان فقال فى نفسه السواد الشجر والدخان العمران والناس فبينما هما يشتدان اذ وطئ ابن لقمان على عظم ناتئ على الطريق فخر مغشيا عليه فوثب اليه لقمان وضمه الى صدره واستخرج العظم باسنانه ثم نظر اليه لقمان فذرفت عيناه فقال يا أبت انت تبكى وأنت تقول هذا خير لى وقد نفد الطعام والماء وبقيت أنا وأنت فى هذا المكان فان ذهبت وتركتنى على حالى ذهبت بهم وغم ما بقيت وان أقمت معى متنا جميعا فقال يا بنى أمّا بكائى فرقة الوالدين وأمّا ما قلت كيف يكون هذا خيرا فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ثم نظر لقمان أمامه فلم ير ذلك الدخان والسواد واذا بشخص أقبل على فرس أبلق عليه ثياب بياض وعمامة بيضاء يمسح الهواء مسحا فلم

يزل يرمقه بعينه حتى كان منه قريبا فتوارى عنه ثم صاح به أنت لقمان قال نعم قال أنت الحكيم قال كذلك يقال قال ما قال لك ابنك قال يا عبد الله من أنت أسمع كلامك ولا أرى وجهك قال أنا جبريل أمرني ربي بخسف هذه القرية ومن فيها فأخبرت أنكما تريدانها فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء فحبسكما بما ابتلي به ابنك ولولا ذلك لخسفت بكما مع من خسفت ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم ابنه فاستوى قائما ومسح بيده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاما وعلى الذي كان فيه الماء فامتلأ ماء ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير فاذا هما في الدار التي خرجا بعد أيام وليال منها وعن عبد الله بن دينار ان لقمان قدم من سفر فلقي غلامه في الطريق فقال ما فعل أبي فقال مات قال الحمد لله ملكت أمري قال ما فعلت أمي قال ماتت قال ذهب همي قال ما فعلت امرأتي قال ماتت قال جدد فراشي قال ما فعلت أختي قال ماتت قال سترت عورتي قال ما فعل أخي قال مات قال انقطع ظهري وعن أبي قلابة قال قيل للقمان أي الناس أصبر قال صبر لا معه أذى قيل فأي الناس أعلم قال من ازداد من علم الناس الى علمه قيل فأي الناس خير قال الغني قيل الغني من المال قال لا ولكن الغني من التمس عنده خير وجد والا أغنى نفسه عن الناس وعن سفيان قيل للقمان أي الناس شر قال الذي لا يبالي ان يراه الناس مسيئا وعن عبد الله بن زيد قال قال لقمان الا ان يد الله على أفواه الحكماء لا يتكلم أحدهم الا ما هيأ الله تعالى له ولما استدل سبحانه بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكمة لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة استدل ثانيا على الوحدانية بالنعم بقوله تعالى (ألم تروا) أي تعلموا علما هو في ظهوره كالمشاهدة (ان الله) أي الحائز لكل كمال (سخر لكم) أي لأجلكم (ما في السموات) من الانارة والاظلام والشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر والبرد وغير ذلك من الانعامات مما لا يحصى كما قال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (و) سخر لكم (ما في الارض) من البحار والثمار والآبار والانهار والدواب والمعادن وغير ذلك مما لا يحصى (وأسبغ) أي أوسع وأتم (عليكم) وقوله تعالى (نعمه) قرأه نافع وأبو عمرو وحفص بفتح العين وبعد الميم هاء مضمومة والباقون بسكون العين وبعد الميم تاء مفتوحة منونة ومعناها الجمع أيضا كقوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها واختلف في قوله عز وجل (ظاهرة وباطنة) على اقوال فقال عكرمة عن ابن عباس النعمة الظاهرة القرآن والاسلام والباطنة ما ستر عليك من الذنوب ولم يعجل عليك بالنقمة وقال الضحاك الظاهرة حسن الصورة وتسوية الاعضاء والباطنة المعرفة وقال مقاتل الظاهرة تسوية الخلق والرزق والاسلام والباطنة ما ستر من الذنوب * وقال الربيع الظاهرة الجوارح والباطنة القلب وقال عطاء الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقال مجاهد الظاهرة ظهور الاسلام والنصر على الاعداء والباطنة الامداد بالملائكة وقال سهل بن عبد الله الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته وقيل الظاهرة تمام الرزق والباطنة تمام الخلق وقيل الظاهرة الامداد بالملائكة والباطنة القاء الرعب في قلوب

الكفار وقيل الظاهرة الاقرار باللسان والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروى فى دعاء موسى عليه السلام الهى دلنى على اخفاء نعمتك على عبادك فقال أخفى نعمتى عليهم النفس ويروى ان أيسر ما يعذب به أهل النار الاخذ بالانفاس ونزل فى النضر بن الحرث وأبى ابن خلف واشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى الله تعالى وفى صفاته (ومن الناس) أى أهل مكة (من يجادل) أى يحاج فلا لهو أعظم من جداله ولا كبر مثل كبره ولا ضلال مثل ضلاله وأظهر زيادة التشنيع على هذا المجادل بقوله تعالى (فى الله) اى المحيط علما وقدرة ثم بين تعالى مجادلته أنها (بغير علم) أى مستفاد من دليل بل بألفاظ فى ركاكة معانيها العدم استنادها الى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم فكان بذلك حمارا تابعا للهوى (ولا هدى) أى من رسول عهد منه سداد الاقوال والافعال بما أبدى من المعجزات والآيات البينات فوجب أخذ أقواله مسلمة وان لم يظهر معناها (ولا كتاب) أى من الله تعالى ثم وصفه بما هو لازم له بقوله تعالى (منير) أى بين غاية البيان بل انما يجادل بالتقليد كما قال تعالى (واذا قيل) أى من أى قائل كان (لهم) أى المجادلين هذا الجدال (اتبعوا ما أنزل الله) أى الذى خلقكم وخلق آباءكم الاولين (قالوا) بجمود الانفعل (بل نتبع) وان أتيتنا بكل دليل (ما وجدنا عليه آباءنا) لانهم أثبت منا عقولا وأقوم قيلا وأهدى سبيلا فهذه المجادلة فى غاية القبح فان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وبين كلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله تعالى وكلام الجهال (أولو) أى أيتبعونهم ولو (كان الشيطان) أى البعيد من الرحمة المحترق باللعنة (يدعوهم) الى الضلال فيو بقهم فيما يسخط الرحمن فيؤديهم ذلك (الى عذاب السعير) وجواب لو محذوف مثل لاتبعوه والاستفهام للانكار والتعجب والمعنى ان الله تعالى يدعوهم الى الثواب والشيطان يدعوهم الى العذاب وهم مع هذا يتبعون الشيطان * ولما بين تعالى حال المشرك والمجادل فى الله بين تعالى حال المسلم المستسلم لامر الله تعالى بقوله تعالى (ومن يسلم) أى فى الحال والاستقبال (وجهه) أى قصده وتوجهه وذاته كلها (الى الله) أى الذى له صفات الكمال بأن فوض أمره اليه فلم يبق لنفسه أمر أصلا فهو لا يتحرك الا بأمر من أوامره سبحانه (وهو) أى والحال انه (محسن) أى مخلص بباطنه كما أخلص بظاهره فهو دائما فى حال الشهود (فقد استمسك) أى أوجد الامساك بغاية ما يقدر عليه من القوة فى تأدية الامور (بالعروة الوثقى) أى اعتصم بالعهد الاوثق الذى لا يخاف انقطاعه لان أوثق العرى جانب الله تعالى فان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له وهذا من باب التمثيل مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق جبل فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه (فان قيل) كيف قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله فعداه بالى وقال فى البقرة بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فعداه باللام (أجيب) بأن أسلم يتعدى تارة

باللام وتارة بالى كما يتعدى أرسل تارة باللام وتارة بالى قال تعالى وأرسلناك للناس رسولا وقال تعالى كما أرسلنا الى فرعون رسولا (والى الله) أى الملك الاعلى (عاقبة الامور) أى مصير جميع الاشياء اليه كما أن منه باديتها وانما خص العاقبة لانهم مقرون بالبادية * ولما بين تعالى حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال تعالى (ومن كفر) أى ستر ما أداه اليه عقله من أن الله تعالى لا شريك له وأن لا قدرة أصلا لاحد سواه ولم يسلم وجهه اليه (فلا يحزنك) أى يهمك ويوجعك (كفره) كائنا من كان فانه لم يفتك شئ فيه ولا معجز لنا ليحزنك ولا تبعة عليك بسببه فى الدنيا وفى الآخرة وأفرد الضمير فى كفره اعتبارا بلفظ من لارادة التنصيص على كل فرد وفى التعبير هنا بالماضى وفى الاول بالمضارع بشارة بدخول كثير فى هذا الدين وانهم لا يرتدون بعد اسلامهم وترغيب فى الاسلام لكل من كان خارجا عنه فالآية من الاحتباك ذكر الحزن ثانيا دليلا على حذف ضده أولا وذكر الاستمساك أولا دليلا على حذف ضده ثانيا (الينا) أى فى الدارين (مرجعهم فننبئهم) أى بسبب احاطتنا بأمرهم وعقب رجوعهم (بما عملوا) أى ونجازيهم عليه ان أردنا (ان الله) أى الذى لا كفء له (عليم) أى محيط العلم بما له من الاحاطة بأوصاف الكمال (بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أسرت صدورهم (نمتعهم) أى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا (قليلا) أى الى انقضاء آجالهم فان كل ات قريب وان ما يزول بالنسبة الى ما يدوم قليل (ثم نضطرهم) أى نلجئهم ونردهم فى الآخرة (الى عذاب غليظ) أى شديد ثقيل لا ينقطع عنهم أصلا ولا يجدون لهم منه محيصا من جهة من جهاته فكانه فى شدته وثقله جرم عظيم غليظ جدا اذا برك على شئ لا يقدر على الخلاص منه ثم انه تعالى لما سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى فلا يحزنك كفره أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب وهو رجوعهم الينا على أنه لا يتأخر الى ذلك اليوم بل يتبين قبل يوم القيامة كما قال تعالى (ولئن) اللام لام قسم (سألتهم من خلق السموات) اى باسرها ومن فيها (والارض) كذلك وقوله تعالى (ليقولن الله) أى المسمى بهذا الاسم حذف منه نون الرفع لتوالى الامثال وواو الضمير لالتقاء الساكنين فقد أقروا بأن كل ما أشركوا به بعض خلقه ومصنوع من مصنوعاته * ولما تبين بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال الله تعالى مستأنفا (قل الحمد) أى الاحاطة بجميع أوصاف الكمال (لله) أى الذى له الاحاطة الشاملة من غير تقييد بخلق الخافقين ولا غيره على ظهور الحجة عليهم بالتوحيد (بل أكثرهم لا يعلمون) أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك * ولما أثبت لنفسه سبحانه الاحاطة بأوصاف الكمال استدل على ذلك بقوله تعالى (لله) أى الملك الاعظم (ما فى السموات) كلها (والارض) كذلك ملكا وخلقا فلا يستحق العبادة فيهما غيره * ولما ثبت ذلك أنتج قطعا قوله تعالى (ان الله) أى الذى لا كفء له (هو) أى وحده (الغنى) مطلقا لان جميع الاشياء له ومحتاجة اليه وليس محتاجا الى شئ أصلا (الحميد) أى المستحق لجميع المحامد لانه المنعم على الاطلاق المحمود بكل

لسان

لسان من ألسنة الاحوال والاقوال لانه هو الذى أنطقها ومن قيد الخرس أطلقها * ولما قال تعالى لله مافى السموات والارض أوهم تناهى ملكه لانحصاره مافى السموات والارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين تعالى انه لاحد ولاضبط لمعلوماته ومقدوراته الموجبة لحمده بقوله تعالى (ولو أن مافى الارض) أى كلها ودل على الاستغراق وتقضى كل فرد فرد من أفراد الجنس بقوله تعالى (من شجرة) حيث وحدها (أقلام) أى والشجرة عدها من بعدها على سبيل المبالغة سبع شجرات وأن مافى الارض من البحر مداد لتلك الاقلام (والبحر) أى والحال أن البحر (يمده) أى يكون مداداله وزيادة فيه (من بعده) أى من ورائه (سبعة أبحر) تكتب بتلك الاقلام وذلك المداد الذى الارض كلها له دواة (مانفدت كلمات الله) وفنيت الاقلام والمداد قال المفسرون نزل بمكة قوله تعالى ويسئلونك عن الروح الآية فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد بلغنا أنك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله عليه وسلم كلا قد عنيت فقالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شئ فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله تعالى قليل وقد أتاكم ماان عملتم به انتفعتم قالوا يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فكيف يجتمع هذا علم قليل وخير كثير فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قتادة ان المشركين قالوا ان القرآن وما يأتى به محمد يوشك أن ينفد فينقطع فنزلت (فان قيل) كان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد (أجيب) بأنه أغنى عن ذكر المداد قوله تعالى يمده لانه من مد الدواة وأمدها جعل البحر الاعظم بمنزلة الدواة وجعل الابحر السبعة مملوأة مدادا فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع والمعنى ولو أن أشجار الارض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله مانفدت كلماته ونفدت الاقلام والمداد كقوله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لان المحصور لايفى بما ليس بمحصور وفيما لها من عظمة لاتتناهى ومن كبرياء لايجارى ولايضاهى (فان قيل) لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس (أجيب) بأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لايبقى من جنس الشجر ولا واحدة الا وقد بريت أقلاما (فان قيل) الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثير لا التقليل فهلا قيل كلم الله (أجيب) بأن معناه أن كلماته لاتفى بها البحار فكيف بكلمه وقرأ أبو عمرو والبحر بنصب الراء وذلك من وجهين أحدهما العطف على اسم ان أى ولو أن البحر ويمده الخبر والثانى النصب بفعل مضمر يفسره يمده والواو حينئذ للحال والجملة حالية ولم يحتج الى ضمير رابط بين الحال وصاحبها للاستغناء عنه بالواو والتقدير ولو أن الذى فى الارض حال كون البحر ممدودا بكذا وقرأ الباقون برفع الراء وذلك من وجهين أيضا أحدهما العطف على ان وما فى حيزها والثانى انه مبتدأ ويمده الخبر والجملة حالية والرابط الواو *(تنبيه)* قوله تعالى سبعة ليس لانحصارها فى سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر وانما خصصت السبعة

بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة ويدل على ذلك وجهان الاول ان المعلوم عند كل أحد لحاجته اليه هو الزمان والمكان فالزمان منحصر فى سبعة أيام والمكان منحصر فى سبعة أقاليم ولان الكواكب السيارة سبعة والمنجمون ينسبون اليها أمورا فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير ومنه قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء الثانى ان فى السبعة معنى يخصها ولذلك كانت السموات سبعا والارضون سبعا وأبواب جهنم سبعا وأبواب الجنة ثمانية لانها الحسنى وزيادة فالزيادة هى الثامن لان العرب عند الثامن يزيدون واوا تقول القراء لها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد تم بالسبعة ثم بين نتيجة ذلك بقوله تعالى (ان الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما (عزيز) أى كامل القدرة لانهاية لمقدوراته (حكيم) أى كامل العلم لانهاية لمعلوماته *(تنبيه)* قد علم مما تقرر أن الآية من الاحتباك ذكر الاقلام دليلا على حذف مدادها وذكر السبعة فى مبالغة الابحر دليلا على حذفها فى الاشجار * ولما ختم تعالى بهاتين الصفتين بعد اثبات القدرة على الابداع من غرائبها ذكر بعض آثارها فى البعث بقوله تعالى (ما خلقكم) أى كلكم فى عزته وحكمته الا كخلق نفس واحدة وأعاد النافى نصا على كل واحد من الخلق والبعث على حدته بقوله تعالى (ولا بعثكم) أى كلكم (الا كنفس) أى كبعث نفس وبين الافراد تحقيقا للمراد تأكيدا للسهولة بقوله تعالى (واحدة) فان كلماته مع كونها غير نافدة نافذة وقدرته مع كونها باقية بالغة فنسبة القليل والكثير الى قدرته على حد سواء لانه لا يشغله شان عن شان ثم دل على ذلك بقوله تعالى مؤكدا (ان الله) أى الملك الأعلى (سميع) أى بالغ السمع يسمع كل مسموع (بصير) أى بليغ البصر يبصر كل مبصر لا يشغله شئ عن شئ * ولما قرر تعالى هذه الآية الخارقة دل عليها بأمر محسوس يشاهد كل يوم مرتين بقوله تعالى (ألم تر) وهو محتمل وجهين أحدهما أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثر وكأنه تعالى ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لا فائدة فى الخطاب معهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم تبع له والوجه الثانى المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدا فيقول لجمع عظيم يا مسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك (ان الله) أى بجلاله وعز كماله (يولج) أى يدخل ادخالا لا مرية فيه (الليل فى النهار) فيغيب فيه بحيث لا يرى شئ منه فاذا النهار قد عم الارض كلها أسرع من اللمح (ويولج النهار) أى يدخله كذلك (فى الليل) فيخفى حتى لا يبقى له أثر فاذا الليل قد طبق الآفاق مشارقها ومغاربها فى مثل الطرف فميز سبحانه كلا منهما من الآخر بعد اضمحلاله فكذلك الخلق والبعث فى قدرته بعزته وحكمته لبلوغ سمعه ونفوذ بصره (وسخر الشمس) آية للنهار يدخل الليل فيه (والقمر) أى آية لليل كذلك ثم استأنف ما سخرا فيه بقوله تعالى (كل) أى منهما (يجرى) أى فى فلكه سائرا متماديا وبالغا ومنتهيا (الى أجل مسمى) لا يتعداه فى منازل معروفة فى جميع الفلك

لا يزيد ولا ينقص هذا في الشهر مرة وتلك في السنة مرة لا يقدر واحد منهما أن يتعدى طوره ولا أن ينقص دوره ولا أن يغير سيره *(تنبيه)* قال تعالى يولج بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر وسخر بصيغة الماضي لان ايلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم وقال ههنا الى أجل وفي الزمر لأجل لان المعنيين لائقان بالحرفين فلا عليك في أيهما وقع قال الاكثر وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل عام * ولما كان الليل والنهار محل الافعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى عليه بقوله تعالى (وان الله) أي بما له من صفات الكمال (بما تعملون) أي في كل وقت على سبيل التجدد (خبير) أي لا يخفى عليه شئ منه لانه الخالق له كله دقه وجله * ولما ثبت بهذه الاوصاف الحسنى والافعال العليا أنه لا موجد بالحقيقة الا الله تعالى قال تعالى (ذلك) أي المذكور (بأن) أي بسبب أن (الله) أي الذي لا عظيم سواه (هو) وحده (الحق) أي بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته المستحق للعبادة (وان ما يدعون) أي هؤلاء المختوم على مداركهم وأشار الى سفول رتبتهم بقوله تعالى (من دونه) أي غيره (الباطل) أي العدم في حد ذاته لا يستحق أن تضاف اليه الالهية بوجه من الوجوه وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص يدعون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وان مقطوعة من ما في الرسم (وان الله) أي الملك الاعظم وحده (هو العلي) على خلقه بالقهر فله الصفات العليا والاسماء الحسنى (الكبير) أي العظيم في ذاته وصفاته * ولما قال تعالى ألم تر أن الله يولج الليل في النهار وسخر الشمس والقمر ذكر آية سماوية وأشار الى السبب والمسبب ذكر بعده آية أرضية تدل على باهر قدرته وكمال نعمته وشمول انعامه وأشار الى السبب والمسبب بقوله تعالى (ألم تر) رفي الخاطب بذلك ما تقدم (أن الفلك) أي السفن كبارا وصغارا (تجري) أي بكم حاملة ما تعجزون عن نقل مثله في البر (في البحر) أي على وجه الماء (بنعمة الله) أي بانعام الملك الاعلى المحيط علما وقدرة المحسن اليكم بتعليم صفتها حتى تهيأت لذلك على يد أبيكم نوح العبد الشكور عليه السلام وقيل نعمة الله هنا هي الريح التي تحرك بامر الله (ليريكم من آياته) أي عجائب قدرته ودلائله التي تدلكم على أنه الحق الذي ثبت بوجوب وجوده ما ترون من الاحمال الثقال على وجه الماء الذي ترسب فيه الابرة فما دونها (ان في ذلك) أي الامر الهائل البديع الرفيع (لآيات) أي دلالات واضحات على ماله من صفات الكمال (لكل صبار) على المشاق فيبعث نفسه في التفكر في عدم غرقه وفي مسيره الى البلاد الشاسعة والاقطار البعيدة وفي كون سيره ذهابا وايابا تارة بريحين وتارة بريح واحدة وفي انجاء أبيه نوح عليه السلام ومن أراد الله تعالى من خلقه بها واغراق غيرهم من جميع أهل الارض وفي غير ذلك من شؤنه وأموره (شكور) أي مبالغ في كل من الصبر والشكر لانهما الايمان كما ورد الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وعلم من صيغة المبالغة في كل منهما أنه لا يعرف في الرخاء من

عظمة الله ما كان يعرفه فى الشدة الامن طبعهم الله تعالى على ذلك ووفقهم له وأعانهم عليه ولهذا قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وها أنا أسأل الله الحنان المنان من فضله أن يجعلنى منهم ويفعل ذلك بأهلى وأحبابى فانه كريم جواد * ولما ذكر تعالى ان فى ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون غير أن البصير يدركه أولا ومن فى بصيرته ضعف لايدركه أولا كما قال تعالى (واذا غشيهم) أى علاهم وهم فى الفلك حتى صار كالمغطى لهم (موج) أى هذا الجنس وأفرده لشدة اضطرابه واتيانه شيأ فى اثر شئ متتابعا يركب بعضه بعضا كأنه شئ واحد وأصله من الحركة والازدحام واختلف فى قوله تعالى (كالظلل) فقال مقاتل كالجبال وقال الكلبى كالسحاب والظلل جمع ظلة شبه بها الموج فى كثرتها وارتفاعها (فان قيل) كيف جعل الموج وهو واحد كالظلل وهو جمع (أجيب) بأن الموج يأتى منه شئ بعد شئ فلما صاروا الى هذه الحالة (دعوا الله) أى مستحضرين لما يقدر عليه الانسان من كماله بجلاله وجماله عالمين بجميع مضمون الآية السابقة من حقيته وعلوه وكبريائه وبطلان مايدعونه من دونه (مخلصين له الدين) أى الدعاء بأن يخيهم لايدعون شيأ سواه بأنفسهم ولا قلوبهم لما اضطرهم الى ذلك (فلما نجاهم) أى خلصهم من تلك الاهوال (الى البر) نزلوا عن تلك المرتبة التى أخلصوا فيها الدين وانقسموا قسمين (فنهم) اى تسبب عن نعمة الانجاء انه كان منهم (مقتصد) اى عدل موف فى البر بما قد عاهد الله عليه فى البحر من التوحيد له بمعنى أنه ثبت على ذلك وهم قليل كما دل عليه التصريح بالتبعيض قيل نزلت فى عكرمة بن أبى جهل هرب فى عام الفتح الى البحر فجاءتهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن نجانى الله من هذه لأرجعن الى محمد صلى الله عليه وسلم ولاضعن يدى فى يده فسكنت الريح فرجع عكرمة الى مكة فأسلم وحسن اسلامه وقال مجاهد مقتصد فى القول مضمر للكفر وقال الكلبى مقتصد فى القول أى من الكفار لان بعضهم كان أشد قولا وأعلى فى الافتراء من بعض ومنهم جاحد للنعمة ملق لجلباب الحياء فى التصريح بذلك وهو الاكثر كما دل عليه ترك التصريح فيه بالتبعيض (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقال هنا فلما نجاهم الى البر فنهم مقتصد (أجيب) بأنه لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عندهم أثر وقوله تعالى (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) أى غدار فانه نقض للعهد الفطرى أى لما كان فى البحر والختر أشد الغدر (كفور) أى للنعم فى مقابلة قوله تعالى ان فى ذلك لآيات أى يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار الكفور فالصبار فى موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور فى موازنة الشكور كذلك أما لفظا فيهما فظاهر وأما كون الختار فى موازنة الصبار معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو شديد الغدر مثال مبالغة من الختر وهو أشد الغدر والغدر لايكون الامن قلة الصبر لان الصبور لايعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوض الامر الى الله تعالى وأما الغدار فيعاهد ولايصبر على العهد فينقضه وأما ان الكفور فى

مقابلة الشكور معنى فظاهر * ولما ذكر تعالى الدلائل من أول السورة الى هنا وعظ بالتقوى بقوله تعالى (يا أيها الناس) أى عامة وقيل أهل مكة (اتقوا ربكم) أى الذى لا محسن اليكم غيره (واخشوا) أى خافوا (يوما) لا يشبه الأيام ولا يعد هول البحر ولا غيره عند أدنى هول من أهواله شيأ بوجه (لا يجزى) أى لا يقضى ولا يغنى (والد عن ولده) والراجع الى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه وفى التعبير بالمضارع اشارة الى أن الوالد لا تزال تدعوه الوالدية الى الشفقة على الولد ويتجدد عنده العطف والرقة والمفعول اما محذوف لانه أشد فى النفى واما مدلول عليه بما فى الشق الذى بعده وقوله تعالى (ولا مولود) عطف على والد أو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده) أى فيه (شيأ) من الجزاء وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة (ان وعد الله) أى الذى له معاقد العز والجلال (حق) أى ان هذا اليوم الذى هذا شأنه هو كائن لان الله تعالى وعد به ووعده حق وقيل ان وعد الله حق بأن لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ لانه وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بزخرفها ورونقها فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق (ولا يغرنكم بالله) أى الذى لا أعظم منه ولا مكافئ مع ولايته معكم (الغرور) أى الكثير الغرور والمبالغ فيه وهو الشيطان الذى لا أحقر منه لما جمع من البعد والطرد والاحتراق مع عداوته بما يزين لكم من أمرها ويلهيكم به من تعظيم قدرها وينسيكم كيدها وغدرها وتعبها وأذاها فيوجب ذلك لكم الاعراض عن ذلك اليوم فلا تعدونه معادا فلا تتخذون له زادا لما اقترن بغروره من حلم الله تعالى وامهاله قال سعيد بن جبير الغرة بالله أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة * وروى أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى قيام الساعة وانى قد ألقيت حبا فى الارض فتى السماء تمطر وحمل امرأتى أذكر أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزل قوله تعالى (ان الله) أى بما له من العظمة وجميع أوصاف الكمال (عنده) أى خاصة (علم الساعة) أى وقت قيامها لا علم لغيره بذلك أصلا (وينزل الغيث) أى فى أوانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (ويعلم ما فى الارحام) أى من ذكر أو أنثى احى أو ميت تام أو ناقص (وما تدرى نفس) أى من الانفس البشرية وغيرها (ماذا تكسب غدا) أى من خير أو شر وربما تعزم على شئ وتفعل خلافه (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى كما لا تدرى فى أى وقت تموت ويعلمه الله تعالى وروى ابن أبى حاتم عن مجاهد قال جاء رجل من أهل البادية فقال يا رسول الله ان امرأتى حبلى فاخبرنى ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت فأنزل الله تعالى هذه الآية وعن عكرمة أن رجلا يقال له الوارث من بنى مازن جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد متى قيام الساعة وقد أجدبت بلادنا فتى تخصب وقد تركت امرأتى حبلى فتى تلد وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا وقد علمت بأى أرض ولدت

فبأى أرض اموت فنزلت هذه الآية وعن قتادة قال خمس من الغيب استأثر الله بهن فلم يطلع
عليهن ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ان الله عنده علم الساعة فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم
الساعة فى أى سنة ولا فى أى شهر أليلا أم نهارا وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل أليلا
أم نهارا ويعلم ما فى الارحام فلا يعلم أحد ما فى الارحام أذكر أم أنثى احمر أم أسود ولا تدرى
نفس ماذا تكسب غدا أخيرا أم شرا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ليس أحد من الناس
يدرى أين مضجعه من الارض أفى بحر أم فى بر أم سهل أم جبل وعن أحمد وابن أبى شيبة موقوفا
على شهر بن حوشب ان ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر
اليه فقال الرجل من هذا فقال ملك الموت فقال فكأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى
بالهند فأمر سليمان الريح فحملته الى بلاد الهند فوق سحابة فلما استقر فيها قبض روحه ملك
الموت عليه السلام ثم جاء الى سليمان عليه السلام فسأله عن نظره الى الرجل فقال ملك الموت
كان دوام نظرى اليه تعجبا منه اذ أمرت ان أقبض روحه بالهند وهو عندك وعن ابن عمر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله لا يعلم ما فى غد الا الله
ولا متى تقوم الساعة الا الله ولا ما فى الارحام الا الله ولا متى ينزل الغيث الا الله وما تدرى نفس
بأى أرض تموت الا الله وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رجلا قال يا رسول الله متى
الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثكم باشراطها اذا ولدت الامة ربتها
فذلك من اشراطها واذا كانت الحفاة الرعاة رؤس الناس فذلك من أشراطها واذا تطاول رعاء
الغنم فى البنيان فذلك من أشراطها وخمس من الغيب لا يعلمهن الا الله ثم تلا ان الله عنده علم
الساعة الى آخر الآية وعن أبى أمامة أن اعرابيا وقف على النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر على
ناقة له عشراء فقال يا محمد ما فى بطن ناقتى هذه فقال له رجل من الانصار دع عنك رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهلم الى حتى أخبرك وقعت أنت عليها وفى بطنها ولد منك فأعرض عنه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قال ان الله يحب كل حيى كريم ويبغض كل قاس لئيم متفحش ثم أقبل على
الاعرابى فقال خمس لا يعلمهن الا الله ان الله عنده علم الساعة الآية وعن سلمة بن الاكوع
قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة حمراء اذ جاءه رجل على فرس فقال له من أنت قال
أنا رسول الله قال متى الساعة قال غيب وما يعلم الغيب الا الله قال ما فى بطن فرسى قال غيب وما
يعلم الغيب الا الله قال فمتى تمطر قال غيب وما يعلم الغيب الا الله وعن ابن عمر أن النبى صلى الله
عليه وسلم قال أوتيت مفاتيح كل شئ الا الخمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن ابن مسعود
قال أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شئ غير خمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن
على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لم يعم على نبيكم الا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية
فى آخر لقمان ان الله عنده علم الساعة الى آخر السورة وعن ربعى قال حدثنى رجل من بنى عامر
أنه قال يا رسول الله هل بقى من العلم شئ لا تعلمه فقال لقد علمنى الله خيرا وان من العلم ما لا يعلمه الا
الله الخمس ان الله عنده علم الساعة الآية وعن بنت معوذ قالت دخل على رسول الله صلى الله

عليه وسلم صبيحة عرسي وعندى جاريتان تغنيان وتقولان وفينا نبي يعلم ما في غد فقال أما هذا فلا تقولاه ما يعلم ما في غد الا الله وعن ابن عزة الهذلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له اليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تدرى نفس بأى أرض تموت وعن أبى مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس فى مجلس فيه أصحابه جاءه جبريل فى غير صورته يحسبه رجلا من المسلمين فسلم فرد عليه السلام ثم وضع يده على ركبتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ما الاسلام قال أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة قال فاذا فعلت ذلك فقد أسلمت قال نعم ثم قال ما الايمان قال أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والموت والحياة بعد الموت والجنة والنار والحساب والميزان والقدر خيره وشره قال فاذا فعلت ذلك فقد آمنت قال نعم ثم قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان كنت لا تراه فانه يراك قال فاذا فعلت ذلك فقد أحسنت قال نعم ثم قال فتى الساعة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله خمس من الغيب لا يعلمها الا الله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت (ان الله) أى المختص بأوصاف الكمال (عليم) أى شامل علمه للامور كلها كلياتها وجزئياتها فأثبت العلم المطلق لنفسه سبحانه بعد أن نفاه عن الغير فى هذه الخمس (خبير) أى يعلم خبايا الامور وخفايا الصدور كما يعلم ظواهرها وجلاياها كل عنده على حد سواء فهو الحكيم فى ذاته وصفاته ولذلك أخفى هذه المفاتيح عن عباده لانه لو أطلعهم عليها لفات كثير من الحكم باختلال هذا النظام على ما فيه من الاحكام فقد انطبق آخر السورة باثبات العلم والخبر مع تقرير أمر الساعة التى هى مفتاح الدار الآخرة على أولها الخبر بحكمة صفته التى من علمها حق علمها وتخلق بما دعت اليه وحضت عليه لاسيما الايقان بالآخرة كان حكيما فسبحان من هذا كلامه وتعالى كبرياؤه وعز مرامه وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر حديث موضوع

﴿سورة السجدة مكية﴾

وهى ثلاثون آية وستمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا

(بسم الله) ذى الجلال والاكرام (الرحمن) بعموم البشارة والنذارة (الرحيم) الذى أسكن فى قلوب أحبابه الشوق اليه والخضوع بين يديه وتقدم فى البقرة وغيرها الكلام على (الم) ومما لم يسبق انها اشارة الى ان الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام الى محمد الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم بكتاب معجز دال باعجازه على صحة رسالته ووحدانية من أرسله وسرد سبحانه هذه الاحرف

في أوائل أربع من هذه السور فزادت على الطواسين بواحدة اشارة الى ان هذه المعاني في غاية الثبات لا انقطاع لها * ولما كان المقصود في التي قبلها اثبات الحكمة لمنزل هذا الكتاب الذي فيه تبيان كل شيء أخبر سبحانه وتعالى عن هذا بأنه من عنده بقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أي الجامع لكل هدى على ما ترون من التدريج من السماء (لا ريب) أي لا شك (فيه) لان نافي الشك هو الاعجاز معه لا ينفك عنه فكل ما تقولونه مما يخالف ذلك تعنت أو جهل من غير ريب حال كونه (من رب العالمين) أي الخالق لهم المدبر لمصالحهم فلا يجوز في عقل ولا يخطر في بال ولا يقع في وهم ولا يتصور في خيال انه يصل شيء من كتابه تعالى الى هذا النبي الكريم بغير أمره ولا يتخيل ان شيأ منه ليس بقول الله تعالى ثم لا يتخيل أنه من كلامه ولكنه أخذه من بعض أهل الكتاب لان هذا لا يفعل مع بعض الملوك فكيف بملك الملوك فكيف بمن هو عالم بالسر والجهر محيط علمه بالخفي والجلي *(تنبيه)* في تنزيل الكتاب اعرابات مختلفة وأظهرها ما جرى عليه الجلال المحلي من أن تنزيل الكتاب مبتدأ ولا ريب فيه خبر أول ومن رب العالمين خبر ثان وقوله تعالى (أم يقولون) أي مع ذلك الذي لا يمترى فيه عاقل (افتراه) أي تعمد كذبه أم فيه هي المنقطعة والاضراب للانتقال لا للابطال وقيل الميم صلة أي أتقولون افتراه وقوله تعالى (بل هو الحق) أي الثابت ثباتا لا يضاهيه ثبات شيء من الكتب قبله اضراب ثان ولو قيل بأنه اضراب ابطالي لنفس افتراه وحده لكان صوابا وعلى هذا يقال كل ما في القرآن اضراب فهو اضراب انتقالي الا هذا فانه يجوز أن يكون ابطاليا لانه ابطال لقولهم أي ليس هو كما قالوا مفترى بل هو الحق وفي كلام الزمخشري ما يرشد الى هذا فانه قال والضمير في فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لا ريب في ذلك أي في كونه من رب العالمين قال ابن عادل ويشهد لوجاهته أم يقولون افتراه لان قولهم هذا مفترى انكار لان يكون من رب العالمين وكذلك قوله بل هو الحق من ربك وما فيه من تقرير انه من عند الله وهذا أسلوب صحيح محكم انتهى وقوله تعالى (من ربك) أي المحسن اليك بانزاله واحكامه حال من الحق والعامل فيه محذوف على القاعدة وهو العامل أيضا في (لتنذر) ويجوز أن يكون العامل في لتنذر غيره أي أنزله لتنذر (قوما) أي ذوي قوة وجلد ومنعة (ما أتاهم من نذير) أي رسول في هذه الأزمان القريبة لقول ابن عباس ان المراد الفترة ويؤيده اثبات الجار في قوله تعالى (من قبلك) ولما ذكر تعالى علة الانزال أتبعه علة الانذار بقوله تعالى (لعلهم يهتدون) أي ليكون حالهم في مجاري العادات حال من ترجى هدايته الى كمال الشريعة وأما التوحيد فلا عذر لاحد فيه مع اقامة الله تعالى من حجة العقل ومع ما أتقنه الرسل عليهم الصلاة والسلام آدم فمن بعده من أوضح النقل بآثار دعواتهم وبقايا دلالاتهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن أبيه أبي وأبوك في النار وغير ذلك من الادلة الدالة على ان من مات قبل دعوته على الشرك فهو في النار لكن ذكر بعض العلماء أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى أحيا له أبويه وأسلما على يديه ولا بدع في ذلك فان الله تعالى أكرمه بأشياء لا تحصر * ولما ذكر

زمانى الرسالة وبين ماعلى الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل قال (الله) أى الحاوى لجميع صفات الكمال وحده (الذى خلق السموات) كلها (والارض) باسرها (ومابينهما) من المنافع العينية والمعنوية (فى ستة أيام) كما يأتى تفصيله فى فصلت ان شاء الله تعالى (ثم استوى على العرش) وهو فى اللغة سرير الملك استواء يليق به تعالى لم تعهدوا مثله وهو أنه تعالى أخذ فى تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه لاشريك له ولا نائب فيه ولا وزير كما تعهدون من ملوك الدنيا اذا امتنعت ممالكهم وتباعدت أطرافها وتناءت أقطارها (مالكم من دونه) لان كل ماسواه دونه وتحت قهره ودل على عموم النفى بقوله تعالى (من ولى) أى يلى أموركم ويقوم بمصالحكم وينصركم اذا حل بكم شئ مما تنذرون به (ولاشفيع) يشفع عنده فى تدبيركم أوفى أحد منكم بغير اذن (أفلا تتذكرون) هذا فتؤمنون * ولما نفى أن يكون له وزير أوشريك فى الخلق ذكر كيف يفعل فى هذا الملك العظيم الذى أبدعه فقال مستأنفا مفسرا للمراد بالاستواء (يدبر الامر) أى كل أمر هذا العالم بأن يفعل فى ذلك فعل الناظر فى أدباره لاتقان خواتمه ولوازمه كما نظر فى اقباله لاحكام فواتحه وعوازمه لايكل شيأ منه الى أحد من خلقه قال الرازى فى اللوامع وهذا دليل على ان استواءه على العرش بمعنى اظهاره القدرة والعرش مظهر التدبير لا مقر لمدبر * ولما كان المقصود للقرب انماهو تدبير ما يمكن مشاهدتهم له من العالم قال تعالى مفردا (من السماء) أى فينزل ذلك الامر الذى أتقنه كما يتقن من ينظر فى ادبار مايعمله (الى الارض) أى غير متعرض الى مافوق ذلك على أن السماء تشمل كل عال فيدخل جميع العالم العلوى والارض تشمل كل ماسفل فيشمل ذلك العالم السفلى * (تنبيه) * ههنا همزتان مكسورتان فقالون وابن كثير يسهل الاولى كالياء مع المد والقصر وورش وقنبل يسهل الثانية وابدالها ابدالها من غير مد وأسقط أبو عمرو الاولى مع المد والقصر والباقون بتحقيقهما * ولما كان الصعود أشق من النزول على ما جرت به العوائد كان بذلك مستبعدا أشار الى ذلك بقوله تعالى (ثم يعرج) أى يصعد (اليه) أى بصعود الملك الى الله تعالى أى الى الموضع الذى شرفه أو أمره بالكون فيه كقوله تعالى انى ذاهب الى ربى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ونحو ذلك أو الى الموضع الذى ابتدأ منه نزول التدبير الى السماء كأنه صاعد فى معارج وهى الدرج على ماتتعارفون بينكم فى أسرع من لمح البصر (فى يوم) أى من أيام الدنيا (كان مقداره) لو كان الصاعد واحدا منكم على ماتعهدون (ألف سنة مما تعدون) من سنيكم التى تعهدون قال البقاعى والذى دل على هذا التقدير شئ من العرف وشئ من اللفظ أما اللفظ فالتعبير بكان مع انتظام الكلام بدونها لو أريد غير ذلك وأما العرف فهو ان الانسان المتمكن يبنى البيت العظيم العالى فى سنة مثلا فاذا فرغه صعد اليه خادمه الى أعلاه فى أقل من درجتين من درج الرمل فلا تكون نسبة ذلك من زمن بنائه الاجزأ ولا يعد هذا وهو خلق محتاج فما ظنك بمن خلق الخلق فى ستة ايام ولو شاء لخلقهم فى لمحة وهو غنى عن كل شئ قادر على كل شئ انتهى فنزول الامر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو مابين السماء والارض فان

مسافته خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ويعرج فى خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة كأنه تعالى يقول لو سار أحد من بنى آدم لم يقطعه الا فى ألف سنة والملائكة يقطعونه فى يوم واحد هذا فى وصف عروج الملك من الارض الى السماء وأما قوله تعالى تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فأراد مدة المسافة من الارض الى سدرة المنتهى التى هى مقام جبريل عليه السلام فسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة فى يوم واحد من أيام الدنيا قاله مجاهد والضحاك وورد انه صلى الله عليه وسلم قال بين السماء والارض خمسمائة عام ثم قال أتدرون ما الذى فوقها قلنا الله ورسوله اعلم قال سماء أخرى أتدرون كم بينها وبينها قلنا الله ورسوله اعلم قال خمسمائة عام حتى عد سبع سموات ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك قلنا الله ورسوله اعلم قال العرش ثم قال أتدرون ما بينه وبين السماء السابعة قلنا الله ورسوله أعلم قال مسيرة خمسمائة عام ثم قال ما هذه تحتكم قلنا الله ورسوله اعلم قال أرض أتدرون ما تحتها قلنا الله ورسوله اعلم قال أرض أخرى أتدرون كم بينهما قلنا الله ورسوله اعلم قال مسيرة سبعمائة عام حتى عد سبع أرضين ثم قال ايم الله لو دليتم بحبل لهبط على علم الله وقدرته وروى مثل السموات والارض فى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة وان فضل الكرسى على السموات والارض كفضل الفلاة على تلك الحلقة وقوله تعالى وسع كرسيه السموات والارض يدل على ان الكرسى محيط بالكل وقيل مقدار ألف سنة وخمسين ألف سنة كلها فى القيامة ومعناه حينئذ يدبر الامر من السماء الى الارض مدة أيام الدنيا ثم يعرج أى يرجع الامر والتدبير اليه بعد فناء الدنيا فى يوم كان مقداره ذلك وذلك اليوم يتفاوت فهو على الكافر كخمسين ألف سنة وعلى المؤمن دون ذلك بل جاء فى الحديث انه يكون على المؤمن كمثل صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا وقيل ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله فى يوم كان مقداره ألف سنة يعنى يدبر الامر فى زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم يكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا فلا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لان ذلك اذا كان اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بألف سنة أو بخمسين ألف سنة لا يتفاوت الا أن المبالغة بالخمسين أكثر وسيأتى بيان فائدتها فى موضعها ان شاء الله تعالى * ولما تقرر هذا من عالم الاشباح والخلق ثم عالم الارواح والامر بين انه تعالى عالم بما كان وما يكون بقوله تعالى (ذلك) أى الاله الواحد القهار (عالم الغيب والشهادة) أى ما غاب عن الخلق ومنه الذى تقدمت مفاتيحه وما حضر وظهر فيدبر أمرهما (العزيز) أى الغالب على أمره (الرحيم) على العباد فى تدبيره وفيه ايماء بأنه تعالى يراعى المصالح تفضلا واحسانا * ولما ذكر تعالى الدليل على الوحدانية من الآفاق بقوله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما ذكر الدليل عليها من الانفس بقوله تعالى (الذى أحسن كل شئ خلقه) قال ابن عباس أتقنه وأحكمه فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان

في أحسن تقويم وقال مقاتل علم كيف يخلق كل شيء من قول القائل فلان يحسن كذا اذا كان يتقنه وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض وقيل معناه أحسن الى كل خلقه وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام فعلا ماضيا والجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه والباقون بسكونها على انه بدل من كل شيء بدل اشتمال والضمير عائد على كل شيء * ولما كان الحيوان أشرف الاجناس وكان الانسان أشرفه خصه بالذكر ليقوم دليل الوحدانية بالانفس كما قام بالآفاق فقال دالا على البعث (وبدأ خلق الانسان) أي آدم عليه السلام (من طين) قال الرازي ويمكن أن يقال الطين ماء وتراب مجتمعان فالآدمي أصله مني والمني أصله غذاء والاغذية اما حيوانية أو نباتية والحيوانية ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو الطين (ثم جعل نسله) أي ذريته (من سلالة) أي نطفة سميت سلالة لانها تسل من الانسان أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل هذا على التفسير الاول لان آدم كان من الطين ونسله من سلالة (من ماء مهين) أي ضعيف وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من طين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هي ماء مهين وهو نطفة الرجل وأشار الى عظمة ما بعد ذلك من خلقه وتطويره بقوله تعالى (ثم سواه) قومه بتصوير أعضائه وابداع المعاني على ما ينبغي (ونفخ فيه) أي آدم (من روحه) أي جعله حيا حساسا بعد ان كان جمادا واضافة الروح الى الله تعالى اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله فيها من شرف ما أعلاه ففيه اشعار بأنه خلق عجيب وان له شأنا له مناسبة ما الى الحضرة الربوبية قال البيضاوي ولاجله أي ولاجل كون ان له شأنا الى آخره روى من عرف نفسه فقد عرف ربه هذا الحديث لا أصل له وبتقدير أن له أصلا ليس معناه ما ذكر بل معناه من عرف نفسه وتأمل في حقيقتها عرف ان له صانعا موجدا له واليه أشار بقوله تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد مخاطبا للذرية بقوله تعالى (وجعل لكم) بعد ان كنتم نطفا أمواتا (السمع) أي لتدركوا به ما يقال لكم (والابصار) أي لتدركوا بها الاشياء على ما هي عليه (والافئدة) أي القلوب المودعة غرائز العقول (فان قيل) ما الحكمة في تقديم السمع على البصر والبصر على الافئدة (أجيب) بأن الانسان يسمع أولا كلاما فينظر الى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام ليفهم معناه (فان قيل) ما الحكمة في ذكر المصدر في السمع وفي البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع (أجيب) بأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد وهو الاذن ولا اختيار لها فيه وان الصوت من أي جانب كان واصل اليه ولا قدرة للاذن على تخصيص السمع بادراك البعض دون البعض وأما البصر فمحله العين ولها فيه اختيار فانها تتحرك الى جانب المرئي دون غيره وكذلك الفؤاد محله الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الابصار والافئدة الاسم الذي هو محل القوة ولان السمع

قوة واحدة لها محل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويرى فى زمان واحد صورتين فأكثر ويثبتهما (فان قيل) لم قدم السمع ههنا وقدم القلب فى قوله تعالى فى البقرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم (أجيب) بأنه تعالى عند الاعطاء ذكر الادنى ثم ارتقى الى الاعلى فكأنه قال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به عمن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها * ولما لم يبادروا الى الايمان عند التذكير بهذه النعم الجسام قال تعالى (قليلا ما تشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا فما مزيدة مؤكدة للقلة وقوله تعالى (وقالوا) معطوف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والاله ليس بواحد والبعث ليس بممكن فدل على صحة الرسالة بنفى الريب عن الكتاب ثم على الوحدانية بشمول القدرة واحاطة العلم بابداع الخلق على وجه هو نعمة لهم وختم بالتعجب من كفرهم وكان استبعادهم للبعث الذى هو الثابت الاصل من أعظم كفرهم وهو قولهم (أئذا) أى انبعث اذا (ضللنا) أى غبنا (فى الارض) أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب الارض لا نتميز منه وأصله من ضل الماء فى اللبن اذا ذهب فيه وقولهم (أئنا لفى خلق جديد) أى يجدد خلقنا استفهام انكارى زيادة فى الاستبعاد (فان قيل) انه تعالى ذكر الرسالة من قبل وذكر دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه وذكر الوحدانية وذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان من طين * ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل (أجيب) بأنه ذكر دليله أيضا وهو ان خلقه الانسان ابتداء دليل على قدرته على الاعادة ولهذا استدل تعالى على انكار الحشر بالخلق الاول ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله تعالى الذى أنشأها أول مرة وأيضا خلق السموات والارض كما قال أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وقرأ نافع والكسائى أئذا ضللنا فى الارض انا الاول بالاستفهام والثانى بالخبر وقرأ ابن عامر الاول بالخبر والثانى بالاستفهام والباقون بالاستفهام فيهما ومذهب قالون وأبى عمرو فى الاستفهام تسهيل الثانية وادخال الالف بينها وبين همزة الاستفهام وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال وهشام يسهل الثانية ويحققها مع الادخال والباقون بتحقيقهما من غير ادخال وقوله تعالى (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أى جاحدون اضراب عن الاول أى ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب أو يكون المعنى لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم بلقاء الله فانهم كرهوه فأنكروا المفضى اليه ثم بين لهم ما يكون من الموت الى العذاب بقوله تعالى (قل) اى يا أفضل الخلق لهم (يتوفاكم) أى يقبض أرواحكم (ملك الموت الذى وكل بكم) أى بقبض أرواحكم وهو عزرائيل عليه السلام والتوفى استيفاء العدد معناه أن يقبض أرواحهم حتى لا يبقى أحد من العدد الذى كتب عليه الموت روى أن ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة لليد يأخذ منها صاحبها ما أحب من غير مشقة فهو يقبض أنفس الخلق من مشارق الارض ومغاربها وله أعوان من

ملائكة الرحمة وأعوان من ملائكة العذاب وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب وقال مجاهد جعلت الارض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وفي بعض الاخبار ان ملك الموت على معراج بين السماء والارض فتنزع أعوانه روح الانسان فاذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت وعن معاذ بن جبل ان لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب وهو يتصفح وجوه الناس فما من أهل بيت الا وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين فاذا رأى انسانا قد انقضى أجله ضرب رأسه بتلك الحربة وقال الآن يزار بك عسكر الموت فيصير ملقى لا روح في شيء منه وهو على حاله كاملا لا نقص في شيء منه يدعى الخلل بسببه فاذا كان هذا فعل عبد من عبيده تعالى صرّفه في ذلك فقام به كما ترونه مع أن ممازجة الروح للبدن أشد من ممازجة تراب البدن لبقية التراب لانه ربما يستدل بعض الحذق على بعض ذلك بنوع دليل من شم ونحوه فكيف يستبعد شيء من الاشياء على رب العالمين ومدبر الخلائق أجمعين نسأل الله تعالى أن يقبضنا على التوحيد وان يستعملنا في طاعته ما أحيانا ويفعل ذلك بأهلنا وأحبابنا * ولما قام هذا البرهان القطعي على قدرته التامة علم أن التقدير ثم يعيد كم خلقا جديدا كما كنتم أول مرة فحذفه كما هو عادة القرآن في حذف كل ما دل عليه السياق ولم يدع داع الى ذكره وعطف عليه قوله تعالى (ثم الى ربكم) أي الذي ابتدأ خلقكم وتربيتكم وأحسن اليكم غاية الاحسان (ترجعون) أي تصيرون اليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم * ولما تقرر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لبس شرع في بعض أحواله بقوله تعالى (ولو ترى) أي تبصر (اذ المجرمون) أي الكافرون (ناكسوا رؤسهم) أي مطأطؤها خوفا وخجلا وحزنا وذلا (عند ربهم) المحسن اليهم المتوحد بتدبيرهم قائلين بغاية الذل والرقة (ربنا) أي المحسن الينا (أبصرنا) أي ما كنا نكذب به (وسمعنا) منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه (فارجعنا) بما لك من هذه الصفة المقتضية للاحسان الى الدنيا دار العمل (نعمل صالحا) فيها (انا موقنون) أي ثابت لنا الآن الايقان بجميع ما أخبرنا به عنك فلا ينفعهم ذلك ولا يرجعون وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا والمخاطب يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم شفاء لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما واذ على بابها من المضي لان لو تصرف المضارع للمضي وانما جيء هنا ماضيا لتحقق وقوعه نحو أتى أمر الله وجعله أبو البقاء مما وقع فيه اذ موقع اذا ولا حاجة اليه وقوله تعالى (ولو شئنا) أي بما لنا من العظمة (لآتينا كل نفس) أي مكلفة لان الكلام فيها (هداها) فتهتدي بالايمان والطاعة باختيار منها جواب عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا وذلك ان الله تعالى قال اني لو أردت منكم الايمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين اني ما أردت ولا شئت ايمانكم فلا أردكم وهذا صريح في الدلالة على صحة مذهب أهل السنة حيث قالوا ان الله تعالى ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه الا الكفر (ولكن) لم أشأ ذلك لانه (حق القول مني) وأنا من لا يخلف الميعاد

لان الاخلاف اما العجز أو نسيان أو حاجة ولا شئ من ذلك يليق بجنابي ولا يحل بساحتي وأكد لأجل انكارهم فقال مقسما (لأملأن جهنم) أى التى هى محل اهانتى (من الجنة) أى الجن طائفة ابليس وكأنه تعالى انثهم تحقيرا لهم عند من يستعظم أمرهم وبدأ بهم لاستعظامهم لهم ولانهم الذين أضلوهم (والناس أجمعين) حيث قلت لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فلذلك شئت كفر الكافر وعصيان العاصى بعد ان جعلت لهم اختيارا وغيبت العاقبة عنهم فصار الكسب ينسب اليهم ظاهرا والخلق فى الحقيقة والمشيئة لى * ولما تسبب عن هذا القول الصادق أنه لا محيص لهم عن عذابهم قال لهم الخزنة اذا دخلوا جهنم (فذوقوا) العذاب (بما) أى بسبب ما (نسيتم لقاء يومكم) وحققه وبين ذلك بقوله تعالى (هذا) أى بترككم الايمان به (انا نسيناكم) أى عاملناكم بما لنا من العظمة ولكم من الحقارة معاملة الناسى لكم فتركناكم فى العذاب (وذوقوا عذاب الخلد) أى المختص بأنه لا آخر له (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) أى من الكفر والتكذيب وانكار البعث * ولما ذكر تعالى علامة أهل الكفران ذكر علامة أهل الايمان بقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا) أى الدالة على عظمتنا (الذين اذا ذكروا بها) أى من أى مذكر كان فى أى وقت كان (خروا سجدا) أى بادروا الى السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد خضوعا لله من شدة تواضعهم وخشيتهم واخباتهم خضوعا ثابتا دائما (وسبحوا) أى أوقعوا التسبيح به عن كل شائبة نقص متلبسين (بحمد ربهم) أى قالوا سبحان الله وبحمده وقيل صلوا بأمر ربهم * ولما تضمن هذا تواضعهم صرح به فى قوله تعالى (وهم لا يستكبرون) أى عن الايمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التى فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا مكانا لموضع جبهته فى غير وقت الصلاة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل ابليس يبكى يقول يا ويلتى أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارئ والمستمع والسامع * ولما كان المتواضع ربما نسب الى الكسل نفى ذلك عنهم مبينا لما تضمنته الآية السالفة من خوفهم بقوله تعالى (تتجافى) أى ترتفع وتنبو (جنوبهم عن المضاجع) عبر به عن ترك النوم قال ابن رواحة

نبى تجافى جنبه عن فراشه * اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والمضاجع جمع المضجع وهو الموضع الذى يضجع عليه يعنى الفراش وهم المتهجدون الذين يقيمون الصلاة قال أنس نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى صلى الله عليه وسلم وعن أنس أيضا قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون صلاة المغرب الى صلاة العشاء قال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة وعنه صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء فى جماعة كان

كقيام نصف ليلة ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة وعن أنس كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء وعنه أيضاً قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم راقداً قط قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها فان هذه الآية نزلت في ذلك وعن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة ان تغلبه عينه فوقه قبل أن ينام الصغير ويكسل الكبير وعن مالك بن دينار قال سألت أنساً عن هذه الآية فقال كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الاولين يصلون المغرب ويصلون بعدها الى العشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم وعن ابن أبي حازم قال هي ما بين المغرب والعشاء صلاة الاوابين وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال قيام العبد من الليل وعن معاذ بن جبل أيضاً قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه وهو يسير فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيأ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل من جوف الليل ثم قرأ تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ يعملون ثم قال ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه الجهاد ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله فقلت بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه فقال كف عنك هذا فقلت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم وعن كعب قال اذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع أين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ثم يخرج عنق من نار فيقول أمرت بثلاث بمن جعل مع الله الهاً آخر وبكل جبار عنيد وبكل معتد لانا أعرف بالرجل من الوالد بولده والمولود بوالده ويؤمر بفقراء المسلمين الى الجنة فيحبسون فيقولون تحبسونا ما كان لنا أموال وما كنا أمراء وعن أبي امامة الباهلي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وقربة الى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة للداء وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندي وشفقاً مما عندي ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه من الانهزام وما عليه في الرجوع فرجع حتى هريق دمه وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبداً شكوراً وعن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام وأخرج البيهقي في شعب الايمان عن ربيعة الجرشي قال يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد

فيكونون ماشاء الله أن يكونوا ثم ينادى منادسيعلم أهل الجمع لمن يكون العز اليوم والكرم ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا فيقومون وفيهم قلة ثم يلبث ماشاء الله أن يلبث ثم يعود فينادى المنادى سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم أكثر من الاولين ثم يلبث ماشاء الله أن يلبث ثم يعود وينادى سيعلم أهل الجمع لمن العز اليوم والكرم ليقم الحامدون على كل حال فيقومون وهم أكثر من الاولين وأخرج ابن جرير عن ابن عباس تتجافى جنوبهم عن المضاجع يقول تتجافى لذكر الله اما فى الصلاة واما فى قيام أوقعود أوعلى جنوبهم لايزالون يذكرون الله * ولما كان هجران المضجع قد يكون لغير العبادة بين أنه لها بقوله تعالى مبينا لحالهم (يدعون) أى داعين (ربهم) الذى عودهم باحسانه ثم علله بقوله تعالى (خوفا) أى من سخطه وعقابه فان أسباب الخوف من نقائصهم كثيرة سواء أعرفوا سببا يوجب خوفا أولا لانهم لا يأمنون مكر الله لانه يفعل مايشاء (وطمعا) فى رضاه الموجب لثوابه وقال ابن عباس خوفا من النار وطمعا فى الجنة وعبر به دون الرجاء اشارة الى أنهم لشدة معرفتهم بنقائصهم لا يعدون أعمالهم شيأ بل يطلبون فضله بغير سبب وان كانوا مجتهدين فى طاعته * ولما كانت العبادة تقطع غالبا عن التوسع فى الدنيا فدعت نفس العابد الى التمسك بما فى يده خوفا من نقص العبادة عند الحاجة وصفهم الله تعالى بقوله تعالى (ومما رزقناهم) أى بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوة (ينفقون) من غير اسراف ولا تقتير فى جميع وجوه القرب التى شرعناها لهم فلا يبخلون بما عندهم اعتمادا على الخلاق الرزاق الذى ضمن الخلق فهم بما ضمن لهم أوثق منهم بما عندهم * ولما ذكر تعالى جزاء المستكبرين ذكر جزاء المتواضعين بقوله عز من قائل (فلا تعلم نفس) أى من جميع النفوس مقربة ولا غيرها (ما أخفى) أى خبئ (لهم) أى لهؤلاء المذكورين من مفاتيح الغيوب وخزائنها كما كانوا يخفون أعمالهم فى الصلاة فى جوف الليل وبالصدقة وبغير ذلك وقرأ حمزة بسكون الياء والباقون بالفتح * ولما كانت العين لا تقر فتهجع الا عند الامن والسرور قال تعالى (من قرة أعين) أى من شئ نفيس تقر به أعينهم لاجل ما أقلقوها عن قرارها بالنوم ثم صرح بما أفهمته فاء السبب بقوله تعالى (جزاء) أى أخفاها لهم لجزائهم (بما) أى بسبب ما (كانوا يعملون) أى من الطاعات فى دار الدنيا روى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم الآية وعن ابن مسعود قال انه لمكتوب فى التوراة لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مالم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب ولا نبى مرسل وانه لفى القرآن فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وعن ابن عمر قال ان الرجل من أهل الجنة ليجيء فيشرف عليه النساء فيقلن يافلان بن فلان ما أنت بمن خرجت من عندها بأولى بك منا فيقول ومن أنتن فيقلن نحن من اللاتى قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين

جزاء

جزاء بما كانوا يعملون وعن عامر بن عبد الواحد قال بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكان سبعين سنة ثم يلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت فتقول أنا مزيد فيمكث معها سبعين سنة و يلتفت فاذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت فتقول أنا التي قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وعن سعيد بن جبير قال يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف من الله من جنات عدن ماليس في جناتهم وذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وعن كعب قال أصف لكم منزل رجل من أهل الجنة كان يطلب حلالا ويأكل حلالا حتى لقي الله تعالى على ذلك فانه يعطى يوم القيامة قصرا من لؤلؤة واحدة ليس فيها صدع ولا وصل فيها سبعون ألف غرفة وأسفل الغرف سبعون ألف بيت كل بيت سقفه صفائح الذهب والفضة ليس بموصول ولولا ان الله تعالى سخر له النظر لذهب بصره من نوره غلظ الحائط خمسة عشر ميلا وطوله في السماء سبعون ميلا في كل بيت سبعون ألف باب يدخل عليه في كل بيت من كل باب سبعون ألف خادم لا يراهم من في هذا البيت ولا يراهم من في هذا البيت فاذا خرج من قصره سار في ملكه مثل عمر الدنيا يسير في ملكه عن يمينه وعن يساره ومن ورائه وأزواجه معه وليس معه ذكر غيره ومن بين يديه ملائكة قد سخر والله وبين أزواجه ستر وبين يديه ستر ووصاف ووصائف قد أفهموا ما يشتهي وما تشتهي أزواجه ولا يموت هو ولا أزواجه ولا خدامه أبدا نعيمهم يزداد كل يوم من غير أن يبلى الاول وقرة عين لا تنقطع أبدا لا يدخل اليه فيه روعة أبدا وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده لو أن أحد أهل الجنة رجل أضاف آدم فمن دونه فوضع لهم طعاما وشرابا حتى خرجوا من عنده لا ينقصه ذلك شيأ مما أعطاه الله وعن سهل بن سعد قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصف الجنة حتى انتهى ثم قال فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال تتجافى جنوبهم عن المضاجع الآيتين قال القرطبي انهم أخفوا عملا وأخفى لهم ثوابا فقدموا على الله فقرت تلك الاعين وعن أبي امامة قال الجنة مائة درجة أولها درجة فضة وأرضها فضة ومساكنها فضة وآنيتها فضة وترابها المسك والثانية ذهب وأرضها ذهب ومساكنها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك والثالثة لؤلؤ وأرضها اللؤلؤ ومساكنها اللؤلؤ وآنيتها لؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وتلا هذه الآية فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين الآية وعن المغيرة بن شعبة يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم ان موسى عليه السلام سأل ربه فقال أي رب أي أهل الجنة ادنى منزلة فقال رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل فيقول كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول نعم أي رب قد رضيت فيقال له فان لك هذا وعشرة أمثاله معه فيقول قد رضيت أي رب فيقال له فان لك هذا وما اشتهت نفسك ولذت عينك فقال موسى

أى رب فأى أهل الجنة أرفع منزلة قال اياها أردت وسأحدثك عنهم انى غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال ومصداق ذلك فى كتاب الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين * ونزل فى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه والوليد ابن عقبة بن أبى معيط أخى عثمان لامه حين تنازعا فقال الوليد بن عقبة لعلى اسكت فانك صبى وأنا شيخ وأنا والله أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة فقال له على اسكت فانك فاسق (أفمن كان مؤمنا) أى راسخا فى التصديق بجميع ما أخبرت به الرسل (كمن كان فاسقا) أى راسخا فى الفسق خارجا عن دائرة الاذعان وقال تعالى (لا يستوون) ولم يقل تعالى لا يستويان لانه لم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين فلا يستوى جمع من هؤلاء بجمع من أولئك ولا فرد بفرد قال قتادة لا يستوون لا فى الدنيا ولا عند الموت ولا فى الآخرة * ولما نفى استواءهم أتبعه حال كل على سبيل التفصيل وبدأ بحال المؤمن بقوله تعالى (أما الذين آمنوا وعملوا) أى تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى الطاعات (فلهم جنات المأوى) أى التى يأوى اليها المؤمنون فانها المأوى الحقيقى والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة وهى نوع من الجنات قال الله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى سميت بذلك لما روى عن ابن عباس قال تأوى اليها أرواح الشهداء وقيل هى عن يمين العرش (نزلا) أى عدادا لهم أول قدومهم قال البقاعى كما يهيأ للضيف على ما لاح اى عند قدومه (بما) أى بسبب ما (كانوا يعملون) من الطاعات فان أعمالهم من رحمة ربهم واذا كانت هذه الجنات نزلا فما ظنك بما بعد ذلك هو لعمرى ما أشار اليه قوله صلى الله عليه وسلم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهم كل لحظة فى زيادة لان قدرة الله تعالى لا نهاية لها فاياك أن تخادع أو يغرنك ملحد * ثم ثنى بحال الكافر بقوله تعالى (وأما الذين فسقوا) أى خرجوا عن دائرة الايمان الذى هو معدن التواضع وأهل للمصاحبة والملازمة (فمأواهم النار) أى التى لا صلاحية فيها للايواء بوجه من الوجوه ملجؤهم ومنزلهم أى فالنار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين (كلما أرادوا) أى وهم مجتمعون فكيف اذا أراد بعضهم (أن يخرجوا منها) بأن يخيل اليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها كما كانوا يخرجون نفوسهم من محيط الادلة ومن دائرة الطاعات الى ميدان المعاصى والزلات فيعالجون الخروج فاذا ظنوا أنه تيسر لهم وهم بعد فى غمراتها (أعيدوا فيها) فهو عبارة عن خلودهم فيها (وقيل لهم) أى من أى قائل وكل بهم (ذوقوا عذاب النار) اهانة لهم وزيادة فى تغيظهم وقوله تعالى (الذى كنتم به تكذبون) صفة لعذاب وجوز أبو البقاء أن يكون صفة للنار قال وذكر على معنى الجحيم والحريق * ولما كان المؤمنون الآن يتمنون اصابتهم بشئ من الهوان قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) أى عذاب الدنيا قال الحسن هو مصائب الدنيا واسقامها وقال عكرمة الجوع بمكة سبع سنين أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر (دون العذاب الاكبر) وهو عذاب

الآخرة فان عذاب الدنيا لا نسبة له الى عذاب الآخرة (فان قيل) ما الحكمة فى مقابلة الادنى بالاكبر والادنى انما هو فى مقابلة الاقصى والاكبر انما هو فى مقابلة الاصغر (أجيب) بانه حصل فى عذاب الدنيا أمران أحدهما أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما أنه بعيد والآخر أنه عظيم كبير لكن العرف فى عذاب الدنيا هو أنه الذى يصلح للتخويف فان العذاب الآجل وان كان قليلا فلا يحترز عنه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل وأما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما ذكر فقال فى عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل ولو قال تعالى ولنذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان ليحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال فى عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال من العذاب الابعد الاقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه من الكبر (لعلهم يرجعون) الى الايمان أى من بقى منهم بعد بدر (فان قيل) ما الحكمة فى هذا الترجى وهو على الله تعالى محال (أجيب) بوجهين أحدهما معناه لنذيقنهم اذاقة الراجى كقوله تعالى انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه أصلا كذلك ههنا والثانى نذيقنهم العذاب اذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن ذكر بآيات ربه) أى القرآن (ثم أعرض عنها) فلم يتفكر فيها وثم لاستبعاد الاعراض عنها مع فرط وضوحها وارشادها الى أسباب السعادة بعد التذكر بها عقلا كما فى بيت الحماسة

وما يكشف الغماء الا ابن حرة * يرى غمرات الموت ثم يزورها

أى لا يكشف الامر العظيم الا رجل كريم موصوف بما ذكر والغماء بتشديد الميم والمد أى فى مدة اقتحام الحرب والشاهد فى قوله ثم يزورها اذ المعنى انه استبعد أن يزور غمرات الموت بعد ان رآها واستيقنها واطلع على شدتها (انا من المجرمين) أى الكافرين (منتقمون) وعبر بصيغة العظمة تنبيها على أن الذى يحصل لهم من العذاب لا يدخل تحت الوصف على مجرد العد اد فى الظالمين فكيف اذا كانوا أظلم الظالمين والجملة الاسمية تدل على دوام ذلك عليهم فى الدنيا اما باطنا بالاستدراج بالنعم واما ظاهرا باحلال النقم وفى الآخرة بدوام العذاب على مر الآباد ولما قرر الاصول الثلاثة وعاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله تعالى لتنذر قوما ما أتاهم من نذير بين أنه ليس بدعا من الرسل بقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى الجامع للاحكام وهو التوراة فكانت تلك رسل مثلك وذكر موسى عليه السلام لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو أول من أنزل عليه كتاب من أنبياء بنى اسرائيل بعد فترة كثيرة من الانبياء بينه وبين يوسف عليهما السلام ولم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فذكر المجمع عليه (فلا تكن فى مرية) واختلف فى الهاء فى قوله تعالى (من لقائه) على

أقوال أحدها أنها عائدة على موسى عليه السلام والمصدر مضاف لمفعوله أى من لقائك موسى ليلة الاسراء وامتحن المبرد الزجاج فى هذه المسئلة فأجاب بما ذكر قال ابن عباس وغيره المعنى فلا تكن فى شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوأة ورأيت عيسى رجلا مربوعا الى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيت مالكا خازن النار والدجال فى آيات أراهن الله اياه وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الاحمر وهو يصلى فى قبره (فان قيل) قد صح فى حديث المعراج أنه رآه فى السماء السادسة ومراجعته فى أمر الصلاة فكيف الجمع بين هذين الحديثين (أجيب) بأنه يحتمل أن تكون رؤيته فى قبره عند الكثيب الاحمر قبل صعوده الى السماء وذلك فى طريقه الى بيت المقدس فلما صعد الى السماء السادسة وجده هناك قد سبقه لما يريده الله تعالى وهو على كل شئ قدير (فان قيل) كيف تصح منه الصلاة فى قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو فى الدار الآخرة وهى ليست دار عمل وكذلك رأى النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الانبياء وهم يحجون (أجيب) عن ذلك بأجوبة الاول أن الانبياء أفضل من الشهداء والشهداء أحياء عند ربهم فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا كما صح فى الحديث وأن يتقربوا الى الله تعالى بما استطاعوا لانهم وان كانوا قد توفوا لكنهم بمنزلة الاحياء فى هذه الدار التى هى دار العمل الى أن تفنى و يفضوا الى دار الجزاء التى هى الجنة الجواب الثانى أنه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم التى كانوا عليها فى حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم الجواب الثالث أن التكليف وان ارتفع عنهم فى الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع قال الله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وقال صلى الله عليه وسلم يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس فالعبد يعبد ربه تعالى فى الجنة أكثر مما كان يعبده فى دار الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار مثل حال الملائكة الذين قال الله تعالى فى حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما فى الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ثانيها أن الضمير يعود الى الكتاب وحينئذ يجوز أن تكون الاضافة للفاعل أى من لقاء الكتاب لموسى أو المفعول أى من لقاء موسى الكتاب لان اللقاء تصح نسبته الى كل منهما لان من لقيك فقد لقيته قال السدى المعنى فلا تكن فى مرية من لقائه أى تلقى موسى كتاب الله تعالى بالرضا والقبول ثالثها أنه يعود على الكتاب على حذف مضاف أى من لقاء مثل كتاب موسى رابعها أنه عائد على ملك الموت عليه السلام لتقدم ذكره خامسها عوده على الرجوع المفهوم من قوله الى ربكم ترجعون أى لا تكن فى مرية من لقاء الرجوع سادسها أنه يعود على ما يفهم من سياق الكلام مما ابتلى به موسى من الابتلاء والامتحان قاله الحسن أى لابد أن تلقى ما لقى موسى من قومه واختار موسى عليه السلام لحكمة وهى أن أحدا من الانبياء لم يؤذه من قومه الا الذين لم يؤمنوا وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى عليه السلام فان من لم يؤمن به آذاه كفرعون ومن آمن به من بنى

اسرائيل أذوه أيضا بالمخالفة فطلبوا أشياء مثل رؤية الله جهرة وكقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا وأظهر هذه الاقوال أن الضمير اما لموسى واما للكتاب واختلف فى الضمير أيضا فى قوله تعالى (وجعلناه) على قولين أحدهما يرجع الى موسى أى وجعلنا موسى (هدى) أى هاديا (لبنى اسرائيل) كما جعلناك هاديا لامتك والثانى أنه يرجع الى الكتاب أى وجعلنا كتاب موسى هاديا كما جعلنا كتابك كذلك (وجعلنا منهم) أى من أنبيائهم وأحبارهم (أئمة يهدون) أى يرفعون البيان ويعملون على حسبه (بأمرنا) أى بما أنزلنا فيه من الاوامر كذلك جعلنا من أمتك صحابة يهدون كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة قبل الميم ولهم أيضا ابدالها ياء وحققها الباقون ومد هشام بين الهمزتين بخلاف عنه وقوله تعالى (لما صبروا) قرأ حمزة والكسائى بكسر اللام وتخفيف الميم أى بسبب صبرهم على دينهم وعلى البلاء من عدوهم ولاجله وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم أى حين صبرهم على ذلك وان كان الصبر أيضا انما هو بتوفيق الله تعالى (وكانوا بآياتنا) الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لما لها من العظمة (يوقنون) أى لا يرتابون فى شئ منها ولا يعملون فعل الشاك فيها بالاعراض * ولما أفهم قوله تعالى منهم انه كان منهم من يضل عن أمر الله قال الله تعالى (ان ربك) أى المحسن اليك بارسالك ليعظم ثوابك (هو) أى وحده (يفصل بينهم) أى بين الهادين والمهديين والضالين والمضلين (يوم القيامة) بالقضاء الحق (فيما كانوا فيه يختلفون) أى من أمر الدين لا يخفى عليه شئ منه وأما غير ما اختلفوا فيه فالحكم فيه لهم أو عليهم وما اختلفوا فيه لا على وجه القصد فيقع فى محل العفو * ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد بقوله تعالى (أولم يهد) أى يبين كما رواه البخارى عن ابن عباس (لهم كم أهلكنا) أى كثرة من أهلكنا (من قبلهم من القرون) الماضين من المعرضين عن الآيات ونجينا من آمن بها وقوله تعالى (يمشون) حال من ضميرلهم (فى مساكنهم) أى فى أسفارهم الى الشأم وغيرها كمساكن عاد وثمود وقوم لوط فيعتبروا (ان فى ذلك) أى الامر العظيم (لآيات) أى دلالات على قدرتنا (أفلا يسمعون) سماع تدبر واتعاظ فيتعظوا بها (أولم) أى أيقولون فى انكار البعث أئذا ضللنا فى الارض ولم (يروا أنا) بما لنا من العظمة (نسوق الماء) أى من السماء أو الارض (الى الارض الجرز) أى التى جرز نباتها أى قطع باليبس والتهشم أو بأيدى الناس فصارت ملساء لا نبات فيها وفى البخارى عن ابن عباس انها التى لا تمطر الامطار الا يغنى عنها شيأ ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز ويدل عليه قوله تعالى (فنخرج به) من اعماق الارض بذلك الماء (زرعا) أى نبتا لا ساق له باختلاط الماء بالتراب وقيل الجرز اسم موضع باليمن (تأكل منه أنعامهم) أى من حبه وورقه وتبنه وحشيشه (وأنفسهم) أى من الحبوب والاقوات وقدم الانعام لوقوع الامتنان بها لان بها قوامهم فى معايشهم وأبدانهم ولان الزرع غذاء للدواب لا بد منه وأما غذاء الانسان فقد يصلح للحيوان فكان الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (فان قيل)

فى سورة عبس قدم مال الانسان أولا فالحكمة (أجيب) بأن السياق فيها الطعام الانسان الذى هو نهاية الزرع حيث قال فلينظر الانسان الى طعامه ثم قال فأنبتنا فيها حبا وذكر من طعامه من العنب وغيره مالا يصلح للانعام فقدمه وهذا السياق لمطلق اخراج الزرع وأول صلاحه انما هو لا كل الانعام ولا يصلح للانسان * ولما كانت هذه الآية مبصرة قال (أفلا يبصرون) هذا فيعلموا أنا نقدر على اعادتهم بخلاف الآية الماضية فانها كانت مسموعة فقال أفلا يسمعون * ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون) أى مع هذا البيان الذى ليس معه خفاء (متى هذا الفتح) أى يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة (ان كنتم صادقين) أى عريقين فى الصدق بالاخبار بأنه لا بد من وقوعه حتى نؤمن اذا رأيناه قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهؤلاء الجهلة (يوم الفتح) أى الذى تستهزؤن به وهو يوم القيامة (لا ينفع الذين كفروا) أى غطوا آيات ربهم التى لا خفاء بها سواء فى ذلك أنتم وغيركم ممن اتصف بهذا الوصف (ايمانهم) لانه ليس ايمانا بالغيب (ولا هم ينظرون) أى يمهلون فى ايقاع العذاب بهم لحظة تامن منتظر ما (فان قيل) قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جوابا عن سؤالهم (أجيب) بأنه كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما علم من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الايمان واستنظرتم فى ادراك العذاب فلم تنظروا (فان قيل) من فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره ان لا ينفعهم الايمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسا يوم بدر (أجيب) بأن المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم ايمانهم فى حال القتل كما لم ينفع فرعون ايمانه حال ادراك الغرق وقوله تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تبال بتكذيبهم (وانتظر) أى انزال العذاب بهم (انهم منتظرون) أى بك حادث موت أو قتل فيستريحون منك كان ذلك قبل الامر بقتالهم وقيل انتظر عذابهم بيقينك انهم منتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وعن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة الم تنزيل أى فى الركعة الاولى وهل أتى على الانسان أى فى الركعة الثانية وعن جابر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ تبارك والم تنزيل ويقول هما يفضلان على كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة ومن قرأهما كتب له سبعون حسنة ورفع له سبعون درجة وعن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الم تنزيل أعطى من الاجر كمن أحيا ليلة القدر وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عنه صلى الله عليه وسلم من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام قال شيخ شيخنا ابن حجر لم أجده والله تعالى أعلم بالصواب

(سورة الاحزاب مدنية)

وهي ثلاث وسبعون آية وألف ومائتان وثمانون كلمة وخمسة آلاف وتسعمائة وتسعون حرفا وعن أبي ذر قال قال أبي بن كعب كم تعدون سورة الاحزاب قال ثلاثا وسبعين آية قال والذي يحلف به أبي بن كعب ان كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم أراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن وأما ما حكي ان تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (بسم الله) الذي مهما أراد كان (الرحمن) الذي شملت رحمته كل موجود بالكرم والجود (الرحيم) لمن توكل عليه بالعطف عليه * ونزل في أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبي الاعور عمرو بن سفيان السلمي لما قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الامان على أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن ابيرق فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل ان لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك فشق على النبي صلى الله عليه وسلم قولهم فقال عمر يارسول الله ائذن لي في قتلهم فقال اني قد أعطيتهم الامان فقال عمر اخرجوا في لعنة الله وغضبه وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة (يا أيها النبي اتق الله) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ان أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله عليه وسلم الى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون من اليهود بالمدينة ان لم يرجع قتلوه فأنزل الله تعالى يا أيها النبي اتق الله أي دم على التقوى كما يقول الرجل لغيره وهو قائم قم قائما أي اثبت قائما فسقط بذلك ما يقال الامر بالشيء لايكون الا عند اشتغال المأمور بغير المأمور به اذ لا يصح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي صلى الله عليه وسلم كان متقيا لان الامر بالمداومة يصح في ذلك فيقال للجالس اجلس هنا حتى آتيك ويقال للساكت قد أحسنت فاسكت تسلم أي دم على ما أنت عليه وأيضا من جهة العقل ان الملك يتقي منه عادة على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالتقوى بالاول ولا بالثاني وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه مادام في الدنيا فكيف والامور البدنية شاغلة فالآدمي في الدنيا تارة مع الله والاخرى مقبل على مالابد منه وان كان معه الله ولهذا أشار بقوله عليه الصلاة والسلام انما أنا بشر مثلكم يوحى الي يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود اليكم كأني منكم فأمر بتقوى توجب ادامة الحضور وقال الضحاك معناه اتق الله ولا تنقض الذي بينك وبينهم وقيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد الامة * (تنبيه) * جعل الله تعالى نداء نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبي والرسول في قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله يا أيها النبي لم تحرم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك وترك نداءه باسمه كما قال تعالى يا آدم ياموسى ياعيسى ياداود كرامة وتشريفا وتنويها بفضله (فان قيل) ان لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الاخبار في قوله تعالى محمد رسول الله

وماحمد الارسول (أجيب) بأن ذلك لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والاخبار ألا ترى الى مالم يقصد به التعليم والتلقين من الاخبار كيف ذكره بنحو ماذكر في النداء لقد جاءكم رسول من أنفسكم وقال الرسول يارب لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة والله ورسوله أحق أن يرضوه النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيّ ان الله وملائكته يصلون على النبيّ وقرأ نافع النبيء بالهمز والباقون بغير همز * ولما وجه اليه صلى الله عليه وسلم الامر بخشية الولي الودود أتبعه النهي عن الالتفات نحو العدوّ الحسود بقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) في شيء من الاشياء لم يتقدّم اليك من الخالق فيه أمر وان لاح لاح خوف أو برق رجاء فجانبهم واحترس منهم فانهم أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين لا يريدون الا المضارّة والمنادّة قال أبو حيان سبب نزولها أنه روى انه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان يحب اسلام اليهود فتابعه ناس على النفاق وكان يلين لهم جانبه وكانوا يظهرون النصائح من طريق المخادعة فنزلت تحذيراله منهم وتنبيها على عداوتهم انتهى وبهذا سقط ماقيل لم خص الكافر والمنافق بالذكر ولان ذكر غيرهما لا حاجة اليه لانه لا يكون عنده الامطاعا ولان كل من طلب من النبيّ صلى الله عليه وسلم طاعته فهو كافر أو منافق لانّ من يأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأمر ايجاب معتقدا أنه ان لم يفعله يعاقبه يحق يكون كافرا وقرأ أبو عمرو والدوري عن الكسائي الكافرين بالامالة محضة وورش بين بين والباقون بالفتح * ثم علل تعالى الامر والنهي بما يزيل الهموم ويوجب الاقبال عليهما واللزوم بقوله تعالى (انّ الله) أي بعظيم كماله (كان) ازلا وأبدا (عليما) أي شامل العلم (حكيما) أي بالغ الحكمة فهو تعالى لم يأمرك بأمر الا وقد علم مايترتب عليه وأحكم اصلاح الحال فيه * ولما كان ذلك مفهما لمخالفة كل مايدعو اليه كافر وكان الكافر ربما دعا الى شيء من مكارم الاخلاق قيده بقوله تعالى (واتبع) أي بغاية جهدك (مايوحى) أي يلقى القاء خفيا كما يفعل المحب مع حبيبه (اليك من ربك) أي المحسن اليك بصلاح جميع أمرك وأتى موضع الضمير بالظاهر ليدل على الاحسان في التربية لتقوى على امتثال ما أمرت به الآية السالفة * ولما أمره باتباع الوحي رغبه فيه بالتعليل بأوضح من التعليل الاول في أن مكرهم خفي بقوله تعالى مذكرا بالاسم الاعظم بجميع مايدل عليه من الاسماء الحسنى زيادة في التقوى على الامتثال مؤكدا للترغيب (انّ الله) أي بعظمته وكماله (كان) ازلا وأبدا (بما يعملون) أي الفريقان من المكايد وان دق (خبيرا) أي فلا تهتم بشأنهم فانه سبحانه كافيكه وان تعاظم وقرأ أبو عمرو بما يعملون خبيرا وبما يعملون بصيرا بالياء على الغيبة على ان الواو ضمير الكفرة والمنافقين والباقون بالتاء على الخطاب فيهما * ولما كان الآدمي موضع الحاجة قال تعالى (وتوكل) أي دع الاعتماد على التدبير في أمورك واعتمد فيها (على الله) أي المحيط علما وقدرة فانه يكفيك في جميع أمورك (وكفى بالله) أي الذي له الامر كله على الاطلاق (وكيلا) اى موكولا اليه الامور كلها فلا تلتفت في شيء من أمرك الى غيره لانه ليس لك قلبان تصرف كل

واحد

واحد منهما الى واحد كما قال تعالى (ما جعل الله) أى الذى له الحكمة البالغة والعظمة الباهرة (لرجل) أى لاحد من بنى آدم ولا غيره وعبر بالرجل لانه أقوى جسما وفهما فيفهم غيره من باب أولى وأشار الى التأكيد بقوله تعالى (من قلبين) وأكد الحقيقة وقررها وجلاها وصورها بقوله تعالى (فى جوفه) أى ما جمع الله تعالى قلبين فى جوف لان القلب معدن الروح الحيوانى المتعلق للنفس الانسانى أولا ومنبع القوى باسرها ومدبر البدن باذن الله تعالى وذلك يمنع التعدد (وما جعل أزواجكم اللائى) أباح لكم التمتع بهن (تظاهرون منهن) كما يقول الانسان للواحدة منهن أنت على كظهر أمى (أمهاتكم) بما حرم عليكم من الاستمتاع بهن حتى تجعلوا ذلك على التأبيد وترتبوا على ذلك أحكام الامهات كلها (وما جعل أدعياءكم) جمع دعى وهو من يدعى لغير أبيه (أبناءكم) حقيقة ليجعل لهم ارثكم ويحرم عليكم حلائلهم وغير ذلك من أحكام الابناء والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كما لم ير فى حكمته أن يجعل للانسان قلبين لانه لا يخلو أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج اليها واما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدى الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا فى حالة واحدة لم ير أيضا ان تكون المرأة الواحدة أما لرجل زوجا له لان الام مخدومة مخفوض لها الجناح والمرأة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره كالمملوكة وهما حالتان متنافيتان ولم ير أيضا أن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له لان البنوة اصالة فى النسب وعراقة فيه والدعوة الصاق عارض بالتسمية لا غير ولا يجتمع فى الشئ الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل وهذا مثل ضربه الله تعالى فى زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبى صغيرا وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابون فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وهبته له وطلبه أبوه وعمه فخير فاختار النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبوه وعمه يا زيد أتختار العبودية على الربوبية قال ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه أعتقه وتبناه قبل الوحى وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فانزل الله تعالى هذه الآية فيه وكذا قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وروى ان رجلا كان يسمى أبا معمر حميد بن معمر الفهرى وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه الاشياء الا وله قلبان وكان يقول لى قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فلما هزم الله تعالى المشركين يوم بدر انهزم ابو معمر فيهم فلقيه أبو سفيان وهو معلق احدى نعليه بيده والاخرى فى رجله فقال له ما فعل الناس فقال له بين مقتول وهارب فقال له فما بال احدى نعليك فى رجلك والاخرى فى يدك فقال ما ظننت الا أنهما فى رجلى فأكذب الله تعالى قوله وقولهم وضرب به مثلا فى الظهار والتبنى وعن ابن عباس كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان فأكذبهم

الله تعالى وقيل سها في صلاته فقالت اليهود له قلبان قلب مع أصحابه وقلب معكم وعن
الحسن نزلت في أن الواحد يقول لي نفسان نفس تأمرني ونفس تنهاني (فان قيل) ما وجه
تعديه الظهار واخواته بمن (أجيب) بأن الظهار كان طلاقا في الجاهلية فكانوا يتجنبون
المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلقة فكان قولهم تظاهر منها تباعد منها جهة الظهار فلما
تضمن معنى التباعد منها عدى بمن (فان قيل) ما معنى قولهم أنت على كظهر أمي (أجيب)
بأنهم ارادوا ان يقولوا أنت علي حرام كبطن أمي فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن
الذي ذكره يقارب ذكر الفرج لانه عمود البطن ومنه حديث عمر يجيء به أحدهم على عمود بطنه
أراد على ظهره ووجه آخر وهو ان اتيان المرأة وظهرها الى السماء كان محرما عندهم
محظورا وكان أهل المدينة يقولون اذا أتيت المرأة ووجهها الى الارض جاء الولد أحول
فلقصد المطلق منهم الى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعله
كظهر أمه وهو منكر وزور وفيه كفارة كما سيأتي ان شاء الله تعالى في سورة المجادلة وقرأ ابن
عامر والكوفيون اللائي بالهمزة المكسورة والياء بعدها في الوصل وسهل الياء كالهمزة ورش
والبزي وأبو عمرو مع المد والقصر وعن أبي عمرو والبزي أيضا ابدال الها ياء ساكنة مع المد لا غير
وقالون وقنبل بالهمز ولا ياء بعدها وقرأ تظهرون عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها
وكسر الهاء مخففة وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء والظاء مخففتين وألف بعد الظاء وفتح الهاء
مخففة وابن عامر كذلك الا أنه يشدد الظاء والباقون بفتح التاء والظاء والهاء مع تشديد الظاء
والهاء ولا ألف بعد الظاء وقوله تعالى (ذلكم) اشارة الى كل ما ذكر او الى الاخير (قولكم
بأفواهكم) أي مجرد قول لسان من غير حقيقة كالهذيان (والله) أي المحيط علما وقدرة وله
جميع صفات الكمال (يقول الحق) أي ماله حقيقة الثابت الذي يوافق ظاهره باطنه فلا قدرة
لاحد على نقضه فان أخبر عن شيء فهو كما قال (وهو) أي وحده (يهدي السبيل) أي يرشد
الى سبيل الحق * ولما كان كأنه قيل فما نقول اهدنا الى سبيل الحق قال تعالى (ادعوهم) أي
الادعياء (لآبائهم) أي الذين ولدوهم ان علموا ولذا قال زيد بن حارثة قال صلى الله عليه وسلم
من دعى الى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام وأخرجه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص
ثم علل تعالى ذلك بقوله تعالى (هو) أي هذا الدعاء (أقسط) أي أقرب الى العدل من التبني
وان كان انما هو لمزيد الشفقة على المتبني والاحسان اليه (عند الله) أي الجامع لصفات الكمال
وعن ابن عمر ان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد
حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم الآية وقيل كان الرجل في الجاهلية اذا أعجبه جلد الرجل
وظرفه ضمه الى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب اليه فيقال
فلان ابن فلان أما اذا جهلوا فهو ما ذكر بقوله تعالى (فان لم تعلموا آباءهم) لجهل أصلي أو طارئ
(فاخوانكم) أي فهم اخوانكم (في الدين) ان كانوا دخلوا في دينكم أي قولوا لهم اخواننا
(ومواليكم) ان كانوا محررين أي قولوا مولاي فلان وعن مقاتل ان لم تعلموا لهم أبا فانسبوهم

اخوانكم فى الدين أى أن تقول عبد الله وعبد الرحمن وعبيد الله وأشباههم من الاسماء وأن يدعى الى اسم مولاه وقيل مواليكم أولياؤكم فى الدين * ولما كان عادتهم الخوف مما سبق من أحوالهم على النهى لشدة ورعهم أخبرهم انه تعالى أسقط عنهم ذلك لكونه خطأ وساقه على وجه يعم ما بعد النهى أيضا بقوله تعالى (وليس عليكم جناح) أى اثم وميل واعوجاج وعبر بالظرف ليفيد ان الخطأ لا اثم فيه بوجه ولو عبر بالباء لظن ان فيه اثما ولكن يعفى عنه فقال تعالى (فيما أخطأتم به) أى من الدعاء بالبنوة والمظاهرة أو فى شئ قبل النهى أو بعده ودل قوله تعالى (ولكن ما) أى الاثم فيما (تعمدت قلوبكم) على زوال الحرج أيضا فيما وقع بعد النهى على سبيل النسيان أو سبق اللسان ودل تأنيث الفعل على انه لا يتعمد بعد البيان الشافى الاقلب فيه رخاوة الانوثة ودل جمع الكثرة على عموم الاثم ان لم ينته المتعمد *(تنبيه)* يجوز فى ماهذه وجهان أحدهما ان تكون مجرورة المحل عطفا على ما المجرورة قبلها بفى والتقدير ولكن الجناح فيما تعمدت كما مرت الاشارة اليه والثانى أنها مرفوعة المحل بالابتداء والخبر محذوف تقديره تؤاخذون به أو عليكم فيه الجناح ونحوه ولما كان هذا الكرم خاصا بما تقدم عم سبحانه وتعالى بقوله (وكان الله) أزلا وأبدا (غفورا) أى من صفته الستر البليغ على المذنب التائب (رحيما) به ولما نهى تعالى عن التبنى وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد تبنى زيد بن حارثة مولاه لما اختاره على أبيه وعمه كما مر علل تعالى النهى فيه بالخصوص بقوله تعالى دالا على ان الامر أعظم من ذلك (النبى) اى الذى ينبئه الله تعالى بدقائق الاحوال فى بدائع الاقوال ويرفعه دائما فى مراقى الكمال ولا يريد ان يشغله بولد ولا مال (أولى بالمؤمنين) أى الراسخين فى الايمان فغيرهم أولى فى كل شئ من أمور الدين والدنيا لما حازه من الحضرة الربانية (من أنفسهم) فضلا عن آبائهم فى نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال مامن مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأى مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا فان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم كان يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك دينا فالى ومن ترك مالا فهو لورثته وعن أبى هريرة قال كان المؤمن اذا توفى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل هل عليه دين فان قالوا نعم قال هل ترك وفاء لدينه فان قالوا نعم صلى عليه وان قالوا لا قال صلوا على صاحبكم وانما لم يصل عليه صلى الله عليه وسلم أولا فيما اذا لم يترك وفاء لان شفاعته صلى الله عليه وسلم لا ترد وقد ورد ان نفس المؤمن محبوسة عن مقامها الكريم مالم يوف دينه وهو محمول على من قصر فى وفائه فى حال حياته اما من لم يقصر لفقره مثلا فلا كما أوضحت ذلك فى شرح المنهاج فى باب الرهن وانما كان صلى الله عليه وسلم أولى بهم من أنفسهم لانه لا يدعوهم الا الى العقل والحكمة ولا يأمرهم الا بما ينجيهم وأنفسهم انما تدعوهم الى الهوى والفتنة فتأمرهم بما يرديهم فهو يتصرف فيهم تصرف الآباء بل أعظم بهذا السبب الربانى فأى حاجة الى السبب الجسمانى

(وأزواجه أمهاتهم) أى المؤمنين أى مثلهن فى تحريم نكاحهن ووجوب احترامهن
وطاعتهن اكراما له صلى الله عليه وسلم لا فى حكم الخلوة والنظر والظهار والمسافرة والنفقة
والميراث وهو صلى الله عليه وسلم أب للرجال والنساء وأما قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من
رجالكم فمعناه ليس أحد من رجالكم ولد صلبه وسيأتى ذلك ويحرم سؤالهن الا من وراء حجاب
وسيأتى ما يتعلق بذلك ان شاء الله تعالى فى محله وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بغلام
وهو يقرأ فى المصحف النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فقال
يا غلام حكها فقال هذا مصحف أبى فذهب اليه فسأله فقال انه كان يلهينى القرآن ويلهيك
الصفق بالاسواق ومعنى ذلك ان هذا كان يقرأ أولا ونسخ لما روى عن عكرمة انه قال كان
فى الحرف الاول النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وعن الحسن قال فى القراءة
الاولى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقوله تعالى (وأولوا الارحام) أى القرابات
بأنواع النسب من البنوة وغيرها (بعضهم أولى) بحق القرابة (ببعض) أى فى التوارث ثم نسخ
لما كان فى صدر الاسلام فانهم كانوا فيه يتوارثون بالحلف والنصرة فيقول ذمتى ذمتك ترثنى
وأرثك ثم نسخ بالاسلام والهجرة ثم نسخ بآية المواريث وبالآية التى فى آخر الانفال وأعادها
تأكيدا فان آية المواريث مقدمة ترتيبا ونزولا على آية الانفال وآية الانفال على هذه كذلك
وقوله تعالى (فى كتاب الله) يحتمل ان ذلك فى اللوح المحفوظ أو فيما أنزل وهو هذه الآيات
المذكورة أو فيما فرض الله * ولما بين انهم أولى بسبب القرابة بين المفضل عليه بقوله تعالى (من)
أى هم أولى بسبب القرابة من (المؤمنين) الانصار من غير قرابة مرجحة (والمهاجرين) أى
ومن المهاجرين من المؤمنين من غير قرابة كذلك وقوله تعالى (الا أن تفعلوا) استثناء منقطع كما
جرى عليه الجلال المحلى أى لكن أن تفعلوا (الى أوليائكم معروفا) بوصية فجائز ويجوز أن
يكون استثناء من أعم العام كما قاله الزمخشرى فى معنى النفع والاحسان كما تقول القريب أولى
من الاجنبى الا فى الوصية تريد انه أحق منه فى كل نفع من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير
ذلك الا فى الوصية والمراد بفعل المعروف التوصية لانه لا وصية لوارث وعدى تفعلوا بالى لانه
فى معنى تسدوا والمراد بالاولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية فى الدين (كان ذلك) أى ما ذكر
من آيتى ادعوهم والنبى أولى وقيل أول ما نسخ من الآيات الارث بالايمان والهجرة ثابتا
(فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ والقرآن (مسطورا) قال الاصبهانى وقيل فى التوراة قال
البقاعى لان فى التوراة اذا نزل رجل بقوم من أهل دينه فعليهم أن يكرموه ويواسوه وميراثه
لذوى قراباته فالآية من الاحتباك أثبت وصف الايمان أولا دليلا على حذفه ثانيا ووصف
الهجرة ثانيا دليلا على حذف النصرة أولا (واذ) أى واذكر حين (أخذنا) بعظمتنا (من النبيين
ميثاقهم) أى عهودهم فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الدين القيم فى المنشط والمكره وفى تصديق
بعضهم لبعض وفى اتباعك فيما أخبرنا به فى قولنا لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول
مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وقولهم أقررنا * ولما ذكر ما أخذ على جميع الانبياء من

العهد فى ابلاغ ما يوحى اليهم والعمل بمقتضاه ذكر ما أخذ عليهم من العهد فى التبليغ بقوله تعالى (ومنك) أى فى قولنا فى هذه السورة اتق الله واتبع ما يوحى اليك وفى المائدة يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فلا تهتم بمراعاة عدو ولا خليل حقير ولا جليل * ولما أتم المراد اجمالا وعموما وخصه صلى الله عليه وسلم من ذلك العموم مبتدئا به لقوله صلى الله عليه وسلم كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث بيانا لتشريفه ولانه المقصود بالذات اتبعه بقية أولى العزم الذين هم أصحاب الكتب ومشاهير أرباب الشرائع ورتبهم على ترتيبهم فى الزمان لانه لم يقصد المفاضلة بينهم بالتأسية بالمتقدمين والمتأخرين قال (ومن نوح) أول الرسل الى المخالفين (وابراهيم) أبى الانبياء (وموسى) أول أصحاب الكتب من بنى اسرائيل (وعيسى بن مريم) ختام أنبياء بنى اسرائيل ونسبه الى أمه مناداة على من ضل فيه بدعوى الالوهية وبالتوبيخ والتسجيل بالفضيحة *(تنبيه)* ذكر هذه الخمسة من عطف الخاص على العام كما علم مما تقرر وقوله تعالى (وأخذنا) أى بعظمتنا فى ذلك (منهم ميثاقا غليظا) أى شديدا بالوفاء بما حملوه وهو الميثاق الاول وانما كرر لزيادة وصفه بالغلظ وهو استعارة من وصف الاجرام والمراد عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه وقيل الميثاق الغليظ اليمين بالله على الوفاء بما حملوه ثم أخذ الميثاق (ليسأل) أى الله تعالى يوم القيامة (الصادقين) أى الانبياء الذين صدقوا عهدهم (عن صدقهم) أى عما قالوه لقومهم تبكيتا للكافرين بهم وقيل ليسأل المصدقين للانبياء عن تصديقهم لان من قال للصادق صدقت كان صادقا فى قوله وقيل ليسأل الانبياء ما الذى اجابتهم به أممهم وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم بقلوبهم وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا أليما) أى مؤلما معطوف على أخذنا من النبيين لان المعنى ان الله تعالى أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين وأعد للكافرين عذابا أليما ويجوز أن يعطف على مادل عليه ليسأل الصادقين كانه قال أثاب المؤمنين وأعد للكافرين وقيل انه قد حذف من الثانى ما أثبت مقابله فى الاول ومن الاول ما أثبت مقابله فى الثانى والتقدير ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم ويسأل الكافرين عما كذبوا به رسلهم وأعد لهم عذابا أليما ثم حقق الله تعالى ما سبق لهم من الامر بتقوى الله تعالى بحيث لا يبقى معه الخوف من أحد بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا) ورغبهم فى الشكر بذكر الاحسان والتصريح بالاسم الاعظم بقوله تعالى (نعمة الله) أى الملك الاعلى الذى لا كفء له (عليكم) أى لتشكروه عليها بالنفوذ لامره وعبر بالنعمة لانها المقصودة بالذات والمراد انعامه يوم الاحزاب وهو يوم الخندق ثم ذكر وقت تلك النعمة زيادة فى تصويرها بذكراهم ما كان فيه منها بقوله تعالى (اذ) أى حين (جاءتكم جنود) أى الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم وابن كثير بالاظهار والباقون بالادغام (فأرسلنا) أى تسبب عن ذلك انا لما رأينا عجزكم عن مقابلتهم وبقاومتهم أرسلنا (عليهم ريحا) وهى ريح الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الاحزاب انطلقى بنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقالت الشمال ان الحرة لا تسرى بالليل فكانت الريح التى أرسلت لهم الصبا لما روى ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ولان الصبا ريح فيها روح ماهبت على محزون الا زال حزنه (وجنودا) أى وأرسلنا جنودا من الملائكة (لم تروها) وكانوا ألفا ولم تقاتل يومئذ فبعث الله عليهم تلك الليلة ريحا باردة فقلعت الاوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها على بعض وكثر تكبير الملائكة فى جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حى يقول يا بنى فلان هلم الى واذا اجتمعوا عنده قالوا النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب (وكان الله) أى الذى له جميع صفات الجلال والجمال (بما يعملون) أى الاحزاب من التحزب والتجمع والمكر وغير ذلك (بصيرا) أى بالغ الابصار والعلم *(تنبيه)* قال البخارى قال موسى بن عقبة كانت غزوة الخندق وهى الاحزاب فى شوال سنة أربع روى محمد بن اسحق عن مشايخه قال دخل حديث بعضهم فى بعض ان نفرا من اليهود منهم سلام ابن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهودة بن قيس وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت الى قوله تعالى وكفى بجهنم سعيرا فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمعوا على ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان فدعوهم الى ذلك وأخبروهم انهم سيكونون معهم عليه وان قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جمعوا له من الامر ضرب الخندق على المدينة وكان الذى اشار به على النبى صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسى رضى الله عنه وكان أول مشهد شهده سلمان رضى الله عنه مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر فقال يا رسول الله انا كنا بفارس اذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أحكموه قال أنس رضى الله عنه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون فى غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجزع قال

اللهم ان العيش عيش الآخرة * فاغفر للانصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له

نحن الذين بايعوا محمدا * على الجهاد ما بقينا أبدا

قال البراء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه وهو يقول

والله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا * وثبت الاقدام ان لاقينا
ان الاولى قد بغوا علينا * اذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته أبينا أبينا فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش في عشرة آلاف من الاحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان حتى نزلت بمجمع الاسيال من رومة بين الجرف والغابة وأقبلت غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل من هوازن وانضافت لهم اليهود من قريظة والنضير حتى نزلوا الى جانب أحد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا الى الآطام ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا الترامي بالنبل والحجارة وكان بنو غطفان من أعلى الوادى من قبل المشرق وقريش من أسفل الوادى من قبل المغرب كما قال تعالى (اذ جاؤكم) وهو بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) أى من أعلى الوادى (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى (واذ) أى واذكر حين (زاغت الابصار) أى مالت عن سداد القصد فعل الواله الجزع بما حصل لهم من الغفلة الحاصلة من الرعب وقوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر) جمع حنجرة وهى منتهى الحلقوم كناية عن شدة الرعب والخفقان قال البقاعى ويجوز وهو الاقرب ان يكون ذلك حقيقة بجذب الطحال والرئة لها عند ذلك بانتفاخهما الى أعلى الصدر ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره أى رئته فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحرث بن عمرو وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشئ أنزل الله تعالى به لا بد لنا من عمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شئ تصنعه لنا قال لا والله بل لكم والله ما أصنع ذلك الا لاني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم من كل جانب فأردت ان أكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الاوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة الا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام وأعزنا الله تعالى بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال صلى الله عليه وسلم أنت وذاك فتناول سعد رضى الله تعالى عنه الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدوهم محاصرهم ولم يكن بينهم قتال الا فوارس من قريش عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لؤى وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن

قوله ان الاولى قد بغوا هكذا في جميع النسخ وليس بموزون وتحريره ان الذين قد بغوا علينا كما في شرح المواهب اه

الخطاب ومرداس أخو محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة فقالوا تهيؤوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقا فضربوا خيولهم فاقتحمت فيه فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي رضي الله تعالى عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن عبدود قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال له علي يا عمرو انك كنت تعاهد الله تعالى لا يدعوك رجل من قريش الى خصلتين الا أخذت منه احداهما قال له أجل قال له علي فاني أدعوك الى الله تعالى والى رسوله صلى الله عليه وسلم والى الاسلام قال لا حاجة لي بذلك قال فاني ادعوك الى البراز قال ولم يا ابن اخي فوالله ما أحب أن أقتلك قال علي ولكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان أصابه سهم فمات بمكة ونوفل بن عبد الله المخزومي وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه فنزل اليه علي رضي الله تعالى عنه فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعهم جسده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم به فخلى بينهم وبينه * ولما نشأ عن هذا تقلب القلوب وتجدد ذهاب الافكار كل مذهب عبر بالمضارع الدال على دوام التجدد بقوله تعالى (وتظنون بالله) الذي له صفات الكمال (الظنونا) أي أنواع الظن فظن المخلصون الثبت القلوب ان الله تعالى منجز وعده في اعلاء دينه أو ممتحنهم فخافوا الزلل وروى أن المسلمين قالوا بلغت القلوب الحناجر فهل من شئ نقوله فقال صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا وأما الضعاف القلوب والمنافقون فقالوا ما حكى الله عنهم فيما سيأتي وقرأ نافع وابن عامر الظنونا هنا والرسولا والسبيلا في آخر السورة باثبات الالف في الثلاثة وقفا ووصلا وأبو عمرو وحمزة بحذف الالف وقفا ووصلا قال الزمخشري وهو القياس والباقون بالالف في الوقف دون الوصل زادوها في الفاصلة كما زادوها في القافية قال * أقلي اللوم عاذل والعتابا * ورسم الثلاثة بالالف * ولما كانت الشدة في الحقيقة انما هي للثابت لانه ما عنده الا الهلاك أو النصرة قال تعالى (هنالك) أي في ذلك الوقت العظيم البعيد الرتبة (ابتلي المؤمنون) اختبروا فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل (وزلزلوا) أي حركوا وأزعجوا بما يرون من الاهوال بتظافر الاعداء مع الكثرة وتطاير الاراجيف (زلزالا شديدا) فثبتوا بتثبيت الله تعالى لهم على عدوهم وعن صفية قالت مر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيننا وبينهم من يدفع عنا ورسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى نحر عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا الينا عنهم اذا أتانا آت قالت فقلت يا حسان ان هذا اليهودى يطوف بنا كما ترى بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل قال مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم واتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فانما الحرب خدعة فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال لهم يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم ان قريشا وغطفان جاؤا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وان قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم وبه أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره ان رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على ان يقاتلوا معكم محمدا صلى الله عليه وسلم حتى تناجزوه قالوا لقد أشرت برأى ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لابى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودى اياكم وفراقى محمدا وقد بلغنى أمر رأيت أن حقا على أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا على قالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم فأرسل اليهم أن نعم فان بعثت اليكم اليهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم رجلا واحدا ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أهلى وعشيرتى وأحب الناس الى ولا أراكم تتهمونى قالوا صدقت قال فاكتموا على قالوا نفعل ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل ما حذرهم فلما كانت ليلة السبت فى شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدا صلى الله عليه وسلم ونفرغ مما بيننا وبينه فارسلوا اليهم ان اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف

عليكم ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة
لنا حتى نناجز محمدا صلى الله عليه وسلم فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتدت عليكم أن تسيروا
الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد صلى الله عليه وسلم فلما رجعت
اليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمن والله ان الذى حدثكم به نعيم
ابن مسعود لحق فارسلوا الى بنى قريظة انا والله لاندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم
تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا ان الذى
ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم الا أن يقاتلوا فان وجدوا فرصة انتهزوها وان يكن
غير ذلك استمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم فأرسلوا الى قريش وغطفان
انا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله تعالى بينهم وبعث الله تعالى
عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم قال من يقوم فيذهب الى هؤلاء القوم
فيأتينا بخبرهم أدخله الله تعالى الجنة قال حذيفة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله
صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت الينا فقال مثله فأسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت الينا فقال ألا من رجل يقوم فينظر لنا
ما فعل القوم على أن يكون رفيقى فى الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة البرد فلما لم يقم أحد
دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حذيفة فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقلت
لبيك يارسول الله وقمت حتى أتيته وان جنبى ليضطربان فمسح رأسى ووجهى ثم قال ائت هؤلاء
القوم حتى تأتينى بخبرهم ولا تحدثن شيأ حتى ترجع الى ثم قال اللهم احفظه من بين يديه ومن
خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فأخذت سهمى وشددت على اسلابى ثم انطلقت
أمشى نحوهم كأنى أمشى فى حمام فذهبت فدخلت فى القوم وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنود
الله تعالى تفعل فيهم ما تفعل وأبو سفيان قاعد يصطلى فأخذت سهما فوضعته فى كبد قوسى
فأردت أن أرميه ولو رميته لأصبته فذكرت قول النبى صلى الله عليه وسلم لا تحدثن شيأ حتى
ترجع فرددت سهمى فى كنانتى فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله تعالى بهم لا تقر لهم
قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو
فأخذت بيد جليسى فقلت من أنت قال سبحان الله أما تعرفنى أنا فلان فاذا رجل من هوازن
فقال أبو سفيان يا معشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف
واخلفنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره وبلغنا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فانى
مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله الا
وهو قائم وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين الى بلادهم قال فرجعت الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم كأنى أمشى فى حمام فأتيته وهو قائم يصلى فلما أخبرته الخبر ضحك حتى
بدت أنيابه فى سواد الليل قال فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عنى الدفا فأدنانى النبى صلى

الله عليه وسلم فأنامني عند رجليه وألقى على طرف ثوبه وألصق صدرى ببطن قدميه فلم أزل نائما حتى أصبحت فقال قم يانومان * ثم ان الله تعالى بين حال غير الثابتين بقوله تعالى (واذ يقول المنافقون) معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبي وأصحابه (والذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف اعتقاد (ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا) أى باطلا استدرجنا به الى الانسلاخ عما كنا عليه من دين آبائنا والى الثبات على ماصرنا اليه بعد ذلك الانسلاخ بما وعدنا به من ظهور هذا الدين على الدين كله والتمكين فى البلاد حتى حفر الخندق فانه قال انه أبصر بما برق له من ضوء صخرة سلمان مدينة صنعاء من اليمن وقصور كسرى من الحيرة من أرض فارس وقصور الشأم من أرض الروم وان تابعيه ليظهرون على ذلك كله وقد صدق الله وعده فى جميع ذلك حتى فى لبس سراقة بن مالك بن جعشم سوار كسرى بن هرمز كما هو مذكور فى دلائل النبوة للبيهقى وكذبوا فى شكهم ففاز المصدقون وخاب الذين هم فى ريبهم يترددون (واذ قالت طائفة منهم) أى من المنافقين وهم أوس بن قيظى وأصحابه (يا أهل يثرب) أى المدينة وقال أبو عبيدة يثرب اسم أرض ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها وفى بعض الاخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن تسمى المدينة يثرب وقال هى طابة كأنه كره تلك اللفظة فعدلوا عن هذا الاسم الذى وسمها به النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسم الذى كانت تدعى به قديما مع نهيه عنه واحتمال تحمه باشتقاقه من التثريب الذى هو اللوم والتعنيف وقال أهل اللغة يثرب اسم المدينة وقيل اسم البقعة التى فيها المدينة وامتناع صرفها اما للعلمية والوزن أو العلمية والتأنيث وأما يترب بالمثناة وفتح الراء فوضع آخر باليمن قال الشاعر

وعدت وكان الخلف منك سجية * مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقال آخر

وقد وعدتك موعدا لووفت به * مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقرأ (لامقام) حفص بضم الميم أى لا اقامة (لكم) فى مكان القتال ومصارعة الابطال والباقون بفتحها أى لامكان لكم تنزلون وتقيمون فيه (فارجعوا) الى منازلكم عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال الى منازلكم * ولما بين تعالى هؤلاء الذين هتكوا الستر وبينوا ماهم فيه من سقول الامر أتبعهم آخرين تستروا ببعض الستر متمسكين بأذيال النفاق خوفا من أهوال الشقاق بقوله تعالى (ويستأذن) أى يجدد كل وقت طلب الاذن لاجل الرجوع الى البيوت والكون مع النساء (فريق منهم) أى طائفة شأنها الفرقة (النبى) فى الرجوع وقد رأوا ماحواه من علو المقدار بما له من حسن الخلق والخلق وماله من جلالة الشمائل وكرم الخصائل وهم بنو حارثة وبنو سلمة (يقولون) أى فى كل قليل مؤكدين لعلمهم بكذبهم وتكذيب المؤمنين قولهم (ان بيوتنا) أتوا بجمع الكثرة اشارة الى كثرة أصحابهم من المنافقين (عورة) أى غير حصينة بها خلل كبير يمكن كل من أراد من الاحزاب أن يدخلها يدخلها منه وقيل قصيرة الجدران فاذا ذهبنا اليها حفظناها منهم وكفينا من يأتى الينا من مفسديهم حماية للدين

وذباعن الاهلين وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء والباقون بالكسر ثم أكذبهم الله
تعالى بقوله تعالى (وما) أى والحال أنها ما (هى بعورة) فى ذلك الوقت الذى قالوا هذا فيه
ولا يريدون بذهابهم حمايتها (ان) أى ما (يريدون) باستئذانهم (الا فرارا) من القتال * ولما
كانت عنايتهم مشتدة بملازمة دورهم فأظهروا اشتداد العناية بحمايتها زورا بين تعالى
ذلك بقوله تعالى (ولو دخلت) أى بيوتهم أو المدينة وأنث الفعل نصا على المراد واشارة الى
أن ما ينسب اليهم جدير بالضعف وأتى بأداة الاستعلاء بقوله تعالى (عليهم) اشارة الى أنه دخول
غلبة (من أقطارها) أى جوانبها كلها بحيث لا يكون لهم مكان للهرب وحذف الفاعل للايماء
بأن دخول هؤلاء الاحزاب ودخول غيرهم من العساكر سيان فى اقتضاء الحكم المرتب عليه
(ثم سئلوا) من أى سائل كان (الفتنة) أى الشرك ومقاتلة المسلمين وقرأ (لأتوها) نافع وابن
كثير بقصر الهمزة لجاؤها أو فعلوها والباقون بالمد أى لاعطوها اجابة لسؤال من سألهم
(وما تلبثوا بها) أى ما احتبسوا عن الفتنة (الا يسيرا) أى لاسرعوا الى الاجابة للشرك طيبة
بها نفوسهم فعلم بذلك أنهم لا يقصدون الا الفرار ولا حفظ البيوت من المضار وهذا قول أكثر
المفسرين وقال الحسن المراد بالفتنة الخروج من البيوت سمى بذلك لان الانسان لا يخرجه
من بيته الا الموت أو ما هو يقاربه فكأنه فتنة وعلى هذا يكون الضمير فى بها راجعا للبيوت
أو المدينة أى ما لبثوا بالبيوت أو بالمدينة بعد اعطاء الكفر الا يسيرا حتى هلكوا (ولقد كانوا)
أى هؤلاء الذين أسرعوا الاجابة الى الفرار (عاهدوا الله) الذى لا أجل منه (من قبل) أى
من قبل غزوة الخندق (لا يولون الادبار) أى لا ينهزمون وقال يزيد بن رومان هم بنو حارثة
هموا يوم أحد ان يفشلوا مع بنى سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله تعالى ان لا يعودوا لمثلها
وقال قتادة هم أناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر فرأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة
والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله تعالى اليهم ذلك وقال مقاتل والكلبى
هم سبعون رجلا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا اشترط لربك ولنفسك
ما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط
لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم قالوا واذا فعلنا ذلك فما لنا
يا رسول الله قال لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة قالوا قد فعلنا فذلك عهدهم قال
البغوى وهذا القول ليس بمرضى لان الذين بايعوا ليلة العقبة كانوا سبعين نفرا ليس فيهم شاك
ولا من يقول مثل هذا القول وانما الآية فى قوم عاهدوا الله تعالى ان يقاتلوا ولا يفروا فنقضوا
العهد انتهى ولما كان الانسان قد يتهاون بالعهد لاعراض المعاهد عنه قال تعالى (وكان عهد
الله) المحيط بصفات الكمال (مسؤلا) أى عن الوفاء به ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم
بقوله تعالى (قل) أى لهم وأكد لظنهم نفع الفرار (لن ينفعكم الفرار) فى تأخير آجالكم فى وقت
من الاوقات الذى ما كان استئذانكم الا بسببه (ان فررتم من الموت أو القتل) أى الذى كتب
لكم لان الاجل ان كان قد حضر لم يتأخر بالفرار والا لم يقصره الثبات كما كان على رضى الله

تعالى عنه يقول دهم الامر وتوقد الجمر واشتد من الحرب الحر أى يومى من الموت أفر يوم لا يقدر أو يوم قدر وذلك ان أجل الله الذى جعله محيطا بالانسان لا يقدر ان يتعداه أصلا (واذا) أى ان فررتم (لا تمتعون) فى الدنيا بعد فراركم (الا قليلا) أى مدة آجالكم وهى قليل فالعاقل لا يرغب فى شئ قليل يفوت عليه شيأ كثيرا * ولما كان ربما يقولون بل ينفعنا الانا طالما رأينا من هرب فسلم ومن ثبت فاصطلم أمره الله تعالى بالجواب عن هذا بقوله تعالى (قل) أى لهم منكرا عليهم (من ذا الذى يعصمكم) أى يجيركم ويمنعكم (من الله) المحيط بكل شئ قدرة وعلما فى حال الفرار وقبله وبعده (ان أراد بكم سوأ) أى هلاكا أو هزيمة فيرد ذلك عنكم (أو) يصيبكم بسوء ان (أراد) أى الله (بكم رحمة) أى خيرا سماه بها لانه أثرها والمعنى هل احترزتم فى جميع أعماركم عن سوء أراده فنفعكم الاحتراز أو اجتهد غيره فى منعكم رحمة منه فتم له أمره أو أوقع الله بكم شيأ من ذلك فقدر أحد مع بذل الجهد على كشفه بدون اذنه ويمكن ان تكون الآية من الاحتباك ذكر السوء أولا دليلا على حذف ضده ثانيا وذكر الرحمة ثانيا دليلا على حذف ضدها أولا وهذا بيان لقوله تعالى لن ينفعكم الفرار وقوله تعالى (ولا يجدون لهم) أى فى وقت من الاوقات (من دون الله) أى غيره (وليا) أى يواليهم فينفعهم بنوع نفع (ولا نصيرا) أى ينصرهم من أمره فيرد ما أراده بهم من السوء عنهم تقرير لقوله تعالى من ذا الذى يعصمكم من الله الآية * ولما أخبرهم تعالى بما علم مما أوقعوه من أسرارهم وأمره صلى الله عليه وسلم بوعظهم حذرهم بدوام علمه بمن يخون منهم بقوله تعالى (قد يعلم الله) الذى له احاطة الجلال والجمال (المعوقين منكم) أى المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) أى ساكنى المدينة (هلم) أى ائتوا واقبلوا (الينا) موهمين ان ناحيتهم مما يقام فيها القتال ويواظب فيها على صالح الاعمال قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبطون أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون لاخوانهم ما محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فانه هالك وقال مقاتل نزلت فى المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت الى المنافقين وقالوا ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه فانهم ان قدروا عليكم فى هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا فانا نشفق عليكم أنتم اخواننا وجيراننا فهلم الينا فأقبل عبد الله بن أبى وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبى سفيان ومن معه وقالوا ما ترجون من محمد ما عنده خير ما هو الا أن يقتلنا ههنا انطلقوا بنا الى اخواننا يعنى اليهود فلم يزداد المؤمنون بقول المنافقين الا ايمانا واحتسابا * (تنبيه) * هلم اسم صوت سمى به فعل متعد مثل احضر وقرب وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة وبلغتهم جاء القرآن العزيز وأما بنو تميم فتقول هلم يا رجل هلما يا رجلان هلموا يا رجال (ولا) أى والحال انهم لا (يأتون البأس) أى الحرب أو مكانها (الا قليلا) أى للرياء والسمعة بقدر ما يراهم المخلصون فاذا اشتغلوا بالمعاركة وكفى كل منهم ما اليه تسللوا عنه لواذا وعاذوا بمن لا ينفعهم من الخلق عيادا (أشحة) أى يفعلون ما تقدم والحال ان كلا منهم شحيح (عليكم) أى بحصول

نفع منهم أو من غيرهم نفس أو مال * (تنبيه) * أشحة جمع شحيح وهو جمع لا يقاس اذ قياس فعيل الوصف الذى عينه ولامه من واد واحد أن يجمع على أفعلاء نحو خليل وأخلاء وضنين واضناء وقد سمع أشحاء وهو القياس والشح البخل وصفهم الله تعالى بالبخل ثم بالجبن بقوله تعالى (فاذا جاء الخوف) أى بمجىء أسبابه من الحرب ومقدماتها (رأيتهم) أى أيها المخاطب وقوله تعالى (ينظرون) فى محل حال من مفعول رأيتهم لان الرؤية بصرية وبين بعدهم حسا ومعنى بحرف الغاية بقوله تعالى (اليك) أى حال كونهم (تدور) فهى اما حال ثانية واما حال من ينظرون عينا وشمالا بادارة الطرف (أعينهم) أى زائغة رعبا ثم شبهها فى سرعة تقلبها لغير قصد صحيح بقوله تعالى (كالذى) أى كدوران عين الذى (يغشى عليه) مبتدأ غشيانه (من الموت) أى من معالجة سكراته خوفا ولواذا بك وذلك لان قرب الموت وغشية أسبابه تذهب عقله وتشخص بصره فلا يطرف (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) أى تناولوكم تناولا صعبا بأنواع الاذى ناسين ما وقع منهم عن قرب من الجبن والخور وأصل السلق البسط بقهر اليد أو اللسان ومنه سلق امرأته أى بسطها وجامعها قال القائل

فقدهى لنا المنجح فان شئت سلقناك * وان شئت على أربع

والسليقة الطبيعة المباينة والسليق المطمئن من الارض (بألسنة حداد) ذربة قاطعة فصيحة بعد ان كانت عند الخوف فى غاية اللجلجة لا تقدر على الحركة من قلة الريق ويبس الشفاه وهذا لطلب العرض الفانى من الغنيمة وغيرها يقال للخطيب الذرب اللسان الفصيح مسلق وقال ابن عباس سلقوكم أى عضهوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة وقال قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة ويقولون اعطونا فانا شهدنا معكم القتال ولستم بأحق بالغنيمة منا ثم بين المراد بقوله تعالى (أشحة) أى شحاء مستعليا (على الخير) أى المال الذى عندهم وفى اعتقادهم انه لا خير غيره لا يريدون أن يصل شئ منه اليكم ولا يفوتهم شئ منه فهم عند الغنيمة أشح قوم وعند البأس أجبن قوم * ولما وصفهم تعالى بهذه الصفات الدنيئة أخبر تعالى ان أساسها الذى نشأت عنه عدم الوثوق بالله تعالى لعدم الايمان فقال (أولئك) أى البعداء البغضاء (لم يؤمنوا) أى لم يوجد منهم ايمان بقلوبهم وان أقرت به ألسنتهم (فأحبط الله) أى بجلاله وتفرده فى كبريائه وكماله (أعمالهم) التى كانوا يأتونها مع المسلمين أى فأظهر بطلانها واذا لم تثبت لهم الاعمال فتبطل وقال قتادة أبطل الله تعالى جهادهم (وكان ذلك) أى الاحباط (على الله) بماله من صفات العظمة (يسيرا) أى هينا لتعلق الارادة به وعدم ما يمنعه وقوله تعالى (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) يجوز أن يكون مستأنفا أى هم من الخوف بحيث انهم لا يصدقون ان الاحزاب قد ذهبوا عنهم ويجوز أن يكون حالا من أحد الضمائر المتقدمة اذا صح المعنى بذلك ولو بعد العامل قاله أبو البقاء والمعنى أن هؤلاء المنافقين يحسبون الاحزاب يعنى قريشا وغطفان واليهود لم يتفرقوا عن قتالهم من غاية الجبن عند ذهابهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كقوله تعالى ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين

والباقون بالكسر (وان يأت الاحزاب) بعدما ذهبوا كرة أخرى (يودوا) أى يتمنوا (لوأنهم بادون فى الاعراب) أى كائنون فى البادية بين الاعراب الذين هم عندهم فى محل نقص وممن تكره مخالطته ثم ذكر حال فاعل بادون بقوله تعالى (يسألون) كل وقت (عن أنبائكم) أى أخباركم العظيمة مع الكفار وما آل اليه أمركم جريا على ماهم عليه من النفاق ليبقوا لهم عندكم وجها كأنهم مهتمون بكم يظهرون بذلك تحرقا على غيبتهم عن هذه الحرب (ولو) أى والحال انهم لو (كانوا) هؤلاء المنافقون (فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ماقاتلوا) معكم (الاقليلا) نفاقا كما فعلوا قبل ذهاب الاحزاب من حضورهم معكم تارة واستئذانهم فى الرجوع الى منازلهم أخرى * ولما أخبر تعالى عنهم بهذه الاحوال التى هى غاية فى الدناءة أقبل عليهم اقبالا يدلهم على تناهى الغضب بقوله تعالى مؤكدا لمحققا لاجل انكارهم (لقد كان لكم) أيها الناس كافة الذين المنافقون فى غمارهم (فى رسول الله) الذى جلاله من جلاله وكماله من كماله (اسوة) أى قدوة (حسنة) أى صالحة وهو المؤتسى به أى المقتدى به كما تقول فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد أوأن فيه خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاسات الشدائد اذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذى بضروب الاذى فواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك واستنوا بسنته * (تنبيه) * الاسوة اسم وضع موضع المصدر وهو الائتساء فالاسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء وائتسى فلان بفلان أى اقتدى به وقرأ عاصم بضم الهمزة والباقون بكسرها وهما لغتان كالعدوة والعدوة والقدوة والقدوة وقوله تعالى (لمن كان) أى كونا كأنه جبلة له (يرجو الله) أى فى جبلته أنه يجدد الرجاء مستمرا للذى لاعظيم فى الحقيقة سواه فيؤمل اسعاده ويخشى ابعاده تخصيص بعد التعميم للمؤمنين أى ان الاسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله وقال مقاتل يخشى الله (واليوم الآخر) أى يخشى يوم البعث الذى فيه جزاء الاعمال (وذكر الله) أى الذى له صفات الكمال وقيده بقوله تعالى (كثيرا) تحقيقا للمذكور فى معنى الرجاء الذى به الفلاح أوان المراد به الدائم فى حال السراء والضراء * ولما بين تعالى حال المنافقين ذكر حال المؤمنين عند لقاء الاحزاب بقوله تعالى (ولما رأى المؤمنون) أى الكاملون فى الايمان (الاحزاب) أى الذين أدهشت رؤيتهم القلوب (قالوا) أى مع ماحصل لهم من الزلزال وتعاظم الاهوال (هذا) أى الذى نراه من الهول (ماوعدنا الله) أى الذى له الامر كله من تصديق دعوانا الايمان بالبلاء والامتحان (ورسوله) المبلغ بنحو قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم أحسب الناس أن يتركوا الامثال ذلك ثم قالوا فى مقابلة قول المنافقين ماوعدنا الله ورسوله الاغرورا (وصدق الله) أى الذى له صفات الكمال (ورسوله) أى الذى كماله من كماله أى ظهر صدقهما فى عالم الشهادة فى كل ماوعدا به من السراء والضراء كما رأيناه وهما صادقان فيما غاب عنا مما

وعدا به من نصرو غيره واظهارا الاسمين للتعظيم والتيمن بذكرهما قال بعض المفسرين ولو أعيدا مضمرين لجمع بين البارى تعالى واسم رسوله صلى الله عليه وسلم فكان يقال وصدقا وقد ردّ صلى الله عليه وسلم على من جمعهما بقوله من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وأنكر عليه بقوله بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله قصدا الى تعظيم الله تعالى وقيل انما ردّ عليه لانه وقف على يعصهما واستشكل بعضهم الاول بقوله حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما فقد جمع بينهما فى ضمير واحد (وأجيب) بأنه صلى الله عليه وسلم أعرف بقدر الله تعالى منا فليس لنا أن نقول كما يقول وقد يقال اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فالله جلّ وعلا أولى وحينئذ فالقائل بأنه انما ردّ عليه لانه وقف على يعصهما أولى * ولما كان هذا قولا يمكن أن يكون لسانيا فقط كقول المنافقين أكده اظنّ المنافقين ذلك بقوله تعالى شاهدا لهم (وما زادهم) أى ما رأوه من أمرهم أو الرعب (الا ايمانا) بالله ورسوله (وتسليما) بجميع جوارحهم فى جميع القضاء والقدر * ثم وصف الله تعالى بعض المؤمنين بقوله تعالى (من المؤمنين) أى المذكورين سابقا وغيرهم (رجال) أى فى غاية العظمة عند ناثم وصفهم بقوله تعالى (صدقوا ما عاهدوا الله) المحيط علما وقدرة (عليه) أى أقاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به (فمنهم من قضى نحبه) أى نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر والنحب النذر استعير للموت لانه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان وقيل النحب الموت أيضا قال قتادة قضى نحبه أى أجله وقيل قضى نحبه أى بذل جهده فى الوفاء بالعهد من قول العرب نحب فلان فى سيره يومه وليلته أى اجتهد * وقيل قضى نحبه قتل يوم بدر أو يوم أحد روى أنّ أنسا قال غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أوّل قتال قاتلت المشركين لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهمّ انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ثم تقدّم واستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو الى أين فقال واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل قال أنس ابن مالك فوجدنا فى جسده بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم فوجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد الا أخته ببنانه قال أنس كنا نرى أو نظنّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه (ومنهم) أى الصادقين (من ينتظر) أى السعادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) أى العهد ولا غيروه (تبديلا) أى شيأ من التبديل روى انّ ممن لم يقتل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وفعل ما لم يفعله غيره لزم النبى صلى الله عليه وسلم فلم يفارقه وذب عنه ووقاه بيده حتى شلت اصبعه قال اسمعيل بن قيس رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد وعن معاوية سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه وعن طلحة لما رجع النبىّ صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ رجال

صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية كلها فقام اليه رجل فقال يا رسول الله من هؤلاء فقال أيها السائل هذا منهم وعنه أيضا ان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الاعرابي جاهل سله عمن قضى نحبه من هو وكانوا لا يجترؤن على مسئلته يهابونه ويوقرونه فسأله الاعرابي فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم انى طلعت من باب المسجد فقال أين السائل عمن قضى نحبه قال الاعرابي أنا فقال هذا ممن قضى نحبه وهذا يقوى القول بأن المراد بالنحب بذل الجهد في الوفاء بالعهد وعن خباب بن الارت قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب ابن عمير قتل يوم أحد فلم يوجد له شئ يكفن فيه الا نمرة فكنا اذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه منها واذا وضعناها على رجليه خرج رأسه منها فقال صلى الله عليه وسلم ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه من الاذخر قال ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها أينعت أي أدركت ونضجت له ثمرتها ويهدبها أي يجنيها وهذا كناية عما فتح الله تعالى لهم من الدنيا وعن زيد بن ثابت قال لما نسخنا المصحف من المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الانصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فألحقتها في سورتها في المصحف (ليجزي الله) أي الذي يريد اظهار جميع صفاته يوم البعث للخاص والعام ظهورا تاما (الصادقين) أي في الوفاء بالعهد وادعائهم آمنوا به (بصدقهم) أي فيعلي أمرهم وينعمهم في الآخرة فالصدق سبب وان كان فضلا منه لانه الموفق له *(تنبيه)* في لام ليجزي وجهان أحدهما انها لام العلة والثاني انها لام الصيرورة وفيما تتعلق به أوجه اما بصدقوا واما بزادهم واما بما بدلوا وعلى هذا جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لان كلا الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما (ويعذب المنافقين) أي الذين أخفوا الكفر وأظهروا الاسلام في الدارين بكذبهم في دعواهم الايمان المقتضي لبيع النفس والمال (ان شاء) بأن يميتهم على نفاقهم (أو يتوب عليهم) ان شاء بأن يهديهم الى التوبة فيتوبوا فالكل بارادته *(تنبيه)* جواب ان شاء مقدر وكذا مفعول شاء أي ان شاء تعذيبهم عذبهم وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الثانية وابدلاها أيضا حرف مد وحققها الباقون وفي الابتداء بالثانية الجميع بالتحقيق * ولما كانت توبة المنافقين مستبعدة لما يرون من صلابتهم في الخداع وخبث سرائرهم قال معللا لذلك كله على وجه التأكيد (ان الله) أي بما له من الجلال والجمال (كان) أزلا وأبدا (غفورا) لمن تاب (رحيما) بهم * ثم بين تعالى بعض ما جزاهم الله تعالى بصدقهم بقوله تعالى (ورد الله) أي بما له من صفات الكمال (الذين كفروا) وهم من تحزب من العرب وغيرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بلادهم عن المدينة ومضايقة المؤمنين حال كونهم

(بغيظهم) أى متغيظين لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا بل تفرقوا عن غير طائل حال كونهم
(لم ينالوا خيرا) لا من الدين ولا من الدنيا بل ذلا وندامة فهو حال ثانية أو حال من الحال الاولى
فهى متداخلة (وكفى الله) أى الذى له العزة والكبرياء (المؤمنين القتال) بما ألقى
فى قلوبهم من الداعية للانصراف بالريح والجنود من الملائكة وغيرهم منهم نعيم بن مسعود
لما تقدم من الحيلة التى فعلها قال سعيد بن المسيب لما كان يوم الاحزاب حصر النبى صلى الله
عليه وسلم بضع عشرة ليلة حتى خلص الى كل امرئ منهم الكرب وحتى قال النبى صلى الله عليه
وسلم اللهم انى أنشدك عهدك ووعدك اللهم انك ان تشأ لا تعبد فبيناهم على ذلك اذ جاء نعيم
ابن مسعود الاشجعى وكان يأمنه الفريقان جميعا فخذل بين الناس فانطلق الاحزاب منهزمين
من غير قتال فذلك قوله تعالى وكفى الله المؤمنين القتال (وكان الله) أى الذى له صفات
الكمال أزلا وأبدا (قويا) على احداث ما يريده (عزيزا) غالبا على كل شئ * ولما أتم الله
تعالى حال الاحزاب اتبعه حال من عاونوهم بقوله تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا
الاحزاب (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة ومن دخل معهم فى حصنهم من بنى النضير (من
صياصيهم) أى حصونهم متعلق بأنزل ومن لابتداء الغاية والصياصى جمع صيصية وهى
الحصون والقلاع والمعاقل ويقال لكل ما يمتنع به ويتحصن فيه صيصية ومنه قيل لقرن
الثور والظبى وشوكة الديك صيصية عن سعيد بن جبير قال كان يوم الخندق بالمدينة جاء
أبو سفيان بن حرب ومن تبعه من قريش ومن تبعه من كنانة وعيينة بن حصن ومن تبعه من
غطفان وطليحة ومن تبعه من بنى أسد وبنو الاعور ومن تبعهم من بنى سليم وقريظة كان بينهم
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا ذلك وظاهروا المشركين فأنزل الله تعالى فيهم
وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وكانت غزوة بنى قريظة فى آخر ذى القعدة
سنة خمس من الهجرة وعن موسى بن عقبة أنها فى سنة أربع قال العلماء بالسير ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما أصبح فى الليلة التى انصرف الاحزاب راجعين الى بلادهم انصرف رسول
الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق الى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى
جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرسه الحيزوم والغبار على وجه
الفرس والسرج فقال ما هذا يا جبريل قال من متابعة قريش فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال يا رسول الله ان الملائكة لم تضع السلاح ان الله
تعالى يأمرك بالسير الى بنى قريظة وأنا عامد اليهم فان الله دقهم دق البيض على الصفا وانهم لك
طعمة فأذن فى الناس أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلى العصر الا فى بنى قريظة وقدم رسول
الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب برايته اليهم وابتدرها الناس فسار على حتى اذا دنا من
الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الاخباث قال أظنك سمعت
فى منهم أذى قال نعم يا رسول الله قال لو قد رأونى لم يقولوا من ذلك شيأ فلما دنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم من حصنهم قال يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمة قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه قبل أن يصل الى بني قريظة قال هل مر بكم أحد قالوا مر بنا دحية بن خليفة على بغلة شهباء عليها قطيفة من ديباج قال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل بعث الى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة نزل على بئر من آبارها فتلاحق به الناس فأتاه رجال من بعد صلاة العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة فما عابهم الله تعالى بذلك ولا عنفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده فلما أيقنوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد يا معشر يهود انه قد نزل بكم من الامر ما نزل واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وما هي قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وانه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دياركم وأبنائكم وأموالكم ونسائكم قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فاذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا أحدا ولا شيأ نخشى عليه وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والابناء قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم قال فان أبيتم هذه فان الليلة ليلة السبت فعسى أن يكون محمد وأصحابه قد امنوا فانزلوا لعلنا ان نصيب منهم غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا فتركهم قال علماء السير وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكمي فأبوا وكانوا قد طلبوا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الاوس يستشيرونه في أمرهم فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال والنساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم فقالوا يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده الى حلقه يعني انه يقتلكم قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى قد عرفت اني خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني حتى يتوب الله تعالى علي مما صنعت وعاهد الله تعالى لا يطأ بني قريظة أبدا ولا يراني الله تعالى في بلد خنت فيه الله ورسوله فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وأبطأ عليه قال أما لو جاءني لاستغفرت له فأما اذ فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد حكمت فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ثم استنزلهم

وخندق فى سوق المدينة خندقا وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة الى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير (وقذف) أى الله تعالى (فى قلوبهم الرعب) حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى كما قال الله تعالى (فريقا تقتلون) وهم الرجال يقال كانوا ستمائة (وتأسرون فريقا) وهم النساء والذرارى يقال كانوا سبعمائة وخمسين ويقال تسعمائة (فان قيل) مافائدة تقديم المفعول فى الاول حيث قال تعالى فريقا تقتلون وتأخيره فى الثانى حيث قال وتأسرون فريقا (أجيب) بأن الرازى قال مامن شئ من القرآن الا وله فائدة منها مايظهر ومنها مالايظهر والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القاتل يبدأ بالاهم فالاهم والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين وكان القتل واردا عليهم وكان الاسراء هم النساء والذرارى ولم يكونوا مشهورين والسبى والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين ما اشتهر على الفعل القائم به ومن الفعلين ماهو أشهر قدمه على المحل الخفى انتهى وقرأ ابن عامر والكسائى الرعب بضم العين والباقون بسكونها * ولما ذكر الناطق بقسميه ذكر الصامت بقوله تعالى (وأورثكم أرضهم) من الحدائق والمزارع (وديارهم) أى حصونهم لانه يحامى عليها مالا يحامى على غيرها (وأموالهم) من النقد والماشية والسلاح والاثاث وغيرها فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ولفارسه سهم كما للراجل ممن ليس له فرس سهم وأخرج منها الخمس وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان هذا أول فىء وضع فيه السهمان وجرى على سننه فى المغازى واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من سباياهم ريحانة بنت عمرو بن قريظة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يارسول الله تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها وكانت حين سباها كرهت الاسلام وأبت الا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد فى نفسه من أمرها فبينما هو مع أصحابه اذ سمع وقع نعلين خلفه فقال ان هذا الثعلبة ابن شعبة يبشرنى باسلام ريحانة فجاءه فقال يارسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار فى ذلك فقال انكم فى منازلكم وقال عمر أما تخمس كما خمست يوم بدر قال لا انما جعلت هذه طعمة لى دون الناس قال رضينا بما صنع الله ورسوله وأنزل الله تعالى توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقالت مم تضحك يارسول الله أضحك الله تعالى سنك فقال تيب على أبى لبابة فقالت الا أبشره بذلك يارسول الله قال بلى ان شئت فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت ياأبالبابة أبشر فقد تاب الله تعالى عليك فثار الناس اليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه خارجا الى الصبح أطلقه ومات سعد بن معاذ بعد انقضاء غزوة بنى قريظة قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فوالذى نفس محمد بيده انى لاعرف بكاء عمر من بكاء أبى بكر وانى لفى حجرتى قالت وكانوا كما قال

الله

الله تعالى رجاء بينهم واختلف فى تفسير قوله تعالى (وأرضا) أى وأورثكم أرضا (لم تطؤها) فعن مقاتل انها خيبر وعليه أكثر المفسرين وعن الحسن فارس والروم وعن قتادة كنا نحدث انها مكة وعن عكرمة كل أرض تفتح الى القيامة ومن بدع التفسير أنه أراد نساءهم انتهى * ولما كان ذلك أمرا باهرا سهله بقوله تعالى (وكان الله) أى أزلا وأبدا بماله من صفات الكمال (على كل شئ) هذا وغيره (قديرا) أى شامل القدرة روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا اله الا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وغلب الاحزاب وحده فلا شئ بعده ولما أرشد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم الى جانب ما يتعلق بجانب التعظيم لله تعالى بقوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن فى النفقة فقال (يا أيها النبى قل لازواجك) أى نسائك (ان كنتن) أى كونا راسخا (تردن) أى اختيارا على (الحياة) ووصفها بما يزهد فيها ذوى الهمم ويذكر من له عقل بالآخرة بقوله تعالى (الدنيا) أى ما فيها من السعة والرفاهية والنعمة (وزينتها) أى المنافية لما أمرنى به ربى من الاعراض عنه واحتقاره من أمرها لانها أبغض خلقه اليه لانها قاطعة عنه (فتعالين) أصله ان الآمر يكون أعلى من المأمور فيدعوه ان يرفع نفسه اليه ثم كثر حتى صار معناه أقبل وهو هنا كناية عن الاخبار والارادة بعلاقة ان المخبر يدنو الى من يخبره (أمتعكن) أى بما أحسن به اليكن من متعة الطلاق وهى واجبة لزوجة لم يجب لها نصف مهر فقط بأن وجب لها جميع المهر او كانت مفوضة لم توطأ ولم يفرض لها شئ صحيح أما فى الاولى فلان المهر فى مقابلة منفعة بضعها وقد استوفاها الزوج فتجب للايحاش المتعة وأما فى الثانية فلان المفوضة لم يحصل لها شئ فيجب لها متعة للايحاش بخلاف من وجب لها النصف فلا متعة لها لانه لم يستوف منفعة بضعها فيكفى نصف مهرها للايحاش هذا اذا كان الفراق لا بسببها وسن أن لا تنقص عن ثلاثين درهما أو ما قيمته ذلك وأن لا تبلغ نصف المهر فان تراضيا على شئ فذاك والا قدرها قاض باجتهاده بقدر حالهما من يساره واعساره ونسبها وصفاتها قال تعالى ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره (وأسرحكن) أى من حبالة عصمتى (سراحا جميلا) أى طلاقا من غير مضارة ولا نوع حطة ولا مقاهرة (وان كنتن) أى بما لكن من الجبلة (تردن الله) أى الآمر بالاعراض عن الدنيا (ورسوله) أى المؤتمر بما أمره به من الانسلاخ عنها المبلغ للعباد جميع ما أرسله به من أمر الدنيا والدين لا يدع منه شيأ لماله عليكن وعلى سائر الناس من الحق بما يبلغهم عن الله تعالى (والدار الآخرة) اى التى هى الحيوان بما لها من البقاء والعلو والارتقاء (فان الله) بماله من جميع صفات الكمال (أعد) أى فى الدنيا والآخرة (للمحسنات منكن) أى اللاتى يفعلن ذلك (أجرا عظيما) تستحقر دونه الدنيا وزينتها ومن للبيان لانهن كلهن محسنات قال المفسرون سبب نزول هذه الآية ان نساء النبى صلى الله عليه وسلم سألنه من عرض الدنيا شيأ وطلبن منه زيادة فى النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن

رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى أن لا يقربهن شهرا ولم يخرج الى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا
يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لاعلمن لكم شأنه قال فدخلت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أطلقتهن قال لا فقلت يارسول الله انى دخلت المسجد
والمسلمون يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم انك لم تطلقهن
قال نعم ان شئت فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله صلى الله عليه
وسلم نساءه ونزل قوله تعالى واذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى
الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم فكنت أنا الذى استنبط ذلك الامر
وأنزل الله تعالى آية التخيير وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع نسوة خمس من قريش
عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وأم سلمة بنت أبى أمية وسودة
بنت زمعة وأربع من غير القرشيات زينب بنت جحش الاسدية وميمونة بنت الحرث الهلالية
وصفية بنت حيى بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحرث المصطلقية فلما نزلت آية التخيير
عرض عليهن رضى الله تعالى عنهن ذلك وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة رأس المحسنات
اذ ذاك وكانت أحب أهله فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة
فرؤى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك قال قتادة فلما اخترن الله
ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن فقال تعالى لا تحل لك النساء من بعد وعن جابر بن
عبد الله قال دخل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس
جلوسا ببابه لم يؤذن لاحد منهم فأذن لابى بكر فدخل ثم أقبل عمر ثم استأذن فأذن له فوجد النبى
صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا قال فقال لأقولن شيأ أضحك النبى صلى الله
عليه وسلم فقال يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها فضحك
النبى صلى الله عليه وسلم وقال هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها
وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول لا تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ أبدا ليس
عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين يوما ثم نزلت هذه الآية يا أيها النبى قل لازواجك حتى بلغ
للمحسنات منكن أجرا عظيما قال فبدأ بعائشة فقال يا عائشة انى أعرض عليك أمرا لا أحب أن
تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وما هو يارسول الله فتلا عليها الآية فقالت أفيك يارسول
الله استشير أبوى بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك
بالذى قلت قال لا تسألنى امرأة منهن الا أخبرتها ان الله لم يبعثنى معنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا
قوله واجما أى مهتما والواجم الذى أسكته الهم وعلته الكآبة وقيل الوجوم الحزن وقوله فوجأت
عنقها أى دققته وقوله لم يبعثنى معنتا العنت المشقة والصعوبة وروى الزهرى ان النبى صلى الله
عليه وسلم أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا قال الزهرى فأخبرنى عروة عن عائشة قالت فلما
مضت تسع وعشرون أعدهن دخل على فقلت يارسول الله انه مضى تسع وعشرون أعدهن فقال
ان الشهر تسع وعشرون * (تنبيه) * اختلف العلماء فى هذا الخيار هل كان ذلك تفويضا للطلاق

اليهنّ حتى يقع بنفس الاختيار أولا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق وانما خيرهنّ على انهنّ اذا اخترن الدنيا فارقهنّ لقوله تعالى فتعالين أمتعكنّ وأسرحكنّ ويدل عليه انه لم يكن جوابهنّ على الفور فانه قال لعائشة لاتعجلي حتى تستشيري أبويك وفى تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور وذهب آخرون الى انه كان تفويض طلاق ولو اخترن أنفسهنّ كان طلاقا واختلف العلماء فى حكم التخيير فقال عمرو بن مسعود وابن عباس اذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ ولو اختارت نفسها وقع طلقة واحدة وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى وأصحاب الرأى الا انّ عند أصحاب الرأى انه يقع طلقة بائنة اذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت اذا اختارت الزوج تقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على أنها اذا اختارت زوجها تقع طلقة واحدة رجعية وان اختارت نفسها فطلقة بائنة وأكثر العلماء على انها اذا اختارت زوجها لا يقع شئ وعن مسروق قال ما أبالى خيرت امرأتى واحدة أو مائة أو ألفا بعد أن تختارنى قال الرازى وهنا مسائل منها هل كان هذا التخيير واجبا على النبى صلى الله عليه وسلم أم لا والجواب انّ التخيير كان قولا واجبا من غير شك لانه ابلاغ للرسالة لانّ الله تعالى لما قال له قل لهنّ صار من الرسالة وأما التخيير معنى فبنى على انّ الامر للوجوب أم لا والظاهر أنه للوجوب ومنها انّ واحدة منهنّ لو اختارت نفسها وقلنا انها لا تبين الا بابانة النبى صلى الله عليه وسلم فهل كان يجب على النبى صلى الله عليه وسلم الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يجب لانّ الخلف فى الوعد من النبى صلى الله عليه وسلم غير جائز بخلاف أحدنا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ومنها انّ المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا الظاهر انها لا تحرم والا لم يكن التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها أن من اختارت الله ورسوله هل كان يحرم على النبى صلى الله عليه وسلم طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول صلى الله عليه وسلم على معنى انّ النبى صلى الله عليه وسلم لا يباشره أصلا لا بمعنى انه لو أتى به لعوقب أو عوتب انتهى ولما خيرهنّ واخترن الله ورسوله هدّدهنّ الله للتوقى عما يسوء النبى صلى الله عليه وسلم وأوعدهنّ بتضعيف العذاب بقوله تعالى (يانساء النبىّ) أى المختارات له لما بينه وبين الله تعالى مما ظهر شرفه (من يأت منكنّ بفاحشة) أى سيئة من قول أو فعل كالنشوز وسوء الخلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك وقال ابن عباس المراد هنا بالفاحشة النشوز وسوء الخلق وقيل هو كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقرأ ابن كثير وشعبة (مبينة) بفتح الياء التحتية أى ظاهر فحشها والباقون بكسرها أى واضحة ظاهرة فى نفسها (يضاعف لها العذاب) أى بسبب ذلك (ضعفين) أى ضعفى عذاب غيرهنّ أى مثليه وانما ضوعف عذابهنّ لانّ ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ وأقبح لانّ زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة ولذلك كان ذمّ العقلاء للعاصى العالم

أشد منه للعاصي الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذلك جعل حد الحر ضعف حد العبد
وعوتب الانبياء بما لا يعاتب به غيرهم وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي بالياء التحتية وألف بعد
الضاد وتخفيف العين مفتوحة العذاب بالرفع وابن كثير وابن عامر بالنون ولا ألف بعد الضاد
وتشديد العين مكسورة العذاب بالنصب وأبو عمرو بالياء وتشديد العين مفتوحة العذاب بالرفع
وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيرا) فيه ايذان بأن كونهن نساء النبي صلى الله عليه
وسلم ليس يغني عنهن شيأ وكيف يغني عنهن وهو سبب مضاعفة العذاب فكان داعيا الى تشديد
الامر عليهن غير صارف عنه * ولما بين تعالى زيادة عقابهن أتبعه زيادة ثوابهن بقوله تعالى
(ومن يقنت) أي يطع (منكن لله) الذي هو أهل لان لا يلتفت الى غيره (ورسوله) الذي
لا ينطق عن الهوى فلا تخالفه فيما أمر به ولا تختار عيشا غير عيشه (وتعمل) أي مع ذلك
بجوارحها (صالحا) أي في جميع ما أمر به سبحانه أو نهى عنه فلا تقتصر على عمل القلب
(نؤتها أجرها مرتين) أي مثلي ثواب غيرهن من النساء قال مقاتل مكان كل حسنة عشرين
حسنة فمرة على الطاعة ومرة لطلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق وطيب
المعاشرة والقناعة *(تنبيه)* قوله تعالى نؤتها أجرها مرتين في مقابلة قوله تعالى يضاعف لها
العذاب ضعفين وفيه لطيفة وهي أنه عند ايتاء الاجر ذكر المؤتي وهو الله تعالى وعند العذاب
لم يصرح بالمعذب بل قال يضاعف وهذا اشارة الى كمال الرحمة والكرم وقرأ حمزة والكسائي
بالياء التحتية في يعمل ويؤتها حملا على لفظ من وهو الاصل والباقون بالتاء الفوقية في يعمل
على معنى من والنون في نؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى (واعتدنا) أي هيأنا بما لنا من
العظمة (لها) أي بسبب قناعتها مع النبي صلى الله عليه وسلم المريد للتخلي من الدنيا التي يبغضها
الله تعالى مع ما في ذلك من توفير الحظ في الآخرة (رزقا كريما) أي في الدنيا والآخرة
زيادة على أجرها أما في الدنيا فلان ما يرزقهن منه يوفقن لصرفه على وجه يكون فيه أعظم
الثواب ولا يخشى من أجله نوع عقاب وأما في الآخرة فلا يوصف ولا يحد ولا نكد فيه أصلا
ولا كد وهذا ما جرى عليه البقاعي وهو أولى مما جرى عليه كثير من المفسرين من الاقتصار
على رزق الجنة وعلله الرازي بقوله ووصف رزقا بكونه كريما مع ان الكريم لا يكون وصفا
الا للرازق وذلك اشارة الى ان الرزق في الدنيا مقدر على ايدي الناس فان التاجر يسترزق من
السوقة والعاملون والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق في الدنيا
لا يأتي بنفسه انما هو مسخر للغير يكتسبه ويرسله الى الاعيان وأما في الآخرة فلا يكون له مرسل
وممسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه فلاجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم الا الرازق وفي
الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق انتهى * ولما ذكر تعالى ان عذابهن ضعف عذاب غيرهن
وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء قال تعالى (يانساء النبي لستن
كأحد) قال البغوي ولم يقل كواحدة لان الاحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر
والمؤنث والمعنى لستن كجماعة واحدة (من) جماعات (النساء) اذا تقصيت جماعة النساء

واحدة واحدة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة ومنه قوله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم يريد بين جماعة واحدة منهم تسوية بين جميعهم في أنهم على الحق المبين وقوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله وقوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين والحمل على الافراد بأن يقال ليست كل واحدة منكن كواحدة من آحاد النساء صحيح بل أولى ليلزم تفضيل الجماعة بخلاف الحمل على الجمع وعن ابن عباس معنى لستن كأحد من النساء يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم على وثوابكن أعظم لدي * ولما كان المعنى بل أنتن أعلى النساء ذكر شرط ذلك بقوله تعالى (ان اتقيتن) الله تعالى أي جعلتن بينكن وبين غضب الله تعالى وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم وقاية ثم سبب عن هذا النهي قوله تعالى (فلا تخضعن) أي اذا تكلمتن بحضرة أجنبي (بالقول) أي بأن يكون لينا عذبا رخيما والخضوع التطامن والتواضع واللين ثم سبب عن الخضوع قوله تعالى (فيطمع) أي في الخيانة (الذي في قلبه مرض) أي فساد وريبة من فسق ونفاق أو نحو ذلك وعن زيد بن علي قال المرض مرضان مرض زنا ومرض نفاق وعن ابن عباس أن نافع بن الازرق قال له أخبرني عن قوله تعالى فيطمع الذي في قلبه مرض قال الفجور والزنا قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت الاعشى وهو يقول

حافظ للفرج راض بالتقى * ليس ممن قلبه فيه مرض

والتعبير بالطمع للدلالة على ان أمنيته لا سبب لها في الحقيقة لان اللين في كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه وأريد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم التكلف للاتيان بضده بل المرأة مندوبة الى الغلظة في المقالة اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع * ولما نهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء في رخاوة الصوت أمرهن بضده بقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) أي يعرف انه بعيد عن محل الطمع من ذكر الله وما تحتجن اليه من الكلام مما يوجب الدين والاسلام بتصريح وبيان من غير خضوع * ولما أمرهن بالقول وقدمه لعمومه اتبعه الفعل بقوله تعالى (وقرن) أي اسكن وامكثن دائما (في بيوتكن) فمن كسر القاف وهم غير نافع وعاصم جعل الماضي قرر بفتح العين ومن فتحه وهو نافع وعاصم فهو عنده قرر بكسرها وهما لغتان قال البغوي وقيل وهو الاصح انه أمر من الوقار كقوله من الوعد عدن ومن الوصل صلن أي كن أهل وقار وسكون من قوله وقر فلان يقر وقورا اذا سكن واطمأن انتهى ومن فتح القاف نقل الراء ومن كسرها رقق الراء وعن محمد بن سيرين قال نبئت انه قيل لسودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما تفعل اخواتك فقالت قد حججت واعتمرت وأمرني الله أن أقر في بيتي فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت قال فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى خرجت بجنازتها * واختلف في معنى التبرج في قوله تعالى (ولا تبرجن) فقال مجاهد وقتادة هو التكسر والتغنج وقال ابن جريج هو التبختر وقيل هو ابراز الزينة وابراز المحاسن للرجال وقرأ البزي بتشديد التاء في الوصل والباقون بالتخفيف واختلف أيضا

فى معنى قوله تعالى (تبرج الجاهلية الاولى) فقال الشعبى هى مابين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وقال أبو العالية هى زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام كانت المرأة تتخذ قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه وقال الكلبى كان ذلك فى زمن نمروذ الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشى وسط الطريق ليس عليها شئ غيره وتعرض نفسها على الرجال وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال الجاهلية الاولى فيما بين نوح وادريس عليهما السلام وكانت ألف سنة وان بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحا وفى النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من أهل السهل واجر نفسه منهم فكان يخدمهم واتخذ شيأ مثل الذى يزمر به الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فأتوه وهم يستمعون اليه واتخذوا عيدا يجتمعون اليه فى السنة فيتبرج النساء للرجال ويتزين الرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة بينهم فذلك قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وقال قتادة ما قبل الاسلام وقيل الجاهلية الاولى ماذكرنا والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم فى آخر الزمان وقيل الجاهلية الاولى ما كانوا عليه قبل الاسلام والجاهلية الاخرى جاهلية الفسوق فى الاسلام ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم لابى ذر كما فى الصحيحين ان فيك جاهلية كفرا واسلام وقول البيضاوى عن أبى الدرداء قال ابن حجر لم أجده عن أبى الدرداء وقيل قد تذكر الاولى وان لم تكن لها أخرى كقوله تعالى وانه أهلك عادا الاولى ولم تكن لها أخرى * ولما أمرهن بلزوم البيوت للتخلية عن الشوائب أرشدهن الى التحلية بالرغائب بقوله تعالى (وأقمن الصلاة) أى فرضا ونفلا صلة لما بينكن وبين الخالق ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (وآتين الزكاة) احسانا الى الخلائق وفى هذا بشارة الفتوح وتوسيع الدنيا عليهن فان العيش وقت نزولها كان ضيقا عن القوت فضلا عن الزكاة * ولما أمرهن بخصوص ما تقدم لانهما أصل الطاعات البدنية والمالية ومن اعتنى بهما حق الاعتناء جرتاه الى ما وراءهما عم وجمع فى قوله تعالى (وأطعن الله) أى الذى له صفات الكمال (ورسوله) أى الذى لا ينطق عن الهوى فيما أمر ابه ونهيا عنه (انما يريد الله) أى الذى هو ذوا الجلال والاكرام بما أمركن به ونها كن عنه من الاعراض عن الزينة وما يتبعها والاقبال عليه (ليذهب) أى لاجل أن يذهب (عنكم الرجس) أى الاثم الذى نهى الله تعالى عنه النساء قاله مقاتل وقال ابن عباس يعنى عمل الشيطان وما ليس فيه رضا الرحمن وقال قتادة يعنى السوء وقال مجاهد الرجس الشك وقوله تعالى (أهل البيت) فى ناصبه أوجه أحدها النداء أى يا أهل البيت أو المدح أى أمدح أهل البيت أو الاختصاص أى أخص أهل البيت كما قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث والاختصاص فى المخاطب أقل منه فى المتكلم وسمع منك الله نرجو الفضل والاكثر انما هو فى المتكلم كقولها

نحن بنات طارق * نمشي على النمارق
وقولهم نحن بني ضبة أصحاب الجمل * الموت أحلى عندنا من العسل
وقولهم نحن العرب أقرى الناس للضيف واختلف في أهل البيت والاولى فيهم ما قال البقاعي انهم كل من يكون من الزام النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء والازواج والاماء والاقارب وكلما كان الانسان منهم أقرب وبالنبي صلى الله عليه وسلم أخص وألزم كان بالارادة أحق وأجدر ويؤيده قول البيضاوي وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله تعالى عنهم لما روي انه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فجاءت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون اجماعهم حجة ضعيف وعن ابن عباس انهم نساء النبي صلى الله عليه وسلم لانهن في بيته وتلا قوله تعالى واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت في بيتي أنزل انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت قالت فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتي فقلت يا رسول الله اما أنا من أهل البيت فقال بلى ان شاء الله وقال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم الصدقة بعده آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قال الرازي والاولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين وعلي منهم لانه كان من أهل بيته لمعاشرته بنت النبي صلى الله عليه وسلم وملازمته له ولما استعار للمعصية الرجس استعار للطاعة الطهر ترغيبا لاصحاب الطباع السليمة والعقول المستقيمة في الطاعة وتنفيرا لهم عن المعصية بقوله تعالى (ويطهركم) أي يفعل في طهركم الصيانة عن جميع القاذورات الحسية والمعنوية فعل المبالغ فيه وزاد ذلك عظما بالمصدر بقوله تعالى (تطهيرا) وعن ابن عباس قال شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا الصلاة رحمكم الله كل يوم خمس مرات ثم بين تعالى ما أنعم الله به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحي بقوله تعالى (واذكرن) أي في أنفسكن ذكرا دائما واذكرنه لغيركن على جهة الوعظ والتعليم (ما يتلى) أي يتابع ويوالي ذكره (في بيوتكن) أي بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم الذي خيركن وقوله تعالى (من آيات الله) أي القرآن بيان للموصول فيتعلق بأعني ويجوز أن يكون حالا اما من الموصول واما من عائده المقدر فيتعلق بمحذوف أيضا واختلف في قوله تعالى (والحكمة) فقال قتادة يعني السنة وقال مقاتل أحكام القرآن ومواعظه (ان الله) أي الذي له جميع العظمة (كان) أي ولم يزل (لطيفا) أي يوصل الى المقاصد بلطائف الاضداد (خبيرا) أي بجميع خلقه يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية فيعلم من يصلح لبيت النبي صلى الله عليه وسلم ومن لا وما يصلح الناس دينا ودنيا وما لا يصلحهم والمارق الموصلة

لكل ماقضاه وقدره وان كانت على غير ما يألفه الناس من انقطع الى الله كفاه الله تعالى
كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها ولقد صدق الله
تعالى وعده فى لطفه وحقق بره فى خبره بان فتح على نبيه صلى الله عليه وسلم خيبر فأفاض بها
من رزقه الواسع ولما توفى نبيه صلى الله عليه وسلم ليحميه من زهرة الحياة الدنيا فتح الفتوحات
الكبار من بلاد فارس والروم ومصر ومابقى من اليمن فعم الفتح جميع الاقطار الشرق
والغرب والجنوب والشمال ومكن أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم من كنوز تلك
البلاد وذخائر أولئك الملوك حتى صار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يكيلون المال كيلا
وزاد الامر حتى دون عمر رضى الله تعالى عنه الدواوين وفرض للناس عامة أرزاقهم
حتى للرضعاء وكان أولا لايفرض للمولود حتى يفطم فكانوا يستعجلون بالفطام فنادى مناديه
لاتعجلوا أولادكم بالفطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام وفاوت بين الناس فى
العطاء بحسب القرب من النبى صلى الله عليه وسلم والبعد منه وبحسب السابقة فى الاسلام
والهجرة ونزل الناس منازلهم بحيث أرضى جميع الناس حتى قدم عليه خالد بن عرفطة
فسأله عما وراءه فقال تركتهم يسألون الله تعالى أن يزيد فى عمرك من أعمارهم قال عمر انما هو
حقهم وأنا أسعد بأدائه اليهم وانى لاعم بنصيحتى كل من طوقنى الله أمره فان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال من مات غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة فكان فرضه لازواج النبى صلى الله عليه
وسلم اثنى عشر ألفا لكل واحدة وهى نحو ألف دينار فى كل سنة وأعطى عائشة خمسة وعشرين
ألفا لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياها فأبت أن تأخذ الا ما تأخذه صواحباتها وروى
عن برزة بنت رافع قالت لما خرج العطاء أرسل عمر الى زينب بنت جحش بالذى لها فلما أدخل
اليها قالت غفر الله لعمر غيرى من اخواتى أقوى على قسم هذا منى قالوا هذا كله لك قالت
سبحان الله ثم قالت صبوه واطرحوا عليه ثوبا ثم قالت لى ادخلى يديك واقبضى منه قبضة فاذهبى
بها الى بنى فلان وبنى فلان من ذوى رحمها وأيتام لها فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب
قالت برزة بنت رافع غفر الله لك ياأم المؤمنين والله لقد كان لنا فى هذا المال حق قالت فلكم
ماتحت الثوب قالت فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما ثم رفعت يديها الى السماء وقالت
اللهم لايدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا فماتت قال البقاعى ذكر ذلك البلاذرى فى كتاب فتوح
البلاد انتهى وعن مقاتل قال قالت أم سلمة بنت أبى أمية ونسيبة بنت كعب الانصارية للنبى صلى
الله عليه وسلم مابال ربنا يذكر الرجال ولايذكر النساء فى شئ من كتابه نخشى أن لايكون فينا خير
فأنزل الله تعالى (ان المسلمين والمسلمات) أى الداخلين فى الاسلام المنقادين لحكم الله
فى القول والعمل * ولما كان الاسلام مع كونه أكمل الاوصاف وأعلاها يمكن أن يكون
بالظاهر فقط اتبعه المحقق له وهو اسلام الباطن بالتصديق التام بغاية الاذعان فقال عاطفا له
ولما بعده من الاوصاف التى يمكن اجتماعها بالواو وللدلالة على تمكن الجامعين لهذه الاوصاف
فى كل وصف منها (والمؤمنين والمؤمنات) أى المصدقين بما يجب أن يصدق به * ولما كان

المؤمن المسلم قدلايكون في أعماله مخلصا قال (والقانتين والقانتات) أي المخلصين في ايمانهم واسلامهم المداومين على الطاعة * ولما كان القنوت قد يطلق على الاخلاص المقتضى للمداومة وقد يطلق على مطلق الطاعة قال (والصادقين والصادقات) أى في ذلك كله من قول وعمل * ولما كان الصدق وهو اخلاص القول والعمل عن شوب يلحقه أو شئ يدنسه قد لايكون دائما قال مشيرا الى أن مالا يكون دائما لايكون صدقا في الواقع (والصابرين والصابرات) أي على الطاعات وعن المعاصى * ولما كان الصبر قد يكون سجية دل على صرفه الى الله بقوله تعالى (والخاشعين والخاشعات) أى المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم * ولما كان الخشوع والخضوع والاخبات والسكون لايصح مع توفير المال فانه سكون اليه قال معلما انه اذذاك لايكون على حقيقته (والمتصدقين والمتصدقات) بما وجب في أموالهم وبما استحب سرا وعلانية تصديقا لخشوعهم * ولما كان بذل المال قد لايكون مع الايثار اتبعه مايعين عليه بقوله تعالى (والصائمين والصائمات) أى فرضا ونفلا للايثار بالقوت وغير ذلك * ولما كان الصوم يكسر شهوة الفرج وقد يثيرها قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) أى عما لايحل لهم وحذف مفعول الحافظات لتقدم مايدل عليه والتقدير والحافظاتها وكذلك والذاكرات وحسن الحذف رؤس الفواصل * ولما كان حفظ الفرج وسائر الاعمال لايكاد يوجد الابالذكر وهو الذي يكون عنده المراقبة الموصلة الى المحاضرة المحققة للمشاهدة المحببة للفناء قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) أى بقلوبهم وألسنتهم في كل حالة ومن علامات الاكثار من الذكر اللهج به عند الاستيقاظ من النوم وقال مجاهد لايكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال سبق المفردون قالوا وما المفردون قال الذاكرون الله تعالى كثيرا والذاكرات قال عطاء بن أبى رباح من فوض أمره الى الله عزوجل فهو داخل في قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله تعالى ربه ومحمدا صلى الله عليه وسلم رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله تعالى والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله تعالى في الفرض والرسول صلى الله عليه وسلم في السنة فهو داخل في قوله تعالى والقانتين والقانتات ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله تعالى والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعات وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل في قوله تعالى والصابرين والصابرات ومن صلى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله تعالى والخاشعين والخاشعات ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله تعالى والمتصدقين والمتصدقات ومن صام في كل شهر أيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل في قوله تعالى والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عن الحرام فهو داخل في قوله تعالى والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات (أعد الله) أى الذى لايقدر أحد أن يقدره حق قدره مع انه لايعاظمه

شيء (لهم مغفرة) أي لما اقترفوه من الصغائر لانها مكفرات بفعل الطاعات والآية عامة وفضل الله تعالى واسع * ولما ذكر تعالى الفضل بالتجاوز أتبعه الفضل بالكرم والرحمة بقوله تعالى (وأجراً عظيماً) أي على طاعتهم والآية وعد لهن ولامثالهن بالاثابة على الطاعة والتدرع بهذه الخصال وروى أن سبب نزول هذه الآية أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن يارسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف ان لا تقبل منا طاعة فأنزل الله تعالى هذه الآية روى أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لا فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان النساء لفي خيبة وخسار قال ومم ذاك قالت لانهن لا يذكرن بخير كما تذكر الرجال فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقيل لما نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما نزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شيء فنزلت * (تنبيه) * عطف الاناث على الذكور لاختلاف جنسيهما والعطف فيه ضروري لاختلافهما اذا تأوعطف الزوجين وهو مجموع المؤمنين والمؤمنات على الزوجين وهو مجموع المسلمين والمسلمات لتغاير وصفيهما وليس العطف فيه بضروري بخلافه في الاول لان اختلاف الجنس أشد من اختلاف الصفة وفائدة العطف عند تغاير الاوصاف الدلالة على أن اعداد المعد من المغفرة والاجر العظيم أي تهيئته للمذكورين للجمع بين هذه الصفات فصار المعنى ان الجامعين والجامعات لهذه الطاعات العشر أعد الله تعالى لهم مغفرة وأجراً عظيما وقوله تعالى (وما كان) أي وما صح (لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً) أي اذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى لتعظيم أمره والاشعار بأنه قضاء الله تعالى نزلت في زينب بنت جحش الاسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمها أمية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب على مولاه زيد بن حارثة وكان اشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه فلما خطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت أنا ابنة عمتك يارسول الله فلا أرضاه لنفسي وكانت بيضاء جميلة فيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك رواه الدارقطني بسند ضعيف وقيل في أم كلثوم بنت عقبة وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد (أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) أي أن يختاروا من أمرهم شيأ بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعا لاختيار الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم * (تنبيه) * الخيرة مصدر من تخير كالطيرة من تطير على غير قياس وجمع الضمير في قوله تعالى لهم وفي قوله تعالى من أمرهم لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث انهما في سياق النفي ويجوز أن يكون الضمير في من أمرهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وجمع للتعظيم كما جرى عليه البيضاوي وقرأ أن يكون الكوفيون وهشام بالياء التحتية والباقون بالفوقية ولانه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ومن عصاه فقد عصى الله تعالى كما قال تعالى (ومن يعص الله) أي الذي لا أمر لاحد معه (ورسوله) أي الذي معصيته معصية الله تعالى لكونه بينه وبين الخلق في بيان ما أرسل به اليهم

وقوله تعالى (فقد ضل) قرأه قالون وابن كثير وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام وزاد ذلك بقوله تعالى (ضلالا مبينا) أى فقد أخطأ خطأ ظاهر الاخفاء فيه فالواجب على كل أحد أن يكون معه صلى الله عليه وسلم فى كل ما يختاره وان كان فيه أعظم المشقات عليه تخلقا بقول الشاعر

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى عامدا * ما من يهون عليك ممن يكرم

فلما نزلت هذه الآية رضيت زينب بذلك وجعلت أمرها بيد النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك أخوها فأنكحها صلى الله عليه وسلم زيدا فدخل بها وساق اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وازارا وملحفة وخمسين مدا من الطعام وثلاثين صاعا من تمر ومكثت عنده حينا ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيدا ذات يوم لحاجة فأبصر زينب قائمة فى درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت فى نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب وانصرف فلما جاء زيد ذكرت ذلك له ففطن زيد فألقى فى نفس زيد كراهتها فى الوقت فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى أريد أن أفارق صاحبتى قال مالك أرابك منها شئ قال لا والله يا رسول الله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها تتعاظم على لشرفها وتؤذينى بلسانها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أمسك عليك زوجك يعنى زينب بنت جحش واتق الله فى أمرها فأنزل الله تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله) أى الملك الذى له كل الكمال (عليه) وتولى نبيه عليه الصلاة والسلام اياه وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بالاظهار والباقون بالادغام * ثم بين تعالى منزلته من النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وأنعمت عليه) أى بالعتق والتبنى حيث استشارك فى فراق زوجته التى أخبرك الله تعالى أنه يفارقها وتصير زوجتك (أمسك عليك زوجك) أى زينب رضى الله عنها (واتق الله) الذى له جميع العظمة فى جميع أمرك (وتخفى) أى والحال انك تخفى أى تقول قولا مخفيا (ما فى نفسك) أى ما أخبرك الله من أنها ستصير احدى زوجاتك عند طلاق زيد (ما الله مبديه) أى مظهره بحمل زيد على تطليقها وان أمرته بامساكها وتزويجك بها وأمرك بالدخول عليها وهذا دليل على انه ما أخفى غير ما أعلمه الله تعالى من انها ستصير زوجته عند طلاق زيد لان الله تعالى ما أبدى غير ذلك ولو أخفى غيره لابداه سبحانه لانه لا يبدل قوله وقول ابن عباس كان فى قلبه حبها بعيد وكذا قول قتادة ودّ لو أنه لو طلقها زيد وكذا قول غيرهما كان فى قلبه لو فارقها زيد تزوجها * ولما ذكر تعالى اخفاءه ذلك ذكر علته بقوله تعالى عاطفا على تخفى (وتخشى الناس) أى من ان تخبر بما أخبر الله تعالى به فيصوبوا اليك مرجمات الظنون لاسيما اليهود والمنافقون وقال ابن عباس والحسن تستحييهم وقيل تخاف لائمة الناس أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها (والله) اى والحال ان الذى لا شئ أعظم منه (أحق ان تخشاه) أى وحده ولا تجمع خشية الناس مع خشيته فى أن تؤخر شيأ أخبرك به حتى يأتيك فيه أمر قال عمر وابن

مسعود وعائشة مانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد عليه من هذه وروى عن مسروق قال قالت عائشة لو كتم النبى صلى الله عليه وسلم شيأ مما أوحى اليه لكتم هذه الآية وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ويؤيده ما روى سفيان بن عيينة عن على عن زيد بن جدعان قال سألنى على بن الحسين زين العابدين ما يقول الحسن فى قوله تعالى وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه قال قلت يقول لما جاء زيد الى النبى صلى الله عليه وسلم قال يارسول الله انى أريد أن أطلقها فقال له امسك عليك زوجك فقال على بن الحسين ليس كذلك لان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وان زيدا سيطلقها فلما جاء زيد وقال انى أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون من أزواجك وهذا هو اللائق والاليق بحال الانبياء عليهم السلام وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدى ويظهر ما اخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) أى حاجة من زواجها والدخول بها وذلك بانقضاء عدتها منه لان به يعرف انه لا حاجة له فيها وانه قد تقاصرت عنها همته والا لراجعها (زوجناكها) أى ولم نحوجك الى ولى من الخلق يعقد لك عليها تشريفا لك ولها بما لنا من العظمة التى خرقنا بها عوائد الخلق حتى اذعن لذلك كل من علم به وسرت به جميع النفوس ولم يقدر منافق ولا غيره على الخوض فى ذلك ببنت شفة مما يوهنه ويؤثر فيه فلو كان الذى أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على أنه انما عوتب على اخفاء ما أعلمه الله تعالى من أنها ستكون زوجة له وانما أخفاه استحياء أن يقول لزيد ان التى تحتك وفى نكاحك ستكون امرأتى قال البغوى وهذا هو الاولى والاليق وان كان الآخر وهو انه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح فى حال الانبياء عليهم السلام لان العبد غير ملوم على ما يقع فى قلبه من مثل هذه الاشياء ما لم يقصد فيه المأثم لان الود وميل النفس من طبع البشر وقوله امسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو خشية الاثم فيه وقوله والله أحق ان تخشاه لم يرد به انه لم يكن يخشى الله فيما سبق فانه عليه الصلاة والسلام قال أنا أخشاكم لله واتقاكم له ولكن المعنى الله أحق ان تخشاه وحده ولا تخشى أحدا معه فأنت تخشاه وتخشى الناس أيضا ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر ان الله أحق بالخشية فى عموم الاحوال وفى جميع الاشياء انتهى وذكر قضاء الوطر ليعلم ان زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها اذا طلقت وانقضت عدتها روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها على قال فانطلق زيد حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما استطيع ان أنظر اليها لان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى فقلت يازينب ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيأ حتى أؤامر ربى فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال على بن الحسين الخ غير مستقيم اه

فدخل عليها بغير اذن قال ولقد رأيتنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يارسول الله كيف وجدت أهلك قال فما أدري أنا أخبرته ان القوم خرجوا أو أخبرني قال فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب وعن أنس رضي الله عنه قال ما أولم النبي صلى الله عليه وسلم على شئ من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة وفي رواية أكثر وأفضل ما أولم على زينب قال ثابت فما أولم قال أطعمهم خبزا ولحما حتى تركوه قال أنس رضي الله عنه كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات وقال الشعبي كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم اني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن جدي وجدك واحد وأنكحنيك الله في السماء وان السفير لجبريل عليه السلام وأخرج ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد يقال له زيد ابن محمد فربما فقده رسول الله صلى الله عليه وسلم الساعة فيقول أين زيد فجاء منزله يطلبه فلم يجده وتقوم اليه زينب بنت جحش زوجته فضلا فأعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقالت ليس هو ههنا يارسول الله فادخل فأبى أن يدخل فأعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولى وهو يهمهم بشئ لا يكاد يفهم منه الا ربما أعلن بسبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء زيد الى منزله فأخبرته امرأته ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منزله فقال زيد ألا قلت له ان يدخل قالت قد عرضت ذلك عليه فأبى قال فسمعت شيأ منه قالت سمعته حين ولى تكلم بكلام لا أفهمه وسمعته يقول سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء زيد حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله بلغني انك جئت منزلي فهلا دخلت يارسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امسك عليك زوجك فما استطاع زيد اليها سبيلا بعد ذلك اليوم فيأتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره فيقول امسك عليك زوجك ففارقها زيد واعتزلها وانقضت عدتها فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس يتحدث مع عائشة اذ أخذته غشية فسرى عنه وهو يتبسم ويقول من يذهب الى زينب يبشرها ان الله زوجنيها من السماء وقرأ واذ تقول للذي الآية قالت عائشة فأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها وأخرى هي أعظم الامور وأشرفها زوجها الله من السماء وقلت هي تفتخر علينا بهذا * ولما ذكر تعالى التزويج على ماله من العظمة ذكر علته بقوله تعالى (لكي لا يكون على المؤمنين حرج) أي ضيق واثم (في أزواج أدعيائهم) أي الذين تبنوهم وأجروهم في تحريم أزواجهم مجرى أزواج البنين على الحقيقة (اذا قضوا منهن وطرا) أي حاجة بالدخول بهن ثم الطلاق وانقضاء العدة *(فائدة)* لا مقطوعة في الرسم من لكي *(تنبيه)* الادعياء جمع دعي وهو المتبنى أي زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته

ليعلم ان زوجة المتبنى حلال للمتبنى وان كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب
لا تحل للاب (وكان أمر الله) من الحكم بتزويجها وان كرهت وتركت اظهاره ما أخبرك الله
تعالى به كراهية لسوء المقالة واستحياء من ذلك وكذا كل أمر يريده سبحانه (مفعولا) أى قضاء
الله تعالى ماضيا وحكمه نافذا فى كل ما أراده لا معقب لحكمه (ما كان على النبى) أى الذى
منزلته من الله تعالى الاطلاع على ما لا يطلع عليه غيره من الخلق (من حرج فيما فرض) أى قدر
(الله) بما له من صفات الكمال وأوجبه (له) لانه لم يكن على المؤمنين مطلقا حرج فى ذلك فكيف
برأس المؤمنين وقوله تعالى (سنة الله) منصوب بنزع الخافض أى كسنة الله (فى الذين خلوا من
قبل) من الانبياء عليهم السلام أنه لا حرج عليهم فيما أباح لهم قال الكلبى ومقاتل أراد داود عليه
السلام حين جمع بينه وبين المرأة التى هويها فكذلك جمع بين محمد و بين زينب وقيل أراد بالسنة
النكاح فانه من سنة الانبياء عليهم السلام فكان من كان من الانبياء عليهم السلام هذا سنتهم
فقد كان لسليمان بن داود عليهما السلام ألف امرأة وكان لداود مائة امرأة (وكان أمر
الله) أى قضاء الملك الاعظم فى ذلك وغيره (قدرا) وأكده بقوله تعالى (مقدورا) أى لا خلف
فيه ولا بد من وقوعه فى حينه الذى حكم بكونه فيه وقوله تعالى (الذين) نعت للذين قبله
(يبلغون) أى الى أممهم (رسالات الله) أى الملك الاعظم سواء كانت فى نكاح أم غيره (ويخشونه)
أى فيخبرون بكل ما أخبرهم به (ولا يخشون أحدا) قل أو جل (الا الله) فلا يخشون قالة
الناس فيما أحل الله لهم (وكفى بالله) أى المحيط بجميع صفات الكمال (حسيبا) أى حافظا
لاعمال خلقه ومحاسبهم * ولما أفاده هذا كله ان الدعى ليس ابنا وكانوا قد قالوا لما تزوج زينب
كما رواه الترمذى عن عائشة تزوج حليلة ابنه قال تعالى (ما كان) أى بوجه من الوجوه
(محمد) أى على كثرة نسائه وأولاده (أبا أحد من رجالكم) لا مجازا بالتبنى ولا حقيقة بالولادة
فثبت بذلك انه يحرم عليه زوجة الابن ولم يقل تعالى من بنيكم لانه لم يكن له فى ذلك الوقت
سنة خمس وما داناها ابن ذكر لعلمه تعالى انه سيولد له ابنه ابراهيم عليه السلام مع ما كان
له قبله من البنين الطاهر والطيب والقاسم وانه لم يبلغ أحد منهم الحلم عليهم السلام قال
البيضاوى ولو بلغوا لكانوا رجاله لا رجالهم انتهى وهذا انما يأتى على ان المراد التبنى وقال
البغوى والصحيح انه أراد بأحد من رجالكم الذين لم يلدهم انتهى ومع هذا الاول أوجه
كما جرى عليه البقاعى * ثم لما نفى تعالى أبوته عنهم قال (ولكن) كان فى علم الله غيبا وشهادة
(رسول الله) أى الملك الاعظم الذى كل من سواه عبده (وخاتم النبيين) أى آخرهم الذى
ختمهم لان رسالته عامة ومعها اعجاز القرآن فلا حاجة مع ذلك الى استنباء ولا ارسال وذلك
مفض لئلا يبلغ له ولد اذ لو بلغ له ولد لاق بمنصبه ان يكون نبيا اكراما له لانه أعلى النبيين
رتبة وأعظمهم شرفا وليس لاحد من الانبياء كرامة الا وله مثلها وأعظم منها ولو صار أحد من
ولده رجلا لكان نبيا بعد ظهور نبوته وقد قضى الله تعالى ان لا يكون بعده نبى اكراما له
روى أحمد وابن ماجه عن أنس وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم

قال

قال فى ابنه ابراهيم عليه السلام لو عاش لكان صديقا نبيا وللبخارى نحوه عن البراء بن عازب وللبخارى من حديث بن أبى أوفى لو قضى أن يكون بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبى لعاش ابنه ولكن لانبى بعده وقال ابن عباس رضى الله عنه يريد لولم اختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون من بعده نبيا وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنه لما حكم أنه لانبى بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا وقيل من لانبى بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم اذهو كالولد لولد ليس له غيره والحاصل أنه لا يأتى بعده نبى مطلقا بشرع جديد ولا يتجدد بعده مطلقا استنباء وهذه الآية مثبتة لكونه خاتما على أبلغ وجه وأعظمه وذلك أنها فى سياق الانكار بأن يكون بينه وبين أحد من رجالهم بنوة حقيقية أو مجازية ولو كانت بعده لاحد لم يكن ذلك الا لولده ولان فائدة اثبات النبى تتميم شئ لم يأت به من قبله وقد حصل به صلى الله عليه وسلم التمام فلم يبق بعد ذلك مرام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وأما تجديد ما وهى مما أحدث بعض الفسقة فالعلماء كافون فيه لوجود ما خص به صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن المعجز الذى من سمعه فكأنما سمعه من الله عز وجل لوقوع التحقق والقطع بأنه لا يقدر غيره أن يقول شيأ منه فهما حصل ذهول عن ذلك قرره من يريد الله تعالى من العلماء فيعود الاستبصار كما روى فى بعض الآثار علماء امتى كأنبياء بنى اسرائل وأما اتيان عيسى عليه السلام بعد تجديد الهدى لجميع ما وهى من أركان المكارم فلاجل فتنة الدجال ثم طامة يأجوج ومأجوج ونحو ذلك مما لا يستقل باعبائه غيرنبى وما أحسن قول حسان بن ثابت فى مرثية لابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم

مضى ابنك محمود العواقب لم يشب * بعيب ولم يذمم بقول ولا فعل
رأى انه ان عاش ساواك فى العلا * فآثر أن تبقى وحيدا بلا مثل

وقال الغزالى فى آخر كتابه الاقتصاد ان الامة فهمت من هذا اللفظ ومن قرائن أحواله صلى الله عليه وسلم انه أفهم عدم نبى بعده أبدا وعدم رسول بعده أبدا وانه ليس فيه تأويل ولا تخصيص وقال ان من أوله بتخصيص النبيين بأولى العزم من الرسل ونحو هذا فكلامه من أنواع الهذيان لا يمنع الحكم بتكفيره لانه مكذب لهذا النص الذى أجمعت الامة على أنه غير مؤول ولا مخصوص انتهى وقد بان بهذا ان اتيان عيسى عليه السلام غير قادح فى هذا النص فانه من أمته صلى الله عليه وسلم المقررين لشريعته وهو قد كان نبيا قبله لم يتجدد له شئ لم يكن فلم يكن ذلك قادحا فى الختم وهو مثبت لشرف نبينا صلى الله عليه وسلم اذ لولاه لما وجد وذلك انه لم يكن لنبى من الانبياء شرف الاوله صلى الله عليه وسلم مثله أو أعلى منه وقد كانت الانبياء تأتى مقررة لشريعة موسى عليه السلام مجددة لها فكان المقرر لشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم المتبع لملته من كان ناسخا لشريعة موسى صلى الله عليه وسلم وقرأ عاصم بفتح التاء والباقون بكسرها فالفتح اسم للآلة التى يختم بها كالطابع والقالب لما يطبع به ويقلب فيه يقلب فيه والكسر على انه اسم فاعل وقال بعضهم هو بمعنى المفتوح بمعنى بمعنى آخرهم لانه ختم النبيين فهو خاتمهم (وكان الله) أى الذى له كل صفة كمال ازلا وأبدا (بكل شئ) من

ذلك وغيره (عليما) فيعلم من يليق بالختم ومن يليق بالبدء قال الاستاذ ولى الدين الملوى في كتابه حسن النفوس في سؤال القبر واختصاصه صلى الله عليه وسلم بالاحمدية والمحمدية علما وصفة برهان على ختمه اذ الحمد مقرون بانقضاء الامور ومشروع عنده وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين وروى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مثلى ومثل الانبياء كمثل قصر أحكم بنيانه ترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه الا موضع تلك اللبنة لا يعيبون بسواها فكنت انا موضع تلك اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل وقال عليه الصلاة والسلام ان لى اسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى يمحو الله تعالى بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الله تعالى الناس على قدمى وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعده نبى * ولما كان ما أثبته لنفسه سبحانه وتعالى من احاطة العلم مستلزما للاحاطة بأوصاف الكمال قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا ذلك بألسنتهم (اذكروا الله) الذى هو أعظم من كل شئ تصديقا لدعواكم ذلك (ذكرا كثيرا) قال ابن عباس لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهى اليه ولم يعذر أهله فى تركه الا مغلوبا على عقله وأمرهم به فى الاحوال فقال تعالى فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقال تعالى اذكروا الله ذكرا كثيرا أى بالليل والنهار والبر والبحر والصحة والسقم فى السر والعلانية وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا فيعم ذلك سائر الاوقات وسائر ما هو أهله من التقديس والتهليل والتمجيد (وسبحوه بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره خصوصا وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح من جملة الاذكار لانه العمدة فيها وقال البغوى وسبحوه أى صلوا له بكرة أى صلاة الصبح وأصيلا يعنى صلاة العصر وقال الكلبى وأصيلا يعنى صلاة الظهر والعصر والعشاءين وقال مجاهد معناه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله فعبر بالتسبيح عن اخوانه وقيل المراد من قوله تعالى ذكرا كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والمحدث * وعن أنس لما نزل قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبى قال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ما أنزل الله تعالى عليك خيرا الا أشركنا فيه أنزل الله تعالى (هو الذى يصلى عليكم) أى يرحمكم (وملائكته) أى يستغفرون لكم فالصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار للمؤمنين فذكر صلاته تحريضا المؤمنين على الذكر والتسبيح قال السدى قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام أيصلى ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فأوحى الله تعالى اليه قل لهم انى أصلى وان صلاتى رحمتى وقد وسعت رحمتى كل شئ وقيل الصلاة من الله هى اشاعة الذكر الجميل له فى عباده وقيل الثناء عليه واستغفار الملائكة ودعاؤهم للمؤمنين ترحم عليهم وهو سبب للرحمة من حيث انهم مجابو الدعوة فقد اشتركت الصلاتان واللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز قال الرازى وينسب هذا القول للشافعى رحمه الله تعالى

وهو غير بعيد وذلك لان الرحمة والاستغفار مشترك في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية * ولما كان فعل الملائكة منسوبا اليه قال تعالى (ليخرجكم) أى ليديم اخراجه اياكم بذلك (من الظلمات) أى الكفر والمعصية (الى النور) الى الايمان والطاعة أو ليخرجكم من الجهل الموجب للضلال الى العلم المثمر للهدى (وكان) أى أزلا وأبدا (بالمؤمنين) أى الذين صار الايمان وصفا لهم (رحيما) أى بليغ الرحمة بتوفيقهم حيث اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين فحملهم ذلك على الاخلاص فى الطاعات فرفع لهم الدرجات فى روضات الجنات (تحيتهم) أى المؤمنين (يوم يلقونه) أى يرون الله تعالى (سلام) أى يسلم الله تعالى عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروى عن البراء بن عازب قال تحيتهم يوم يلقونه سلام يعنى يلقون ملك الموت فلا يقبض روح مؤمن الا يسلم عليه وعن ابن مسعود قال اذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم حين يخرجون من قبورهم (وأعد) أى والحال انه أعد (لهم) أى بعد السلامة الدائمة (أجرا كريما) هو الجنة وتقدم ذكر الكريم فى الرزق (فان قيل) الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشئ عليه واما الله تعالى فغير محتاج ولا عاجز فحيث يلقاه يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل (أجيب) بان الاعداد للاكرام لا للحاجة قال البيضاوى ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم (يا أيها النبى) أى الذى نخبره بما لا يطلع عليه غيره (انا أرسلناك) أى بعظمتنا الى سائر خلقنا (شاهدا) أى عليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالتهم او شاهدا للرسل بالتبليغ وهو حال مقدرة أو مقارنة لقرب الزمان (ومبشرا) أى لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أى لمن كذب بالنار (وداعيا الى الله) أى الى توحيده وطاعته وقوله تعالى (باذنه) حال أى متلبسا بتسهيله ولا يريد حقيقة الاذن لانه مستفاد من أرسلناك (وسراجا) أى مثله فى الاهتداء به عند البصائر فى ظلمات الجهل بالعلم للمبصر لمواقع الزلل كما عند النور الحسى نور الابصار (منيرا) أى نيرا على من اتبعه فيصير فى أعظم ضياء ومن تخلف عنه كان فى أشد ظلام وعبر به دون الشمس مع أن الشمس أشد اضاءة من السراج لان نور الشمس لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة اذا انطفأ الاول يبقى الذى أخذ منه وكذلك ان غاب النبى صلى الله عليه وسلم كان كل صحابى سراجا يؤخذ منه نور الهداية كما قال صلى الله عليه وسلم أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم قال ابن عادل وفى هذا الخبر لطيفة وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور اذا غرب لا يبقى نور يستفاد منه فكذلك الصحابى اذا مات فالتابعى يستنير بنور النبى صلى الله عليه وسلم فلا يؤخذ الا قول النبى صلى الله عليه وسلم وفعله فأنوار المجتهدين كلهم من النبى صلى الله عليه وسلم ولو جعلهم كالسرج والنبى صلى الله عليه وسلم كان سراجا كان للمجتهدات يستنير عن أراد منهم ويأخذ النور عمن اختار وليس كذلك فان مع نص النبى صلى الله عليه وسلم لا يعمل بقول الصحابى بل يؤخذ

النور من النبي صلى الله عليه وسلم ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجا *(تنبيه)* جوز الفراء أن يكون الاصل وتاليا سراجا ويعني بالسراج القرآن وعلى هذا فيكون من عطف الصفات وهي الذات واحدة لان التالي هو المرسل وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على محذوف مثل فراقب أحوال أمتك ولم يقل انذر المعرضين اشارة للكرم وقوله تعالى (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) كقوله تعالى أعد لهم أجرا عظيما والعظيم والكبير متقاربان * ولما أمره سبحانه وتعالى بما يسر نهاه عما يضر بقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) أي لا تترك ابلاغ شيء مما أنزلت اليك من الانذار وغيره كراهة لشيء من مقالهم وافعالهم في أمر زينب وغيرها فانك نذير لهم وزاد على ما في أول السورة محط الفائدة في قوله مصرحا بما اقتضاه ما قبله (ودع) أي اترك على حالة حسنة لك وأمر جميل بك (أذاهم) فلا تحسب له حسابا أصلا واصبر عليه فان الله تعالى دافع عنك لانك داع باذنه (وتوكل على الله) أي الملك الاعلى (وكفى بالله) أي الذي له الاحاطة الكاملة (وكيلا) أي حافظا قال البغوي وهذا منسوخ بآية القتال ولما بدأ الله تعالى بتأديب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر ما يتعلق بجانب الله تعالى بقوله تعالى يا أيها النبي اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من هو تحت يده من أزواجه الشريفات بقوله تعالى بعده يا أيها النبي قل لازواجك وثلث بما يتعلق بذكر العامة بقوله تعالى يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا وكان تعالى كلما ذكر لنبيه مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فلذلك بدأ في ارشاد المؤمنين بجانب الله تعالى فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات) أي عقدتم على الموصوفات بهذا الوصف الشريف المقتضي لغاية الرغبة فيهن وأتم الوصلة بينكم وبينهن ثم كما ثلث في تأديب النبي صلى الله عليه وسلم بجانب الامة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (فان قيل) اذا كان هذا ارشادا بما يتعلق بجانب من هو من خواص المرأة فلم خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بقوله تعالى (ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أي تجامعوهن أطلق المس على الجماع لانه طريق له كما سمي الخمر اثما لانه سببه (أجيب) بأن هذا ارشاد الى اعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكيد العهد ولهذا قال تعالى في حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا فاذا أمر الله تعالى بالتمتع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بما حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما وهذا كقوله تعالى فلا تقل لهما أف ولو قال لا تضر بهما ولا تشتمهما ظن انه حرام لمعنى يختص بالضرب أو الشتم لهما فأما اذا قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة فكذلك ههنا أمر بالاحسان مع من لا مودة معها فعلم منه الاحسان الى الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء وألف بعد الميم والباقون بفتح

التاء ولا ألف بعد الميم * ولما كانت العدة حقا للرجال وان كانت لا تسقط باسقاطهم لما فيها من حق الله تعالى قال تعالى (فما لكم عليهن من عدة) أى أياما يتربصن فيها بأنفسهن (تعتدونها) أى تحصونها وتستوفونها بالاقراء وغيرها فتعتدونها صفة لعدة وتعتدونها امامن العدد واما من الاعتداد أى تحسبونها أو تستوفون عددها من قولك عد الدراهم فاعتدها أى استوفى عددها نحو كلته فاكتال ووزنته فاتزن (فان قيل) ما الفائدة فى الاتيان بثم وحكم من طلقت على الفور بعد العقد كذلك (أجيب) بأن ذلك ازاحة لما عسى يتوهم ان تراخى الطلاق ريثما تمكن الاصابة كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة وظاهره يقتضى عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على ان شأن المؤمن ان لا ينكح الا مؤمنة تخيرا لنطفة المؤمن وفى هذه الآية دليل على ان تعليق الطلاق قبل النكاح لا يصح لان الله تعالى رتب الطلاق بكلمة ثم وهى للتراخى حتى لو قال لاجنبية اذا نكحتك فانت طالق أو كل امرأة أتزوجها فهى طالق فنكح لا يقع الطلاق وهو قول على وابن مسعود وجابر ومعاذ وعائشة رضى الله تعالى عنهم وبه قال أهل العلم منهم الشافعى وأحمد رضى الله تعالى عنهما وروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال يقع الطلاق وهو قول ابراهيم النخعى وأصحاب الرأى وقال ربيعة ومالك والاوزاعى ان عين امرأة يقع وان عمم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال كذبوا على ابن مسعود رضى الله عنه ان كان قالها فزلة من عالم فى الرجل يقول ان تزوجت فلانة فهى طالق يقول الله تعالى اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ولم يقل اذا طلقتموهن ثم نكحتموهن وروى عطاء عن جابر لا طلاق قبل النكاح وقوله تعالى (فمتعوهن) أى أعطوهن ما يستمتعن به محله كما قال ابن عباس رضى الله عنه اذا لم يكن سمى لها صداقا والا فلها نصف الصداق ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فنصف ما فرضتم أى فلا متعة لها مع وجوب نصف الفرض واختلف فى المتعة هل هى واجبة أو مندوبة وهى عندنا واجبة بشروط وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى فتعالين أمتعكن وعند بعض الائمة انها مندوبة وقال بعضهم هى مندوبة عند استحقاقها نصف المهر واجبة عند عدمه وذهب بعضهم الى انها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) أى خلوا سبيلهن بالمعروف من غير ضرار وليس لكم عليهن عدة (وقيل) السراح الجميل أن لا يطالب بما دفعه اليها بأن يخلى لها جميع المهر وقوله تعالى (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى مهورهن لان المهر أجر على البضع بيان لايثار الافضل له لا لتوقف الحل عليه وليفيد احلال المملوكة بكونها مسبية بقوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله) أى الذى له الامر كله (عليك) مثل صفية بنت حيى النضيرية وريحانة القرظية وجويرية بنت الحرث الخزاعية مما كان فى ايدى الكفار وتقييد الاقارب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى (وبنات عمك) أى الشقيق وغيره (وبنات عماتك) أى نساء قريش ولما بدأ بالعمومة لشرفها أتبعها قوله تعالى (وبنات خالك) جاريا

فى الافراد والجمع على ذلك النحو (وبنات خالاتك) من نساء بنى زهرة وقال البقاعى ويمكن فى ذلك احتمال عجيب وهو وبنات عمك وبنات أعمامك وبنات عماتك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات أخوالك وبنات خالاتك وبنات خالتك انتهى وقوله تعالى (اللاتى هاجرن معك) يحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه خاصة ويعضده ما روى الترمذى والحاكم عن أم هانئ بنت أبى طالب انها قالت فى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرنى ثم أنزل الله تعالى انا أحللنا لك أزواجك الآية فلم أكن لاحل له لانى لم أهاجر كنت من الطلقاء أى الاسراء الذين أطلقوا من الاسر وخلى سبيلهم قال ابن عادل ثم نسخ شرط الهجرة فى التحليل انتهى ثم ان الله تعالى ذكر ما خص به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وامرأة) أى حرة (مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى) أى الذى أعلينا قدره بما خصصناه به (أن يستنكحها) أى يوجد نكاحه لها بجعلها من منكوحاته فتصير له بمجرد ذلك بلا مهر ولا ولى ولا شهود وخرج بالمؤمنة الكتابية فلا تحل له لانها تكره صحبته ولانه أشرف من أن يضع ماءه فى رحم كافرة ولقوله تعالى وأزواجه أمهاتهم ولا يجوز أن تكون المشركة أم المؤمنين ولخبر سألت ربى أن لا أزوج الا من كان معى فى الجنة فأعطانى رواه الحاكم وصحح اسناده وأما التسرى بالكتابية فلا يحرم عليه قال الماوردى لانه صلى الله عليه وسلم تسرى بريحانة وكانت يهودية من بنى قريظة واستشكل بهذا التعليل المهم السابق بأنه أشرف من أن يضع ماءه فى رحم كافرة وأجيب بأن القصد بالنكاح أصالة التوالد فاحتيط له وبأنه يلزم فيه أن تكون الزوجة المشركة أم المؤمنين بخلاف الملك فيهما وخرج بالحرة الرقيقة وان كانت مؤمنة لان نكاحها معتبر بخوف العنت وهو معصوم وبفقدان مهر حرة ونكاحه غنى عن المهر ابتداء وانتهاء وبرق الولد ومنصبه صلى الله عليه وسلم منزه عنه * (تنبيه) * فى نصب امرأة وجهان أحدهما أنه عطف على مفعول أحللنا أى وأحللنا لك امرأة موصوفة بهذين الشرطين قال أبو البقاء وقد رد هذا قوم وقالوا أحللنا ماض وان وهبت وهو صفة المرأة مستقبل فأحللنا فى موضع جوابه وجواب الشرط لا يكون ماضيا فى المعنى قال وهذا ليس بصحيح لان معنى الاحلال ههنا الاعلام بالحل اذا وقع الفعل على ذلك كما تقول أبحت لك أن تكلم فلانا ان سلم عليك والثانى أنه نصب بمقدر تقديره ونحل لك امرأة وفى قول الله تعالى ان وهبت ان أراد اعتراض الشرط على الشرط والثانى هو قيد فى الاول ولذلك نعربه حالا لان الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء أن يتقدم الثانى على الاول فى الوجود فلو قال لزوجته ان أكلت ان ركبت فأنت طالق فلا بد أن يتقدم الركوب على الاكل وهذا لتحقيق الحالية والتقييد كما ذكر اذ لو لم يتقدم لخلا جزء من الاكل غير مقيد بركوب فلهذا اشترط تقدم الثانى ولكن يشترط أن لا يكون ثم قرينة تمنع من تقدم الثانى على الاول كقوله لامرأة ان تزوجتك ان طلقتك فعبدى حر لا يتصور هنا تقدم الطلاق على التزوج قال بعض المفسرين وقد عرض لى اشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية وذلك أن الشرط الثانى ههنا لا يمكن تقدمه فى الوجود بالنسبة الى الحكم بالنبى صلى الله عليه وسلم لا أنه لا يمكن عقلا وذلك أن المفسرين

فسروا

فسروا قوله تعالى ان أراد بمعنى قبل الهبة لان بالقبول منه صلى الله عليه وسلم يتم نكاحه وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة اذ القبول متأخر فان العصمة كانت فى تأخر ارادته عن هبتها ولما جاء أبو حيان الى هنا جعل الشرط الثانى مقدما على الاول على القاعدة العامة ولم يستشكل شيأ مما ذكر قال ذلك البعض وقد عرضت هذا الاشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ولم يظهر عنه جواب الا ماقدمته من أنه ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلته آنفا * ولما كان ربما فهم أن غير النبى صلى الله عليه وسلم يشاركه فى هذا المعنى قال الله مبينا للخصوصية (خالصة لك) وزاد المعنى بيانا بقوله تعالى (من دون المؤمنين) أى من الانبياء وغيرهم *(تنبيهات)* الاول فى اعراب خالصة وفيه أوجه أحدها أنه منصوب على الحال من فاعل وهبت أى حالة كونها خالصة لك دون غيرك ثانيها أنه نعت مصدر مقدر أى هبة خالصة فنصبه بوهبت ثالثها أنه حال من امرأة لانها وصفت فتخصصت وهو بمعنى الاول واليه ذهب الزجاج وقيل غير ذلك والمعنى انا أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق *(التنبيه الثانى)* فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة فى حق الامة وفيه خلاف فقال سعيد بن المسيب والزهرى ومجاهد وعطاء لا ينعقد الا بلفظ الانكاح أو التزويج وبه قال مالك وربيعة والشافعى ومعنى الآية ان اباحة الوطء بالهبة وحصول التزويج بلفظها من خواصه صلى الله عليه وسلم وقال النخعى وأبو حنيفة وأهل الكوفة ينعقد بلفظ الهبة والتمليك وان معنى الآية ان تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة من أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا بالتزويج (وأجيب) بأن هذا التخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان أزواجه صلى الله عليه وسلم كلهن خالصات له وما مر فللتخصيص فائدة *(التنبيه الثالث)* فى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم هل كانت عنده امرأة منهن فقال عبد الله بن عباس ومجاهد لم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة الا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله تعالى وهبت نفسها على طريق الشرط والجزاء وقال غيرهما بل كانت موهوبة وهو ظاهر الآية واختلفوا فيها فقال الشعبى هى زينب بنت خزيمة الهلالية يقال لها أم المساكين وقال قتادة هى ميمونة بنت الحرث وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى أم شريك بنت جابر من بنى أسد وقال عروة بن الزبير هى خولة بنت حكيم من بنى سليم *(التنبيه الرابع)* فى ذكر شئ من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت منها أشياء كثيرة فى شرح الصدر بها فى شرح التنبيه فلا أطيل بذكرها هنا ولكن أذكر منها طرفا يسيرا تبركا ببركة صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام فان ذكرها مستحب قال النووى فى روضته ولا يبعد القول بوجوبها لئلا يرى الجاهل بعض الخصائص فى الخبر الصحيح فيعمل به أخذا بأصل التأسى فوجب بيانها لتعرف وهى أربعة أنواع * أحدها الواجبات وهى أشياء كثيرة * منها الضحى والوتر والاضحية وفى الحديث ما يدل على أن الواجب أقل الضحى وقياسه أن الوتر كذلك * ومنها السواك لكل صلاة والمشاورة لذوى الاحلام فى الامر وتخييره نسائه بين مفارقته طلبا للدنيا واختياره طلبا للآخرة ولا يشترط الجواب له منهن

فورا فلو اختارته واحدة لم يحرم عليه طلاقها أو كرهته توقفت الفرقة على الطلاق وليس
قولها اخترت نفسي بطلاق كما مرت الاشارة اليه وله تزوجها بعد الفراق * النوع الثاني المحرمات
وهي أشياء كثيرة منها الزكاة والصدقة وتعلم الخط والشعر ومد العين الى متاع الدنيا وخائنة
الاعين وهي الايماء بما يظهر خلافه دون الخديعة في الحرب وامساك من كرهت نكاحه * ومنها
نكاح كتابية لا التسري بها كما مر ولا يحرم عليه أكل الثوم ونحوه ولا الاكل متكئا * النوع
الثالث التخفيفات والمباحات وهي كثيرة جدا منها تزويج من شاء من النساء لمن شاء ولو لنفسه
بغير اذن من المرأة ووليها متوليا الطرفين وزوجه الله تعالى وأبيح له الوصال وصفي المغنم ويحكم
ويشهد لولده ولو لنفسه وأبيح له نكاح تسع وقد تزوج صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ومات
عن تسع قال الائمة وكثرة الزوجات في حقه صلى الله عليه وسلم للتوسعة في تبليغ الاحكام
عنه الواقعة سرا مما لا يطلع عليه الرجال ونقل محاسنه الباطنة فانه صلى الله عليه وسلم
تكمل له الظاهر والباطن وحرم عليه الزيادة عليهن ثم نسخ وسيأتي ذلك ان شاء الله تعالى
وينعقد نكاحه محرما وبلفظ الهبة ايجابا لا قبولا بل يجب لفظ النكاح أو التزويج لظاهر قوله
تعالى ان أراد النبي أن يستنكحها ولا مهر للواهبة له وان دخل بها وتجب اجابته على
امرأة رغب فيها ويجب على زوجها طلاقها لينكحها * النوع الرابع الفضائل وهي كثيرة
لا تدخل تحت الحصر منها تحريم منكوحاته على غيره سواء كن موطوآت أم لا مطلقات
باختيارهن أم لا وتحريم سراريه وهن اماؤه الموطوآت بخلاف غير الموطوآت وتقدم ان
نساءه أمهات المؤمنين لا المؤمنات بخلافه صلى الله عليه وسلم فانه أبو الرجال والنساء وتقدم
الكلام على قوله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وان ثوابهن وعقابهن مضاعف
ومنها انه يحرم سؤالهن الا من وراء حجاب وأفضلهن خديجة ثم عائشة وأفضل نساء العالمين
مريم بنت عمران اذ قيل بنبوتها ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة ثم عائشة
ثم آسية امرأة فرعون وأما خبر الطبراني خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة
بنت خويلد ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون فأجيب عنه بان
خديجة انما فضلت فاطمة باعتبار الامومة لا باعتبار السيادة وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم
خاتم النبيين * ومنها أنه أول النبيين خلقا وأفضل الخلق على الاطلاق وخص بتقديم نبوته فكان
نبيا وآدم منجدل في طينته وبتقديم أخذ الميثاق عليه وبأنه أول من قال بلى وقت ألست بربكم
وبخلق آدم وجميع المخلوقات من أجله وبكتابة اسمه الشريف على العرش والسموات والجنات
وسائر ما في الملكوت وبشق صدره الشريف وبجعل خاتم النبوة بظهره بازاء قلبه وبحراسة
السماء من استراق السمع والرمي بالشهب وباحياء أبويه حتى آمنا به وبأنه أول من تنشق عنه
الارض يوم القيامة وأول من يقرع باب الجنة وأول شافع وأول مشفع وأكرم بالشفاعات
الخمس يوم القيامة أولها العظمى في الفصل بين أهل الموقف حين يفزعون اليه بعد الانبياء
* الثانية في ادخال خلق الجنة بغير حساب جعلنا الله وأحبابنا منهم * الثالثة في ناس استحقوا

دخول النار فلا يدخلونها * الرابعة فى ناس دخلوا النار فيخرجون منها * الخامسة فى رفع درجات ناس فى الجنة وكلها ثبتت بالاخبار وخص منها العظمى ودخول خلق من أمته الجنة بغير حساب وهى الثانية قال النووى فى روضته ويجوز أن يكون خص بالثالثة والخامسة أيضا ونصر بالرعب مسيرة شهر وجعلت له الارض مسجدا وترابها طهورا وأحلت له الغنائم وأرسل الى الكافة ورسالة غيره خاصة وأما عموم رسالة نوح عليه السلام بعد الطوفان فلانحصار الباقين فيمن كان معه فى السفينة وهو أكثر الانبياء أتباعا وأمته خير الامم وأفضلها أصحابه وأفضلهم الخلفاء الاربعة على ترتيبهم فى الخلافة ثم باقى العشرة وهى معصومة لا تجتمع على ضلالة وصفوفهم كصفوف الملائكة ولها فضائل كثيرة على سائر الامم * منها أنهم أول من يدخل الجنة بعد الانبياء عليهم السلام * ومنها وضع الاصر وليلة القدر والجمعة ورمضان على أحد قولين ونظر الله تعالى اليهم ومغفرته لهم أول ليلة منه وطيب خلوف فم صائمه عنده تعالى واستغفار الملائكة عليهم السلام فى ليله ونهاره وأمر الله تعالى الجنة أن تتزين لهم ورد صدقاتهم الى فقرائهم والغرة والتحجيل من أثر الوضوء وسلسلة الاسناد والحفظ عن ظهر قلب وأخذ العلم عن الاحداث والمشايخ وكتابه صلى الله عليه وسلم معجز محفوظ من التغيير والتبديل وقيم بعده حجة على الناس ومعجزات سائر الانبياء انقرضت وشريعته مؤبدة ناسخة لغيرها من الشرائع وتطوعه قاعدا كقائم ويحرم رفع الصوت فوق صوته قال القرطبى وكره بعضهم رفعه عند قبره صلى الله عليه وسلم ولا تبطل صلاة من خاطبه بالسلام وتجب اجابته فى الصلاة ولو بالفعل ولا تبطل ويحرم نداؤه من وراء الحجرات ويحرم نداؤه باسمه كيا محمد صلى الله عليه وسلم لا بكنيته كيا أبا القاسم ويحرم التكنى بكنيته مطلقا وقيل مختص بزمنه وقيل على من اسمه محمد وكان يتبرك ويستشفى ببوله ودمه وفضلاته النازلة من الدبر لاترى بخلافها من القبل والذى صوّبه بعض المتأخرين طهارتها وهو الصواب وأولاد بناته ينسبون اليه وأعطى جوامع الكلم وكان يؤخذ عن الدنيا عند تلقى الوحى ولا يسقط عنه التكليف ورؤيته فى النوم حق ولا يعمل بها فيما يتعلق بالاحكام لعدم ضبط النائم والكذب عمدا عليه كبيرة ولا يجوز الجنون على الانبياء ولا الاحتلام ولا تأكل الارض لحومهم وفى هذا القدر كفاية ومن أراد الزيادة على ذلك فعليه بكتب الخصائص فان العلماء قد صنفوا فى ذلك تصانيف وأنا أسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يشفعه فينا ويدخلنا معه الجنة ويفعل ذلك بأهلينا ومشايخنا واخواننا ومحبينا ولا يحرمنا زيارته ولا رؤيته قبل الممات * ولما كان التخصيص لا يصح ولا يتصوّر الا من محيط العلم بأن هذا الامر ما كان لغير المخصوص تام القدرة لمنع غيره من ذلك قال تعالى (قد) أى أخبرناك بأن هذا أمر يخصك غيرهم لانا قد (علمنا ما فرضنا) أى قدرنا بعظمتنا (عليهم) أى على المؤمنين (فى أزواجهم) أى من شرائط العقد وأنهم لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة منها ولا بدون مهر ولا بدون ولى وشهود وهذا عام لجميع المؤمنين المتقدمين والمتأخرين (و) فى (ما ملكت أيمانهم) من الاماء بشراء وغيره بأن تكون الامة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وان تستبرأ قبل الوطء وقبل

المراد ان أحدا غيرك لا يملك رقبة بهبتها نفسها منه فيكون أحق من سيدها * ولما فرغ من تعليل الدونية على التخصيص لفا ونشرا مشوشا بقوله تعالى (لكي لا يكون عليك حرج) أي ضيق في شيء من أمر النساء حيث أحللنا لك أنواع المنكوحات وزدناك الواهبة فلكيلا متعلق بخالصة وما بينهما اعتراض ومن دون متعلق بخالصة كما تقول خاص من كذا (وكان الله) أي المتصف بصفات الكمال أزلا وأبدا (غفورا رحيما) أي بليغ الستر على عباده * ولما ذكر تعالى ما فرض في الازواج والاماء الشامل للعدل في عشرتهن وكان صلى الله عليه وسلم أعدل الناس فيهما وأشدهم لله خشية وكان يعدل بينهن ويعتذر مع ذلك عن ميل القلب الذي هو خارج عن طوق البشر بقوله اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله (ترجي) أي تؤخر وتترك مصاحبتها (من تشاء منهن وتؤوي) أي تضم (اليك من تشاء) وتصاحبها وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بياء ساكنة بعد الجيم من الارجاء أي تؤخرها مع أفعال تكون بها راجية لعطفك والباقون بهمزة مضمومة وهو مطلق التأخير (ومن ابتغيت) أي طلبت (ممن عزلت) أي من القسمة (فلا جناح عليك) أي في وطئها وضمها اليك * (تنبيه) * اختلف المفسرون في معنى هذه الآية فأشهر الاقوال أنها في القسم بينهن وذلك أن التسوية بينهن في القسم كانت واجبة عليه فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار اليه فيهن وقال ابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة في النفقة فهجرهن النبي صلى الله عليه وسلم شهرا حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عز وجل أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وان يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين وأن لا ينكحن أبدا وعلى أن يؤوي اليه من يشاء ويرجي من يشاء فيرضين قسم لهن أو لم يقسم قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن في النفقة والقسمة فيكون الامر في ذلك اليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة الى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وان لم يكن نبيا فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة اليه فاذاهن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات واختلفوا هل اخرج أحدا منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحدا منهن عن القسم بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما جعل الله له من ذلك يسوي بينهن في القسم الا سودة فانها رضيت بترك حقها من القسم وجعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روى جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يا رسول الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى اليه بعضهن فكان ممن آوى عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة وكان يقسم بينهن سواء وأرجأ منهن خمسا أم حبيبة وميمونة وسودة وصفية وجويرية فكان لا يقسم لهن ما شاء وقال مجاهد ترجي من تشاء منهن أي تعزل من تشاء منهن بغير طلاق وترد

اليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك نكاح من شئت من نساء أمتك قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن لك فتؤويها اليك وتترك من تشاء فلا تقبلها وروى هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ترجي من تشاء منهن قلت يارسول الله ما أرى ربك الا يسارع في هواك (ذلك) أي التفويض الى مشيئتك (أدنى) أي أقرب (أن) أي الى أن (تقر أعينهن) أي بما حصل لهن من عشرتك الكريمة وهو كناية عن السرور والطمأنينة ببلوغ المراد لان من كان كذلك كانت عينه قارة ومن كان مهموما كانت عينه كثيرة التقلب هذا اذا كان من القرار بمعنى السكون ويجوز أن يكون من القر الذي هو ضد الحر لان المسرور تكون عينه باردة والمهموم تكون عينه حارة فلذلك يقال للصديق أقر الله تعالى عينك وللعدو سخن الله عينك (ولا يحزن) أي بالفراق وغيره مما يحزن من ذلك (ويرضين) لعلمهن ان ذلك من الله تعالى (بما آتيتهن) أي من الاجور ونحوها من نفقة وقسم وايثار وغيرها ثم أكد ذلك بقوله تعالى (كلهن) أي ليس منهن واحدة الا هي كذلك لان حكم كلهن فيه سواء ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن نفوسهن وزاد ذلك تأكيدا لما لذلك من الغرابة بقوله تعالى (والله) أي بما له من الاحاطة بصفات الكمال (يعلم ما في قلوبكم) أي الخلائق كلهم فلا بدع أن يعلم ما في قلوب هؤلاء (وكان الله) أي أزلا وأبدا (عليما) أي بكل شيء من يطيعه ومن يعصيه (حليما) لا يعاجل من عصاه بل يديم احسانه اليه في الدنيا فيجب أن يتقى لعلمه وحلمه فعلمه موجب للخوف منه وحلمه مقتض للاستحياء منه وأخذ الحليم شديد فينبغي لعبده المحب له ان يحلم عمن يعلم تقصيره في حقه فانه سبحانه يأجره على ذلك بأن يحلم عنه فيما عامله منه ويرفع قدره ويعلي ذكره وروى البخاري في التفسير عن معاذة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجي من تشاء الآية قلت لها ما كنت تقولين قالت كنت أقول له ان كان ذاك الي فاني لا أريد يارسول الله أن أوثر عليك أحدا * ولما أمره الله تعالى بالتخيير وخيرهن واخترن الله ورسوله زاد الله تعالى سرورهن بقوله تعالى (لا تحل لك النساء من بعد) أي بعد من معك من هؤلاء التسع اللاتي اخترنك شكرا من الله لهن لكونهن لما نزلت آية التخيير اخترن الله ورسوله فحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن بقوله تعالى (ولا أن تبدل بهن) أي هؤلاء التسع وأعرق في النفي بقوله تعالى (من) أي شيأ من (أزواج) أي بأن تطلقهن أي هؤلاء المعينات أو بعضهن وتأخذ بدلها من غيرهن (ولو أعجبك حسنهن) أي النساء المغايرات لمن معك قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب فلما استشهد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يحطم افنهى عن ذلك وقرأ أبو عمرو لا تحل لك بالتاء الفوقية والباقون بالياء التحتية وشدد البزى التاء من ان تبدل *(تنبيه)* فى الآية دليل على اباحة النظر الى من يريد نكاحها لكن من غير العورة فى الصلاة فينظر الرجل من الحرة الوجه والكفين ومن الامة ماعدا مابين السرة والركبة واحتج لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم للمغيرة وقد خطب امرأة انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما اى تدوم المودة والالفة رواه الحاكم وصححه وقوله تعالى (الا ماملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء أى فتحل لك وقد ملك بعدهن مارية وولدت له ابراهيم ومات واختلفوا هل أبيح له النساء من بعد قالت عائشة مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء أى فنسخ ذلك وأبيح له أن ينكح أكثر منهن بآية انا أحللنا لك أزواجك (فان قيل) هذه الآية متقدمة وشرط الناسخ أن يكون متأخرا (اجيب) بأنها مؤخرة فى النزول متقدمة فى التلاوة وهذا أصح الاقوال وقال أنس مات على التحريم وقال عكرمة والضحاك معنى الآية لا تحل لك النساء بعد التى أحللنا لك بالصفة التى تقدم ذكرها وقيل لابى ابن كعب لو مات نساء النبى صلى الله عليه وسلم أكان يحل له أن يتزوج فقال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى لا تحل لك النساء من بعد قال انما أحل الله تعالى له ضربا من النساء فقال يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك ثم قال لا تحل لك النساء من بعد قال أبو صالح أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا غريبة ويتزوج من نساء قومه من بنات العم والعمة والخال والخالة ان شاء ثلثمائة وقال مجاهد معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بهن يقول ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى وقال ابن زيد فى قوله تعالى ولا ان تبدل بهن من أزواج كانت العرب فى الجاهلية يتبادلون بأزواجهم يقول الرجل للرجل بادلنى بامرأتك وأبادلك بامرأتى تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى فأنزل الله تعالى ولا ان تبدل بهن من أزواج يعنى تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته الا ماملكت يمينك فلا بأس أن تبادل بجاريتك من شئت فأما الحرائر فلا روى عطاء بن يسار عن أبى هريرة قال دخل عيينة بن حصن على النبى صلى الله عليه وسلم بغير اذن ومعه عائشة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ياعيينة أين الاستئذان قال يارسول الله مااستأذنت على رجل من مضر مذأدركت ثم قال من هذه الحميرة الى جنبك فقال هذه عائشة أم المؤمنين فقال عيينة أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد حرم ذلك فلما خرج قالت عائشة من هذا يارسول الله قال هذا أحمق مطاع وانه على ماترين لسيد قومه * ولما أمر تعالى فى هذه الآيات بأشياء ونهى عن أشياء وحد حدودا حذر من التهاون بشئ منها ولو بنوع تأويل بقوله تعالى (وكان الله) أى الذى لاشئ أعظم منه وهو المحيط بجميع صفات الكمال (على كل شئ رقيبا) أى حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حد لكم وهذا من أشد الاشياء وعيدا * ولما ذكر حالة النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته فى قوله تعالى يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ذكر حالهم معه من الاحترام له صلى الله عليه وسلم بقوله

تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا الايمان صدقوا ادعوا كم فيه بأن (لاتدخلوا بيوت النبى) أى الذى تأتيه الانباء من علام الغيوب مما فيه رفعته فى حال من الاحوال أصلا (الا) فى حال (ان يؤذن لكم) أى ممن له الاذن فى بيوته صلى الله عليه وسلم منه أو ممن يأذن له فى الدخول بالدعاء (الى طعام) أى أكله حال كونكم (غير ناظرين) أى منتظرين (اناه) أى نضجه وهو مصدر أنى يأنى وقرأ هشام وحمزة والكسائى بالامالة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح * ولما كان هذا الدخول بالاذن مطلقا وكان يراد تقييده قال تعالى (ولكن اذا دعيتم) أى ممن له الدعوة (فادخلوا) أى لاجل ما دعا كم له ثم تسبب عنه قوله تعالى (فاذا طعمتم) أى أكلتم طعاما أو شربتم شرابا (فانتشروا) أى اذهبوا حيث شئتم فى الحال ولا تمكثوا بعد الاكل او الشرب لامستريحين لقرار الطعام (ولا مستأنسين لحديث) أى طالبين الانس لاجله * (فائدة) * قال الحسن حسبك بالثقلاء أن الله لم يتجوز فى أمورهم وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت حسبك بالثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم ثم علل ذلك بقوله تعالى مصوبا بالخطاب الى جميعهم معظما له بأداة البعد (ان ذلكم) أى الامر الشديد وهو المكث بعد الفراغ (كان يؤذى النبى) أى الذى هيأناه لسماع ما ننبئه به مما يكون سبب شرفكم وعلوكم فى الدارين فاحذروا أن تشغلوه عن شىء منه ثم تسبب عن ذلك المانع له من مواجهتهم له بما يزيد اذاه بقوله تعالى (فيستحيى منكم) أى بأن يأمركم بالانصراف (والله) أى الذى له جميع الامر (لا يستحيى من الحق) أى لا يفعل فعل المستحيى فيؤديه ذلك الى ترك الامر به * (تنبيه) * قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية فى شأن وليمة زينب حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما روى ابن شهاب قال أخبرنى أنس بن مالك انه كان ابن عشر سنين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال فكانت أمهاتى توطننى على خدمة النبى صلى الله عليه وسلم فخدمته عشر سنين وتوفى وأنا ابن عشرين سنة فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل وكان أول ما أنزل فى بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش أصبح النبى صلى الله عليه وسلم بها عروسا فدعا القوم وأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقى رهط منهم عند النبى صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبى صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكى يخرجوا فمشى النبى صلى الله عليه وسلم ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى اذا دخل على زينب فاذا هم جلوس لم يخرجوا فرجع النبى صلى الله عليه وسلم ورجعت معه حتى اذا بلغ حجرة عائشة فظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذا هم قد خرجوا فضرب النبى صلى الله عليه وسلم بينى وبينه الستر ونزلت آية الحجاب وقال أبو عثمان واسمه الجعد عن أنس قال فدخل يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وأرخى الستر وانى لفى الحجرة وهو يقول يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى قوله تعالى والله لا يستحيى من الحق وروى عن ابن عباس انها نزلت فى ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام الى

أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت الآية
يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الآية وروى أبو يعلى الموصلي عن أنس قال
بعثتني أم سليم برطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته بين يديه فأصاب منه ثم أخذ
بيدي فخرجنا وكان حديث عهد بعرس زينب بنت جحش قال فمر بنساء من نسائه وعندهن رجال
يتحدثون فهنينه وهنأه الناس فقالوا الحمد لله أقر بعينك يا رسول الله فمضى حتى أتى عائشة
فاذا عندها رجال قال فكره ذلك وكان اذا كره الشيء عرف في وجهه قال فأتيت
أم سليم فأخبرتها فقال أبو طلحة لئن كان كما قال ابنك ليحدثن أمر قال فلما كان من العشي خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم تلا هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا
الآية وروى البخاري وغيره عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم عروسا بزينب فقالت لي
أم سليم لو أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية فقلت لها افعلي فعمدت الى تمر وأقط وسمن
فاتخذت حيسة في برمة وأرسلت بها معي اليه فقال لي ضعها ثم أمرني فقال ادع لي رجالا
سماهم وادع لي من لقيت ففعلت الذي أمرني فرجعت فاذا البيت غاص بأهله وفي رواية
الترمذي ان الراوي قال قلت لانس كم كانوا قال زهاء ثلثمائة فرأيت النبي صلى الله
عليه وسلم وضع يده على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله تعالى ثم يدعو عشرة عشرة يأكلون منه
ويقول لهم اذكروا اسم الله تعالى وليأكل كل رجل مما يليه حتى تصدعوا كلهم عنها قال
الترمذي فقال لي يا أنس ارفع فرفعت فما أدري حين وضعت كانت أكثر أو حين رفعت فخرج
معي من خرج وبقي قوم يتحدثون فنزلت * ولما كان البيت يطلق على المرأة لملازمتها له عادة أعاد
الضمير عليه مرادا به النساء استخداما فقال تعالى (واذا سألتموهن) أي الازواج (متاعا)
أي شيأ من آلات البيت (فاسألوهن) أي ذلك المتاع كائنين وكائنات (من وراء حجاب)
أي ستر يستركم عنهن ويسترهن عنكم وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همزة بعدها
والباقون بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها (ذلكم) أي الامر العالي الرتبة (أطهر
لقلوبكم وقلوبهن) أي من وسواس الشيطان والريب لان العين روزنة القلب فاذا لم تر
العين لم يشته القلب فأما اذا رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي فالقلب عند عدم الرؤية
أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر روى ابن شهاب عن عروة عن عائشة ان أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل اذا تبرزن الى المناصع وهو صعيد أفيح فكان عمر رضي
الله تعالى عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه
وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء وكانت
امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله عز وجل
الحجاب وعن أنس قال قال عمر وافقت ربي في ثلاثة قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم
مصلى فأنزل الله تعالى واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر
والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب قال وبلغني ما آذين

رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه قال فدخلت عليهن فجعلت استقرهن واحدة واحدة فقلت والله لتنتهن أو ليبدله الله تعالى أزواجا خيرا منكن حتى أتيت على زينب فقالت يا عمر اما كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت قال فخرجت فأنزل الله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن الآية * ولما بين تعالى للمؤمنين الادب أكده بما يحملهم على ملاطفة نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (وما كان) أى وما صح وما استقام (لكم) في حال من الاحوال (ان تؤذوا رسول الله) فله اليكم من الاحسان ما يستوجب به منكم غاية الاكرام والاجلال فضلا عن الكف عن الاذى فلا تؤذوه بالدخول الى شئ من بيوته بغير اذنه أو المكث بعد فراغ الحاجة ولا بغير ذلك * ولما كان قد قصر صلى الله عليه وسلم عليهن أحل له غيرهن وقصرهن الله عليه بقوله تعالى (ولا ان تنكحوا) أى فيما يستقبل من الزمان (أزواجه من بعده) أى فراقه بموت أو طلاق سواء أدخل بها أم لا (أبدا) زيادة لشرفه واظهارا لمزيته ولانهن أمهات المؤمنين ولانهن أزواجه في الجنة ولان المرأة في الجنة مع آخر أزواجها كما قاله ابن القشيري روى ان هذه الآية نزلت في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال لئن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لانكحن عائشة قال مقاتل بن سليمان هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله تعالى ان ذلك محرم وقال (ان ذلكم) أى الايذاء بالنكاح وغيره (كان عند الله) أى القادر على كل شئ (عظيما) أى ذنبا عظيما (فان قيل) روى معمر عن الزهرى أن العالية بنت ظبيان التى طلقها النبي صلى الله عليه وسلم تزوجت رجلا وولدت له (أجيب) بأن ذلك كان قبل تحريم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على الناس وقيل لا تحرم غير الموطوءة لما روى ان أشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر فهم برجمهما فأخبر بأنه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسها فترك من غير نكير فأما اماؤه صلى الله عليه وسلم فيحرم منهن الموطوآت على غيره اكراما له بخلاف غير الموطوآت وقيل لا تحرم الموطوآت أيضا ونزل فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان تبدوا) أى بألسنتكم وغيرها (شيئا) أى من ذلك أو غيره (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (كان) أى أزلا وأبدا به هكذا كان الاصل ولكنه أتى بما يعمه وغيره فقال (بكل شئ) أى من ذلك وغيره (عليما) فهو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم وان بالغتم في كتمه فيجازى عليه من ثواب وعقاب وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد * ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب فنزل قوله تعالى (لا جناح) أى لا اثم (عليهن في آبائهن) دخولا وخلوة من غير حجاب سواء كان الاب من النسب أو من الرضاع (ولا أبنائهن) أى من البطن أو الرضاعة (ولا اخوانهن) لان عارهن عارهم فلا فرق أن يكونوا من النسب أو الرضاع (ولا أبناء اخوانهن) فانهن بمنزلة آبائهم (ولا أبناء أخواتهن) فانهن بمنزلة أمهاتهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء خالصة في الوصل وحققها

الباقون وفى الابتداء بالثانية الجميع بالتحقيق (ولانسائهن) أى المسلمات القربى منهن والبعدى بمنزلة واحدة وأما الكافرات فهن بمنزلة الاجانب من الرجال لكن رجح النووى انه يجوز أن تنظر منها ما يبدو عند المهنة (ولاماملكت أيمانهن) من العبيد لانهم لما لهن عليهم من السلطان يبعد منهم الريبة هيبة لهن مع مشقة الاحتجاب عنهم * (تنبيه) * قدم تعالى الآباء لان اطلاعهم على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر وانما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم خالات أبنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم ففى بنى الاخوات مفسدة ما وهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك فى بنى الاخوة (فان قيل) لم يذكر الله تعالى من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن (أجيب) عن ذلك بوجهين أحدهما ان ذلك معلوم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم ان بنى الاخ للعمات محارم علم ان بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال فى أمر الخالة وثانيهما أن الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال فى ابن الخال وذكر ذلك البين بعد هذا كله لان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة وقوله تعالى (واتقين) عطف على محذوف أى امتثلن ما أمرتن به واتقين (الله) أى الذى لا شئ أعظم منه فلا تقربن شيأ مما يكرهه وانما أمرهن لان الريبة من جهة النساء أكثر لانه لا يكاد الرجل يتعرض الالمن ظن بها الاجابة لما يرى من مخايلها ومخايل أشكالها * ولما كان الخوف لا يعظم الامن كان حاضرا مطلعا قال (ان الله) أى العظيم الشأن (كان) أى أزلا وأبدا (على كل شئ) من أفعالكن وغيرها (شهيدا) أى لا يغيب عنه شئ وان دق فهو مطلع عليكن حال الخلوة فلا تخفى عليه خافية * ولما أمر تعالى بالاستئذان وعدم النظر الى نسائه احتراما له كمل بيان حرمته بقوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى) أى محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس أراد أن الله تعالى يرحم النبى والملائكة يدعون له وعن ابن عباس أيضا يصلون يبركون والصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال أبو العالية صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء * (تنبيه) * بيان كمال حرمته فى ذلك ان حالاته منحصرة فى حالتين حالة خلوة فذكر ما يدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى وحالة تكون فى ملا والملا اما الملا الاعلى واما الملا الادنى اما احترامه فى الملا الاعلى فان الله وملائكته يصلون عليه وأما احترامه فى الملا الادنى فقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) أى حيوه بتحية الاسلام وأظهروا شرفه بكل ما تصل قدرتكم اليه من حسن متابعته وكثرة الثناء الحسن عليه والانقياد لامره فى كل ما يأمر به ومنه الصلاة والسلام عليه بألسنتكم روى عبد الرحمن بن أبى ليلى لقينى كعب بن عجرة فقال الا أهدى لك هدية سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت بلى فاهدها لى قال قلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل

محمد

محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وروى أبو حميد الساعدى انهم قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وروى ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا وروى عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه جاء ذات يوم والبشرى ترى فى وجهه فقلنا انا لنرى البشرى فى وجهك فقال جاءنى جبريل فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا وروى عامر بن ربيعة انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول من صلى على صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى على فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيآت ورفعت له عشر درجات وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله ملائكة سياحين فى الارض يبلغونى عن أمتى السلام *(تنبيه)* دلت الآية على وجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم لان الامر للوجوب قالوا وقد أجمع العلماء أنها لا تجب فى غير الصلاة فتعين وجوبها فيها والمناسب لها من الصلاة التشهد آخرها فتجب فى التشهد آخر الصلاة أى بعده وهو مذهب الشافعى واحدى الروايتين عن أحمد فالقائل بوجوبها فى العمر مرة فى غيرها محجوج بالاجماع من قبله ولحديث كيف نصلى عليك اذا نحن صلينا عليك فى صلاتنا فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم الى آخره وقيل تجب كلما ذكر واختاره الطحاوى من الحنفية والحليمى من الشافعية لقول جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم رقى المنبر فلما رقى الدرجة الاولى قال آمين ثم رقى الثانية فقال آمين ثم رقى الثالثة فقال آمين فقالوا يا رسول الله سمعناك تقول آمين ثلاث مرات فقال لما رقيت الدرجة الاولى جاءنى جبريل فقال شقى عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له فقلت آمين ثم قال شقى عبد أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة فقلت آمين ثم قال شقى عبد ذكرت عنده ولم يصل عليك فقلت آمين وفى رواية رقى المنبر فقال آمين آمين آمين قيل يا رسول الله ما كنت تصنع هذا فقال قال لى جبريل رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما لم يدخلاه الجنة فقلت آمين ثم قال رغم أنف عبد دخل عليه رمضان لم يغفر له فقلت آمين ثم قال رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين وكذلك قوله وسلموا أمر فيجب السلام ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا فى التشهد سلام عليك أيها النبى الخ وذكر فى السلام المصدر للتأكيد ولم يذكره فى الصلاة لانها كانت مؤكدة بقوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبى وأقل الصلاة عليه اللهم صل على محمد وأكملها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد

كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وآل ابراهيم اسمعيل واسحق وأولادهما
* (فائدة) * كل الانبياء من بعد ابراهيم عليه السلام من ولده اسحق لا نبينا محمدا صلى الله عليه
وسلم فانه من نسل اسمعيل ولم يكن من نسله نبي غيره وخص ابراهيم عليه السلام بالذكر لان الرحمة
والبركة لم تجتمع لنبي غيره فقال الله تعالى رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت (فان قيل) اذا صلى
الله وملائكته عليه فأي حاجة به الى صلاتنا (أجيب) بأن الصلاة عليه ليست لحاجة اليها والا فلا
حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله تعالى عليه وانما هو اظهار وتعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا
عليه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا وفي رواية
أخرى وملائكته سبعين وتجوز الصلاة على غيره تعالى وتكره استقلالا لانه في العرف صار شعارا
لذكر الرسل ولذلك كره أن يقال لمحمد عز وجل وان كان عزيزا جليلا * ولما أمر الله تعالى
باحترام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم نهى عن ايذاء نفسه وايذاء رسوله بقوله تعالى (ان الذين
يؤذون الله) أي الذي لا أعظم منه ولا نعمة عندهم الا من فضله (ورسوله) أي الذي استحق
عليهم بما يخبرهم به عن الله تعالى ما لا يقدرون على القيام بشكره (لعنهم الله) أي أبعدهم
وأبغضهم (في الدنيا) بالحمل على ما يوجب السخط (والآخرة) بادخال دار الاهانة كما قال تعالى
(وأعد لهم عذابا مهينا) أي ذا اهانة وهو النار ومعنى يؤذون الله يقولون فيه ما صورته اذى
وان كان تعالى لا يلحقه ضرر ذلك حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الانداد ونسبة
الولد والزوجة اليه قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير
ابن الله وقالوا يد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله
وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه وعن أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم
يكن له ذلك فأما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق باهون على من اعادته
وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد
وعن أبي هريرة أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب
الدهر وأنا الدهر بيدي الامر أقلب الليل والنهار ومعنى الحديث انه كان من عادة العرب
في الجاهلية أن يسبوا الدهر ويذموه عند النوازل لاعتقادهم ان الذي يصيبهم من أفعال الدهر
فقال تعالى انا الدهر أي انا الذي أحل بهم النوازل وانا فاعل لذلك الذي تنسبونه للدهر
في زعمكم وقيل معنى يؤذون الله يلحدون في أسمائه وصفاته وقيل هم أصحاب التصاوير وعن
أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب
يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة أو شعيرة ويحتمل أن يكون ذلك على حذف مضاف أي
أولياء الله كقوله تعالى واسأل القرية قال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من عادى لي وليا
فقد آذنته بالحرب وقال من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ومعنى الاذى هو مخالفة أمر الله
وارتكاب معاصيه ذكره على ما يتعارفه الناس بينهم والله عز وجل منزه عن أن يلحقه أذى من

أحد وقال بعضهم نبي بجلالة تعظيما المراد يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى انما يبايعون الله وأما ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس انه شج في وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر مجنون * ولما كان من أعظم اذاء أذى من تابعه وكان الاتباع لكونهم غير معصومين يتصور أن يؤذوا على الحق قال تعالى مقيدا الكلام (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) أي الراسخين في صفة الايمان (بغير ما اكتسبوا) أي بغير شئ واقعوه متعمدين له حتى أباح أذاهم (فقد احتملوا) أي كلفوا أنفسهم ان حملوا (بهتانا) أي كذبا وفجورا زائدا على الحد موجبا للجزاء في الدنيا والآخرة (واثما مبينا) أي ذنبا ظاهرا جدا موجبا للعقاب في الآخرة * (تنبيه) * اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه وقيل نزلت في شأن عائشة وقال الضحاك والكلبي نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طريق المدينة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فان سكتت اتبعوها وان زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون الا الاماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الامة لان زي الكل كان واحدا يخرجن في درع وخمار الحرة والامة فشكوا ذلك الى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات الآية ثم نهى الحرائر ان يتشبهن بالاماء بقوله تعالى (يا أيها النبي) ذكره بالوصف الذي هو منبع المعرفة والحكمة (قل لازواجك) بدأ بهن لما لهن به من الوصلة بالنكاح (وبناتك) ثنى بهن لما لهن من الوصلة ولهن في القسمين من الشرف وأخرهن عن الازواج لان أزواجه يكفونه أمرهن (ونساء المؤمنين يدنين) أي يقربن (عليهن) أي على وجوههن وجميع أبدانهن فلا يدعن شيأ منها مكشوفا (من جلابيبهن) ولا يتشبهن بالاماء في لباسهن اذا خرجن لحاجتهن بكشف الشعور ونحوها ظنا ان ذلك اخفى لهن وأستر والجلباب القميص وثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة والملحفة ما ستر اللباس والخمار وهو كل ما غطى الرأس وقال البغوي الجلباب الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار وقال حمزة الكرماني قال الخليل كل ما يستر به من دثار وشعار وكساء فهو جلباب والكل تصح ارادته هنا فان كان المراد القميص فادناؤه اسباغه حتى يغطي بدنها ورجليها وان كان ما يغطي الرأس فادناؤه ستر وجهها وعنقها وان كان المراد ما يغطي الثياب فادناؤه تطويله وتوسيعه بحيث يستر جميع بدنها وثيابها وان كان المراد ما دون الملحفة فالمراد ستر الوجه واليدين وقال ابن عباس وعبيدة أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤسهن ووجوههن بالجلابيب الا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر * ولما أمر تعالى بذلك علله بقوله تعالى (ذلك) اى الستر (أدنى) أي أقرب من تركه في (أن يعرفن) انهن حرائر بما يميزهن عن الاماء (فلا) أي فتسبب عن معرفتهن أن لا (يؤذين) ممن يتعرضن للاماء فلا يشتغل قلبك عن تلقي ما يرد عليك من الانباء الالهية قال ابن عادل ويمكن أن يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة أي في الصلاة لا يطمع فيها انها

تكشف عورتها فيفرض انهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن انتهى * ولما رقاهن تعالى لهذا الامر خفف عاقبة ما كن فيه من التشبه بالاماء فأخبرهن تعالى بوسع كرمه وجوده بقوله تعالى (وكان الله) أى الذى له الكمال المطلق أزلا وأبدا (غفورا) أى لما سلف منهن من ترك الستر فهو محاء للذنوب عينا وأثرا (رحيما) بهن اذ سترهن وبمن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه قال البغوى قال أنس مرت بعمر جارية متنعة فعلاها بالدرة وقال يالكاع أتتشبهين بالحرائر ألقى القناع ويظهر أن عمر انما فعل ذلك خوفا من أن تلتبس الاماء بالحرائر فلا يعرف الحرائر فيعود الامر كما كان * ولما كان المأذون عما مضى وغيره أهل النفاق ومن داناهم حذرهم بقوله تعالى مؤكدا دفعا لظنهم دوام الحلم عليهم (لئن لم ينته) عن الاذى (المنافقون) أى الذين يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام (والذين فى قلوبهم مرض) أى غل قريب من النفاق حامل على المعاصى (والمرجفون فى المدينة) المؤمنين أى بالكذب وذلك ان ناسا منهم كانوا اذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذيعون فى الناس أنهم قد قتلوا أوهزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحو ذلك وأصل الرجفة التحريك من الرجفة وهى الزلزلة سمى به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم بالقتل والجلاء أو بما يضطرهم الى طلب الجلاء وقوله تعالى (ثم لا يجاورونك) أى يساكنونك (فيها) أى المدينة عطف على لنغرينك وثم للدلالة على ان الجلاء ومفارقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم ما يصيبهم (الا قليلا) أى زمانا أوجوارا قليلا ثم يخرجون منها وقيل نسلطك عليهم حتى تقتلهم وتخلى منهم المدينة وقوله تعالى (ملعونين) أى مبعودين عن الرحمة حال من فاعل يجاورونك قاله ابن عطية والزمخشرى وأبو البقاء (أينما ثقفوا) أى وجدوا (أخذوا وقتلوا) ثم أكده بالمصدر بقضائه فيهم وارهابا لهم بقوله تعالى (تقتيلا) أى الحكم فيهم هذا على وجه الامر به وقوله تعالى (سنة الله) أى المحيط بجميع العظمة مصدر مؤكد أى سن الله ذلك (فى الذين خلوا من قبل) أى فى الامم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا الانبياء وسعوا فى وهنهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله) أى طريقة الملك الاعظم (تبديلا) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يتبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاقوال أما الافعال اذا وقعت والاخبار فلا تنسخ * ولما بين تعالى حالهم فى الدنيا انهم ملعونون ومهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها بقوله (يسألك) يا أشرف الخلق (الناس) أى المشركون استهزاء منهم وتعنتا وامتحانا (عن الساعة) أى متى تكون فى أى وقت (قل) أى لهم فى جوابهم (انما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بجميع الاشياء (وما يدريك) أى أى شئ يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها أنت لا تعرفه (لعل الساعة) أى التى لا ساعة فى الحقيقة غيرها لما لها من العجائب (تكون) أى توجد وتحدث على وجه مهول عجيب (قريبا) أى فى زمن قريب قال البقاعى ويجوز أن يكون التذكير لاجل الوقت لان السؤال عنها انما هو عن تعيين وقتها قال البخارى

فى الصحيح اذا وصفت صفة المؤنث قلت قريبة واذا جعلته ظرفا أو بدلا ولم ترد الصفة نزعت الهاء من المؤنث وكذلك لفظها فى الاثنين والجمع للذكر والانثى * ثم استأنف الاخبار بحال السائلين عنها بقوله تعالى (ان الله) أى الملك الاعلى (لعن) أى أبعد ابعادا عظيما من رحمته (الكافرين) أى الساترين لما من أنه أن يظهر مما دلت عليه العقول السليمة من أمرها (وأعد) أى أوجد وهيأ (لهم) من الآن (سعيرا) أى نارا شديدة الاضطرام والتوقد لتكذيبهم بها وبغيرها مما أوضح لهم أدلته (خالدين) أى مقدرا خلودهم (فيها) أى السعير وأعاد عليها الضمير مؤنثا لانها مؤنثة أولانه فى معنى جهنم وقوله تعالى (أبدا) بيان لارادة الحقيقة لئلا يتوهم بالخلود المكث الطويل (لا يجدون وليا) أى يتولى أمرا مما يصيبهم بشفاعة أو غيرها (ولا نصيرا) ينصرهم وقوله تعالى (يوم) معمول لخالدين أى مقدرا خلودهم فيها على تلك الحال يوم (تقلب) أى تقلبا كثيرا (وجوههم فى النار) أى ظهرا لبطن كاللحم يشوى بالنار حالة كونهم (يقولون) وهم فى محل الجزاء وقد فات المحل القابل للعمل متمنين بقولهم (ياليتنا أطعنا) أى فى الدنيا (الله) أى الذى لا أمر لاحد معه لما لا يدركون تلافيه لانهم لا يجدون ما يقدر أنه يبرد غلتهم من ولى ولا نصير ولا غيرهما سوى هذا التمنى * ولما كان المقام للمبالغة فى الاذعان والخضوع أعادوا العامل بقولهم (وأطعنا الرسول) أى الذى بلغنا عنه حتى لا نبتلى بهذا العذاب *(تنبيه)* تقدم الكلام على القراءة فى الرسولا والسبيلا أول السورة عند الظنونا (وقالوا) أى الاتباع منهم لما لم ينفعهم شئ متبرئين بالدعاء على من أضلهم بما لا يبرئ عليلا ولا يشفى غليلا (ربنا) أى أيها المحسن الينا وأسقطوا أداة النداء على عادة أهل الخصوص بالحضور زيادة فى التوثيق باظهار أنه لا واسطة لهم الا ذلهم وانكسارهم (انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرأ ابن عامر بألف بعد الدال وكسر التاء على جمع الجمع للدلالة على الكثرة والباقون بغير ألف بعد الدال وفتح التاء على أنه جمع تكسير غير مجموع بألف وتاء (فأضلونا) أى فتسبب عن ذلك أنهم أضلونا بما كان لهم من نفوذ الكلمة (السبيلا) أى طريق الهدى فأحالوا ذلك على غيرهم كما هى عادة المخطئ من الاحالة على غيره مما لا ينفعه ثم كأنه قيل فما تريدون لهم فقالوا مبالغين فى الرقة للاستعطاف باعادة الرب (ربنا) أى المحسن الينا (آتهم ضعفين من العذاب) أى مثلى عذابنا لانهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كثيرا) أى اطردهم عن محال الرحمة طردا متناهيا وقرأ عاصم بالباء الموحدة أى لعناهو أشد اللعن وأعظمه والباقون بالثاء المثلثة أى كثير العدد * ولما بين تعالى أن من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب أرشد المؤمنين الى الامتناع من الايذاء بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى صدقوا بما يتلى عليهم (لا تكونوا) بايذائكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر زينب وغيره كونا هو كالطبع لكم (كالذين آذوا موسى) من قومه بنى اسرائيل آذوه بأنواع الاذى كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم حين قسم قسما فتكلم فيه بعضهم فقال لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر واختلفوا فيما أوذى به موسى

فروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ استحياء منه فاذاه من اذاه من بنى اسرائيل فقالوا ما تستر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما أدرة واما آفة وان الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا كما قال تعالى (فبرأه) أى فتسبب عن أذاهم ان برأه (الله) الذى له صفات الجلال والكمال (مما قالوا) فخلا يوما وحده ليغتسل فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها فنزا الحجر بثوبه فجمع موسى عليه السلام وأخذ عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملا من بنى اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه واستتر به وطفق بالحجر يضربه بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا والادرة عظم الخصية لنفخة فيها وقوله فجمع أى أسرع وقوله ندبا هو بفتح النون والدال وأصله أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب بالحجر وقال قوم ايذاؤهم اياه لما مات هرون فى التيه ادعوا على موسى انه قتله فأمر الله الملائكة عليهم السلام حتى مروا به على بنى اسرائيل فعرفوا انه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر مومسة أى زانية لتقذف موسى بنفسها على رأس الملا فعصمها الله تعالى وبرأ موسى من ذلك وكان ذلك سبب الخسف بقارون ومن معه وقال عبد الله بن مسعود لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا فى القسمة فأعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وأعطى فلانا كذا الناس من العرب وآثرهم فى القسمة فقال رجل هذه قسمة والله ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت والله لاخبرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر والصرف بكسر الصاد صبغ أحمر يصبغ به الاديم * ولما كان قصدهم بهذا الاذى اسقاط وجاهته قال تعالى (وكان) أى موسى عليه السلام كونا راسخا (عند الله) أى الذى لا يذل من والاه (وجيها) أى معظما رفيع القدر ذا وجاهة يقال وجه الرجل يوجه فهو وجيه اذا كان ذا جاه وقدر قال ابن عباس كان عظيما عند الله تعالى لا يسأله شيأ الا أعطاه وقال الحسن كان مجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا * ولما نهاهم عن الاذى أمرهم بالنفع ليصير واذوى وجاهة عنده مكررا النداء استعطافا واظهارا للاهتمام بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) أى ادعوا ذلك (اتقوا الله) أى صدقوا ادعاءكم بمخافة من له جميع العظمة فاجعلوا لكم وقاية من سخطه بأن تبذلوا له جميع ما أودعكم من الامانة (وقولوا) فى حق النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر زينب وغيرها وفى حق بناته ونسائه وفى حق المؤمنين ونسائهم وغير ذلك (قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقال قتادة عدلا وقال الحسن صدقا وقال عكرمة هو قول لا اله الا الله * وقيل مستقيما (يصلح لكم أعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم وقال مقاتل يزكى أعمالكم (ويغفر لكم ذنوبكم) أى يمحها عينا وأثرا فلا يعاقب عليها ولا يعاتب (ومن يطع الله) أى الذى لا أعظم منه (ورسوله)

أى الذى عظمته من عظمته فى الاوامر والنواهى (فقد فاز) وأكد ذلك بقوله تعالى (فوزا عظيما) أى ظفر بجميع مراداته يعيش فى الدنيا حميدا وفى الآخرة سعيدا * ولما أرشد الله تعالى المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن الآداب بين ان التكليف الذى وجهه الله تعالى الى الانسان أمر عظيم بقوله تعالى (انا عرضنا الامانة) واختلف فى هذه الامانة المعروضة فقال ابن عباس أراد بالامانة الطاعة من الفرائض التى فرضها الله تعالى على عباده عرضها (على السموات والارض والجبال) على أنهم ان أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود الامانة أداء الصلوات وايتاء الزكوات وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل فى المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقال مجاهد الامانة الفرائض وحدود الدين وقال ابو العالية ما امروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هو الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله تعالى من الانسان فرجه وقال هذه أمانتى استودعتكها فالفرج أمانة والعين امانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا ايمان لمن لا أمانة له وقال بعضهم هى أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا فى شئ قليل ولا كثير وهى رواية الضحاك عن ابن عباس وجماعة من التابعين وأكثر السلف ان الله تعالى عرض هذه الامانة على السموات والارض والجبال فقال لهن أتحملن هذه الامانة بما فيها قلن وما فيها فقال ان أحسنتن جوزيتن وان عصيتن عوقبتن (فأبين) على عظم اجرامها وقوة أركانها وسعة أرجائها (أن يحملنها) أى قلن لا يارب نحن مسخرات لامرك لا نريد ثوابا ولا عقابا (وأشفقن منها) أى وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ومخالفة وكان العرض عليهن تخييرا لا الزاما ولو ألزمن لم يمتنعن من حملها فالجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة ساجدة له كما قال تعالى للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقال فى الحجارة وان منها لما يهبط من خشية الله وقال تعالى ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال الآية وقال بعض أهل العلم ركب الله فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الامانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقال بعضهم المراد بالعرض على السموات والارض هو العرض على أهل السموات والارض عرضها على من فيهما من الملائكة كقوله تعالى واسأل القرية أى أهلها وقيل المراد المقابلة أى قابلنا الامانة مع السموات والارض والجبال فرجحت الامانة قال البغوى والاول أصح وهو قول أكثر العلماء * (تنبيه) * قوله تعالى فأبين أتى بضمير هذه كضمير الاناث لان جمع تكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وانما ذكر ذلك لئلا يتوهم أنه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال (فان قيل) ما الفرق بين ابائهن واباء ابليس فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين (أجيب) بأن الاباء هناك كان استكبارا لان السجود كان فرضا وههنا استصغارا لان الامانة كانت عرضا وانما امتنعن خوفا كما قال تعالى وأشفقن منها أى خفن من

الامانة أن لا يؤدّيها فيلحقهن العقاب (وحملها الانسان) أى آدم قال الله تعالى لآدم انى عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب ومافيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فتحملها آدم عليه السلام وقال بين اذنى وعاتقى فقال الله تعالى امّا اذا تحملت فسأعينك اجعل لبصرك حجابا فاذا خشيت ان تنظر لما لا يحل فأرخ عليه حجابه وأجعل للسانك لحيين وغلقا فاذا خشيت فأغلق وأجعل لفرجك سترا فاذا خشيت فلا تكشفه على ما حرمت عليك قال مجاهد فما كان بين ان تحملها وبين ان أخرج من الجنة الامقدار ما بين الظهر والعصر وحكى النقاش باسناده عن ابن مسعود انه قال مثلت الامانة بصخرة ملقاة ودعيت السموات والارض والجبال اليها فلم يقربوا منها وقالوا لانطيق حملها وجاء آدم عليه السلام من غيران يدعى وحرك الصخرة وقال لو أمرت بحملها لحملتها فقلن احمل فحملها الى ركبتيه ثم وضعها وقال والله لو أردت ان أزداد لازددت فقلن له احمل فحملها الى حقويه وقال والله لو أردت أن أزداد لازددت فقلن له احمل فحملها حتى وضعها على عاتقه فأراد أن يضعها فقال له الله تعالى مكانك فانها فى عنقك وعنق ذريتك الى يوم القيامة (انه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس ظلوما لنفسه جهولا بأمر الله تعالى وما احتمل من الامانة وقال الكلبى ظلوما حين عصى ربه جهولا لايدرى ما العقاب فى ترك الامانة وقال مقاتل ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة ما تحمل وذكر الزجاج وغيره من أهل المعانى فى قوله تعالى وحملها الانسان قولا آخر فقالوا ان الله تعالى ائتمن آدم وأولاده على شئ وائتمن السموات والارض والجبال على شئ فالامانة فى حق بنى آدم ماذكرنا من الطاعة والقيام بالفرائض والامانة فى حق السموات والارض والجبال هى الخضوع والطاعة لما خلقن له وقوله تعالى فأبين أن يحملنها أى أبين الامانة يقال فلان حمل الامانة أى اثم فيها بالخيانة قال تعالى وليحملن أثقالهم انه كان ظلوما جهولا حكى عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وحملها الانسان يعنى الكافر والمنافق حملا الامانة أى خانا فيها والاول قول السلف وهو الاولى وقيل المراد بالامانة العقل والتكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وبابائهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فان من فوائد العقل أن يكون مهيمنا على القوتين حافظا لهما عن التعدى ومجاوزة الحد ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتهما وعن أبى هريرة قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يارسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان

ان من أعظم الامانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي الى امرأته وتفضي اليه ثم ينشر سرها وقوله تعالى (ليعذب الله) أي الملك الاعظم متعلق بعرضنا المترتب عليه حمل الانسان (المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أي المضيعين الامانة *(تنبيه)* لم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وأعاده في قوله تعالى (ويتوب الله) أي بماله من العظمة (على المؤمنين والمؤمنات) أي المؤدين للامانة ولو قال تعالى ويتوب على المؤمنين والمؤمنات كان المعنى حاصلا ولكنه أراد تفضيل المؤمن على المنافق بجعله كالكلام المستأنف * ولما ذكر تعالى في الانسان وصفين الظلوم والجهول ذكر تعالى من أوصافه وصفين بقوله تعالى (وكان الله) أي على ماله من الكبرياء والعظمة (غفورا) للمؤمنين حيث عفا عن فرطاتهم (رحيما) بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم مكرما لهم بأنواع الكرم * وما رواه البيضاوي من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الاحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطي الامان من عذاب القبر حديث موضوع رواه الثعلبي

سورة سبأ مكية

الا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهي أربعة أو خمس وخمسون آية وثمانمائة وثلاث وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر حرفا (بسم الله) أي الذي من شمول قدرته اقامة الحساب (الرحمن) أي الذي من عموم رحمته ترتيب الثواب والعقاب (الرحيم) أي الذي عز على أهل كرامته بطاعته حتى لا عقاب يلحقهم ولا عتاب * ولما ختم السورة التي قبل هذه بصفتي المغفرة والرحمة بدأ هذه بقوله (الحمد لله) أي ذي الجلال والجمال على هذه النعمة (فائدة) السور المفتتحة بالحمد خمس سورتان في النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان في النصف الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة هي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الثاني الاخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة في قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا حالتان الابداء والاعادة وفي كل حالة له تعالى نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال في النصف الاول الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى هو الذي خلقكم من طين فأشار الى الايجاد الاول وقال في السورة الثانية الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما فأشار الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع تنقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ووقعت المنازعات وأدت الى التقاتل والتفاني وقال ههنا الحمد لله (الذي له ما في السموات وما في الارض) ملكا وخلقا اشارة الى نعمة الايجاد الثاني بدليل قوله تعالى (وله) أي وحده (الحمد) أي الاحاطة بالكمال (في الآخرة) أي ظاهر الكل من يجمعه الحشر وله كل ما فيها الا يدعي

أحد ذلك فى شئ منه ظاهرا ولا باطنا وقال فى سورة الملائكة الحمد لله فاطر السموات والارض اشارة الى نعمة الابقاء بدليل قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا اى يوم القيامة يرسلهم الله تعالى مسلمين على المسلمين كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر نعمتين أشار بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين الى النعمة العاجلة وأشار بقوله تعالى مالك يوم الدين الى النعمة الآجلة فرتب الافتتاح والاختتام عليهما (فان قيل) قد ذكرتم أن الحمد ههنا اشارة الى النعم التى فى الآخرة فلم ذكر الله تعالى السموات والارض (أجيب) بأن نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله تعالى النعم المرئية وهى ما فى السموات وما فى الارض ثم قال وله الحمد فى الآخرة ليقابل نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وقيل الحمد فى الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال تعالى وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن والحمد لله الذى صدقنا وعده وتقدم الكلام على الحمد لغة واصطلاحا والشكر كذلك فى أول الفاتحة فتح الله علينا بكل خير وفعل ذلك بأحبابنا * ولما تقرر أن الحكمة لا تتم الا بايجاد الآخرة قال تعالى (وهو الحكيم) أى الذى بلغت حكمته النهاية التى لا مزيد عليها والحكمة هى العلم بالامور على وجه الصواب متصلا بالعمل على وفقه (الخبير) أى البليغ الخبر وهو العلم بظواهر الامور و بواطنها حالا ومآلا ثم بين كمال خبره بقوله تعالى (يعلم ما يلج) أى يدخل (فى الارض) أى هذا الجنس من المياه والاموال والاموات وغيرها (وما يخرج منها) من المياه والمعادن والنبات وغيرها (وما ينزل من السماء) أى من هذا الجنس من قرآن وملائكة وماء وحرارة وبرودة وغير ذلك (وما يعرج فيها) من الكلام الطيب قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والملائكة والاعمال الصالحة قال تعالى والعمل الصالح يرفعه *(تنبيه)* قدم ما يلج فى الارض على ما ينزل من السماء لان الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا وقال تعالى ما يعرج فيها ولم يقل ما يعرج اليها اشارة الى قبول الاعمال الصالحة لان كلمة الى للغاية فلو قال وما يعرج اليها لفهم الوقوف عند السموات فقال وما يعرج فيها ليفهم نفوذه فيها وصعوده وتمكنه فيها ولهذا قال فى الكلم الطيب اليه يصعد الكلم الطيب لان الله تعالى هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول اليه (وهو) أى والحال أنه وحده مع كثرة نعمه المقيمة للابدان (الرحيم) أى المنعم بانزال الكتب وارسال الرسل لاقامة الاديان وغير ذلك (الغفور) أى المحاء للذنوب للمفرطين فى شكر نعمته مع كثرتها أو فى الآخرة مع ماله من سوابق هذه النعم الفائتة للحصر *(تنبيه)* قدم تعالى صفة الرحمة على صفة الغفور ليعلم أن رحمته سبقت غضبه * ثم بين تعالى أن هذه النعمة التى يستحق الله تعالى بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال (وقال الذين كفروا) اى ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من براهينها الظاهرة (لا تأتينا الساعة) أى أنكروا مجيئها أو استبطؤها استهزاء بالوعد به وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهم (بلى) رد لكلامهم واثبات لما نفوه (وربى) أى المحسن الى بما عمنى به معكم وبما خصنى من تنبيئى وارسالى اليكم الى غير ذلك من أمور

لا يحصيها الا هو (لتأتينكم) أى الساعة لتظهر فيها ظهورا تاما الحكمة بالعدل والفصل
وغير ذلك من عجائب الحكم والفضل وقوله تعالى (عالم الغيب) قرأه نافع وابن عامر برفع الميم
على هو عالم الغيب أو مبتدأ وخبره ما بعده وابن كثير وأبو عمرو وعاصم بجره نعتا لربى وقرأ حمزة
والكسائى بعد العين بلام ألف مشددة وخفض الميم (لا يعزب) أى لا يغيب (عنه مثقال)
أى وزن (ذرة) أى من ذات ولا معنى والذرة النملة الحمراء الصغيرة جدا صارت مثلا فى أقل
القليل فهى كناية عنه * وقرأ الكسائى بكسر الزاى والباقون بضمها وقوله تعالى
(فى السموات ولا فى الارض) فيه لطيفة وهى أن الانسان له جسم وروح فالاجسام
أجزاؤها فى الارض والارواح فى السماء فقوله تعالى فى السموات اشارة الى علمه بالارواح
وما فيها من الملائكة وغيرهم وقوله تعالى ولا فى الارض اشارة الى علمه بالاجسام وما
فى الارض من غيرها فاذا علم الارواح والاجسام قدر على جمعهما فلا استبعاد فى الاعادة
وقوله تعالى (ولا أصغر) أى ولا يكون شئ أصغر (من ذلك) أى المثقال (ولا أكبر)
أى منه (الا فى كتاب مبين) أى بين هو اللوح المحفوظ جملة مؤكدة لنفى العزوب (فان
قيل) فأى حاجة الى ذكر الاكبر فان من علم الاصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الاكبر
(أجيب) بأنه تعالى أراد بيان اثبات الامور فى الكتاب فلو اقتصر على الاصغر لتوهم
متوهم أنه يثبت الصغار لكونها محل النسيان وأما الاكبر فلا ينسى فلا حاجة الى اثباته فقال
الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فان الاكبر أيضا مكتوب * ثم بين علة ذلك كله بقوله (ليجزى
الذين آمنوا وعملوا) تصديقا لايمانهم (الصالحات) أى وانه ما خلق الاكوان الا لأجل
الانسان فلا يدعه بغير جزاء ثم بين جزاءهم بقوله تعالى (أولئك) أى العالو الرتبة (لهم مغفرة)
أى لزلاتهم وهفواتهم لان الانسان المبنى على النقصان لا يقدر أن يقدر العظيم السلطان حق
قدره (ورزق كريم) أى جليل عزيز دائم لذيذ نافع شهى لا كدر فيه وهو رزق الجنة
(تنبيه) ذكر تعالى فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أمرين الايمان والعمل الصالح وذكر
لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور له لقوله تعالى ان الله
لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال
لا اله الا الله ومن فى قلبه وزن ذرة من ايمان والرزق الكريم على العمل الصالح وهذا مناسب
فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه لا بد وأن ينعم عليه وقوله تعالى كريم بمعنى ذى كرم
أو مكرم أو لانه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فانه ان لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى غالبا
(فان قيل) ما الحكمة فى تمييز الرزق بأنه كريم ولم يصف المغفرة (أجيب) بأن المغفرة واحدة
وهى للمؤمنين وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق
لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها * ولما بين تعالى حال المؤمنين يوم
القيامة بين حال الكافرين فى ذلك اليوم بقوله سبحانه (والذين سعوا) أى فعلوا فعل الساعى
(فى آياتنا) أى القرآن بالابطال وتزهيد الناس فيها وقوله تعالى (معجزين) قرأه ابن كثير وأبو عمرو

بغير ألف بعد العين وتشديد الجيم أي مبطئين عن الايمان من اراده والباقون بألف بعد العين وتخفيف الجيم وكذا في آخر السورة أي مسابقين كي يفوتونا (أولئك) المقبرون عن أن يبلغوا مراداً بعاجزتهم (لهم عذاب) وأي عذاب (من رجز) أي سيئ العذاب (أليم) أي مؤلم وقرأ ابن كثير وحفص أليم بالرفع على أنه صفة لعذاب والباقون بالجر على انه صفة لرجز قال الرازي قال هنالك لهم رزق كريم ولم يقل بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب وقوله (ويرى الذين أوتوا العلم) أي الذي قذفه الله تعالى في قلوبهم سواء كانوا ممن أسلم من العرب أو أهل الكتاب وقيل مؤمنو أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل الصحابة ومن تابعهم فيه وجهان أحدهما انه عطف على ليجزى أي وليعلم الذين أوتوا العلم والثاني انه مستأنف أخبر عنهم بذلك (الذي أنزل اليك من ربك) أي المحسن اليك بانزاله (هو الحق) أي انه من عند الله تعالى * (تنبيه) * الذي أنزل هو المفعول الاول وهو ضمير فصل والحق مفعول ثان لان الرؤية علمية وقوله تعالى (ويهدي الى صراط) أي طريق (العزيز الحميد) في فاعله وجهان أظهرهما انه ضمير الذي أنزل وهو القرآن والثاني ضمير اسم الله تعالى وهاتان الصفتان يفيدان الرهبة والرغبة العزيز يفيد التخويف والانتقام من المكذب والحميد يفيد الترغيب في الرحمة للمصدق (وقال الذين كفروا) أي قال بعضهم على وجه التعجب لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم (ينبئكم) أي يخبركم اخباراً لا أعظم منه بما حواه من العجب الخارج عما نفعله أنكم (اذا مزقتم) أي قطعتم وفرقتم بعد موتكم وقوله تعالى (كل ممزق) يحتمل أن يكون اسم مفعول أي كل تمزيق فلم يبق شيء من أجسادكم مع شيء بل صار الكل بحيث لا يميز بين ترابه وتراب الارض ويحتمل أن يكون ظرف مكان بمعنى اذا مزقتم وذهبت بكم الرياح والسيول كل مذهب (انكم لفي خلق جديد) أي تنشؤن خلقاً جديداً بعد ان تكونوا رفاتاً وتراباً والهمزة في قوله (أفترى) أي تعمد (على الله) أي الذي لا أعلم منه (كذبا) أي بالاخبار بخلاف الواقع وهو عاقل صحيح القصد همزة استفهام فالقراء الجميع يحققونها واستغنى بها عن همزة الوصل فانها تحذف لاجلها فلذلك تثبت هذه الهمزة ابتداء ووصلا قال البغوي هذه ألف استفهام دخلت على ألف الوصل فلذلك نصبت (أم به جنة) أي جنون يحكي به ذلك واستدل الجاحظ بهذه الآية على ان الكلام ثلاثة أقسام صدق وكذب ولاصدق ولا كذب ووجه الدلالة منه على القسم الثالث ان قولهم أم به جنة لا جائز أن يكون كذباً لانه قسيم الكذب وقسيم الشيء غيره ولا جائز أن يكون صدقاً لانهم لم يعتقدوه فثبت قسم ثالث (وأجيب) عنه بأن المعنى أم لم يفتر ولكن عبر عن هذا بقولهم أم به جنة لان المجنون لا افتراء له * (تنبيه) * قوله أفترى يحتمل أن يكون من تمام قول الكافرين أولاً أي من كلام القائلين هل ندلكم ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب للقائل هل ندلكم كان القائل لما قال له هل ندلكم على رجل قال له هل افترى على الله كذبا ان كان يعتقد خلافه أم به جنة أي جنون

ان كان

ان كان لا يعتقد خلافه * ولما كان الجواب ليس به شئ من ذلك عطف عليه قوله تعالى (بل الذين لا يؤمنون) أى لا يوجدون الايمان لانهم طبعوا على الكفر (بالآخرة) أى المشتملة على البعث والعذاب (فى العذاب) أى فى الآخرة (والضلال البعيد) أى عن الصواب فى الدنيا فرد الله تعالى عليهم ترديدهم وأثبت لهم سبحانه ما هو أفظع من القسمين فقوله تعالى بل الذين كفروا فى العذاب فى مقابلة قولهم أفترى على الله كذبا وقوله تعالى والضلال البعيد فى مقابلة قولهم أم به جنة وكلاهما مناسب اما العذاب فلان نسبة الكذب الى الصادق مؤذ الى أنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوا الكذب الى البرئ * وأما الضلال فلان نسبة المجنون الى العاقل دونه فى الايذاء فانه لا يشهد عليه بأنه يعذب وانما ينسبه الى عدم الهداية فبين تعالى انهم هم الضالون * ثم وصف ضلالهم بالبعد ووصف الضلال به للاسناد المجازى لان من يسمى المهدى ضالا يكون أضل والنبى صلى الله عليه وسلم هادى كل مهتد * ولما ذكر تعالى الدليل على كونه عالم الغيب وكونه مجازيا على السيآت والحسنات ذكر دليلا آخر فيه التهديد والتوحيد بقوله تعالى (أفلم يروا) أى ينظروا (الى ما بين أيديهم) أى امامهم (وما خلفهم) وذلك اشارة الى جميع الجوانب من كلا الخافقين فقوله تعالى (من السماء والارض) دليل التوحيد فانهما يدلان على الوحدانية ويدلان على الحشر والاعادة لانهما يدلان على كمال القدرة لقوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وأما دليل التهديد فقوله تعالى (ان نشأ) أى بما لنا من العظمة (نخسف بهم الارض) أى كما فعلنا بقارون وذويه لانه ليس نفوذ بعض أفعالنا فيه بأولى من غيره (أو نسقط عليهم كسفا) أى قطعا (من السماء) فنهلكهم بها وقرأ حفص بفتح السين والباقون بسكونها * (تنبيه) * فى قوله تعالى أفلم يروا الرأيان المشهوران قدره الزمخشرى أفعموا فلم يروا وغيره يدعى أن الهمزة مقدمة على حرف العطف وقوله من السماء بيان للموصول فيتعلق بمحذوف ويجوز أن يكون حالا فيتعلق به أيضا قيل وثم حال محذوفة تقديره أفلم يروا الى كذا مقهورا تحت قدرتنا أو محيطا بهم فيعلموا انهم حيث كانوا فان أرضى وسمائى محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها وأنا القادر عليهم وقرأ حمزة والكسائى ان يشأ يخسف بهم الارض أو يسقط بالياء فى الثلاثة كقوله تعالى افترى على الله كذبا والباقون بالنون وأدغم الكسائى الفاء فى الباء وأظهرها الباقون (ان فى ذلك) أى فيما ترون من السماء والارض (لآية) أى علامة بينة تدل على قدرتنا على البعث (لكل عبد) أى متحقق انه مربوب ضعيف مسخر لما يراد منه (منيب) أى فيه قابلية الرجوع الى ربه بقلبه * ولما ذكر تعالى من ينيب من عباده وكان من جملتهم داود عليه السلام كما قال ربه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ذكره بقوله تعالى (ولقد آتينا) أى أعطينا اعطاء عظيما دالا على نهاية المكنة بما لنا من العظمة (داود منا فضلا) أى النبوة والكتاب أو الملك أو جميع ما أوتى من حسن الصوت وتليين الحديد وغير ذلك مما خص به وهذا الاخير أولى * (تنبيه) * قوله تعالى منا فيه اشارة الى بيان

فضل داود عليه السلام لان قوله تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام كما
يقول القائل آتى الملك زيدا خلعة فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد انه كان من خاص ما
يكون له فكذلك ايتاء الله تعالى الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ونظيره
قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فان رحمة الله تعالى واسعة تصل الى كل أحد
لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه وقوله تعالى (ياجبال)
محكى بقول مضمر ثم ان شئت قدرته مصدرا ويكون بدلا من فضل على جهة تفسيره به كأنه
قيل آتيناه فضلا قولنا ياجبال وان شئت قدرته فعلا وحينئذ ذلك وجهان ان شئت جعلته
بدلا من آتينا معناه آتينا قلنا ياجبال وان شئت جعلته مستأنفا (أوبى) أى رجعى (معه)
بالتسبيح اذا سبح أمر من التأويب وهو الترجيع وقيل التسبيح بلغة الحبشة وقال العتبى
أصله من التأويب فى السير وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا كأنه يقول أوبى النهار
كله بالتسبيح معه وقال وهب نوحى معه وقيل سيرى معه وقوله تعالى (والطير) منصوب
باجماع القراء السبعة واختلف فى وجه نصبه على أوجه أحدها أنه عطف على محل جبال لانه
منصوب تقديرا لان كل منادى فى موضع نصب الثانى أنه عطف على فضلا قاله الكسائى
ولابد من حذف مضاف تقديره آتيناه فضلا وتسبيح الطير الثالث انه منصوب باضمار فعل أى
وسخرنا له الطير قاله أبو عمرو * (تنبيه) * لم يكن الموافق له فى التأويب منحصرا فى الطير والجبال
ولكن ذكر الجبال لان الصخور للجمود والطير للنفور وكلاهما تستبعد منه الموافقة فاذا
وافقته هذه الاشياء فغيرها أولى ثم من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد
قسوة قال المفسرون كان داود عليه الصلاة والسلام اذا نادى بالنياحة اجابته الجبال بصداها
وعكفت الطير عليه من فوقه فصدى الجبال الذى يسمعه الناس اليوم من ذلك وقيل كان داود
اذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح وقيل كان داود اذا لحقه
فتور اسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطا له وقال وهب بن منبه كان يقول للجبال سبحى وللطير أجيبى
ثم يأخذ فى تلاوة الزبور بين تلك بصوته الحسن فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ولا يسمعون
شيأ أطيب منه وذلك كما كان الحصى يسبح فى كف نبينا صلى الله عليه وسلم وكف أبى بكر وعمر
رضى الله عنهما وكما كان الطعام يسبح فى حضرته الشريفة وهو يؤكل وكما كان الحجر يسلم عليه
وأسكفة الباب وحوائط البيت تؤمن على دعائه وحنين الجذع مشهور وكما كان الضب يشهد
له والجمل يشكو اليه ويسجد بين يديه ونحو ذلك وكما جاء الطائر الذى يسمى الحمرة تشكو الذى
أخذ بيضها فأمره النبى صلى الله عليه وسلم برده رحمة لها * ولما ذكر تعالى طاعة أكثف الارض
وألطف الحيوان الذى أنشأه الله تعالى منها ذكر سبحانه وتعالى ما أنشأه من ذلك الاكثف وهو
أصلب الاشياء بقوله تعالى (وألنا له الحديد) أى الذى ولدناه من الجبال جعلناه فى يده كالشمع
والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة وذلك فى قدرة الله تعالى يسير وكان
سبب ذلك ما روى فى الاخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى اسرائيل كان من عادته أن يخرج

للناس

للناس متنكرا فاذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم اليه يسأله عن داود ويقول له ما تقول فى داود
واليكم هذا أى رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله تعالى له ملكا فى صورة آدمى
فلما رآه داود تقدم اليه على عادته يسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك
وقال ما هى يا عبد الله فقال انه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى
أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال يتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة
الدروع وانه أول من اتخذها يقال انه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم فيأكل ويطعم منها
عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين ويقال انه كان يعمل كل يوم درعا يبيعه بستة
آلاف درهم فينفق منها ألفين على نفسه وعياله ويتصدق بأربعة آلاف درهم على فقراء بنى
اسرائيل وانما اختار الله تعالى له ذلك لانه وقاية للروح التى هى من أمره وحفظ الآدمى المكرم
عند الله تعالى من القتل فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما لان القوس والسيف
وغيرهما من السلاح ربما يستعمل فى قتل النفس المحرمة بخلاف الدرع قال صلى الله عليه وسلم
كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده ثم ذكر سبحانه وتعالى علة الالانة بصيغة الامر
اشارة الى أن عمله كان لله تعالى بقوله عز من قائل (أن اعمل سابغات) أى دروعا طوالا واسعات
يجرها لابسها على الارض وذكر الصفة يعلم منها الموصوف واختلف فى معنى قوله سبحانه وتعالى
(وقدر فى السرد) أى نسج الدروع يقال لصانعه الزراد والسراد فقيل قدر المسامير فى حلق
الدروع أى لا تجعل المسامير غلاظا فتكسر الحلق ولا دقاقا فتتقلقل فيها ويقال السرد المسمار
فى الحلقة يقال درع مسرودة أى مسمورة الحلق وقدر فى السرد اجعله على القصد وقدر
الحاجة وقيل اجعل كل حلقة مساوية لاختها مع كونها ضيقة لئلا ينفذ منها سهم ولتكن
فى ثخنها بحيث لا يقطعها سيف ولا تثقل على الدارع فتمنعه خفة التصرف وسرعة الانتقال
فى الكر والفر والطعن والضرب فى البرد والحر والظاهر كما قال البقاعى انه لم يكن فى حلقها
مسامير لعدم الحاجة بالالانة الحديد اليها والا لم يكن بينه وبين غيره فرق ولا كان للالانة كبير فائدة
وقد أخبر بعض من رأى ما نسب اليه بغير مسامير وقال الرازى يحتمل أن يقال السرد هو عمل
الزرد وقوله تعالى وقدر فى السرد أى انك غير مأمور به أمر ايجاب انما هو اكتساب والكسب
يكون بقدر الحاجة وباقى الايام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشتغل جميع أوقاتك
بالكسب بل حصل به القوت فحسب ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحا) أى لستم مخلوقين
الا للعمل الصالح فاعملوا ذلك واكثروا منه وأما الكسب فقدروا فيه ثم أكد طلب الفعل الصالح
بقوله تعالى (انى بما تعملون بصير) أى مبصر فأجازيكم به يريد بهذا داود وآله * (تنبيه) *
كما ألان الله تعالى لداود عليه السلام الحديد ألان لنبينا صلى الله عليه وسلم فى الخندق تلك
الكدية وذلك بعد ان لم تكن المعاول تعمل فيها وبلغت غاية الجهد منهم فضربها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ضربة واحدة وفى رواية رش عليها ماء فعادت كثيبا أهيل لا ترد فأسا وتلك
الصخرة التى أخبره سلمان عنها أنها كسرت فؤسهم ومعاولهم وعجزوا عنها فضربها صلى الله

عليه وسلم ثلاث ضربات كسر في كل ضربة ثلثا منها وبرقت مع كل ضربة برقة كبر معها تكبيرة
وأضاءت للصحابة رضي الله تعالى عنهم ما بين لابتي المدينة بحيث كانت في النهار كأنها مصباح
في جوف بيت مظلم فسألوه عن ذلك فأخبرهم صلى الله عليه وسلم ان احدى الضربات أضاءت له
صنعاء من أرض اليمن حتى رأى أبوابها من مكانه ذلك وأخبره جبريل عليه السلام أنها ستفتح على
أمته وأضاءت له الاخرى قصور الحيرة البيض كأنها أنياب الكلاب وأخبر انها مفتوحة لهم
وأضاءت له الاخرى قصور الشأم الحمر كأنها انياب الكلاب وأخبر بفتحها عليهم فصدقه الله تعالى
في جميع ما قال وأعظم من ذلك تصلب الخشب له عليه السلام حتى صار سيفا قوي المتن جيد
الحديدة وذلك أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
عرجونا فصار في يده سيفا قائمه منه فقاتل به فكان يسمى العرجون ثم لم يزل عنده يشهد به
المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده حتى قتل وهو عنده وعن الواقدي أنه انكسر
سيف سلمة بن أسلم يوم بدر فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيبا كان في يده من عراجين
رطاب فقال اضرب به فاذا هو سيف جيد فلم يزل عنده حتى قتل والحام داود للحديد ليس بأعجب
من الحام النبي صلى الله عليه وسلم ليد معوذ بن عفراء لما قطعها أبو جهل يوم بدر فأتى بها يحملها
في يده الاخرى فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وألصقها فلصقت وصحت مثل أختها كما
نقله البيهقي وغيره ومعجزاته صلى الله عليه وسلم لا تنحصر وانما أذكر بعضها تبركا بذكره صلى الله عليه
وسلم وأسأل الله تعالى ان يحشرنا في زمرته ويفعل ذلك بأهلينا ومحبينا * ولما أتم الله تعالى
المراد من آيات داود عليه السلام أتبعها ببعض آيات ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام لمشاركته
في الانابة بقوله تعالى (ولسليمان) أي عوضا عن الخيل التي عقرها لله تعالى (الريح) قرأ شعبة
الريح بالرفع على الابتداء والخبر في الجار قبله أو محذوف والباقون بالنصب باضمار فعل أي
وسخرنا (غدوها) أي سيرها من الغدوة بمعنى الصباح الى الزوال (شهر) أي تحمله وتذهب به
وبجميع عسكره من الصباح الى نصف النهار مسيرة شهر (ورواحها) أي من الزوال الى الغروب
(شهر) أي مسيرته فكانت تسير به في يوم واحد مسيرته شهرين قال الحسن كان يغدو من دمشق
فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وهذا كما سخر الله تعالى الريح لنبينا صلى
الله عليه وسلم في غزوة الاحزاب فكانت تهدم خيامهم وتضرب وجوههم بالتراب والحجارة وهي
لا تجاوز عسكرهم الى أن هزمهم الله تعالى بها وكما حملت شخصين من الصحابة رضي الله تعالى
عنهم في غزوة تبوك فألقتهما بجبل طيء وتحمل من اراد الله تعالى من اولياء أمته كما هو في غاية
الشهرة ونهاية الكثرة واما امر الاسراء والمعراج فهو من الجلالة والعظم بحيث لا يعلمه الا الله
تعالى مع ان الله تعالى صرفه في آيات السماء بحبس المطر تارة وارساله أخرى * ولما ذكر تعالى
الريح أتبعها ما هو من أسباب تكوينه بقوله تعالى (وأسلنا) أي أذبنا بما لنا من العظمة
(له عين القطر) أي النحاس حتى صار كأنه عين ماء فأجريت ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء
وعمل الناس الى اليوم مما أعطي سليمان (ومن الجن) أي الذي سترناهم عن العيون من

الشياطين وغيرهم عطف على الريح أى وسخرنا له من الجن (من يعمل بين يديه) أى قد أمكنه الله تعالى منهم غاية الامكان فى غيبته وحضوره (باذن) أى بأمر (ربه) أى بتمكين المحسن اليه (ومن يزغ) اى يمل (منهم عن أمرنا) أى عن أمره الذى هو من أمرنا (نذقه من عذاب السعير) أى النار أى فى الآخرة وقيل فى الدنيا بأن يضربه ملك بسوط منها ضربة يحرقه وهذا كما أمكن نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك العفريت فخنقه وهم بربطه حتى تلعب به صبيان المدينة ثم تركه تأدبا مع أخيه سليمان عليه السلام فيما سأل الله تعالى فيه وأما الاعمال التى يدور عليها اقامة الدين فأغناه الله تعالى فيها عن الجن بالملائكة الكرام عليهم السلام وسلط جمعا من صحابته على جماعة من مردة الجان منهم أبو هريرة رضى الله تعالى عنه لما وكله النبى صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ومنهم أبى بن كعب قبض على شخص منهم كان يسرق من تمره وقال لقد علمت الجن ما فيهم من هو أشد منى ومنهم معاذ بن جبل لما جعله النبى صلى الله عليه وسلم على صدقة المسلمين فأتاه شيطان يسرق وتصور له بصور ومنها صورة فيل فضبطه والتفت يداه عليه وقال له يا عدو الله فشكا له الفقر وأخبره أنه من جن نصيبين وانهم كانت لهم المدينة فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم أخرجهم منها وسأله أن يخلى عنه على أن لا يعود ومنهم بريدة ومنهم ابو أيوب الانصارى رضى الله تعالى عنه ومنهم زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه صارع الشيطان فصرعه عمر ومنهم عمار بن ياسر قاتل الشيطان فصرعه عمار وأدمى أنف الشيطان بحجر ذكر ذلك البيهقى فى الدلائل وأما عين القطر فهى مما تضمنه قول النبى صلى الله عليه وسلم أعطيت مفاتيح خزائن الارض والملك فى الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فاخترت أن أكون نبيا عبدا أجوع يوما وأشبع يوما الحديث فشمل ذلك اللؤلؤ الرطب الى عين الذهب المصفى الى ما دون ذلك وروى الترمذى وقال حسن عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وشكرتك واذا شبعت شكرتك وحمدتك وللطبرانى باسناد حسن عن ابن عباس ان اسرافيل أتى النبى صلى الله عليه وسلم بمفاتيح خزائن الارض وقال ان الله أمرنى ان أعرض عليك ان تسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فأومأ اليه جبريل عليه السلام أن تواضع فقال نبيا عبدا ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصرا من حديث أبى هريرة وله فى الصحيح عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق على قطيفة من سندس وفى البخارى فى غزوة أحد عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أعطيت مفاتيح خزائن الارض أو مفاتيح الارض هذا ما يتعلق بالارض وقد زيد صلى الله عليه وسلم على ذلك بأن أيده ربه سبحانه بالتصرف فى خزائن السماء تارة بشق القمر وتارة برجم النجوم وتارة باختراق السموات وتارة بحبس المطر وتارة بارساله الى غير ذلك مما قد أكرمه الله تعالى به مما لا يحيط به الا الله عز وجل صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وحشرنا ومحبينا معهم فى دار

كرامته * ولما أخبر تعالى أنه سخر لسليمان الجن ذكر ما لهم في أعمالهم بقوله تعالى (يعملون له) أى في أى وقت شاء (ما يشاء) أى عمله (من محاريب) أى أبنية مرتفعة غير مساجد يصعد اليها بدرج سميت بذلك لانه يذب عنها ويحارب عليها ومساجد والمحراب مقدم كل مسجد ومجلس وبيت وكان مما عملوه له بيت المقدس ابتدأه داود عليه السلام ورفعه قامة رجل فأوحى الله تعالى اليه انى لم أقض ذلك على يديك ولكن ابن لك اسمه سليمان عليه السلام اقضى تمامه على يديه فلما توفاه الله تعالى استخلف سليمان عليه السلام فأحب اتمام بناء بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الاعمال فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحه له فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام والمها الابيض من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثنى عشر ربضا وأنزل على كل ربض سبطا من الاسباط وكانوا اثنى عشر سبطا فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها والدر الصافى من البحر وفرقا يقتلعون الجواهر من الحجارة من أماكنها وفرقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فأتى من ذلك بشئ لا يحصيه الا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحا واصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلئ فبنى المسجد بالرخام الابيض والاصفر والاخضر وعمده باساطين المها الصافى وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه باللآلئ والياقوت وسائر الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن يومئذ في الارض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضئ في الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع أحبار بنى اسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى وان كل شئ فيه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذى فرغ منه عيدا * قال تعالى روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثا فأعطاه اثنتين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه اياه وسأله ملكا لا ينبغى لاحد من بعده فأعطاه اياه وسأله أن لا يأتى هذا البيت أحد يصلى فيه ركعتين الا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك قالوا فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدر والياقوت وسائر الجواهر الى دار ملكه من أرض العراق وبنى الشياطين باليمن لسليمان حصونا كثيرة عجيبة من الصخر (وتماثيل) جمع تمثال وهو كل شئ مثلته بشئ أى كانوا يعملون له تماثيل أى صورا من نحاس وزجاج ورخام ونحو ذلك (فان قيل) كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير *(أجيب)* بأن هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لانه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب وعن أبى العالية لم يكن اتخاذ التصاوير اذ ذاك محرما ويجوز أن تكون غير صور الحيوان كصور الاشجار ونحوها لان التمثال كل ما صور على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان أو بصور محذوفة الرؤس روى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين في أعلاه

فاذا أراد أن يصعد بسط الاسدان له ذراعيهما واذا قعد أظله النسران بأجنحتهما وقيل كانوا يتخذون صور الانبياء والملائكة والصالحين فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل ان هذا كان أول الامر فلما تقادم الزمن قال لهم ابليس ان آباءكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوا الاصنام ولم تكن التصاوير ممنوعة فى شريعتهم كما أن عيسى عليه السلام كان يتخذ صورا من الطين فينفخ فيها فتكون طيرا (وجفان) أى قصاع وصحاف يؤكل فيها واحدتها جفنة (كالجوابى) جمع جابية وهى الحوض الكبير يجبى اليه الماء أى يجتمع يقال كان يجلس على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها وقرأ ورش وأبو عمرو باثبات الياء بعد الباء الموحدة فى الوصل دون الوقف وابن كثير باثباتها وقفا ووصلا والباقون بالحذف وقفا ووصلا * ولما ذكر القصاع على وجه يتعجب منه ذكر ما يطبخ فيه طعام تلك الجفان بقوله تعالى (وقدور راسيات) أى ثابتات ثباتا عظيما لانها لكبرها كالجبال لها قوائم لا يحركن عن أماكنها العظمهن ولا يبدلن ولا يعطلن وكان يصعد عليها بالسلالم وكانت باليمن * ولما ذكر المساكن وما يتبعها أتبعها الامر بالعمل بقوله تعالى (اعملوا) أى وقلنا لهم اعملوا أى تمتعوا واعملوا ودل على مزيد قربهم بحذف أداة النداء وعلى شرفهم بالتعبير بالآل بقوله تعالى (آل داود) وقوله تعالى (شكرا) يجوز فيه أوجه أحدها أنه مفعول به أى اعملوا الطاعة سميت الصلاة ونحوها شكرا لسدها مسده ثانيها أنه مصدر من معنى اعملوا كأنه قال اشكروا شكرا بعملكم أو اعملوا عمل شكر ثالثها أنه مفعول من أجله أى لاجل الشكر واقتصر على هذا البقاعى رابعها أنه مصدر واقع موقع الحال أى شاكرين خامسها أنه منصوب بفعل مقدر من لفظه تقديره واشكروا شكرا سادسها انه صفة لمصدر اعملوا تقديره اعملوا عملا شكرا أى ذا شكر * (تنبيه) * كما قال تعالى عقب قوله سبحانه أن اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقب ما تعمله الجن له اعملوا آل داود شكرا اشارة الى أنه لا ينبغى أن يجعل الانسان نفسه مستغرقة فى هذه الاشياء وانما الاكثار من العمل الصالح الذى يكون شكرا وقوله تعالى (وقليل) خبر مقدم وقوله تعالى (من عبادى) صفة له وقوله تعالى (الشكور) مبتدأ والمعنى ان العامل بطاعتى المتوفر الدواعى بظاهره وباطنه من قلبه ولسانه ويديه على الشكر بان يصرف جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما يرضيه قليل ومع ذلك لا يوفى حقه لان توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وعبر بصيغة فعول اشارة الى أن من يقع منه مطلق الشكر كثير وأقل ذلك حال الاضطرار وقيل المراد من آل داود عليه السلام هو داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيتهما عليهما السلام قال جعفر بن سليمان سمعت ثابتا يقول كان داود عليه السلام نبى الله صلى الله عليه وسلم قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تك تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار الا وانسان من آل داود عليه السلام قائم يصلى وقال صلى الله عليه وسلم فى صلاة النافلة أفضل الصلاة صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وقال فى صوم التطوع أفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وروى عن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول اللهم

اجعلنى من القليل فقال عمر ماهذا الدعاء فقال انى سمعت الله يقول وقليل من عبادى الشكور فانا أدعوه أن يجعلنى من ذلك القليل فقال عمر كل الناس أعلم من عمر * ولما كان الموت مكتوبا على كل أحد قال تعالى (فلما قضينا) وحقق صفة القدرة بأداة الاستعلاء بقوله تعالى (عليه) أى سليمان عليه السلام (الموت) قال أهل العلم كان سليمان يتحنث فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فلما دنا أجله لم يصبح الا رأى فى محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله تعالى فسألها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لاى شئ خلقت فتقول لكذا وكذا فيؤمر بها فتقلع فان كانت تنبت لغرس غرسها وان كانت تنبت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت قالت الخروبة قال لاى شئ نبت قالت لخراب مسجدك قال عليه السلام ما كان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائطه ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب لانهم كانوا يسترقون السمع ويموهون على الناس أنهم يعلمون الغيب وقال لملك الموت اذا أمرت بى فأعلمنى فقال أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض الله روحه وهو متكئ عليها وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى وكان للمحراب كوى بين يديه وخلفه فكانت الجن تعمل الاعمال الشاقة التى كانوا يعملونها فى حياته وينظرون الى سليمان عليه السلام فيرونه قائما متكئا على عصاه فيحسبونه حيا فلا ينكرون خروجه الى الناس لطول صلاته فمكثوا يدأبون له بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الارضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته حينئذ كما قال تعالى (مادلهم على موته الا دابة الارض) أى الارضة لانا جعلنا له من سعة العلم ووفور الهيبة ونفوذ الامر ما تمكن به من اخفاء ذلك عنهم (تأكل منسأته) قال البخارى يعنى عصاه فالمنسأة العصا اسم آلة من نسأه أخره كالمكسحة والمكنسة من نسأت الغنم أى زجرتها وسقتها ومنه نسأ الله فى أجله أى أخره وقرأ نافع وابو عمرو بعد السين بألف وابن ذكوان بعد السين بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة بعد السين فاذا وقف حمزة سهل الهمزة وقيل لم يكن شيطان ينظر اليه فى صلاته الا احترق فمر به شيطان فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر فاذا سليمان قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا العصا قد أكلتها الارضة (فلما خر) أى سقط على الارض بعد أن قصمت الارضة عصاه (تبينت الجن) أى علمت علما بينا لا يقدرون معه على تدبيج وتلبيس وانفضح أمرهم وظهر ظهورا تاما (أن) أى أنهم (لو كانوا) أى الجن (يعلمون الغيب) أى علمه (مالبثوا) أى أقاموا حولا (فى العذاب المهين) من ذلك العمل الذى كانوا مسخرين فيه ويجوز أن تكون أن تعليلية ويكون التقدير تبين حال الجن فيما يظن بهم من أنهم يعلمون الغيب لانهم الخ وسبب علمهم مدة كونه ميتا قبل ذلك أنهم وضعوا الارضة على موضع من العصا فأكلت منها يوما وليلة مقدارا وحسبوا على ذلك النحو فوجدوا المدة سنة قال ابن عباس فشكرت الجن الارضة فهم يأتونها بالماء والطين فى جوف

الخشب

الخشب *(تنبيه)* قد تقدم أن كل شئ أثبت لمن قبل نبينا صلى الله عليه وسلم من الانبياء عليهم السلام من الخوارق ثبت له مثله أو أعظم منه اماله نفسه أو لاحد من أمته وهذا الذى ذكر لسليمان عليه السلام من حفظه بعد موته سنة لا يعيل قد ثبت مثله لشخص من هذه الامة من غير شئ يعتمد عليه قال القشيرى فى رسالته فى باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا وقال أبو عمران الاصطخرى رأيت أبا تراب فى البادية قائما ميتا لا يمسكه شئ انتهى *(فائدة)* روى ان سليمان عليه السلام كان عمره ثلاثا وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ فى بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وروى ان داود عليه السلام أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل أن يتم فوصى به الى سليمان عليه السلام فأمر الشياطين باتمامه * ولما بقى من عمله سنة سأل الله تعالى أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه وليبطل دعواهم علم الغيب وروى ان افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا منه ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعد يدنو منه * ولما بين تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان عليهما السلام بين حال الكافرين لانعمه بحكاية أهل سبا فقال تعالى (لقد كان لسبا) أى القبيلة المشهورة روى أبو سبرة النخعى عن أبى قرة بن مسيك القطيعى قال قال رجل يارسول الله اخبرنى عن سبا أكان رجلا أو امرأة أو أرضا قال كان رجلا من العرب وله عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تيامنوا فكندة والاشعريون والازد ومذحج وانمار وحمير فقال رجل وما أنمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان وسبأ يجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب ينقسمون الى قسمين قحطانية وعدنانية فالقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم نسبها الى قحطان وبعضهم الى عدنان قيل ان قحطان أول من قيل له أنعم صباحا وأبيت اللعن قال بعضهم وجميع العرب منسوب الى اسمعيل بن ابراهيم وليس بصحيح فان اسمعيل عليه السلام نشأ بين جرهم بمكة وكانوا عربا والصحيح ان العرب العاربة كانوا قبل اسمعيل عليه السلام منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأهم وجرهم والعماليق يقال ان أهما كان ملكا ويقال انه أول من سقف البيوت بالخشب المنشور وكانت الفرس تسميه آدم الاصغر وبنوه قبيلة يقال لها وبار هلكوا بالرمل أساله الله عليهم فأهلكهم وطم مناهلهم وفى ذلك يقول بعض الشعراء

وكر دهر على وبار * فهلكت عنوة وبار

واسم سبا عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وسمى سبا قيل لانه أول من سبأ فى العرب قاله السهيلى ويقال انه أول من تتوج وذكر بعضهم انه كان مسلما وله شعر يشير فيه بوجود النبى صلى الله عليه وسلم وقال فى سليمان عليه السلام

سيملك بعد نا ملك عظيم * نبى لا يرخص فى الحرام

ويملك بعده منهم ملوك * يدينوه القياد بكل دامى

وعلك بعدهم منا ملوك * يصير الملك فينا باقتسام
وعلك بعد قحطان نبى * تقى مخبت خير الانام
يسمى أحمدا ياليت انى * أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى * بكل مدجج وبكل رامى
متى يظهر فكونوا ناصريه * ومن يلقاه يبلغه سلامى

وقرأ البزى وأبو عمرو بعد الموحدة بهمزة مفتوحة من غير تنوين لانه صار اسم قبيلة وقنبل بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مكسورة منونة واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة الفا ولهما أيضا الروم مع التسهيل وقرأ (فى مساكنهم) أى التى هى فى غاية الكثرة حمزة وحفص بسكون السين وفتح الكاف ولا ألف بينهما اشارة الى انها الشدة اتصال المنافع والمرافق كالمسكن الواحد وقرأ الكسائى كذلك الا أنه يكسر الكاف والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الكاف اشارة الى أنها فى غاية الملاءمة لهم واللين وكانت بأرض مأرب من بلاد اليمن قال حمزة الكرمانى قال ابن عباس على ثلاثة فراسخ من صنعاء (آية) أى علامة ظاهرة على قدرتنا ثم فسر الآية بقوله تعالى (جنتان عن يمين وشمال) أى عن يمين الوادى وشماله قد أحاطت الجنتان بذلك الوادى وقيل عن يمين من أتاهما وشماله (فان قيل) كيف عظم الله تعالى جنتى أهل سبا وجعلهما آية ورب قرية من قرى العراق يحتف بها من الجنات ماشئت (أجيب) بأنه لم يرد بستانين اثنين فحسب وانما أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدتهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها أو أراد بستانى كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال تعالى جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب فكانت أخصب البلاد وأطيبها وأكثرها ثمارا حتى كانت المرأة تضع على رأسها مكتلا فتطوف به بين الاشجار فيمتلئ المكتل من جميع أنواع الفواكه من غير أن تمس شيأ بيدها مما يتساقط فيه من الثمر وقوله تعالى (كلوا من رزق ربكم) أى المحسن اليكم الذى أخرج لكم منهما ما تشتهون (واشكروا له) أى خصوه بالشكر بالعمل فى كل ما رضيه لما يديم لكم النعمة حكاية لما قال لهم نبيهم أو لسان الحال أو دلالة بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك ثم استأنف تعظيم ذلك بقوله (بلدة طيبة) أى حسنة التربة ليس بها سباخ حسنة الهواء سليمة من الهوام ليس فيها بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وعر الغريب بها وفى ثيابه القمل فيموت من طيب هوائها وأشار الى انه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره بقوله تعالى (ورب غفور) أى لذنب من شكره وتقصيره فلا يعاقب عليه ولا يعاتب قال البقاعى وأخبرنى بعض أهل اليمن أنها اليوم مفازة قرب صنعاء قال وفى بعضها عنب يعمل منه زبيب كار جدا فى مقدار در بلى بلاد الشام وهو فى غاية الصفاء كأنه قطع المصطكى وليس له نوى أصلا انتهى * ولما تسبب عن هذا الانعام

بطرهم الموجب لاعراضهم عن الشكر دل على ذلك بقوله تعالى (فأعرضوا) أى عن الشكر فكفروا قال وهب أرسل الله تعالى الى سبا ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم نعم الله تعالى عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا مانعرف لله تعالى علينا من نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ان استطاع * ولما تسبب عن اعراضهم مقتهم بينه بقوله تعالى (فأرسلنا عليهم سيل العرم) جمع عرمة وهو مايمسك الماء من بناء وغيره الى وقت حاجته أى سيل واديهم فأغرق جنتيهم وأموالهم * قال ابن عباس رضى الله عنهما ووهب وغيرهما كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك انهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت مابين الجبلين وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت منه دونها بركة ضخمة وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها اذا احتاجوا الى الماء واذا استغنوا سدوها فاذا جاء المطر اجتمع اليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الاعلى ففتح فجرى ماؤه فى البركة فكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثانى ثم من الثالث الاسفل فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا على ذلك بعدها مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله تعالى عليهم جرذا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فأغرق الماء جنتيهم وأموالهم وخرب أرضهم قال وهب وكانوا فيما يزعمون ويجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين حجرين الا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمانه وما أراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة الى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت فى الفرجة التى كانت عندها فتغلغلت فى السد فنقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لايدرون ذلك فلما جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى اقتلع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلا عند العرب يقولون صار بنو فلان ايدى سبا وتفرقوا ايادى سبا أى تفرقوا وتبددوا قيل والاوس والخزرج منهم قال البقاعى وكان ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى ونبينا صلى الله عليهما وسلم * (تنبيه) * فى العرم اقوال غير ماذكر أحدها أنه من باب اضافة الموصوف لصفته فى الاصل اذ الاصل السيل العرم والعرم الشديد وأصله من العرامة وهى الشراسة والصعوبة الثانى أنه من باب حذف الموصوف واقامة صفته مقامه تقديره فأرسلنا عليهم سيل المطر العرم أى الشديد الكثير الثالث ان العرم اسم للوادى الذى كان فيه الماء نفسه قال ابن الاعرابى العرم السيل الذى لايطاق وقيل كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء الرابع أنه اسم للجرذ وهو الفأر وقيل هو الخلد وانما أضيف اليه لانه تسبب عنه كما مر (وبدلناهم بجنتيهم) أى جعلنا لهم بدلهما (جنتين) هما فى غاية مايكون من مضادة جنتيهم ولذلك فسرهما بقوله تعالى اعلاما بأن اطلاق الجنتين عليهما مشاكلة لفظية للتهكم بهم (ذواتى أكل خمط) أى ثمر بشع والخمط الاراك وثمره يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين وقال المبرد والزجاج كل نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لايمكن أكله فهو

خمط وقال ابن الاعرابي الخمط ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع به وعن أبي عبيدة كل شجر ذي شوك وقرأ أبو عمرو أكل بغير تنوين والباقون بالتنوين وسكن الكاف نافع وابن كثير وضمها الباقون قال البغوي فمن جعل الخمط اسما للمأكول فالتنوين في أكل أحسن ومن جعله أصلا وجعل الأكل ثمره فالاضافة فيه ظاهرة والتنوين سائغ تقول العرب في بستان فلان أعناب كرم وأعناب كرم فتصف الاعناب بالكرم لانها منه وقوله تعالى (وأثل) أي وذواتي أثل (وشئ من سدر قليل) معطوفان على أكل لا على خمط فان الاثل هو الطرفاء ولا ثمر له وقيل هو شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودا وقيل هو نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمر الا في بعض الاوقات يكون عليه شئ كالعفص أخضر في طعمه وطبعه والسدر شجر معروف وهو شجر النبق وينتفع بورقه لغسل اليد ويغرس في البساتين ولم يكن هذا من ذلك بل كان سدرا بريا لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشئ ولهذا قال بعضهم السدر سدران سدر له ثمرة غضة لا تؤكل ولا ينتفع بورقه في الاغتسال وهو الضال وسدر له ثمرة تؤكل وهي النبق ويغسل بورقه والمراد في الآية الاول وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فغيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم *(تنبيه)* قد نبهت في شرح المنهاج على ان الباء في الابدال والتبديل والتبدل والاستبدال هل تدخل على المتروك أو على المأخوذ عند قول المنهاج ولو أبدل ضادا بظاء (ذلك) أي الجزاء العظيم بالتبديل (جزيناهم) بما لنا من العظمة (بما كفروا) أي غطوا الدليل الواضح وهو ما جاء به الرسل اذ روي أنه بعث اليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم وقيل بكفرانهم النعمة (وهل يجازى) أي مثل هذا الجزاء الذي هو على وجه العقاب (الا الكفور) أي الا البليغ في الكفر وقال مجاهد يجازى أي يعاقب ويقال في العقوبة يجازى وفي المثوبة يجزى قال الفراء المؤمن يجزى ولا يجازى أي يجزى الثواب بعمله ولا يكافأ بسيآته وقال بعضهم المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على أن يجزي في النقمة أيضا قال ابن عادل ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الامر تكون ما بين اثنين يوجد من كل واحد جزاء في حق الآخر وفي النعمة لا تكون مجازاة لان الله تعالى مبتدئ بالنعم (وقيل) المؤمن تكفر سيآته بحسناته والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما يفعله من السوء وليس لقائل أن يقول لم قيل وهل يجازى الا الكفور على اختصاص الكفر بالجزاء والجزاء عام للمؤمن والكافر لانه لم يرد الجزاء العام انما أراد الخاص وهو العقاب بل لا يجوز أن يراد العموم وليس بموضعه الا ترى أنك لو قلت جزيناهم بما كفروا وهل يجازى الا الكافر والمؤمن لم يصح ولم يعد كلاما فتبين انما يتخيل من السؤال مضمحل وان الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون مضمومة وكسر الزاي الكفور بالنصب والباقون بالياء المضمومة ونصب الزاي الكفور بالرفع * ولما تم الخبر عن الجنان التي بها القوام نعمة ونقمة اتبعه مواضع السكان بقوله تعالى (وجعلنا) أي بما لنا من العظمة (بينهم) أي بين سبا وهم باليمن

وبين

(وبين القرى التى باركنا فيها) أى بالتوسعة على أهلها بالماء والشجر وغيرهما وهى قرى الشأم التى يسيرون اليها للتجارة (قرى ظاهرة) أى متواصلة من اليمن الى الشأم (وقدرنا فيها السير) أى بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى الى انتهاء سفرهم ولا يحتاجون فيه الى حمل زاد وماء من سبا الى الشأم وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشأم فلا يحملون شيأ مما جرت به عوائد السفار فكان سيرهم فى الغدو والرواح على قدر نصف يوم فاذا ساروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار وقال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها فلا تأتى بيتها حتى يمتلئ مكتلها من الثمار فكان ما بين اليمن والشأم كذلك فهى حقيقة بأن يقال لاهلها والنازلين بها على سبيل الامتنان بلسان القال أو الحال (سيروا) ودل على تقاربها جدا قوله تعالى (فيها) ودل على كثرتها وطول مسافتها وصلاحيتها للسير أى وقت أريد مقدما ما هو أدل على الامن وأعدل للسير فى البلاد الحارة بقوله تعالى (ليالى) وأشار الى كثرة الظلال والرطوبة والاعتدال الذى يمكن معه السير فى جميع النهار بقوله تعالى (وأياما) أى فى أى وقت شئتم والى عظيم أمانها فى كل وقت بالنسبة الى كل مسلم بقوله (آمنين) أى لا تخافون فى ليل أو نهار وان طالت مدة سفركم فيها أو سيروا فيها الليالى أعماركم وأيامها لا تلقون فيها الا الامن فلا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا وقيل تسيرون فيها ان شئتم ليالى وان شئتم اياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لعدم علم العدو بسيرهم وبعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة * ولما انقضى الخبر عن هذه الاوصاف التى تستدعى غاية الشكر لما فيها من الالطاف دل على بطرهم للنعمة بها بأنهم جعلوها سببا للضجر والملال بقوله تعالى (فقالوا) أى على وجه الدعاء (ربنا باعد بين أسفارنا) أى الى الشأم أى اجعلها مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الازواد والماء فبطروا النعمة وملوا العافية كبنى اسرائيل لما طلبوا الثوم والبصل فأجابهم الله تعالى بتخريب القرى المتوسطة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بتشديد العين ولا ألف قبلها فعل طلب والباقون بألف قبل العين وتخفيف العين وقرئ بلفظ الخبر على انه شكوى منهم لبعد سفرهم افراطا فى الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه (وظلموا) حيث عدوا النعمة نقمة والاحسان اساءة (أنفسهم) بالكفر (فجعلناهم) أى بما لنا من العظمة (أحاديث) أى عبرة لمن بعدهم يتحدث الناس بهم تعجبا وضرب مثل فيقولون ذهبوا أيدى سبا وتفرقوا ايادى سبا قال كثير

ايادى سبا يا عز ما كنت بعدكم * فلم يحل للعينين بعدك منظر

(ومزقناهم كل ممزق) أى فرقناهم فى كل جهة من البلاد كل التفريق قال الشعبى لما غرقت قراهم تفرقوا فى البلاد أما غسان فلحقوا بالشأم ومر الازد الى عمان وخزاعة الى تهامة ومر خزيمة الى العراق والاوس والخزرج الى يثرب وكان الذى قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الاوس والخزرج (ان فى ذلك) أى المذكور (لآيات) أى عبر ودلالات بينة

جدا على قدرة الله تعالى على التصرف فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض بالايجاد والاعدام للذوات والصفات والخسف والمسخ فانه لا فرق بين خارق وخارق وعلى ان بطرهم لتلك النعمة حتى ملوها ودعوا بازالتها دليل على ان الانسان مادام حيا فهو فى نعمة يجب عليه شكرها كائنة ما كانت وان كان يراها بلية لانه لما طبع عليه من القلق كثيرا ما يرى النعم نقما واللذة ألما ولذلك ختم الآية بالصبر بصيغة المبالغة بقوله تعالى (لكل صبار) على طاعة الله وعن معصيته (شكور) لنعمه قال مقاتل يعنى المؤمن من هذه الامة صبور على البلاء شكور على النعماء قال مطرف هو المؤمن اذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر وقرأ قوله تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس) أى الذى هو من البلس وهو ما لا خير عنده أو الابلاس وهو اليأس من كل خير ليكون ذلك أبلغ فى التبكيت والتوبيخ (ظنه) قرأه الكوفيون بتشديد الدال بعد الصاد أى ظن فيهم ظنا حيث قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك ولا تجد أكثرهم شاكرين فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم اياه والباقون بالتخفيف أى صدق عليهم فى ظنه بهم أى على أهل سبا كما قاله أكثر المفسرين حين رأى انهماكهم فى الشهوات أو الناس كلهم كما قاله مجاهد أى حين رأى أباهم آدم ضعيف العزم أو ما ركب فيهم من الشهوة والغضب أو سمع من الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها فقال لاضلنهم ولاغوينهم أو الكفار ومنهم سبا كما قاله الجلال المحلى (فاتبعوه) أى بغاية الجهد بميل الطبع وقوله (الا فريقا من المؤمنين) استثناء متصل على قول مجاهد ومنقطع على قول غيره وقال السدى عن ابن عباس رضى الله عنه يعنى المؤمنين كلهم لان المؤمنين لم يتبعوه فى أصل الدين وتقليلهم بالاضافة الى الكفار أو الا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه فى العصيان وهم المخلصون قال ابن قتيبة ان ابليس لعنه الله تعالى لما سأل النظرة فانظره الله تعالى وقال لاغوينهم ولاضلنهم لم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وانما قاله ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم * ولما كان ذلك ربما أوهم ان لابليس امرا بنفسه نفاه بقوله تعالى (وما) أى والحال أنه ما (كان) أصلا (له عليهم) أى الذين اتبعوه ولا غيرهم وأغرق فيما هو الحق من النفى بقوله تعالى (من سلطان) أى تسلط قاهر بشئ من الاشياء بوجه من الوجوه لانه مثلهم فى كونه عبدا عاجزا مقهورا ذليلا خائفا مدحورا قال القشيرى هو مسلط ولو أمكنه أن يضل غيره أمكنه أن يمسك على الهداية نفسه والمعنى ان الامر لله وحده (الا) أى لكن نحن سلطناه عليهم بسلطاننا وملكناه قيادهم بقهرنا وعبر عن التمييز الذى هو سبب العلم بالعلم فقال (لنعلم) أى علما من العظمة (من يؤمن) أى يوجد الايمان لله (بالآخرة) أى ليتعلق علمنا بذلك فى عالم الشهادة فى حال تمييزه تعلقا تقوم به الحجة فى مجارى عادات البشر كما كان متعلقا به فى عالم الغيب (ممن هو منها) أى الآخرة (فى شك) فهو لا يجدد لها ايمانا أصلا لان الشك ظرف له محيط به وانما استعار الا موضع لكن اشارة الى أنه مكنه تمكينا تاما صار به كأن له سلطان حقيقى * (تنبيه) * قال الرازى ان علم الله تعالى من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق

علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر فيها كل ما فى نفس الامر فعلم الله تعالى فى الازل أن العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم علمه معدوما كذلك المرآة المصقولة الصافية يظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو تظهر فيها صورته والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها وانما التغيير فى الخارجيات وكذا هنا قوله الا لنعلم أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان علم الله تعالى أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو وقال البغوى المعنى الا لنميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع والظهور وقد كان معلوما عنده بالغيب وقوله تعالى (وربك) أى المحسن اليك باخزاء الشيطان بنبوتك واجتنابه عن أمتك (على كل شئ) من المكلفين وغيرهم (حفيظ) أى حافظ أتم حفظ تحقيق ذلك ان الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز * ولما بين تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد الى خطابهم فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل) أى يا أعلم الخلق باقامة الادلة لهؤلاء الذين أشركوا من لا يشك فى حقارته من له أدنى مسكة (ادعوا الذين زعمتم) أى أنهم الهة كما تدعون الله تعالى لاسيما فى وقت الشدائد وحذف مفعولى زعم وهما ضميرهم وآلهة تبنيها على استهجان ذلك واستبشاعه وليس المذكور فى الآية مفعول زعم ولا قائما مقام المفعول لفساد المعنى وبين حقارتهم بقوله تعالى (من دون الله) أى الذى حاز جميع العظمة والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم ان صحت دعواكم ثم أجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال (لا يملكون مثقال ذرة) من خير أو شر (فى السموات ولا فى الارض) أى فى أمر ما وذكرهما للعموم العرفى أو لان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام أو لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم * ولما كان هذا ظاهرا فى نفى الملك الخاص عن ثبوت المشاركة نفى المشاركة أيضا بقوله تعالى مؤكدا تكذيبا لهم فيما يدعونه (وما لهم) أى الآلهة (فيهما) أى فى السموات والارض ولا فى غيرهما ولا فى فيما فيهما واغرق فى النفى بقوله تعالى (من شرك) أى شركة لا خلقا ولا ملكا (وما له) أى الله (منهم) وأكد النفى باثبات الجار فقال (من ظهير) أى معين على شئ مما يريده من تدبير أمرهما وغيرهما فكيف يصح مع هذا العجز أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى ويعبدوا كما يعبد * ولما كان قد بقى من اقسام النفع الشفاعة وكان المقصود منها أثرها لا عينها انتفاه بقوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده) أى فلا تنفعهم شفاعة كما يزعمون اذ لا تنفع الشفاعة عند الله (الا لمن أذن له) أى وقع منه اذن له على لسان من شاء من جنوده بواسطة واحدة أو أكثر فى أن يشفع فى غيره وفى أن يشفع فيه غيره وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بضم الهمزة والباقون بفتحها وقوله تعالى (حتى اذا فزع عن قلوبهم) غاية لمفهوم الكلام من أن ثم انتظارا للاذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن وأنه لا يطلق الاذن الا بعد ملى من الزمان

وطول من التربص ومثل هذه الحال دل عليها قوله عزمن قائل رب السموات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح والملائكة صفا الآية. كلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا كأنه قيل يتوقعون ويتربصون مليا فزعين ذاهلين حتى اذا فزع عن قلوبهم أى كشف الفزع عن قلوبهم أى كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة فى اطلاق الاذن (قالوا) أى قال بعضهم لبعض (ماذا قال ربكم) أى فى الشفاعة ذاكرين صفة الاحسان ليرجع اليهم رجاؤهم فتسكن بذلك قلوبهم (قالوا) قال القول (الحق) أى الثابت الذى لا يمكن ان يبدل بل يطابق الواقع فلا يكون شئ يخالفه وهو الاذن فى الشفاعة لمن ارتضى منهم وهم المؤمنون (وهو العلى الكبير) أى ذو العلو فلا رتبة الا دون رتبته والكبرياء فليس لملك ولا نبى أن يتكلم ذلك اليوم الا باذنه روى البخارى فى التفسير عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة و يلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى من السماء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله أن يوحى بالامر وتكلم بالوحى أخذت السماء رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله تعالى فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل عليه السلام على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل عليه السلام قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ما يقول جبريل عليه السلام فينتهى جبريل عليه السلام بالوحى حيث أمره الله تعالى وقال مقاتل والكلبى والسدى كانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة وخمسين سنة وقيل ستمائة سنة لم تسمع الملائكة فيها وحيا فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل عليه السلام بالرسالة الى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا أنها الساعة لان محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات من أشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤسهم و يقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقال الحسن وابن زيد حتى اذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت اقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة عليهم السلام ماذا قال ربكم فى الدعاء قالوا الحق فأقروا به حيث لم ينفعهم الاقرار * ولما سلب تعالى عن شركائهم

ان

أن يملكوا شيأ من الاكوان وأثبت جميع الملك له وحده وأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يقررهم بما يلزم منه ذلك بقوله تعالى (قل من يرزقكم من السموات) أى بالمطر (والارض) أى بالنبات وأفرد الارض لانهم لا يعلمون غيرها ثم أمره تعالى أن يتولى الاجابة بقوله تعالى (قل الله) أى ان لم يقولوا رازقنا الله تعالى فقل أنت ان رازقكم الله وذلك للاشعار بأنهم يقرون به بقلوبهم الا أنهم ربما أبوا ان يتكلموا به لان الذى تمكن من صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ولانهم ان تفوهوا بان الله تعالى رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ألا ترى الى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار حتى قال فسيقولون الله ثم قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال فكانهم كانوا يقرون بألسنتهم مرة ومرة يتلعثمون عنادا وفرارا وحذرا من الزام الحجة ونحوه قوله عز وجل قل من رب السموات والارض قل الله قل أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وأمر بان يقول لهم بعد الالزام والالجام الذى ان لم يزد على اقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه (وانا أو اياكم) أى أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والارض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة (لعلى هدى) أى فى متابعة ما ينبغى ان يعمل مستعلين عليه (أو فى ضلال) عن الحق (مبين) أى بين فى نفسه داع لكل أحد الى معرفة أنه ضلال وهذا ليس على طريق الشك لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك أنه على هدى ويقين وان الكفار على ضلال مبين وانما هذا الكلام جار على ما تخاطب به العرب من استعمال الانصاف فى محاوراتهم على سبيل الفرض والتقدير وتسميه أهل البيان الاستدراج وهو أن يذكر لمخاطبه أمرا يسلمه وان كان بخلاف ما يذكر حتى يصغى الى ما يلقيه اليه اذ لو بدأه بما يكره لم يصغ ونظيره قولهم أخزى الله الكاذب منى ومنك ومثله قول حسان رضى الله تعالى عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا سفيان

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

فان أبى ووالدتى وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء

مع العلم لكل أحد انه صلى الله عليه وسلم خير خلق الله كلهم *(تنبيه)* ذكر تعالى فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لان المهتدى كانه مرتفع مطلع فذكر بكلمة التعالى فكانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فأتى بكلمة فى فكانه منغمس فى ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه قال البغوى وقال بعضهم أو بمعنى الواو والالف فيه صلة كانه يقول وانا واياكم لعلى هدى وفى ضلال مبين يعنى نحن على الهدى وأنتم فى الضلال (قل) أى لهم (لا تسئلون) أى من سائل ما (عما أجرمنا) أى لا تؤاخذون به (ولا نسئل) أى فى وقت من الاوقات من سائل ما (عما تعملون) أى من الكفر والتكذيب وهذا ادخل فى الانصاف وأبلغ فى التواضع حيث أسندوا الاجرام الى أنفسهم والعمل الى المخاطبين (وقيل) المراد

بالاجرام الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصي العظام (قل) أي لهم (يجمع بيننا ربنا) أي يوم القيامة (ثم يفتح) أي يحكم (بيننا بالحق) أي الامر الثابت الذي لا يقدر أحد منا ولا منكم على التخلف عنه وهو العدل والفضل من غير ظلم ولا ميل فيدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) أي الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة البليغ الفتح لما انغلق فلا يقدر أحد على فتحه (العليم) أي البليغ العلم بكل دقيق وجليل فلا تخفى عليه خافية (قل) أي لهم (أروني) أي أعلموني (الذين ألحقتم به) أي بالله (شركاء) أي في العبادة هل يخلقون وهل يرزقون وقوله تعالى (كلا) أي لا يخلقون ولا يرزقون ردع لهم عن مذهبهم بعد ما كسره بابطال المقايسة كما قال ابراهيم عليه السلام اف لكم ولما تعبدون من دون الله بعد ما حجهم وقد نبه على تفاحش غلطهم بقوله تعالى (بل هو الله العزيز) أي الغالب على أمره الذي لا مثل له وكل شيء يحتاج اليه (الحكيم) أي المحكم لكل ما يفعله فلا يستطيع أحد نقض شيء منه فكيف يكون له شريك وأنتم ترون ما ترون له من هاتين الصفتين المنافيتين لذلك *(تنبيه)* في هذا الضمير وهو هو قولان أحدهما انه عائد الى الله تعالى أي ذلك الذي ألحقتم به شركاء هو الله والعزيز الحكيم صفتان والثاني انه ضمير الامر والشأن والله مبتدأ والعزيز الحكيم خبران والجملة خبر هو (فان قيل) ما معنى قوله أروني وكان يراهم ويعرفهم (أجيب) بأنه أراد بذلك أن يريهم الخطأ العظيم في الحاق الشركاء بالله تعالى وأن يقاس على أعينهم بينه وبين أصنامهم ليطلعهم على احالة القياس اليه والاشراك به * ولما بين تعالى مسئلة التوحيد شرع في الرسالة بقوله سبحانه وتعالى (وما أرسلناك) أي بعظمتنا (الا كافة للناس) أي ارسالا عاما شاملا لكل ما شمله ايجادنا فكافة حال من الناس قدم للاهتمام وقول البيضاوي ولا يجوز جعلها حالا من الناس أي لان تقديم حال المجرور عليه كتقديم المجرور على الجار رده أبو حيان بقوله هذا ما ذهب اليه الجمهور وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون الى جوازه وهو الصحيح انتهى وهذا هو الذي ينبغي اعتماده ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم كان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ومن أمثلة أبي علي زيد خير ما يكون خير منك والتقدير زيد خير منك خير ما يكون وأنشد

اذا المرء أعيته المطالب ناشئا * فطالبها كهلا عليه شديد

أي فطلبها عليه كهلا وأنشد أيضا

تسليت طرا عنكم بعد بينكم * بذكراكم حتى كأنكم عندي

أي عنكم طرا (وقيل) انه حال من كاف أرسلناك والمعنى الا جامعا للناس في الابلاغ والكافة بمعنى الجامع والهاء فيه للمبالغة كهي في علامة وراوية قاله الزجاج وقيل ان كافة صفة لمصدر محذوف تقديره الا ارسالة كافة قال الزمخشري الا ارسالة عامة لهم محيطة بهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم قال أبو حيان أما كافة بمعنى عامة فالمنقول عن النحويين أنها لا تكون الا حالا ولم يتصرف فيها بغير ذلك فجعلها صفة لمصدر

محذوف

محذوف خروج عما نقلوا ولا يحفظ أيضا استعمالها صفة لموصوف محذوف قال البقاعي وأما الجن فالهم مشهور أى أنه أرسل اليهم واما الملائكة فالدلائل على الارسال اليهم في غاية الظهور انتهى وهذا هو اللائق بعموم رسالته وان خالف في ذلك الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع وفي عموم رسالته صلى الله عليه وسلم فضيلة على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فلئن كان داود عليه السلام فضل بطاعة الجبال له والطير والانة الحديد وسليمان عليه السلام بما ذكر له فقد فضل محمد صلى الله عليه وسلم نبينا بارساله الى الناس كافة والحصا سبح في كفه والجبال أمرت بالسير معه ذهبا وفضة والحمرة شكت اليه أخذ فراخها أو بيضها والضب شهد له بالرسالة والجمل شكا اليه وسجد له والاشجار أطاعته والاحجار سلمت عليه واتمرت بأمره وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر وانما ذكرت ذلك تبركا بذكره صلى الله عليه وسلم وأنا أسأل الله تعالى ان يشفع في وفي والدي وجميع أحبابي وبقية المسلمين أجمعين * ولما كانت البشارة هي الخبر الاول الصدق السار وكان في ذكرها رد لقولهم في الكذب والجنون قال تعالى (بشيرا) أى مبشرا للمؤمنين بالجنة (ونذيرا) أى منذرا للكافرين بالعذاب (ولكن أكثر الناس) أى كفار مكة (لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك * ولما سلب عنهم العلم اتبعه دليله كقوله تعالى معبرا بصيغة المضارع الدال على ملازمة التكرير للاعلام بأنه على سبيل الاستهزاء لا الاسترشاد (ويقولون) من فرط جهلهم بعاقبة ما يوعدونه (متى هذا الوعد) أى البشارة والنذارة في يوم الجمع وغيره فسموه وعدا زيادة في الاستهزاء * ولما كان قول الجماعة أجدر بالقبول وأبعد عن الرد من قول الواحد اشار الى زيادة جهلهم بقوله تعالى (ان كنتم) أى أيها النبي واتباعه (صادقين) أى متمكنين في الصدق (قل لكم) أى أيها الجاحدون الاجلاف الذين لا يجوزون الممكنات ولا يتدبرون ما أوضحها من الدلالات (ميعاد يوم) أى لا يحتمل القول وصف عظمه لما يأتي فيه لكم من العقاب سواء كان يوم الموت كما قاله الضحاك أو البعث كما قاله أكثر المفسرين (لا تستأخرون) أى لا يوجب تأخركم (عنه ساعة) لان الآتي به عظيم القدرة محيط العلم ولذلك قال (ولا تستقدمون) أى لا يوجد تقدمكم لحظة فلا دونها ولا تتمكنون من طلب ذلك (فان قيل) كيف انطبق هذا جوابا عن سؤالهم (أجيب) بانهم ماسألوا عن ذلك وهم منكرون له الا تعنتا لا استرشادا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال على سبيل الانكار والتعنت وأنهم مرصدون بيوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدما عليه (وقال الذين كفروا) مؤكدين قطعا للاطماع عن دعائهم (لن نؤمن) أى نصدق أبدا وصرحوا بالمنزل عليه صلى الله عليه وسلم بالاشارة فقالوا (بهذا القرآن) أى وان جمع جميع الحكم والمقاصد المتضمنة لبقية الكتب (ولا بالذي بين يديه) أى قبله من الكتب التوراة والانجيل وغيرهما بل نحن قانعون بما وجدنا عليه آباءنا وذلك لما روى أن كفار مكة سألوا بعض أهل الكتاب فأخبروهم ان صفة هذا النبي عندهم في كتبهم فأغضبهم ذلك وقرنوا الى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله في الكفر بها فكفروا بها

جميعا وقيل الذى بين يديه يوم القيامة والمعنى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وأن يكون ما دل عليه من الاعادة للجزاء حقيقة * ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآ لهم فى الآخرة فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أو للمخاطب (ولو) أى والحال انك لو (ترى) أى يوجد منك رؤية لحالهم (اذ الظالمون) أى الذين يضعون الاشياء فى غير محالها فيصدقون آباءهم لاحسان يسير مكدر من غير دليل ولا يصدقون ربهم الذى لا نعمة عندهم ولا عند آبائهم الا منه (موقوفون) أى بعد البعث بايدى جنوده أو غيرها بأيسر أمر منه (عند ربهم) أى فى موضع المحاسبة (يرجع بعضهم) أى على وجه الخصام عداوة كان سببها موادة فى الدنيا بطاعة بعضهم لبعض فى معاصى الله تعالى (الى بعض القول) أى بالملامة والمباكتة والمخاصمة *(تنبيه)* مفعول ترى وجواب لو محذوفان للفهم أى لو ترى حال الظالمين وقت وقوفهم راجعا بعضهم الى بعض القول لرأيت حالا فظيعة وأمرا منكرا ويرجع حال من ضمير موقوفون والقول مفعول يرجع لانه يتعدى قال تعالى فان رجعك الله وقوله تعالى (يقول الذين استضعفوا) أى وقع استضعافهم عن هو فوقهم فى الدنيا وهم الاتباع فى تلك الحال على سبيل اللوم (للذين استكبروا) أى أوجدوا الكبر وطلبوه بما وجدوا من أسبابه التى أدت الى استضعافهم للاولين وهم الرؤس المتبوعون (لولا أنتم) أى لولا اضلالكم وصدكم ايانا عن الايمان (لكنا مؤمنين) أى باتباع الرسول تفسير لقوله تعالى يرجع فلا محل له قال ابن عادل وأنتم بعد لولا مبتدأ على أصح المذاهب وهذا هو الافصح أعنى وقوع ضمائر الرفع بعد لولا أى وغيره فصيح خلافا للمبرد حيث جعل خلاف هذا لحنا وأنه لم يرد الا فى قول زياد وكم موطن لولاى والاقيس جعل الياء ضمير نصب أو جر قام مقام ضمير الرفع وسيبويه جعله ضمير جر * ولما لم يتضمن كلامهم سوى قضية واحدة ذكر الجواب عنها بقوله تعالى (قال الذين استكبروا) على طريق الاستئناف (للذين استضعفوا) ردا عليهم وانكارا لقولهم انهم هم الذين صدوهم (أنحن) خاصة (صددناكم) أى منعناكم (عن الهدى بعد اذ جاءكم) أى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام لم نفعل ذلك لان المانع ينبغى أن يكون أرجح من المقتضى حتى يعمل عمله والذى جاء به الرسل هو الهدى والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيأ يوجب الامتناع من قبول ما جاؤا به فلم يصح تعلقكم بالمانع وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم والباقون بالادغام وأمال الالف بعد الجيم حمزة وابن ذكوان وفتحها الباقون وكذا الاظهار والادغام فى اذ تأمروننا واذا وقف حمزة على جاءكم سهل الهمزة مع المد والقصر وله أيضا ابدالها الفا مع المد والقصر (بل كنتم) أى جبلة وخلقا (مجرمين) أى كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا (فان قيل) اذ واذا من الظروف الملازمة للظرفية فلم وقعت اذ مضافا اليها (أجيب) بأنه قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره فأضيف اليها الزمان كما أضيف الى الجمل فى قولك جئتك بعد اذ جاء زيد وحينئذ ويومئذ * ولما أنكر المستكبرون بقولهم أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين واثبتوا بقولهم بل كنتم مجرمين أن

ذلك

ذلك بكسبهم واختيارهم كر عليهم المستضعفون كما قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) ردا لانكارهم صدهم (بل) أى الصادّ لنا (مكر الليل والنهار) أى الواقع فيهما من مكركم فأبطلوا اضرابهم باضرابهم كأنهم قالوا ما كان الاجرام من جهتنا بل من جهة مكركم بنا ليلا ونهارا (اذ تأمروننا أن نكفر بالله) أى الملك الاعظم بالاستمرار على ما كنا عليه قبل اتيان الرسل (ونجعل له أندادا) أى شركاء نعبدهم من دونه (فان قيل) لم قيل قال الذين استكبروا بغير عاطف وقيل وقال الذين استضعفوا (أجيب) بأن الذين استضعفوا مرّ أولا كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الاول *(تنبيه)* يجوز رفع مكر من ثلاثة أوجه أحدها الفاعلية تقديره بل صدنا مكركم في هذين الوقتين كما مرّ الثانى أن يكون مبتدأ خبره محذوف أى مكر الليل صدّنا الثالث العكس أى سبب كفرنا مكركم واضافة المكر الى الليل والنهار اما على الاسناد المجازى كقولهم ليل ماكر والعرب تضيف الفعل الى الليل والنهار على توسع الكلام كقول الشاعر * ونمت وما ليل المطى بنائم * فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه واما على الاتساع فى الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مصدرا مضافا لمفعوله قال ابن عادل وهذا أحسن من قول من قال ان الاضافة بمعنى فى أى مكر فى الليل لان ذلك لم يثبت فى محل النزاع وقيل مكر الليل والنهار طول السلامة وطول الامل فيهما كقوله تعالى فطال عليهم الامد فقست قلوبهم *(تنبيه)* قوله تعالى أولا يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله تعالى فى الآيتين الاخيرتين وقال الذين استكبروا وقال الذين استضعفوا بلفظ الماضى مع أن السؤال والمراجعة فى القول لم يقع أشار به الى أن ذلك لابد من وقوعه فان الامر الواجب الوقوع كأنه وقع كقوله تعالى انك ميت وانهم ميتون وأما الاستقبال فعلى الاصل (وأسروا) اى الفريقان (الندامة) من المستكبرين والمستضعفين وهم الظالمون فى قوله تعالى اذ الظالمون موقوفون يندم المستكبرون على ضلالهم واضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين (لما) أى حين (رأوا العذاب) أى حين رؤية العذاب أخفاها كل عن رفيقه مخافة التعيير وقيل معنى الاسرار الاظهار وهو من الاضداد أى أظهروا الندامة قال ابن عادل ويحتمل أن يقال انهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله تعالى بقولهم أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وأجيبوا بأن لا مرد لكم فأسرّوا ذلك القول وقوله تعالى (وجعلنا الاغلال) أى الجوامع التى تغل اليد الى العنق (فى أعناق الذين كفروا) يعم الاتباع والمتبوعين جميعا وكان الاصل فى أعناقهم ولكن جاء بالظاهر تنويها بذمهم وللدلالة على ما استحقوا به الاغلال وهذا اشارة الى كيفية عذابهم (هل يجزون) أى بهذه الاغلال (الا ما) أى الاجزاء ما (كانوا يعملون) أى على سبيل التجديد والاستمرار * ولما كان فى هذا التسلية أخروية للنبى صلى الله عليه وسلم اتبعها التسلية الدنيوية بقوله تعالى (وما أرسلنا) أى بعظمتنا (فى قرية) وأكد النفى بقوله تعالى (من نذير الا قال مترفوها) رؤساؤها

الذين لا شغل لهم الا التنعم بالفانى حتى أكسبهم البغى والطغيان ولذلك قالوا لرسلهم (انا بما أرسلتم به) أى أيها المنذرون (كافرون) أى واذا قال المنعمون ذلك تبعهم المستضعفون (وقالوا) أى المترفون أيضا متفاخرين (نحن أكثر أموالا وأولادا) أى فى هذه الدنيا ولو لم يرض منا ما نحن عليه ما رزقنا ذلك فاعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا (وما نحن بمعذبين) أى ان الله تعالى قد أحسن الينا فى الدنيا بالمال والولد فلا يعذبنا فى الآخرة ثم ان الله سبحانه وتعالى بين خطأهم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهم (ان ربى) أى المحسن الى بالانعام بالسعادة الباقية (يبسط الرزق) أى يوسعه فى كل وقت أراده بالاموال والاولاد وغيرها (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أى يضيقه على من يشاء ابتلاء بدليل مقابلته بيبسط وهذا هو الطباق البديعى فالرزق فى الدنيا لا تدل سعته على رضا الله تعالى ولا ضيقه على سخطه فربما اوسع على العاصى وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما وضيق عليهما وكم من موسر شقى وكم من معسر تقى (ولكن أكثر الناس) أى كفار مكة (لا يعلمون) أى ليس لهم علم فيتدبروا به ما ذكرنا من الامر فيعلمون أنه ليس كل موسع عليه فى دنياه سعيدا فى عقباه ولا كل مضيق عليه فى دنياه شقيا * ثم بين تعالى فساد استدلالهم بقوله سبحانه وتعالى (وما أموالكم) أى أيها الخلق الذى أنتم من جملتهم وان كثرت وكرر النافى تصريحا بابطال كل على حياله فقال (ولا أولادكم) كذلك (بالتى) أى بالاموال والاولاد التى (تقربكم عندنا) أى على ما لنا من العظمة (زلفى) أى درجة علية وقربة مكينة * (تنبيه) * قوله تعالى بالتى تقربكم صفة للاموال والاولاد كما تقرر لان جمع التكسير غير العاقل يعامل معاملة المؤنثة الواحدة وقال الفراء والزجاج انه حذف من الاول لدلالة الثانى عليه قالا والتقدير وما أموالكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتى تقربكم ولا حاجة الى هذا ونقل عن الفراء ما تقدم من أن التى صفة للاموال والاولاد معا وهو الصحيح وجعل الزمخشرى التى صفة لموصوف محذوف قال ويجوز أن تكون التى هى التقوى وهى المقربة عند الله تعالى زلفى وحدها أى ليست أموالكم ولا أولادكم بتلك الموصوفة عند الله بالتقريب قال أبو حيان ولا حاجة الى هذا الموصوف انتهى وزلفى مصدر من معنى الاول اذ التقدير تقربكم قربى وقال الاخفش زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتى تقربكم عندنا تقريبا وأمالها حمزة والكسائى محضة وأبو عمرو وبين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح * وقوله تعالى (الا من آمن وعمل صالحا) أى تصديقا لايمانه على ذلك الاساس استثناء من مفعول تقربكم أى الاموال والاولاد لا تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذى ينفق ماله فى سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى الا أموال وأولاد من آمن وعمل صالحا (فأولئك) أى العالو الرتبة (لهم جزاء الضعف) أى أن يأخذوا جزاءهم مضاعفا فى نفسه من عشرة أمثاله الى ما لا نهاية له (بما عملوا) فان أعمالهم ثابتة محفوظة

بأساس الايمان ثم زاد وقال تعالى (وهم فى الغرفات) أى العلالى المبنية فوق البيوت فى الجنات زيادة على ذلك (آمنون) أى ثابت أمانهم دائما لاخوف عليهم من شئ من الاشياء أصلا وأما غيرهم وهم المرادون بما بعده فأموالهم وأولادهم وبال عليهم وقرأ حمزة بسكون الراء ولا ألف بعد الفاء على التوحيد على ارادة الجنس ولعدم اللبس لانه معلوم أن لكل أحد غرفة تخصه وقد أجمع على التوحيد فى قوله تعالى يجزون الغرفة ولان لفظ الواحد أخف فوضع موضع الجمع مع أمن اللبس والباقون بضم الراء وألف بعد الفاء على الجمع جمع سلامة وقد أجمع على الجمع فى قوله تعالى لنبوأنهم من الجنة غرفا * ثم بين حال المسئ وهو من يبعده ماله وولده من الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى (والذين يسعون) أى يجددون السعى من غير توبة بأموالهم وأولادهم (فى) ابطال (آياتنا) أى حججنا على مالها من عظمة الانتساب الينا (معجزين) أى طالبين تعجيزها أى تعجيز الآتين بها عن انفاذ مرادهم بها بما يلقون من الشبه فيضلون غيرهم بما أوسعنا عليهم وأعززناهم به من الاموال والاولاد (أولئك) أى هؤلاء البعداء البغضاء (فى العذاب) أى المزيل للعذوبة (محضرون) أى يحضرهم فيه الموكلون بهم من جندنا على أهون وجه وأسهله (قل) أى يا أشرف الخلق لجميع الخلق ومنهم هؤلاء (ان ربى) أى المحسن الى بهذا البيان وغيره (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) متى شاء (من عباده) امتحانا (ويقدر) أى يضيقه (له) بعد البسط ابتلاء قال البيضاوى فهذا فى شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق فى شخصين فلا تكرار * ولما بين بهذا البسط أن فعله بالاختيار بعد أن بين بالاول كذبهم فى أنه سبب السلامة من النار دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله تعالى (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه) أى فهو يعوضه لا معوض سواه اما عاجلا بالمال أو بالقناعة التى هى كنز لا ينفد واما آجلا بالثواب الذى كل خلف دونه وعن سعيد بن جبير ما كان فى غير اسراف ولا تقتير فهو يخلفه وعن الكلبى ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم فى خير من نفقة فهو يخلفه على المنفق اما أن يعجل له فى الدنيا واما أن يدخره له فى الآخرة وعن مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فان الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما فى يده ثم يبقى طول عمره فى فقر ولا يتأول وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه فان هذا فى الآخرة ومعنى الآية وما كان من خلف فهو منه فدل ذلك على انه مختص بالاخلاف لانه ضمن الاخلاف لكل ما ينفق على أى وجه كان وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك ولمسلم يا ابن آدم انفق أنفق عليك وعن أبى هريرة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا وعنه أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مانقصت أحد صدقة من مال وما زاد الله رجلا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله عز وجل وعن عبد الحميد بن الحسن الهلالى قال أنبأنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة

وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى الرجل به عرضه كتب له بها صدقة
قلت ما معنى وقى به عرضه قال ما أعطى الشاعر وذا اللسان المتقى وما أنفق المؤمن من نفقة
فعلى الله خلفها ضامنا الا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية الله عز وجل قوله قلت ما معنى
مقول عبد الحميد لمحمد بن المنكدر (وهو خير الرازقين) فان قيل قوله تعالى خير الرازقين ينبئ عن
كثرة الرازقين ولا رازق الا الله تعالى (أجيب) بأن الله تعالى هو خير الرازقين الذين يغذونهم
هذا الغذاء ممن يقيضهم الله تعالى فيضيفون الرزق اليهم لأن كل من يرزق غيره من سلطان
يرزق جنده أو سيد يرزق عبده أو رجل يرزق عياله فهو واسطة لا يقدر الا على ما قدره الله وأما
هو سبحانه فهو يوجد المعدوم ويرزق من يطيعه ومن يعصيه ولا يضيق رزقه بأحد ولا يشغله
فيه أحد عن أحد وعن بعضهم الحمد لله الذى أوجدنى وجعلنى ممن يشتهى فيجد فكم من مشته
لا يجد وواجد لا يشتهى وقرأ أبو عمرو وقالون والكسائى فهو يخلفه بسكون الهاء والباقون
بالضم * ولما بين تعالى ان حال النبى صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه
كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم بين ما يكون عاقبة
حالهم بقوله تعالى (ويوم نحشرهم) اى نجمعهم جمعا بكره بعد البعث وعم التابع والمتبوع
بقوله تعالى (جميعا) فلم نغادر منهم أحدا وقرأ حفص يحشرهم ثم يقول بالياء والباقون
بالنون * ولما كانت مواقف الحشر طويلة وزلازله مهولة قال تعالى (ثم نقول للملائكة)
أى توبيخا للكافرين واقناطا مما يرجون منهم من الشفاعة (أهؤلاء) أى الضالون وأشار
الى أنه لا ينفع من العبادة الا ما كان خالصا بقوله تعالى (اياكم) أى خاصة (كانوا يعبدون)
فهذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر
* اياك أعنى واسمعى يا جاره * ونحوه قوله عز وجل أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون
الله وقد علم سبحانه كون الملائكة وعيسى منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال الوارد على
طريق التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ويسأل ويجيبوا فيكون تقريعهم أشد وتعييرهم
أبلغ وخجلهم أعظم ولذلك (قالوا) أى الملائكة متبرئين منهم مفتتحين بالتنزيه تخضعا بين يدى
البراءة خوفا (سبحانك) أى ننزهك تنزيها يليق بجلالك عن أن يستحق أحد غيرك أن يعبد (أنت
ولينا) أى معبودنا الذى لا وصلة بيننا وبين أحد الا بأمره (من دونهم) أى ليس بيننا وبينهم
ولاية بل عداوة وكذا كل من تقرب الى شخص بمعصية الله تعالى فانه يقسى الله تعالى قلبه عليه
ويبغضه فيه فيجانبه ويعاديه * ثم أضربوا عن ذلك ونفوا انهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم (بل
كانوا يعبدون الجن) أى ابليس وذريته الذين زينوا لهم عبادتنا من غير رضا منا بذلك وكانوا
يدخلون في أجواف الاصنام ويخاطبونهم ويستجيرون بهم في الاماكن المخوفة ومن هذا تعس
عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وقيل صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا
هذه صور الجن فاعبدوها ثم استأنفوا قولهم (أكثرهم) أى الانس (بهم) أى الجن
(مؤمنون) أى واضعون في الاشراك لا يقصدون بعبادتهم غيرهم وقيل الضمير الاول

للمشركين والأكثر بمعنى الكل وقيل منهم من يقصد بعبادته بتزيين الجن غيرهم وهم مع ذلك يصدقون ما يرد عليهم من أخبارات الجن على ألسنة الكهان وغيرهم مع ما يرون فيها من الكذب في كثير من الأوقات * ولما بطلت تمسكاتهم وانقطعت تعلقاتهم تسبب عن ذلك تقريعهم الناشئ عن تنديمهم بقوله تعالى بلسان العظمة (فاليوم) أي يوم مخاطبتهم بهذا التبكيت وهو يوم الحشر (لا يملك) أي شيأ من الملك (بعضكم لبعض) أي من المقربين والمبعدين (نفعا ولا ضرا) بل تنقطع الأسباب التي كانت في دار التكليف من دار الجزاء التي المقصود فيها تمام اظهار العظمة لله وحده على أتم الوجوه (فان قيل) قوله تعالى نفعا مفيد للحسرة فما فائدة ذكر الضر مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك (أجيب) بأن العبادة لما كانت تقع لدفع ضرر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انه ليس فيهم ذلك الوجه الذي تحسن لأجله عبادتهم وقوله تعالى (ونقول) أي في ذلك الحال من غير امهال (للذين ظلموا) أي بوضع العبادة في غير موضعها عند ادخالهم النار (ذوقوا عذاب النار التي كنتم) أي جبلة وطبعا (بها تكذبون) عطف على لا يملك فبين المقصود من تمهيده (فان قيل) قوله ههنا التي كنتم بها صفة للنار وفي السجدة وصف العذاب فجعل المكذب هنا النار وجعل المكذب في السجدة العذاب وهم كانوا يكذبون بالكل فما فائدته (أجيب) بأنهم كانوا متلبسين بالعذاب مترددين فيه بدليل قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون فوصف لهم ما لابسوه وهنا لم يلابسوه بعد لانه عقب حشرهم وسؤالهم فهو أول ما رأوا النار فقيل لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون (واذا تتلى عليهم) أي في وقت من الأوقات من أي تال كان (آياتنا) أي من القرآن حال كونها (بينات) أي واضحات بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا ما هذا) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (الا رجل) أي مع كونه واحدا هو مثل واحد من رجالكم وتزيدون أنتم عليه بالكثرة (يريد أن يصدكم) بهذا الذي يتلوه (عما كان يعبد آباؤكم) من الاصنام أي لا قصد له الا ذلك لتكونوا له أتباعا فعارضوا البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا) أي القرآن وقيل القول بالوحدانية (الا افك) أي كذب مصروف عن وجهه (مفترى) باضافته الى الله تعالى كقوله تعالى في حقهم أافكا آلهة دون الله تريدون وكقولهم للرسول أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وقال الذين كفروا) أي ستروا ما دلت عليه العقول من جهة القرآن (للحق) أي الهدى الذي لا أثبت منه باعتبار كمال الحقيقة فيه (لما جاءهم) من غير نظر ولا تأمل (ان) أي ما (هذا) أي الثابت الذي لا شئ أثبت منه (الا سحر) اي خيال لا حقيقة له (مبين) أي ظاهر قال ابن عادل وهذا انكار للتوحيد وكان مختصا بالمشركين وأما انكار القرآن والمعجزة فكان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى وقال الذين كفروا على العموم انتهى ولم يحملهم على ذلك الا الحظوظ النفسانية والعلائق الشهوانية قال الطفيل بن عمرو الدوسي ذو النور لقد أكثروا علي في أمره صلى الله عليه وسلم حتى حشوت في أذني ماء الكرفس خوفا من أن يخلص الى

شئ من كلامهم فينثنى ثم أراد الله تعالى لى الخير فقلت واثكل أمى انى والله للبيب عاقل شاعر ولى معرفة بغث الكلام من سمينه فمالى لا أسمع منه فان كان حقا تبعته وان كان باطلا كنت منه على بصيرة أو كما قال قال فقصدت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت اعرض على ما جئت به فلما عرضه على قلت بأبى وأمى ما سمعت قولا قط هو أحسن منه ولا أمرا أعدل منه فما توقفت فى أن أسلمت ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يدعو له الله تعالى أن يعطيه آية يعينه بها على قومه فلما أشرف على حاضر قومه كان له نور فى جبهته فخشى أن يظنوا انها مثلة فدعا الله تعالى بتحويله فتحول فى طرف سوطه فأعانه الله تعالى على قومه فأسلموا *(تنبيه)* فى تكرير الفعل وهو قال والتصريح بذكر الكفرة وما فى لامى الذين والحق من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المفاجاة الى البت بهذا القول انكار عظيم للقول وتعجيب بليغ منه * ولما بارزوا بهذا القول من غير أثارة من علم ولا خبر من سمع بين ذلك بقوله تعالى (وما) أى قالوا ذلك والحال أنا ما (آتيناهم) أى هؤلاء العرب (من كتب) أصلا لانهم لم ينزل عليهم قط قبل القرآن كتاب وأتى بصيغة الجمع مع تأكيدا النفى قبل كتابك الجامع (يدرسونها) أى يجددون دراستها كل حين فيها دليل على صحة الاشراك (وما أرسلنا) أى ارسالا لا شبهة فيه لمناسبته لما لنا من العظمة (اليهم) أى خاصة يعنى أن ذلك الرسول مأمور بهم بأعيانهم فهم مقصودون بالذات لا أنهم داخلون فى عموم أو مقصودون من باب الامر بالمعروف فى جميع الزمان الذى (قبلك) أى قبل رسالتك الجامعة لكل رسالة (من نذير) أى ليكون عندهم قول منه يدعوهم الى الاشراك أو ينذرهم على تركه وهذا فى غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) أى من قوم نوح ومن بعدهم بادروا الى ما بادر اليه هؤلاء من التكذيب لان التكذيب كان فى طباعهم لما عندهم من الجلافة والكبر (وما بلغوا) أى هؤلاء (معشار ما آتيناهم) أى عشرا صغيرا مما آتينا أولئك من القوة فى الابدان والاموال والمكنة فى كل شئ من العقول وطول الاعمار والخلو من الشواغل (فكذبوا) أى بسبب ما طبعوا عليه من العناد (رسلى) اليهم (فكيف كان نكير) أى انكارى على المكذبين لرسلى بالعقوبة والاهلاك أى هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء من مثله ولا تكرير فى كذب لان الاول للتكثير أى فعلوا التكذيب كثيرا فكان سببا لتكذيب الرسل والثانى للتكذيب أو الاول مطلق والثانى مقيد ولذلك عطف عليه (قل انما أعظكم) أى أرشدكم وأنصح لكم (بواحدة) أى بخصلة واحدة هى (أن تقوموا) أى توجهوا نفوسكم الى تعرف الحق وعبر بالقيام اشارة الى الاجتهاد (لله) أى الذى لا أعظم منه على وجه الاخلاص واستحضار ما له من العظمة بما له لديكم من الاحسان لا لارادة المغالبة حال كونكم (مثنى) أى اثنين اثنين قال البقاعى وقدمه اشارة الى أن أغلب الناس ناقص العقل (وفرادى) أى واحدا واحدا من وثق بنفسه فى رصانة عقله واصابة رأيه قام وحده ليكون أصفى لسره وأعون على خلوص فكره ومن خاف عليها ضم اليه آخر ليذكره اذا نسى ويقومه اذا زاغ ولم يذكر غيرهما من الاقسام لان الازدحام

يشوش الخواطر ويخلط القول * ولما كان ماطلب منهم هذا الأجل عظيما جديرا بأن يهتم له هذا الاهتمام أشار اليه بأداة التراخي بقوله تعالى (ثم تتفكروا) أي في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به لتعلموا حقيته (مابصاحبكم) أي رسولكم الذي أرسل اليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) أي جنون يحمله على ذلك (ان) أي ما (هو) أي المحدث عنه بعينه (الانذير) أي خالص انذاره (لكم بين يدي) أي قبل حلول (عذاب شديد) أي في الآخرة ان عصيتموه روى البخاري عن ابن عباس انه قال صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال ياصباحاه فاجتمعت اليه قريش فقالوا مالك فقال أرأيتم لوأخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم اما كنتم تصدقوني قالوا بلى قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبولهب تبالك ألهذا جمعتنا فأنزل الله تعالى تبت يدا أبي لهب وتب * ولما انتفى عنه بهذا ماتخيلوا به بقي امكان أن يكون لغرض أمر دنيوي فنفاه بقوله تعالى (قل) أي لهم يا أشرف الخلق (ما) أي مهما (سألتكم من أجر) أي على دعائي لكم من الانذار والتبليغ (فهو لكم) أي لاأريد منه شيأ وهو كناية عن اني لاأسألكم على دعائي لكم الى الله تعالى أجرا أصلا بوجه من الوجوه فاذا ثبت أن الدعاء ليس لغرض دنيوي وان الداعي أرجح الناس عقلا ثبت أن الذي حمله على تعريض نفسه لتلك الاخطار العظيمة انما هو أمر الله تعالى الذي له الأمر كله (ان) أي ما (أجري) أي ثوابي (الا على الله) أي الذي لاأعظم منه فلا ينبغي لذي همة أن يطلب شيأ الامن عنده (وهو) أي والحال انه (على كل شئ شهيد) أي حفيظ مهيمن بليغ العلم بأحوالي فيعلم صدقي وخلوص نيتي وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص أجري في الوصل بفتح الياء والباقون بالسكون (قل) أي لمن أنكر التوحيد والرسالة والحشر (ان ربي) أي المحسن الي بأنواع الاحسان (يقذف بالحق) أي يلقيه الى أنبيائه أو يرمي به الباطل الى أقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام وافشائه (علام الغيوب) أي ماغاب عن خلقه في السموات والارض *(تنبيه)* في رفع علام أوجه أظهرها انه خبر ثان لان أو خبر مبتدا مضمر أو بدل من الضمير في يقذف وقال الزمخشري رفع محمول على محل ان واسمها أو على المستكن في يقذف يعني بقوله محمول على محل ان واسمها النعت الاأن ذلك ليس مذهب البصريين لانهم لم يعتبروا المحل الا في العطف بالحرف بشروط عند بعضهم ويريد بالحمل على الضمير في يقذف أنه بدل منه لاأنه نعت له لان ذلك انفرد به الكسائي وقرأ حمزة وشعبة بكسر الغين والباقون بالضم (قل) لهؤلاء (جاء الحق) أي الاسلام وقيل القرآن وقيل كل ماظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وقيل المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد من جاء الحق أي ظهر الحق لان كل ماجاء فقد ظهر وأكد تكذيبا لهم في ظنهم انهم يغلبون بقوله تعالى (وما) أي والحال أنه ما (يبدئ الباطل) أي الذي أنتم عليه من الكفر (ومايعيد) أي ذهب فلم تبق منه بقية مأخوذ من هلاك الحي فانه اذا هلك لم يبق له ابداء ولا اعادة فجعلوا قولهم لايبدئ ولايعيد مثلا في الهلاك ومنه قول عبيد

أقفر من أهله عبيد * أصبح لا يبدى ولا يعيد

والمعنى جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى جاء الحق وزهق الباطل وعن ابن مسعود دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وقيل الباطل ابليس أى ما ينشئ خلقا ولا يعيده والمنشئ والباعث هو الله تعالى وعن الحسن لا يبدئ لاهله خيرا ولا يعيده أى لا ينفعهم فى الدنيا والآخرة وقال الزجاج أى شئ ينشئه ابليس ويعيده فجعله للاستفهام وقيل للشيطان الباطل لانه صاحب الباطل ولانه هالك كما قيل له الشيطان من شاط اذا هلك وحينئذ يكون غير منصرف وان جعلته من شطن كان منصرفا * ولما لم يبق بعد هذا الا أن يقولوا عنادا أنت ضال لبس بك جنون ولا كذب ولكنك قد عرض لك ما أضلك عن المحجة قال تعالى (قل) أى لهؤلاء المعاندين على سبيل الاستعطاف بما فى قولك من الانصاف وتعليم الأدب (ان ضللت) أى عن الطريق على سبيل الفرض (فانما أضل على نفسى) أى اثم اضلالى عليها (وان اهتديت فبما) أى فاهتدائى انما هو بما (يوحى الى ربى) أى المحسن الى من القرآن والحكمة لا بغيره فلا يكون فيه ضلال لانه لا حظ للنفس فيه أصلا (فان قيل) أين التقابل بين قوله تعالى فانما أضل على نفسى وقوله تعالى فبما يوحى الى ربى وانما كان يقال فانما أضل على نفسى وان اهتديت فانما اهتدى لها كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقوله تعالى فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها أو يقال فانما أضل بنفسى (أجيب) بأنهما متقابلان من جهة المعنى لان النفس كل ما عليها فهو بسببها لانها الامارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربه وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به وفتح الياء من ربى عند الوصل نافع وأبو عمرو والباقون بالسكون وهم على مراتبهم فى المد ثم علل الضلال والهداية بقوله تعالى (انه) أى ربى (سميع) أى لكل ما يقال (قريب) أى يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وان أخفاه * ولما أبطل تعالى شبههم وختم من صفاته بما يقتضى البطش بمن خالفه عطف على ولو ترى اذ الظالمون (ولو ترى) أى تبصر يا أشرف الخلق (اذ فزعوا) أى عند الموت أو البعث أو يوم بدر وجواب لو محذوف نحو لرأيت أمرا عظيما (فلا) أى فتسبب عن ذلك الفزع أنه لا (فوت) أى لهم منا لانهم فى قبضتنا ثم حقر أمرهم بالبناء للمفعول بقوله تعالى (وأخذوا) أى عند الفزع من كل من نأمره بأخذهم سواء أكان قبل الموت أم بعده (من مكان قريب) أى القبور أو من الموقف الى النار أو من صحراء بدر الى القليب وقال الكلبى من تحت أقدامهم * وقيل أخذوا من ظهر الارض الى بطنها وحيثما كانوا فهم من الله تعالى قريب لا يفوتونه والعطف على فزعوا أو لا فوت (وقالوا) أى عند الاخذ ومعاينة الثواب والعقاب (آمنا به) أى القرآن الذى قالوا انه افك

مفترى أو محمد صلى الله عليه وسلم الذى قالوا انه ساحر (وانى) أى وكيف ومن أين (لهم التناوش) أى تناول الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) أى عن محله اذهم فى الآخرة ومحله فى الدنيا ولا يمكن الا برجوعهم الى الدنيا التى هى دار العمل وهذا تمثيل لحالهم فى طلبهم أن ينفعهم ايمانهم فى ذلك الوقت كما ينفع المؤمنين ايمانهم فى الدنيا بحال من أراد أن يتناول شيأ من علوه كما يتناوله الآخر من قدر ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه (فان قيل) كيف قال تعالى من مكان بعيد وقد قال تعالى فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريب وسمى الله تعالى الساعة قريبة فقال اقتربت الساعة اقترب للناس حسابهم لعل الساعة قريب (أجيب) بأن الماضى كالامس الدابر وهو من أبعد ما يكون اذ لا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنون فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة منه لمضيها ويوم القيامة فى الدنيا قريب لاتيانه وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائى بعد الالف بهمزة مضمومة والباقون بعد الالف بواو مضمومة فمعناه على هذا كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الايمان والتوبة وقد كان قريبا فى الدنيا فضيعوه وأما من همز فقيل معناه هذا أيضا * وقيل التناؤش بالهمز من التنؤش الذى هو حركة فى ابطاء يقال جاء منتئشا أى مبطئا متأخرا والمعنى من أين لهم الحركة فيما لا حيلة لهم فيه قال ابن عباس يسألون الرد فيقال وأنى لهم الرد الى الدنيا من مكان بعيد أى من الآخرة الى الدنيا وأمال انى محضة حمزة والكسائى وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح و بين اللفظين والباقون بالفتح (وقد) أى كيف لهم ذلك والحال أنهم قد (كفروا به) أى بالذى طلب منهم أن يؤمنوا به محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو البعث (من قبل) أى فى دار العمل (و) الحال انهم حال كفرهم (يقذفون) أى يرمون (بالغيب) ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم من المطاعن وهو قولهم ساحر وشاعر وكاهن وفى القرآن سحر شعر كهانة وقال قتادة يعنى يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) أى ما غاب علمه عنهم غيبة بعيدة وهذا تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيأ ولا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى من نفع الايمان يومئذ والنجاة من النار والفوز بالجنة أو من الرد الى الدنيا كما حكى عنهم ارجعنا نعمل صالحا * وقرأ ابن عامر والكسائى بضم الحاء وهو المسمى بالاشمام والباقون بكسرها (كما فعل) أى بأيسر وجه (بأشياعهم) أى أشباههم من كفرة الامم ومن كان مذهبه مذهبهم (من قبل) أى قبل زمانهم فان حالهم كان كحالهم ولم يحتمل أمر نافى أمة من الامم بل كان كلما كذبت أمة رسولها أخذناها فاذا أذقناهم بأسنا أذعنوا وخضعوا فلم يقبل منهم ذلك ولا نفعهم شيأ لا بالكف عن اهلاكهم ولا لادراكهم شيأ من الخير بعد اهلاكهم ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ثم علل عدم الوصول الى قصدهم بقوله تعالى مؤكدا لانكارهم أن يكون عندهم شئ من شك فى شئ من أمرهم (انهم كانوا) أى فى دار القبول (فى شك) أى فى جميع ما تخبرهم به رسلنا عنا من الجزاء والبعث وغير ذلك (مريب) أى موقع فى الريبة فهو بليغ

فى بابه كما يقال عجب عجيب أوهو واقع فى الريب كما يقال شعر شاعر أى ذو شعر فهو اسم فاعل من أراب أى أتى بالريب أودخل فيه وأربته أى أوقعته فى الريب ونسبة الارابة الى الشك مجاز قال الزمخشرى الا أن بينهما فرقا وهو أن المريب من المتعدى منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الاعيان الى المعنى ومن اللازم منقول من صاحب الشك الى الشك كما تقول شعر شاعر انتهى وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبأ لم يبق نبى ولا رسول الا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا حديث موضوع

(سورة فاطر مكية)

وهى ست وأربعون آية وسبعمائة وسبع وتسعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا وهى ختام السور المفتتحة باسم الحمد التى فصلت فيها النعم الاربع التى هى أمهات النعم المجموعة فى الفاتحة وهى الايجاد الاول ثم الابقاء الاول ثم الايجاد الثانى المشار اليه بسورة سبأ ثم الابقاء الثانى الذى هو أنهاها وأحكمها وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بانهاء القدرة واحكمها المفصل أمره فيها فى فريق السعادة والشقاوة تفصيلا شافيا على انه استوفى فى هذه السورة النعم الاربع كما يأتى بيانه فى محله (بسم الله) الذى أحاطت دائرة قدرته بالممكنات (الرحمن) الذى عم الخلق بعموم الرحمة (الرحيم) الذى شرف أهل الكرامة بدوام المراقبة * ولما أثبت سبحانه فى التى قبلها الحشر الذى هو الايجاد الثانى وكان الحمد يكون بالمنع والاعدام كما يكون بالاعطاء والانعام قال تعالى ماهو نتيجة ذلك (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال اعداما وايجادا (لله) أى وحده * ولما كان الايجاد من العدم أدل دليل على ذلك قال تعالى دالا على استحقاقه للمحامد (فاطر السموات والارض) أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق قاله ابن عباس أو شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض وعن مجاهد عن ابن عباس ما كنت أدرى ما فاطر السموات والارض حتى اختصم الى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها *(تنبيه)* ان جعلت اضافة فاطر محضة كان نعتا وان جعلتها غير محضة كان بدلا وهو قليل من حيث انه مشتق * ولما كانت الملائكة عليهم السلام مثل الخافقين فى أن كلا منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق من غير مادة وكان لا طريق لعامة الناس الى معرفتهم الا الخبر أخبر عنهم بعدما أخبر عما طريقه المشاهدة بقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى وسايط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون رسالته بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة أو بينه وبين خلقه يوصلون اليهم آثار صنعه (أولى) أى أصحاب (أجنحة) يهيؤهم لما يراد منهم ثم وصفها بقوله تعالى (مثنى) أى جناحين لكل واحد من صنف منهم (وثلاث) أى ثلاثة ثلاثة لصنف آخر منهم (ورباع) أى أربعة أربعة لصنف آخر منهم فهم متفاوتون بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون ويسرعون بها نحو ما وكلهم الله تعالى عليه فيتصرفون فيه على ما أمرهم به وانما لم تصرف هذه الصفات لتكرر العدل فيها وذلك انها عدلت عن ألفاظ

الاعداد من صيغ الى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذمة (يزيد فى الخلق مايشاء) أى يزيد فى خلق الاجنحة وفى غيره ماتقتضيه مشيئته وحكمته والاصل الجناحان لانهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الاصل وذلك اقوى للطيران وأعون عليه (فان قيل) قياس الشفع من الاجنحة أن يكون فى كل شق نصفه فما صورة الثلاثة (أجيب) بأن الثالث لعله يكون فى وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة أو لعله لغير الطيران قال الزمخشرى فقد مر بى فى بعض الكتب ان صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما فى الامر من أمور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله تعالى انتهى وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينثر من رأسه الدر والياقوت وروى انه عليه السلام سأل جبريل أن يتراءى فى صورته فقال انك لن تطيق ذلك فقال انى أحب أن تفعل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل فى صورته فغشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيأ من الخلق هكذا فقال جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل عليه السلام له اثناعشر ألف جناح جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله تعالى حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى يزيد فى الخلق مايشاء وهو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن وقيل هو الخط الحسن وعن قتادة الملاحة فى العينين والآية كما قال الزمخشرى مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام فى الاعضاء وقوة فى البطش ومتانة فى العقل وجزالة فى الرأى وجراءة فى القلب وسماحة فى النفس وذلاقة فى اللسان ولباقة فى التكلم وحسن تأت فى مزاولة الامور وما أشبه ذلك مما لايحيط به الوصف ثم علل تعالى ذلك كله بقوله مؤكدا لاجل انكارهم البعث (ان الله) أى الجامع لجميع أوصاف الكمال (على كل شئ قدير) وتخصيص بعض الاشياء دون بعض انما هو من جهة الارادة قال أبو جعفر بن الزبير لما أوضحت سورة سبأ انه سبحانه مالك السموات والارض ومستحق الحمد فى الدنيا والآخرة أوضحت هذه السورة ان ذلك خلقه كما هو ملكه وأنه الاهل للحمد والمستحق اذ الكل خلقه وملكه وتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه وتجردت هذه للتعريف بالاختراع والخلق ● ولما وصف سبحانه نفسه المقدسة بالقدرة الكاملة دل على ذلك بما يشاهده كل أحد فى نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع شئ من ذلك أو اقتناصه وقال مستأنفا أو معللا مستنتجا (ما) أى مهما فهى شرطية (يفتح الله) أى الذى لايكافئه شئ (للناس) لان كل مافى الوجود لاجلهم (من رحمة) أى من الارزاق الحسية والمعنوية من اللطائف والمعارف التى لاتدخل تحت حصر قلت أو كثرت فيرسلها (فلا ممسك لها) أى الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل أحد فى نفسه من أنه اذا حصل له خير

لا يعدمه من يودّ انه لم يحصل ولو قدر على ازالته لازاله ولا يقدر على تأثير مافيه (وما يمسك فلا مرسل له) يطلقه واختلاف الضميرين لان الموصول الاول مفسر بالرحمة والثانى مطلق يتناولهما والغضب وفى ذلك اشعار بأن رحمته سبقت غضبه * ولما كان ربما ادعى أحد فجورا حال امساك الرحمة أو النعمة انه هو الممسك قال تعالى (من بعده) أى امساكه وارساله (وهو) أى هو فاعل ذلك والحال انه هو وحده (العزيز) أى القادر على الامساك والارسال الغالب على كل شئ ولا غالب له (الحكيم) أى الذى يفعل فى كل من الامساك والارسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ويتقن ما اراده على قوانين الحكمة فلا يستطاع نقض شئ منه * ولما بين بما يشاهده كل أحد فى نفسه انه المنعم وحده أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه فان الذكر يعود الى الشكر وهو قيد الموجود وصيد المعدوم المفقود فقال (يا أيها الناس) أى الجميع لان جميعهم مغمورون فى نعمة الله تعالى وعن ابن عباس يريد يا أهل مكة (اذكروا) بالقلب واللسان (نعمت الله) أى الذى لا منعم فى الحقيقة سواه (عليكم) أى فى دفع ما دفع عنكم من المحن وصنع ما صنع لكم من المنن لتشكروه ولا تكفروه * (تنبيه) * نعمت هنا مجرورة فى الرسم وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالهاء والباقون بالتاء واذا وقف الكسائى أمال الهاء * ولما أمر بذكر نعمته أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته وحكمته بقوله تعالى منبها لمن غفل وموبخا لمن جحد ورادا على أهل القدر الذين يدعون أنهم يخلقون أفعالهم ومنبها على نعمة الايجاد الاول (هل من خالق) أى للنعم وغيرها (غير الله) أى فليس لغيره فى ذلك مدخل يستحق أن يشرك به * وقرأ حمزة والكسائى بكسر الراء نعتا لخالق على اللفظ ومن خالق مبتدأ ومن زائدة فيه والباقون بالرفع وفيه ثلاثة أوجه أحدها انه خبر المبتدأ والثانى أنه صفة لخالق على الموضع والخبر اما محذوف واما يرزقكم والثالث انه مرفوع باسم الفاعل على جهة الفاعلية لان اسم الفاعل قد اعتمد على أداة الاستفهام * ولما كان جواب الاستفهام قطعا لا بل هو الخالق وحده قال منبها على نعمة الابقاء الاول بقوله تعالى (يرزقكم) أى وحده فنعمة الله تعالى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء * ولما كانت كثرة الرزق كما هو مشاهد مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال (من السماء) أى بالمطر وغيره (والارض) أى بالنبات وغيره * ولما بين تعالى انه الرازق وحده قال (لا اله الا هو فأنى تؤفكون) أى من أين تصرفون عن توحيده مع اقراركم بأنه الخالق الرازق وتشركون المنحوت بمن له الملكوت * ولما بين تعالى الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله تعالى (وان يكذبوك) أى يا أشرف الخلق فى مجيئك بالتوحيد والبعث والحساب والعقاب وغير ذلك (فقد كذبت رسل من قبلك) فى ذلك (فان قيل) ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يعقب الشرط وهذا سابق له (أجيب) بأن معناه وان يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعنى

بالتكذيب عن التأسي (فان قيل) ما معنى التنكير في رسل (أجيب) بأن معناه فقد كذبت رسل أي رسل ذو وعدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة قال القشيري وفي هذا اشارة للحكماء وأرباب القلوب مع العوام والاجانب من هذه الطريقة فانهم لا يقبلون منهم الا القليل وأهل الحقائق أبدا منهم في مقاساة الاذية والعوام أقرب الى هذه الطريقة من القراء المتعنتين ثم بين من حيث الاجمال ان المكذب في العذاب وان المكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله) أي وحده لان له الامر كلها (ترجع الامور) أي في الآخرة فيجازيكم واياهم على الصبر والتكذيب ثم بين تعالى الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (يا أيها الناس) * ولما كانوا ينكرون البعث أكده قوله تعالى (ان وعد الله) أي الذي له صفات الكمال بكل ما وعد به من البعث وغيره (حق) أي ثابت لا خلف فيه وقد وعد أنه يردكم اليه في يوم تنقطع فيه الاسباب ويعرض عن الاحساب والانساب (فلا تغرنكم) أي بأنواع الخداع من اللهو والزينة (الحياة الدنيا) فانه لا يليق بذي همة عليه اتباع الدني والرضا بالدون الزائل عن العالي الدائم (ولا يغرنكم بالله) أي الذي لا يخلف الميعاد وهو الكبير المتعال (الغرور) أي الذي لا يصدق في شيء وهو الشيطان العدو ولذلك استأنف قوله تعالى مظهرا في موضع الاضمار (ان الشيطان) أي المحترق بالغضب البعيد عن الخير (لكم) أي خاصة (عدو) فهو في غاية الفراغ لاذاكم بتصويب مكايده كلها اليكم وبما سبق له مع أبيكم آدم عليه السلام مما وصل أذاه اليكم وأيضا من عادى أباك فقد عاداك فاجتهدوا في الهرب منه ولا توالوه كما قال تعالى (فاتخذوه) أي بغاية جهدكم (عدوا) أي في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم الا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم قال القشيري ولا تقوى على عداوته الا بدوام الاستعانة بالرب فانه لا يغفل عن عداوتك فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة ثم علل عداوته بقوله (انما يدعو حزبه) أي الذين يوسوس لهم فيعرضهم لاتباعه والاعراض عن الله تعالى (ليكونوا) باتباعه كونا راسخا (من أصحاب السعير) وهذا غرضه لا غرض له سواه ولكنه يجتهد في تعمية ذلك عنهم بأن يقرر في نفوسهم جانب الرجاء وينسيهم جانب الخوف ويريهم أن التوبة في أيديهم ويسوف لهم بها بالفسحة في الامل والابعاد في الاجل للافساد في العمل والرحمن انما يدعو عباده ليكونوا من اهل النعيم كما قال تعالى والله يدعو الى دار السلام * ثم بين تعالى ما حال حزب الشيطان بقوله تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد) اى في الدنيا بفوات ما يأملونه مع تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم وسفالة هممهم حتى انهم رضوا أن يكون الههم حجرا وفي الآخرة بالسعير التي دعاهم الى صحبتها ثم بين حزبه تعالى بقوله سبحانه (والذين آمنوا وعملوا) أي تصديقا لايمانهم (الصالحات) من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك من المأمورات (لهم مغفرة) أي ستر لذنوبهم في الدنيا ولولا ذلك لافتضحوا وفي الآخرة بحيث لا عتاب ولا عقاب ولولا ذلك لهلكوا (وأجر كبير) هو الجنة والنظر الى وجهه

الكريم فالمغفرة في مقابلة الايمان فلا يؤبد مؤمن في النار والاجر الكبير في مقابلة العمل الصالح ونزل كما قال ابن عباس في أبي جهل ومشركي العرب (أفمن زين له سوء عمله) أي قبحه الذي من شأنه أن يسوء صاحبه حالا أو مآلا بان غلب وهمه وهواه على عقله (فرآه) أي السيئ بسبب التزيين (حسنا) أي عملا صالحا (فان) أي السبب في رؤية الاشياء على غير ما هي عليه ان (الله) أي الذي له الامر كله (يضل من يشاء) فلا يرى شيأ على ما هو به فيقدم على الهلاك البين وهو يراه عين النجاة (ويهدي من يشاء) فلا يشكل عليه أمر ولا يفعل الا حسنا *(تنبيه)* من موصول مبتدأ وما بعده صلته والخبر محذوف واختلف في تقديره فقدره الكسائي تذهب نفسك عليهم حسرات لدلالة قوله تعالى تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث حزن على اصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة قاهرة (فلا تذهب نفسك عليهم) أي المزين لهم (حسرات) أي لاجل حسراتك المترادفة لاجل اعراضهم جمع حسرة وهي شدة الحزن على ما فات من الامر وقدره الزجاج وأضله الله كمن هداه وقدره غيرهما كمن لم يزين له وهو أحسن لموافقته لفظا ومعنى ونظيره أفمن كان على بينة من ربه أي كمن هو أعمى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى وقال سعيد بن جبير نزلت هذه الآية في أصحاب الاهواء والبدع قال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم فأما أهل الكتاب فليسوا منهم لانهم لا يستحلون الكبائر (ان الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (عليم) أي بالغ العلم (بما يصنعون) فيجازيهم عليه ثم عاد تعالى الى البيان بقوله سبحانه (والله) أي الذي له صفات الكمال لا لشيء غيره من طبيعة ولا غيرها (الذي أرسل الرياح) أي أوجدها من العدم فهبوبها دليل على الفاعل المختار لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى الشمال وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر مؤثر مقدر وقوله تعالى (فتثير سحابا) عطف على أرسل لان أرسل بمعنى المستقبل فلذلك عطف عليه وأتى بأرسل لتحقق وقوعه وبتثير لتصور الحال واستحضار الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة كقوله تعالى أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ولما أسند فعل الارسال اليه تعالى وما يفعله يكون بقوله تعالى كن فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة تكوينه فكأنه كان ولانه فرغ عن كل شيء فهو قدر الارسال في الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة *ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهي تؤلف في زمان فقال تثير أي على هيئتها وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وقوله تعالى (فسقناه) فيه التفات عن الغيبة (الى بلد ميت) أي لا نبات بها وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بتشديد الياء والباقون بالتخفيف (فأحيينا به) أي بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكر المطر حيث أقيم مقامه أو بالسحاب فانه سبب السبب أو الصائر مطرا (الارض) بالنبات والكلأ (بعد موتها) أي يبسها *(تنبيه)* العدول في سقنا وأحيينا من الغيبة في قوله تعالى والله الذي أرسل الرياح الى ما هو أدخل

في الاختصاص وهو التكلم فيهما المنافيهما من مزيد الصنع والكاف في قوله تعالى (كذلك)
في محل رفع أي مثل احياء الموات (النشور) للاموات وجه الشبه من وجوه أولها ان
الارض الميتة قبلت الحياة كذلك الاعضاء تقبل الحياة ثانيها كما أن الريح يجمع السحاب
المقطع كذلك تجمع الاعضاء المتفرقة ثالثها كما أنا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت
كذلك نسوق الروح الى الجسد الميت (فان قيل) ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين
الآيات مع أن الله تعالى له في كل شئ آية تدل على أنه واحد (اجيب) بأنه تعالى لما ذكر كونه
فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها بقوله تعالى جاعل
الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم
كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز
فقال نعم فقال فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه وقيل يحيي الله الخلق بماء يرسله من
تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق * ولما كان الكافرون يتعززون بالاصنام
كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين آمنوا بألسنتهم غير مواطئة
قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين
أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا بين تعالى ان لا عزة الا لله بقوله سبحانه (من كان)
أي في وقت من الاوقات (يريد العزة) أي الشرف والمنعة (فلله العزة جميعا) أي في الدنيا
والآخرة والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله تعالى فلله العزة جميعا موضعه استغناء به عنه
لدلالته عليه لان الشئ لا يطلب الا من عند صاحبه ومالكه ونظيره قولهم من أراد النصيحة فهي عند
الابرار يريد فليطلبها عندهم الا انك أقمت ما يدل عليه مقامه وقال قتادة من كان يريد العزة
فليتعزز بطاعة الله تعالى ومعناه الدعاء الى طاعة من له العزة أي فليطلب العزة من عند الله
بطاعته كما يقال من كان يريد المال فالمال لفلان أي فليطلبه من عنده * ثم عرف أن ما تطلب به
العزة هو الايمان والعمل الصالح بقوله تعالى (اليه) أي لا الى غيره (يصعد الكلم الطيب) قال
المفسرون هو قول لا اله الا الله وقيل هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله
والله أكبر وعن ابن مسعود قال اذا حدثتكم حديثا أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل
ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله
الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر على جمع من الملائكة الا استغفروا
لقائلهن حتى يحيي بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله عز وجل قوله تعالى اليه يصعد
الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب ذكر الله وعن قتادة اليه يصعد الكلم الطيب أي يقبل الله
الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن وعن الحاكم موقوفا
وعن الثعلبي مرفوعا أنه صلى الله عليه وسلم قال هو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله
والله أكبر اذا قالها العبد عرج بها الملك الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح
لم تقبل (والعمل الصالح يرفعه) أي يقبله فصعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله

تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في يرفعه لله تعالى وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة وقال سفيان بن عيينة العمل الصالح هو الخالص يعني الاخلاص سبب قبول الخيرات من الاقوال والافعال لقوله تعالى فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا فجعل نقيض الصالح الشرك والرياء *(تنبيه)* صعود الكلم الطيب والعمل الصالح مجاز عن قبوله تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحفهما والمستكن في يرفعه لله تعالى وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة أو للكلم فان العمل لا يقبل الا بالتوحيد أو للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه قال الرازي في اللوامع العلم لا يتم الا بالعمل كما قيل العلم يهتف بالعمل فان أجاب والا ارتحل انتهى وقد قيل

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعاله

فاذا وزنت مقاله بفعاله * فتوازنا فاخاء ذاك جماله

وقال الحسن الكلم الطيب ذكر الله تعالى والعمل الصالح أداء فرائضه فمن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الاعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله تعالى عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه الله * ولما بين ما يحصل العزة من علو الهمة بين ما يكسب المذلة ويوجب النقمة من ردىء الهمة بقوله تعالى (والذين يمكرون) أي يعملون على وجه المكر أي الستر المكرات (السيآت) أي مكرات قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وتداورهم الرأي في احدى ثلاث حبسه وقتله واجلاؤه كما قال تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك الآية وقال الكلبي معناه يعملون السيآت وقال مقاتل يعني الشرك وقال مجاهد هم أصحاب الرياء (لهم عذاب شديد) أي لا توبة دونه بما يمكرون (ومكر أولئك) أي البعداء من الفلاح (هو) أي وحده دون مكر من يريد بمكره الخير فان الله ينفذه ويعلي أمره (يبور) أي يفسد ولا ينفذ اذ الامور مقدرة فلا تتغير بسبب مكرهم كما دل عليه بقوله تعالى (والله خلقكم من تراب) أي بتكوين أبيكم آدم منه فزجه مزجا لا يمكن لغيره تمييزه ثم أحاله عن ذلك الجوهر أصلا ورأسا واليه الاشارة بقوله تعالى (ثم) أي بعد ذلك في الزمان والرتبة خلقكم (من نطفة) أي جعلها أصلا ثانيا من ذلك الاصل الترابي أشد امتزاجا منه (ثم) بعد أن أنهى التدبير زمانا ورتبة الى النطفة التي لا مناسبة بينها وبين التراب دلالة على كمال القدرة والفعل بالاختيار (جعلكم أزواجا) أي بين ذكور واناث دلالة هي أظهر مما قبلها على الاختيار وعن قتادة زوج بعضكم بعضا *(تنبيه)* يصح أن يقال كما قال ابن عادل خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد آدم عليه السلام وكلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء ينتهي بالآخرة الى الماء والتراب فهم من تراب صار نطفة * ولما بين تعالى بقوله سبحانه خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله سبحانه (وما تحمل من انثى ولا تضع) أي حملا (الا) اى مصحوبا (بعلمه) أي في وقته ونوعه وشكله

وغير ذلك من شأنه مختصا بذلك كله حتى عن أمته التى هى أقرب اليه فلا يكون الا بقدرته فما شاء أتمه وما شاء أخرجه كما علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله تعالى (وما يعمر من معمر) أى وما يمد فى عمره من مصغره الى كبر وانما سماه معمرا بما هو صائر اليه فمعناه وما يعمر من أحد وفى عود ضمير قوله تعالى (ولا ينقص من عمره) قولان أحدهما أنه يعود على معمر آخر لان المراد بقوله تعالى من معمر الجنس فهو يعود عليه لفظا لا معنى لانه بعد أن فرض كونه معمرا استحال أن ينقص من عمره نفسه كما يقال لفلان عندى درهم ونصفه أى نصف درهم آخر والثانى أنه يعود على المعمر نفسه لفظا ومعنى والمعنى انه اذا ذهب من عمره حول أحصى وكتب ثم حول آخر كذلك فهذا هو النقص واليه ذهب ابن عباس وابن جبير وأبو مالك ومنه قول الشاعر

حياتك أنفاس تعد فكلما * مضى نفس منك انتقصت به جزأ

وقال الزمخشرى هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة فى تأويله بافهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر فى عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق قال وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر انسان ولا يقصر الا فى كتاب وصورته أن يكتب فى اللوح ان حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وان حج وغزا فعمره ستون سنة فاذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر واذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الاربعون فقد نقص عن عمره الذى هو الغاية وهو الستون واليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله ان الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان فى الاعمار وعن كعب انه قال حين طعن عمر رضى الله تعالى عنه لو أن عمر دعا الله لأخر فى أجله فقيل لكعب أليس قد قال الله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فقال هذا اذا حضر الاجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص وقرأ هذه الآية وقد استفاض على الالسنة أطال الله تعالى بقاءك وفسح فى مدتك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير يكتب فى الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب فى أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى يأتى على آخره وعن قتادة المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب فى قوله تعالى (الا فى كتاب) أى مكتوب فيه عمر فلان كذا وكذا وعمر فلان كذا ان عمل كذا وعمره كذا ان لم يعمل كذا هو اللوح المحفوظ قاله ابن عباس قال الزمخشرى ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله تعالى أو صحيفة الانسان * ولما كان ذلك أمرا لا يحيط به العد ولا يحصره الحد فكان فى عداد ما ينكره الجهلة قال تعالى مؤكدا لسهولته (ان ذلك) أى الامر العظيم من كتب الآجال كلها وتقديرها (على الله) أى الذى له جميع العزة (يسير) أى هين وقوله تعالى (وما يستوى البحران هذا عذب) أى طيب حلو لذيذ ملائم طبعه (فرات) أى بالغ العذوبة (سائغ شرابه) أى شربه مرئ سهل انحداره لما له من اللذة والملاءمة للطبع (وهذا ملح أجاج) أى جمع الى الملوحة المرارة فلا يسوغ شرابه بل لو شرب لآلم الحلق وأجج فى البطن ما هو كالنار

ضرب مثلا للمؤمن والكافر وقوله تعالى (ومن كل) أى الملح والعذب (تأكلون) أى من السمك المنوع الى أنواع تفوت الحصر (لحما طريا) أى شهى المطعم (وتستخرجون) أى من الملح دون العذب (حلية تلبسونها) أى نساؤكم من الجواهر الدر والمرجان وغيرهما ذكر استطرادا فى صفة البحرين وما فيهما من النعم وتمام التمثيل والمعنى كما أنهما وان اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما لا يتساويان فيما هو مقصود بالذات من الماء فانه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته فلا يتساوى المؤمن والكافر وان اتفق اشتراكهما فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصة العظمى وهى بقاء أحدهما على الفطرة الاصلية دون الآخر وقيل تخرج الحلية منهما كما هو ظاهر قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان قال البغوى لانه قد يكون فى البحر الاجاج عيون عذبة تمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من ذلك انتهى * (فائدة) عاب المبرد وغيره قول الشافعى رضى الله تعالى عنه كل ماء من بحر عذب أو مالح فالتطهر به جائز وقالوا انه لحن وانما يقال ملح كما قال تعالى وهذا ملح أجاج وهم مخطئون فى ذلك كما قيل

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه * على قدر القريحة والفهوم

قال النووى وأجاب أصحابنا بأجوبة أصحها أن فيه أربع لغات ملح ومالح ومليح وملاح بضم الميم وتخفيف اللام قال عمر بن أبى ربيعة

ولو تفلت فى البحر والبحر مالح * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وقال آخر

وللرزق أسباب تروح وتغتدى * وانى منها غير غاد ورائح
قنعت بثوب العدم من حلة الغنى * ومن بارد عذب زلال بمالح

وقال محمد بن حازم

تلونت الوانا على كثيرة * وخالط عذبا من اخائك مالح

وقال خالد بن يزيد بن معاوية فى رملة بنت الزبير

ولو وردت ماء وكانت قبيله * مليحا شربنا ماءه باردا عذبا

وقال الخطابى يقال ماء ملاح كما يقال أجاج وزعاق وزلال قال وانما نزل الشافعى من اللغة العالية التى هى أدنى للايضاح وحسما للاشكال والالتباس لئلا يتوهم متوهم أنه أراد بالملح المذاب فيظن ان الطهارة به جائزة وثانى الاجوبة أن الشافعى امام فى اللغة فقوله فيها حجة وثالثها أن هذه اللفظة ليست من كلام الشافعى ولم يذكرها بل من كلام المزنى وهذا ليس بشئ وكيف ينسب الخطا الى المزنى وعنه مندوحة وقولهم لم يذكرها الشافعى غير صحيح وقد أنكره البيهقى وقال بل سمى الشافعى البحر مالحا فى كتابين أمالى الحج والمناسك الكبير * (فائدة) * أخرى وهى أن ابن عمر قال فى البحر التيمم أحب الينا منه وقال بحركم هذا نار وتحت النار

بحر حتى عد سبعة أبحر وسبعة أنوار ولكن روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من لم يطهره البحر فلا طهره الله ويؤول كلام ابن عمر بأنه سيصير يوم القيامة نارا أو بأنه مهلكة يهلك كما تهلك النار ولما كان الاكل والاستخراج من المنافع العامة عم الخطاب ، ولما كان استقرار شئ في البحر دون غرق أمرا غريبا لكنه صار لشدة الفه لا يتوهم بانه من أكبر الآيات دلالة على القادر المختار الا أهل البصائر خص بالخطاب فقال (وترى الفلك) اى السفن سمي فلكا لدورانه وسفينة لقشره الماء وقدم الظرف في قوله تعالى (فيه) لانه أشد دلالة على ذلك (مواخر) أي جوارى مستدبرة الريح شاقة للماء بجريها هذه مقبلة وهذه مدبرة وجهها الى ظهر هذه بريح واحدة يقال مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لانها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لانها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ثم علق بالمخر معللا قوله تعالى (لتبتغوا) أي تطلبوا طلبا شديدا (من فضله) أى الله بالتوصل بذلك الى البلاد الشاسعة للمتاجر وغيرها ولو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ولم يجر به ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولولم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه (ولعلكم تشكرون) اى وليكون حالكم بهذه الدالة على عظيم قدرة الله تعالى ولطفه حال من يرجى شكره *(تنبيه)* حرف الرجاء مستعار لمعنى الارادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل لتبتغوا ولتشكروا * ولما ذكر تعالى اختلاف الذوات الدالة على بديع صنعه أتبعه اختلاف الازمنة الدالة على بديع قدرته بقوله تعالى (يولج) أى يدخل الله (الليل في النهار) فيصير الظلام ضياء * ولما كان هذا الفعل في غاية الاعجاب وكان لكثرة تكراره قد صار مألوفا فغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة نبه عليه باعادة الفعل بقوله تعالى (ويولج النهار في الليل) فيصير ما كان ضياء ظلاما وتارة يكون التوالج بقصر هذا وطول هذا فدل كل ذلك على أنه تعالى فاعل بالاختيار * ولما ذكر الليل والنهار ذكر ما ينشأ عنهما بقوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) ثم استأنف قوله تعالى (كل) أى منهما (يجرى) أى في فلكه (لاجل) أى لاجل أجل (مسمى) مضروب له لا يقدر أن يتعداه فاذا جاء ذلك الاجل غرب هكذا كل يوم الى أن يأتي الاجل الاعظم فيختل هذا النظام باذن الملك العلام وتقوم الناس ليوم الزحام وتكون الامور العظام * ولما ذكر سبحانه أنه الفاعل المختار القادر على ما يريد بما يشاهده كل أحد في نفسه وفي غيره وختم بما تكرر مشاهدته في كل يوم مرتين أنتج ذلك قطعا قوله تعالى معظما باداة البعد وميم الجمع (ذلكم) أى العالى المقدار الذى فعل هذه الافعال كلها (الله) الذى له صفة كل كمال ثم نبههم على أنه لا مدبر لهم سواه بخبر آخر بقوله تعالى (ربكم) أي الموجد لكم من العدم المربي بجميع النعم لا رب لكم سواه ثم استأنف قوله تعالى (له) أى وحده (الملك) أى كله وهو مالك كل شئ (والذين تدعون) أى تعبدون (من دونه) أى غيره وهم الاصنام وغيرها وكل شئ دونه (ما يملكون) في حال من الاحوال وأعرق في النفي بقوله تعالى (من قطمير) وهو كما روى عن ابن عباس لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة الملتفة

عليها كناية عن أدنى الاشياء فكيف بما فوقه فليس لهم شيء من الملك والآية من الاحتباك ذكر الملك أولا دليلا على حذفه ثانيا والملك ثانيا دليلا على حذفه اولا وقيل القطمير هو القمع وقيل ما بين القمع والنواة ففي النواة على الاول أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة الفتيل وهو ما في شق النواة والقطمير وهو اللفافة والنقير وهو ما في ظهر النواة والرقروق وهو ما بين القمع والنواة ثم بين ذلك بقوله تعالى (ان تدعوهم) أى المعبودات من دونه دعاء عبادة أو استعانة (لا يسمعوا دعاءكم) أى لانهم جماد (ولو سمعوا) أى على سبيل الفرض والتقدير (ما استجابوا لكم) أى لعدم قدرتهم على الانتفاع * ولما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة ووجود الضرر منهم في الآخرة بقوله سبحانه (ويوم القيامة) أى حين ينطقهم الله تعالى (يكفرون بشرككم) أى باشراككم فينكرونه ويتبرؤن منه بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون كما حكى الله تعالى ذلك عنهم في آية أخرى (ولا ينبئك) أى يخبرك أيها السامع بالامر مخبر هو (مثل خبير) أى عالم به أى أن الخبير بالامر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به لانه لا يمكن الطعن في شئ مما أخبر به بخلاف غيره والمعنى ان هذا الذى أخبرتكم به من حال الاوثان هو الحق لانى خبير بما أخبرت به * ولما اختص تعالى بالملك ونفى عن شركائهم النفع أنتج ذلك قوله تعالى (يا أيها الناس) أى كافة (أنتم) أى خاصة (الفقراء) وقوله سبحانه (الى الله) اعلام بأنه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره (فان قيل) لم عرف الفقراء (أجيب) بأنه قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم اليه هم جنس الفقراء وان كانت الخلائق كلهم مفتقرين اليه من الناس وغيرهم لان الفقر يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أحقر وقد شهد الله تعالى على الانسان بالضعف في قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وقال تعالى الله الذى خلقكم من ضعف ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء قال القشيرى والفقر على ضربين فقر خلقة وفقر صفة فالاول عام فكل حادث مفتقر الى خالقه في أول حال وجوده ليبديه وينشئه وفي ثانيه ليديمه ويبقيه وأما فقر الصفة فهو التجرد وفقر العوام التجرد عن المال وفقر الخواص التجرد عن الاعلال لحقيقة الفقر المحمود تجرد السر عن المعلولات * ولما ذكر العبد بوصفه الحقيقى أتبعه ذكر الخالق باسمه الاعظم فقال (والله هو الغنى) أى المستغنى على الاطلاق فلا يحتاج الى أحد ولا الى عبادة احد من خلقه وانما أمرهم بالعبادة لاشفاقه تعالى عليهم ففي هذا رد على المشركين حيث قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان الله لعله محتاج الى عبادتنا حتى أمرنا بها أمرا بالغا وهددنا على تركها مبالغا (فان قيل) قد قابل الفقر بالغنى فما فائدة قوله تعالى (الحميد) أى المحمود في صنعه بخلقه (أجيب) بأنه لما أثبت فقرهم اليه وغناه عنهم وليس كل غنى نافعا بغناه الا اذا كان الغنى منعما جوادا واذا جاد وانعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بانعامه أن يحمدوه وقوله تعالى

(ان يشأ يذهبكم) أى جميعا بيان لغنائه وفيه بلاغة كاملة لان قوله تعالى ان يشأ يذهبكم أى ليس اذهابكم موقوفا الا على مشيئته بخلاف الشئ المحتاج اليه فان المحتاج الى الشئ لا يقال فيه ان شاء فلان هدم داره وانما يقال لولا حاجة السكنى الى الدار لبعتها ثم انه تعالى زاد على بيان الاستغناء بقوله تعالى (ويأت بخلق جديد) أى ان كان يتوهم متوهم أن بهذا الملك كماله وعظمته فلو أذهبهم لزال ملكه وعظمته فهو قادر أن يخلق خلقا جديدا أحسن من هذا وأجمل وعن ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيأ (وما ذلك) أى الامر العظيم من الاذهاب والاتيان (على الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال خاصة (بعزيز) أى بممتنع ولا شاق وهو محمود عند الاعدام كما هو محمود عند الايجاد (فان قيل) استعمل تعالى العزيز تارة فى القائم بنفسه فقال تعالى فى حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال فى هذه السورة عزيز غفور واستعمله تارة فى القائم بغيره فقال تعالى وما ذلك على الله بعزيز وقال تعالى عزيز عليه ما عنتم فهل هما بمعنى واحد أو بمعنيين (أجيب) بأن العزيز فى اللغة هو الغالب والفعل اذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة الى ذلك الفعل فقوله تعالى وما ذلك على الله بعزيز أى ذلك الفعل لا يغلبه بل هو هين على الله تعالى وقوله سبحانه عزيز عليه ما عنتم أى يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب وقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فيه حذف الموصوف للعلم به أى ولا تحمل نفس آثمة اثم نفس أخرى (فان قيل) كيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم (أجيب) بأن تلك الآية فى الضالين المضلين فانهم يحملون أثقال اضلالهم وكل ذلك أوزارهم وليس فيها شئ من أوزار غيرهم (وان تدع) أى نفس (مثقلة) أى بالوزر (الى حملها) أى من الوزر أحدا ليحمل بعضه (لا يحمل) أى من حامل ما (منه شئ) أى لا طواعية ولا كرها بل لكل امرئ شأن يغنيه (ولو كان) ذلك الداعى أو المدعو للحمل (ذا قربى) لمن دعاه (فان قيل) ما الفرق بين معنى قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى ومعنى قوله تعالى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ (أجيب) بأن الاول فى الدلالة على عدل الله تعالى فى حكمه وأنه لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها والثانى فى أن لا غياث يومئذ بمن استغاث حتى ان نفسا قد أثقلتها الاوزار لو دعت الى أن تخفف بعض وزرها لم تجب ولم تغث وان كان الداعى أو المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ قال ابن عباس يلقى الاب أو الام ابنه فيقول يا بنى احمل عنى بعض ذنوبى فيقول لا أستطيع حسبى ما على * (تنبيه) * أضمر الداعى أو المدعو بدلالة ان تدع عليه * ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعهم ذلك فلم ينفعهم نزل (انما تنذر) أى انذارا يفيد الرجوع عن الغى (الذين يخشون ربهم) أى المحسن اليهم فيوقعون هذا الفعل فى الحال ويواظبون عليه فى الاستقبال ولما كان أولى الناس عقلا وأعلاهم همة من كان غيبه مثل حضوره قال تعالى (بالغيب) وهو حال من الفاعل أى يخشونه غائبين عنه أو من المفعول أى غائبا عنهم * ولما كانت الصلاة جامعة للخضوع الظاهر والباطن فكانت أشرف العبادات وكانت اقامتها بمعنى حفظ جميع

حدودها فى كل حال أدل الطاعات على الاخلاص قال تعالى معبرا بالماضى لان مواقيت الصلاة مضبوطة (وأقاموا) أى دليلا على خشيتهم (الصلاة) فى أوقاتها الخمسة وما يتبع ذلك من السنن (ومن تزكى) أى تطهر أى بفعل الطاعات وترك المعاصى (فانما يتزكى لنفسه) اذ نفعه لها (والى الله) أى الذى لا اله غيره (المصير) أى المرجع كما كان منه المبدأ فيجازى كلا على فعله * ثم لما بين تعالى الهدى والضلالة وهدى الله تعالى المؤمن ولم يهد الكافر ضرب لهما مثلا بقوله تعالى (وما يستوى الاعمى) أى عن الهدى (والبصير) بالهدى أى المؤمن والكافر وقيل الجاهل والعالم وقيل هما مثلا للصنم ولله تعالى (ولا الظلمات) أى الكفر (ولا النور) أى الايمان أو ولا الباطل ولا الحق (ولا الظل) أى الجنة (ولا الحرور) أى النار أو ولا الثواب ولا العقاب *(تنبيه)* قال ابن عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار وقيل الحرور تكون بالنهار مع الشمس وقيل السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقوله تعالى (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمن والكافر أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل وقيل للعلماء والجهال *(تنبيه)* زيادة لا فى الثلاثة لتأكيد نفى الاستواء وجاء ترتيب هذه المثنيات على أحسن الوجوه فانه تعالى لما ضرب الاعمى والبصير مثلين للمؤمن والكافر عقب بما كل منهما فيه والكافر فى ظلمة والمؤمن فى نور لان البصير وان كان حديد البصر لا بد له من ضوء يبصر فيه وقدم الاعمى لان البصير فاصله فحسن تأخيره ولما تقدم الاعمى فى الذكر ناسب تقديم ما فيه فلذلك قدمت الظلمة على النور ولان النور فاصلة ثم ذكر مآل كل منهما فالمؤمن الظل وللكافر الحرور وأخر الحرور لاجل الفاصلة كما مر وقولنا لاجل الفاصلة أولى من قول بعضهم لاجل السجع لان القرآن ينبو عن ذلك وقد منع الجمهور أن يقال فى القرآن سجع وانما كرر الفعل فى قوله تعالى وما يستوى الاحياء مبالغة فى ذلك لان المنافاة بين الحياة والموت أتم من المنافاة المتقدمة وقدم الاحياء لشرف الحياة ولم يعد لا تأكيدا فى قوله تعالى الاعمى والبصير وكررها فى غيره لان منافاة ما بعده أتم فان الشخص الواحد قد يكون بصيرا ثم يصير أعمى فلا منافاة الا من حيث الوصف بخلاف الظل والحرور والظلمات والنور فانها منافية أبدا لا يجتمع اثنان منها فى محل فالمنافاة بين الظل والحرور وبين الظلمة والنور دائمة (فان قيل) الحياة والموت بمنزلة العمى والبصر فان الجسم قد يكون متصفا بالحياة ثم يتصف بالموت (أجيب) بان المنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير لان الاعمى والبصير يشتركان فى ادراكات كثيرة ولا كذلك الحى والميت فالمنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير لانه قابل الجنس بالجنس وقد يوجد فى أفراد العميان من يساوى بعض افراد البصراء كأعمى ذكى له بصيرة يساوى بصيرا بليدا فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الافراد وجمع الظلمات لانها عبارة عن الكفر والضلال وطرقهما كثيرة متشعبة ووحد النور لانه عبارة عن التوحيد وهو واحد فالتفاوت بين كل فرد من أفراد الظلمة وبين هذا الفرد الواحد والمعنى الظلمات كلها لا يوجد فيها ما يساوى هذا الواحد ثم نبه سبحانه بقوله تعالى

(ان الله) أى القادر على المفاوتة بين هذه الاشياء وعلى كل شئ بماله من الاحاطة من صفات الكمال (يسمع من يشاء) على ان المشيئة والقوة انما هما بيده تعالى وان الانذار انما هو لمن قضى بانتفاعه فيتعظ ويجيب (وما أنت) أى بنفسك من غير اقدار الله تعالى لك (بمسمع) أى بوجه من الوجوه (من فى القبور) أى الحسية أو المعنوية اسماعا ينفعهم بل الله يسمعهم ان شاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (ان) أى ما (أنت الانذير) أى تنبه القلوب الميتة بقوارع الانذار ولست بوكيل تقهرهم على الايمان * ثم بين تعالى أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو باذن الله تعالى وارساله بقوله تعالى (انا) أى بما لنا من العظمة (أرسلناك) أى الى هذه الامة (بالحق) أى الامر الكامل فى الثبات الذى يطابقه الواقع فان من نظر الى كثرة ما أوتيه من الدلائل علم مطابقة الواقع لما يأمر به *(تنبيه)* يجوز فى قوله تعالى بالحق أوجه أحدها أنه حال من الفاعل أى أرسلناك محقين أو من المفعول أى محقا أو نعت لمصدر محذوف أى ارسالا متلبسا بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله تعالى (بشيرا) أى لمن أطاع (ونذيرا) أى لمن عصى (وان) أى وما (من أمة الاخلا) أى سلف (فيها نذير) أى نبى ينذرها *(تنبيه)* الامة الجماعة الكثيرة قال تعالى وجد عليه أمة من الناس يسقون ويقال لكل أهل عصر أمة والمراد ههنا أهل العصر (فان قيل) كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم لم يخل فيها نذير (أجيب) بان آثار النذارة اذا كانت باقية لم تخل من نذير الى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم (فان قيل) كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد ذكرهما (أجيب) بأنه لما كانت النذارة مشفوعة من البشارة لا محالة دل ذكرها على ذكرها لاسيما وقد اشتملت الآية على ذكرهما أولا ولان الانذار هو المقصود والاهم من البعثة (وان يكذبوك) أى أهل مكة (فقد كذب الذين من قبلهم) أى ما أتتهم به رسلهم عن الله تعالى (جاءتهم) أى الامم الخالية (رسلهم بالبينات) أى الآيات الواضحات والدلالة على صحة الرسالة من المعجزات وغيرها (وبالزبر) اى الامور المكتوبة كصحف ابراهيم عليه السلام (وبالكتاب) أى جنس الكتاب كالتوراة والانجيل (المنير) أى الواضح فى نفسه الموضح لطريق الخير والشر كما أنك أتيت قومك بمثل ذلك وان كانت طريقتك أوضح وأظهر وكتابك أنور وأبهر وأظهر وأشهر وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حيث علم ان غيره كان مثله فى تكذيبه وكان محتملا لاذى القوم *(تنبيه)* لما كانت هذه الاشياء فى جنسهم أسند المجئ بها اليهم اسنادا مطلقا وان كان بعضها فى جميعهم وهى البينات وبعضها فى بعضهم وهى الزبر والكتاب * ولما سلاه الله تعالى هدد من خالفه وعصاه بما فعل فى تلك الامم الماضية بقوله تعالى (ثم أخذت) أى بأنواع الاخذ (الذين كفروا) أى ستروا تلك الآيات المنيرة بعد طول صبر الرسل عليهم الصلاة والسلام عليهم ودعائهم لهم (فكيف كان نكير) أى انكارى عليهم بالعقوبة والاهلاك أى هو واقع موقعه *(تنبيه)* أثبت ورش الياء بعد الراء فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا * ولما ذكر تعالى الدلائل

ولم ينتفعوا قطع الكلام معهم والتفت الى غيرهم بقوله تعالى (ألم تر) أى تعلم أى أيها المخاطب (أن الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (أنزل من السماء ماء) كما ان السيد اذا نصح بعض عبيده ولم ينزجر يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر ما ذكره للاول ويكون فيه اشعار بأن الاول فيه نقيصة لا يصلح للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة وأيضا فلا يخرج الى كلام أجنبى عن الاول بل يأتى بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلام الآخر فيترك التفكر فيما كان وقوله تعالى (فأخرجنا) أى بما لنا من القدرة والعظمة (به) أى بالماء (ثمرات) أى متعددة الانواع فيه التفات من الغيبة الى التكلم وانما كان ذلك لان المنة بالاخراج أبلغ من انزال الماء وقوله تعالى (مختلفا) نعت لثمرات وقوله تعالى (ألوانها) فاعل به ولولا ذلك لانث مختلفا ولكنه لما أسند الى جمع تكسير غير عاقل جاز تذكيره ولو أنث فقيل مختلفة كما تقول اختلفت ألوانها جاز أى مختلفة الاجناس من الرمان والتفاح والعنب وغيرها مما لا يحصر أو الهيآت من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها فالذى قدر على المفاوتة بينها وهى من ماء واحد لا يستبعد عليه ان يجعل الدلائل بالكتاب وغيره نور الشخص وعمى لآخر * ولما ذكر تعالى تنوع ما من الماء وقدمه لانه الاصل فى التكوين أتبعه التكوين من التراب الذى هو أيضا شئ واحد بقوله تعالى ذاكرا ماهو أصلب الارض وأبعدها عن قابلية التكوين (ومن الجبال جدد) قال الجلال المحلى رحمه الله تعالى جمع جدة طريق فى الجبل وغيره وقال الزمخشرى الجدد الخطوط والطرائق وقال ابو الفضل الجدة ما يخالف من الطرائق لون ما يليها ومنه جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبى جدتان مسكيتان تفصلان بين لونى ظهره وبطنه (بيض وحمر) وصفر وقوله تعالى (مختلف) صفة لجدد وقوله تعالى (ألوانها) فاعل به كما مر فى نظيره ويحتمل معنيين أحدهما أن البياض والحمرة يتفاوتان بالشدة والضعف فرب أبيض أشد من أبيض وأحمر أشد من أحمر فنفس البياض مختلف وكذا الحمرة فلذلك جمع ألوانها فيكون من باب المشكك والثانى ان الجدد كلها على لونين بياض وحمرة والبياض والحمرة وان كانا لونين الا أنهما جمعا باعتبار محلهما وقوله تعالى (وغرابيب سود) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه معطوف على حمر عطف ذى لون على ذى لون ثانيها أنه معطوف على بيض ثالثها واقتصر عليه الجلال المحلى أنه معطوف على جدد أى صخور شديدة السواد قال الجلال المحلى يقال كثيرا أسود غربيب وقليلا غربيب أسود وقال البغوى أى سود غرابيب على التقديم والتأخير يقال أسود غربيب أى شديد السواد تشبيها بلون الغراب أى طرائق سود وعن عكرمة هى الجبال الطوال السود وقال الزمخشرى الغربيب تأكيد للاسود ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع ووجهه أن يضمر المؤكد قبله فيكون الذى بعده مفسرا لما أضمر كقول النابغة الجعدى

والمؤمن العائذات الطير يمسحها * ركبان مكة بين الغيل والسند

هما موضعان والمؤمن اسم الله وهو مجرور بالقسم والعائذات منصوب بالمؤمن والمراد بها الحمام لما عاذت بمكة والتجأت اليها حرم التعرض لها والطير منصوب بالبدل أو بعطف البيان

ووجه الاستدلال بذلك أن الطرد ال على المحذوف وهو مفعول المؤمن والعائذات الطير قال أبو حيان وهذا الايصح الا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ومن النحويين من منعه وهو اختيار ابن مالك ورد عليه بأن هذا ليس هو التأكيد المختلف في حذف مؤكده لان هذا من باب الصفة والموصوف ومعنى تسمية الزمخشري له توكيدا من حيث انه لا يفيد معنى زائدا وانما يفيد المبالغة والتوكيد في ذلك اللون والنحويون قد سموا الوصف اذا لم يفد غير الاول توكيدا فقالوا وقد يجيء لمجرد التوكيد نحو قوله تعالى نفخة واحدة والهين اثنين والتوكيد المختلف في حذف مؤكده انما هو في باب التوكيد الصناعي ومذهب سيبويه جوازه وقال ابن عادل والاولى فيه أن يسمى توكيدا لفظيا اذ الاصل سود غرابيب سود * ولما ذكر تعالى ما الاغلب فيه الماء مما استحال الى أمر آخر بعيد من الماء وأتبعه التراب الصرف ختم بما الاغلب فيه التراب مما استحال الى ماهو في غاية البعد من التراب فقال (ومن الناس والدواب) ولما كانت الدابة في الاصل اسما لما دب على الارض ثم غلب اطلاقه على ما يركب قال (والانعام) ليعم الكل صريحا (مختلف ألوانه) أي ألوان ذلك البعض الذي أفهمته من (كذلك) أي مثل الثمار والاراضي منه ماهو ذو لون ومنه ماهو ذو لونين أو أكثر * ولما قال تعالى ألم تر يعني ألم تعلم ان الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله واعلام قدرته وآثار صنعه وما خلق من الفطر المختلفة الاجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته من أنه فاعل بالاختيار فهو يفعل ما يشاء قال تعالى (انما يخشى الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (من عباده العلماء) قال ابن عباس رضي الله عنه يريد انما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني فالخشية بقدر معرفة المخشي والعالم يعلم الله فيخافه ويرجوه وهذا دليل على ان العالم أعلى درجة من العابد لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم بين تعالى ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العلم لا بقدر العمل فمن ازداد منه علما ازداد منه خشية وخوفا ومن كان علمه به أقل كانت خشيته أقل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام اني لاعلمكم بالله وأشدكم له خشية وقال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال مسروق كفى بالمرء علما أن يخشى وكفى بالمرء جهلا ان يعجب بعمله وقال رجل للشعبي افتني أيها العالم فقال له العالم من خشي الله تعالى قال السهروردي في الباب الثالث من معارفه فينتفي العلم عمن لا يخشى الله تعالى كما اذا قال انما يدخل الدار بغدادي فينتفي دخول غير البغدادي الدار وقيل نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى أثرت فيه (فان قيل) هل يختلف المعنى اذا قدم المفعول في هذا الكلام أو أخر (أجيب) بأنه يختلف فانك اذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى ان الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم فاذا عملت على العكس انقلب المعنى الى أنهم لا يخشون الا الله كقوله تعالى ولا يخشون أحدا الا الله وهما معنيان مختلفان *(تنبيه)* رسم العلماء بالواو وقوله تعالى (ان الله) أي المحيط بالجلال والاكرام (عزيز) أي

غالب على جميع أمره (غفور) أى لذنوب من أراد من عباده تعليل لوجوب الخشية لدلالته على انه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى * ولما بين سبحانه العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه بقوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على تلاوته وهى شأنهم وديدنهم وعن مطرف هى آية القراء وعن الكلبى يأخذون بما فيه وقيل يعلمون مافيه و يعملون به وعن السدى هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عطاء هم المؤمنون (وأقاموا الصلاة) أى أداموها (وأنفقوا مما رزقناهم) من زكاة وغيرها (سرا وعلانية) قيل السر فى المسنون والعلانية فى المفروض *(تنبيه)* أشار تعالى بقوله سبحانه وتعالى يتلون كتاب الله الى الذكر وبقوله تعالى وأقاموا الصلاة الى العمل البدنى وبقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم الى العمل المالى وفى هاتين الآيتين الشريفتين حكمة بالغة وهى أن قوله تعالى انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله تعالى الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله تعالى وقوله تعالى وأنفقوا مما رزقناهم بمعنى الشفقة على خلقه وقوله تعالى سرا وعلانية حث على الانفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سرا فذاك والا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فان ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء * ولما أحل تعالى هؤلاء بالمحل الاعلى بين حالهم بقوله تعالى (يرجون) أى فى الدنيا والآخرة (تجارة) أى بما عملوا (لن تبور) أى تكسد وتهلك بل هى باقية لانها رفعت الى من لا تضيع اليه الودائع وهى رائجة رابحة لكونه تعالى تام القدرة شامل العلم له الغنى المطلق (ليوفيهم أجورهم) أى جزاء أعمالهم بالثواب (ويزيدهم من فضله) قال ابن عباس رضى الله عنه يعنى سوى الثواب مالم ترعين ولم تسمع أذن ويحتمل أن يزيدهم النظر اليه تعالى كما جاء فى تفسير الزيادة وهذا هو النعمة العظمى (انه غفور شكور) قال ابن عباس رضى الله عنه يغفر الذنب العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم وقيل غفور عند اعطاء الاجر شكور عند اعطاء الزيادة *(تنبيه)* فى خبر ان من قوله ان الذين يتلون كتاب الله وجهان أحدهما أنه الجملة من قوله تعالى يرجون تجارة أى ان التالين يرجون وان تبور صفة تجارة وليوفيهم متعلق بيرجون أو بتبور أو بمحذوف أى فعلوا ذلك ليوفيهم وعلى الوجهين الاولين يجوز أن تكون لام العاقبة والثانى ان الخبر انه غفور شكور وجوز هذا الزمخشرى على حذف العائد أى غفور لهم وعلى هذا فيرجون حال من أنفقوا أى أنفقوا ذلك راجين * ولما بين تعالى الاصل الاول وهو وجود الله تعالى الواحد بالدلائل فى قوله تعالى الله الذى يرسل الرياح وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله تعالى (والذى أوحينا) أى بما لنا من العظمة (اليك من الكتاب) أى الجامع خيرى الدارين *(تنبيه)* من الكتاب يجوز أن تكون من للبيان كما يقال أرسل الى فلان من الثياب جملة وأن تكون للجنس وأن تكون لابتداء الغاية كما يقال جاء فى كتاب من الامير وعلى كل فالكتاب يمكن أن يراد به اللوح

المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ (هو الحق) أى الكامل فى الثبات ومطابقة الواقع ويمكن ان يراد به القرآن وهو ما اقتصر عليه الجلال المحلى يعنى الارشاد والتبيين الذين أوحينا اليك من القرآن ويمكن أن تكون من للتبعيض وهو فصل أو مبتدأ وقوله تعالى (مصدقا لما بين يديه) أى لما تقدمه من الكتب حال مؤكدة لان الحق لا ينفك عن هذا التصديق وهذا تقرير لكونه وحيا لان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا وأتى ببيان ما فى كتاب الله لا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى (فان قيل) لم جعل ما تقدم مصدقا للقرآن (أجيب) بان القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى وأما ما تقدم فلا بد فيه من معجزة تصدقه *(تنبيه)* قوله تعالى هو الحق آكد من قول القائل الذى أوحينا اليك حق من وجهين أحدهما أن التعريف للخبر يدل على أن الامر فى غاية الظهور لان الخبر فى الاكثر يكون نكرة الثانى أن الاخبار فى الغالب تكون اعلاما بثبوت أمر لا يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر معلوما فتكون الاخبار للنسبة فتعرف باللام كقولنا ان زيدا العالم فى هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (بعباده لخبير) أى عالم أدق العلم وأتقنه ببواطن أحوالهم (بصير) أى بظواهر أمورهم وبواطنها أى فهو يسكن الخشية والعلم فى القلوب على قدر ما أوتوا من الكتاب فى علمه فأنت أحقهم بالكمال لانك أخشاهم وأتقاهم فلذلك آتيناك هذا الكتاب المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للدلالة على أن العمدة فى ذلك الامور الروحانية وقوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب) فى معناه وجهان أحدهما انا أوحينا اليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أى حكمنا بتوريثه أو قال تعالى أورثنا وهو يريد نورثه فعبر عنه بالماضى لتحققه وقال مجاهد أورثنا أعطينا لان الميراث اعطاء واقتصر على هذا الجلال المحلى وقيل أورثنا أخرنا ومنه الميراث لانه تأخر عن الميت ومعناه أخرنا القرآن من الامم السالفة وأعطيناكموه وأهلناكم له *(تنبيه)* أكثر المفسرين على أن المراد بالكتاب القرآن وقيل ان المراد جنس الكتاب (الذين اصطفينا) أى اخترنا (من عبادنا) قال ابن عباس رضى الله عنه يريد بالعباد أمة محمد صلى الله عليه وسلم أى من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم الى يوم القيامة ونقل ابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنه أن الله تعالى أورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم كل كتاب أنزله أى لان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله تعالى وحمل الكتاب الذى هو أفضل كتب الله تعالى ثم قسمهم بقوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) أى فى التقصير بالعمل به (ومنهم مقتصد) أى يعمل به فى أغلب الاوقات (ومنهم سابق بالخيرات) وهو من يضم الى العمل به التعليم والارشاد الى العمل روى أسامة بن زيد فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الامة وروى أبو عثمان النهدى قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية

فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وروى أبو الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الآية قال اما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ قوله تعالى الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الآية وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية فقالت يا بني كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم وأما الظالم فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا وقال مجاهد والحسن فمنهم ظالم لنفسه هم أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد هم أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون المقربون من الناس كلهم وعن ابن عباس رضي الله عنه قال السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر نعمة الله تعالى غير الجاحد لها لانه تعالى حكم للثلاثة بدخول الجنة وقيل الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذى تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذى رجحت حسناته وقيل الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد غير التوحيد وقيل الظالم صاحب الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم وقيل الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل به والمقتصد التالى العالم غير العامل والسابق التالى العالم العامل وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقال جعفر الصادق بدأ بالظالم اخبارا بأنه لا يتقرب اليه الا بكرمه وان الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة وقال أبو بكر الوراق رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لان أحوال العبد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فاذا عصى دخل في حيز الظالمين فاذا تاب دخل في جملة المقتصدين فاذا صحت التوبة وكثرت العبادة والمجاهدة دخل في عداد السابقين وقيل غير ذلك والله أعلم * ولما كان هذا ليس في قوة العبد في مجارى العادات ولا يوجد بالكسب والاجتهاد أشار الى عظمته بقوله تعالى (باذن الله) أى بتمكين من له القدرة التامة والعظمة العامة والفعل بالاختيار وجميع صفات الجمال والجلال والكمال وتسهيله وتيسيره لئلا يأمن أحد مكره تعالى قال الرازى في اللوامع ثم من السابقين من يبلغ محل القرب فيستغرق في وحدانيته تعالى (ذلك) أى ايراثهم الكتاب أو السبق أو الاصطفاء (هو الفضل الكبير) ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوالهم بين جزاءهم ومآلهم بقوله تعالى مستأنفا جوابا لمن سأل عن ذلك (جنات عدن) أى اقامة بلا رحيل لانه لا سبب للترحيل عنها وقوله تعالى (يدخلونها) أى الثلاثة أصناف خبر جنات عدن ومن دخلها لم يخرج منها لانه لا شئ يخرجه ولا هو يريد

الخروج منها وقرأ أبو عمرو بضم الياء وفتح الحاء والباقون بفتح الياء وضم الحاء * ولما كان الداخل الى مكان أول ما ينظر الى مافيه من النفائس قال تعالى (يحلون فيها) أى يلبسون على سبيل التزين والتحلى (من أساور) أى بعض أساور (من ذهب) فمن الاولى للتبعيض والثانية للتبيين وقوله تعالى (ولؤلؤ) عطف على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ وقرأ عاصم ونافع بالنصب عطفا على محل من أساور والباقون بالجر * (تنبيه) * أساور جمع أسورة وهى جمع سوار وذكر الاساور من بين سائر الحلى فى مواضع كثيرة كقوله تعالى وحلوا أساور من فضة يدل على كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان كثرة الاعمال باليد فاذا حليت بالاساور علم الفراغ من الاعمال ولما كانت هذه الزينة لاتليق الاعلى اللباس الفاخر قال تعالى (ولباسهم فيها حرير وقالوا) أى ويقولون عند دخولهم وعبر عنه بالماضى تحقيقاله (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حزن النار وقال قتادة حزن الموت وقال مقاتل لانهم كانوا لايدرون مايصنع بهم وقال عكرمة حزن السيآت والذنوب وخوف ردّ الطاعات وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال القيامة وقال الكلبى ماكان يحزنهم فى الدنيا من أمر يوم القيامة وقال سعيد بن جبير الحزن فى الدنيا وقيل هم المعيشة وقال الزجاج اذهب الله تعالى عن أهل الجنة كل الاحزان ماكان منها لمعاش أو معاد اى وهذا أولى الكل قال عليه الصلاة والسلام ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم ولافى منشرهم وكأنى بأهل لا اله الا الله ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ثم قالوا (ان ربنا) أى المحسن الينا مع اساءتنا (لغفور) أى محاء للذنوب عنا وأثر للمنفين الاولين ولغيرهما من المذنبين (شكور) للصنف الثالث ولغيره من المطيعين * (تنبيه) * ذكر الله تعالى عن هذه الثلاثة ثلاثة أمور كلها تفيد الكرامة الاول قولهم الحمد لله فان الحامد يثاب الثانى قولهم ربنا فان الله تعالى اذا نودى بهذا اللفظ استجاب للمنادى مالم يكن يطلب مالا يجوز الثالث قولهم غفور شكور والغفور اشارة الى ماغفرلهم فى الآخرة بحمدهم فى الدنيا والشكور اشارة الى مايعطيهم الله ويزيدهم بسبب حمدهم فى الآخرة وقولهم (الذى أحلنا دار المقامة) أى الاقامة اشارة الى ان الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل منها الى منزلة القبور ومن القبور الى منزلة العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق الى دار البقاء اما الى الجنة واما الى النار أجارنا الله تعالى ومحبينا منها وقولهم (من فضله) أى بلا عمل منا فان حسناتنا انما كانت منا منه تعالى اذلا واجب عليه متعلق بأحلنا ومن اما للعلة واما لابتداء الغاية وقولهم (لايمسنا فيها) أى فى وقت من الاوقات (نصب ولايمسنا فيها لغوب) حال من مفعول أحلنا الاول أو الثانى لان الجملة مشتملة على ضمير كل منهما وان كان الحال من الاول أظهر والنصب التعب والمشقة واللغوب الفتور الناشئ عنه وعلى هذا فيقال اذا انتفى السبب انتفى المسبب فاذا قيل لم آكل فيعلم انتفاء الشبع فلا حاجة الى قوله ثانيا فلم أشبع بخلاف العكس الاترى انه يجوز لم أشبع ولم آكل والآية

الكريمة على ماتقرر من نفي السبب ثم نفي المسبب فما فائدته أجيب بأن النصب هو تعب البدن واللغوب هو تعب النفس وقيل اللغوب الوجع وحينئذ فالسؤال زائل وأجاب الرازي بجواب قال ابن عادل ليس بذاك فتركته * ولما بين تعالى ماهم فيه من النعمة في دار السرور التي قال فيها القائل

علياء لاتنزل الاحزان ساحتها * لومسها حجر مسته سراء

بين مالاعدائهم من النقمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم وتفخارهم بقوله تعالى (والذين كفروا) أي ستروا مادلت عليه عقولهم من شموس الآيات وأنوار الدلالات (لهم نار جهنم) أي بما جهموا أولياء الله الدعاة اليه (لايقضى) أي يحكم (عليهم) أي بموت ثان (فيموتوا) أي فيتسبب عن القضاء موتهم فيستريحوا كقوله تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك أي بالموت فنستريح بل العذاب دائم * (تنبيه) * نصب فيموتوا باضمار ان * ولما كانت الشدائد في الدنيا تنفرج وان طال أمدها قال تعالى (ولايخفف عنهم) وأعرق في النفي بقوله تعالى (من عذابها) أي جهنم * (تنبيه) * في الآية الاولى أن العذاب في الدنيا ان دام قتل وان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا لايحس به المعذب فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اماأن يفنى واماأن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم الثانية وصف العذاب بأنه لايفتر ولاينقطع ولابأقوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنوه ولايجابون كما قال تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك أي بالموت الثالثة ذكر في المعذبين الاشقياء أنه لاينقضي عذابهم ولم يقل تعالى نزيدهم عذابا وفي المثابين قال تعالى يزيدهم من فضله وقوله تعالى (كذلك) اما مرفوع المحل أي الامر كذلك واما منصوبه أي مثل ذلك الجزاء العظيم (نجزي كل كفور) أي كافر بالله تعالى وبرسوله وقرأ أبوعمرو بياء مضمومة وفتح الزاي ورفع كل والباقون بنون مفتوحة وكسر الزاي ونصب كل (وهم) أي فعل ذلك بهم والحال انهم (يصطرخون فيها) أي يوجدون الصراخ فيها بغاية مايقدرون عليه من الجهد في الصياح من البكاء والتوجع يقولون (ربنا) أي أيها المحسن الينا (أخرجنا) أي من النار (نعمل صالحا) ثم فسروه وبينوه بقولهم (غير الذي كنا نعمل) في الدنيا (فان قيل) هلا اكتفى بقولهم نعمل صالحا كما اكتفى به في قولهم فارجعنا نعمل صالحا وما فائدة زيادة غير الذي كنا نعمل على أنه يوهم انهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذي عملوه (أجيب) بأن فائدته زيادة التحسر على ماعملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل بظهور حالهم في الكفر وظهور المعاصي ولانهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فقالوا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نحسبه صالحا فنعمله فيقال لهم توبيخا وتقريعا (أولم نعمركم) أي نطل أعماركم مع اعطائنا لكم العقول ولم نعاجلكم بالاخذ (ما) أي زمانا (يتذكر فيه من تذكر) قال عطاء وقتادة

والكلبي ثماني عشرة سنة وقال الحسن أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة وروى ذلك عن علي وروى البزار أنه صلى الله عليه وسلم قال العمر الذي أعذر الله تعالى فيه الى ابن آدم ستون سنة وروى البخاري انه صلى الله عليه وسلم قال من عمره الله ستين سنة فقد أعذر اليه في العمر وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال أعمار أمتي ما بين الستين الى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على أولم نعمركم لانه في معنى قد عمرناكم كقوله ألم نربك ثم قال ولبثت وقال تعالى ألم نشرح لك صدرك ثم قال تعالى ووضعنا عنك وزرك اذ هما في معنى ربيناك وشرحنا واختلف في النذير فقال الاكثرون هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل القرآن وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع هو الشيب والمعنى أولم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفي الاثر ما من شعرة تبيض الا قالت لاختها استعدي فقد قرب الموت * ولما تسبب عن ذلك ان عذابهم لا ينفك قال تعالى (فذوقوا) أي ما أعددناه لكم من العذاب دائما أبدا (فما للظالمين) أي الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها (من نصير) أي في وقت الحاجة حتى يرفع العذاب عنهم قال البقاعي وهذا عام في كل ظالم * ولما كان تعالى عالما بكل ما تقى وما أبقى قال تعالى (ان الله) أي الذي أحاط بكل شئ قدرة وعلما (عالم غيب السموات والارض) لا تخفى عليه خافية فلا يخفى عليه تعالى أحوالهم وقوله تعالى (انه عليم بذات الصدور) تعليل له لانه اذا علم مضمرات الصدور قبل أن يعلمها أربابها حتى تكون غيبا محضا كان أعلم بغيره ويعلم انكم لو مدت أعماركم لم ترجعوا عن الكفر أبدا ولو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه وانه لا مطمع في صلاحكم * ولما كان من انشأ شيأ كان أعلم به قال تعالى (هو) أي وحده لا شركاؤكم ولا غيرهم (الذي جعلكم) أيها الناس (خلائف في الارض) أي يخلف بعضكم بعضا وقيل جعلكم أمة واحدة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن يعتبر به وقال القشيري أهل كل عصر خليفة عمن تقدمهم فمن قوم هم لسلفهم جمال ومن قوم هم أراذل وأسافل *(تنبيه)* خلائف جمع خليفة وهو الذي يقوم بعد الانسان بما كان قائما به والخلفاء جمع خليفة قاله الاصبهاني (فمن كفر فعليه كفره) أي وبال كفره (ولا) أي والحال انه لا (يزيد الكافرين) أي المغطين للحق (كفرهم) أي الذي هم متلبسون به ظانون أنه يسعدهم وهم راضون فيه غير منتقلين عنه (عند ربهم) أي المحسن اليهم (الا مقتا) أي غضبا لان الكافر السابق كان ممقوتا (ولا يزيد الكافرين) أي العريقين في صفة التغطية للحق (كفرهم الا خسارا) أي للآخرة لان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله تعالى ربح ومن اشترى به سخط الله تعالى خسر ولما بين أنه سبحانه هو الذي استخلفهم أكد بيان ذلك عندهم بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم الى الاعتراف بقوله تعالى (قل) أي لهم (أرأيتم) أي أخبروني (شركاءكم) أضافهم اليهم لانهم وان كانوا جعلوهم شركاءه لم ينالوا شيأ من شركته لانهم ما نقصوه شيأ من ملكه وانما شاركوا العابدين في أموالهم بالسوائب

وغيرها وفي أعمالهم فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه ثم بين المراد من عدهم لهم شركاء بقوله
تعالى (الذين تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي غيره وهم الاصنام الذين زعمتم
انهم شركاء الله تعالى (أروني) أي اخبروني (ماذا) أي الذي أو أي شيء (خلقوا
من الارض) أي لتصح لكم دعوى الشركة فيهم والا فادعاؤكم ذلك فيهم كذب محض وانكم
تدعون أنكم أبعد الناس منه في الامور الهينة فكيف بمثل هذا (أم لهم شرك) أي شركة
مع الله تعالى وان قلت (في السموات) أي أروني ماذا خلقوا لكم من السموات فالآية
من الاحتباك حذف أولا الاستفهام عن الشركة في الارض لدلالة مثله في السماء ثانيا عليه
وحذف الامر بالاراءة ثانيا لدلالة مثله أولا عليه (أم آتيناهم كتابا) ينطق على انا اتخذناهم
شركاء (فهم) الاحسن في هذا الضمير أن يعود على الشركاء لتناسق الضمائر وقيل يعود على
المشركين قاله مقاتل فيكون التفاتا من خطاب الى غيبة (على بينة) أي حجة (منه) بأن
لهم معي شركة ولما كان التقدير لا شيء لهم من ذلك قال تعالى منبها على ذميم أحوالهم وسفه
آرائهم وخسة هممهم ونقصان عقولهم (بل ان) أي ما (يعد الظالمون) أي الواضعون
الاشياء في غير موضعها (بعضهم بعضا) أي الاتباع للمتبوعين بأن شركاءهم تقربهم الى الله
تعالى زلفى وأنها تشفع وتضر وتنفع (الا غرورا) أي باطلا ولما بين تعالى حقارة الاصنام
بين عظمته سبحانه بقوله تعالى (ان الله) أي الذي له جميع صفات الكمال (يمسك السموات)
أي على كبرها وعلوها (والارض) أي على سعتها وبعدها عن التماسك على ما تشاهدون
وقوله تعالى (أن تزولا) أي برجة عظيمة وزلزلة كبيرة يجوز أن يكون مفعولا من أجله
أي كراهة أن تزولا وقيل لئلا تزولا ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا على اسقاط الخافض أي
يمنعهما من أن تزولا ويجوز أن يكون بدل اشتمال أي يمنع زوالهما لا اثباتهما على ما هما
عليه على غير القياس لولا شامخ قدرته وباهر عزته وعظمته فان ادعيتم عنادا أن شركاءكم
لا يقدرون على الخلق لعلة من العلل فادعوهم لازالة ما خلق الله تعالى * ولما كان في هذا
دليل على أنهما حادثتان زائلتان أتبعه ما هو أبين منه بقوله تعالى معبرا بأداة الامكان
(ولئن) لام قسم (زالتا) أي بزلزلة خراب أو غير ذلك (ان) أي ما (أمسكهما من أحد
من بعده) جواب القسم الموطأ له بلام القسم وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب
القسم ولذلك كان فعل الشرط ماضيا وقول البيضاوي تبعا للزمخشري والجملة سدت مسد
الجوابين فيه تجوز فالمراد بسدها مسدهما أنها تدل عليهما لا أنها قائمة مقامهما اذ يلزم أن
تكون معمولة وغير معمولة لانها باعتبار جواب القسم لا محل لها من الاعراب وباعتبار
جواب الشرط لها محل ومن في من أحد مزيدة لتأكيد الاستغراق وفي من بعده لابتداء الغاية
والمعنى أحد سواه أو من بعد الزوال (انه كان) أي أزلا وأبدا (حليما) اذ أمسكهما وكانتا جديرتين
بأن تهدا هدا كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا لانه
لا يستعجل الا من يخاف الفوت فينتهز الفرصة (غفورا) أي محاء للذنوب من رجع اليه وأقبل

بالاعتراف

بالاعتراف عليه فلا يعاقبه ولا يعاتبه * ولما بلغ كفار مكة ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم (وأقسموا) أى كفار مكة (بالله) اى الذى لا يقسم بغيره (جهد أيمانهم) أى غاية اجتهادهم فيها (لئن جاءهم نذير) أى رسول (ليكونن أهدى من احدى الامم) أى اليهود والنصارى وغيرهم أى أية واحدة منها لما رأوا من تكذيب بعضها بعضا اذ قالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ (فلما جاءهم نذير) أى على ما شرطوا وزيادة وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى كانوا يشهدون أنه خيرهم نفسا وأشرفهم نسبا وأكرمهم خلقا (ما زادهم) اى مجيئه شيأ مما هم عليه من الاحوال (الا نفورا) أى تباعدا عن الهدى لانه كان سببا فى زيادتهم فى الكفر كالابل التى كانت نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بسبب دعائه نفرة فصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم انهم أوفى الناس ولا صدق عندهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق ثم علل نفورهم بقوله تعالى (استكبارا) أى طلبا لايجاد الكبر لانفسهم (فى الارض) أى التى من شأنها السفول والتواضع والخمول فلم يكن نفورهم لامر محمود ولا مباح ويجوز أن يكون استكبارا بدلا من نفورا وأن يكون حالا أى حال كونهم مستكبرين قاله الاخفش وقوله تعالى (ومكر السيئ) فيه وجهان أظهرهما أنه عطف على استكبارا والثانى أنه عطف على نفورا وهذا من اضافة الموصوف الى صفته فى الاصل اذ الاصل والمكر السيئ والبصريون يؤولونه على حذف موصوف أى العمل السيئ اى الذى من شأنه أن يسوء صاحبه وغيره وهو ارادتهم لاهانة أمر النبى صلى الله عليه وسلم واطفاء نور الله عز وجل وقال الكلبى هو اجتماعهم على الشرك وقتل النبى صلى الله عليه وسلم وقرأ حمزة فى الوصل بهمزة ساكنة أى بنية الوقف اشارة الى تدقيقهم المكر واتقانه واخفائه جهدهم والباقون بهمزة مكسورة واذا وقف حمزة أبدل الهمزة ياء وأدغم الياء الاولى فى الياء الثانية ووقف الباقون بهمزة ساكنة (ولا) أى والحال أنه لا (يحيق) أى يحيط احاطة لازمة خسارة (المكر السيئ) أى الذى هو عريق فى السوء (الا بأهله) أى وان أذى غير أهله لكنه لا يحيط بذلك الغير (فان قيل) كثيرا ما نرى الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك (أجيب) بأجوبة أحدها أن المكر فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره ثانيها أنه عام وهو الاصح ويدل له قول الزهرى بلغنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله تعالى يقول وقرأ هذه الآية ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا يقول الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثا قال الله تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه ثالثها أن الاعمال بعواقبها ومن مكر بغيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر فهو فى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك كمثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون) أى ينتظرون (الا سنت الاولين) أى سنة الله تعالى فيهم من تعذيبهم

بتكذيبهم رسلهم والمعنى فهل ينتظرون الا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار ولما كان هذا النظر يحتاج الى صفاء فى اللب وذكاء فى النفس عدل عن ضميرهم الى خطاب أعلى الخلق بقوله تعالى (فلن تجد) أى فى وقت من الاوقات (لسنت الله) أى طريقة الملك الاعظم التى شرعها وحكم بها وهى اهلاك العاصين وانجاء الطائعين (تبديلا) أى من أحد يأتى بسنة غيرها تكون بدلا لها لانه تعالى لا مكافئ له (ولن تجد لسنت الله) أى الذى لا أمر لاحد معه (تحويلا) أى من حالة الى أخف منها لانه لا مرد لقضائه * (فائدة) * ترسم سنت لسنت لسنت الثلاثة بالتاء المجرورة كما رأيت ووقف أبو عمرو وابن كثير والكسائى بالهاء والباقون بالتاء واذا وقف الكسائى أمال الهاء على أصله ولما ذكر الله تعالى الاولين وسنتهم فى اهلاكهم نبههم بتذكير حال الاولين بقوله تعالى (أولم يسيروا) أى فيما مضى من الزمان (فى الارض) أى التى ضربوا فى المتاجر بالسير اليها فى الشأم واليمن والعراق (فينظروا) أى فيتسبب عن ذلك السير أنه يتجدد لهم نظر واعتبار يوما من الايام فان العاقل من اذا رأى شيأ تفكر فيه حتى يعرف ما ينطق به لسان حاله ان خفى عليه ما يجرى من مقاله وأشار بسوقه فى أسلوب الاستفهام الى أنه لعظمه خرج عن أمثاله فاستحق السؤال عن حاله (كيف كان عاقبة) أى آخر أمر (الذين من قبلهم) أى على أى حالة كان آخر أمرهم ليعلموا أنهم ما أخذوا الا بتكذيب الرسل عليهم السلام فيخافوا أن يفعلوا مثل افعالهم فيكون حالهم كحالهم فانهم كانوا يمرون على ديارهم ويرون آثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم وكانوا أطول منهم أعمارا وأشد اقتدارا ومع هذا لم يكذبوا مثل محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم يا أهل مكة كفرتم بمحمد ومن قبله عليهم السلام (وكانوا) أى أهلكناهم لتكذيبهم رسلنا والحال أنهم كانوا (أشد منهم) أى من هؤلاء (قوة وما كان الله) أى الذى له جميع العظمة وأكد الاستغراق فى النفى بقوله تعالى (ليعجزه) أى مريدا الان يعجزه ولما انتفت ارادة العجز فيه انتفى العجز بطريق الاولى وأبلغ فى التأكيد بقوله تعالى (من شئ) أى قل أو جل وعم بما يصل اليه ادراكنا بقوله تعالى (فى السموات) أى جهة العلو وأكد بقوله عز وجل (ولا فى الارض) أى جهة السفل (انه كان) أى أزلا وأبدا (عليما) أى بالاشياء كلها حقيرها وجليلها (قديرا) أى كامل القدرة أى فلا يريد شيأ الا كان ولما كانوا يستعجلون بالتوعد استهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم على ان التقدير ولو عاملكم الله تعالى معاملة المؤاخذ لعجل اهلاككم عطف عليه قوله تعالى اظهارا للحكم مع العلم (ولو يؤاخذ الله) أى عاملهم صفات العلو (الناس) أى المكلفين (بما كسبوا) أى من المعاصى (ما ترك على ظهرها) أى الارض (من دابة) أى نسمة تدب عليها كما كان فى زمن نوح عليه السلام أهلك الله تعالى ما على ظهر الارض الا من كان فى السفينة مع نوح (فان قيل) اذا كان الله تعالى يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب (أجيب) بأن المطر انعام من الله فى حق العباد واذا لم يستحقوا الانعام قطعت الامطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فيموت

جميع الحيوانات وبأن خلقة الحيوانات نعمة والمعاصي تزيل النعم وتحل النقم والدواب أقرب النعم لان المفرد أول ثم المركب والمركب اما أن يكون معدنا واما أن يكونناميا والنامي اما أن يكون حيوانا أونباتا والحيوان اما انسان أوغيرانسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان (فان قيل) كيف يقال لما عليه الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع أن الظهر مقابله الوجه فهو كالمتضاد (أجيب) بأن الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على الظهر وأما وجه الارض فلان الظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الارض ظهر لانه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن (ولكن) لم يعاملهم معاملة المؤاخذ المناقش بل يحلم عنهم فهو (يؤخرهم) أي في الحياة الدنيا ثم في البرزخ (الى أجل مسمى) أي سماه في الازل لانقضاء أعمارهم ثم يبعثهم من قبورهم وهو تعالى لا يبدل القول لديه لما له من صفات الكمال (فاذا جاء أجلهم) أي الفناء الاعدامي قبض كل واحد منهم عند أجله أو الايجاد الابقائي بعث كلا منهم فجازاه بعمله (فان الله) أي الذي له الصفات العليا (كان) ولم يزل (بعباده) الذين أوجدهم ولا شريك له في ايجاد واحد منهم بجميع ذواتهم وأحوالهم (بصيرا) أي بالغ البصر والعلم بمن يستحق العذاب ومن يستحق الثواب قال ابن عباس يريد أهل طاعته وأهل معصيته وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الملائكة دعته يوم القيامة ثمانية أبواب الجنة ان ادخل من أي الابواب شئت حديث موضوع

(سورة يس مكية)

وهي ثلاث وثمانون آية وسبعمائة وتسعة وعشرون كلمة وثلاثة آلاف حرف وتسمى أيضا القلب والدافعة والقاضية والمعممة تعم صاحبها بخير الدارين وتدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة والبيضاوي ذكر هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال شيخنا القاضي زكريا لم أره ولكن المثبت مقدم على النافي (بسم الله) أي الذي جل ملكه عن أن يحاط بمقداره (الرحمن) الذي جعل انذاريوم الجمع رحمة عامة (الرحيم) الذي أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه وقوله تعالى (يس) كالم في المعنى والاعراب وقال ابن عباس يس قسم وروي عن شعبة أن معناه يا انسان بلغة طيّ على ان أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل م الله في أيمن الله وقال أكثر المفسرين يعني محمدا صلى الله عليه وسلم قاله الحسن وسعيد بن جبير وجماعة وقال أبو العالية يارجل وقال أبو بكر الوراق ياسيد البشر قال ابن عادل في ذكر هذه الحروف أوائل السور أمور تدل على انها غير خالية من الحكمة لكن علم الانسان لا يصل اليها والذي يدل على أن فيها حكمة هو أن الله عز وجل ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفا نصف ثمانية وعشرين حرفا هي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم ان الله تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال والتسعة الاخيرة من الفاء الى الياء وعشرة في الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين

الالف والهاء وترك سبعة وترك من القسم الاخير حرفين هما الالف واللام وذكر سبعة ولم يترك
من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم
الاخير من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاوسط ذكر منه حرفا وترك حرفا
فترك الزاى وذكر الراء وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء
وذكر العين وترك الغين وليس لها أمر يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة لكنها غير
معلومة وهب ان واحدا يدعى فيه شيأ فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة
ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كالم
وطسم والر وبعضها بأربعة أحرف كسورة المر والمص وبعضها بخمسة احرف كسورة
حم عسق وكهيعص وهب أن قائلا يقول ان هذه اشارة بأن الكلام اما حرف واما فعل واما
اسم والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف
التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط
وان للشرط وغيرها والفعل والاسم والحرف جاءت ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلى
فى الاسم وألا يألو بالواو وعلا يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاآ على أربعة أحرف والاسم
خاصة جاء على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة كعجل ومسجد وبرد حل فما جاء فى القرآن اشارة الى
أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص
بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر الا الله تعالى ومن أعلمه الله
تعالى به واذا علم هذا فالعبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحد منها قسمان
قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم أما القلبية مع انها أبعد عن الشك والجهل فمنها ما لم يعلم
دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذى هو أدق من الشعر وأحد
من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لا ثقل لها
فى نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم
بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله
تعالى وصدق الرسل وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد
الركعات والحكمة فى ذلك ان العبد اذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا
يكون الاتيان الا لمحض العبادة بخلاف ما لم تعلم الفائدة فربما يأتى للفائدة وان لم يؤمر كما لو قال
السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها
كنزا هو لك فانه ينقلها وان لم يؤمر واذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية يجب أن
يكون ما لم يفهم معناه اذا تكلم به العبد علم انه لا يعقل غير الانقياد لامر المعبود الالهى فاذا
قال حم طس يس علم انه لا يذكر لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به انتهى كلام ابن
عادل بحروفه وهو كلام دقيق وقرأ يس بامالة الياء شعبة وحمزة والكسائى والباقون بالفتح
وأظهر النون من يس عند واو (والقرآن) قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة

وأدغم الباقون وهي واو القسم أو العطف ان جعل يس مقسما به ثم وصف القرآن بقوله تعالى (الحكيم) أى المحكم بعظيم النظم وبديع المعانى وقوله تعالى (انك لمن المرسلين) أى الذين حكمت عقولهم على دواعى نفوسهم فصاروا وأعاوهم الله من القوة النورانية وعما تخلقوا به من أوامره ونواهيه كالملائكة الذين تقدم ذكرهم فى السورة الماضية انهم رسله جواب القسم وهو ردّ على الكفار حيث قالوا لست مرسلا (فان قيل) المطلب يثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة بالاقسام (أجيب) بأوجه أولها أنّ العرب كانوا يتقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون انّ الايمان الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون انّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم وهي الكواكب عذاب والنبيّ صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وانزال كلامه عليه بأشياء مختلفة وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب ثانيها أنّ المناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المغلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالتك وتعلم أنّ الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه الدليل صورة وعجزت أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتى هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ما قاله فى الاوّل فلا يجد أمرا الا اليمين فكذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم أقام البراهين وقالت الكفرة ما هذا الا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين فالتمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل ثالثها ان هذا ليس بمجرّد الحلف بل دليل خرج فى صورة اليمين لانّ القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك (فان قيل) لم لم يذكر فى صورة الدليل وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين (أجيب) بأنّ الدليل اذا ذكر فى صورة اليمين واليمين لا يقع ولا سيما من العظيم الا على أمر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعى على الاصغاء اليه فلصورة اليمين يقبل عليه السامع لكونه دليلا شافيا يسربه الفؤاد فيقع فى السمع وفى القلب وقوله تعالى (على صراط) أى طريق واسع واضح (مستقيم) أى هو التوحيد والاستقامة فى الامر يجوز أن يكون متعلقا بالمرسلين تقول أرسلت عليه كذا قال تعالى وأرسل عليهم طيرا أبابيل وأن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من الضمير المستكن فى لمن المرسلين لوقوعه خبرا وأن يكون حالا من المرسلين وأن يكون خبرا ثانيا لانك وقرأ قنبل سراط بالسين عوضا عن الصاد وخلف بالاشمام وهو بين الصاد والزاى والباقون بالصاد الخالصة * ولما كان كأنه قيل ما هذا الذى أرسل به كان كأنه قيل جوابا هو القرآن الذى وقع الاقسام به وهو (تنزيل) أو حال كونه تنزيل (العزيز) أى المتصف بجميع صفات الجلال (الرحيم) أى الحاوى لجميع صفات الاكرام الذى ينعم على من يشاء من عباده بعد الانعام بايجادهم فهو الواحد المنفرد فى ملكه وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائى تنزيل بالنصب

على الحال كامرّ أو باضمار أعنى والباقون بالرفع على انه خبر مبتدا مضمر كامرّ * ولما ذكر تعالى المرسل وهو الله تعالى والمرسل وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمرسل به وهو القرآن ذكر المرسل لهم بقوله تعالى (لتنذر قوما) أى ذوى باس وقوة وذكاء وفطنة (ما أنذر) أى لم تنذر أصلا (آباؤهم) أى لم ينذروا فى زمن الفترة (فهم) أى بسبب زمان الفترة (غافلون) أى عن الايمان والرشد وقوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) فيه وجوه أشهرها أنّ المراد بالقول هو قوله تعالى لقد حق القول منى لاملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ثانيها أنّ معناه لقد سبق فى علمه تعالى أنّ هذا يؤمن وهذا لا يؤمن فحق القول أى وجب وثبت بحيث لا يبدل بغيره كما قال تعالى ما يبدل القول لدىّ ثالثها المراد لقد حق القول الذى قاله الله تعالى على لسان الرسل من التوحيد وغيره (فهم) أى بسبب ذلك (لا يؤمنون) أى بما يلقى اليهم من الانذار بل يزيدهم عمى استكبارا فى الارض ومكر السيئ * ونزل فى أبى جهل وصاحبه (انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) أى بأن تضم اليها الايدى لانّ الغل يجمع اليد الى العنق وذلك انّ أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدا صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخن رأسه فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه أثبتت يده الى عنقه ولزق الحجر بيده الى عنقه فلما رجع الى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال رجل من بنى مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلى ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه فرجع الى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت فقال ما رأيته ولقد سمعت كلامه وحال بينى وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لاكلنى فأنزل الله تعالى هذه الآية ووجه المناسبة لما تقدم انه لما قال تعالى لقد حق القول على أكثرهم وتقدم أنّ المراد به البرهان وقال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو مضطر الى الايمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا وقال أهل المعانى هذا على طريق المثل ولم يكن هناك غل اراد منعناهم عن الايمان بموانع فجعل الاغلال مثلا لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغنى عنهم الآيات والنذر بتمثيلهم بالذين غلت أيديهم وقال الفراء معناه حبسناهم عن الانفاق فى سبيل الله كقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك معناه ولا تمسكها عن النفقة ومناسبة هذا لما تقدم أنّ قوله تعالى فهم لا يؤمنون يدخل فيه انهم لا يصلون لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (فهى الى الاذقان) على وجهين أشهرهما انه عائد على الاغلال لانها هى المحدث عنها ومعنى هذا الترتيب بالفاء أنّ الغل لغلظه وعرضه يصل الى الذقن لانه يلبس العنق جميعه قال الزمخشرى والمعنى انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ثقالا بحيث تبلغ الى الاذقان فلم تمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه ثانيهما أنّ الضمير يعود الى الايدى واليه ذهب الطبرى وعليه جرى الجلال المحلى لانّ الغل لا يكون الا فى العنق واليدين ودلّ على الايدى وان لم تذكر

الملازمة المفهومة من هذه الآية أعني الغل وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون
الهاء والباقون بكسرها والاذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين (فهم مقمحون) أي
رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفتة الى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه
ولا يطأطؤن رؤسهم له والاقماح رفع الرأس الى فوق كالاقناع وهو من قمح البعير رأسه اذا
رفعها بعد الشرب اما لبرودة الماء واما لكراهة طعمه * ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من
النظر أمامه قال تعالى (وجعلنا) أي بعظمتنا (من بين أيديهم) أي الوجه الذي يمكنهم علمه
(سدا) فلا يسلكون طريق الاهتداء * ولما كان الانسان اذا انسدت عليه جهة مال الى أخرى
قال تعالى (ومن خلفهم) أي الوجه الذي هو خفي عنهم (سدا) فلا يرجعون الى الهداية فصارت
كل جهة يلتفتون اليها منسدة فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر الى الحق ولا الخلوص اليه فلذلك
قال تعالى (فأغشيناهم) أي جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة (فهم) أي بسبب
ذلك (لا يبصرون) أي لا يتجدد لهم هذا الوصف من ابصار الحق وما ينفعهم ببصر ظاهر ولا
بصيرة باطنة وأيضا الانسان مبدؤه من الله تعالى ومصيره اليه فعمي الكافرين بان لا يبصروا
ما بين أيديهم من المصير الى الله تعالى وما خلفهم من الدخول في الوجود بخلق الله تعالى لكن
أحاط بهم سد فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة
الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل وأيضا فان السالك اذا لم يكن له بد من سلوك
طريق فان انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع فاذا انسد الطريق من
خلفه ومن قدامه والموضع الذي هو فيه لا يكون موضع اقامة هلك (فان قيل) ذكر السد من
بين الايدي ومن الخلف ولم يذكره من اليمين والشمال فما الحكمة في ذلك (أجيب) بأنهم اذا
قصدوا السلوك الى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ وموليين عن شئ
فصار ما اليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله تعالى السد هناك فيمنعه من السلوك فكيفما
توجه الكافر يجعل الله تعالى بين يديه سدا وقرأ حمزة والكسائي وحفص سدا بفتح السين
في الموضعين وهو لغة فيه والباقون بالضم * ولما منعوا بذلك حس البصر أخبر عن حس السمع
بقوله تعالى (وسواء عليهم) أي مستو ومعتدل غاية الاعتدال (أأنذرتهم) أي بما أخبرناك
به من الزواجر المانعة للكفر (أم لم تنذرهم لا يؤمنون) لانهم ممن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون
وقد سبق أيضا في البقرة تفسيره والكلام على الهمزتين ثم بين الله تعالى الاقل الناجي لانه
المقصود بالذات بقوله تعالى (انما تنذر) أي انذارا ينفع المنذر فيتأثر عنه النجاة (من
اتبع الذكر) أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به (وخشي الرحمن) أي خاف عقابه (بالغيب) أي
قبل موته ومعاينة أهواله أو في سريرته ولا يغتر برحمته فانه تعالى كما هو رحمن رحيم منتقم جبار
(فبشره) أي بسبب خشيته بالغيب (بمغفرة) أي لذنوبه وان عظمت وتكررت * ولما حصل
العلم بمحو الذنوب عينها وأثرها قال تعالى (وأجر كريم) أي هو الجنة فانها دار لا كدر فيها
بوجه والمقصود منها هو النظر لوجهه الكريم اللهم متعنا ومحبينا بالنظر الى وجهك الكريم

ولما ذكر تعالى خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى بقوله تعالى (انا نحن) أى بما لنا من العظمة التى لا تضاهى (نحيى الموتى) أى كلهم حسا بالبعث ومعنى بالانقاذ اذا أردنا من ظلمة الجهل (ونكتب) أى جملة عند نفخ الروح وشيأ فشيأ بعده فلا يتعدى التفصيل شيأ فى ذلك الاجمال (ما قدموا) أى وأخروا من جميع أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم من صالح وغيره فاكتفى بأحدهما للدلالة الآخر عليه كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر أى والبرد وقيل المعنى ما أسلفوا من الاعمال صالحة كانت أو فاسدة كقوله تعالى بما قدمت أيديهم أى بما قدموا فى الوجوه وأوجدوه وقيل نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وقوله تعالى (وآثارهم) فيه وجوه أحدها وهو مبنى على التفسير الاخير وهو كتب النيات المراد بالآثار الاعمال ثانيها ما سنوا من سنة حسنة وسيئة فالحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والسيئة كالظلامات المستمرة التى وضعها الظلمة والكتب المضلة قال صلى الله عليه وسلم من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها من بعده كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيأ ومن سن فى الاسلام سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيأ ثالثها خطاهم الى المساجد لما روى أبو سعيد الخدرى قال شكت بنو سلمة بعد منازلهم عن المسجد فأنزل الله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ومشيكم ويثيبكم عليها وقال صلى الله عليه وسلم أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم مشيا والذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الامام أعظم أجرا من الذى يصلى ثم ينام (فان قيل) الكتابة قبل الاحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال تعالى نحيى الموتى ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم (أجيب) بأن الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها ان لم يكن هناك احياء ولا اعادة لا يبقى لها أثر أصلا والاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره فلهذا قدم الاحياء لانه تعالى قال انا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء العظيم يختص بالله تعالى والكتابة دونه تقرير التعريف الامر العظيم وذلك مما يعظم ذلك الامر العظيم ولما كان ذلك الامر ربما أوهم الاقتصار على ما ذكر من أحوال الآدميين دفع ذلك بقوله تعالى (وكل شئ) من أمور الدنيا والآخرة (أحصيناه) أى قبل ايجاده بعلمنا القديم احصاء وحفظا وكتبناه (فى امام) وهو اللوح المحفوظ (مبين) أى لا يخفى فيه شئ من جميع الاحوال والاقوال فهو تعميم بعد تخصيص لانه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شئ محصى فى امام مبين وهذا يفيد أن شيأ من الاقوال والافعال لا يعزب عن علم الله تعالى ولا يفوته كقوله تعالى وكل شئ فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعنى ليس ما فى الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شئ مكتوب لا يبدل فان القلم جف بما هو كائن فلما قال تعالى نكتب ما قدموا بين ان قبل ذلك كتابة أخرى فان الله تعالى كتب عليهم انهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوا كتب عليهم أنهم فعلوه وقيل ان ذلك مؤكد لمعنى قوله تعالى ونكتب لان من يكتب شيأ فى أوراق

وربما قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال تعالى نكتب ونحفظ ذلك فى امام مبين وهو كقوله تعالى علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى وقوله سبحانه وتعالى (واضرب) بمعنى واجعل (لهم) وقوله تعالى (مثلا) مفعول أول وقوله تعالى (أصحاب) مفعول ثان والاصل واضرب لهم مثلا مثل أصحاب (القرية) فترك المثل وأقيم الاصحاب مقامه فى الاعراب كقوله تعالى واسأل القرية قال الزمخشرى وقيل لا حاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم قال المفسرون المراد بالقرية انطاكية وقوله تعالى (اذ جاءها) الخ بدل اشتمال من أصحاب القرية أى اذ جاء أهلها (المرسلون) أى رسل عيسى عليه السلام واضافه الى نفسه فى قوله تعالى (اذ أرسلنا اليهم اثنين) لانه فعل رسوله عليه السلام واذ أرسلنا الخ بدل من اذ الاولى وفى هذا الطيفة وهى أن فى القصة أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا تفهم يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول واعلم رسل الله تعالى فتكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله تعالى اذ أرسلنا ويؤيد هذا مسئلة فقهية وهى ان كل وكيل للوكيل باذن الموكل عند الاطلاق وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول *(تنبيه)* فى بعث الاثنين حكمة بالغة وهى أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام باذن الله تعالى فكان عليهما انهاء الامر اليه والاتيان بما أمر الله تعالى والله سبحانه عالم بكل شئ لا يحتاج الى شاهد يشهد عنده وأما عيسى عليه السلام فبشر فأمر الله تعالى بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى عليه السلام حجة تامة وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم فى الوصل وحمزة والكسائى بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء والباقون بكسرها والجميع فى الوقف بسكون الميم (فكذبوهما) أى مع ما لهما من الآيات لان من المعلوم انا ما أرسلنا رسولا الا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر سواء أكان عنا من غير واسطة أو كان بواسطة رسولنا كما كان للطفيل بن عمرو الدوسى ذى النورين لما ذهب الى قومه وسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن تكون له آية فكانت نورا فى جبهته ثم سأل أن تكون فى غير وجهه فكانت فى سوطه * ولما كان المتظافر على الشئ أقوى لشأنه وأعون على ما يراد منه تسبب عن ذلك قوله تعالى (فعززنا) أى قوينا (بثالث) يقال عزز المطر الارض أى قواها ولبدها ويقال لتلك الارض العزاز وكذا كل أرض صلبة وتعزز لحم الناقة أى صلب وقوى والمفعول محذوف أى فقويناهما بثالث أو فغلبناهما بثالث لان المقصود من البعثة نصرة الحق لا نصرتهما والكل كانوا مقوين للدين بالبرهان قال وهب اسم المرسلين يحيى ويونس واسم الثالث شمعون وقال كعب الرسولان صادق ومصدوق والثالث سلوم وقرأ شعبة بتخفيف الزاى الاولى والباقون بتشديدها والزاى الثانية ساكنة بلا خلاف (فقالوا انا اليكم مرسلون) وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة

رأيا حبيبا النجار يرعى غنما فسلما عليه فقال من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن فقال أمعكما آية قالا نعم نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص باذن الله تعالى فقال ان لى ابنا مريضا منذ سنين قالا فانطلق بنا ننظر حاله فأتى بهما الى منزله فمسحاه فقام فى الوقت باذن الله تعالى صحيحا ففشا الخبر فى المدينة وآمن حبيب النجار وشفى الله تعالى على أيديهما كثيرا من المرضى وكان لهم ملك اسمه انطيخس وكان من ملوك الروم فانتهى الخبر اليه فدعاهما فقال لهما من أنتما فقالا رسولا عيسى عليه السلام قال وفيم جئتما قالا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر الى عبادة من يسمع ويبصر قال أولنا اله دون آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال قوما حتى أنظر فى أمركما وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة فلما كذبا وضربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين شمعون الصفار على أثرهما لينصرهما فدخل البلد متنكرا وجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به وأوصلوا خبره الى الملك فدعاه فرضى عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتهما حين دعوا الى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما فقال الملك حال الغضب بينى وبين ذلك قال فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون من أرسلكما الى ههنا قالا الله تعالى الذى خلق كل شئ وليس له شريك فقال لهما شمعون فصفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال لهما شمعون وما آيتكما قالا ما تتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك فقال شمعون للملك أرأيت ان سألت الهك يصنع مثل هذا حتى يكون لك الشرف ولآلهتك فقال الملك ليس لى عنك سر ان الهنا الذى نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون اذا دخل الملك على الصنم يدخل بدخوله ويصلى كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ثم قال الملك لهما ان قدر الهكما الذى تعبدانه على احياء ميت آمنا به وبكما قالا الهنا قادر على كل شئ فقال الملك ان ههنا ميتا مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائبا فجاؤا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سرا فقام الميت وقال انى دخلت سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله تعالى ثم قال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة قال شمعون وهذان وأشار الى صاحبيه فتعجب الملك لما علم فلما علم شمعون أن قوله أثر فى الملك أخبره بالحال ودعاه فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون فمن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا وقيل ان ابنة الملك كانت قد توفيت ودفنت فقال شمعون للملك اطلب من هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب الملك منهما ذلك فقاما وصليا ودعوا الله تعالى وشمعون معهما فى السر فأحيا الله تعالى المرأة ثم انشق القبر عنها فخرجت وقالت أسلموا فانهما صادقان قالت ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها الى مكانها فذرا ترابا على رأسها فعادت الى قبرها كما كانت وقال ابن

سحق عن كعب و وهب بل كفروا جمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الاقصى فجاء يسعى اليهم يذكرهم ويدعوهم الى طاعة المرسلين (قالوا) أى أهل القرية للرسل (ما أنتم) أى وان زاد عددكم (الا بشر مثلنا) لا مزية لكم علينا فما وجه الخصوصية لكم فى كونكم رسلا دوننا فجعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام فى المشركين قالوا فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أأنزل عليه الذكر من بيننا وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان فرد الله عليهم بقوله سبحانه الله أعلم حيث يجعل رسالاته و بقوله تعالى الله يجتبى اليه من يشاء الى غير ذلك * (تنبيه) * رفع بشر لانتقاض النفى المقتضى اعمال ما بالا ثم قالوا (وما أنزل الرحمن) أى العام الرحمة فعموم رحمته مع استوائنا فى عبوديته يقتضى أن يسوى بيننا فى الرحمة فلا يخصكم بشئ دوننا وأغرقوا فى النفى بقولهم (من شئ) أى وحى و رسالة (ان) أى ما (أنتم الا تكذبون) أى فى دعوى رسالة حالا وما لا (قالوا) أى الرسل (ربنا) أى الذى أحسن الينا (يعلم) أى واهذا يظهر على أيدينا الآيات (انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم وزاد واللام المؤكدة لانه جواب عن انكارهم (وما علينا) أى وجوبا من قبل من ارسلنا (الا البلاغ المبين) أى المؤيد بالادلة القطعية من الحجج القولية والفعلية بالمعجزات وهى ابراء الاكمه والابرص واحياء الميت وغيرها فما كان جوابهم بعد هذا الا أن (قالوا انا تطيرنا) أى تشاءمنا (بكم) وذلك أن المطر حبس عنهم فقالوا أصابنا هذا بشؤمكم ولا ستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له ونفرتهم عنه قالوا (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) أى لنقتلنكم قال قتادة بالحجارة وقيل لنشتمنكم وقيل لنقتلنكم شر قتلة (وليمسنكم منا) أى لا من غيرنا (عذاب أليم) كأنهم قالوا لا نكتفى برجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو العذاب الأليم أو يكون المراد وليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب أليم أى مؤلم وان قلنا الرجم الشتم فكأنهم قالوا ولا يكفينا الشتم بل شتم يؤدى الى الضرب والايلام الحسى واذا فسرنا أليم بمعنى مؤلم ففعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل أن يقال هو من باب قوله تعالى عيشة راضية أى ذات رضا أى عذاب ذو ألم فيكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير ثم أجابهم المرسلون بأن (قالوا طائركم) أى شؤمكم الذى أحل بكم البلاء (معكم) وهو أعمالكم القبيحة التى منها تكذيبكم وكفركم فأصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس والضحاك حظكم من الخير والشر والهمزة فى قوله تعالى (أئن ذكرتم) أى وعظتم وخوفتم همزة استفهام وجواب الشرط محذوف أى تطيرتم وكفرتم فهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الثانية وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا و ورش وابن كثير بغير ادخال والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال * ولما كان ذلك لا يصح أن يكون سببا للتطير بوجه أضربوا عنه بقولهم (بل) أى ليس الامر كما زعمتم فى أن التذكير سبب التطير بل (أنتم قوم) اى غركم ما آتاكم الله من القوة على القيام فيما تريدون (مسرفون) أى عادتكم الخروج عن الحدود والطغيان

فعوقبتم لذلك * ولما كان السياق لان الامر بيد الله تعالى فلا هادى لمن يضلل ولا مضل لمن هدى فهو يهدى البعيد فى البقعة والنسب اذا أراد ويضل القريب فيهما اذا أراد وكان بعد الدار ملزوما فى الغالب لبعد النسب قدم مكان المجيء على فاعله بيانا لان الدعاء نفع الاقصى ولم ينفع الادنى فقال تعالى (وجاء من أقصى) أى أبعد بخلاف ما مر فى القصص ولاجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية وقال (المدينة) لانه أدل على الكبر المستلزم بعد الاطراف وجمع الاخلاط ولما بين الفاعل بقوله تعالى (رجل) بين اهتمامه بالنهى عن المنكر ومسابقته الى ازالته كما هو الواجب بقوله تعالى (يسعى) أى يسرع فى مشيه فوق المشى ودون العدو وحرصا على نصيحة قومه *(تنبيه)* فى تنكير الرجل مع أنه كان معلوما معروفا عند الله تعالى فيه فائدتان الاولى أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية الثانية أن يكون مفيدا ليظهر من جانب المرسلين أمر رجل من الرجال لامعرفة لهم به فلا يقال انهم تواطؤا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقال السدى كان قصارا وقال وهب كان يعمل الحرير وكان سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان منزله عند أقصى باب فى المدينة وكان مؤمنا وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حين صار من العلماء بكتاب الله تعالى ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته وقوله يسعى تبصير للمسلمين وهداية لهم ليبذلوا جهدهم فى النصح ولما تشوفت النفس الى الداعى الى اتيانه بينه بقوله تعالى (قال) واستعطفهم بقوله تعالى (ياقوم) وأمرهم بمجاهدة النفوس بقوله (اتبعوا المرسلين) أى فى عبادة الله تعالى وحده فجمع بين اظهار دينه واظهار النصيحة فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار ايمانه وقدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا فى النصيحة وأما الايمان فكان قد آمن من قبل وقوله يسعى يدل على ارادته النصح (فان قيل) ما الفرق بين مؤمن آل فرعون حيث قال اتبعونى أهدكم وهذا قال اتبعوا المرسلين (أجيب) بأن هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم ولم يعلموا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم ونصحهم مرارا فقال اتبعونى فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا أنه لو لم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ولم يكن الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يعلمون اتباعه لهم * ولما قال لهم اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) أى أجرة لان الخلق فى الدنيا سالكون طريق الاستقامة والطريق اذا كان فيه دليل وجب اتباعه وعدم الاستماع من الدليل لا يحسن الا عند أحد أمرين اما طلب الدليل الاجرة واما لعدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة (وهم مهتدون) عالمون بالطريق المستقيم الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين أليسوا بمهتدين فاتبعوهم وقوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) أصله ومالكم لا تعبدون ولكنه صرف الكلام عنه ليكون الكلام أسرع قبولا حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم الى عبادة غيره ولذلك قال (واليه

ترجعون)

ترجعون) دون واليه أرجع مبالغة فى التهديد وفى العدول عن مخاصمة القوم الى حال نفسه مبالغة فى الحكمة وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم لم يكن فى البيان مثل قوله مالى لانه لما قال مالى فأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل واحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لانه أعلم بحال نفسه وقوله الذى فطرنى أشار به الى وجود المقتضى فان قوله مالى اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى فقوله الذى فطرنى دليل المقتضى فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايجاد والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته وقدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى لان المقتضى لظهوره كان مستغنيا عن البيان فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان للحاجة اليه واختار من الآيات فطرة نفسه لان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لا يكون الا كامل القدرة واجب الوجود فهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر ايجابا *(تنبيه)* أضاف الفطرة الى نفسه والرجوع اليهم لان الفطرة أثر النعمة فكانت عليه أظهر وفى الرجوع معنى الزجر فكان بهم أليق روى أنه لما قال اتبعوا المرسلين أخذوه ورفعوه الى الملك فقال له أفأنت تتبعهم فقال ومالى لا أعبد الذى فطرنى أى أى شئ يمنعنى أن أعبد خالقى واليه ترجعون تردون عند البعث فيجزيكم بأعمالكم ومعنى فطرنى خلقنى اختراعا ابتداء وقيل خلقنى على الفطرة كما قال تعالى فطرة الله التى فطر الناس عليها ثم عاد الى السياق الاول فقال (أأتخذ) وهو استفهام بمعنى الانكار أى لا أتخذ وبين علو رتبته تعالى بقوله (من دونه) أى سواه مع دنو المنزلة وبين عجز ما عبدوه بتعدده فقال (آلهة) وفى ذلك لطيفة وهى أنه لما بين أنه يعبد الذى فطره بين أن من دونه لا تجوز عبادته لان الكل محتاج مفتقر حادث وقوله أأتخذ اشارة الى أن غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وادخل فيهما الفا قالون وأبو عمرو وهشام وورش وابن كثير بغير ادخال ألف والباقون بتحقيقهما مع عدم الادخال واذا وقف حمزة فله تسهيل الثانية والتحقيق لانه متوسط بزائد وله أيضا ابدالها ألفا ثم بين عجز تلك الالهة بقوله (ان يردن الرحمن) أى العام النعمة على كل المخلوقين العابد والمعبود (بضر) أى سوء ومكروه (لا تغن عنى شفاعتهم شيأ) أى لو فرض أنهم شفعوا ولكن شفاعتهم لا توجد (ولا ينقذون) أى بالنصر والمظاهرة من ذلك المكروه أو من العذاب لو عذبنى الله تعالى ان فعلت ذلك (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى هنا ان يردن الرحمن بصيغة المضارع وقال فى الزمر ان أرادنى الله بصيغة الماضى وذكر المريد هنا باسم الرحمن وذكر المريد هناك باسم الله (أجيب) بأن الماضى والمستقبل مع الشرط يصير الماضى مستقبلا لان المذكور هنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله مالى لا أعبد والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم *(تنبيه)* ان يردن شرط جوابه لا تغن عنى الخ والجملة الشرطية فى محل النصب صفة

لا الهة *(فائدة)* أثبت ورش الياء بعد النون في الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا (اني اذا) أي ان عبدت غير الله تعالى (لفي ضلال مبين) أي خطأ ظاهر وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء وسكنها الباقون وهم على مذاهبهم في المد * ولما أقام الادلة ولم يبق لاحد تخلف عنه علة صرح بما لوح اليه من ايمانه بقوله (اني آمنت) أي أوقعت التصديق الذي لا تصديق في الحقيقة غيره وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون واختلف في المخاطب بقوله (بربكم) على أوجه أحدها أنه خاطب المرسلين قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال اني آمنت بربكم (فاسمعون) أي اسمعوا قولي واشهدوا لي وثانيها هم الكفار لما نصحهم وما نفعهم قال آمنت بربكم فاسمعون وثالثها بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم كقول الواعظ يا مسكين ما أكثر أملك يريد كل سامع يسمعه فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه وقال ابن مسعود وطئوه بأرجلهم وقال السدي كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه وقال الحسن خرقوا خرقا في حلقه فعلقوه في سور المدينة وقبره بانطاكية مشهور رضي الله تعالى عنه *(تنبيه)* في قوله فاسمعون فوائد منها أنه كلام متفكر حيث قال اسمعوا فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر ومنها أن ينبه القوم ويقول اني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرته لآمنا معك (فان قيل) انه قال من قبل ومالي لا أعبد الذي فطرني وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربي (أجيب) بانا ان قلنا الخطاب مع الرسل فالامر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه اليه وقال بربكم وان قلنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان التوحيد لانه لما قال أعبد الذي فطرني ثم قال آمنت بربكم فهم أنه يقول ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال آمنت بربي فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربي *(فائدة)* أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن مثل صاحب يس هذا في هذه الامة عروة بن مسعود الثقفي حيث نادى قومه بالاسلام ونادى على علية بالاذان فرموه بالسهام فقتلوه * ثم انه سبحانه وتعالى بين حال هذا الذي قال آمنت بربكم بعد ذلك بقوله تعالى ايجازا في البيان لاهل الايمان (قيل) أي قيل له بعد قتلهم اياه فبناه للمفعول لان المقصود المقول لا قائله والمقول له معلوم (ادخل الجنة) لانه شهيد والشهداء يسرحون في الجنة حيث شاؤا من حين الموت وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة وقرأ هشام والكسائي بضم القاف وهو المسمى بالاشمام والباقون بالكسر * ولما أفضى به الى الجنة (قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) أي بغفران ربي لي المحسن الي في الآخرة بعد احسانه في الدنيا بالايمان في مدة يسيرة بعد طول عمري في الكفر (وجعلني من المكرمين) أي الذين أعطاهم الدرجات العلا فنصح لقومه حيا وميتا بتمني علمهم بالكرامة له ليعملوا مثل عمله فينالوا ما ناله *(تنبيه)* في القصة حث على المبادرة الى مفارقة الاشرار واتباع الاخيار والحلم عن أهل الجهل وكظم الغيظ والتلطف في خلاص الظالم من ظلمه وأنه لا يدخل أحد الجنة الا برحمة

لله وان كان محسنا وهذا كما وقع للانصار رضى الله تعالى عنهم فى المبادرة الى الايمان مع بعد الدار والنسب وفى قول من استشهد منهم فى بئر معونة كما رواه البخارى فى المغازى عن أنس بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا وفى غزوة أحد كما فى السيرة وغيرها لما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم ياليت اخواننا يعلمون ما صنع الله تعالى بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تبارك وتعالى فانا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا الآية فى سورة آل عمران وفى التمثيل بهذه القصة اشارة الى ان فى قريش من حتم بموته على الكفر ولم ينقص ما قضى له من الاجل فالله سبحانه يؤيد هذا الدين بغيرهم لتظهر قدرته وحكمته (وما أنزلنا) بعظمتنا من العظمة (على قومه) أى حبيب (من بعده) أى من بعد اهلاكه أو رفعه (من جند من السماء) لاهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار باهلاكهم وايماء بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم والا لكان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا فى استئصالهم (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى من بعده وهو تعالى لم ينزل عليهم من قبله (أجيب) بأن استحقاق العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الاهلاك بقوله تعالى (وما كنا منزلين) أى ما كان ذلك من سنتنا وما صح فى حكمتنا أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير (ان) أى ما (كانت) أى الواقعة التى عذبوا بها (الا صيحة) صاحها بهم جبريل عليه السلام فماتوا عن آخرهم وأكد أمرها وحقق وحدتها بقوله تعالى (واحدة) أى لحقارة أمرهم عندنا ثم زاد فى تحقيرهم ببيان الاسراع فى الاهلاك بقوله تعالى (فاذا هم خامدون) أى ثابت لهم الخمود ما كأنهم كانت بهم حركة يوما من الدهر شبهوا بالنار رمزا الى أن الحى كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه * يصير رمادا بعد اذ هو ساطع

وقال المعرى

وكالنار الحياة فمن رماد * أواخرها وأولها دخان

قال المفسرون أخذ جبريل عليه السلام بعضادتى باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فماتوا (ياحسرة على العباد) أى هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا وهى شدة التألم ونداؤها مجاز أى هذا أوانك فاحضرى ثم بين تعالى سبب الحسرة والندامة بقوله تعالى (ما يأتيهم من رسول) أى رسول كان فى أى وقت كان (الا كانوا به) أى بذلك الرسول (يستهزؤن) والمستهزئ بالناصحين المخلصين أحق أن يتحسر ويتحسر عليه وقيل يقول الله تعالى يوم القيامة ياحسرة على العباد حين لم يؤمنوا بالرسل * ولما بين تعالى حال الاولين قال للحاضرين (ألم يروا) أى أهل مكة القائلين للنبى صلى الله عليه وسلم لست مرسلا والاستفهام للتقرير أى اعلموا وقوله تعالى (كم) خبرية بمعنى كثيرا وهو مفعول لاهلكنا تقديره كثيرا من القرون أهلكنا وهى معمولة لما بعدها معلقة ليروا عن العمل ذهابا بالخبرية مذهب الاستفهامية والمعنى أما

(أهلكناقبلهم) كثيرا (من القرون) أى الامم قال البغوى والقرن أهل كل عصر سموابذلك لاقترانهم فى الوجود (انهم) أى المهلكين (اليهم) أى الى أهل مكة (لايرجعون) أى لايعودون الى الدنيا أفلا يعتبرون * وقيل لايرجعون أى الباقون لايرجعون الى المهلكين بسبب ولا ولادة أى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولاشك أن الاهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم وأعم قال ابن عادل والاول أشهر نقلا والثانى أظهر عقلا وقوله تعالى (وان) نافية أومخففة وقوله تعالى (كل) أى كل الخلائق مبتدأ وقرأ (لما) ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بمعنى الا والباقون بالتخفيف واللام فارقة وما مزيدة وقوله تعالى (جميع) أى مجموعون خبر أول (لدينا) أى عندنا فى الموقف بعد بعثهم وقوله تعالى (محضرون) أى للحساب خبر ثان وما أحسن قول القائل

ولو انا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل بعدها عن كل شئ

ولما قال تعالى وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر مايدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم فقال تعالى (وآية) أى علامة عظيمة (لهم) أى على قدرتنا على البعث وايجادنا له (الارض) أى هذا الجنس الذى هم منه ثم وصفها بما حقق وجه الشبه بقوله تعالى (الميتة) التى لاروح لها لانه لانبات بها أعم من أن يكون بها نبات وفنى أو لم يكن بها شئ أصلا * ثم استأنف بيان كونها آية بقوله تعالى (أحييناها) أى باختراع النبات فيها أو باعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله (فان قيل) الارض آية مطلقا فلم خصها بهم حيث قال تعالى وآية لهم (أجيب) بأن الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشئ بأبلغ الوجوه وأما من عرف الشئ بطريق الرؤية فلا يذكر له دليل فالنبى صلى الله عليه وسلم وعباد الله المخلصين عرفوا الله تعالى قبل الارض والسماء فليست الارض معرفة لهم * (تنبيه) * آية خبر مقدم ولهم صفتها أو متعلقة بآية لانها علامة والارض مبتدأ وأعرب أبو البقاء آية مبتدأ ولهم الخبر والارض الميتة مبتدأ وصفة وأحييناها خبره فالجملة مفسرة لآية وبهذا بدأ ثم قال وقيل فذكر الوجه الاول * ولما كان اخراج الاقوات نعمة أخرى قال (وأخرجنا منها حبا) أى جنس الحب كالحنطة والشعير والارز * ثم بين عموم نفعه بقوله (فمنه) أى بسبب هذا الاخراج (يأكلون) أى من ذلك الحب فهو حب حقيقة تعلمون ذلك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين لاتقدرون تدعون أن ذلك خيال سحرى بوجه من الوجوه وفى هذه الآية وأمثالها حث عظيم على تدبر القرآن واستخراج مافيه من المعانى الدالة على جلال الله تعالى وكماله وقد أنشد هنا الاستاذ القشيرى فى تفسيره وعيب على من أهمل ذلك

يامن تصدر فى دست الامامة فى * مسائل الفقه املاء وتدريسا
غفلت عن حجج التوحيد تحكمها * شيدت فرعا وما مهدت تأسيسا

* ولما ذكر الزرع وهو ما لاساق له أتبعه بذكر ماله ساق بقوله (وجعلنا) أى بما لنا من العظمة

(فيها) أى الارض (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) ذكر هذين النوعين لكثرة نفعهما وقدّم النخل لانه نفع كله خشبه وسعفه وليفه وخوصه وعراجينه وثمره طلعا وبسرا ورطبا وتمرا وفيه زينة دائما لكونه لا يسقط ورقه * ولما كانت الجنان لا تصلح الا بالماء قال تعالى (وفجرنا) أى فتحنا سبحانه عظيما (فيها) أى الارض (من العيون) شيأ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة عند الاخفش قال البقاعى والتعريف هنا يدل على أن الارض مركبة على الماء فكل موضع منها صالح لأن يتفجر منه الماء ولكن الله تعالى يمنعه من بعض المواضع بخلاف الاشجار ليس فيها شئ غالب على الارض ففى ذلك تذكير بالنعمة فى حبس الماء عن بعض الارض ليكون موضعا للسكن ولو شاء لفجر الارض كلها عيونا كما فعل بقوم نوح فأغرق أهل الارض كلهم وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر * ولما كان حياة كل شئ انما هى بالماء أشار الى ذلك بقوله تعالى (ليأكلوا من ثمره) أى ثمر ما ذكر وهو الجنات وقيل الضمير يعود على الاعناب لانها أقرب مذكور وكان من حق الضمير أن يثنى لتقديم شيئين وهما الاعناب والنخيل الا أنه اكتفى بذكر أحدهما وقيل الضمير لله على طريق الالتفات من التكلم الى الغيبة وقرأ حمزة والكسائى برفع الثاء والميم وهى لغة فيه أو جمع ثمار والباقون بفتحهما وقوله تعالى (وما عملته أيديهم) عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما موصولة أى ومن الذى عملته أيديهم ويؤيد هذا قراءة حمزة والكسائى وشعبة بحذف الهاء من عملته وما نافية على قراءة الباقين باثباتها أى وجدوها معمولة ولم تعملها أيديهم ولا صنع لهم فيها وقيل أراد العيون والانهار التى لم تعملها يد مخلوق مثل دجلة والفرات والنيل ثم لما عدد النعم أشار الى الشكر بقوله تعالى (أفلا يشكرون) أى أشكروا فهو أمر بصيغة الاستفهام أى اذا أبوا دائما فى ايقاع الشكر والدوام على تجديده فى كل حين بسبب هذه النعم * ولما أمرهم الله تعالى بالشكر وشكر الله تعالى بالعبادة وهم تركوها وعبدوا غيره وأشركوا قال تعالى (سبحان الذى خلق الازواج) أى الاصناف والانواع (كلها) أى وغيره لم يخلق شيأ ثم بين ذلك بقوله تعالى (مما تنبت الارض) دخل فيه كل نجم وشجر ومعدن وغيره من كل ما يتولد منها (ومن أنفسهم) من الذكور والاناث وقوله تعالى (ومما لا يعلمون) يدخل فيه ما فى أقطار السموات وتخوم الارضين من المخلوقات العجيبة الغريبة * ولما استدل تعالى بأحوال الارض وهو المكان الكلى استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلى بقوله تعالى (وآية لهم الليل) أى على اعادة الشئ بعد فنائه (نسلخ) أى نفصل (منه النهار) فان دلالة الزمان والمكان متناسبة لان المكان لا يستغنى عنه الجواهر والزمان لا يستغنى عنه الاعراض لان كل عرض فهو فى زمان *(تنبيه)* نسلخ استعارة تبعية مصرحة شبه انكشاف ظلمة الليل بكشط الجلد من الشاة والجامع ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر (فاذا هم) أى بعد ازالة ما للنهار الذى سلخناه من الليل (مظلمون) أى داخلون فى الظلام بظهور الليل الذى كان الضياء ساترا له كما يستر الجلد الشاة قال الماوردى

وذلك ان ضوء النهار يتداخل فى الهواء فيضئ فاذا خرج منه أظلم نقله ابن الجوزى عنه وقد أرشد السياق حتما الى أن التقدير والنهار نسلخ منه الليل الذى كان ساتره وغالبا عليه فاذاهم مبصرون * ولما ذكر الوقتين ذكر آيتيهما مبتدئا بآية النهار بقوله تعالى (والشمس) اى التى سلخ النهار من الليل بغيبوبتها (تجرى لمستقرلها) أى لحد معين ينتهى اليه دورها لا تجاوزه فشبه بمستقر المسافر اذا قطع سيره وقيل مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة وقيل انها تسير حتى تنتهى الى أبعد مغاربها ثم ترجع فذلك مستقرها لا تجاوزه وقيل مستقرها نهاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف ونهاية هبوطها فى الشتاء وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مستقرها تحت العرش وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر حين غربت الشمس تدرى أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك ان تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى والشمس تجرى لمستقرلها * ولما كان هذا الجرى على نظام لا يختل على مر السنين وتعاقب الاحقاب عظمه بقوله تعالى (ذلك) أى الامر الباهر للعقول وزاد فى عظمه بصيغة التفعيل بقوله تعالى (تقدير العزيز) أى الذى لا يقدر أحد فى شئ من أمره على نوع مغالبة وهو غالب على كل شئ (العليم) أى المحيط علما بكل شئ الذى يدبر الامر فيطرد على نظام عجيب ونهج بديع لا يعتريه وهن ولا يلحقه يوما نوع خلل ويحتمل أن تكون الاشارة الى المستقر أى ذلك المستقر تقدير العزيز العليم * ولما ذكر آية النهار أتبعها آية الليل بقوله تعالى (والقمر قدرناه) أى من حيث سيره (منازل) ثمانية وعشرين منزلا فى ثمانية وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين يوما وليلة ان كان الشهر تسعة وعشرين يوما وقد ذكرنا أسامى المنازل فى سورة يونس عليه السلام فاذا صار القمر فى آخر منازله دق فذلك قوله تعالى (حتى عاد) أى بعد أن كان بدرا عظيما (كالعرجون) من النخل وهو عود العذق ما بين شماريخه الى منبته وهو منبته من النخلة رقيقا منحنيا ثم وصفه بقوله تعالى (القديم) فانه اذا عتق يبس وتقوس واصفر فيشبه القمر فى رقته وصفرته فى رأى العين فى آخر المنازل قال القشيرى ان القمر يبعد عن الشمس ولا يزال يتباعد حتى يعود بدرا ثم يدنو فكلما ازداد من الشمس دنوا ازداد فى نفسه نقصانا الى أن يتلاشى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والقمر برفع الراء والباقون بالنصب والرفع على الابتداء والنصب باضمار فعل على الاشتغال والوجهان مستويان لتقدم جملة ذات وجهين وهى قوله تعالى والشمس تجرى فان راعيت صدرها رفعت لتعطف جملة اسمية على مثلها وان راعيت عجزها نصبت لتعطف فعلية على مثلها * ولما قرر أن لكل منهما منازل لا يعدوها فلا يغلب ماهو آيته آية الاخر بل اذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان ذاك واذا جاء ذاك ذهب هذا قال تعالى (لا الشمس) التى هى آية النهار (ينبغى) أى يسهل (لها) أى مادام هذا الكون موجودا على هذا الترتيب (أن تدرك القمر) أى تجتمع معه فى الليل فما النهار سابق الليل (ولا

الليل سابق النهار) أى فلا يأتى أحدهما قبل انقضاء الآخر فالآية من الاحتباك لانه نفى
أولا ادراك الشمس لقوتها القمر ففيه دليل على ما حذف من الثانى من نفى ادراك الشمس
للقمر أى فيغلبها وان كان يوجد فى النهار لكن من غير سلطنة فيه بخلاف الشمس فانها لا تكون
فى الليل أصلا وذكر ثانيا سبق الليل النهار وفيه دليل على حذف سبق النهار الليل أولا كما قدرته
(وكل) أى من الشمس والقمر (فى فلك) محيط به وهو الجسم المستدير أو السطح المستدير
أو الدائرة لأن أهل اللغة على ان فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هى الخشبة
المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة
(فان قيل) فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة
لها أطراف على جبال وهى كالسقف المستوى ويدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع (أجاب)
الرازى بأنه ليس فى النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة بل
دل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير اليه والسقف المقبب لا يخرج عن كونه
سقفا وكذلك على جبال ومن الادلة الحسية أن السماء لو كانت مستوية لكان ارتفاع أول
النهار ووسطه وآخره مستويا وليس كذلك وذكر غيره ذلك من الادلة وفى هذا كفاية * ولما ذكر
لها فعل العقلاء من كونها على نظام محرر لا يختل وسير مقدر لا يعوج ولا ينحل جمعها جمعهم
بقوله تعالى (يسبحون) وقال المنجمون قوله تعالى يسبحون يدل على انها أحياء لان ذلك لا يطلق
الا على العاقل قال الرازى ان أرادوا القدر الذى يكون منه التسبيح فنقول به لأن كل شئ
يسبح بحمده وان أرادوا شيأ آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما فى قوله تعالى فى حق
الاصنام ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون * ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حد له حدودا فى السباحة
فى وجه الفلك ذكر ما هيأ به من الفلك للسباحة على وجه الماء بقوله تعالى (وآية لهم) أى على
قدرتنا التامة (أنا) أى على ما لنا من العظمة (حملنا ذريتهم) أى آباءهم الاصول قال البغوى
واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الاولاد والالف واللام فى قوله تعالى (فى الفلك)
لتعريف أى فلك نوح عليه الصلاة والسلام وهو مذكور فى قوله تعالى واصنع الفلك باعيننا
وهو معلوم عند العرب ثم وصف الفلك بقوله تعالى (المشحون) اى الموقر المملوء حيوانا
وناسا وهو يتقلب فى تلك المياه التى لم ير أحد قط مثلها ولا يرى أيضا ومع ذلك فسلمها الله
تعالى وأيضا الآدمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك وقع بقدرته تعالى لكن من
الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب لانه يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون أثقل
من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله وقال أكثر المفسرين ان الذرية
لا تطلق الا على الولد وعلى هذا فالمراد اما أن يكون الفلك المعين الذى كان لنوح عليه
الصلاة والسلام واما ان يكون المراد الجنس كقوله تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام
ما تركبون وقوله تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقوله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك الى غير
ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام

ففيه وجوه الاول ان المراد حملنا أولادهم الى يوم القيامة فى ذلك الفلك ولولا ذلك ما بقى للاب نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله تعالى حملنا ذريتهم اشارة الى كمال النعمة أى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى أعقابكم الى يوم القيامة وهذا قول الزمخشرى قال ابن عادل ويحتمل أن يقال انه تعالى انما خص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كفارا لا فائدة فى وجودهم فقال تعالى حملنا ذريتهم أى لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر قيل انه لم يحمل الصندوق وانما حمل ما فيه ثانيها ان المراد بالذرية الجنس أى حملنا أجناسهم لان ذلك الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولذلك تطلق على النساء لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرارى أى النساء لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذراريناأى أمثالنا ثالثها أن الضمير فى قوله تعالى وآية لهم الليل للعباد وكذا وآية لهم انا حملنا ذريتهم واذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذرية العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين أشخاصا معينين كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم ويذيق بعضكم بأس بعض ولذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال فقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد أشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى وآية لهم أى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وان قلنا المراد جنس الفلك قال ابن عادل وهو الاظهر لان سفينة نوح عليه السلام لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فأما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد وقوله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام وجعلناها آية للعالمين أى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور (فان قيل) ما الحكمة فى قوله تعالى وآية لهم الارض الميتة وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك (أجيب) بأن حملهم فى الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجيب لانه كبيت مبنى من خشب وأما نفس الارض فعجيب ونفس الليل فعجيب لا قدرة لاحد عليهما الا الله (فان قيل) قال تعالى وحملناكم فى البر والبحر ولم يقل ذريتكم مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة لا دفع النقمة (أجيب) بأنه تعالى لما قال فى البر والبحر عم الخلق جميعا لان ما من أحد الا وحمل فى البر والبحر وأما الحمل فى البحر فلم يعم فقال ان كنا حملناكم بانفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقاء وقرأ نافع وابن عامر بألف بعد الياء التحتية وكسر الفوقانية على الجمع والباقون بغير ألف وفتح الفوقانية على الافراد واختلف فى تفسير قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله) أى من مثل الفلك (ما يركبون) فقال ابن عباس يعنى الابل فالابل فى البر كالسفن فى البحر وقيل أراد به السفن التى عملت بعد سفينة نوح عليه السلام على هيأتها وقال قتادة والضحاك وغيرهما أراد به السفن الصغار التى تجرى فى الانهار كالفلك الكبار فى البحار (وان نشأ) أى لاجل مالنا من القوة الشاملة والقدرة التامة (نغرقهم) أى مع أن هذا الماء الذى يركبونه ليس

كالماء الذي حملنا فيه آباءهم (فلا صريخ لهم) أي مغيث لهم لينجيهم مما يريد بهم من الغرق أو فلا اغاثة كقولهم أتاهم الصريخ (ولاهم) اي بانفسهم من غير صريخ (ينقذون) أي يكون لهم انقاذ أي خلاص لانفسهم أو غيرها (الا رحمة) أي فنحن ننقذهم ان شئنا رحمة (منا) أي لهم لا وجوبا علينا ولا لمنفعة تعود منهم الينا (ومتاعا) أي وتمتيعنا اياهم بلذاتهم (الى حين) أي الى انقضاء آجالهم (واذا قيل لهم) أي من أي قائل كان (اتقوا ما بين أيديكم) أي من عذاب الدنيا كغيركم (وما خلفكم) من عذاب الآخرة (لعلكم ترحمون) تعاملون معاملة المرحوم بالاكرام وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما بين ايديكم يعني الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعني الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها وقال قتادة ومقاتل ما بين أيديكم وقائع الله فيمن كان قبلكم من الامم وما خلفكم عذاب الآخرة (تنبيهان) أحدهما الا رحمة منصوب على المفعول له وهذا مستثنى مفرغ وقيل مستثنى منقطع وقيل على المصدر بفعل مقدر وقيل على اسقاط الخافض أي الا برحمة والفاء في قوله تعالى فلا صريخ لهم رابطة لهذه الجملة بما قبلها فالضمير في لهم عائد على المغرقين ثانيهما جواب اذا محذوف تقديره أعرضوا ايدل عليه قوله تعالى بعده الا كانوا عنها معرضين وعلى هذا فلفظ كانوا زائد (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) أي المحسن اليهم (الا كانوا) أي مع كونها من عند من غمرهم احسانه وعمهم فضله وامتنانه (عنها معرضين) أي دائما اعراضهم (واذا قيل لهم) أي من أي قائل كان (انفقوا) أي على من لا شئ له شكرا لله على ما أعطاكم قال صلى الله عليه وسلم هل ترزقون وتنصرون الا بضعفائكم انما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء وبين تعالى أنهم يبخلون بما لا صنع لهم فيه بقوله تعالى (مما رزقكم الله) أي مما أعطاكم الله الذي له جميع صفات الكمال (قال الذين كفروا) أي ستروا وغطوا ما دلهم عليه أنوار عقولهم من الخيرات (للذين آمنوا) أي استهزاء بهم (أنطعم من لو يشاء الله) أي الذي له جميع العظمة كما زعمتم في كل وقت يريده (أطعمه) وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله سبحانه وتعالى وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأموالهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه لكنا نظره لا يشاء ذلك فانه لم يطعمهم مما نرى من فقرهم فنحن أيضا لا نشاء ذلك موافقة لمراد الله تعالى فيه فتركوا التأدب مع الامر وأظهروا التأدب مع بعض ارادة الله المنهي عن الجري معها والاستسلام لها وهذا مما يتمسك به البخلاء يقولون لا نعطي من حرمه الله تعالى وهذا الذي يزعمونه باطل لان الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء فمنع الدنيا عن الفقير لا بخلا وأمر الغني بالانفاق لا حاجة الى ماله ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني فلا اعتراض لاحد في مشيئة الله وحكمه في خلقه وما كفاهم حتى قالوا لمن أرشدهم الى الخير (ان) أي ما (أنتم الا في ضلال) أي محيط بكم (مبين) أي في غاية الظهور وما دروا ان الضلال انما هو لهم (فان قيل) قولهم من لو يشاء الله أطعمه كلام حق فلماذا ذكر في معرض الذم (أجيب) بأن مرادهم كان الانكار لقدرة الله تعالى أو لعدم جواز الامر بالانفاق

مع قدرة الله تعالى وكلاهما فاسد فبين ذلك تعالى بقوله سبحانه مما رزقكم الله فانه يدل على قدرته ويصحح أمره بالاعطاء لان من كان له مع الغير مال وله فى خزانته مال مخير ان أراد اعطى مما فى خزانته وان أراد أمر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوز أن يقول من فى يده ماله فى خزانتك أكثر مما فى يدى أعطه منه (فان قيل) ما الحكمة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه لانهم أمروا بالانفاق فكان جوابهم ان يقولوا أننفق فلم قالوا أنطعم (أجيب) بأن هذا بيان غاية مخالفتهم لانهم انما أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيه الاطعام وغيره فلم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منه وهو الاطعام وهذا كقول القائل لغيره اعط زيدا دينارا فيقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا ولكن المبالغة فى هذا الوجه اتم فكذلك هنا *(تنبيه)* انما وصفوا المؤمنين بأنهم فى ضلال مبين لظنهم أن كلام المؤمنين متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال قال الرازى ووجه ذلك أنهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وهذا اشارة الى ان الله تعالى ان شاء أن يطعمهم فهو يطعمهم فكان الامر باطعامهم أمرا بتحصيل الحاصل وان لم يشأ اطعامهم لا يقدر أحد على اطعامهم لامتناع وقوع مالم يشا الله فلا قدرة لنا على الاطعام فكيف تأمروننا به ووجه آخر وهو أنهم قالوا ان أراد الله تجويعهم فلو اطعمناهم يكون ذلك سعيا فى ابطال فعل الله تعالى وانه لا يجوز وأنتم تقولون اطعموهم فهو ضلال واعلم انه لم يكن فى الضلال الاهم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك لان العبد اذا أمره السيد بأمر لا ينبغى الاطلاع على المقصود الذى لاجله أمر به مثاله اذا أراد الملك الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال للعبد أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لاجله الركوب لتسبب الى ان يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالادب فى الطاعة هو امتثال الامر لا تتبع المراد فالله سبحانه اذا قال أنفقوا مما رزقكم الله لا يجوز أن يقال لم لم يطعمهم الله مما فى خزائنه وقد تقدم ماله بهذا تعلق (ويقولون) أى عادة مستمرة مضمومة الى ما تقدم (متى هذا) وزادوا فى الاستهزاء بتسميته وعدا فقالوا (الوعد) أى البعث الذى تهددوننا به تارة تلويحا وتارة تصريحا عجلوه لنا (ان كنتم صادقين) فيه قال الله تعالى (ما ينظرون) أى ينتظرون (الا صيحة) وبين حقارة شأنهم وتمام قدرته بقوله عز وجل (واحدة) وهى نفخة اسرافيل عليه السلام الاولى المميتة (تأخذهم) وقوله تعالى (وهم يخصمون) قرأه حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم والمعنى يخصم بعضهم بعضا فالمفعول محذوف وأبو عمرو وقالون باخفاء فتحة الخاء وتشديد الصاد ونافع وابن كثير وهشام كذلك الا أنهم باختلاس فتحة الخاء والباقون بكسر الخاء وتشديد الصاد والاصل فى القراآت الثلاث يختصمون فأدغمت التاء فى الصاد فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحتها الى الساكن قبلها نقلا كاملا وأبو عمرو وقالون اختلسا حركتها تنبيها على أن الخاء أصلها السكون والباقون حذفوا حركتها فالتقى ساكنان لذلك فكسروا أولهما فهذه أربع قراآت *ولما كانت هذه

هى النفخة المميتة تسبب عنها قوله تعالى (فلا يستطيعون توصية) أى يوجدون الوصية فى شىء من الاشياء (ولا الى أهلهم) أى فضلا عن غيرهم (يرجعون) أى فيروا حالهم بل يموت كل واحد فى مكانه حيث تفجؤه الصيحة وربما أفهم التعبير بالى أنهم يريدون الرجوع فيخطون خطوة أو نحوها وفى الحديث لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يبيعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته الى فيه فلا يطعمها * ولما دل ذلك على الموت قطعا عقبه بالبعث بقوله تعالى (ونفخ فى الصور) أى القرن النفخة الثانية للبعث وبين النفختين أربعون سنة * ولما كان هذا النفخ سببا لقيامهم عنده من غير تخلف عبر تعالى بما يدل على التعقب والتسبب والفجأة بقوله تعالى (فاذا هم) أى حين النفخ (من الاجداث) أى القبور واحدها جدث المهيأة هى ومن فيها لسماع ذلك النفخ (فان قيل) كيف يكون ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال (أجيب) بأن الله تعالى يجمع أجزاء كل ميت فى الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (الى ربهم) أى الى الموقف الذى أعده لهم من أحسن اليهم بالتربية (ينسلون) أى يسرعون المشى مع تقارب الخطا بقوة ونشاط فيما لها من قدرة شاملة وحكمة كاملة حيث كان صوت واحد يحيى تارة ويميت أخرى (فان قيل) المسىء اذا توجه الى من أحسن اليه يقدم رجلا ويؤخر أخرى والنسلان سرعة المشى فكيف يوجد منهم (أجيب) بأنهم ينسلون من غير اختيارهم (فان قيل) قال فى آية أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال ههنا فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وقوله تعالى فى الموضعين اذا هم يقتضى أن يكونا معا (أجيب) بأن القيام لا ينافى المشى السريع لان الماشى قائم ولا ينافى النظر وبأن ذلك لسرعة الامور كان الكل فى زمان واحد كقول القائل * مفر مكر مقبل مدبر معا * واعلم ان النفختين يورثان تزلزلا وانتقالا للاجرام فعند اجتماع الاجرام يفرقها وهو المراد بالنفخة الاولى وعند تفرق الاجرام يجمعها وهو المراد النفخة الثانية * ولما تشوقت النفوس الى ما يقولون اذا عاينوا ما كانوا ينكرون استأنف قوله تعالى (قالوا) اى الذين هم من أهل الويل (يا) للتنبيه (ويلنا) أى هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه (من بعثنا من مرقدنا) قال أبى بن كعب وابن عباس وقتادة انما يقولون هذا لان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بعد النفخة الاخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل وقال أهل المعانى ان الكفار اذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها دعوا بالويل وصار عذاب القبر فى جنبها كالنوم فعدوا مكانهم الذى كانوا فيه مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ مرقدا هينا بالنسبة الى ما انكشف لهم من العذاب الاكبر فقالوا من بعثنا من مرقدنا (فان قيل) ما وجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم يا ويلنا (أجيب) بأنهم لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل عليهم الصلاة والسلام فقالوا يا ويلنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا كما اذا كان الانسان موعودا بأن يأتيه عدو ولا يطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه ويقول أهذا ذاك أم لا ويدل على هذا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور

موضع الرقاد اشارة الى أنهم شكوا فى أنهم كانوا نياما فتنبهوا أو كانوا موتى فبعثوا وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين وقالوا من مرقدنا اشارة الى متوهمهم احتمال الانتباه وقولهم (هذا) اشارة الى البعث (ما) أى الذى (وعد) أى به (الرحمن) أى العام الرحمة الذى رحمته مقتضية ولا بد للبعث لينصف المظلوم من ظالمه ويجازى كلا بعمله من غير حيف وقد رحمنا بارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام الينا بذلك وطالما أنذرونا حلوله وحذرونا صعوبته وطوله (وصدق) أى فى امره (المرسلون) أى الذين أتونا بوعد الله تعالى ووعيده * (تنبيه) * فى اعراب هذا وجهان أظهرهما انه مبتدأ وما بعده خبره ويكون الوقف تاما على قوله تعالى من مرقدنا وهذه الجملة حينئذ فيها وجهان أحدهما أنها مستأنفة امامن قول الله تعالى أومن قول الملائكة أومن قول المؤمنين الثانى أنها من كلام الكفار فتكون فى محل نصب بالقول الثانى من الوجهين الاولين هذا صفة لمرقدنا وماوعد منقطع عما قبله ثم فى ما وجهان أحدهما أنها فى محل رفع بالابتداء والخبر مقدر أى الذى وعده الرحمن وصدق المرسلون فيه حق عليكم واليه ذهب الزجاج والزمخشرى والثانى انه خبر مبتدا مضمر أى فى هذا الذى وعد الرحمن (ان) اى ما (كانت) أى النفخة التى وقع الاحياء بها (الاصيحة واحدة) أى كما كانت صيحة الاماتة واحدة (فاذاهم) أى فجأة من غير توقف أصلا (جميع) أى على حالة الاجتماع لم يتأخر منهم أحد (لدينا) أى عندنا (محضرون) ثم بين تعالى ما يكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى (فاليوم لا تظلم نفس) أى أى نفس كانت مكروهة أومحبوبة (شيأ) أى لايقع لها ظلم ما من أحد ما فى شئ ما (ولا تجزون) أى على عمل من الاعمال شيأ من الجزاء من أحد (الاما كنتم تعملون) ديدنا لكم بمارکز فى جبلاتكم ثم بين تعالى حال المحسن بقوله تعالى (ان أصحاب الجنة) أى الذين لاحظ للنار فيهم (اليوم) أى يوم البعث وهذا يدل على انه يعجل دخولهم ودخول بعضهم اليها ووقوف الباقين للشفاعات ونحوها من الكرامات عند دخول أهل النار النار وعبر بما يدل على أنهم بكلياتهم مقبلون عليه ومطرقون له مع توجههم اليه بقوله (فى شغل) أى عظيم جدا لا تبلغ وصفه العقول كما كانوا فى الدنيا فى أشغل الشغل بالمجاهدات فى الطاعات وقرأ ابن عامر والكوفيون بضم الغين والباقون بالاسكان ثم بين ذلك الشغل بقوله (فاكهون) أى متلذذون فى النعمة واختلف فى هذا الشغل فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى افتضاض الابكار وقال وكيع بن الجراح رضى الله عنهما فى السماع وقال الكلبى فى شغل عن أهل النار وماهم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم وقال ابن كيسان فى زيارة بعضهم بعضا وقيل فى ضيافة الله تعالى فاكهون وقيل فى شغل عن هول اليوم يأخذون ما آتاهم الله تعالى من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله تعالى فاكهون متمم لبيان سلامتهم فانه لو قال فى شغل جاز أن يقال هم فى شغل أعظم من التفكر فى اليوم وأهواله فان من تصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره أو يخبر بخسران وقع فى ماله يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور وقال ابن عباس رضى الله عنهما فاكهون

فرحون * ولما كانت النفس لا يتم سرورها الا بالقرين الملائم قال تعالى (هم) أى بظواهرهم وبواطنهم (وأزواجهم) أى أشكالهم الذين لهم فى غاية الملاءمة كما كانوا يتركونهم فى المضاجع على ألذ ما يكون ويصفون أقدامهم فى خدمتنا وهم يبكون من خشيتنا وفى هذا اشارة الى عدم الوحشة (فى ظلال) أى يجدون فيها بردا لا كاد وغاية المراد فلا تصيبهم الشمس كما كانوا يشوون أكبادهم فى دار العمل بحرّ الصيام والصبر فى مرضاتنا على الآلام ويعرون أيديهم وقلوبهم من الاموال ببذل الصدقات فى سبيلنا على ممرّ الليالى وكر الايام *(تنبيه)* ظلال جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائى بضم الظاء ولا ألف بين اللامين وهم مبتدأ وخبره فى ظلال كما قاله أبو البقاء * ولما كان التمتع لا يكمل الا مع العلو الممكن من زيادة العلم الموجب لارتياح النفس وبهجة العين بانفساح البصر عند مدّ النظر قال تعالى (على الارائك) أى السرر المزينة العالية التى هى داخل الحجال قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقال ابن جرير الارائك الحجال فيها السرر وروى أبو عبيدة فى الفضائل عن الحسن قال كنا لا ندرى ما الارائك حتى لقينا رجل من أهل اليمن فأخبرنا أن الاريكة عندهم الحجلة فيها السرير وهذا جزاء لما كانوا يلزمون المساجد ويغضون أبصارهم ويضعون نفوسهم لاجلنا (متكئون) كما كانوا دأبون فى الاعمال قائمين بين أيدينا فى أغلب الاحوال والاتكاء الميل على شق مع الاعتماد على ما يريح الاعتماد عليه أو الجلوس مع التمكن على هيئة المتربع وفى هذا اشارة الى الفراغ وقوله تعالى (لهم) أى خاصة بهم (فيها فاكهة) اى لا تنقطع أبدا ولا مانع لهم من تناولها ولا يتوقف ذلك على غير الارادة اشارة الى أن لا جوع هنالك لان التفكه لا يكون لدفع الجوع (ولهم ما يدعون) أى يتمنون *(تنبيه)* فى ما هذه ثلاثة أوجه موصولة اسمية نكرة موصوفة والعائد على هذين محذوف مصدرية ويدعون مضارع ادّعى افتعل من دعا يدعو وأشرب معنى التمنى وقال الزجاج هو من الدعاء أى ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامى فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحل وقيل افتعل بمعنى تفاعل أى ما يتداعونه كقولهم ارتموا وتراموا بمعنى واحد ثم فسر الذى يدعونه أى يطلبونه بغاية الاشتياق اليه واستأنف الاخبار عنه بقوله تعالى (سلام) أى عظيم جدا عليكم يا أهل الجنة والسلام يجمع جميع النعم ثم بين هذا السلام بما أظهر من عظمه بقوله (قولا من رب) أى دائم الاحسان (رحيم) أى عظيم الاكرام بما ترضاه الالهية كما كانوا فى الدنيا يفعلون كل ما فيه الرضا فيرحمهم فى حال السلام وسماع الكلام بلذة الرؤية مع التقوية على الدهش والضعف لعظيم الامر وبالتأهيل لهذا المقام الاكرم مع قصورهم عنه روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أهل الجنة فى نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شئ من النعيم ما داموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته

عليهم فى ديارهم وقيل تسلم عليهم الملائكة من ربهم لقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أى يقولون سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم وقيل يعطيهم السلامة الابدية * ولما ذكر ما للمؤمنين من النعيم ذكر ما للكافرين من الجحيم بقوله تعالى (وامتازوا) أى ويقال للمجرمين امتازوا أى انفردوا (اليوم أيها المجرمون) عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم قال الضحاك لكل كافر فى النار بيت يدخل ذلك البيت فيردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى وقيل ان قوله تعالى وامتازوا أمر تكوين فحين يقول امتازوا اليوم فيميزون بسيماهم ويظهر على جباههم وفى وجوههم سواد كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم * ولما أمروا بالامتياز وشخصت منهم الابصار وكلحت الوجوه وتنكست الرؤس قال تعالى موبخا لهم (ألم أعهد اليكم) أى أوصيكم ايصاء عظيما بما نصبت من الادلة ومنحت من العقول وبعثت من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزلت من الكتب فى بيان الطريق الموصل الى النجاة * ولما كان المقصود بهذا الخطاب تقريعهم وتبكيتهم وكانت هذه السورة قلبا وكان القلب أشرف الاعضاء وكان الانسان أشرف الموجودات خصه بالخطاب بقوله تعالى (يابنى آدم) أى على لسان رسلى عليهم الصلاة والسلام واختلف فى معنى هذا العهد على وجوه أقواها ألم أوص اليكم كما مر وقيل آمركم وقيل غير ذلك واختلفوا فى هذا العهد أيضا على أوجه أظهرها أنه مع كل قوم على لسان رسلهم كما مر وقيل هو العهد الذى كان مع آدم فى قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم وقيل هو الذى كان مع ذريته عليه السلام حين أخرجهم وقال ألست بربكم قالوا بلى (أن لا تعبدوا الشيطان) أى البعيد المحترق بطاعتكم فيما يوسوس به اليكم والطاعة قد تطلق على العبادة ثم علل النهى عن عبادته بقوله تعالى (انه لكم) والتأكيد لان أفعالهم أفعال من يعتقد صداقته (عدو مبين) أى ظاهر العداوة جدا من جهة عداوته لابيكم التى أخرجتكم من الجنة التى لا منزل أشرف منها ومن جهة أمركم بما ينغص الدنيا من التخالف والخصام ومن جهة تزيينه للفانى الذى لا يرغب فيه عاقل لو لم يكن فيه عيب غير فنائه فكيف اذا كان أكثره أكدارا وأدناسا فكيف اذا كان شاغلا عن الباقى فكيف اذا كان عائقا عن المولى فكيف اذا كان مغضبا له حاجبا عنه (فان قيل) اذا كان الشيطان عدوا للانسان فما بال الانسان يقبل على ما يرضيه من الزنا والشرب ونحو ذلك ويكره ما يسخطه من المجاهدة والعبادة ونحو ذلك (أجيب) بأنه يستعين عليه باعوان من عند الانسان وترك استعانة الانسان بالله تعالى فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سببا لفساد حاله ويدعوه بها الى مسالك المهالك وكذا يستعين بغضبه الذى خلقه الله تعالى فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببا لوباله وفساد أحواله وميل الانسان الى المعاصى كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد فى مرضه ومن معدته فاسدة لا تهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشئ وهو يزيد فساد معدته وصحيح المزاج لا يشتهى الا ما ينفعه * ولما منع من عبادة الشيطان

امر بعبادة الرحمن بقوله عاطفا على أن لا (وأن اعبدوني) أي وحدوني وأطيعوني (هذا) أي الامر بعبادتي (صراط) أي طريق (مستقيم) أي بليغ الاستقامة وعبادة الشيطان طريق ضيق معوج غاية الضيق والعوج وقرأ قنبل بالسين وخلف بالاشمام أي بين الصاد والزاي والباقون بالصاد ثم ذكر ما نبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد أضل منكم) أي عن الطريق الواضح السوي بما سلطه به من الوسوسة (جبلا) أي أمما كبارا عظاما كانوا كالجبال في قوة العزائم وصعوبة الانقياد ومع ذلك كان يلعب بهم كما تلعب الصبيان بالكرة فسبحان من أقدره على ذلك والافهو أضعف كيدا وأحقر أمرا وقرأ نافع وعاصم بكسر الجيم والباء الموحدة وتشديد اللام مع التنوين وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الموحدة والباقون بضم الجيم والموحدة وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة أي خلقا (كثيرا) ثم زاد في التوبيخ والانكار بقوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) أي عداوته واضلاله وما حل بهم من العذاب فتؤمنوا ويقال لهم في الآخرة (هذه جهنم) أي التي تستقبلكم بالعبوسة والتجهم كما كنتم تفعلون بعبادي الصالحين (التي كنتم توعدون) أي ان لم ترجعوا عن غيكم (اصلوها) أي قاسوا حرها وتوقدها وهول أمر ذلك اليوم فاذكره على حد ما مضى بقوله تعالى (اليوم) ليكونوا في شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة وشتان ما بين الشغلين (بما) أي بسبب ما (كنتم تكفرون) أي تسترون ما هو ظاهر جدا بعقولكم من آياتي في دار الدنيا * (تنبيه) * في هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزنهم من ثلاثة أوجه أحدها قوله تعالى اصلوها أمر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ثانيها قوله تعالى اليوم يعني العذاب حاضر ولذاتهم قد مضت وبقي اليوم العذاب ثالثها قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت فكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام كما قيل

أليس بكاف لذي همة * حياء المسيء من المحسن

* ولما كان كأنه قيل هل يحكم في ذلك اليوم بعلمه أو يجري الامر على قاعدة الدنيا في العمل بالبينة نبه على أظهر من قواعد الدنيا بقوله تعالى مهولا (اليوم) على النسق الماضي في مظهر العظمة لانه اليق بالتهويل (نختم) أي بما لنا من عظيم القدرة (على أفواههم) أي الكفار لاجترائهم على الكذب كقوله سبحانه والله ربنا ما كنا مشركين (وتكلمنا أيديهم) أي بما عملوا اقرارا هو اعظم شهادة (وتشهد أرجلهم) أي عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة اقرار (بما كانوا) أي في الدنيا بجبلاتهم (يكسبون) فكل عضو ينطق بما صدر عنه فالآية من الاحتباك أثبت الكلام للايدي أولا لانها كانت مباشرة دليلا على حذفه من حيز الارجل ثانيا وأثبت الشهادة للارجل ثانيا لانها كانت حاضرة دليلا على حذفها من حيز الايدي أولا وتقريبه ان قول المباشر اقرار وقول الحاضر شهادة وفي كيفية هذا الختم وجهان أقواهما أن الله تعالى يسكت ألسنتهم وينطق جوارحهم فتشهد عليهم وان ذلك في قدرة الله تعالى يسير أما الاسكات فلا خفاء فيه وأما الانطاق فان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فجاز تحريك غيره

عنها والله سبحانه قادر على كل الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشئ لانقطاع
أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤس لا يجدون عذرا فيعتذرون ولا مجال توبة
فيستغفرون وتكلم الايدى هو ظهور الامر بحيث لا يسع منه الانكار كقول القائل
الحيطان تبكي على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والصحيح الاول لما روى أبو هريرة
ان ناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال
هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون
فى رؤية الشمس عند الظهيرة ليست فى سحاب قالوا لا يا رسول الله قال والذى نفسي بيده
لا تضارون فى رؤية ربكم كما لا تضارون فى رؤيتهما قال فيلقى العبد فيقول ألم أكرمك ألم أسودك
ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والابل وأتركك تترايد وتترافع قال بلى يارب قال فظننت أنك
ملاقى فيقول لا يارب فيقول اليوم أنساك كما نسيتنى الى أن قال ثم يلقى الثالث فيقول ما أنت
فيقول أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع ثم
قال فيقال له أفلا نبعث عليك شاهدنا قال فيتفكر فى نفسه من الذى يشهد عليه فيختم على فيه
فيقال لفخذه انطقى قال فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل قال وذلك المنافق وذلك ليعذر
من نفسه وذلك الذى سخط الله عليه ولما روى مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال كنا عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم أضحك قال قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة
العبد ربه قال يقول العبد يارب ألم تجرنى من الظلم فيقول بلى فيقول فانى لا أجيز على نفسى
الا شاهدا منى فيقول تعالى كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم
على فيه ويقول لاركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا
فعنكن كنت أناضل وقال صلى الله عليه وسلم أول ما يسئل من أحدكم فخذه وكفه * (تنبيه) *
ههنا سؤالات الاول ما الحكمة فى اسناده الختم الى نفسه وقال نختم وأسند الكلام والشهادة
الى الايدى والارجل الثانى ما الحكمة فى جعل الكلام للايدى والشهادة للارجل الثالث أن
يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو
على العدو غير مقبولة وان كان عدلا وغير الصديقين من الكفار والفساق لا تقبل شهادتهم
والايدى والارجل صدرت الذنوب عنها فهى فسقة فينبغى أن لا تقبل شهادتهم أجيب عن
الاول بأنه لو قال نختم على أفواههم وتنطق أيديهم لاحتمل أن يكون ذلك جبرا وقهرا
والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم أى بالاختيار بعد ما يقدرها
الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم وأجيب عن الثانى بأن الافعال
تسند الى الايدى قال تعالى وما عملته أيديهم أى ما عملوه وقال تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى
التهلكة أى ولا تلقوا أنفسكم فاذن الايدى كالعاملة والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره
فجعل الارجل والجلود من الشهود لبعد اضافة الافعال اليهن وأجيب عن الثالث بأن الايدى
والارجل ليسوا من أهل التكليف ولا ينسب اليها عدالة ولا فسق انما المنسوب من ذلك الى

العبد المكلف لا الى أعضائه ولا يقال وردان العين تزنى وان الفرج يزنى وان اليد كذلك لان معناه ان المكلف يزنى بها الا انها هى تزنى وأيضا فانا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها لانها ان كذبت فى مثل ذلك اليوم مع ظهور الامور لابد أن يكون مذنبا فى الدنيا وان صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا وهذا كمن قال لفاسق ان كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر فقال الفاسق كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووقع الجزاء وان كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم فقد وجد الشرط أيضا بخلاف ما لو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار ذلك اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه ثم بين سبحانه وتعالى انه قادر على اذهاب الابصار كما هو قادر على اذهاب البصائر بقوله تعالى (ولو نشاء) وعبر بالمضارع ليتوقع فى كل حين فيكون أبلغ فى التهديد (لطمسنا على أعينهم) أى الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس كقوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم يقول انا أعمينا قلوبهم ولو شئنا أعمينا أبصارهم الظاهرة وقوله تعالى (فاستبقوا الصراط) أى ابتدروا الطريق ذاهبين كعادتهم عطف على لطمسنا (فأنى) أى فكيف (يبصرون) الطريق حينئذ وقد أعمينا أعينهم أى لو نشاء لاضللناهم عن الهدى وتركناهم عميا يترددون فلا يبصرون الطريق وهذا قول الحسن والسدى وقال ابن عباس ومقاتل معناه لو نشاء لطمسنا أعين ضلالتهم فأعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة الى الهدى فأبصروا وارشدهم فأنى يبصرون ولم أفعل ذلك بهم * ولما كان هذا كله مع القدرة على الحركة قال تعالى (ولو نشاء) أى مسخهم (لمسخناهم) أى حولناهم عن تلك الحالة فجعلناهم حجارة أو جعلناهم قردة وخنازير * ولما كان المقصود من المفاجأة بهذه المصائب بيان انه سبحانه لا كلفة عليه فى شئ من ذلك قال تعالى (على مكانتهم) أى المكان الذى كان قبل المسخ كل شخص منهم شاغلا له بجلوس أو قيام أو غيره فى ذلك الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه وقرأ شعبة بألف بعد النون على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد (فما استطاعوا) أى بأنفسهم بنوع معالجة (مضيا) أى الى جهة من الجهات ثم عطف على جملة الشرط قوله تعالى (ولا يرجعون) أى يتجدد لهم بوجه من الوجوه رجوع الى حالتهم التى كانت قبل المسخ دلالة على أن هذه الامور حق لا كما يقولون من أنها خيال وسحر وقيل لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع (ومن نعمره) أى نطل عمره اطالة كثيرة (ننكسه) قرأ عاصم وحمزة بضم النون الاولى وفتح النون الثانية وتشديد الكاف مكسورة من نكسه مبالغة والباقون بفتح النون الاولى وسكون الثانية وتخفيف الكاف مضمومة من نكسه وهى محتملة للمبالغة وعدمها ومعنى ننكسه (فى الخلق) أى خلقه نرده الى أرذل العمر يشبه الصبى فى الخلق وقيل ننكسه فى الخلق أى ضعف جوارحه بعد قوتها ونقصانها بعد زيادتها لان الله تعالى أجرى العادة فى النوع الآدمى أن من استوفى سن الصبا والشباب اثنتين وأربعين سنة جمعت غرائزه فلا تزيد فيه غريزة ووقفت قواه كلها فلم يزد فيها شئ هذا

فى البدن وأما فى المعارف فتارة وتارة وهذا أيضا فى غير الانبياء عليهم السلام أما هم فلا ينقص شئ من قواهم بل تزداد كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمشى غير مكترث وأن الصحابة رضى الله عنهم يجهدون أنفسهم فيكون جهدهم أن لا يدركوا مشيه الهوينا وانه صلى الله عليه وسلم صارع ركانة الذى كان يضرب بقوته المثل وكان واثقا من نفسه أنه يصرع من صارعه فلم يملكه النبى صلى الله عليه وسلم نفسه وعاد الى ذلك ثلاث مرات كل ذلك لا يتمسك فى يده حتى خرج يقول ان هذا العجب يا محمد تصرعنى وحتى انه دار على نسائه وهن تسع كل واحدة منهن تسع مرات فى طلق واحد الى غير ذلك مما يحكى من قواه التى فاق بها الناس ولم يحك عن نبى من الانبياء عليهم السلام ممن عاش منهم ألفا وممن عاش دون ذلك انه نقص شئ من قواه بل قد ورد فى الصحيح من حديث أبى هريرة ان ملك الموت عليه السلام أرسل الى موسى عليه السلام ليقبض روحه فلما جاءه صكه ففقأ أعينه فقال لربه أرسلتنى لعبد لا يريد الموت قال ارجع اليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال أى رب ثم ماذا قال الموت قال فالآن وكان موسى وقت قبضه ابن مائة وعشرين سنة (أفلا يعقلون) اى أن القادر على ذلك عندهم قادر على البعث فيؤمنون وقرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة * ولما منح الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم غرائز من الفضائل مما عجز عنها الاوّلون والآخرون وأتى بقرآن أعجز الانس والجن وعلوم وبركات فاقت القوى ليس بشعر خلافا لما رموه به بغيا وكذبا وعدوانا قال تعالى (وما علمناه) أى نحن (الشعر) فيما علمناه وهو أن يتكلف التقيد بوزن معلوم وروى مقصود وقافية يلتزمها ويدير المعانى عليها ويجتلب الالفاظ تكلفا اليها كما كان زهير وغيره فى قصائدهم وما أنا من المتكلفين لان ذلك وان كنتم أنتم تعدونه فخرا لا يليق بجنابنا لانه لا يفرح به الامن يريد ترويج كلامه وتحليته بصوغه على وزن معروف مقصود وقافية ملتزمة على أن فيه نقيصة أخرى وهى أعظم ما يوجب النفرة عنه وهى أنه لا بد أن يوهى التزامه بعض المعانى ولما لم تعلمه هذه الدناءة طبعناه على جميع فنون البلاغة ومكناه من سائر وجوه الفصاحة ثم أسكنا قلبه ينابيع الحكمة ودربناه على القاء المعانى الجليلة بما ألهمناه اياه ثم ألقاه اليه جبريل عليه السلام مما أمرناه به من جوامع الكلم والحكم فلا تكلف عنده أصلا ما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما أو قطيعة رحم ولما كان الشعر مع ما ينبنى عليه من التكلف الذى هو بعيد جدا عن سجايا الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف شرفهم بما يكسب مدحا وهجوا فيكون أكثره كذبا الى غير ذلك قال تعالى (وما ينبغى له) أى وما يصح له الشعر ولا يسهل له على ما اختبرتم من طبعه نحوا من أربعين سنة لان منصبه أجل وهمته أعلى من أن يكون مداحا أو عيابا أو أن يقصد بما قد يجر نقيصة فى المعنى وجبلته منافية لذلك غاية المنافاة بحيث لو أراد نظم شعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لا يكتب ولا يحسب لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وما كان يتزن له بيت شعر حتى اذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسرا روى الحسن أن النبى

صلى

صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت * كفى بالشيب والاسلام للمرء ناهيا * فقال أبو بكر رضى الله عنه انما قال الشاعر * كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا * فقال عمر رضى الله عنه أشهد أنك رسول الله يقول الله عز وجل وما علمناه الشعر وما ينبغى له وعن ابن شريح قال قلت لعائشة رضى الله عنها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشئ من الشعر قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال * ويأتيك بالاخبار من لم تزود * وفى رواية قالت كان الشعر أبغض الحديث اليه قالت ولم يتمثل بشئ من الشعر الا بيت أخى بنى قيس طرفة العبدى

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا * ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالاخبار فقال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال انى لست بشاعر ولا ينبغى لى وقيل معناه ما كان متأتياله وأما قوله صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم والبخارى أنا النبىّ لا كذب * أنا ابن عبد المطلب وقوله كما رواه الشيخان أيضا

هل أنت الا اصبع دميت * وفى سبيل الله ما لقيت

فاتفاقى من غير تكلف وقصد منه الى ذلك وقد يقع مثله كثيرا فى تضاعيف المنثورات على أنّ الخليل ما عدّ المشطور من الرجز شعرا هذا وقد روى انه حرك البا آين فى قوله أنا النبىّ لا كذب وكسر التاء الاولى بلا اشباع وسكن الثانية من قوله هل أنت الا اصبع الخ وقيل الضمير للقرآن أى وما يصح أن يكون القرآن شعرا (فان قيل) لم خص الشعر بنفى التعليم مع أنّ الكفار كانوا ينسبون الى النبىّ صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر والكهانة ولم يقل وما علمناه السحر وما علمناه الكهانة (أجيب) بأنّ الكهانة انما كانوا ينسبون النبىّ صلى الله عليه وسلم اليها عندما كان يخبر عن الغيوب وتكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه اليه عند ما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكليم الجذع والحجر وغير ذلك وأما الشعر فكانوا ينسبونه اليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدّى الا بالقرآن كما قال تعالى ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم فى شك من رسالتى فأخبروا بالغيوب أو اشبعوا الخلق الكثير بالشئ اليسير فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم * ولما نفى أن يكون ما أتى به من جنس الشعر قال تعالى (ان) أى ما (هو) أى هذا الذى أتاكم به (الا ذكر) أى شرف وموعظة (وقرآن) أى جامع للحكم كلها دنيا واخرى يتلى فى المحاريب ويكرر فى المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين والنظر الى وجه الله العظيم (مبين) أى ظاهر انه ليس من كلام البشر لما فيه من الاعجاز قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين كلهم ذكيهم وغبيهم بخلاف الشعر فانه مع نزوله عن بلاغته جدّا انما ذكر للاذكياء جدّا وقوله تعالى (لينذر) ضميره للنبىّ صلى الله عليه وسلم ويدل له قراءة نافع وابن عامر بالتاء الفوقية على الخطاب وقيل للقرآن ويدل له قراءة الباقين بالياء التحتية على الغيبة واختلف فى قوله تعالى (من كان حيا) على قولين أحدهما

أنّ المراد به المؤمن لانه حي القلب والكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر قال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه والثاني المراد به العاقل فهما فيعقل ما يخاطب به فانّ الغافل كالميت (ويحق) أي يجب ويثبت (القول) أي العذاب (على الكافرين) أي الفريقين في الكفر فانهم أموات في الحقيقة وان رأيتهم أحياء ويمكن أن تكون هذه الآية من الاحتباك حذف الايمان أولا لما دل عليه من ضده ثانيا وحذف الموت ثانيا لما دل عليه من ضده أولا وأفرد الضمير في الاول على اللفظ اشارة الى قلة السعداء وجمع في الثاني على المعنى اعلاما بكثرة الاشقياء (أولم يروا) أي يعلموا علما هو كالرؤية والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليه للعطف (انا خلقنا لهم) أي في جملة الناس (مما عملت أيدينا) أي مما تولينا احداثه ولم يقدر على احداثه غيرنا وذكر الايدي واسناد العمل اليها استعارة تفيد المبالغة في الاختصاص والتفرد في الاحداث كما يقول القائل عملت هذا بيدي اذا تفرد به ولم يشاركه فيه أحد (أنعاما) على علمنا بقواها ومقاديرها ومنافعها وطبائعها وغير ذلك من أمورها وانما خص الانعام بالذكر وان كانت الاشياء كلها من خلقه وايجاده لانّ الانعام أكثر أموال العرب والنفع بها أعم (فهم لها مالكون) أي خلقناها لاجلهم فملكناهم اياها يتصرفون فيها تصرف الملاك أوفهم لها ضابطون قاهرون ومنه قول بعضهم

أصبحت لا أملك السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا

والذئب أخشاه ان مررت به * وحدي وأخشى الرياح والمطرا

والشاهد في قوله ولا أملك رأس البعير أي لا أضبطه والمعنى لم نخلق الانعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل خلقناها مذللة كما قال تعالى (وذللناها لهم) أي يسرنا قيادها ولو شئنا جعلناها وحشية كما جعلنا أصغر منها وأضعف فمن قدر على تذليل الاشياء الصعبة جدا لغيره قادر على تطويع الاشياء لنفسه ثم سبب عن ذلك قوله تعالى (فمنها ركوبهم) أي ما يركبون وهي الابل لانها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها في ذلك وكثرتها (ومنها يأكلون) أي ما يأكلونه * ولما أشار الى عظمة نفع الركوب والاكل بتقديم الجار وكانت منافعها الغير ذلك كثيرة قال تعالى (ولهم فيها منافع) أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ونسلها وغير ذلك (ومشارب) أي من البانها جمع مشرب بالفتح وخص الشرب من عموم المنافع بعموم نفعه وجمعه لاختلاف طعوم ألبان الانواع الثلاثة ولما كانت هذه الاشياء من العظمة بمكان لو فقدها الانسان لتكدرت معيشته تسبب عنها استئناف الانكار عليهم في تخلفهم عن طاعته بقوله تعالى (أفلا يشكرون) أي المنعم عليهم بها فيؤمنون ولما ذكرهم تعالى نعمه وحذرهم نقمه عجب منهم في سفول نظرهم وقبح أثرهم بقوله تعالى موبخا لهم (واتخذوا من دون) أي غير (الله) الذي له جميع صفات الكمال والعظمة (آلهة) أي أصناما يعبدونها بعد ما رأوا منه تعالى تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا انه المنفرد بها (لعلهم ينصرون) أي رجاء أن ينصروهم فيما أحزنهم من الامور والامر بالعكس

كما قال تعالى (لا يستطيعون) أى الآلهة المتخذة (نصرهم) أى العابدين (وهم) أى العابدون (لهم) أى للآلهة (جند محضرون) أى الكفار جند للاصنام فيغضبون لها ويحضرونها فى الدنيا وهى لا تسوق لهم خيرا ولا تستطيع لهم نصرا وقيل هذا فى الآخرة يؤتى بكل معبود من دون الله تعالى ومعه أتباعه الذين عبدوه كأنهم جنده يحضرون فى النار وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم * ولما بين تعالى ما تبين من قدرته الظاهرة الباهرة ووهن أمرهم فى الدنيا والآخرة ذكر ما يسلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) أى فى تكذيبك كقولهم لست مرسلا (انا نعلم ما) أى كل ما (يسرون) أى فى ضمائرهم من التكذيب وغيره (وما يعلنون) أى يظهرونه بألسنتهم من الاذى وغيره من عبادة الاصنام فنجازيهم عليه * ولما ذكر تعالى دليلا على عظم قدرته ووجوب عبادته بقوله تعالى أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ذكر دليلا من الانفس أبين من الاول بقوله تعالى (أولم ير) أى يعلم (الانسان) علما هو فى ظهوره كالمحسوس بالبصر (انا خلقناه) أى بما لنا من العظمة (من نطفة) أى شئ حقير يسير من ماء لا انتفاع به بعد ابداعنا اياه من تراب وأنه من لحم وعظام (فاذا هو) أى فتسبب عن خلقناه له من ذلك المفاجأة لحالة هى أبعد شئ من حالة النطفة وهى انه (خصيم) أى بليغ الخصومة (مبين) أى فى غاية البيان عما يريده حتى انه ليجادل من اعطاه العقل والقدرة فى قدرته وأنشد الاستاذ القشيرى فى ذلك

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رمانى

وكم علمته علم القوافى * فلما قال قافية هجانى

وفى هذا تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة الى انكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ لانكاره حيث تعجب منه وجعله افراطا فى الخصومة بينا ومنافاته لجحود القدرة على ما هو أهون مما عمله فى بدء خلقه ومقابلة النعمة التى لا مزيد عليها وهى خلقه من أخس شئ وأمهنه شريفا مكرما بالعقوق والتكذيب (وضرب) أى هذا الانسان (لنا) أى على ما يعلم من عظمتنا (مثلا) أى أمرا عجيبا وهو نفى القدرة على احياء الموتى روى ان أبى بن خلف الجمحى وهو الذى قتله النبى صلى الله عليه وسلم بأحد مبارزة اتى النبى صلى الله عليه وسلم بعظم بال يفتته بيده فقال أترى الله يحيى هذا بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك النار فنزلت وقيل هو العاصى بن وائل قاله الجلال المحلى وأكثر المفسرين على الاول (ونسى) أى هذا الذى تصدى على مهانة أصله لمخاصمة الجبار (خلقه) أى بدء أمره من المنى وهو أغرب من مثله والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول وأن يكون بمعنى الترك ثم استأنف الاخبار عن هذا المثل بأن (قال) أى على طريق الانكار (من يحيى العظام وهى رميم) أى صارت ترابا تمزع الرياح ورميم قال البيضاوى بمعنى فاعل من رم الشئ صار اسما بالغلبة ولذلك لم يؤنث أو اسم مفعول من رممته وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الاعضاء اه

قال البغوي ولم يقل رميمة لانه معدول عن فاعلة فكل ما كان معدولا عن وجهه ووزنه كان مصروفا عن اعرابه كقوله تعالى وما كانت أمك بغيا أسقط الهاء لانها مصروفة عن باغية *(تنبيه)* هذه الآية ومابعدها اشارة الى بيان الحشر لان المنكرين للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة بل اكتفى بمجرد الاستبعاد وهم الاكثرون أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون من يحيي العظام وهي رميم قالوا ذلك على طريق الاستبعاد فأبطل الله تعالى استبعادهم بقوله تعالى ونسي خلقه أي نسي انا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم من النواصي الى الاقدام أعضاء مختلفة الصورة وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ماليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل اللذان بهما استحقوا الاكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة مذرة لم تكن محلا للحياة أصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه واختاروا العظم بالذكر لانه أبعد عن الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلاء والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في العبد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كان في آخرها يعود الى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين الاول انه بعد العدم لم يبق شيأ فكيف الحكم على العدم بالوجود فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بأن قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء البعداء البغضاء (يحييها) أي بعد أن أنشأها أول مرة (الذي أنشأها) أي من العدم ثم أحياها (أول مرة) فكما خلق الانسان ولم يكن شيأ مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيأ مذكورا الوجه الثاني ان من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضها في أبدان السباع وبعضها في حواصل الطيور وبعضها في جدران الربوع كيف تجتمع وأبعد من هذا لو أكل انسان انسانا وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فان أعيدت أجزاء الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه واما أن تعاد الى بدن المأكول فلا يبقى للآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفي المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلي من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هي ما كان قبل الأكل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وهو بكل خلق) أي مخلوق (عليم) أي يجمع الأصل من الفضل فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيه روحه وكذلك يجمع أجزاءه المتفرقة في البقاع المتبددة بحكمته وقدرته ثم انه تعالى عاد الى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وابطال انكارهم بقوله تعالى (الذي جعل لكم) أي في جملة الناس (من الشجر الاخضر) أي الذي تشاهدون فيه الماء (نارا) قال ابن عباس هما شجرتان يقال لاحداهما المرخ والأخرى العفار الاول بفتح الميم وسكون الراء والخاء المعجمة شجر سريع الوري أي القدح والثاني بفتح المهملة وفاء وراء بعد ألف الزند فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل

السواكين وهما أخضران يقطران الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فيخرج منهما النار باذن الله تعالى وتقول العرب فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وقال الحكماء فى كل شجر نار الا العناب (فاذا أنتم) أى فتسبب عن ذلك مفاجاتكم لانكم (منه) أى من الشجر الموصوف بالخضرة (توقدون) أى توجدون الايقاد وتجددا لكم ذلك مرة بعد أخرى وهذا أدل على القدرة على البعث فانه جمع فيه بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الانسان فقال تعالى (أوليس الذى خلق) أى أوجد من العدم (السموات والارض) أى على كبرهما وعظم ما فيهما من المنافع والمصانع والعجائب والبدائع وأثبت الجار تحقيقا للامر وتأكيدا للتقرير فقال تعالى (بقادر على أن يخلق مثلهم) أى مثل هؤلاء الاناسى فى الصغر أى يعيدهم باعيانهم وقيل الضمير يعود على السموات والارض لتضمنهم من يعقل والاول أظهر لانهم المخاطبون وقوله تعالى (بلى) جواب ليس وان دخل عليها الاستفهام لمصيرها ايجابا أى هو قادر على ذلك أجاب نفسه تعالى (وهو) مع ذلك أى مع كونه عالما بالخلق (الخلاق) أى الكثير الخلق (العليم) أى البالغ فى العلم الذى هو منشأ القدرة فلا يخفى عليه كلى ولا جزئى فى ماض ولا حال ولا مستقبل شاهدا أو غائب * ولما تقرر ذلك انتج قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم القدرة على البعث (انما أمره) أى شأنه ووصفه (اذا أراد شيأ) أى خلق شئ من جوهر أو عرض أى شئ كان (أن يقول له كن) أى أن يريده (فيكون) أى يحدث وهو تمثيل لتأثير قدرته فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار الى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعا لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق وقرأ ابن عامر والكسائى بنصب النون عطفا على يقول والباقون بالرفع أى فهو يكون * ولما كان ذلك تسبب عنه المبادرة الى تنزيهه تعالى عما نسبوه له من الامثال فلذلك قال (فسبحان) أى تنزه عن كل شائبة نقص تنزها لا يبلغ افهامكم كنهه وعدل عن الضمير الى وصف يدل على غاية العظمة فقال (الذى بيده) أى قدرته وتصرفه خاصة لا بيد غيره (ملكوت كل شئ) أى ملكه التام وملكه ظاهرا وباطنا * ولما كان التقدير فعنه تبدؤن عطف عليه قوله تعالى (واليه) أى لا الى غيره (ترجعون) أى معنى فى جميع أموركم وحسا بالبعث لينصف بينكم فيدخل بعضا النار وبعضا الجنة وعن ابن عباس كنت لا أعلم ما روى فى فضل يس كيف خصت به فاذا به لهذه الآية وما رواه البيضاوى عنه صلى الله عليه وسلم أن لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس وايما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون قبض روحه وغسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وايما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو

ريان حديث موضوع وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يس في ليلة أصبح مغفورا له وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات وعن يحيى بن أبي كثير قال بلغنا أن من قرأ يس حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي ومن قرأها حين يمسي لم يزل في فرح حتى يصبح

(سورة الصافات مكية)

وهي مائة واثنان وثمانون آية وثمانمائة وستون كلمة وثلاثة آلاف وثمانمائة وستة وعشرون حرفا

(بسم الله) الذي له الكمال المطلق (الرحمن) الذي من رحمته العدل في الدارين (الرحيم) الذي لا يدنو من جنابه نقص واختلف في تفسير قوله تعالى (والصافات صفا) أي وهو ترتيب الجمع على خط فقال ابن عباس والحسن وقتادة هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة وعن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تصفون كصفوف الملائكة عند ربهم قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف وقيل هي الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله تعالى بما يريد وقيل هي الطير تصف أجنحتها في الهواء لقوله تعالى والطير صافات واختلف أيضا في قوله تعالى (فالزاجرات زجرا) فأكثر المفسرين على أنها الملائكة تزجر السحاب وتسوقه وقال قتادة هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح واختلف أيضا في قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) فالأكثر أيضا أنهم الملائكة عليهم السلام يتلون ذكر الله تعالى وقيل هم جماعة قراء القرآن (فإن قيل) قال أبو مسلم الأصفهاني لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة عليهم السلام مبرؤون من هذه الصفة (أجيب) بوجهين الأول أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم تجمع على صافات والثاني أنهم مبرؤون من التأنيث المعنوي وأما التأنيث اللفظي فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة *(تنبيه)* اختلف الناس ههنا في المقسم به على قولين أحدهما أن المقسم به خالق هذه الأشياء لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله تعالى ولأن الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى ففي ذلك إضمار تقديره ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التاليات ومما يؤيد هذا أنه تعالى صرح به في قوله تعالى والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها والثاني وعليه الأكثر أن المقسم به هذه الأشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى فهو نهي للمخلوق عن ذلك وأما قوله تعالى وما بناها فإنه علق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء ولو كان المراد بالقسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وهو لا يجوز وأيضا لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وقال البيضاوي أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية على مراتب باعتبارها تفيض عليهم أنوار

الهيبة منتظرين لامر الله الزاجرين للاجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور فيها أو الناس عن المعاصي بالهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم التالين لآيات الله وجلايا قدسه على أنبيائه وأوليائه أو بطوائف الاجرام المترتبة كالصفوف المرصوصة والارواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس يسبحون الليل والنهار لا يفترون أو بنفوس العلماء الصادقين في العبارات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه أو بنفوس الغزاة الصادقين في الجهاد الزاجرين للخيل والعدو التالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مباراة العدو وقال الزمخشري الفاء في فالزاجرات والتاليات اما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله يالهف زيابة للعرث الصابح فالغانم فالآيب أي الذي صبح فغنم فآب واما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك خذ الافضل فالاكمل واعمل الاحسن فالاجمل واما على ترتب موصوفاتها كقوله رحم الله المحلقين فالمقصرين والبيضاوي ذكر هذا حديثا قال شيخنا القاضي زكريا لم أره بهذا اللفظ اه لكنه لفضل المتقدم على المتأخر وهذا للعكس وقرأ أبو عمرو وحمزة بالادغام فيما ذكر والباقون بالاظهار وجواب القسم (ان الهكم) أي الذي اتخذتم من دونه آلهة (لواحد) اذ لو لم يكن واحدا لاختل هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة وما يترتب عليها فكان غير حكيم (فان قيل) ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجهين الاول أن المقصود من هذا القسم اما اثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو الكافر فالاول باطل لان المؤمن مقر به من غير حلف والثاني باطل أيضا لان الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على كل تقدير الثاني أنه يقال أقسم في أول هذه السورة على أن الاله واحد وأقسم في أول سورة الذاريات على أن القيامة حق فقال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق بالعقلاء (أجيب) عن ذلك بأوجه أولها أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في غالب السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم تأكيدا لما تقدم لاسيما والقرآن أنزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب ثانيها أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل ان هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة الى حيث يكفي في ابطاله مثل هذه الحجة ثالثها أنه تعالى لما أقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى ان الهكم لواحد عقبه بما هو الدليل اليقيني في كون الاله واحدا وهو قوله تعالى (رب) أي موجد ومالك ومدبر (السموات) أي الاجرام العالية (والارض) أي الاجرام السافلة (وما بينهما) أي من الفضاء المشحون بما يعجز عن عده القوى وذلك لانه تعالى بين في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام أحوال السموات والارض يدل على أن الاله واحد فههنا لما قال ان الهكم لواحد أردفه

بقوله رب السموات والارض وما بينهما كأنه قيل بينا أن النظر فى انتظام هذا العالم يدل على أن الاله واحد فتأملوا ليحصل لكم العلم بالتوحيد *(تنبيه)* علم من قوله تعالى وما بينهما أنه تعالى خالق لاعمال العباد لان أعمالهم موجودة فيما بين السماء والارض وهذه الآية دلت على أن كل ما حصل بين السماء والارض فالله ربه ومالكه وهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله تعالى (فان قيل) الاعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السماء والارض لان هذا الوصف انما يكون حاصلا فى حيز وجهة والاعراض ليست كذلك (أجيب) بأنها لما كانت حاصلة فى الاجسام الحاصلة بين السماء والارض فهى أيضا حاصلة بين السموات والارض (ورب المشارق) أى والمغارب وجمعها باعتبار جميع السنة فان الله تعالى خلق للشمس ثلثمائة وستين كوة فى المشرق وثلثمائة وستين كوة فى المغرب على عدد أيام السنة تطلع الشمس كل يوم من كوة منها وتغرب فى كوة منها لا ترجع الى الكوة التى تطلع منها الى ذلك اليوم من العام المقبل وقيل كل موضع أشرقت عليه الشمس فهو مشرق وكل موضع غربت عليه فهو مغرب كأنه أراد جميع ما أشرقت عليه الشمس وقيل المراد بالمشارق مشارق الكواكب ومغاربها لان لكل كوكب مشرقا ومغربا (فان قيل) ان الله تعالى قال فى موضع رب المشرق والمغرب وقال فى موضع آخر رب المشرقين ورب المغربين فما الجمع بين هذه المواضع (أجيب) بأن المراد بقوله رب المشرق والمغرب الجهة فالمشرق جهة والمغرب جهة وبقوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين مشرقا الشتاء والصيف ومغربا الشتاء والصيف وأما موضع الجمع فقد مر (فان قيل) لم اكتفى بذكر المشارق (أجيب) بوجهين الاول انه اكتفى به كقوله تعالى تقيكم الحر والثانى ان الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا منه فذكر المشرق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام بقوله ان الله يأتى بالشمس من المشرق (انا زينا) أى بعظمتنا التى لا تدانى (السماء) ولما كانوا لا يرون الا ما يليهم من السموات وكانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال تعالى (الدنيا) اى التى هى أدنى السموات اليكم (بزينة الكواكب) أى بضوئها كما قاله ابن عباس أو بها وقرأ عاصم وحمزة بزينة بالتنوين والباقون بغير تنوين والاضافة للبيان كقراءة تنوين بزينة المبينة بالكواكب ونصب الباء الموحدة من الكواكب شعبة وكسرها الباقون (فان قيل) قد ثبت فى علم الهيئة أن هذه الكواكب الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة وان السيارات مركوزة فى الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (أجيب) بأن الناس الساكنين على سطح كرة الارض ان نظروا الى السماء الدنيا فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وقوله تعالى (وحفظا) منصوب بفعل مقدر أى حفظناها بالشهب أو معطوف على زينة باعتبار المعنى كأنه قال انا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظا (من كل شيطان) أى بعيد

عن الخبر محترق (مارد) أى عات خارج عن الطاعة * ولما تشوّف السامع الى معرفة هذا الحفظ وغرته وبيان كيفيته استأنف قوله تعالى (لا يسمعون) أى الشياطين المفهومون من كل شيطان (الى الملأ الأعلى) اى الملائكة أو اشرافهم فى السماء وعدى السماع بالى لتضمنه معنى الاصغاء مبالغة لنفيه وتهويلا لما يمنعهم عنه ويدل عليه قراءة حمزة والكسائى وحفص بفتح السين وتشديدها وتشديد الميم من التسمع وهو طلب السماع وقرأ الباقون بسكون السين وتخفيف الميم (ويقذفون) أى الشياطين يرمون بالشهب (من كل جانب) أى من آفاق السماء وقوله تعالى (دحورا) مصدر دحره أى طرده وأبعده وهو مفعول له وقيل هو جمع داحر نحو قاعد وقعود فيكون حالا بنفسه من غير تأويل وقيل غير ذلك (ولهم) أى فى الآخرة (عذاب) غير هذا (واصب) أى دائم وقال مقاتل أى دائم فى الدنيا الى النفخة الاولى وقوله تعالى (الا من خطف) فيه وجهان أحدهما أنه مرفوع المحل بدلا من ضمير لا يسمعون وهو أحسن لانه غير موجب والثانى أنه منصوب على أصل الاستثناء والمعنى أن الشياطين لا يسمعون الملائكة الا من خطف وقوله تعالى (الخطفة) مصدر معرف بأل الجنسية أو المعرفة ومعنى اختطف اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة (فأتبعه) أى لحقه (شهاب) أى كوكب (ثاقب) أى مضىء قوى لا يخطئه يقتله أو يحرقه أو يثقبه أو يخبله * (تنبيه) * ههنا سؤالات أولها ان هذه الشهب التى يرمى بها هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا والاول باطل لانها تبطل وتضمحل فلو كانت تلك الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير فى اعداد كواكب السماء ولم يوجد ذلك فان اعداد كواكب السماء باقية لم تتغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء الدنيا فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض وان كانت هذه الشهب جنسا آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهو أيضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد على المصابيح فوجب أن تكون تلك المصابيح هى المرجوم بها بأعيانها ثانيها كيف يجوز أن تذهب الشياطين حيث يعلمون أن الشهب تحرقهم ولا يصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن أن يصدر هذا الفعل من عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة ثالثها دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك ترى الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه واذا ثبت أن ذلك كان موجودا قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجىء النبى صلى الله عليه وسلم رابعها الشيطان مخلوق من النار كما حكى عن قول ابليس لعنه الله تعالى خلقتنى من نار وقال تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار (أجيب) عن الاول بأن هذه الشهب غير تلك

الكواكب الثابتة وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين
فنقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لاهل الارض الا أن تلك المصابيح منها باقية على
وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك وهي هذه الشهب التي يحدثها الله
تعالى و يجعلها رجوما للشياطين الى حيث يعلمون وبها يزول الاشكال وعن الثاني بأن هذه
الواقعة انما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب ندرتها بين الشياطين وأجاب أبو علي
الجبائي بأن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والا لم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير
الى موضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم الشهب وربما صاروا
الى غيره ولا صادفوا الملائكة ولا تصيبهم الشهب فلما هلكوا في بعض الاوقات وسلموا في بعض
الاوقات جاز أن يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم أنهم لا تصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن
سلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة وفي جواب أبي علي نظر اذ ليس في
السماء موضع قدم الا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد وعن الثالث بأن الاقرب ان هذه الحالة
كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكن بقلة ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وقعت
بكثرة فصارت بسبب الكثرة معجزة وعن الرابع بأن الشياطين ليسوا من نار خالصة وعلى التنزل
بأنهم من النيران الخالصة الا أنها نيران ضعيفة ونيران الشهب أقوى حالا منهم فلا جرم صار
الاقوى مبطلا للاضعف الا ترى أن السراج الضعيف اذا وضع في النار القوية فانه ينطفئ
فكذلك ههنا * ولما كان المقصود الاعظم من القرآن اثبات الاصول الاربعة وهي الالهيات
والمعاد والنبوات واثبات القضاء والقدر افتتح الله سبحانه هذه السورة باثبات ما يدل على
الصانع وعلى علمه وقدرته وحكمته ووحدانيته وهو خالق السموات والارض وما بينهما ورب
المشارق والمغارب ثم فرع عليها اثبات الحشر والنشر والقيامة وهو أن من قدر على ما هو أشق
وأصعب وجب أن يقدر على ما هو دونه وهو قوله تعالى (فاستفتهم) أي سل كفار مكة
أن يفتوك بأن يبينوا لك ما تسألهم عنه من انكارهم البعث وأصله من الفتوة وهي الكرم
(أهم أشد) أي أقوى وأشق وأصعب (خلقا) أي من جهة احكام الصنعة وقوتها وعظمها
(أم من خلقنا) أي من الملائكة والسموات والارض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب
الثواقب * (تنبيه) * في الاتيان بمن تغليب للعقلاء وهو استفهام بمعنى التقرير أي هذه الاشياء
أشد خلقا كقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقوله تعالى أأنتم أشد
خلقا أم السماء بناها وقيل معنى أم من خلقنا أي من الامم الماضية لان لفظ من يذكر لمن يعقل
والمعنى ان هؤلاء الامم ليسوا بأحكم خلقا من غيرهم من الامم الخالية وقد أهلكناهم بذنوبهم
فمن الذي يؤمن هؤلاء من العذاب (انا خلقناهم) أي أصلهم آدم بعظمتنا (من طين) أي تراب
رخو مهين (لازب) أي شديد الاختلاط بعضه ببعض فالتصق وتخمر بحيث يعلق باليد وقال
مجاهد والضحاك منتن فهو مخلوق من غير أب ولا أم وقرأ حمزة والكسائي (بل عجبت)
بضم التاء والباقون بفتحها أما بالضم فباسناد التعجب الى الله تعالى وليس هو كالتعجب

من الآدميين كما قال تعالى فيسخرون منهم سخر الله منهم وقال تعالى نسوا الله فنسيهم فالعجب
من الآدميين انكاره وتعظيمه والعجب من الله تعالى قد يكون بمعنى الانكار والذم وقد يكون
بمعنى الاستحسان والرضا كما في الحديث عجب ربكم من شاب ليست له صبوة وفي حديث آخر عجب
ربكم من ألكم وقنوطكم وسرعة اجابته اياكم قوله الكم الال أشد القنوط وقيل هو رفع
الصوت بالبكا وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال ان الله تعالى لا يعجب من شيء ولكن وافق
رسوله صلى الله عليه وسلم فلما عجب رسوله قال تعالى وان تعجب فعجب قولهم أي هو كما تقوله
وأما بالفتح فعلى أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي عجبت من تكذيبهم اياك (ويسخرون)
أي وهم يسخرون من تعجبك قال قتادة عجب نبي الله صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن حين
أنزل ومن ضلال بني آدم وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظن أن كل من سمع القرآن
يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبي صلى الله عليه
وسلم فقال تعالى بل عجبت ويسخرون (واذا ذكروا) أي وعظوا بالقرآن (لا يذكرون)
أي لا يتعظون (واذا رأوا آية) قال ابن عباس وقتادة يعني انشقاق القمر (يستسخرون)
أي يستهزؤن بها وقيل يستدعي بعضهم من بعض السخرية (وقالوا ان) أي ما (هذا
الا سحر مبين) أي ظاهر في نفسه ومظهر لسخريته ثم خصوا البعث بالانكار اعلاما بأنه أعظم
مقصود بالنسبة الى السحر فقالوا مظهرين له في مظهر الانكار (أئذا متنا) وعطفوا عليه
ما هو موجب عندهم لشدة الانكار فقالوا (وكنا) أي كونا في غاية التمكن (ترابا) وقدموه
لانه أدل على مرادهم لانه أبعد عن الحياة (وعظاما) كأنهم جعلوا كل واحد من الموت
أو الكون الى الترابية المحضة والعظامية المحضة والمختلطة بهما مانعا من البعث وهذا بعد
اعترافهم بأن ابتداء خلقتهم كان من التراب ثم كرروا الاستفهام الانكاري على قراءة من
قرأ به كما سيأتي بيانه زيادة في الانكار (فقالوا أئنا لمبعوثون) وقولهم (أو آباؤنا الاولون)
عطف على محل ان واسمها أو على الضمير في مبعوثون فانه مفصول عنه بهمزة الاستفهام لزيادة
الاستبعاد لبعد زمانهم وهذا بيان للسبب الذي حملهم على الاستهزاء بجميع المعجزات وهو
اعتقادهم أن من مات وتفرقت أجزاؤه في العالم فما فيه من الارض اختلط بالارض وما فيه من
المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا ثم انه تعالى
لما حكى عنهم هذه الشبهة قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أي لهؤلاء البعداء البغضاء
(نعم) أي تبعثون على كل تقدير قدرتموه (وأنتم داخرون) أي مكرهون عليه صاغرون ذليلون
وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر في الآية المتقدمة البرهان القطعي على انه
أمر ممكن واذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار المخبر الصادق
فلما قامت المعجزة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله نعم
دليلا قاطعا على الوقوع وقرأ متنا بضم الميم ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وكسرها
الباقون وأما أئذا وأئنا فقرأ نافع والكسائي بالاستفهام في الاول والخبر في الثاني وابن

عامر بالخبر فى الاول والاستفهام فى الثانى والباقون بالاستفهام فيهما وسهل الهمزة الثانية فى الاستفهام نافع وابن كثير وأبو عمرو وحقق الباقون وأدخل فى الاستفهام الفا بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير ادخال وقرأ قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو على انها أو العاطفة المقتضية للشك والباقون بفتحها على أنها همزة الاستفهام دخلت على واو العطف وقرأ الكسائى نعم بكسر العين وهو لغة فيه وقوله تعالى (فانما هى زجرة واحدة) جواب شرط مقدر أى اذا كان كذلك فانما البعثة زجرة أى صيحة واحدة هى النفخة الثانية من زجر الراعى غنمه اذا صاح عليها وأمرها فى الاعادة كأمرها بكن فى الابتداء ولذلك رتب عليها (فاذا هم ينظرون) أى أحياء فى الحال من غير مهلة ينظر بعضهم بعضا وقيل ينظرون ما يحدث لهم أو ينظرون الى البعث الذى كذبوا به ولا فرق بين من صار كله ترابا ومن لم يتغير أصلا ومن هو بين ذلك قال البقاعى ولعله خص النظر بالذكر لانه لا يكون الا مع كمال الحياة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا قبض الروح تبعه البصر وأما السمع فقد يكون لغير الحى لانه صلى الله عليه وسلم قال فى الكفار من قتلى بدر ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قال وشاهدت أنا فى بلاد العرب المجاورة لنابلس شجرة لها شوك يقال لها الغبيرا متى قيل عندها هات لى المنجل لاقطع هذه الشجرة أخذ ورقها فى الحال فى الذبول فانه سبحانه أعلم ما سبب ذلك اه *(تنبيه)* لا أثر للصيحة فى الموت ولا فى الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال تعالى الذى خلق الموت والحياة روى أن الله تعالى يأمر الملك اسرافيل فينادى أيها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (وقالوا) أى كل من جمعه البعث من الكفرة بعد القيام من القبور معلنين بما انكشف لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل (ياويلنا) أى هلاكنا وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة وتقول لهم الملائكة (هذا يوم الدين) أى الحساب والجزاء (هذا يوم الفصل) أى بين الخلائق (الذى كنتم به تكذبون) وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض وقوله تعالى (احشروا) أى اجمعوا بكره وصغار (الذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بالشرك أمر من الله تعالى للملائكة عليهم السلام وقيل أمر من بعضهم لبعض أى احشروا الظلمة من مقامهم الى الموقف * وقيل منه الى جهنم (وأزواجهم) أى وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكواكب مع عبدتها كقوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة أى أشكالا وأشباها وقال الحسن وأزواجهم المشركات وقال الضحاك ومقاتل قرناؤهم من الشياطين وعلى هذا اقتصر الجلال المحلى أى يقرن كل كافر مع شيطانه فى سلسلة (وما كانوا يعبدون من دون الله) أى غيره فى الدنيا من الاوثان والطواغيت زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم ومثل الاوثان الذين رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ويأمروهم بعبادة الله تعالى الذى تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال وقال مقاتل يعنى ابليس وجنوده واحتج بقوله تعالى أن لا تعبدوا الشيطان (فاهدوهم الى صراط الجحيم) قال ابن عباس دلوهم الى طريق النار وقال ابن كيسان قدموهم قال البغوى والعرب

تسمى

تسمى السائق هاديا قال الواحدى هذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهادية والهوادى وهاديات الوحش ولا يقال هدى بمعنى قدم (وقفوهم) أى احبسوهم قال البغوى قال المفسرون لما سيقوا الى النار حبسوا عند الصراط فقيل لهم قفوهم (انهم مسئولون) قال ابن عباس عن جميع أقوالهم وأفعالهم وروى عنه عن لا اله الا الله وقيل تسألهم خزنة جهنم عليهم السلام ألم يأتكم نذير أى رسل منكم جاؤكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وروى عن أبى برزة الاسلمى قال لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعلمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه وفى رواية وعن شبابه فيم أبلاه وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من داع دعا الى شئ الا كان موقوفا يوم القيامة لازما به وان دعا رجل رجلا ثم قرأ وقفوهم انهم مسئولون ويقال لهم توبيخا (مالكم) أى أى شئ حاصل لكم شغلكم وألهاكم حال كونكم (لا تناصرون) قال ابن عباس لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة مالكم لا تناصرون وقيل يقال للكفار ما الشركائكم لا يمنعونكم من العذاب ويقال عنهم (بل هم اليوم مستسلمون) قال ابن عباس خاضعون وقال الحسن منقادون يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع والمعنى هم اليوم اذلاء منقادون لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار * ولما أخبر سبحانه وتعالى عنهم بانهم سئلوا فلم يجيبوا ربما كان يظن أنهم أخرسوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد تكذيبهم فقال عاطفا على قوله تعالى وقالوا ياويلنا (وأقبل بعضهم) أى الذين ظلموا (على بعض) أى بعد ايقافهم لتوبيخهم وعبر عن خصامهم تهكما بهم بقوله تعالى (يتساءلون) أى يتلاومون ويتخاصمون (قالوا) أى الاتباع منهم للمتبوعين (انكم كنتم تأتوننا عن اليمين) قال الضحاك أى من قبل الدين فتضلوننا عنه وقال مجاهد عن الصراط الحق واليمين عبارة عن الدين الحق كما أخبر الله تعالى عن ابليس لعنه الله تعالى ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فمن أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق واليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات لان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر قال ابن عادل لا تباشر الاعمال الشريفة الا باليمين ويتفاءلون بالجانب الايسر وكان صلى الله عليه وسلم يحب التيامن فى شأنه كله وكاتب الحسنات من الملائكة على اليمين ووعد الله تعالى المؤمن أن يعطيه الكتاب باليمين وقيل ان الرؤساء كانوا يحلفون للمستضعفين أن ما يدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم وقيل عن اليمين عن القوة والقدرة كقوله تعالى لاخذنا منه باليمين (قالوا) أى المتبوعون لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) أى وانما يصدق الاضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الايمان الينا وانما الكفر من قبلكم (وما كان لنا عليكم من سلطان) أى قوة وقدرة حتى نقهركم ونجبركم على متابعتنا (بل كنتم قوما طاغين) أى ضالين مثلنا (فحق) أى وجب (علينا) جميعا (قول

ربنا) أى كلمة العذاب وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (انا) أى جميعا (لذائقون) أى العذاب بذلك القول ونشاءنه قولهم (فأغويناكم) أى فاضللناكم عن الهدى ودعوناكم الى ما كنا عليه (انا كنا غاوين) أى ضالين فأحببتم أن تكونوا امثالنا وفيه ايماء بأن غوايتهم فى الحقيقة ليست من قبلهم اذ لو كان كل غواية باغواء غاو فمن أغوى الاول قال الله تعالى (فانهم) أى المتبوعين والاتباع (يومئذ) أى يوم القيامة (فى العذاب مشتركون) أى كما كانوا مشتركين فى الغواية (انا) أى بما لنا من العظمة والقدرة (كذلك) أى كما نفعل بهؤلاء (نفعل بالمجرمين) غير هؤلاء أى نعذبهم التابع منهم والمتبوع ثم وصفهم الله تعالى بقوله (انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون) أى يتكبرون عن كلمة التوحيد أو عمن يدعوهم اليها (ويقولون أئنا) فى الهمزتين ما مر (لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ثم ان الله تعالى كذبهم فى ذلك الكلام بقوله تعالى (بل جاء بالحق) أى الدين الحق (وصدق المرسلين) أى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد فأتى بما أتى به المرسلون من قبله ثم التفت من الغيبة الى الحضور فقال تعالى (انكم لذائقوا العذاب الاليم) ثم كانه قيل كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى الغنى عن الضر والنفع أن يعذب عباده فأجاب بقوله تعالى (وما تجزون الا ما كنتم تعملون) أى جزاء عملكم وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين استثناء منقطع وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام بعد الخاء أى ان الله تعالى أخلصهم واصطفاهم بفضله والباقون بالكسر أى انهم أخلصوا الطاعة لله تعالى وقوله (أولئك لهم) أى فى الجنة (رزق معلوم) أى بكرة وعشيا بيان لحالهم وان لم يكن ثم بكرة ولا عشية فيكون المراد منه معلوم الوقت وهو مقدار غدوة أو عشية وقيل معلوم الصفة أى مخصوص بصفات من طيب طعم ولذة وحسن منظر وقيل معناه انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع وقيل معلوم القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله تعالى وقوله (فواكه) يجوز أن يكون بدلا من رزق وأن يكون خبر مبتدا مضمر أى ذلك الرزق فواكه وفى الفواكه جمع فاكهة قولان أحدهما أنها عبارة عما يؤكل للتلذذ لا للحاجة وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لانهم مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فان أجسامهم محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه فعلى سبيل التلذذ والثانى أن المقصود بذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى أى لما كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان المأكول للغذاء أولى بالحضور (وهم مكرمون) أى فى نيله يصل اليهم من غير تعب وسؤال لا كما عليه رزق الدنيا * ولما ذكر مأكلهم ذكر مسكنهم بقوله تعالى (فى جنات النعيم) أى فى جنات ليس فيها الا النعيم وهو متعلق بمكرمون أو خبر ثان لأولئك أو حال من المستكن فى مكرمون وقوله تعالى (على سرر متقابلين) أى لا يرى بعضهم قفا بعض حال ويجوز أن يتعلق على سرر بمتقابلين * ولما ذكر سبحانه وتعالى المأكل والمسكن ذكر بعد ذلك صفة

المشرب

المشرب بقوله تعالى (يطاف عليهم) أى على كل منهم (بكأس) أى باناء فيه خمر فهو اسم للاناء بشرابه فلا يكون كأسا حتى يكون فيه شراب والا فهو اناء وقيل المراد بالكأس الخمر كقول الشاعر

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

أى رب كأس شربت لطلب اللذة وكأس شربت للتداوى من خمارها والكأس مؤنثة كما قاله الجوهرى وقوله تعالى (من معين) أى من شراب معين أو من نهر معين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا وقوله تعالى (بيضاء) أى أشد بياضا من اللبن قاله الحسن صفة لكأس وقال أبو حيان صفة لكأس أو للخمر واعترض بأن الخمر لم يذكر وأجيب عنه بأن الكأس انما سميت كأسا اذا كان فيها الخمر وقوله تعالى (لذة) صفة أيضا وصفه بالمصدر مبالغة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا كان المراد المبالغة وقال الزجاج أو على حذف المضاف أى ذات لذة وقوله تعالى (للشاربين) أى بخلاف خمر الدنيا فانها كريهة عند الشرب صفة للذة وقال الليث اللذة واللذيذة يجريان مجرى واحد فى النعت يقال شراب لذ ولذيذ وقوله تعالى (لا فيها غول) صفة أيضا واختلف فى الغول فقال الشعبى اى لا تغتال عقولهم فتذهب بها وقال الكلبى معناه الاثم أى لا اثم فيها وقال قتادة وجع البطن وقال الحسن صداع وقال أهل المعانى الغول فساد يلحق فى خفاء يقال اغتاله اغتيالا اذا أفسد عليه أمره فى خفية وخمر الدنيا يحصل منها أنواع الفساد منها السكر وذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقىء والبول ولا يوجد شئ من ذلك فى خمر الجنة (ولا هم عنها ينزفون) أى يسكرون وقرأ حمزة والكسائى بكسر الزاى من أنزف الشارب اذا نزف عقله من السكر والباقون بفتحها من نزف الشارب نزيفا اذا ذهب عقله أفرده بالذكر وعطفه على ما يعمه لانه من عظم فساده كأنه جنس برأسه * ولما ذكر تعالى صفة مشروبهم ذكر عقبه صفة منكوحهم بقوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أى حابسات الاعين غاضات الجفون قصرن ابصارهن على أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم لحسنهم عندهن وقوله تعالى (عين) جمع عيناء وهى الواسعة العين والذكر أعين قال الزجاج كبار الاعين حسانها يقال رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين (كأنهن) أى فى اللون (بيض) للنعام (مكنون) أى مستور بريشه لا يصل اليه غبار ولونه وهو البياض فى صفرة يقال هذا أحسن ألوان النساء تكون المرأة بيضاء مشربة بصفرة قال ذو الرمة فى ذلك

بيضاء فى ترح صفراء فى غنج * كأنها فضة قد مسها ذهب

قال المبرد والعرب تشبه المرأة الناعمة فى بياضها وحسن لونها ببيضة النعامة وقال بعضهم انما شبهت المرأة بها فى أجزائها فان البيضة من أى جهة أتيتها كانت فى رأى العين مشبهة للاخرى وهو فى غاية المدح وقد لحظ هذا بعض الشعراء فقال

تناسبت الاعضاء فيها فلا ترى * بهن اختلافا بل أتين على قدر

ويجمع البيض على بيوض قال الشاعر

بتيهاء قفر والمطي كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

(فأقبل بعضهم) أي بعض أهل الجنة (على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف عليهم أي يشربون فيتحادثون على الشراب قال القائل

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الكرام على المدام

وأتى بقوله تعالى فأقبل ماضيا لتحقق وقوعه كقوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب النار وقوله تعالى يتساءلون حال من فاعل أقبل وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا * ولما ذكر تعالى أن أهل الجنة يتساءلون عند اجتماعهم على الشراب ويتحدثون كان من جملة كلامهم أنهم يتذكرون ما كان حصل لهم في الدنيا مما يوجب الوقوع في عذاب الله تعالى ثم انهم تخلصوا منه وهو ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله (قال قائل منهم) أي من أهل الجنة في الجنة في مكالمتهم (انى كان لى قرين) أي في الدنيا ينكر البعث (يقول أئنك لمن المصدقين) أي كان يوبخني على التصديق بالبعث ويقول تعجبا (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) أي مجزيون ومحاسبون من الدين بمعنى الجزاء وهذا استفهام انكار *(تنبيه)* اختلف في ذلك القرين فقال مجاهد كان شيطانا وقيل كان من الانس وقال مقاتل كانا أخوين وقيل كانا شريكين حصل لهما ثمانية آلاف دينار فتقاسماها واشترى أحدهما دارا بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها ثم خرج فتصدق بألف دينار وقال اللهم ان صاحبي قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وانى أسألك دارا من دور الجنة ثم ان صاحبه تزوج امرأة حسناء بألف دينار فتصدق صاحبه بألف دينار لاجل أن يزوجه الله تعالى من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بساتين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار ثم ان الله تعالى أعطاه ما طلبه في الجنة وقيل كان أحدهما كافرا اسمه يطراوس والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله تعالى خبرهما في سورة الكهف في قوله تعالى واضرب لهم مثلا رجلين (قال) أي ذلك القائل لاخوته (هل أنتم مطلعون) أي معي الى النار لننظر حاله فيقولون لا (فاطلع) ذلك القائل من بعض كوى الجنة قال ابن عباس رضي الله عنهما ان في الجنة كوى ينظر أهلها منها الى النار (فرآه) أي رأى قرينه (في سواء الجحيم) أي وسط النار وانما يسمى وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب منه (قال) له توبيخا مقسما بقوله (تالله ان كدت) اى قاربت وان مخففة من الثقيلة (لتردين) أي لتهلكني باغوائك اياى بانكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربى) أي انعامه على بالايمان والهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) معك في النار *(تنبيه)* أثبت الياء بعد النون في لتردين ورش والباقون بالتخفيف * ولما تم الكلام مع قرينه الذي هو في النار عاد الى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة وقال (أفما نحن بميتين) وهذا عطف على محذوف أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أي ممن شأنه الموت وقال بعضهم ان أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم الجنة أنهم لا يموتون

فاذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح يقول أهل الجنة للملائكة أفما نحن بميتين فتقول الملائكة لا فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون وعلى هذا فالكلام حصل قبل ذبح الموت وقيل ان الذي تكاملت سعادته اذا عظم تعجبه بها يقول ذلك على جهة التحدث بالنعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه وقيل يقوله المؤمن لقرينه توبيخاله بما كان ينكره وقوله (الا موتتنا الاولى) منصوب على المصدر والعامل فيه الوصف قبله ويكون استثناء مفرغا وقيل هو استثناء منقطع أى لكن الموتة الاولى كانت لنا فى الدنيا وهى متناولة لما فى القبر بعد الاحياء للسؤال وهذا قريب فى المعنى من قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (وما نحن بمعذبين) هو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى من تأبيد الحياة وعدم التعذيب (ان هذا) أى الذى ذكر لاهل الجنة (لهو الفوز العظيم) هو قول أهل الجنة عند فراغهم من هذه المحادثات وقوله تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) قيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى أى لنيل مثل هذا يجب ان يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام * ولما ذكر تعالى ثواب أهل الجنة ووصفها وذكر ما كل أهل الجنة ومشاربهم وقال لمثل هذا فليعمل العاملون أتبعه بقوله تعالى (أذلك) أى المذكور لاهل الجنة (خير نزلا) وهو ما يعد للنازل من ضيف أو غيره (أم شجرة الزقوم) أى المعدة لاهل النار نزلا وانتصاب نزلا على التمييز أو الحال وفى ذكره دلالة على ان ما ذكر من النعيم لاهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك مما تقصر عنه الافهام وكذا الزقوم لاهل النار وهى اسم شجرة صغيرة الورق زفرة مرة تكون بتهامة ثم سميت به الشجرة الموصوفة واذا عرف هذا فالحاصل من الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لا نسبة لاحدهما الى الآخر فى الخيرية الا انه جاء هذا الكلام على سبيل السخرية بهم أولاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرون اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم قيل لهم ذلك توبيخا لهم على اختيارهم (انا) أى بما لنا من العظمة والقدرة البالغة (جعلناها فتنة) أى محنة وعذابا (للظالمين) أى الكافرين قال الكلبي فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا لما سمعوا بأنها فى النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق يعيش فى النار ويتلذذ بها فهو أقدر على خلقه الشجر فى النار وحفظه من الاحراق * ولما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد الزقوم ثم أدخلهم أبو جهل بيته وقال لجاريته زقينا فاتته بزبد وتمر وقال تزقوا فهذا ما يوعدكم به محمد وهذا عناد منه وكذب فانه من العرب العرباء وهم انما يطلقونه على شجرة مسمومة يخرج لها لبن متى مس جسم أحد تورم فمات والتزقم البلع الشديد للاشياء الكريهة وأما الزبد بالرطب فيسمى الوقة قاله ابن الكلبي وأنشد

وانى لمن سالمتهم لالوقة * وانى لمن عاديتهم سم أسود

ثم ان الله تعالى وصف هذه الشجرة بصفتين الاولى قوله تعالى (انها شجرة تخرج فى أصل

(الجحيم) قال الحسن أصلها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها الصفة الثانية قوله تعالى (طلعها) أى ثمرها قال الزمخشرى الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية أو معنوية قال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة فلذلك قيل طلع النخل لاول ما يخرج من ثمره ثم وصف ذلك الطلع بقوله تعالى (كأنه رؤس الشياطين) وفيه وجهان أحدهما أنه حقيقة وأن رؤس الشياطين شجرة معينة بناحية اليمن وتسمى الاستن قال النابغة

تحيد عن استن سود أسافله * مثل الاماء الغوادى تحمل الحزما

وهو شجر منكر الصورة مر تسميه العرب بذلك تشبيها برؤس الشياطين فى القبح ثم صار أصلا يشبه به وقيل الشياطين صنف من الحيات لهن اعراف قال الراجز

عنجرد تحلف حين أحلف * كمثل شيطان الحماط أعرف

وقيل شجرة يقال لها الصوم ومنه قول ساعدة بن جؤية

موكل بسروف الصوم يرقبها * من المعارف محفوظ الخشاورم

فعلى هذا خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة فالكلام حقيقة والثانى انه من باب التخيل والتمثيل وذلك أن كل ما يستنكر ويستقبح فى الطباع والصورة يشبه بما يتخيله الوهم وان لم يكن يراه والشياطين وان كانوا موجودين غير مرئيين للعرب الا انه خاطبهم بما ألفوه من الاستعارات التخيلية وذلك كقول امرئ القيس

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى * ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولم يرانيابها بل ليست موجودة البتة قال الرازى وهذا هو الصحيح وذلك ان الناس لما اعتقدوا فى الملائكة عليهم السلام كمال الفضل فى الصورة والسيرة فكما حسن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك عند ارادة الكمال والفضيلة فى قول النسوة ان هذا الا ملك كريم فكذلك حسن التشبيه برؤس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة ويؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيأ شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيأ حسنا قالوا انه ملك من الملائكة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هم الشياطين بأعيانهم (فانهم) أى الكفار (لآكلون منها) أى من الشجرة أو من طلعها (فمالئون منها البطون) والملء حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه (فان قيل) كيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها (أجيب) بأن المضطر ربما استروح من الضرر بما يقاربه فى الضرر فاذا جوعهم الله تعالى الجوع الشديد فزعوا الى ازالة ذلك الجوع بتناول هذا الشئ أو يقال ان الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة لعذابهم * ولما ذكر الله تعالى طعامهم بتلك الشناعة والكراهية وصف شرابهم بما هو أشنع منه بقوله تعالى (ثم ان لهم عليها) أى بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش (لشوبا من حميم) أى ماء حار يشربونه فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبا وعطف بثم لاحد معنيين اما لانه يؤخر ما يظنونه يرويهم من عطشهم زيادة فى عذابهم فلذلك أتى بثم المقتضية للتراخى واما لان العادة تقتضى

تراخى

تراخي الشرب عن الأكل فعمل على ذلك المنوال وأما ملء البطن فيعقب الأكل فلذلك عطف على ماقبله بالفاء قال الزجاج الشراب اسم عام في كل ما خلط بغيره والشوب الخلط والمزج ومنه شاب اللبن يشوبه أي خلطه ومزجه (ثم ان مرجعهم) أي مصيرهم (لالى الجحيم) قال مقاتل أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم وذلك بأن يكون الحميم في موضع خارج عن الجحيم فهم يردون الحميم لأجل الشرب كما ترد الابل الماء ويدل عليه قوله تعالى يطوفون بينها وبين حميم آن وقوله تعالى (انهم ألفوا) أي وجدوا (آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع وأهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم وفيه اشعار بأنهم بادروا الى ذلك من غير توقف على نظر وبحث ثم انه تعالى ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم مايسليه في كفرهم وتكذيبهم بقوله سبحانه (ولقد ضل قبلهم) أي قبل قومك (أكثر الاولين) أي من الامم الماضية (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أي أنبياء انذروهم من العواقب فبين تعالى ان ارسال الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف فوجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم اسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء الى الله تعالى وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ وقرأ قالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أي الكافرين كان عاقبتهم العذاب وهذا خطاب وان كان ظاهره مع النبي صلى الله عليه وسلم الا أن المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار ما جرى على قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أنواع العذاب فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف فيحتمل أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) استثناء من المنذرين استثناء منقطع لانه وعيد وهم لايدخلون في هذا الوعيد وقيل استثناء من قوله تعالى ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين والمراد بالمخلصين الموحدون نجوا من العذاب وتقدمت القراءة في المخلصين ثم شرع تعالى في تفصيل القصص بعد اجمالها بقوله تعالى (ولقد نادانا نوح) أي نادى ربه أن ينجيه مع من نجى من الغرق بقوله رب اني مغلوب فانتصر فاجاب الله تعالى دعاءه وقوله تعالى (فلنعم المجيبون) جواب قسم مقدر أي فوالله ومثله لعمري لنعم السيدان وجدتما * والمخصوص بالمدح محذوف أي نحن أجبنا دعاءه وأهلكنا قومه (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) أي من الغرق وأذى قومه وهذه الاجابة كانت من النعم العظيمة وذلك من وجوه أولها أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح فالقادر العظيم لا يليق به الا الاحسان العظيم وثانيها أنه تعالى أعاد صيغة الجمع فقال تعالى فلنعم المجيبون وفي ذلك أيضا ما يدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف الله تعالى تلك الاجابة بأنها نعمت الاجابة وثالثها أن الفاء في قوله تعالى فلنعم المجيبون تدل على أن حصول تلك الاجابة مرتب على ذلك النداء وهذا يدل على أن النداء بالاخلاص سبب لحصول الاجابة وقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا

فالناس كلهم من نسله عليه السلام قال ابن عباس رضي الله عنه ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخزرج ويأجوج ومأجوج وما هنالك قال ابن عباس رضي الله عنهما لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء الا ولده ونساءهم (وتركنا عليه في الآخرين) أي أبقينا له ثناء حسنا وذكرا جميلا فيمن بعده من الانبياء والامم الى يوم القيامة وقيل ان نصلي عليه الى يوم القيامة وقوله تعالى (سلام على نوح) مبتدأ وخبر وفيه أوجه أحدها أنه مفسر لتركنا والثاني انه مفسر لمفعوله أي تركنا عليه ثناء وهو هذا الكلام وقيل ثم قول مقدر أي فقلنا سلام وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقيل سلط تركنا على ما بعده (في العالمين) متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى (انا كذلك نجزي المحسنين) تعليل لما فعل بنوح عليه السلام من التكرمة بأنه مجازاة له أي انما خصصناه بهذه التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن ترقية ذكره الحسن في ألسنة العالمين لاجل كونه محسنا وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانه بالايمان اظهارا لجلالة قدره واصالة أمره (ثم أغرقنا الآخرين) كفار قومه * القصة الثانية قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (وان من شيعته) أي ممن شايعه في الايمان وأصول الشريعة (لابراهيم) ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالبا وقال الكلبي الضمير يعود على محمد صلى الله عليه وسلم أي وان من شيعة محمد صلى الله عليه وسلم لابراهيم عليه الصلاة والسلام والشيعة قد تطلق على المتقدم كقول القائل

وما لي الا آل أحمد شيعة * وما لي الا مذهب الحق مذهب

فجعل آل أحمد وهم متقدمون عليه وهو تابع لهم شيعة له قاله الفراء والمعروف ان الشيعة تكون في المتأخر قالوا كان بين نوح وابراهيم نبيان هود وصالح وروى الزمخشري أنه كان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وفي العامل في قوله تعالى (اذ جاء ربه) وجهان أحدهما اذكر مقدرا وهو المعروف والثاني قال الزمخشري ما في معنى الشيعة من معنى المشايعة يعني وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ورد هذا أبو حيان قال لان فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو لابراهيم لانه أجنبي من شيعته ومن اذ واختلف في قوله عز وجل (بقلب سليم) فقال مقاتل والكلبي المعنى انه سليم من الشرك لانه أنكر على قومه الشرك وقال الاصوليون معناه أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل معصية وقوله تعالى (اذ قال لابيه وقومه) بدل من اذ الاولى أو ظرف لسليم أو لجاء وقوله تعالى لهم (ماذا) أي ما الذي (تعبدون) استفهام توبيخ وتهجين لتلك الطريقة وتقبيحها وفي قوله (أئفكا آلهة دون الله تريدون) أوجه من الاعراب أحدها أنه مفعول من أجله أي أتريدون آلهة دون الله افكا فآلهة مفعول به ودون ظرف لتريدون وقدمت معمولات الفعل اهتماما بها وحسنه كون العامل رأس فاصلة وقدم المفعول من أجله على المفعول به

اهتماما به لانه مكافح لهم بأنهم على افك وباطل وبهذا الوجه بدأ الزمخشري الثاني أن يكون مفعولا به بتريدون ويكون آلهة بدلا منه جعلها نفس الافك مبالغة فأبدلها منه وفسره بها واقتصر على هذا ابن عطية الثالث أنه حال من فاعل تريدون أي أتريدون آلهة آفكين أو ذوي افك واليه نحا الزمخشري واعترضه أبو حيان بأن جعل المصدر حالا لا يطرد الا مع نحو أما علما فعالم والافك أسوأ الكذب (فما ظنكم) أي أتظنون (برب العالمين) أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في العبودية أو تظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له في العبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شئ أو فما ظنكم برب العالمين اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره أنه يترككم بلا عذاب لا وكانوا نجامين فخرجوا الى عيد لهم وتركوا طعامهم عند أصنامهم زعموا التبرك عليه فاذا رجعوا أكلوه وقالوا للسيد ابراهيم عليه الصلاة والسلام اخرج (فنظر نظرة في النجوم) ايهاما لهم أنه يعتمد عليها فيتبعوه (فقال اني سقيم) أي عليل وذلك انه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا في بيت الاصنام فيقدر على كسرها (فان قيل) النظر في علم النجوم غير جائز فكيف قدم ابراهيم عليه السلام عليه وأيضا لم يكن سقيما فكيف أخبرهم بخلاف حاله (أجيب) عن ذلك بأنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بها حرام لان من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بطبع وخاصة لاجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم لان قوله اني سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الانسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة اما في بدنه واما في قلبه وكل ذلك سقم وعلى تقدير تسليم ذلك أجيب بأوجه أحدها أن نظره في النجوم أو في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه الحمى في بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فقال اني سقيم فجعله عذرا في تخلفه عن العيد الذي لهم فكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه في ذلك الوقت ثانيها أنهم كانوا أصحاب النجوم أي يعلمونها ويقضون بها على أمورهم فلذلك نظر ابراهيم في النجوم أي في علم النجوم كما تقول نظر فلان في الفقه أي في علم الفقه فأراد ابراهيم أن يوهمهم أنه نظر في علمهم وعرف منه ما يعرفونه حتى اذا قال لهم اني سقيم سكنوا الى قوله وأما قوله اني سقيم فمعناه سأسقم كقوله تعالى انك ميت أي ستموت ثالثها أن نظره في النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الخ الآيات فكان نظره ليتعرف هذه الكواكب هل هي قديمة أو حادثة وقوله اني سقيم أي سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل بلوغه رابعها قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم فلهذا الاستقراء لما رآه في تلك الحالة المخصوصة قال اني سقيم أي هذا السقم واقع لا محالة خامسها أن قوله اني سقيم أي مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فلعلك باخع نفسك سادسها قال الرازي قال بعضهم ذلك القول من

ابراهيم عليه السلام كذبة وأوردوا فيه حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن ينقل اذ فيه نسبة
الكذب الى ابراهيم عليه السلام فقال ذلك الرجل فكيف نحكم بكذب الراوي العدل
فقلت له لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوي وبين نسبة الكذب الى الخليل كان
من المعلوم بالضرورة أن نسبة الكذب الى الراوي أولى ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله
فنظر نظرة في النجوم أي نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الاشياء التي تحدث قطعة قطعة
يقال انها منجمة أي مفرقة ومنه نجوم المكاتب والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى
يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من
قوله اني سقيم والمراد أنه لا بد من أن يصير سقيما كما تقول لمن رأيته يتجهز للسفر انك مسافر
* ولما قال اني سقيم تولوا عنه كما قال تعالى (فتولوا عنه) أي الى عيدهم (مدبرين) أي هاربين
مخافة العدوى وتركوه وعذروه في عدم الخروج الى عيدهم (فراغ) أي مال في خفية وأصله
من روغان الثعلب وهو تردده وعدم ثبوته بمكان ولا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفيا
لذهابه ومجيئه (الى آلهتهم) وعندها الطعام (فقال) استهزاء بها (ألا تأكلون) أي الطعام الذي
كان بين أيديهم فلم ينطقوا فقال استهزاء بها أيضا (ما لكم لا تنطقون) فلم تجب (فراغ عليهم)
أي مال عليهم مستخفيا وقوله تعالى (ضربا) مصدر واقع موقع الحال أي فراغ عليهم ضاربا
أو مصدر لفعل وذلك الفعل حال تقديره فراغ يضرب ضربا وقوله تعالى (باليمين) متعلق
بضربا ان لم نجعله مؤكدا والا فبعامله واليمين يجوز أن يراد بها احدى اليدين وهو الظاهر
وأن يراد بها القوة واقتصر عليه الجلال المحلي فالباء على هذا للحال أي متلبسا بالقوة وأن
يراد بها الحلف وفاء بقوله وتالله لأكيدن أصنامكم والباء على هذا للسبب وعدى راغ الثاني
بعلى لما كان مع الضرب المستولي من فوقهم الى أسفلهم بخلاف الاول فانه مع توبيخ
لهم وأتى بضمير العقلاء في قوله تعالى عليهم ضربا على ظن عبدتها أنها كالعقلاء ثم انه عليه
السلام كسرها فبلغ قومه ممن رآه ذلك (فأقبلوا اليه) أي الى ابراهيم بعدما رجعوا
فرأوا أصنامهم مكسرة (يزفون) أي يسرعون المشي وقرأ حمزة بضم الياء على البناء للمفعول
من أزفه أي يحملون على الزفيف والباقون بفتحها من زف يزف فقالوا نحن نعبدها وأنت
تكسرها (قال) لهم توبيخا (أتعبدون ما تنحتون) أي من الحجارة وغيرها أصناما (والله
خلقكم وما تعملون) أي نحتكم ومنحوتكم فاعبدوه وحده * (تنبيه) * دلت هذه الآية على
مذهب الاشعرية وهو أن فعل العبد مخلوق لله عز وجل وهو الحق وذلك لان النحويين اتفقوا
على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله تعالى وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا فيصير
معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم * ولما أورد عليهم الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب
عدلوا الى طريقة الايذاء لئلا يظهر للعامة عجزهم بأن (قالوا ابنوا له بنيانا) * قال ابن عباس رضي
الله عنهما بنوا حائطا من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا

فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة قال الزجاج كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم (فأرادوا به كيدا) أى شرا بالقائه فى النار لتهلكه (فجعلناهم الأسفلين) أى المقهورين الاذلين بابطال كيدهم وجعلنا ذلك برهانا نيرا على علو شأنه حيث جعلنا النار عليه بردا وسلاما وخرج منها سالما (وقال انى ذاهب الى ربى) أى الى حيث أمرنى ربى ونظيره قوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى أى مهاجر اليه من دار الكفر (سيهدين) أى الى ما فيه صلاح دينى أو الى مقصدى وهو الشأم وانما بت القول لسبق وعده ولفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فلذلك ذكر بصيغة التوقع * ولما وصل الى الارض المقدسة قال (رب هب لى من الصالحين) أى هب لى ولدا صالحا يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة لان لفظ هب غلب فى الولد وان كان قد جاء فى الاخ فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال الله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) أى ذى حلم كثير فى كبره غلام فى صغره ففيه بشارة بانه ابن وانه يعيش وينتهى الى سن يوصف بالحلم وأى حلم أعظم من أنه عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقيل ما وصف الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه اسمعيل عليهما الصلاة والسلام وحالتهما المذكورة تشهد عليه (فلما بلغ معه السعى) أى أن يسعى معه قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة بلغ معه السعى أى المشى معه الى الجبل وقال مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما ماشب حتى بلغ سعيه سعى ابراهيم والمعنى بلغ أن يتصرف معه وان يعينه فى عمله وقال الكلبى يعنى العمل لله تعالى وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين * (تنبيه) * معه متعلق بمحذوف على سبيل البيان كأن قائلا قال مع من بلغ السعى فقيل مع أبيه ولا يجوز تعلقه ببلغ لانه يقتضى بلوغهما معا حد السعى ولا يجوز تعلقه بالسعى لان صلة المصدر لا تتقدم عليه وقوله تعالى (قال يا بنى انى أرى) أى رأيت (فى المنام انى أذبحك) يحتمل انه رأى ذلك وانه رأى ما هو تعبيره وقيل انه رأى فى ليلة التروية فى منامه كأن قائلا يقول له ان الله تعالى يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله أم من الشيطان فمن ثم سمى يوم التروية فلما أمسى رأى أيضا مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فسمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر وهذا قول أكثر المفسرين وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة وعلى هذا فتقديرا للفظ أرى فى المنام ما يوجب أنى أذبحك * (تنبيه) * اختلف فى الذبيح فقيل هو اسحق عليه السلام وبه قال عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم وغيرهم وقيل اسمعيل وبه قال ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب رضى الله عنهم وغيرهم وهو الاظهر كما قاله البيضاوى لانه الذى وهب له اثر الهجرة ولأن البشارة باسحق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام ولقوله صلى الله عليه وسلم انا ابن الذبيحين وقال له أعرابى يا ابن الذبيحين فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر

زمزم نذران سهل الله أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الابل ولذلك سنت الابل مائة والذبيح الثانى اسمعيل ونقل الاصمعى انه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعى أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة وقد وصف الله تعالى اسمعيل عليه السلام بالصبر دون اسحق عليه السلام فى قوله تعالى واسمعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد فقال انه كان صادق الوعد لانه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فقال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقال تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فكيف تقع البشارة باسحق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح اسحق وهو صغير قبل أن يولد له هذا يناقض البشارة المتقدمة وقال الامام أحمد بن حنبل الصحيح أن الذبيح اسمعيل عليه السلام وعليه جمهور العلماء من الخلف والسلف قال ابن عباس وزعمت اليهود أنه اسحق عليه السلام وكذبت اليهود وما روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل أى النسب أشرف فقال يوسف صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فالصحيح انه قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوى وما روى أن يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقال محمد بن اسحق كان ابراهيم عليه السلام اذا زار هاجر واسمعيل حمل على البراق فيغدو من الشأم فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشأم حتى بلغ اسمعيل معه السعى أمر فى المنام أن يذبحه قال مقاتل رأى ذلك ابراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك قال لابنه (فانظر ماذا ترى) من الرأى فشاوره ليأنس بالذبح وينقاد للامر به قال ابن اسحق وغيره لما أمر ابراهيم بذلك قال لابنه يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق الى هذا الشعب نحتطب فلما خلا ابراهيم بابنه فى الشعب شعب ثبير أخبره بما أمر (قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى ما أمرت به (ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) أى على ذلك وقرأ يا بنى حفص بفتح الياء والباقون بالكسر وقرأ انى أرى نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون وقرأ ماذا ترى حمزة والكسائى بضم التاء وكسر الراء والباقون بفتحهما والحكمة فى مشاورته فى هذا الامر ليظهر له صبره فى طاعة الله تعالى فيكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحكمة الى هذا الحد العظيم والصبر على أشد المكاره الى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا وقرأ يا أبت ابن عامر فى الوصل بفتح التاء وكسرها الباقون والتاء عوض عن ياء الاضافة ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر ووقف الباقون بالتاء والرسم بالتاء وفتح ياء ستجدنى فى الوصل نافع وسكنها الباقون (فلما أسلما) أى انقادا وخضعا لامر الله وقال قتادة أسلم ابراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه (وتله للجبين) أى صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض وهو أحد جانبى الجبهة والجبهة بين الجبينين وشذ جمعه على أجبن وقياسه فى القلة أجبنة كأرغفة وفى الكثرة جبن وجبنان كرغف ورغف ورغفان وقيل انه لما أراد ذبحه قال يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب فينتقص

اجرى واكفف عنى ثيابى حتى لا ينتضع عليها من دمى شئ وتراه أمى فتحزن حزنا طويلا واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون على فان الموت شديد واذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى وان رأيت أن ترد قميصى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى فقال له ابراهيم نعم العون أنت يا بنى على أمر الله تعالى ففعل ابراهيم ما أمر به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى ثم انه وضع السكين على حلقه فلم تحل شيأ ثم انه شحذها مرتين أو ثلاثا بالحجر كل ذلك لا يستطيع ان يقطع شيأ قال السدى ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه قال فقال الابن عند ذلك يا أبت كبنى على وجهى لجبينى فانك اذا نظرت فى وجهى رحمتنى وأدركتك رحمة تحول بينك وبين أمر الله وأنا لا أنظر الشفرة فأجزع ففعل ذلك ابراهيم ووضع السكين على قفاه فانقلبت السكين (وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) أى بالعزم والاتيان بالمقدمات ما أمكنك *(تنبيه)* فى جواب لما ثلاثة أوجه أظهرها أنه محذوف أى نادته الملائكة عليهم السلام أو ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما وقدره بعضهم بعد الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما لا يدرك كنهه ونقل ابن عطية أن التقدير فلما أسلما سلما وتله للجبين ويعزى هذا لسيبويه وشيخه الخليل الثانى انه وتله للجبين والواو زائدة وهو قول الكوفيين والاخفش الثالث انه وناديناه والواو زائدة أيضا واقتصر على هذا الجلال المحلى وروى أبو هريرة عن كعب الاحبار أن ابراهيم عليه السلام لما رأى ذبح ولده قال الشيطان لئن لم أفتن آل ابراهيم عند هذا لم أفتن أحدا منهم أبدا فتمثل الشيطان فى صورة رجل وأتى أم الغلام وقال هل تدرين أين يذهب ابراهيم بابنك قالت ذهب به يحتطبان من هذا الشعب قال والله ما ذهب به الا ليذبحه قالت كلا هو ارحم به وأشد حبا له من ذلك قال انه يزعم أن الله أمره بذلك قالت فان كان ربه أمره بذلك فقد أحسن ان يطيع ربه فخرج من عندها الشيطان ثم أدرك الابن وهو يمشى على اثر أبيه فقال له يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك قال نحتطب لاهلنا من هذا الشعب قال والله ما يريد الا أن يذبحك قال ولم قال زعم أن ربه أمره قال فليفعل ما أمره به ربه فسمع وطاعة فلما امتنع منه الغلام أقبل على ابراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ قال أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه قال والله انى لارى الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك بذبح ولدك هذا فعرفه ابراهيم فقال اليك عنى يا عدو الله فوالله لامضين لامر ربى فرجع ابليس بغيظه لم يصب من ابراهيم وآله شيأ كما أراد الله عز وجل وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنه أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه ابراهيم ثم ذهب الى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم ادركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى ابراهيم لامر الله تعالى فنودى من الجبل أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا (فان قيل) لم قال تعالى قد صدقت الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح (أجيب) بأنه جعله مصدقا لانه قد أتى بما أمكنه

والمطلوب استسلامهما لامر الله تعالى وقد فعلا وقيل كان قد رأى فى النوم معالجة الذبح ولم ير اراقة الدم وقد فعل فى اليقظة ما رآه فى النوم ولذلك قال قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذه التكاليف الشاقة الشديدة وظهر منه كمال الطاعة والانقياد لاجرم قال الله تعالى قد صدقت الرؤيا وقوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) ابتداء اخبار من الله تعالى والمعنى انا كما عفونا عن ذبح ولدك كذلك نجزى من أحسن فى طاعتنا قال مقاتل جزاه الله تعالى باحسانه فى طاعته العفو عن ذبح ابنه (انّ هذا) أى الذبح المأمور به (لهو البلاء المبين) أى الاختبار الظاهر الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم والمحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها وقال مقاتل البلاء ههنا النعمة وهو ان فدى ابنه بالكبش كما قال تعالى (وفديناه) أى المأمور بذبحه وهو اسمعيل وهو الاظهر وقيل اسحق (بذبح عظيم) أى عظيم الجثة سمين او عظيم القدر لان الله تعالى فدى به نبيا ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام وهو كبش أتى به جبريل عليه السلام من الجنة وهو الذى قربه هابيل فقال لابراهيم هذا فدا ولدك فاذبحه دونه فكبر ابراهيم وكبر ولده وكبر جبريل وكبر الكبش وأخذ ابراهيم الكبش واتى به المنحر من منى فذبحه قال البغوى قال أكثر المفسرين كان ذلك الذبح كبشا رعى فى الجنة أربعين خريفا وقيل كان وعلا أهبط عليه من ثبير وروى أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة * (تنبيه) * الذبح مصدر ويطلق على ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية (وتركنا عليه فى الآخرين) ثناء حسنا وقوله تعالى (سلام) أى منا (على ابراهيم) سبق بيانه فى قصة نوح عليهما السلام (كذلك) أى كما جزيناك (نجزى المحسنين) لانفسهم وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانه بالايمان اظهارا لجلالة قدره واصالة أمره وقوله تعالى (وبشرناه باسحق) فيه دليل على أنّ الذبيح غيره وقد مرّت الاشارة الى ذلك وقوله تعالى (نبيا) حال مقدرة أى يوجد مقدرا نبوّته وقوله تعالى (من الصالحين) يجوز أن يكون صفة لنبيا وأن يكون حالا من الضمير فى نبيا فتكون حالا متداخلة ويجوز ان تكون حالا ثانية ومن فسر الذبيح باسحق عليه السلام جعل المقصود من البشارة نبوّته وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وايماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل (وباركنا عليه) أى على ابراهيم عليه السلام بتكثير ذريته (وعلى اسحق) بأن اخرجنا من صلبه انبياء بنى اسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام لجميع الانبياء بعده من صلبه الا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فانه من ذرية اسمعيل عليه السلام وفيه اشارة الى أنه مفرد علم فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام (ومن ذريتهما محسن) أى مؤمن طائع (وظالم) أى كافر وفاسق (لنفسه مبين) أى ظاهر ظلمه وفى ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال وان الظلم فى أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب ولا غير ذلك والله أعلم * القصة الثالثة قصة موسى وهرون عليهما السلام المذكورة فى قوله تعالى (ولقد مننا على موسى وهرون)

أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) أى بنى اسرائيل (من الكرب) أى الغم (العظيم) أى الذى كانوا فيه من استعباد فرعون اياهم وقيل من الغرق والضمير فى قوله تعالى (ونصرناهم) يعود على موسى وهرون وقومهما وقيل على الاثنين بلفظ الجمع تعظيما كقوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء وقول الشاعر
فان شئت حرمت النساء سواكم (فكانوا هم الغالبين) أى على فرعون وقومه فى كل الاحوال أما فى أول الامر فبظهور الحجة وأما فى آخر الامر فبالدولة والرفعة *(تنبيه)* يجوز فى هم أن يكون تأكيدا وأن يكون بدلا وان يكون فصلا وهو الاظهر (وآتيناهما الكتاب المستبين) أى المستنير البليغ البيان المشتمل على جميع العلوم المحتاج اليها فى مصالح الدين والدنيا وهو التوراة كما قال تعالى انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وهديناهما الصراط المستقيم) أى دللناهما على الطريق الموصل الى الحق والصواب عقلا وسمعا (وتركنا) أى أبقينا (عليهما) ثناء حسنا (فى الآخرين سلام) أى منا (على موسى وهرون انا كذلك) أى كما جزيناهما (نجزى المحسنين) وقوله تعالى (انهما من عبادنا المؤمنين) تعليل لاحسانهما بالايمان واظهار لجلالة قدره واصالة أمره القصة الرابعة قصة الياس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان الياس لمن المرسلين) روى عن ابن مسعود أنه قال الياس هو ادريس وهو قول عكرمة وقال أكثر المفسرين انه نبى من أنبياء بنى اسرائيل قال ابن عباس وهو ابن عم اليسع عليهما السلام وقال محمد بن اسحق هو الياس بن بشير بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران عليهما السلام *(تنبيه)* أذكر فيه شيأ من قصته عليه السلام قال علماء السير والاخبار لما قبض الله تعالى حزقيل النبى عليه السلام عظمت الاحداث فى بنى اسرائيل وظهر فيهم الفساد والشرك ونصبوا الاصنام وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله تعالى اليهم الياس نبيا وكانت الانبياء من بنى اسرائيل يبعثون بعد موسى عليه السلام بتجديد مانسوا من أحكام التوراة وبنو اسرائيل كانوا متفرقين فى أرض الشأم وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون عليه السلام لما فتح الشأم قسمها على بنى اسرائيل وأحل سبطا منها ببعلبك ونواحيها وهم السبط الذين كان منهم الياس فبعثه الله تعالى اليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك اسمه لاجب وكان أضل قومه وجبرهم على عبادة الاصنام وكان لهم صنم طوله عشرون ذراعا وله أربعة وجوه وكان يسمى بعل وكانوا قد فتنوا به وعظموه وجعلوا له أربعمائة سادن أى خادم وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها عنه ويبلغونها الناس وهم أهل بعلبك وكان الياس يدعوهم الى عبادة الله وهم لا يسمعون له ولا يؤمنون به الا ما كان من أمر الملك فانه آمن به وصدقه فكان الياس يقوم بأمره ويسدده ويرشده وكان للملك امرأة تسمى بازميل جبارة وكان يستخلفها على ملكه اذا غاب عنهم فى غزاة أو غيرها وكانت تبرز للناس فتقضى بينهم وكانت قتالة للانبياء ويقال انها هى التى قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام وكان له كاتب رجل مؤمن حليم يكتم ايمانه وكان قد خلص من يدها ثلثمائة نبى كانت تريد قتلهم اذا بعث كل واحد

منهم سوى الذين قتلتهم وكانت فى نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بنى اسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال انها ولدت سبعين ولدا وكان لاجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكى وكان له جنينة يعيش منها وكانت الجنينة الى جانب قصر الملك وامرأته وكانا يشرفان عليها يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها وكان الملك يحسن جوار صاحبها مزدكى ويحسن اليه وامرأته ازميل تحسده لاجل تلك الجنينة وتحتال ان تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد عليه سبيلا ثم انه اتفق خروج الملك الى مكان بعيد وطالت غيبته فاغتنمت امرأته ازميل ذلك فجمعت جمعا من الناس وأمرتهم انهم يشهدون على مزدكى انه سب زوجها لاجب فاجابوها اليه وكان فى حكمهم فى ذلك الزمان القتل على من سب الملك اذا قامت عليه البينة فأحضرت مزدكى وقالت له بلغنى أنك شتمت الملك فأنكر فأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فأمرت بقتله وأخذت جنينته فلما قدم الملك من سفره أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت ولا أبدا نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان فأحسنا جواره وكففنا عنه الاذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوأ الجوار فقالت انما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها أوما كان يسعه حلمك فتحفظين جواره قالت قد كان ما كان فبعث الله الياس الى لاجب الملك وأمره الله أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليهم لوليه حين قتلوه ظلما وآلى على نفسه أنهما ان لم يتوبا عن صنيعهما ويردا الجنينة على ورثة مزدكى أن يهلكهما يعنى لاجب وامرأته فى جوف الجنينة ثم يدعهما جثتين ملقيين فيها حتى تتفرق عظامهما من لحومهما ولا يتمتعان بها الا قليلا فجاء الياس فأخبر الملك بما أوحى الله فى أمره وأمر امرأته والجنينة فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه عليه وقال يا الياس والله ما أرى ما تدعونا اليه الا باطلا وهم بتعذيبه وقتله فلما أحس الياس بالشر رفضه وخرج عنه هاربا ورجع الملك الى عبادة بعل وارتقى الياس الى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه ويقال انه بقى سبع سنين شريدا خائفا يأوى الشعوب والكهوف يأكل من نبات الارض وثمار الشجر وهم فى طلبه قد وضعوا العيون عليه والله تعالى يستره منهم فلما طال الامر على الياس وطال عصيان قومه وضاق بذلك ذرعا أوحى الله تعالى اليه بعد سبع سنين يا الياس ما هذا الخوف الذى أنت فيه ألست أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فسلنى أعطك فانى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم قال تميتنى فتلحقنى بآبائى فانى قد مللت بنى اسرائيل وملونى فأوحى الله تعالى اليه يا الياس ما هذا اليوم الذى أعرى منك الارض واهلها وانما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وان كنتم قليلا ولكن سلنى فأعطك قال الياس ان لم تمتنى فاعطنى ثأرى من بنى اسرائيل قال الله تعالى وأى شئ تريد ان اعطيك قال تمكننى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشئ سحابة عليهم الا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة الا بشفاعتى فانهم لا يذكرهم الا ذلك قال الله تعالى يا الياس انا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا

ظالمين

ظالمين قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكن أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك قال فبأي شئ أعيش قال أسخر لك جنسا من الطير ينقل اليك طعامك وشرابك من الريف ومن الارض التي لم تقحط قال الياس قد رضيت فأمسك الله تعالى عنهم المطر حتى هلكت الماشية والهوام والشجر وجهد الناس جهدا عظيما والياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرزق حيثما كان وقد عرف ذلك قومه قال ابن عباس أصاب بني اسرائيل ثلاث سنين القحط فمر الياس بعجوز فقال لها هل عندكم طعام قالت نعم شئ من دقيق وزيت قليل فدعا بهما ودعا فيه بالبركة حتى ملأ خوابيها دقيقا وخوابيها زيتا فلما رأوا ذلك عندها قالوا لها من أين لك هذا قالت مر بي رجل من حاله كذا وكذا ثم وصفته بصفته فعرفوه وقالوا ذلك الياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم ثم انه اوى الى بيت امرأة من بني اسرائيل لها ابن يقال له اليسع بن اخطوب به مرض فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به واتبع الياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيثما ذهب وكان الياس قد كبر سنه واليسع غلام شاب ثم ان الله تعالى أوحى الى الياس انك قد أهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعص من البهائم والطير والهوام بحبس المطر فقال الياس يارب دعني أنا الذي اكون أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء لعلهم ان يرجعوا عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم فجاء الياس الى بني اسرائيل فقال انكم قد هلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والهوام والشجر بخطاياكم وانكم على باطل فان كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم فان استجابت لكم فذلك كما تقولون وان هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتم الله سبحانه وتعالى ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء قالوا أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا الالياس انا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا لهم الياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم وحييت بلادهم فلما كشف الله تعالى عنهم المطر لم ينزعوا عن كفرهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه فلما رأى ذلك الياس دعا ربه أن يريحه منهم فقيل له انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه الى موضع كذا فما جاءك من شئ فاركبه ولا تهبه فخرج الياس ومعه اليسع حتى اذا كانا بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه الياس وانطلق به الفرس وناداه اليسع يا الياس ما تأمرني فقذف اليه بكسائه من الجو الاعلى فكان ذلك علامة استخلافه اياه على بني اسرائيل وكان ذلك آخر عهده به ورفع الله تعالى الياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان انسيا ملكيا أرضيا سماويا وسلط الله تعالى على لاجب الملك وقومه عدوا لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى أرهقهم فقتل لاجب وامرأته ازميل في بستان مزدكى فلم تزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ونبأ الله تعالى اليسع وبعثه رسولا الى

بنى اسرائيل فأوحى الله تعالى اليه وأيده فآمنت به بنو اسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم الله تعالى فيهم قائم الى ان فارقهم اليسع روى السرى بن يحيى عن عبد العزيز بن أبى رواد قال الياس والخضر يصومان رمضان ببيت المقدس ويوافيان موسم الحج فى كل عام وقيل ان الياس موكل بالفيافى والخضر موكل بالبحار فذلك قوله تعالى وان الياس لمن المرسلين (اذ) أى اذكر يا أفضل الخلق اذ (قال لقومه الا تتقون) أى ألا تخافون الله ولما خوفهم على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك التخويف بقوله تعالى (أتدعون بعلا) اسم لصنم لهم من ذهب وبه سميت البلد أيضا مضافا الى بك أى أتعبدونه أو تطلبون الخير منه وقيل البعل الرب بلغة اليمن سمع ابن عباس رجلا منهم ينشد ضالة فقال آخر انا بعلها فقال الله أكبر وتلا الآية ويقال من بعل هذه الدار أى من ربها وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى قال الله تعالى وبعولتهن أحق بردهن وقالت امرأة ابراهيم وهذا بعلى شيخا والمعنى أتدعون بعض البعول (وتذرون) أى وتتركون (أحسن الخالقين) فلا تعبدونه وقرأ ابن ذكوان بهمزة الوصل من الياس فى الوصل فان ابتدأ بها ابتدأ بفتحها والباقون بهمزة مكسورة وصلا وابتداء وقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) قرأه حفص وحمزة والكسائى بنصب الهاء من الاسم الكريم ونصب الباء الموحدة من ربكم ورب وذلك اما على المدح أو البدل أو البيان ان قلنا ان اضافة افعل اضافة محضة والباقون بالرفع فى الثلاثة وذلك اما على خبر مبتدأ مضمر أى هو الله أو على أن الجلالة مبتدأ وما بعده الخبر (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى فى العذاب وانما أطلقه اكتفاء بالقرينة أو لان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين مستثنى من فاعل فكذبوه وفيه دلالة على أن فى قومه من لم يكذبه فلذلك استثنوا ولا يجوز أن يكونوا مستثنين من ضمير لمحضرون لفساد المعنى لانه يلزم ان يكونوا مندرجين فيمن كذب لكنهم لم يحضروا لكونهم عباد الله المخلصين وهو بين الفساد لا يقال هو مستثنى منه استثناء منقطعا لانه يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غير هؤلاء لم يحضروا ولا حاجة الى هذا اذ به يفسد نظم الكلام وتقدم الكلام على قراءة المخلصين فى أول السورة (وتركنا عليه فى الآخرين) ثناء حسنا (سلام) اى منا وقوله تعالى (على آل ياسين) قرأه نافع وابن عامر بفتح الهمزة ممدودة وكسر اللام وقطعها عن الياء كما رسمت أى أهله والمراد به الياس والباقون بكسر الهمزة وسكون اللام وهى مقطوعة عن الياء قيل هو الياس المتقدم وقيل هو ومن آمن معه فجمعوا معه تغليبا كقولهم للمهلب وقومه المهلبون وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن أو غيره من كتب الله تعالى قال البيضاوى والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) أى كما جزيناه (انه من عبادنا المؤمنين) اذ الظاهر ان الضمير لالياس القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان لوطا لمن المرسلين اذ) أى واذكر اذ (نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين) اى الباقين فى العذاب (ثم دمرنا) أى أهلكنا (الآخرين) أى كفار قومه

(وانكم)

(وانكم) يا أهل مكة (لتمرون عليهم مصبحين) أى على منازلهم فى متاجركم الى الشأم فان سدوم فى طريقه وقوله تعالى (وبالليل) عطف على الحال قبلها أى ملتبسين بالليل والمعنى ان أولئك القوم كانوا يسافرون الى الشأم والمسافر فى أكثر الامر انما يمشى فى أول الليل وفى أول النهار فلهذا السبب عبر الله تعالى عن هذين الوقتين ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) أى أليس فيكم عقل يا أهل مكة فتنظروا ما حل بهم فتعتبروا * القصة السادسة وهى آخر القصص قصة يونس عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين) وقوله تعالى (اذ أبق) ظرف للمرسلين أى هو من المرسلين حتى فى هذه الحالة وأبق أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) أى السفينة المملوأة قال ابن عباس رضى الله عنهما ووهب كان يونس وعد قومه العذاب فتأخر عنهم فخرج كالمنشوز منهم فقصد البحر فركب السفينة فقال الملاحون ههنا عبد آبق من سيده فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس فقال يونس أنا الآبق فزج نفسه فى البحر وروى فى القصة أنه لما وصل الى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ومر المركب ثم جاءت موجة أخرى فأخذت ابنه الاكبر وجاء ذئب فأخذ ابنه الاصغر فبقى فريدا فجاءت مركب أخرى فركبها وقعد ناحية من القوم فلما جرت السفينة فى البحر ركدت فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل وقوف السفينة كما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر فاقترعوا فمن خرجت القرعة على سهمه نغرقه فان تغريق واحد خير من غرق الكل فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فذلك قوله تعالى (فساهم) أى قارع أهل السفينة (فكان من المدحضين) أى المغلوبين بالقرعة فألقوه فى البحر (فالتقمه) ابتلعه (الحوت وهو مليم) أى آت بما يلام عليه من ذهابه الى البحر وركوبه السفينة بلا اذن من ربه وقيل مليم نفسه (فلولا أنه كان من المسبحين) أى الذاكرين قبل ذلك وكان عليه السلام كثير الذكر وقال ابن عباس رضى الله عنهما من المصلين وقال وهب من العابدين وقال الحسن ما كان له صلاة فى بطن الحوت ولكنه قدم عملا صالحا قال الضحاك شكر الله تعالى له طاعته القديمة اذكر الله فى الرخاء يذكرك فى الشدة فان يونس كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى الشدة فى بطن الحوت شكر الله تعالى له ذلك وقال سعيد بن جبير يعنى قوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) أى صار بطن الحوت له قبرا الى يوم القيامة وهو حى أو ميت وفى ذلك حث على اكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده فى الضراء (فنبذناه) أى ألقيناه من بطن الحوت فأضاف النبذ الى نفسه سبحانه مع أن النبذ انما حصل بفعل الحوت فهو يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى (بالعراء) أى بوجه الارض وقال السدى بالساحل والعراء الارض الخالية من الشجر والنبات روى ان الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح الله تعالى حتى انتهى الى الارض فلفظه *(تنبيه)* اختلفوا فى مدة

لبثه فى بطن الحوت فقال الحسن لم يلبث الا قليلا ثم أخرج من بطن الحوت وقال بعضهم التقمه بكرة ولفظه عشية وقال مقاتل بن حبان ثلاثة أيام وقال عطاء سبعة أيام وقال الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا وقيل أربعين يوما قال الرازى ولا أدرى بأى دليل عينوا هذه المقادير وروى أبو بردة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس فى بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة فقال تعالى ذاك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه بالساحل * وروى أن يونس عليه السلام لما ابتلعه الحوت ابتلع الحوت حوت آخر أكبر منه فلما استقر فى جوف الحوت حسب انه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فاذا هو حى فخر لله تعالى ساجدا وقال يارب اتخذت لك مسجدا لم يعبدك أحد فى مثله (وهو سقيم) أى عليل كالفرخ الممعوط (وأنبتنا عليه) أى له وقيل عنده (شجرة من يقطين) قال المبرد والزجاج اليقطين كل ما لم يكن له ساق من عود كالقثاء والقرع والبطيخ والحنظل وهو قول الحسن ومقاتل قال البغوى المراد هنا القرع على قول جميع المفسرين وروى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة انشقت وشربت فهو يقطين (فان قيل) الشجر ما له ساق واليقطين مما لا ساق له كما قال تعالى والنجم والشجر يسجدان (أجيب) بأن الله تعالى جعل لها ساقا على خلاف العادة فى القرع معجزة له عليه السلام ولو كان منبسطا على الارض لم يمكن أن يستظل به قال مقاتل بن حبان كان يونس عليه السلام يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها بكرة وعشيا حتى اشتد لحمه ونبت شعره * وروى أن يونس عليه السلام كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف وكان قد أوحى الله تعالى الى بنى اسرائيل اذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعونى أستجب لكم فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من أنبيائهم أن اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له يبعث الى بنى اسرائيل نبيا فاختار من بنى اسرائيل يونس عليه السلام لقوته وامانته فقال يونس آلله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قويا أمينا وأنت كذلك فقال يونس فى بنى اسرائيل من هو أقوى منى فلم لم تبعثه فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم فوجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما أشرف على لجة البحر أشرفوا على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والالم يحصل فى السفينة ما نراه فقال التجار قد جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع فمن خرجت عليه نغرقه فى البحر فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج من بينهم يونس فقال يا هؤلاء أنا العاصى وتلفف فى كسائه ورمى بنفسه فالتقمه الحوت وأوحى الله تعالى الى الحوت لا تكسر منه عظما ولا تقطع منه وصلا ثم ان الحوت خرج الى نيل مصر ثم الى بحر فارس ثم الى البطائح ثم الى دجلة وصعد به ورماه فى أرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ثم ان الارضة أكلتها

فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقال يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم فانطلق اليهم فانطلق اليهم وذلك قوله تعالى (وأرسلناه) أي بعد ذلك كقبله الى قومه بنينوى من أرض الموصل (الى مائة ألف أو يزيدون) قال ابن عباس ان أو بمعنى الواو وقال مقاتل والكلبي بمعنى بل وقال الزجاج على الاصل بالنسبة للمخاطبين * واختلفوا في مبلغ الزيادة فقال ابن عباس ومقاتل كانوا عشرين ألفا ورواه أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الحسن بضعا وثلاثين ألفا وقال سعيد بن جبير تسعين ألفا (فآمنوا) أي الذين أرسل اليهم عند معاينة العذاب الموعودين به (فمتعناهم) أي أبقيناهم بمالهم (الى حين) أي الى انقضاء آجالهم * (تنبيه) * قال البيضاوي ولعله انما لم يختم قصته وقصة لوط عليهما السلام بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكبيرة وأولي العزم من الرسل واكتفاء بالسلام الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (فاستفتهم) اي استخبر كفار مكة توبيخا لهم (ألربك البنات ولهم البنون) قال الزمخشري معطوف على مثله في أول السورة قال أبو حيان واذا كانوا قد عدوا الفصل بجملة نحو كل لحما واضرب زيدا وخبزا من أقبح التراكيب فكيف بجمل كثيرة وقصص متباينة فاجيب عنه بأن الفصل وان كثر بين الجمل المتعاطفة مغتفر وأما المثال الذي ذكره فمن قبيل المفردات الاترى كيف عطف خبزا على لحما وأيضا الفاصل ليس بأجنبي كما أشار اليه البيضاوي بقوله أمر رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه انكارهم البعث وساق الكلام في تقريره جار الما يلائمه من القصص موصولا بعضها ببعض ثم أمره صلى الله عليه وسلم باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولانفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر من التجسيم وتجويز البنات على الله تعالى فان الولادة مخصوصة بالاجسام المتكونة الفاسدة وتفضيل أنفسهم الخسيسة عليه سبحانه حيث جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم واستهانتهم بالملائكة حيث أنثوهم ولذلك كرر الله تعالى انكاره ذلك وابطاله في كتابه العزيز مرارا وجعله مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والانكار ههنا مقصور على الاخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما ونقل الواحدي عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله وهذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما اثبات البنات لله تعالى وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنات والشئ الذي يستنكف منه المخلوق كيف يمكن اثباته للخالق والثاني اثبات أن الملائكة اناث وهذا أيضا باطل لان طريق العلم اما الحس واما الخبر واما النظر أما الحس ففقود لانهم لم يشاهدوا كيف خلق الله تعالى الملائكة وهو المراد من قوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون) وانما خص علم المشاهدة لان أمثال ذلك لا يعلم الا به فان الانوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء والاشعار بأنهم

لفرط جهلهم يثبتونه كأنهم قد شاهدوا خلقهم وأما الخبر فمفقود أيضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم دليل وهذا هو المراد من قوله تعالى (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون) أى فيما زعموا وقوله تعالى (أصطفى البنات على البنين) استفهام انكار واستبعاد والاصطفاء أخذ صفوة الشئ (فائدة) همزة أصطفى همزة قطع مفتوحة مقطوعة وصلا وابتداء (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد (أفلا تذكرون) أى انه تعالى منزه عن ذلك وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وأما النظر فمفقود من وجهين الاول أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب لانه تعالى أكمل الموجودات والاكمل له اصطفاء الابناء على البنات يعنى ان اسناد الافضل الى الافضل أقرب الى العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا فى هذا الباب كان قولهم باطلا الثانى أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا دليلا ظهر بطلان مذهبهم وهذا هو المراد بقوله تعالى (أم لكم سلطان مبين) أى حجة واضحة ان لله ولدا (فأتوا بكتابكم) أى التوراة فأرونى ذلك فيه (ان كنتم صادقين) أى فى قولكم هذا (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) قال مجاهد وقتادة أراد بالجنة الملائكة عليهم السلام سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار وقال ابن عباس حى من الملائكة يقال لهم الجن منهم ابليس لعنه الله وقيل هم خزان الجنة قال الرازى وهذا القول عندى مشكل لانه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله تعالى وجعلوا الخ والعطف يقتضى المغايرة فوجب أن يكون المراد من الآية غير ما تقدم وقال مجاهد قال كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه منكرا عليهم فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن وهذا أيضا بعيد لان المصاهرة لا تسمى نسبا قال الرازى وقد روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن أن قوما من الزنادقة يقولون ان الله تعالى وابليس اخوان فالله تعالى هو الحر الكريم وابليس هو الاخ الشرير فالمراد من ذلك هو هذا المذهب وهو مذهب المجوس قال وهذا القول عندى هو أقرب الاقاويل فى الرد عليهم بهذه الآية (ولقد علمت الجنة انهم) أى اهل هذا القول (لمحضرون) أى الى النار ومعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون العذاب فعلى الاول الضمير عائد الى القائل وعلى الثانى عائد الى نفس الجنة * ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوه من الكذب فقال تعالى (سبحان الله عما يصفون) بأن لله تعالى ولدا ونسبا وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى المؤمنين استثناء منقطع ٣ أى لكن عباد الله المخلصين ينزهون الله تعالى عما يصف هؤلاء الثالث أنه ضمير محضرون أى لكن عباد الله تعالى ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبى البقاء أنه يجوز أن يكون استثناء متصلا لانه قال مستثنى من جعلوا أو محضرون ويجوز أن يكون منفصلا فظاهر هذه العبارة أن الوجهين الاولين هو فيهما متصل لا منفصل وليس ببعيد كأنه قيل وجعل الناس ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة

نسبا

٣ قوله استثناء منقطع الخ هكذا فى النسخ وهى عبارة غير محررة وأصلها كما فى الجمل وفى السمين قوله الا عباد الله المخلصين فى هذا الاستثناء وجوه أحدها انه منقطع والمستثنى منه اما فاعل جعلوا أى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا الا عباد الله الثانى انه فاعل يصفون أى لكن عباد الله يصفونه بما يليق به تعالى الثالث انه ضمير محضرون أى لكن عباد الله ناجون وعلى هذا فتكون جملة التسبيح معترضة وظاهر كلام أبى البقاء انه يجوز أن يكون استثناء متصلا لانه قال مستثنى من واو جعلوا أو محضرون ويجوز أن يكون منفصلا فظاهر هذه العبارة أن الوجهين الاولين هو فيهما متصل لا منفصل وليس ببعيد كأنه قيل وجعل الناس ثم استثنى منهم هؤلاء وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة نسبا فهو عند الله مخلص من الشرك اهـ

نسبا فهو عند الله مخلص من الشرك وقوله تعالى (فانكم) أى يا اهل مكة (وما تعبدون) أى من الاصنام عود الى خطابهم لانه لما ذكر الدلائل الدالة على فساد مذاهب الكفار اتبعه بما ينبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على اضلال أحد الا اذا كان قد سبق حكم الله تعالى فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار كما قال تعالى (ما أنتم عليه) أى على معبودكم وعليه متعلق بقوله (بفاتنين) أى بمضلين أحدا من الناس (الا من هو صال الجحيم) أى الا من سبق له فى علم الله تعالى الشقاوة *(تنبيه)* احتج أهل السنة بهذه الآية على انه لا تأثير لايحاء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر هو الله حيث قضاه وقدره ثم ان جبريل عليه السلام أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة ليسوا بمعبودين كما زعمت الكفار بقوله (وما منا) أى معشر الملائكة ملك (الا له مقام معلوم) فى السموات يعبد الله تعالى فيه لا يتجاوزه قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما فى السموات موضع شبر الا وعليه ملك يصلى ويسبح وروى أبو ذر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته لله ساجدا قيل الاطيط أصوات الاقتاب وقيل أصوات الابل وحنينها ومعنى الحديث ما فى السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهذا مثل وايذان بكثرة الملائكة عليهم السلام وان لم يكن ثم أطيط وقال السدى الا له مقام معلوم فى القرب والمشاهدة (وانا لنحن الصافون) أى أقدامنا فى الصلاة وقال الكلبى صفوف الملائكة فى السماء كصفوف الناس فى الارض (وانا لنحن المسبحون) أى المنزهون الله تعالى عما لا يليق به وقيل هذا حكاية كلام النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمعنى وما منا الا له مقام معلوم فى الجنة أو بين يدى الله تعالى فى القيامة وانا لنحن الصافون فى الصلاة والمنزهون له تعالى عن السوء ثم انه تعالى أعاد الكلام الى الاخبار عن المشركين فقال (وان كانوا) أى كفار مكة وان مخففة من الثقيلة (ليقولون لو أن عندنا ذكرا) أى كتابا (من الاولين) أى من كتب الامم الماضين (لكنا عباد الله المخلصين) أى لأخلصنا العبادة له وما كذبنا ثم جاءهم الذكر الذى هو سيد الاذكار والمهيمن عليها وهو القرآن العظيم (فكفروا به فسوف يعلمون) عاقبة هذا الكفر وهذا تهديد عظيم * ولما هددهم بذلك أردفه بما يقوى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا) أى بالنصر (لعبادنا المرسلين) وهى قوله تعالى لأغلبن أنا ورسلى أو هى قوله تعالى (انهم لهم المنصورون وان جندنا) أى المؤمنين (لهم الغالبون) أى الكفار والنصرة والغلبة قد تكون بالحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وان صار مغلوبا فى بعض الاوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب فى الآخرة فالحكم فى ذلك للاغلب فى الدنيا فلا ينافى ذلك قتل بعض الانبياء عليهم السلام وهزم كثير من المؤمنين وانما سمى ذلك كلمة وهى كلمات لانتظامها فى معنى واحد (فتول عنهم) أى أعرض عن كفار مكة واختلف فى قوله تعالى (حتى حين) فقال ابن عباس يعنى الموت وقال مجاهد يوم بدر وقال السدى حتى يأمرك الله تعالى بالقتال وقيل الى أن يأتيهم عذاب الله وقيل الى فتح مكة وقال

مقاتل بن حيان نسخنها آية القتال (وأبصرهم) أى اذا نزل بهم العذاب من القتل والاسر في الدنيا والعذاب في الآخرة (فسوف يبصرون) أى ماقضيناه لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة وسوف للوعيد لاللتبعيد * ولماقيل لهم ذلك قالوا استهزاء متى نزول العذاب فقال تعالى تهديدا لهم (أفبعذابنا يستعجلون) أى ان ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من أفعال الله تعالى وقتامعينا لايتقدم ولايتأخر (فاذا نزل) أى العذاب (بساحتهم) قال مقاتل بحضرتهم وقيل بفنائهم قال الفراء العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم فشبه العذاب بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة (فساء) أى فبئس صباحا (صباح المنذرين) أى الكافرين الذين أنذروا بالعذاب وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج الى خيبر أتاها ليلا وكان اذا جاء قوما بليل لم يغر حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود بمساحيها ومكاتلها فلما رأوه قالوا محمد والله محمد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين قالها ثلاث مرات وقوله تعالى (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) فيه وجهان أحدهما ان في هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال يوم القيامة وعلى هذا فالتكرار زائل والثاني انهما مكررة للمبالغة في التهديد والتهويل (فان قيل) ما الحكمة في قوله أولا وأبصرهم وههنا قال وأبصر بغير ضمير (أجيب) بأنه حذف مفعول أبصر الثاني اما اختصارا لدلالة الاول عليه واما اقتصارا تفننا في البلاغة ثم انه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل مالايليق بصفات الالهية فقال تعالى (سبحان ربك رب العزة) أى الغلبة والقوة وفي قوله تعالى رب اشارة الى كمال الحكمة والرحمة وفي قوله تعالى العزة اشارة الى كمال القدرة وانه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام في قوله تعالى العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكاله سبحانه لم يبق لغيره شئ فثبت ان قوله سبحانه وتعالى سبحان ربك رب العزة (عما يصفون) أى ان له ولدا كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) أى المبلغين من الله تعالى التوحيد والشرائع تعميم للرسل بعد تخصيص بعضهم (والحمد لله رب العالمين) أى على هلاك الاعداء ونصرة الانبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وعلى ماأفاض عليهم ومن اتبعهم من النعمة وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم والغرض من ذلك تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولايغفلوا عنه لما روى البغوى عن على رضى الله عنه أنه قال من أحب أن يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الخ وأما مارواه البيضاوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من قرأ والصافات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة انه كان مؤمنا بالمرسلين فموضوع

(سورة ص مكية)

وهى

وهي ست أو ثمان وثمانون آية وسبعمائة واثنتان وثمانون كلمة وثلاثة آلاف وتسعة وتسعون حرفا (بسم الله) المنزه عن كل شائبة نقص (الرحمن) الذي عم جوده سائر مخلوقاته (الرحيم) بمن خلقه واختلف في تفسير قوله تعالى (ص) فقيل قسم وقيل هو اسم للسورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي في أوائل السور وقال محمد بن كعب القرظي مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد وقال الضحاك معناه صدق الله وروى عن ابن عباس صدق محمد صلى الله عليه وسلم وقيل معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضته (والقرآن) أي الجامع مع البيان لكل خير (ذي الذكر) أي الموعظة والتذكير وقال ابن عباس ذي البيان وقال الضحاك ذي الشرف ودليله قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك (فان قيل) هذا قسم فأين المقسم عليه (أجيب) بأنه محذوف تقديره ما الامر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة وقوله تعالى (بل الذين كفروا) أي من أهل مكة اضراب انتقال من قصة الى أخرى (في عزة) أي حمية وتكبر عن الايمان (وشقاق) أي خلاف وعداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على شدتهما * وقيل جواب القسم قد تقدم وهو قوله تعالى ص أقسم الله تعالى بالقرآن أن محمدا الصادق وقال الفراء ص معناها وجب وحق فهو جواب قوله والقرآن كما تقول نزل والله وقال الاخفش قوله تعالى ان كل الا كذب الرسل وقال السدي ان ذلك لحق تخاصم أهل النار قال البغوي وهذا ضعيف لانه تخلل بين القسم وبين هذا الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة وقال مجاهد في عزة متعازين (كم) أي كثيرا (أهلكنا من قبلهم) وأكد كثرتهم بقوله تعالى (من قرن) أي من أمة من الامم الماضية كانوا في شقاق مثل شقاقهم *(تنبيه)* كم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز ومن قبلهم لابتداء الغاية (فنادوا) أي استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة وقيل نادوا بالايمان والتوبة (ولات) أي وليس الحين (حين مناص) أي منجى وفرار قال ابن عباس كان كفار مكة اذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله تعالى ذلك والمناص مصدر ناص ينوص اذا تقدم ولات بمعنى ليس بلغة أهل اليمن وقال النحويون هي لا زيدت فيها التاء كقولهم رب وربت وثم وثمت وأصلها هاء وصلت بلا فقالوا لاه كما قالوا ثمه ولا تعمل الا في الازمان خاصة نحو لات حين ولات اوان كقول الشاعر

طلبوا صلحنا ولات أوان * فأجبنا أن ليس حين بقاء

والاكثر حينئذ حذف مرفوعها فتقديره ولات الحين حين مناص وقد يحذف المنصوب ويبقى المرفوع كقول القائل

من صد عن نيرانها * فأنا ابن قيس لا براح

أي لا براح لي ولما حكى تعالى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق اتبعه بشرح كلماتهم الفاسدة بقوله تعالى (وعجبوا) اي الكفار الذين ذكرهم الله تعالى في قوله سبحانه بل الذين كفروا في عزة وشقاق (أن) أي لاجل أن (جاءهم منذر) هو النبي صلى الله عليه وسلم وفي قوله تعالى (منهم) وجهان أحدهما انهم قالوا ان محمدا مساو لنا في الخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة والنسب

والشكل والصورة فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والثاني أن الغرض
من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهلهم لانهم جاءهم رجل يدعوهم الى التوحيد والترغيب
في الآخرة ثم ان هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدا عن الكذب والتهمة وكل ذلك
مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم انهم لحماقتهم يتعجبون من قوله (وقال الكافرون) وضع
الظاهر فيه موضع المضمر اشارة الى أنهم يسترون الحق مع معرفتهم اياه فهم جاحدون لا جاهلون
ومعاندون لا غافلون وايذانا بشدة غضبه عليهم وذما لهم على قولهم (هذا) أي النذير (ساحر)
اي فيما يظهره معجزة (كذاب) أي فيما يقول على الله تبارك وتعالى (اجعل) أي صير بسبب
ما يزعم أنه يوحى اليه (الآلهة) أي التي نعبدها (الها واحدا) كيف يسع الخلق كلهم
اله واحد (ان هذا) أي القول بالوحدانية (لشئ عجاب) أي بليغ في العجب فانه خلاف
ما أطبق عليه آباؤنا وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالاشياء الكثيرة وقال البغوي
العجب والعجاب واحد كقولهم رجل كريم وكرام وكبير وكبار وطويل وطوال وعريض
وعراض وسبب قولهم ذلك انه روي انه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش
وفرح به المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملا من قريش وهم الصناديد والاشراف وكانوا
خمسة وعشرين رجلا أكبرهم سنا الوليد بن المغيرة اذهبوا الى أبي طالب فأتوا اليه وقالوا له
أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وانا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك
فأرسل أبو طالب اليه فحضر فقال له يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على
قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا تسألونني فقالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا قال
أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم
فقال أبو جهل لله أبوك نعطيكها وعشر امثالها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا لا اله
الا الله فنفروا من ذلك وقاموا فقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أي أشراف قريش من مجلس
اجتماعهم عند أبي طالب وسماعهم فيه من النبي صلى الله عليه وسلم قولوا لا اله الا الله (أن
امشوا) أي يقول بعضهم لبعض امشوا أي اذهبوا (واصبروا) أي اثبتوا (على آلهتكم)
أي على عبادتها قال الزمخشري ويجوز انهم قالوا امشوا أي اكثروا واجتمعوا من مشت
المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل اهـ *(فائدة)* الجميع يكسرون النون
في الوصل من أن امشوا والهمزة في الابتداء من امشوا * ولما أسلم عمر وحصل للمسلمين قوة
بمكانه قال المشركون (ان هذا) أي الذي نراه من زيادة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم
(لشئ يراد) أي بنا فلا مرد له أو ان الصبر على عبادة الآلهة لشئ يراد وهو أهل للارادة فهو
أهل أن لا ننفك عنه وقيل هذا المذكور من التوحيد لشئ يراد منا وقيل ان دينكم لشئ
يطلب ليؤخذ منكم (ما سمعنا بهذا) أي الذي يقوله محمد من التوحيد (في الملة الآخرة)
قال ابن عباس يعنون في النصرانية لانها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون ثالث ثلاثة وقال
مجاهد يعنون ملة قريش دينهم الذي هم عليه (ان) أي ما (هذا) أي الذي يقوله (الا اختلاق)

افتعال

افتعال وكذب (أأنزل عليه) أى محمد صلى الله عليه وسلم (الذكر) أى القرآن (من بيننا) وليس بأكبرنا ولا أشرفنا وهذا استفهام على سبيل الانكار لاختصاصه عليه الصلاة والسلام بالوحى وهو مثلهم وفى ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن الا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالواو وأدخل بينهما ألفا قالون وأبو عمرو بخلاف عن ورش وابن كثير بغير ادخال وعن هشام فيها ثلاثة أوجه تحقيق الهمزتين وادخال ألف بينهما وتحقيقهما من غير ادخال الف بينهما قال الله تبارك وتعالى (بل هم فى شك) أى تردد محيط بهم مبتدأ لهم (من ذكرى) أى وحيى وما أنزلت لميلهم الى التقليد واعراضهم عن الدليل الذى لو نظروا فيه لزال هذا الشك عنهم (بل) أى ليسوا فى شك منه فى نفس الامر وان كان قولهم قول من هو فى شك (لما يذوقوا عذاب) أى الذى اعددته للمكذبين ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول ولصدقوا النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ولا ينفعهم التصديق حينئذ (أم) أى بل (عندهم خزائن) أى مفاتيح (رحمة) أى نعمة (ربك) وهى النبوة يعطونها من شاؤا ونظيره قوله تعالى أهم يقسمون رحمة ربك أى نبوة ربك (العزيز) أى الغالب الذى لا يغلبه أحد (الوهاب) الذى له أن يهب كل ما يشاء من النبوة أوغيرها لمن يشاء من خلقه * ولما كانت خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه ومن جملته السموات والارض وما بينهما وهم عاجزون عن هذا القسم قال الله تعالى (أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما) أى ليس لهم ذلك فلأن يكونوا عاجزين عن كل خزائن الله تعالى أولى وقوله تعالى (فليرتقوا فى الاسباب) جواب شرط محذوف أى ان كان لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها الى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحى الى من يريدونه وهذا غاية التهكم بهم والتعجيز والتوبيخ قال مجاهد أراد بالاسباب أبواب السماء وطرقها من سماء الى سماء وكل ما يوصلك الى شئ من باب أو طريق فهو سبب واستدل حكماء الاسلام بقوله تعالى فليرتقوا فى الاسباب على أن الاجرام الفلكية وما أودع الله تعالى فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لان الله تعالى سمى الفلكيات أسبابا وهذا يدل على ذلك وقوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) خبر مبتدأ مضمر أى هم قريش جند من الكفار المتحزبين على الرسل عليهم السلام مهزوم مكسور عما قريب فمن أين لهم تدبير الالهية والتصرف فى الامور الربانية فلا تكترث بما تقوله قريش قال قتادة أخبر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وهو بمكة انه سيهزم جند المشركين فقال تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر فجاء تأويلها يوم بدر وهنالك اشارة الى بدر ومصارعهم وقيل يوم الخندق قال الرازى والاصح عندى حمله على يوم فتح مكة لان المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين فى مكة وما ذلك الا فى يوم الفتح *(تنبيه)* فى ما وجهان أحدهما انها مزيدة والثانى انها للتعظيم للمهزومين او للتحقير فان ما الصفة تستعمل لهذين المعنيين وقد تقدم الكلام

عليها في أوائل البقرة وهذا كله صفة لجند وكذلك مهزوم ومن الاحزاب ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم معزياله عليه السلام (كذبت) أي مثل تكذيبهم (قبلهم قوم نوح) أنث قوم باعتبار المعنى واستمروا على عزتهم وشقاقهم الى ان رأوا الماء قد أخذهم ولم يسمعوا بالاذعان ولا بالتضرع الى نوح عليه السلام (وعاد) سماهم بالاسم المنبه على ما كان لهم من المكنة بالملك واستمروا في شقاقهم الى ان خرجت عليهم الريح العقيم ورأوها تحمل الابل فيما بين السماء والارض وهم لا يذعنون لما دعاهم اليه هود عليه السلام (وفرعون ذو الاوتاد) كانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان اذا غضب على أحد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد يشد كل يد وكل رجل منه الى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والارض حتى يموت وقال مجاهد كان يمد الرجل مستلقيا بين أربعة أوتاد على الارض يشد رجليه ويديه ورأسه على الارض بالاوتاد قال السدى كان يشد الرجل بالاوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات وقال ابن عباس ذو البناء المحكم وقيل ذو الملك الشديد الثابت وقال العتبي تقول العرب هم في عز ثابت الاوتاد يريدون انه دائم شديد قال الاسود بن يعفور

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد

وقال الضحاك ذو القوة والبطش وقال عطية ذو الجموع والجنود الكثيرة لانهم كانوا يقوون أمره ويشدون ملكه كما يقوى الوتد الشيء والاوتاد جمع وتد وفيه لغات وتد بفتح الواو وكسر التاء وهي الفصحى وود بفتحتين وود بادغام التاء في الدال (وثمود) واستمروا فيما هم فيه الى ان رأوا علامات العذاب من صفرة الوجوه ثم حمرتها ثم سوادها ولم يكن في ذلك زاجر يردهم عن عزتهم وشقاقهم (وقوم لوط) أي الذين لهم قوة القيام بما حاولوه واستمروا في عزتهم وفي شقاقهم حتى ضربوا بالعشاء وطمس الاعين ولم يقدروا على الوصول الى ما أرادوا من الدخول الى بيت لوط عليه السلام ولم يردهم ذلك عن عزتهم وشقاقهم (وأصحاب الايكة) أي الغيضة وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام (أولئك الاحزاب) أي المتحزبون على الرسل عليهم السلام الذين خص الجند المهزوم منهم وقيل المعنى أولئك الاحزاب مبالغة في وصفهم بالقوة كما يقال فلان هو الرجل أي أولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان عاقبتهم هي الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين اذا نزل عليهم العذاب وفي الآية زجر وتخويف للسامعين (ان) أي ما (كل) أي من الاحزاب (الا كذب الرسل) أي لانهم اذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم لان دعوتهم واحدة وهي دعوة التوحيد (فحق عقاب) أي فوجب عليهم ونزل بهم عذابي * ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال تعالى (وما ينظر) وحقرهم بقوله تعالى (هؤلاء) أي وما ينتظر كفار مكة (الا صيحة واحدة) وهي نفخة الصور الاولى كقوله تعالى ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية الآية والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف اليه يقطع كل ساعة بحضوره

وقيل

(قيل المراد بالصيحة عذاب يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

ونظيره قوله تعالى فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية وقرأ حمزة والكسائى (مالها) أى الصيحة (من فواق) بضم الفاء والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى واحد وهو الزمان الذى بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع والمعنى مالها من توقف قدر فواق ناقة وفى الحديث العيادة قدر فواق ناقة وهذا فى المعنى كقوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وقال ابن عباس مالها من رجوع من أفاق المريض اذا رجع الى صحته وافاقة الناقة ساعة يرجع اللبن الى ضرعها يقال أفاقت الناقة تفيق افاقة رجعت واجتمعت الفيقة فى ضرعها والفيقة اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين وهو أن يحلب الناقة ثم يترك ساعة حتى يجتمع اللبن فما بين الحلبتين فواق أى العذاب لا يمهلهم بذلك القدر (وقالوا) أى كفار مكة استهزاء المنازل قوله تعالى فى الحاقة فأما من أوتى كتابه بيمينه وأما من أوتى كتابه بشماله (ربنا) أى يا أيها المحسن الينا (عجل لنا قطنا) أى كتاب أعمالنا فى الدنيا (قبل يوم الحساب) وقال سعيد بن جبير يعنون حظنا ونصيبنا من الجنة التى تقول وقال مجاهد والسدى يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب قال عطاء قاله النضر ابن الحرث وهو قوله ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وقال مجاهد قطنا حسابنا يقال لكتاب الحساب قط وقال أبو عبيدة والكسائى القط الكتاب بالجوائز ويجمع على قطوط وقططة كقرد وقرود وقردة وفى القلة على أقطة واقطاط كقدح وأقدحة واقداح الا أن أفعلة فى فعل شاذ * ولما أن القوم تعجبوا من أمور ثلاثة أولها من أمر النبوات واثباتها كما قال تعالى وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وثانيها تعجبهم من الالهيات فقالوا أجعل الآلهة الها واحدا وثالثها تعجبهم من المعاد والحشر والنشر فقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب قالوا ذلك استهزاء أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر فقال سبحانه (اصبر) وأشار بحرف الاستعلاء الى عظيم الصبر فقال (على ما يقولون) أى على ما يقول الكافرون من ذلك ثم انه تعالى لما أمر نبيه بالصبر ذكر قصص الانبياء عليهم السلام تسلية له فكأنه تعالى قال فاصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فيعلم حينئذ أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله تعالى لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب فى الدنيا وبدأ من ذلك بقصة داود عليه السلام فقال تعالى (واذكر عبدنا) أى الذى أخلصناه لنا وأخلص نفسه للنظر الى عظمتنا والقيام فى خدمتنا وأبدل منه أو بينه بقوله تعالى (داود ذا الايد) قال ابن عباس أى القوة فى العبادة روى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الصيام الى الله تعالى صيام داود وأحب الصلاة الى الله تعالى صلاة داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وقيل ذا القوة فى الملك ووصفه

تعالى بكونه عبداله وعبرعن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك يدل على غاية التشريف ألاترى أنه تعالى لما أرادأن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وأيضا وصف الانبياء عليهم السلام بالعبودية مشعر بأنهم قد حصلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة (انه أواب) أى رجاع الى مرضاة الله تعالى والاواب فعال من آب يؤب اذا رجع قال الله تعالى ان الينا ايابهم وهذا بناء مغالبة كما يقال قتال وضراب وهو أبلغ من قاتل وضارب وقال ابن عباس مطيع وقال سعيد بن جبير مسبح بلغة الحبشة ويؤيده هذا قوله تعالى (انا) أى على مالنا من العظمة التى لا يعجزها شئ (سخرنا الجبال) أى التى هى أقسى من قلوب قومك وانها أعظم الاراضى صلابة وقوة وعلوا ورفعة بأن جعلناها منقادة ذلولا كالجمل الانف ثم قيد ذلك بقوله تعالى (معه) أى مصاحبة له (يسبحن) أى بتسبيحه وفى كيفية تسبيحها وجوه أحدها أن الله تعالى يخلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ونطقا وحينئذ يصيرا الجبل مسبحا لله تعالى ثانيها قال القفال ان داود عليه السلام أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن وما يصغى الطير اليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وروى محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط أحدا من خلقه مثل صوت داود عليه السلام حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها ثالثها ان الله تعالى سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود عليه السلام فجعل ذلك السير تسبيحا لانه يدل على كمال قدرته تعالى واتقان حكمته (بالعشى والاشراق) قال الكلبى غدوة وعشيا والاشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقيل هما بمعنى واحد والاول أكثر استعمالا تقول العرب شرقت الشمس ولما تشرق وفسره ابن عباس بصلاة الضحى قال ابن عباس كنت أمر بهذه الآية ولم أدر ماهى حتى حدثتنى أم هانئ بنت أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى وقال يا أم هانئ هذه صلاة الاشراق وروى طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق وقوله تعالى (والطير محشورة) أى مجموعة اليه تسبح معه عطف مفعول على مفعول وهما الجبال والطير أوحال على حال وهى مايسبحن ومحشورة كقولك ضربت زيدا مكتوفا وعمرا مطلقا وأتى بالحال اسما لانه لم يقصد ان الفعل وقع شيأ فشيأ لان حشرها دفعة واحدة أدل على القدرة والحاشر هو الله تعالى (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله تعالى من الطير مع أنه لا عقل لها (أجيب) بأنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى لها عقولا حتى تعرف الله تعالى فتسبحه حينئذ ويكون ذلك معجزة لداود عليه السلام (كل) أى من الجبال والطير (له) أى لداود أى لاجل تسبيحه (أواب) أى رجاع الى طاعته بالتسبيح وقيل كل مسبح فوضع أواب موضع مسبح وقيل الضمير فى له للبارى تبارك وتعالى والمراد كل من داود والجبال والطير مسبح ورجاع لله تعالى (وشددنا) أى قوينا بما لنا من العظمة (ملكه)

بالحرس والجنود وقال ابن عباس كان أشد ملوك الارض سلطانا كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل وعن ابن عباس ان رجلا من بني اسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود فقال ان هذا قد غصبني بقرا فسأله داود فجحد فقال للآخر البينة فلم تكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله تعالى الى داود في منامه أن يقتل الذى استعدى عليه فقال هذه رؤيا لست أعجل حتى أتثبت فأوحى الله تعالى اليه مرة ثانية فلم يفعل فأوحى الله تعالى اليه مرة ثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل داود اليه فقال له ان الله تعالى أوحى الى أن أقتلك فقال تقتلني بغير بينة فقال نعم والله لانفذن أمر الله تعالى فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل حتى أخبرك انى والله ما أخذت بهذا الذنب ولكنى كنت اغتلت ابن هذا فقتلته فبذلك أخذت فأمر به داود فقتل فاشتدت هيبة داود عند ذلك في قلوب بني اسرائيل واشتد به ملكه فذلك قوله تعالى وشددنا ملكه (وآتيناه) أى اعطيناه (الحكمة) أى النبوة والاصابة في الامور واختلف في تفسير قوله تعالى (وفصل الخطاب) فقال ابن عباس بيان الكلام أى معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير كبير رؤية في ذلك وقال ابن مسعود والحسن علم الحكمة والبصر بالقضاء وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه هو ان البينة على المدعى واليمين على من أنكر لان كلام الخصوم ينقطع وينفصل به وقال أبي بن كعب فصل الخطاب الشهود والايمان وقال مجاهد وعطاء وروى عن الشعبي ان فصل الخطاب هو قول الانسان بعد حمد الله والثناء عليه اما بعد اذا أراد الشروع في كلام آخر وأول من قاله داود عليه السلام وقيل غيره كما ذكرته في شرح المنهاج عند قول المنهاج اما بعد وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس باختصار مخل ولا اشباع ممل كما جاء وصف كلام النبي صلى الله عليه وسلم فصل لا نزر ولا هذر وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وهل) استفهام معناه التعجب والتشويق الى استماع ما بعده (أتاك) يا أفضل الخلق (نبأ) أى خبر (الخصم) وهو في الاصل مصدر ولذلك يصلح للمفرد والمذكر والمراد به هنا الجمع بدليل قوله تعالى (اذ) أى حين (تسوروا) أى تصعدوا وعلوا (المحراب) أى البيت الذى كان يدخل فيه داود ويشتغل فيه بالعبادة والطاعة قال الزمخشرى (فان قلت) بم انتصب اذ * قلت لا يخلو اما ان ينتصب بأتاك أو بنبأ أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لان اتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقع الا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبأ لان النبأ واقع في عهد داود فلا يصح اتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أردت بالنبأ القصة في نفسها لم تكن ناصبا فبقي أن يكون منصوبا بمحذوف تقديره وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا انتهى فاختار أن يكون معمولا لمحذوف ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وقوله تعالى (اذ) أى حين (دخلوا على داود) بدل من اذ الاولى أو ظرف لتسوروا وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الذال عند التاء في الاول وعند الدال في الثانى ووافقهم ابن ذكوان في الاول والباقون بالادغام فيهما (ففزع منهم) أى لانهم نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من

يدخل عليه فانه عليه السلام كان جزأ زمانه يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للوعظ ويوما للاشتغال بحاجته فتسور عليه ملكان على صورة الانسان في يوم الخلوة (قالوا لا تخف) وقولهم (خصمان) خبر مبتدا مضمر أي نحن خصمان أي فريقان ليطابق ما قبله من ضمير الجمع وقيل اثنان والضمير بمعناهما وقد مر أن الخصم يطلق على الواحد والاكثر وقولهم (بغى بعضنا على بعض) جملة يجوز أن تكون مفسرة لحالهم وأن تكون خبرا ثانيا (فان قيل) كيف قالوا بغى بعضنا على بعض وهم ملائكة على المشهور (أجيب) بأن ذلك على سبيل الفرض أي أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر وهذا من معاريض الكلام لا من تحقيق البغي من أحدهما (فاحكم بيننا بالحق) أي الامر الثابت الذي يطابق الواقع (ولا تشطط) أي ولا تجر في الحكومة (واهدنا) أي ارشدنا (الى سواء الصراط) أي وسط الطريق الصواب فقال لهما تكلما فقال أحدهما (ان هذا أخي) أي على ديني وطريقتي أو في النصح لا من جهة النسب (له تسع وتسعون نعجة) أي امرأة (ولي نعجة واحدة) امرأة واحدة والنعجة هي الانثى من الضان ولكن كثر في كلامهم الكناية بها عن المرأة قال ابن عون

أنا أبوهن ثلاثة هنه * رابعة في البيت صغراهنه * ونعجتي خمسا توفيهنه

قال الحسين بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لانه لم يكن ثم نعاج ولا بغي فهو كقولهم ضرب زيد عمرا واشترى بكر دارا ولا ضرب هنالك ولا شراء وقرأ حفص بفتح الياء والباقون بالسكون (فقال أكفلنيها) قال ابن عباس أعطنيها وقال مجاهد انزل لي عنها وحقيقته ضمها الي واجعلني كافلها وهو الذي يعولها وينفق عليها والمعنى طلقها لاتزوجها (وعزني) أي غلبني (في الخطاب) أي الجدال لانه أفصح مني في الكلام وقيل قهرني لقوة ملكه قال الضحاك يقول ان تكلم كان أفصح مني وان حارب كان أبطش مني وحقيقة المعنى أن الغلبة كانت له لضعفي في يده وان كان الحق معي وهذا كله تمثيل لامر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود وسيأتي الكلام على قصته ان شاء الله تعالى عن قريب (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) وهذا جواب قسم محذوف أريد به المبالغة في انكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمنه معنى الاضافة والانضمام أي ليضمها مضافة الى نعاجه (فان قيل) كيف قال لقد ظلمك ولم يكن سمع قول صاحبه (أجيب) بأن معناه ان كان الامر كما تقول فقد ظلمك أو انه قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول ولم يذكر الله تعالى ذلك لدلالة الكلام عليه وقيل التقدير ان الخصم الذي هذا شأنه قد ظلمك وقرأ قالون وابن كثير وهشام وعاصم باظهار الدال عند الظاء والباقون بالادغام وقوله (وان كثيرا من الخلطاء) أي مطلقا منكم ومن غيركم والخلطاء جمع خليط وهم الشركاء الذين خلطوا أموالهم وقال الليث خليط الرجل مخالطه (ليبغي) أي ليعتدي (بعضهم) غالبا (على بعض) فيريدون غير الحق (فان قيل) لم خص الخلطاء ببغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء يفعلون ذلك (أجيب) بأن المخالطة توجب كثرة المنازعة

والمخاصمة لانهما اذا اختلطا اطلع كل منهما على أحوال صاحبه فكل ما يملكه من الاشياء النفيسة اذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضي ذلك الى زيادة المنازعة والمخاصمة فلذلك خص داود عليه السلام الخلطاء بالبغي والعدوان ثم استثنى فقال (الا الذين آمنوا وعملوا) أى تحقيقا لايمانهم (الصالحات) أى الطاعات فانهم لا يقع منهم شئ لان مخالطة هؤلاء تكون لاجل الدين وهذا استثناء متصل من قوله بعضهم (وقليل ما هم) أى هم قليل فقليل خبر مقدم وما مزيدة للتعظيم وهم مبتدأ وقال الزمخشري ما للابهام وفيه تعجب من قلتهم قال فان أردت ان تحقق فائدتها وموقعها فاخرجها من قول امرئ القيس * وحديث ما على قصره * وانظر هل بقى لها معنى (وظن داود) أى لذهابهم قبل فصل الامر وقد همه من ذلك أمر من عظمه لا عهد له بمثله (أنما فتناه) أى امتحناه قال المفسرون ان الظن هنا بمعنى العلم لان داود لما قضى الامر بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء حيال وجهه فعلم ان الله تعالى ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وقال ابن عباس ان داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه تحولا فى صورتهما وعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه (فاستغفر ربه) أى طلب الغفران من مولاه الذى أحسن اليه (وخر) أى سقط من قيامه توبة لربه عن ذلك (راكعا) أى ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه أو خر للسجود راكعا أو مصليا كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع الى الله تعالى قال الرازى وللناس فى هذه القصة ثلاثة أحوال أحدها أن هذه القصة دلت على صدور الكبيرة منه وثانيها على الصغيرة وثالثها لا تدل على كبيرة ولا صغيرة فأما القول الاول فقالوا ان داود عليه السلام أحب امرأة أوريا فاحتال فى قتل زوجها ثم تزوج بها ثم أرسل الله تعالى ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة تشبه واقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك واشتغل بالتوبة قالوا وسبب ذلك أن داود عليه السلام تمنى يوما من الايام منزلة آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم فأوحى الله تعالى اليه انك تبتلى فى يوم كذا فاحترس فلما كان ذلك اليوم جاءه الشيطان فتمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها ويريها بنى اسرائيل لينظروا الى قدرة الله تعالى فطارت غير بعيدة فتبعها فطارت من كوة فنظر داود أين تقع فأبصر داود امرأة فى بستان تغتسل فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده اعجابا فسأل عنها فقيل له امرأة أوريا وزوجها فى غزاة فأحب داود أن يقتله ويتزوج بها فأرسل داود الى ابن أخته ان قدم أوريا قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله تعالى على يديه أو يقتل فقدمه ففتح على يديه فكتب الى داود فأمر أن يقدمه بعد ذلك ففعل ثلاث مرات فقتل فى الثالثة فلما انقضت عدتها تزوج بها فهى أم سليمان عليهما السلام قال الرازى والذى أدين الله تعالى به واذهب اليه ان ذلك باطل لوجوه الاول ان هذه الحكاية لا تناسب داود لانها لو نسبت الى أفسق الناس وأشدهم

فجور والا تنفي منها والذى نقل هذه القصة لو نسب الى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من نسبه اليها فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصية الى داود عليه السلام ثانيها ان حاصل القصة يرجع الى أمرين الى السعي فى قتل رجل مسلم بغير حق والى الطمع فى زوجته أما الاول فأمر منكر قال صلى الله عليه وسلم من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وأما الثانى فمنكر أيضا قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه فان أوريا لم يسلم من داود عليه السلام لافى روحه ولافى منكوحه ثالثها ان الله تعالى وصف داود عليه السلام بصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر الصفة الاولى انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بداود عليه السلام فى المصابرة على المكاره فلو قلنا ان داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى اراقة دم عبد مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله تعالى الصفة الثانية انه وصفه بكونه عبدا له وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى وصف العبودية فى القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات فلو قلنا ان داود اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا الا فى طاعة الهوى والشهوة الصفة الثالثة وهى قوله تعالى ذا الايد أى ذا القوة ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين لان القوة الكاملة فى أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم الصفة الرابعة كونه أوابا كثير الرجوع الى الله فكيف يليق هذا الوصف بمن قلبه مشغول بالفسق والفجور الصفة الخامسة قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه يسبحن افترى انه سخرت له الجبال ليتخذه سبيل القتل والفجور الصفة السادسة قوله تعالى والطير محشورة قيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير فكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولا يجوز امن الرجل المسلم على روحه ومنكوحه الصفة السابعة قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا بل المراد انا ملكناه بقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لم يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك الصفة الثامنة قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علما وعملا فكيف يجوز أن يقال انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على ما يستنكف من مزاحمة أخص أصحابه فى الروح والمنكوح فهذه الصفات التى وصف بها قبل شرح القصة وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فأولها قوله تعالى وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقوله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فكيف ان الله تعالى يجعله خليفة ويقع منه ذلك وقد روى عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص فاجلدوه مائة جلدة وستين وهو حد الفرية أى الكذب على الانبياء ومما يقوى هذا انهم قالوا ان المغيرة بن شعبة زنا وشهد ثلاثة من الصحابة بذلك وأما الرابع فلم يقل انى رأيت ذلك بعينى فان عمر رضى الله عنه كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد

منهم

منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا فاذا كان هذا الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الانبياء عليهم السلام فثبت بما ذكرنا أن القصة التي ذكرها هؤلاء باطلة لا يجوز ذكرها قال الرازى حضرت في مجلس وفيه بعض الاكابر فكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة بسبب اقتضى ذلك فقلت له لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الانبياء والرسل وقال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه وأيضا بتقدير أنه ما كان نبيا فلا شك أنه كان مسلما وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير وذكرت له أشياء أخر قال فسكت ولم يذكر شيأ (فان قيل) قد ذكر هذه القصة كثير من المحدثين والمفسرين (أجيب) بأنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القطعية واجبا والمحققون يردون هذا القول ويحكمون عليه بالكذب وأما القول الثاني فقالوا تحمل هذه القصة على حصول الصغيرة لا على حصول الكبيرة وذلك من وجوه الاول ان هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود عليه السلام فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه الثاني قالوا انه وقع بصره عليها فمال قلبه اليها وليس له في هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها بغير قصد فليس بذنب وأما حصول الميل عقب النظر فليس أيضا ذنبا لان الميل ليس في وسعه فليس مكلفا به بل لما اتفق أنه قتل زوجها تزوج بها الثالث انه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق زوجته حتى يتزوجها وكانت عادة مألوفة معهودة في هذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له ذلك وان كان جائزا في ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك فان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملت هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى واما القول الثالث فقال تحمل هذه القصة على وجه لا يلزم منه ايجاب كبيرة ولا صغيرة لداود عليه السلام بل يوجب أعظم أنواع المدح والثناء له وهو أنه قد روى ان جماعة من الاعداء طمعوا في ان يقتلوا نبي الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل فيه بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما تمنعهم منه فخافوا ووضعوا كذبا وقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة فعلم غرضهم وقصد أن ينتقم منهم وظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى له فاستغفر ربه مما هم به وأناب (فان قيل) ههنا أربعة ألفاظ يمكن أن يحتج بها في الحاق الذنب بداود عليه السلام أحدها قوله تعالى وظن داود أنما فتناه وثانيها قوله تعالى فاستغفر ربه وثالثها قوله تعالى وأناب ورابعها قوله تعالى فغفرنا له ذلك (أجيب) بأن هذه الالفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكر لاحتمال أن تكون الزلة انما حصلت من باب ترك الافضل والاولى كما مر وحمل هذه الالفاظ

على هذا الوجه لا يلزم منه اسناد شيء من الذنوب اليه بل ذلك يوجب اسناد أعظم الطاعات اليه وقيل ان ذنبه المبادرة الى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسئلته وهنالك أشياء كثيرة ذكرها البغوي وغيره وفيما ذكرناه كفاية (فغفرنا له ذلك) أي ما استغفر منه (وان له عندنا لزلفى) أي زيادة خير في الدارين بعد المغفرة (وحسن مآب) أي مرجع في الجنة

* ولما تم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أن الله تعالى فوض الى داود خلافة الارض بقوله تعالى (يا داود انا جعلناك خليفة في الارض) أي تدبر أمر العباد بأمرنا وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الاول كما مر لان من البعيد جدا أن يوصف الرسول بكونه ساعيا في سفك دماء المسلمين رغبة في انتزاع أزواجهم من أيديهم ثم يذكر عقبه أن الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم في تفسير كونه خليفة وجهان أحدهما جعلناك تخلف من تقدمك من الانبياء في الدعاء الى الله تعالى وفي سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك انما يعقل في حق من تصح عليه الغيبة وذلك على الله تعالى محال ثانيهما انا جعلناك ملكا في الناس نافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خليفة الله تعالى في أرضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله تعالى فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة للزوم نفاذ الحكم في تلك الحقيقة (فاحكم بين الناس) أي الذين يتحاكمون اليك من أي قوم كانوا (بالحق) أي بالعدل لان الاحكام اذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات واذا كانت الاحكام على وفق الاهوية وتحصيل مقاصد الانفس أفضى ذلك الى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه والمرج في الخلق وذلك يفضي الى هلاك ذلك الحاكم ولهذا قال تعالى (ولا تتبع الهوى) أي لا تمل مع ما تشتهي اذا خالف أمر الله تعالى ثم سبب عنه قوله تعالى (فيضلك) أي ذلك الاتباع أو الهوى (عن سبيل الله) لان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب (ان الذين يضلون عن سبيل الله) أي عن الايمان بالله تعالى (لهم عذاب شديد بما نسوا) أي بسبب نسيانهم (يوم الحساب) أي المرتب عليه تركهم الايمان ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا وقال الزجاج بتركهم العمل لذلك اليوم وقال عكرمة والسدي في الآية تقديم وتأخير تقديره لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا أي تركوا القضاء بالعدل (وما خلقنا السماء) التي ترونها (والارض وما بينهما) أي مما تحسون به من الرياح وغيرها خلقا (باطلا) أي عبثا قال الله تعالى أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون

* (تنبيه) * احتج أهل السنة بأن هذه الآية تدل على أنه تعالى خالق كل ما بين السماء والارض وأعمال العباد مما بين السماء والارض فوجب أن يكون تعالى خالقا لها ودلت على صحة القول بالحشر والنشر لانه تعالى لما خلق الخلق في هذا العالم فاما أن يكون خلقهم للاضرار والانتفاع أو لا لشيء والاول باطل لان ذلك لا يليق بالرحيم الكريم والثالث أيضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا أن يقال خلقهم للانتفاع وذلك الانتفاع

اما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل الضرر الكثير لوجدان المنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ولما بطل هذا القول ثبت القول بوجود حياة بعد هذه الحياة الدنيا وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة *(تنبيه)* يجوز فى باطلا أن يكون نعتا لمصدر محذوف أو حالا من ضميره أى خلقا باطلا وأن يكون حالا من فاعل خلقنا أى مبطلين أو ذوى باطل وان يكون مفعولا من أجله أى للباطل وهو العبث (ذلك) أى خلق ماذكر لا لشئ (ظن الذين كفروا) أى أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شئ وأنه لا بعث ولا حساب (فويل) أى هلاك عظيم بسبب هذا الظن أو واد فى جهنم (للذين كفروا) أى مطلقا بهذا الظن وغيره من أى شرك كان (من النار) لان من أنكر الحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله تعالى فى خلق السموات والارض * ونزل لما قال كفار مكة للمؤمنين انا نعطى فى الآخرة مثل ما تعطون (أم نجعل) أى على عظمتنا (الذين آمنوا) أى امتثالا لاوامرنا (وعملوا الصالحات) تحقيقا لايمانهم (كالمفسدين) أى المطبوعين على الفساد والراسخين فيه (فى الارض) أى بالكفر وغيره لم نجعلهم مثلهم وأم منقطعة والاستفهام فيها لانكار التسوية بين الحزبين التى هى من لوازم خلقهما باطلا ليدل على نفيه وكذا التى فى قوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) كرر الانكار الاول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم وقوله تعالى (كتاب) خبر مبتدا مضمر أى هذا كتاب ثم وصفه بقوله تعالى (أنزلناه) أى بمالنا من العظمة (اليك) يا أشرف الخلق (مبارك) أى كثير خيره ونفعه وقوله تعالى (ليدبروا) أصله ليتدبروا وأدغمت التاء فى الدال (آياته) أى ليتفكروا فى أسراره العجيبة ومعانيه اللطيفة فيأتمروا بأوامره ومناهيه فيؤمنوا (وليتذكر) أى وليتعظ به (أولو الالباب) اى أصحاب العقول* القصة الثانية قصة سليمان عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (ووهبنا) أى بمالنا من العظمة (لداود سليمان) ابنه فجاء عديم النظير فى ذلك الزمان دينا ودنيا وعلما وحكمة وعظمة ورحمة والمخصوص بالمدح فى قوله تعالى (نعم العبد) محذوف أى سليمان وقيل داود (انه أواب) أى رجاع الى التسبيح والذكر فى جميع الاوقات (اذ) أى اذكر اذ (عرض عليه) أى سليمان وقوله تعالى (بالعشى) وهو ما بعد الزوال الى الغروب وقوله تعالى (الصافنات) أى الخيل العربية الخالصة جمع صافنة وفيه خلاف بين أهل اللغة فقال الزجاج هو الذى يقف على احدى يديه ويقف على طرف سنبكه وقد يفعل ذلك باحدى رجليه قال وهى علامة الفراهة فيه وأنشد

ألف الصفون فلا يزال كأنه * مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما وقيل هو القائم مطلقا أى سواء كان من الخيل أم من غيرها قاله القتيبى واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم من سره أن تقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار أى يديمون له القيام وجاء فى الحديث قمنا صفونا أى صافين أقدامنا

وقيل هو قيام الخيل مطلقا أي سواء وقف على طرف سنبكه أم لا قال الفراء على هذا
رأيت أشعار العرب واختلف أيضا في قوله تعالى (الجياد) فهي إما من الجودة ويقال جاد
الفرس يجود جودة وجودة بالفتح والضم فهو جواد للذكر والانثى وهو الذي يجود في جريه
بأعظم ما يقدر عليه والجمع جياد وأجواد وأجاويد وقيل جمع جود بالفتح كثياب وثوب
وإما من الجيد وهو العنق والمعنى طويلة الاجياد وهو دال على فراهتها قال الكلبي
غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه
داود ألف فرس وقال عوف عن الحسن بلغني انها كانت خيلا خرجت من البحر لها
أجنحة وعن عكرمة أنها كانت عشرين ألف فرس لها أجنحة فصلى سليمان الصلاة الاولى
التي هي الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه منها تسعمائة فرس فتنبه لصلاة العصر
فاذا الشمس قد غربت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك هيبة له فاغتم لذلك (فقال اني أحببت)
أي أردت (حب الخير) أي الخيل (عن ذكر ربي) أي صلاة العصر (حتى توارت) أي
الشمس (بالحجاب) أي استترت بما يحجبها عن الابصار (ردوها علي) أي الخيل المعروضة
وقيل الضمير يرجع للشمس قال الرازي وهذا بعيد لوجوه الاول ان الصافنات مذكورة
بالصريح والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور أولى من عوده الى المقدر
وثانيها أنه لو اشتغل بالخيل حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العصر كان ذلك ذنبا عظيما ومن
كان هذا حاله فطريقه التضرع والبكاء والمبالغة في اظهار التوبة فأما أن يقول على سبيل
العظمة لرب العالمين مثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقب ذلك الجرم
العظيم الذي لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده للرسول عليه السلام
المطهر المكرم ثالثها أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لصار ذلك مشاهدا لكل أهل الدنيا
ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقل علمنا فساده انتهى قال أكثر المفسرين
فلما ردوا الخيل اليه أقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف أخذا من قوله تعالى (فطفق
مسحا) أي فأخذ يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) أي سوقها وأعناقها يقطعها
من قولهم مسح علاوته اذا ضرب عنقه قالوا فعل ذلك تقربا الى الله تعالى وطلبا لمرضاته حيث
اشتغل عن طاعته وكان ذلك مباحا له وان كان حراما علينا كما أبيح لنا ذبح بهيمة الانعام وبقي
منها مائة فرس فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل من نسل تلك المائة قال الحسن
فلما عقر الخيل أبدله الله تعالى خيرا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء قال
الرازي وهذا عندي بعيد لوجوه الاول أنه لو كان مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى
فامسحوا برؤسكم أي اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم
منه ضرب العنق أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح الثاني ان
القائلين بهذا القول أجمعوا على أن لسليمان عليه السلام أنواعا من الافعال المذمومة فأولها
ترك الصلاة وثانيها انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا حتى نسي الصلاة وقال صلى الله عليه

وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة وثالثها انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة ورابعها أنه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يقولها الرجل الحصيف الا مع الخادم الخسيس وخامسها انه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذبح الحيوان الا لأكله وهذه أنواع من الكبائر ينسبونها الى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شئ منها وخلاصتها ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بالغوا في السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ثم ذكر عقبه قصة سليمان عليه السلام فقال تعالى ووهبنا لداود سليمان الآية والتقدير أنه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم يا محمد اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يليق اذا قلنا ان سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله تعالى وأعرض عن الشهوات واللذات فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع انه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب لم يكن ذكر هذه القصة لائقا قال والصواب ان نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه في دينهم كما هو في دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر انى لا أجريها لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما أجريها لامر الله تعالى وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ثم انه عليه السلام أمر باجرائها وسيرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ثم انه أمر الرائضين ان يردوها فردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك أمور الاول تشريفها وابانة اعزازها لكونها من أعظم الاعوان في دفع العدو الثانى أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر أكثر الامور بنفسه الثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وامراضها وعيوبها فكان يمسها ويمسح لها سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير هو الذى ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزم منه نسبة شئ من المنكرات الى سليمان عليه السلام والعجب منهم كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها وليس لهم في اثباتها شبهة فضلا عن حجة قال فان قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه فالجواب أن نقول لفظ الآية لا يدل على شئ من تلك الوجوه التى يذكرونها لما ذكرنا وأيضا فان الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يدل على صحة هذه الحكايات دليل قطعى ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات من أقوام لا يلتفت الى أقوالهم والذى ذهبنا اليه قول الزهرى وابن كيسان اه وقد يجاب من جهة الجمهور ان ما نسبه اليهم ممنوع وبيان ذلك أن قوله اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح يقال القرينة كافية في ذلك وقوله انهم جمعوا أنواعا مذمومة أولها ترك

الصلاة انما يكون ذلك مذموما اذا تركهما متعمدا ولم يكن ذلك بل نسيها وقد نام صلى الله عليه وسلم فى الوادى حتى طلعت الشمس وقضى الصبح والنسيان والنوم لا مؤاخذة فيهما وقوله ثانيها انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا انما اشتغل بذلك لامر الجهاد وهو مطلوب فى حقه وقوله ثالثها انه لم يشتغل بالتوبة يقال انه لم يأت بذنب وقوله رابعها انه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على ممنوع والمخاطب انما هو جماعته وقوله خامسها الى ان قال وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن عقر الحيوان قد مر عنهم أن ذلك كان مباحا له فليس فيما قالوه نسبة سليمان عليه الصلاة والسلام الى معصية فلو قال الاولى ان يقال كذا كان أولى وقرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين وقيل عنه أيضا بضم الهمزة وواو بعدها واختلف فى سبب الفتنة التى وقعت لسليمان عليه السلام فى قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا) أى بما لنا من العظمة (على كرسيه جسدا ثم أناب) فقال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه قال سمع سليمان بمدينة فى جزيرة من جزائر البحر وكان الله تعالى قد أعطى سليمان فى ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شئ فى بر ولا بحر انما يركب اليه الريح فخرج الى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والانس فأخذها وقتل ملكها وسبا ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها الى الاسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه وأحبها حبا لم يحبه شيأ من نسائه وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان عليه السلام فقال لها ويحك ما هذا الحزن قالت له ان أبى أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصاب فيحزننى ذلك فقال لها سليمان عليه السلام قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه وسلطانا هو أعظم من سلطانه وهداك الى الاسلام وهو خير من ذلك كله قالت ان ذلك كذلك ولكن اذا ذكرته أصابنى ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته فى دارى أراها بكرة وعشيا لرجوت أن يذهب ذلك حزنى فأمر سليمان عليه السلام الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فعمدت اليه حين صنعوه وألبسته ثيابا مثل ثيابه التى كان يلبسها ثم كانت اذا خرج سليمان عليه السلام تذهب اليه مع ولائدها فتسجد له ويسجدن معها له تعالى كما كانت تصنع فى ملكه وسليمان عليه السلام لا يعلم بشئ من ذلك أربعين صباحا فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقا لسليمان عليه السلام وكان لا يرد عن أبواب سليمان عليه السلام أى ساعة أراد دخول شئ من بيوت سليمان عليه السلام حاضرا كان سليمان عليه السلام أو غائبا فقال يا نبى الله كبر سنى ورق عظمى ونفد عمرى وقد حان منى الذهاب وقد أحببت ان أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأثنى عليهم بعلمى فيهم وأعلم الناس ببعض ما كانوا يجهلون من كثير أمرهم فقال افعل فجمع سليمان عليه السلام الناس فقام فيهم خطيبا فذكر من مضى من أنبياء الله تبارك وتعالى وأثنى على كل نبى بما فضله الله به حتى انتهى الى سليمان عليه السلام فقال ما كان أحكمك فى صغرك ثم انصرف فوجد سليمان عليه السلام فى نفسه من ذلك حتى امتلأ غضبا فلما دخل داره

دعاء فقال يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيرا فى كل زمانهم وكل حال أمرهم فلما ذكرتنى جعلت تثنى على خيرا فى صغرى وسكت عما سوى ذلك من أمرى فما الذى أحدثت فى آخر عمرى فقال آصف ان غير الله تعالى يعبد فى دارك فقال سليمان عليه السلام انا لله وانا اليه راجعون لقد عرفت انك ما قلت الذى قلت الا عن شئ بلغك ثم رجع سليمان عليه السلام الى داره فكسر الصورة وعاقب تلك المرأة وولائدها وخرج وحده الى فلاة ففرش الرماد وجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له أم ولد يقال لها الامينة اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فيه فوضعه عندها يوما فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان عليه السلام وقال لها يا أمينة خاتمى فناولته الخاتم وتختم به وجلس على كرسى سليمان عليه السلام فعكف عليه الطير والجن والانس وتغيرت صفة سليمان عليه السلام فأتى الامينة يطلب الخاتم فأنكرته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه وأخذ ينقل السمك للسماكين فيعطونه كل يوم سمكتين فاذا أمسى باع احداهما بأرغفة وشوى الاخرى فأكلها فمكث كذلك أربعين صباحا مدة ما كان عبد الوثن فى داره فأنكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان عليه السلام فقلن ما يدع امرأة فى دمها ولا يغتسل من جنابة فقال آصف انا لله وانا اليه راجعون ان هذا هو البلاء المبين ثم خرج على بنى اسرائيل فقال ما فى الخاصة أعظم مما فى العامة فلما مضى أربعون صباحا طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان عليه السلام بسمكتين صدر يومه ذلك حتى اذا كان العشى أعطاه سمكتيه فأعطى السمكة التى أخذت الخاتم وخرج سليمان عليه السلام بسمكتيه فباع السمكة التى ليس فى بطنها الخاتم بالارغفة ثم عمد الى السمكة الاخرى فبقرها ليشويها فاستقبله الخاتم فى جوفها فأخذه فجعله فى يده ووقع ساجدا وعكفت عليه الطير والجن والانس ورجع الى ملكه وأخذ ذلك الشيطان وحبسه فى صخرة وألقاه فى البحر هذا ملخص حديث وهب وقال الحسن ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه وقال السدى كان سبب فتنة سليمان عليه السلام أنه كانت له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهى آثر نسائه وآمنهن عنده وكان يأتمنها على خاتمه اذا أتى حاجته فقالت له يوما ان أخى بينه وبين فلان خصومة فأحب أن تقضى له فقال نعم ولم يفعل فابتلى بقوله نعم وذكر نحو ما تقدم وفى بعض الروايات ان سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأعاده سليمان عليه السلام الى يده فسقط فأيقن سليمان عليه السلام بالفتنة فأتاه آصف فقال لسليمان عليه السلام انك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك فى يدك ففر الى الله تعالى تائبا فانى أقوم مقامك وأسير بسيرتك الى أن يتوب الله تعالى عليك ففر سليمان عليه السلام الى الله تعالى وأعطى آصف الخاتم فوضعه فى يده فثبت فأقام آصف فى ملك سليمان عليه السلام يسير بسيره أربعة عشر يوما الى أن رد الله تعالى على سليمان عليه السلام ملكه وتاب عليه ورجع الى ملكه وجلس على سريره وأعاد الخاتم فى يده فهو الجسد

الذي ألقي على كرسيه وروى عن سعيد بن المسيب قال احتجب سليمان عليه السلام عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى اليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله عز وجل وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم وأخذ الشيطان اياه قال الرازي واستبعد أهل التحقيق هذا الكلام من وجوه الاول ان الشيطان لو قدر على ان يتشبه في الصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من ذلك فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس على صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لاجل الاغواء والاضلال وذلك يبطل الدين بالكلية الثاني أن الشيطان لو قدر أن يعامل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ يجب أن يقتلهم ويمزق تصانيفهم ويخرب ديارهم ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلان يبطل في حق اكابر الانبياء أولى الثالث كيف يليق بحكمة الله تعالى واحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان عليه السلام ولا شك أنه قبيح أي على غيره أي الحسن كامر الرابع لو قلنا ان سليمان عليه السلام أذن لتلك المرأة في عبادتها تلك الصورة فهذا كفر منه وان لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله تعالى سليمان عليه السلام بفعل لم يصدر منه أي وقد يقال انما أوخذ بذلك لكونه كان سببا في عملها قال فأما أهل التحقيق فقد ذكروا وجوها الاول أن فتنة سليمان عليه السلام أنه ولد له ابن فقالت الشياطين ان عاش صار مسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان عليه السلام ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو يشتغل بمهماته اذ ألقي ذلك الولد ميتا على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يثق ولم يتوكل على الله تعالى فاستغفر ربه وتاب الثاني روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان لاطوفن الليلة على سبعين امرأة كل امرأة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل منهن الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله تعالى لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعين فذلك قوله تعالى ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا الثالث انه أصابه مرض فصار يجلس على كرسيه وهو مريض فذلك قوله تعالى وألقينا على كرسيه جسدا وذلك لشدة المرض والعرب تقول في الضعيف انه لحم على وضم وجسم بلا روح ثم أناب أي رجع الى حال الصحة أي وهذا أظهر ما قيل كما قاله البيضاوي الرابع لا يبعد أيضا أن يقال انه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو وقوع بلاء توقعه من بعض الجهات حتى صار بقوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ثم ان الله تعالى أزال عنه ذلك الخوف وأعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة الى حمله على تلك الوجوه الركيكة (فان قيل) لولا تقدم الذنب لما (قال رب اغفر لي) (أجيب) بأن الانسان لا ينفك عن ترك الافضل وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولانه أبدا في مقام هضم النفس واظهار الندم والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم اني لاستغفر الله تعالى في اليوم والليلة سبعين

مرة مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى واختلف فى قول سليمان عليه السلام (وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى) أى سواى نحو فمن يهديه من بعد الله أى سوى الله فقال عطاء بن أبى رباح يريد هب لى ملكا لا تسلبنيه فى باقى عمرى (انك أنت الوهاب) وقال مقاتل ان الشيطان لما استولى على ملكه طلب أن يعطيه الله ملكا لا يقدر الشيطان على أن يقوم فيه مقامه البتة وقال من أنكر أن الشيطان لم يستول على ذلك ان ذلك محتمل لوجوه الاول أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى ويدل على صحة هذا القول قوله تعالى (فسخرنا) أى بما لنا من العظمة (له الريح تجرى بأمره رخاء) أى حالة كونها لينة غاية اللين منقادة يدرك بها ما لا تدرك الخيل غدوها شهر ورواحها شهر (حيث أصاب) أى أراد فكون الريح جارية بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب دال على صحة نبوته لا يقدر أحد على معارضته وقد جعل الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك وهو أن العدو يرعب منه الى مسيرة شهر من جوانبه الاربعة فهى أربعة أشهر الثانى انه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة عرف ان خيرات الدنيا صائرة الى التغيرات فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منى الى غيرى الثالث ان الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة فكأنه قال يا الهى أعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل الرابع سأل ذلك ليكون علامة على قبول توبته حيث أجاب الله تعالى دعاءه ورد عليه ملكه وزاده فيه وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عفريتا من الجن أتانى الليلة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا اليه فذكرت دعوة أخى سليمان وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى فرددته خاسئا فعلم من هذه الاوجه أنه ليس فى كلام سليمان عليه السلام ما يشبه الحسد وهو طلب ما لا ينبغى لاحد غيره وأجاب الزمخشرى بأجوبة غير ذلك منها أن سليمان عليه السلام كان ناشئا فى بيت الملك والنبوة ووارثا لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب الفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الاعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته قاهرا للمبعوث اليهم ثم قال وعن الحجاج أنه قيل له انك حسود فقال احسد منى من قال وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى قال وهذا من جراءته على الله تعالى وشيطنته ومن شيطنته ما حكى عنه طاعتنا أوجب من طاعة الله لانه شرط فى طاعته فقال فاتقوا الله ما استطعتم وأطلق فى طاعتنا فقال وأولى الامر منكم (فان قيل) قوله تعالى رخاء ينافيه قوله تعالى فى آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة (أجيب) عن ذلك بوجهين الاول أن المراد أن تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة الا أنها لما أمرت بأمره كانت لذيذة طيبة وكانت رخاء الثانى أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى فلا منافاة بين الآيتين * (تنبيه) * قوله تعالى حيث ظرف لتجرى أو لسخرنا * (فائدة) *

روى أن رجلين خرجا يقصدان رؤيته يسألانه عن معنى أصاب فقال لهما أين تصيبان فعرفا وقالا هذا بغيتنا وقوله تعالى (والشياطين) عطف على الريح وقوله تعالى (كل بناء) بدل من الشياطين كانوا يبنون له ماشاء من الابنية روى ان سليمان عليه السلام أمر الجان فبنت له اصطخر وكان فيها قرار مملكة الترك قديما وبنت له الجان أيضا تدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الاقوال وبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسلحين وبينون ومدينة صنعاء وقوله تعالى (وغوص) عطف على بناء أى يغوصون له فى البحر يستخرجون اللؤلؤ وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر وقوله تعالى (وآخرين مقرنين) أى مشدودين (فى الاصفاد) أى القيود بجمع أيديهم الى أعناقهم عطف على كل فهو داخل فى حكم البدل فكانه فصل الشياطين الى عملة استعملهم فى الاعمال الشاقة كالبناء والغوص ومردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل ليكفوا عن الشر (فان قيل) أجسامهم اما أن تكون كثيفة أو لطيفة فان كانت كثيفة وجب ان يراها صحيح الحاسة وان كانت لطيفة فلا تقوى على العمل ولا يمكن تقرينها (أجيب) بأن أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى وتقوى على العمل ويمكن تقرينها (اجيب) بان اجسامهم شفافة صلبة فلا ترى وتقوى على العمل ويمكن تقرينها أو ان المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالاقران فى الصفد وهو القيد ويسمى به العطاء لانه يربط المنعم عليه وفرقوا بين فعل الصفد بمعنى القيد وفعله بمعنى العطاء فقالوا اصفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد فى الخير والشر وفى ذلك نكتة وهى ان القيد ضيق فناسبه تقليل حروف فعله والعطاء واسع فناسبه تكثير حروف فعله والوعد خير وهو خفيف فناسبه تقليل حروفه والايعاد شر وهو ثقيل فناسبه تكثير حروفه (هذا) أى وقلنا هذا الامر الكبير (عطاؤنا) أى على مالنا من العظمة (فامنن أو أمسك) قال ابن عباس رضى الله عنهما أعط من شئت وامنع من شئت قال المفسرون أى لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما امسكت وقال الحسن ما أنعم الله تعالى على أحد نعمة الا عليه تبعة الا سليمان عليه السلام فانه ان أعطى أجر وان لم يعط لم يكن عليه تبعة وقال مقاتل هذا فى أمر الشياطين يعنى خل من شئت منهم وأمسك من شئت فى وثاقك لا تبعة عليك فيما تتعاطاه وقوله تعالى (بغير حساب) فيه ثلاثة أوجه أحدها أنه متعلق بعطاؤنا أى أعطيناك بغير حساب ولا تقدير وهو دال على كثرة الاعطاء ثانيها أنه حال من عطاؤنا أى فى حال كونه غير محاسب عليه لانه جم كثير يعسر على الحاسب ضبطه ثالثها أنه متعلق بامنن أو أمسك ويجوز أن يكون حالا من فاعلهما أى غير محاسب عليه * ولما ذكر تعالى ما أنعم عليه به فى الدنيا اتبعه بما أنعم عليه به فى الآخرة بقوله سبحانه وتعالى (وان له عندنا) أى فى الآخرة مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا (لزلفى) أى قربى عظيمة (وحسن مآب) وهو الجنة القصة الثالثة قصة أيوب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر عبدنا) أى الذى هو أهل للاضافة الى جنابنا ويبدل منه (أيوب) وهو ابن الروم بن عيص بن اسحق وامرأته ليا بنت يعقوب عليهما السلام وقوله

قوله وهو ابن الروم الخ كذا فى النسخ وفى حاشية الجمل عن البيضاوى أيوب بن عيصو بن اسحق ثم نقل عن التحبير أيوب هو ابن اموص ابن رعيل بن عيص ابن اسحق وقال فى سورة الانعام أيوب بن أموص ابن رازح بن عيص ابن اسحق بن ابراهيم اه

تعالى

تعالى (اذ نادى ربه) بدل من عبدنا بدل اشتمال وأيوب عطف بيان له وقوله (انى) أى بأنى
(مسنى الشيطان) أى المحترق باللعنة البعيد من الرحمة (بنصب) أى بمشقة وضر (وعذاب)
أى ألم جىء به على حكاية كلامه الذى نادى بسببه ولو لم يحكه لقيل انه مسه لانه غائب وقال قتادة
رضى الله عنه النصب فى الجسد والعذاب فى المال واختلف العلماء فى هذه الآلام والاسقام
الحاصلة فى جسده على قولين أحدهما أنها حصلت بفعل الشيطان والثانى أنها حصلت بفعل
الله تعالى والعذاب المضاف فى هذه الآية الى الشيطان هو عذاب الوسوسة والقاء الخواطر
الفاسدة أما تقرير القول الاول فهو ما روى أن ابليس لعنه الله سأل ربه فقال هل فى عبيدك
من لو سلطتنى عليه يمتنع منى فقال الله تعالى نعم عبدى أيوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى
ابليس عيانا ولا يلتفت اليه فقال رب انه قد امتنع على فسلطنى على ماله فكان الشيطان يجيئه
ويقول له يا أيوب هلك من مالك كذا وكذا فيقول أيوب له الله أعطى والله أخذ ثم يحمد الله
سبحانه وتعالى فقال يارب ان أيوب لا يبالى بماله فسلطنى على جسده فأذن فيه فنفخ فى جلد
ايوب فحدث أسقام عليه وآلام شديدة فمكث فى ذلك البلاء سنين حتى استقذره أهل بلده فخرج
الى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان الى امرأته وقال ان زوجك ان استغاث بى
خلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله تعالى ليجلدنها مائة
جلدة وعند هذه الواقعة قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب فأجاب الله تعالى دعاءه
وأوحى اليه ان اركض برجلك الى آخر الآية وأما تقرير القول الثانى فان الشيطان لا قدرة
له البتة على ايقاع الناس فى الامراض والاسقام ويدل عليه وجوه الاول أنا لو جوزنا حصول
الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا انما وجد الحياة بفعل
الشيطان ولعل ما عندنا من الخيرات والسعادات قد حصل بفعله وحينئذ لا سبيل الى معرفة
من يعطى الحياة والموت والصحة والسقم أهو الله تعالى أم الشيطان ثانيها أن الشيطان
لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الانبياء والاولياء ولم لا يخرب دورهم ولم لا يقتل أولادهم
ثالثها أن الله تعالى حكى عن الشيطان أنه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم
فاستجبتم لى فصرح بأنه لا قدرة له على البشر الا بالقاء الوساوس والخواطر الفاسدة فدل
ذلك على فساد القول بأن الشيطان هو الذى ألقاه فى تلك الامراض (فان قيل) لم لا يجوز
أن يقال ان الفاعل لهذه الاحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان (أجيب)
بأنه اذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والاسقام هو الله تعالى فأى فائدة
فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك بل الحق أن المراد بقوله انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب
انه بسبب القاء الوساوس الفاسدة كان يلقيه فى أنواع العذاب والقائلون بهذا القول اختلفوا
فى أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا أوجها أولها أن علته كانت شديدة الالم ثم طالت تلك
العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له مال البتة وامرأته كانت تخدم
الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه الى أن منعوا امرأته من الدخول

عليهم ومن خدمتهم والشيطان كان يذكره النعمة التى كانت عليه والآفات التى حصلت له وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس * فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع الى الله تعالى وقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب لانه كلما كثرت تلك الخواطر كان تألم قلبه منها أشد ثانيها أنه لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان ليقنطه مرة ويزلزله ليجزع مرة فخاف من خاطر القنوط فى قلبه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان ثالثها قيل ان امرأته كانت تخدم الناس وتأخذ منهم قدر القوت وتجىء به الى أيوب عليه السلام فاتفق لها أنهم لما استخدموها طلبت بعض النساء منها قطع احدى ذؤابتيها على ان تعطيها قدر القوت ففعلت ثم فى اليوم الثانى فعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام اذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر الرديئة فى قلبه فعند ذلك قال مسنى الشيطان بنصب وعذاب رابعها روى انه عليه السلام قال فى بعض الايام يارب لقد علمت أنى ما اجتمع على أمران الا آثرت طاعتك ولما أعطيتنى المال كنت للارامل قيما ولابن السبيل معينا ولليتامى أبا فنودى يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ أيوب عليه السلام التراب فوضعه على رأسه وقال منك يارب ثم خاف من الخواطر الاولى فقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب وذكروا أقوالا أخر فى سبب بلائه منها ان رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه وقيل كانت مواشيه ترعى فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يعظه وقيل أعجب بكثرة ماله واعلم أن داود وسليمان عليهما السلام كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء وأيوب عليه السلام كان ممن خصه الله بأنواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كأن الله تعالى قال يا محمد اصبر على سفاهة قومك فانه ما كان فى الدنيا أكثر من الانبياء نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما السلام وما كان فيهم أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه السلام فتأمل أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لاحد وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره * ولما اشتكى أيوب عليه السلام الشيطان وسأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية أجاب الله تعالى له بأن قال له (اركض) أى اضرب (برجلك) أى الارض فضرب فنبعت عين ماء فقيل له (هذا مغتسل بارد) أى ماء تغتسل منه فيبرأ ظاهرك (وشراب) أى وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء فاغتسل منه وشرب منه وأكثر المفسرين قالوا نبعت له عينان فاغتسل من احداهما وشرب من الاخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه باذن الله تعالى وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها وقيل ضرب الارض فنبعت له عين ماء فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فركض برجله الارض مرة أخرى فنبعت عين ماء عذب فشرب منه فذهب كل داء كان فى باطنه (ووهبنا) اى بمالنا من العظمة (له أهله) أى بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم وقيل وهبنا له مثل أهله والاول هو ظاهر الآية فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة (ومثلهم معهم) حتى

كان له ضعف ما كان وقوله تعالى (رحمة) أى نعمة (منا) مفعول لاجله أى وهبناهم له لاجل رحمتنا اياه (وذكرى) أى وتذكيرا بحاله (لاولى الالباب) أى أصحاب العقول ليعلموا ان من صبر ظفر وأن رحمة الله تعالى واسعة وهو عند القلوب المنكسرة فما بينه وبين الاجابة الاحسن الانابة فمن دام اقباله عليه أغناه عن غيره كما قيل

لكل شئ اذا فارقته عوض * وما عن الله ان فارقت من عوض

وهذا تسليه لنبيه صلى الله عليه وسلم كما مر وقوله تعالى (وخذ بيدك ضغثا) معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش والقضبان فيها مائة عود كشمراخ النخلة وقيل الحزمة الكبيرة من القضبان وقوله سبحانه وتعالى (فاضرب به ولا تحنث) يدل على تقدم يمين منه عليه الصلاة والسلام واختلفوا فى سبب حلفه عليها ويبعد ما قيل انها رغبته فى طاعة الشيطان ويبعد أيضا ما روى أنها قطعت ذؤابتيها لان المضطر يباح له ذلك بل الاقرب ما روى أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افرائيم بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت عليه فحلف فى مرضه ليضربنها مائة اذا برئ * ولما كانت حسنة الخدمة جعل الله تعالى يمينه بأهون شئ عليه وعليها وهذه الرخصة باقية فى الحدود لما روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى برجل ضعيف قد زنا بأمة فقال صلى الله عليه وسلم خذوا مائة شمراخ واضربوه بها ضربة واحدة (انا وجدناه صابرا) أى فيما أصابه فى النفس والاهل والمال (فان قيل) كيف وجده صابرا وقد شكا اليه (أجيب) بأوجه أحدها أن شكواه الى الله تعالى كتمنى العافية فلا يسمى جزعا ولهذا قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وكذلك شكوى العليل وذلك ان أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها فاذا صح أن يسمى صابرا مع تمنى العافية أفلا يعد صابرا مع اللجا الى الله تعالى والدعاء بكشف ما به مع التعالج ومشاورة الاطباء ثانيها أن الآلام حين كانت على الجسد لم يذكر شيأ فلما تعاظمت الوساوس على القلب تضرع الى الله تعالى ثالثها ان الشيطان عدو والشكاية من العدو الى الحبيب لا تقدح فى الصبر ويروى أنه قال فى مناجاته الهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ولم آكل الا ومعى يتيم ولم أبت شبعانا ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ثم استأنف قوله تعالى (نعم العبد) أى أيوب عليه السلام ثم علل بقوله تعالى مؤكدا لئلا يظن ان بلاءه قادح فى ذلك (انه أواب) أى رجاع الى الله تعالى روى أنه لما نزل قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان عليه السلام تارة وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم فى قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا ان قوله تعالى نعم العبد تشريف عظيم فان احتجنا الى تحمل بلاء مثل أيوب عليه السلام لم نقدر عليه فكيف السبيل الى تحصيله فأنزل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير والمراد أنك أيها الانسان ان لم تكن نعم العبد فأنا نعم المولى وان كان منك غير الفضل فأنا منى الفضل وان كان منك التقصير فمنى الرحمة والتيسير القصة الرابعة قصة ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام المذكورة

فى قوله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق) بن ابراهيم (ويعقوب) بن اسحق (أولى الايدى) أى أصحاب القوى فى العبادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما أولى القوة فى طاعة الله تعالى (والابصار) أى المعرفة بالله أى البصائر فى الدين أو أولى الاعمال الجليلة والعقائد الشرعية فعبر بالايدى عن الاعمال لان أكثرها بمباشرتها وبالابصار عن المعارف لانها أقوى عبادتها وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله تعالى ولا من المستبصرين فى دين الله وفيه توبيخ أيضا على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما فهم فى حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والناقصى العقول الذين لا استبصار لهم وقال قتادة ومجاهد اعطوا قوة فى العبادة وبصرا فى الدين وقرأ ابن كثير بفتح العين وسكون الباء الموحدة ولا ألف بعدها على التوحيد على أنه ابراهيم وحده لمزيد شرفه وابراهيم عطف بيان واسحق ويعقوب عطف على عبدنا والباقون بكسر العين وفتح الموحدة وألف بعدها على الجمع (انا أخلصناهم بخالصة) أى اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة لا شوب فيها وهى (ذكرى الدار) الآخرة أى ذكرها والعمل لها لان مطمح نظرهم الفوز بلقائه وذلك فى الآخرة واطلاق الدار للاشعار بانها الدار الحقيقية والدنيا معبر وقرأ نافع وهشام خالصة بغير تنوين بالاضافة للبيان أو ان خالصة مصدر بمعنى الخلوص فأضيف الى فاعله والباقون بالتنوين فمن أضاف فمعناه أخلصناهم بذكرى الدار الآخرة وأن يعملوا لها والذكرى بمعنى الذكر قال مالك بن دينار نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها وقال قتادة كانوا يدعون الى الآخرة والى الله عزوجل وقال السدى أخلصوا الخوف للآخرة وقال ابن زيد أخلصناهم بأفضل ما فى الآخرة ومن قرأ بالتنوين فمعناه بخلة خالصة هى ذكرى الدار فيكون ذكرى الدار بدلا من الخالصة أو جعلناهم مخلصين بما أخبرنا من ذكر الآخرة والمراد بذكرى الدار الذكر الجميل الرفيع لهم فى الآخرة وقيل انه أبقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقيل هو دعاؤه واجعل لى لسان صدق فى الآخرين (وانهم عندنا لمن المصطفين) أى اصطفاء لا يقدح فيه قادح فساروا فى غاية الرسوخ فى هذا الوصف (الاخيار) أى المختارين من أبناء جنسهم والاخيار جمع خير بالتشديد أو خير بالتخفيف كاموات فى جمع ميت أو ميت واحتج العلماء بهذه الآية على اثبات عصمة الانبياء عليهم السلام لانه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارا على الاطلاق وهذا يفهم حصول الخيرية فى جميع الافعال والصفات بدليل صحة الاستثناء منه القصة الخامسة قصة اسمعيل واليسع وذى الكفل عليهم السلام المذكورة فى قوله تعالى (واذكر) يا أشرف الخلق (اسمعيل) أى أباك وما صبر عليه من البلاء بالغربة والانفراد والوحدة والاشراف على الموت فى الله غير مرة وما صار اليه بعد ذلك البلاء من الفرج والرياسة والذكر فى هذه البلدة (واليسع) وهو ابن اخطوب استخلفه الياس على بنى اسرائيل ثم استنبئ واللام كما فى قوله * رأيت الوليد بن اليزيد مباركا * وقرأ حمزة والكسائى بتشديد اللام وسكون الياء بعدها والباقون بسكون اللام وفتح الياء بعدها (وذا الكفل)

وهو ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب واختلف في نبوته وكفلته فقيل فر اليه مائة نبي من بني اسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة (وكل) أي وكلهم (من الاخيار) فهم قوم خيرون من الانبياء تحملوا الشدائد في دين الله تعالى وصبروا فاذكرهم بأفضل الخلق بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقهم * ولما أجرى تعالى ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأتمه قال مؤكدا لشأنهم وشرف ماذكر من أعمالهم (هذا) أي ماتلوناه عليك من ذكرهم وذكر غيرهم (ذكر) أي شرف في الدنيا وموعظة من ذكر القرآن ذي الذكر ثم عطف على قوله تعالى ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ما لاضدادهم فقال تعالى ردا على من ينكر ذلك من كفار العرب وغيرهم (وان للمتقين لحسن مآب) أي مرجع * ولما شوق سبحانه الى هذا الجزاء أبدل منه أو بينه بقوله تعالى (جنات عدن) أي اقامة في سرور وطيب عيش ثم انه تعالى وصف أهل الجنة بأشياء أولها قوله تعالى (مفتحة لهم الابواب) أي ان الملائكة يفتحون لهم أبواب الجنة ويحيونهم بالسلام كما قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها الآية وقيل المعنى انهم كلما أرادوا انفتاح الابواب انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم * وقيل المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة وقرة العيون فيها ثانيها قوله تعالى (متكئين فيها) وقد ذكر في آيات أخر كيفية ذلك الاتكاء فقال تعالى في آية على الارائك متكئون وقال في آية أخرى متكئين على رفرف خضر ثالثها قوله تعالى (يدعون فيها) أي الجنات (بفاكهة كثيرة وشراب) أي كثير فيدعون فيها بألوان الفاكهة وألوان الشراب * ولما بين المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح تتميما للنعمة بقوله سبحانه تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أي حابسات الطرف أي العين على أزواجهن (أتراب) أي اسنانهن واحدة وهي بنات ثلاث وثلاثين سنة واحدها ترب وعن مجاهد متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن وقيل أتراب للازواج قال القفال والسبب في اعتبار هذه الصفة لما تشابهن في الصفة والسن والجبلة كان الميل اليهن على السوية وذلك يقتضي عدم الغيرة وقرأ قوله تعالى (هذا ما توعدون) ابن كثير وأبو عمرو بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب وجه الغيبة تقدم ذكر المتقين ووجه الخطاب الالتفات اليهم والاقبال عليهم أي قل للمتقين هذا ما توعدون (ليوم الحساب) أي في يوم الحساب أو لأجله فان الحساب علة الوصول الى الجزاء (ان هذا) أي المشار اليه اشارة الحاضر الذي لا يغيب (لرزقنا ماله من نفاد) أي انقطاع وهذا اخبار عن دوام هذا الثواب * (تنبيه) * من نفاد فاعل ومن مزيدة والجملة في محل نصب على الحال من رزقنا أي غير نافد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لان أي دائم * ولما وصف تعالى ثواب المؤمنين وصف بعده عقاب الظالمين ليكون الوعيد مذكورا عقب الوعد والترغيب عقب الترهيب بقوله تعالى (هذا وان للطاغين لشر مآب) أي مرجع هذا في مقابلة قوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب والمراد بالطاغين الكفار وقال الجبائي على مذهبه الفاسد هم أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارا أم لا واحتج الاول بأن هذا ذم

مطلق فلا يحمل الا على الكامل فى الطغيان وهو الكافر واحتج هو بقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى فدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل لصاحب الكبيرة لان من تجاوز حد تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ورد هذا بأن المراد بالانسان هنا هو الكافر أيضا * (تنبيه) * هذا يحتمل أن يكون مبتدأ والخبر مقدر أى كما ذكر كما قدره الزمخشري وقدره أبو على بقوله هذا للمؤمنين وقال الجلال المحلى هذا المذكورة للمؤمنين ويحتمل أن يكون خبر مبتدا مضمر أى الامر هذا وقوله تعالى (جهنم) أى الشديدة الاضطرام الملاقية لمن يدخلها بغاية العبوسة والتجهم فيه اعراب جنات المتقدم وقوله تعالى (يصلونها) أى يدخلونها فيباشرون شدائدها حال من جهنم (فبئس المهاد) أى المهد والفراش مستعار من فرش النائم وهذا معنى قوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه الله تعالى ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفرش للنائم والمخصوص بالذم محذوف أى هى وفى قوله تعالى (هذا) أى العذاب المفهوم مما بعده أوجه من الاعراب أحدها أنه خبر مبتدا مضمر أى الامر هذا ثم استأنف أمرا فقال (فليذوقوه) ثانيها انه مبتدأ وخبره (حميم وغساق) واسم الاشارة يكتفى بواحده فى المثنى كقوله تعالى عوان بين ذلك أو يكون المعنى هذا جامع بين الوصفين ويكون قوله تعالى فليذوقوه جملة اعتراضية ثالثها أنه مبتدأ والخبر محذوف اى هذا كما ذكر وهذا للطاغين وقيل غير ذلك وقيل هذا على التقديم والتأخير والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه وقيل التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول حميم وغساق أى منه حميم وغساق والحميم الحار الذى انتهى حره والغساق ما يسيل من صديد أهل النار وقال كعب هو عين فى جهنم يسيل اليها كل ذوب حية وعقرب وقال أبو عمرو هو القيح الذى يسيل من أهل النار فيجتمع فيسقونه وقال قتادة هو ما يغسق أى يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة وقيل هو المنتن بلغة الترك حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة بالمغرب لانتنت أهل المشرق وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتشديد السين والباقون بالتخفيف وقرأ أبو عمرو (وأخر) بضم الهمزة على جمع أخرى مثل الكبرى والكبر أى أصناف أخر من العذاب (من شكله) أى مثل المذكور من الحميم والغساق والباقون بفتح الهمزة ممدودة على التوحيد على أنه لما ذكر واختار أبو عبيدة الجمع لانه تعالى نعته بالجمع فقال سبحانه وتعالى (أزواج) أى أصناف أى عذابهم من أنواع مختلفة و يقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم (هذا فوج) أى جمع كثيف (مقتحم) أى داخل ومفعوله محذوف أى مقتحم النار (معكم) بشدة فيقول المتبوعون (لا مرحبا بهم) أى لا سعة عليهم أو لا سمعوا مرحبا وقولهم (انهم صالوا النار) أى داخلون النار بأعمالهم مثلنا تعليل لاستجابة الدعاء عليهم ونظير هذه الآية قوله تعالى كلما دخلت أمة لعنت أختها وقال الكلبى انهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم فى النار خوفا من تلك المقامع (قالوا) أى الاتباع (بل أنتم لا مرحبا بكم) أى ان الدعاء الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به منا وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه) أى الكفر (لنا) أى بدأتم به قبلنا وشرعتموه وسننتموه لنا

وقيل أنتم قدمتم هذا العذاب لنا بدعائكم ايانا الى الكفر (فبئس القرار) أى النار لنا ولكم (قالوا) أى الاتباع أيضا (ربنا من قدم لنا هذا) أى شرعه وسنه لنا (فزده عذابا ضعفا) أى مثل عذابه على كفره (فى النار) قال ابن مسعود يعنى حيات وأفاعى (وقالوا) أى الطاغون وهم فى النار (ما لنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار) يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب و بلال وسلمان الذين كانوا يسترذلونهم و يسخرون بهم وقولهم (اتخذناهم سخريا) صفة أخرى لرجالا أى كنا نسخر بهم فى الدنيا وقرأ نافع وحمزة والكسائى بضم السين والباقون بكسرها (أم زاغت) أى مالت (عنهم الابصار) أى فلم نرهم حين دخلوها وقال ابن كيسان أى ام كانوا خيرا منا ونحن لانعلم فكانت أبصارنا تزيغ عنهم فى الدنيا فلا نعدهم شيأ (ان ذلك) أى الذى حكيناه عنهم (لحق) أى واجب وقوعه فلا بد أن يتكلموا به ثم بين ذلك الذى حكاه عنهم بقوله تعالى (تخاصم أهل النار) أى فى النار وانما سماه تخاصما لان قول القادة للاتباع لامرحبا بهم وقول الاتباع للقادة بل أنتم لامرحبا بكم من باب الخصومة *(تنبيه)* يصح فى تخاصم أوجه من الاعراب أحدها أنه بدل من لحق الثانى أنه عطف بيان الثالث أنه خبر ثان لان الرابع أنه خبر مبتدا مضمر أى هو تخاصم * ولما شرح سبحانه نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العذاب عاد الى تقرير التوحيد والنبوة والبعث المذكورات أول السورة بقوله تعالى (قل) يا أفضل الخلق للمشركين (انما أنا منذر) أى مخوف بالنار لمن عصى (و) لابد من الاقرار بأنه (ما من اله الا الله) أى الجامع لجميع الاسماء الحسنى (الواحد القهار) فكونه واحدا يدل على عدم الشريك وكونه قهارا مشعر بالتخويف والترهيب * ولما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب بقوله تعالى شأنه (رب السموات) أى مبدعها وحافظها على علوها وسعتها واحكامها بما لها من الزينة والمنافع (والارض) أى على سعتها وضخامتها وكثافتها وما فيها من العجائب (وما بينهما) أى الخافقين من الفضاء والهواء وغيرهما من العناصر والنبات والحيوانات العقلاء وغيرها ربى كل شئ من ذلك ايجادا وابقاء على ما يريد وان كره ذلك المربوب فدل ذلك على قهره وتفرده (العزيز) أى الغالب على أمره (الغفار) فكونه ربا يشعر بالتربية والكرم والاحسان والجود وكونه غفارا يشعر بأن العبد لو أقدم على المعاصى والذنوب ثم تاب اليه فانه يغفرها برحمته وهذا الموصوف بهذه الصفات هو الذى تجب عبادته لانه هو الذى يخشى عقابه ويرجى ثوابه وقوله تعالى (قل) أى لهم (هو نبأ عظيم) يعود على القرآن وما فيه من القصص والاخبار وقيل تخاصم أهل النار وقيل على ما تقدم من اخباره صلى الله عليه وسلم بأنه نذير مبين وبأن الله تعالى اله واحد متصف بتلك الصفات الحسنى وقوله تعالى (أنتم عنه معرضون) صفة لنبأ أى لتمادى غفلتكم فان العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة اما على التوحيد فما مر واما على النبوة فقوله تعالى (ما كان لى من علم بالملا الاعلى) أى الملائكة فقوله بالملا متعلق بقوله

من علم وضمن معنى الاحاطة فلذلك تعدى بالباء (اذ يختصمون) أى فى شأن آدم عليه السلام حين قال الله عز وجل انى جاعل فى الارض خليفة الآية (فان قيل) الملائكة لا يجوز ان يقال انهم اختصموا بسبب قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فالمخاصمة مع الله تعالى كفر (أجيب) بأنه لاشك انه جرى هنالك سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ المخاصمة عليه * ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يذكر هذا الكلام على سبيل الزجر أمره ان يقول (ان) أى ما (يوحى الى الا انما) أى أنى (أنا نذير مبين) أى بين الانذار فأبين لكم ما تأتونه وما تجتنبونه وروى انه صلى الله عليه وسلم قال رأيت ربى فى أحسن صورة قال ابن عباس رضى الله عنه أحسبه قال فى المنام فقال يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الاعلى قلت أنت أعلم أى رب مرتين قال فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى أو قال فى نحرى فعلمت ما فى السموات وما فى الارض وفى رواية ثم تلا هذه الآية وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الاعلى قلت نعم فى الدرجات والكفارات قال وما هن قلت المشى على الاقدام الى الجماعات والجلوس فى المساجد بعد الصلوات واسباغ الوضوء فى المكاره قال من يفعل ذلك يعيش بخير ويموت بخير ويخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال يا محمد اذا صليت فقل اللهم انى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وان تغفرلى وترحمنى واذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون قال ومن الدرجات افشاء السلام واطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام وفى رواية فقلت لبيك وسعديك فى المرتين وفيها فعلمت ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وللعلماء فى هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الصفات مذهبان أحدهما مذهب السلف وهو اقراره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والايمان به من غير تأويل له والسكوت عنه مع الاعتقاد بأن ليس كمثله شئ وهو السميع البصير والمذهب الثانى مذهب الخلف وهو تأويل الحديث فقوله صلى الله عليه وسلم رأيت ربى فى أحسن صورة يحتمل وجهين أحدهما وانا فى أحسن صورة كأنه زاده جمالا وكمالا وحسنا عند رؤيته لربه وانما التغير وقع بعده لشدة الوحى وثقله الثانى ان الصورة بمعنى الصفة ويرجع ذلك الى الله تعالى والمعنى انه رآه فى أحسن صفاته من الانعام عليه والاقبال اليه والله تعالى تلقاه بالاكرام والاعظام فاخبر صلى الله عليه وسلم عن عظمته وكبريائه وبهائه وبعده عن شبهه بالخلق وتنزيهه عن صفات النقص وانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وقوله صلى الله عليه وسلم فوضع يده بين كتفى الخ فالمراد باليد النعمة والمنة والرحمة وذلك شائع فى لغة العرب فيكون معناه على هذا الاخبار باكرام الله تعالى اياه وانعامه عليه بأن شرح صدره ونور قلبه وعرّفه ما لم يعرفه حتى وجد برد النعمة والرحمة والمعرفة فى قلبه وذلك لما نور قلبه وشرح صدره فعلم ما فى السموات وما فى الارض باعلام الله تعالى اياه فانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول

له كن فيكون اذ لا يجوز على الله تبارك وتعالى ولا على صفات ذاته سبحانه مماسة أو مباشرة أو نقص وهذا أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه واذا حملنا الحديث على المنام وان ذلك كان في المنام فقد زال الاشكال لان رؤية البارى سبحانه في المنام على الصفات الحسنة دليل على البشارة والخير والرحمة للرائى وسبب اختصام الملا الاعلى وهم الملائكة في الكفارات وهى الخصال المذكورة في الحديث في ايها أفضل وسميت هذه الخصال كفارات لانها تكفر الذنوب عن فاعلها فهى من باب تسمية الشئ باسم لازمه وسمى ذلك مخاصمة لما مر في السؤال والجواب المتقدمين وقوله تعالى (اذ) يجوز أن يكون بدلا من اذ الاولى كما قاله الزمخشرى وأن يكون منصوبا باذكر كما قاله أبو البقاء أى واذكر اذ (قال ربك للملائكة انى خالق) أى جاعل (بشرا من طين) هو آدم عليه السلام (فان قيل) كيف صح أن يقول لهم انى خالق بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل (أجيب) بأنه قد يكون قال لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم (فاذا سويته) أى أتممت خلقه (ونفخت) أى أجريت (فيه من روحى) فصار حيا حساسا متنفسا واضافة الروح اليه تعالى اضافة تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الانسان بنفوذه فيه يسرى في بدن الانسان سريان الضوء في الفضاء وكسريان النار في الفحم والماء في العود الاخضر (فقعوا) أى خروا (له ساجدين فسجد الملائكة) وقوله تعالى (كلهم أجمعون) فيه تأكيدان وقال الزمخشرى كل للاحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معا انهم سجدوا عن آخرهم ما بقى منهم ملك الا انهم سجدوا جميعا في وقت واحد غير متفرقين في أوقات انتهى (فان قيل) كيف ساغ السجود لغير الله (أجيب) بأن الممنوع هو السجود لغير الله تعالى على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل الا أن يكون فيه مفسدة فينهى الله تعالى عنه والاولى في الجواب انه سجود تحية بالانحناء كما قاله الجلال المحلى (الا ابليس استكبر) أى تكبر وتعظم عن السجود (فان قيل) كيف استثنى من الملائكة عليهم السلام ابليس وهو من الجن (أجيب) بانه قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله تعالى فسجد الملائكة ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلا وقال الجلال المحلى هو أبو الجن وكان من الملائكة وعلى هذا فلا سؤال (وكان) أى وصار (من الكافرين) باستكباره عن أمر الله تعالى أو كان من الكافرين في الازمنة الماضية في علم الله تعالى * (تنبيه) * المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر لان ابليس انما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر والكفار انما نازعوا محمدا صلى الله عليه وسلم بسبب الحسد والكبر فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرا عن هاتين الخصلتين المذمومتين (قال) الله تعالى (يا ابليس) سماه بهذا الاسم لكونه من الابلاس وهو انقطاع الرجاء اشارة الى تحتم العقوبة له (ما منعك أن تسجد) وبين ما يوجب طاعته ولو أمر بتعظيم ما لا يعقل بقوله تعالى معبرا بأداة ما لا يعقل عمن كان عند السجود له عاقلا كامل العقل (لما خلقت بيدى) أى توليت خلقه من غير توسط سبب كأب وأم والتثنية في اليد لما في خلقه من مزيد القدرة وقوله

تعالى (أستكبرت) استفهام توبيخ أى تعظمت بنفسك الآن عن السجود له (أم كنت من العالين) أى من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود له لكونك منهم فأجاب ابليس بقوله (قال أنا خير منه) أى لو كنت مساويا له فى الشرف لكان يقبح أن أسجد له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار أشرف من الطين بدليل أن الاجرام الفلكية أفضل من الاجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والارض أبعد عنه فوجب كون النار أفضل من الارض وأيضا فالنار خليفة الشمس والقمر فى اضاءة العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الارض فخليفتهما فى الاضاءة أفضل من الارض وأيضا فالكيفية الفاعلة الاصلية اما الحرارة واما البرودة والحرارة أفضل من البرودة لان الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت وأيضا فالنار لطيفة والارض كثيفة واللطافة أفضل من الكثافة وأيضا فالنار مشرقة والارض مظلمة والنور خير من الظلمة وأيضا فالنار خفيفة تشبه الروح والارض كثيفة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الارض والدليل على أن الارض أفضل من النار انها أمينة مصلحة فاذا أودعتها حبة ردتها اليك شجرة مثمرة والنار خائنة مفسدة لكل ما سلمته اليها وأيضا فالنار بمنزلة الخادم لما فى الارض ان احتيج اليها استدعيت استدعاء الخادم وان استغنى عنها طردت وأيضا فالارض مستولية على النار لانها تطفئ النار وأيضا فان استدلال ابليس بكون أصله خيرا من أصله استدلال فاسد لان أصل الرماد النار وأصل البساتين المزهرة والاشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الاشجار المثمرة خير من الرماد وأيضا هب أن اعتبار هذه الجهة توجب الفضيلة الا أن هذا يمكن أن يعارض بجهة أخرى توجب الرجحان مثل انسان نسيب عار عن كل الفضائل فان نسبه يوجب رجحانه الا أن الذى لا يكون نسيبا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون أفضل من النسيب بدرجات لا حد لها فكذبت مقدمة ابليس (فان قيل) هب ان ابليس أخطأ فى القياس لكن كيف لزمه الكفر فى تلك المخالفة وتقرير السؤال من وجوه الاول أن قوله تعالى اسجدوا أمر وهو يحتمل الوجوب والندب فكيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر الثانى هب انه للوجوب وقلتم ان ابليس ليس من الملائكة فامر الملائكة بالسجود لآدم لا يدخل فيه ابليس الثالث هب انه تناوله الا أن تخصيص العام بالقياس جائز فجاز أن يخصص نفسه من عموم ذلك الامر بالقياس الرابع هب انه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورا به الا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر (أجيب) بأن صيغة الامر وان لم يدل على الوجوب يجوز أن ينضم اليها من القرائن ما يدل عليه وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فعلم بذلك ان الامر للوجوب وانه مخاطب بالسجود فلما أتى بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه انما ذكر القياس ليتوصل به الى القدح فى أمر الله تعالى وتكليفه وذلك يوجب الكفر * ولما ذكر ابليس لعنه الله تعالى هذا القياس الفاسد (قال) الله تعالى له (فاخرج) أى بسبب تكبرك ونسبتك الحكيم الذى لا اعتراض عليه الى الجور (منها) أى من الجنة وقيل من

الخلقة التي أنت فيها لانه كان يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعدما كان أبيض وقبح بعدما كان حسنا وأظلم بعدما كان نورانيا وقيل من السموات (فانك رجيم) أي مطرود لان من طرد رمي بالحجارة فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد (فان قيل) الطرد هو اللعن فيكون قوله تعالى (وان عليك لعنتي) مكررا (أجيب) بحمل الطرد على ما تقدم وتحمل اللعنة على الطرد من رحمة الله تعالى وأيضا قوله تعالى وان عليك لعنتي (الى يوم الدين) أي الجزاء أفاد أمرا وهو طرده الى يوم القيامة فلا يكون تكرارا وقيل المراد بالرجم كون الشياطين مرجومين بالشهب (فان قيل) كلمة الى لانتهاء الغاية فكان لعنة الله ابليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع (أجيب) بأنها كيف تنقطع وقد قال تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فأفادان عليه اللعنة في الدنيا فاذا كان يوم القيامة اقترن عليه مع اللعنة من العذاب ما تنسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت * (تنبيه) * قال تعالى هنا لعنتي وفي آية أخرى اللعنة وهما وان كانا في اللفظ عاما وخاصا الا أنهما من حيث المعنى عامان بطريق اللازم لان من كانت عليه لعنة الله تعالى كانت عليه لعنة كل أحد لا محالة وقال تعالى أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * ولما صار ابليس ملعونا مطرودا (قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون) أي الناس طلب الانظار الى يوم البعث لأجل أن يتخلص من الموت لانه اذا أنظر ليوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلص من الموت فلذلك (قال) تعالى (فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) أي وقت النفخة الاولى فيموت فيها فلم يجبه الى دعائه كما قال تعالى وما دعاء الكافرين الا في ضلال ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله تعالى معين لا يتقدم ولا يتأخر فلما أنظره الله تعالى الى ذلك الوقت (قال فبعزتك) أقسم بعزة الله تعالى وهي قهره وسلطانه (لاغوينهم أجمعين) ثم استثنى من ذلك ما ذكره الله بقوله (الا عبادك منهم المخلصين) أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من اضلاله أو أخلصوا قلوبهم على اختلاف القراءتين فان نافعا والكوفيين قرؤا بفتح اللام بعد الخاء والباقون بالكسر * (تنبيه) * قيل ان غرض ابليس من هذا الاستثناء انه لا يقع في كلامه الكذب لانه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لظهر كذبه حين يعجز عن اغواء عباد الله تعالى المخلصين وعند هذا يقال ان الكذب شيء يستنكف منه ابليس فليس يليق بالمسلم وهذا يدل على أن ابليس لا يغوي عباد الله تعالى المخلصين وقد قال تعالى في صفة يوسف عليه السلام انه من عبادنا المخلصين فتحصل من مجموع الآيتين ان ابليس ما أغوى يوسف عليه السلام وما نسب اليه من القبائح كذب وافتراء * ولما قال ابليس ذلك (قال) تعالى (فالحق) أي فبسبب اغوائك وغوايتهم أقول الحق (والحق أقول) أي لا أقول الا الحق فان كل شيء قلته ثبت فلم يقدر أحد على نقضه ولا نقصه وقرأ عاصم وحمزة برفع الاول ونصب الثاني والباقون بنصبهما فنصب الثاني بالفعل بعده ونصب الاول بالفعل المذكور أو على الاغراء أي الزموا الحق أو على المصدر أي أحق الحق أو على نزع حرف القسم ورفعه على انه مبتدأ محذوف

الخبر أى فالحق منى أو فالحق قسمى وجواب القسم (لأملأن جهنم منك) أى بنفسك وذريتك (وممن تبعك منهم) أى من الناس وقوله تعالى (أجمعين) فيه وجهان أظهرهما انه تو كيد للضمير فى منك ولمن عطف عليه فى قوله تعالى وممن تبعك والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدا وجوز الزمخشرى أن يكون تأكيدا للضمير فى منهم خاصة فتقدر لأملأن جهنم من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت فى ذلك بين ناس وناس ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لقومك (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة أو القرآن (من أجر) أى جعل (وما أنا من المتكلفين) أى المتصنفين بما لست من أهله على ما عرفتم من حالى فأنتحل النبوة وأتقول القرآن وكل من قال شيأ من تلقاء نفسه فهو متكلف له وعن مسروق قال دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال يا أيها الناس من علم شيأ فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن يقول من لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقيل المعنى ان هذا الذى أدعوكم اليه ليس يحتاج فى معرفة صحته الى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته (ان) أى ما (هو) أى القرآن (الا ذكر) أى عظة وشرف (للعالمين) أى للخلق أجمعين (ولتعلمن) جواب قسم مقدر ومعناه لتعرفن يا كفار مكة (نبأه) أى خبر صدقه وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه باتيان ذلك (بعد حين) قال ابن عباس وقتادة بعد الموت وقال عكرمة يوم القيامة وقال الحسن ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله تعالى لداود عشر حسنات وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير حديث موضوع

سورة الزمر مكية

الا قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فمدنية وهى خمس وسبعون آية وألف ومائة واثنتان وتسعون كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف

(بسم الله) الذى له صفات الكمال (الرحمن) الذى أنعم على عباده بأنواع النعم (الرحيم) بأنواع المغفرة على المؤمنين من عباده (تنزيل الكتاب) أى القرآن مبتدأ وقوله تعالى (من الله) أى المتصف بجميع صفات الكمال خبره أى تنزيل الكتاب كائن من الله تعالى وقيل تنزيل الكتاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذا تنزيل الكتاب من الله (العزيز) أى الغالب فى ملكه (الحكيم) أى فى صنعه ففى ذلك دلالة على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات غنى عن جميع الحاجات (فان قيل) ان الله تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا وهذا الوصف لا يليق الا بالمحدث المخلوق (أجيب) بأن ذلك محمول على الصيغ والحروف (انا) أى بما لنا من العظمة (انزلنا عليك) يا أشرف الخلق خاصة بواسطة جبريل الملك (الكتاب) أى القرآن الجامع لكل خير وقوله تعالى

(بالحق) يجوز أن يتعلق بالانزال أى بسبب الحق وأن يتعلق بمحذوف على انه حال من الفاعل أو المفعول وهو الكتاب أى ملتبسين بالحق أو ملتبسا بالحق والصدق والصواب والمعنى ان كل ما فيه من اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق يجب العمل به وفى قوله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب تكرير تعظيم بسبب ابرازه فى جملة أخرى مضافا انزاله الى المعظم نفسه (فان قيل) لفظ تنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله نجما نجما على وفق المصالح على سبيل التدريج ولفظ الانزال يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة (أجيب) بأن طريق الجمع ان يقال انا حكمنا حكما كليا بأنا نوصل اليك هذا الكتاب وهذا هو الانزال ثم أوصلناه اليك نجما نجما على وفق المصالح * ولما بين تعالى ان هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق أردفه ببيان بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص فقال سبحانه وتعالى (فاعبد الله) أى الحائز لجميع صفات الكمال حال كونك (مخلصا له الدين) أى ممحضا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر (ألا لله) أى الملك الاعلى وحده (الدين الخالص) أى لا يستحقه غيره فانه المنفرد بصفات الالوهية والاطلاع على الاسرار والضمائر قال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا اله الا الله وقال مجاهد الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الاوامر والنواهى لان قوله تعالى فاعبد الله عام وروى ان امرأة الفرزدق لما قربت وفاتها أوصت أن يصلى الحسن البصرى عليها فلما دفنت قال الحسن البصرى يا أبا فراس ما الذى أعددت لهذا الامر قال شهادة أن لا اله الا الله فقال الحسن هذا العمود فأين الطنب قال ابن عادل فبين بهذا اللفظ الوجيز أن عمود الخيمة لا ينتفع به الا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة أى الانتفاع الكامل والا فهى ينتفع بها ولكن رأس العبادات الاخلاص فى التوحيد واتباع الاوامر واجتناب النواهى (والذين اتخذوا من دونه) أى من دون الله (أولياء) وهم كفار مكة اتخذوا الاصنام وقالوا (ما نعبدهم) أى لشئ من الاشياء (الا ليقربونا الى الله) أى الذى له معاقد العز ومجامع العظمة (زلفى) وذلك انهم كانوا اذا قيل لهم من ربكم ومن خلقكم ومن خلق السموات والارض قالوا الله فيقال فما عبادتكم لهم قالوا ليقربونا الى الله زلفى أى قربى وهو اسم أقيم مقام المصدر كأنهم قالوا الا ليقربونا الى الله تعالى تقريبا حسنا مهلا وتشفع لنا عند الله تعالى (ان الله) أى الذى له جميع صفات الكمال (يحكم بينهم) أى وبين المسلمين (فيما هم فيه يختلفون) أى من أمر الدين فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار (ان الله) أى الملك القادر (لا يهدى) أى لا يرشد (من هو كاذب) أى فى قوله ان الآلهة تشفع لهم مع علمهم بانها جمادات خسيسة وفى نسبة الولد الى الله تعالى (كفار) أى بعبادة غير الله تعالى (لو أراد الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال (أن يتخذ ولدا) أى كما قالوا اتخذ الرحمن ولدا (لاصطفى) أى اختار (مما يخلق ما يشاء) أى اتخذ ولدا غير من قالوا الملائكة بنات الله وعزير ابن الله والمسيح ابن الله كما قال تعالى لو أردنا أن نتخذ لهوا أى كما زعموا لاتخذناه من لدنا اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوقه ومن البين أن المخلوق

لايماثل الخالق فيقوم مقام الولد له * ثم نزه نفسه سبحانه فقال تعالى شأنه (سبحانه) أي تنزيها
له عن ذلك وعما لا يليق بطهارته ثم أقام الدليل على هذا التنزيه المقتضي لتفرده فقال تعالى
(هو) أي الفاعل لهذا الفعال القائل لهذه الاقوال (الله) أي الجامع لجميع صفات الكمال
ثم ذكر من الاوصاف ماهو كالعلة لذلك فقال (الواحد) أي في ملكه الذي لاشريك له ولا ولد
ولا والد له (القهار) أي الغالب الكامل القدرة فكل شيء تحت قدره * ولما ثبتت
هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد وأثبتت له الكمال المطلق استدل على
ذلك بقوله تعالى (خلق السموات والارض) أي أبدعهما من العدم وقوله تعالى (بالحق)
متعلق بخلق لان الدلائل التي ذكرها الله تعالى في اثبات الالهية اما أن تكون فلكية أو أرضية
اما الفلكية فأقسام أحدها خلق السموات والارض وثانيها اختلاف الليل والنهار كما قال
تعالى (يكور) أي يدخل (الليل على النهار ويكور النهار على الليل) قال الحسن ينقص
من الليل فيزيد في النهار وينقص من النهار فيزيد في الليل فما نقص من الليل دخل في النهار
وما نقص من النهار دخل في الليل قال البغوي ومنتهى النقص تسع ساعات ومنتهى الزيادة
خمس عشرة ساعة وقال قتادة يغشى هذا هذا كما قال تعالى يغشي الليل النهار وقال الرازي
ان النور والظلمة عسكران عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا وذلك يدل على ان
كل واحد مغلوب مقهور ولابد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله تعالى
انتهى وورد في الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور أي من النقصان بعد الزيادة وقيل
من الادبار بعد الاقبال (وسخر) أي ذلل وأكره وقهر وكلف لما يريد من غير نفع للمسخر
(الشمس والقمر) فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم
مربوطة بهما (كل) أي منهما (يجري لاجل مسمى) أي الى يوم القيامة لايزالان يجريان الى هذا
اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا والمراد من هذا التسخيرات هذه الافلاك تدور كدوران
المنجنون أي الدولاب الذي يسقي عليه على حد واحد (ألا هو العزيز) أي الغالب على أمره
المنتقم من أعدائه (الغفار) أي الذي له صفة الستر على الذنوب متكررة يمحو ذنوب من يشاء
عينا وأثرا بمغفرته ثم انه تعالى لما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل السفلية فقال تعالى
(خلقكم) أيها الناس المدعون الهية غيره (من نفس واحدة) وهي آدم عليه السلام (ثم
جعل منها) أي من تلك النفس (زوجها) حواء وانما بدأ منها بذكر الانسان لانه أقرب
وأكبر دلالة وأعجب وفيه ثلاث دلالات خلق آدم أولا من غير أب وأم ثم خلق حواء من قصيراه
ثم تشعب الخلق الفائت للحصر منهما فهما آيتان الا ان احداهما جعلها الله تعالى عادة مستمرة
والاخرى لم تجر بها العادة ولم يخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل * (تنبيه) * في ثم هذه أوجه
أحدها انها على بابها من الترتيب بمهلة وذلك يروى ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره
كالذر ثم خلق حواء بعد ذلك بزمان ثانيها انها على بابها أيضا لكن لمدرك آخر وهو أن يعطف
بها ما بعدها على مافهم من الصفة في قوله تعالى واحدة اذ التقدير من نفس وحدت أي انفردت

ثم جعل منها زوجها ثالثها أنها للترتيب فى الاخبار لا فى الزمان الوجودى كأنه قيل كان من أمرها قبل ذلك ان جعل منها زوجها رابعها انها للترتيب فى الاحوال والرتب وقال الرازى ان ثم كما تجىء لبيان كون احدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجىء لبيان تأخر احدى الكلامين عن الآخر كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب وأعطيتك اليوم شيأ ثم الذى أعطيتك أمس أكثر وقوله تعالى (وأنزل لكم من الانعام) عطف على خلقكم والانزال يحتمل الحقيقة روى أن الله تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها ويحتمل المجاز وله وجهان أحدهما انها لم تعش الا بالنبات والنبات انما يعيش بالماء والماء ينزل من السحاب أطلق الانزال عليها وهو فى الحقيقة يطلق على سبب السبب كقول القائل

اذا نزل السماء بأرض قوم * رعيناه وان كانوا غضابا

والثانى أن قضاياه وأحكامه منزلة من السماء من حيث كتبها فى اللوح المحفوظ وهو أيضا سبب فى ايجادها وقال البغوى معنى الانزال ههنا الاحداث والانشاء كقوله تعالى أنزلنا عليكم لباسا وقيل انه انزال الماء الذى هو سبب نبات القطن والكتان وغيرهما الذى يجعلون منه اللباس وقيل معنى قوله أنزل لكم من الانعام جعلها نزلا لكم ورزقا ومعنى قوله (ثمانية أزواج) أى ثمانية أصناف وهى الابل والبقر والضأن والمعز من كل زوجان ذكر وأنثى كما بين فى سورة الانعام وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) بيان لكيفية خلق ما ذكر من الاناسى والانعام اظهارا لما فيها من عجائب القدرة غير أنه تعالى غلب أولى العقل أو خصهم بالخطاب لانهم المقصودون وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بالضم وفى الابتداء الجميع بالضم وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون ومعنى قوله تعالى (خلقا من بعد خلق) ما ذكره الله تعالى بقوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين الآيات وأما قوله تعالى (فى ظلمات ثلاث) فقال ابن عباس ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن (ذلكم) أى العالى المراتب بشهادتكم أيها الخلق كلكم بعضكم بلسان قاله وبعضكم بناطق حاله الذى جميع ما ذكر من أول السورة الى هنا من أفعاله * ولما أشار الى عظمته بأداة البعد أخبر عن اسم الاشارة بقوله تعالى (الله) أى الذى خلق هذه الاشياء (ربكم) أى المالك والمربى لكم بالخلق والرزق فهو المستحق لعبادتكم وقوله تعالى (له الملك) يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره * ولما ثبت انه لا مالك الا هو وجب القول بأنه (لا اله الا هو) أى لا يشاركه فى الخلق غيره * ولما بين بهذه الدلائل كمال قدرته ورحمته زيف طريقة المشركين بقوله تعالى (فأنى) أى فكيف ومن أى وجه (تصرفون) عن طريق الحق بعد هذا البيان (ان تكفروا فان الله) أى الذى له الكمال كله (غنى عنكم) لانه تعالى ما كلف المكلفين ليجر الى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة لانه تعالى غنى على الاطلاق فيمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة لانه تعالى واجب الوجود لذاته وواجب الوجود لذاته فى جميع أفعاله يكون غنيا على الاطلاق وأيضا فالقادر على خلق السموات

والارض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الاربعة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو وان يستضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك (ولا يرضى لعباده) أي لاحد منهم (الكفر) أي بالاقبال على ماسواه وانتم لا ترضون ذلك لعبيدكم مع أن ملككم لهم في غاية الضعف ومعنى عدم الرضا به لا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه ويثيب فاعله ويمدحه بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه وان كان بارادته اذ لا يخرج شيء عنها وهذا قول قتادة والسلف أجروه على عمومه وقال ابن عباس ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فيكون عاما في اللفظ خاصا في المعنى كقوله تعالى عينا يشرب بها عباد الله يريد بعض العباد (وان تشكروا) الله تعالى أي فتؤمنوا بربكم وتطيعوه (يرضه لكم) أي فيثيبكم عليه لانه سبب فلاحكم وقرأ السوسي في الوصل بسكون الهاء وللدوري وهشام وجهان السكون والضم وصلة الهاء بواو للدوري وابن كثير وابن ذكوان والكسائي والباقون بالسكون وهو لغة فيه (ولا تزر) أي نفس (وازرة وزر) نفس (أخرى) أي لا تحمله بل وزر كل نفس عليها لا يتعداها يحفظ عليها مدة كونها في دار العمل واحتج بهذا من أنكر وجوب الدية على العاقلة وديات السنة خصصت ذلك وأما الاثم الذي يكتب على الانسان بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس وزر غيره وانما هو وزر نفسه فوزر الفاعل على الفعل ووزر الساكت على الترك لما لزمه من الامر والنهي وقوله تعالى (ثم الى ربكم مرجعكم) يدل على اثبات البعث والقيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيه تهديد للعاصي وبشارة للمطيع وقوله تعالى (انه عليم) أي بالغ العلم (بذات الصدور) أي بما في القلوب كالعلة لما سبق أي انه تعالى ينبئكم بأعمالكم لانه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم * ولما بين تعالى فساد القول بالشرك وبين تعالى انه الذي يجب أن يعبد بين أن طريقة الكفار متناقضة بقوله تعالى (واذا مس الانسان) أي هذا النوع الآنس بنفسه (ضر دعا ربه) لانهم اذا مسهم الضر طلبوا رفعه من الله تعالى واذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا الى عبادة الاصنام فكان الواجب عليهم أن يعتزوا بالله تعالى في جميع الاحوال لانه القادر على ايصال الخير ودفع الشر فظهر تناقض طريقتهم والمراد بالانسان الكافر وقيل المؤمن والكافر وقيل المراد أقوام معينون كعتبة بن ربيعة وغيره والمراد بالضر جميع المكاره في جسمه أوماله أو أهله أو ولده لعموم اللفظ وقوله تعالى (منيبا) حال من فاعل دعا وقوله تعالى (اليه) متعلق بمنيبا أي راجعا اليه في ازالة ذلك الضر لان الانابة الرجوع (ثم اذا خوله) أي أعطاه (نعمة) مبتدأة (منه) أي من غير مقابل ولا يستعمل في الجزاء بل في ابتداء العطية قال زهير * هنالك ان يستخولوا المال يخولوا * ويروى ان يستخبلوا المال يخبلوا

(وقال أبو النجم)

أعطى فلم يبخل ولم يبخل * كوم الذرى من خول المخوّل

وحقيقة خوّل من احدى معنيين اما من قولهم هو خائل مال اذا كان متعهدا له حسن القيام عليه واما من خال يخول اذا اختال وافتخر ومنه قول العرب * ان الغنى طويل الذيل مياس * (نسى) أى ترك (ما) أى الامر الذى (كان يدعو) أى يتضرع (اليه من قبل) أى قبل النعمة *(تنبيه)* يجوز فى ما هذه أوجه أحدها أن تكون موصولة بمعنى الذى مرادا بها الضر الذى كان يدعو الى كشفه اى ترك دعاءه كأنه لم يتضرع الى ربه ثانيها أنها بمعنى الذى مرادا بها البارئ تعالى أى نسى الله الذى كان يتضرع اليه وهذا عند من يجيز وقوع ما على أولى العلم وقال الرازى ما بمعنى من كقوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله ولا أنتم عابدون ما أعبد وقوله فانكحوا ما طاب لكم ثالثها ان تكون مصدرية أى نسى كونه داعيا (وجعل) أى ذلك الانسان زيادة على الكفران بالنسيان للاحسان (لله) أى الذى لا مكافئ له بشهادة الفطرة والسمع والعقل (أندادا) أى شركاء (ليضل عن سبيله) أى دين الاسلام وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بعد اللام أى ليفعل الضلال بنفسه والباقون بضمها أى لم يقنع بضلاله فى نفسه حتى يحمل غيره عليه فمفعوله محذوف واللام يجوز ان تكون للعلة وان تكون لام العاقبة كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا * واختلف فى سبب نزول قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) أى لهذا الذى قد حكم بكفره (تمتع) أى فى هذه الدنيا (بكفرك قليلا) أى بقية أجلك فقال مقاتل نزل فى أبى حذيفة بن المغيرة المخزومى وقيل فى عتبة بن ربيعة وقيل عام فى كل كافر وهذا أمر تهديد وفيه اقناط للكافر من التمتع فى الآخرة ولذلك علله بقوله تعالى (انك من أصحاب النار) أى الذين لم يخلقوا الا لها على سبيل الاستئناف للمبالغة قال تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس الآية * ولما شرح الله تعالى صفات المشركين وتمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح المخلصين فقال تعالى (أمن هو قانت) أى قائم بوظائف الطاعات (آناء الليل) أى جميع ساعاته ومن اطلاق القنوت على القيام قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة صلاة القنوت وهو القيام فيها ومنه القنوت لانه يدعو قائما وعن ابن عمر انه قال لا أعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام وتلا أمن هو قانت وعن ابن عباس القنوت الطاعة لقوله تعالى كل له قانتون أى مطيعون وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم والباقون بتشديدها وفى القراءة الاولى وجهان أحدهما ان الهمزة همزة الاستفهام دخلت على من بمعنى الذى والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف تقديره أمن هو قانت كمن جعل لله أندادا أو أمن هو قانت كغيره وأما القراءة الثانية فأم داخلة على من الموصولة أيضا فأدغمت الميم فى الميم وفى أم حينئذ قولان أحدهما انها متصلة ومعادلها محذوف تقديره الكافر خير أم الذى هو قانت والثانى انها منقطعة فتقدر ببل والهمزة أى بل أمن هو قانت كغيره أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك وقوله تعالى (ساجدا) أى وراكعا (وقائما) أى وقاعدا فى صلاته حالان من ضمير قانت *(تنبيه)* فى هذه

قوله لانه يدعو قائما هكذا فى النسخ وعبارة الكشاف ومنه القنوت فى الوتر لانه دعاء المصلى قائما اهـ

الآية دلالة على أن قيام الليل أفضل من قيام النهار واختلف في سبب نزولها فقال ابن عباس نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال الضحاك في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقال أبو عمر وفي عثمان رضي الله تعالى عنه وقال الكلبي في ابن مسعود وعمار وسلمان رضي الله تعالى عنهم وقوله تعالى (يحذر الآخرة) أي عذاب الآخرة يجوز أن يكون حالا من الضمير في ساجدا وقائما أو من الضمير في قانت وأن يكون مستأنفا جوابا بالسؤال مقدر كأنه قيل ماشأنه يقنت آناء الليل ويتعب نفسه ويكدها قيل يحذر الآخرة (ويرجو رحمة) أي جنة (ربه) الذي لم يزل يتقلب في انعامه وفي الكلام حذف والتقدير كمن لا يفعل شيأ من ذلك وانما حسن هذا الحذف لدلالة ذكر الكافر قبل هذه الآية وذكر بعدها (قل هل يستوى) أي في الرتبة (الذين يعلمون) أي وهم الذين صفتهم انهم يقنتون آناء الليل ساجدين وقائمين (والذين لا يعلمون) أي وهم الذين صفتهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغ يشركون وانما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يعلمون لان الله تعالى وان أعطاهم آلة العلم الا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم فلهذا جعلهم الله تعالى كأنهم ليسوا من أولى الالباب من حيث انهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم وفي هذا تنبيه على فضيلة العلم قيل لبعض العلماء انكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك عند أبواب العلماء فأجاب بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لان العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه وقال في الكشاف وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله تعالى جهلة حيث جعل الله تعالى القانتين هم العلماء قال ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أي كما لا يستوى العالمون والجاهلون كذلك لا يستوى القانتون والعاصون اه وعن الحسن انه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال هذا تمن وانما الرجاء قوله تعالى وتلا هذه الآية (انما يتذكر) أي يتعظ (أولو الالباب) أي أصحاب العقول الصافية والقلوب النيرة وهم الموصوفون في آخر سورة آل عمران بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم الى آخرها* ولما نفى تعالى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب المؤمنين فقال سبحانه (قل) أي لهم (يا عبادى الذين آمنوا) أي أوجدوا هذه الحقيقة (اتقوا ربكم) أي بطاعته واجتناب معاصيه ثم بين تعالى لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) أي بالطاعة (حسنة) أي في الآخرة وهي الجنة والتنكير في حسنة للتعظيم أي حسنة لا يصل العقل الى كنه كمالها فقوله تعالى في هذه الدنيا متعلق بأحسنوا وقيل متعلق بحسنة وعلى هذا قال السدي معناه في هذه الدنيا حسنة يعني الصحة والعافية قال الرازي الاولى أن يحمل على الثلاثة المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية اه ورد بأنه يتعين حمله على حسنة الآخرة لان ذلك حاصل للكفار

اكثر من حصوله للمؤمنين كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر واختلف في معنى قوله تعالى (وأرض الله) أى الذى له الملك كله والعظمة الشاملة (واسعة) فقال ابن عباس يعنى ارتحلوا من مكة وفيه حث على الهجرة من البلد الذى تظهر فيه المعاصى ونظيره قوله تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها وقيل نزلت فى مهاجرى الحبشة وقال سعيد بن جبير من أمر بالمعاصى فليهرب وقال أبو مسلم لا يمتنع أن يكون المراد من الارض أرض الجنة كما قال تعالى جنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين (انما يوفى) أى التوفية العظيمة (الصابرون أجرهم) أى على الطاعات وما يبتلون به * وقيل نزلت فى جعفر بن أبى طالب وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء وصبروا وهاجروا ومعنى (بغير حساب) أى بغير نهاية بكيل أو وزن لان كل شئ داخل تحت الحساب فهو متناه فما لا نهاية له كان خارجا عن الحساب وعن ابن عباس لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف وقال على كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه كل مطيع يكال له كيلا أو يوزن له وزنا الا الصابرين فانه يحثى لهم حثيا وروى الشعبى لكن بسند ضعيف عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الموازين تنصب يوم القيامة لاهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون أجورهم ولا ينصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتنى أهل العافية فى الدنيا ان أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل * ولما كان للعبادة ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح فقدمه سبحانه بقوله تعالى (قل) أى يا أشرف المرسلين (انى أمرت) قرأ نافع بفتح الياء والباقون بسكونها (أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى مخلصا له التوحيد لا أشرك به شيأ ثم ذكر عقبه الادون وهو عمل الجوارح وهو الاسلام المذكور فى قوله (وأمرت لأن) أى لأجل أن أو بأن (أكون أول المسلمين) أى من هذه الامة وبهذا زال التكرار وقال الزمخشرى فان قلت كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد قلت ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أن الامر بالاخلاص وتكليفه شئ والامر به ليحرز القائم به قصب السبق فى الدين شئ آخر واذا اختلف وجها الشئ وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين * ولما دعا المشركون النبى صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه أمره الله تعالى بقوله سبحانه (قل انى أخاف ان عصيت ربى) أى المحسن الى المربى لى بكل جميل وعبدت غيره (عذاب يوم عظيم) والمقصود من هذا الامر المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو انى بفتح الياء والباقون بسكونها (قل الله) أى المحيط بصفات الكمال وحده (أعبد مخلصا له) وحده (دينى) من الشرك قال الرازى فان قيل ما معنى التكرير فى قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وقوله تعالى قل الله أعبد مخلصا له دينى قلنا ليس هذا بتكرير لان الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالايمان بالعبادة والثانى اخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحدا غير الله تعالى وذلك ان قوله أمرت أن أعبد الله لا يفيد الحصر وقوله تعالى قل الله أعبد يفيد الحصر أى الله أعبد ولا أعبد أحدا سواه

ويدل عليه انه لما قال قل الله أعبد قال بعده (فاعبدوا) أى أنتم أيها الداعون فى وقت الضراء المعرضون فى وقت الرخاء (ماشئتم من دونه) أى غيره وفى هذا تهديد وزجر لهم وايذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله سبحانه (قل ان الخاسرين) أى الكاملين فى الخسران (الذين خسروا أنفسهم) أى أوقعوها فى هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه (و) خسروا (أهليهم يوم القيامة) أيضا لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا ذهابا لارجوع بعده البتة وقوله تعالى (الاذلك) أى الامر العظيم البعيد الرتبة فى الخسارة (هو الخسران المبين) أى البين يدل على غاية المبالغة من وجوه أحدها انه وصفهم بالخسران ثم أعاد ذلك بقوله تعالى ألا ذلك هو الخسران المبين وهذا التكرير لاجل التأكيد وثانيها ذكر حرف ألا وهو للتنبيه وذكر التنبيه يدل على التعظيم كأنه قال بلغ فى العظم الى حيث لاتصل عقولكم اليه فتنبهوا له وثالثها قوله تعالى هو الخسران ولفظة هو تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران يصير فى مقابلته كل خسران ورابعها وصفه تعالى بكونه خسرانا مبينا يدل على التهويل * ولما شرح الله تعالى خسرانهم وصف ذلك الخسران بقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل) أى طباق (من النار ومن تحتهم ظلل) أى فرش ومهاد نظيره قوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش (فان قيل) الظلة ما علا الانسان فكيف سمى ما تحته ظلة (أجيب) بأوجه أحدها انه من باب اطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ثانيها أن الذى تحته يكون ظلة لغيره لان النار دركات كما أن الجنة درجات ثالثها أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والاحراق والايذاء أطلق اسم احداهما على الاخرى لاجل المماثلة والمشابهة وقيل المراد احاطة النار بهم من جميع الجهات (ذلك) أى العذاب المعد للكفار (يخوف الله به عباده) أى المؤمنين ليجتنبوا ما يوقعهم فيه وقيل يخوف به الكفار والضلال ويدل للاول قوله تعالى (يا عباد فاتقون) أى ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة ووجه الدلالة ان اضافة العبد الى الله تعالى فى القرآن مختص بأهل الايمان (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى البالغ غاية الطغيان والطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الا أن فيه قلبا بتقديم اللام على العين اذ أصله طغيوت قدمت الياء على الغين ثم قلبت الفاء لتحركها وانفتاح ما قبلها أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدرا وفيها مبالغات وهى التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وان البناء بناء مبالغة فان الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص قال فى الكشاف اذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها هنا الجمع انتهى لكن ابن الخازن فسر الطاغوت بالاوثان وتبعه الجلال المحلى (فان قيل) يتعين هذا التفسير لانهم انما عبدوا الصنم لا الشيطان (أجيب) بأن الداعى الى عبادة الصنم هو الشيطان فلما كان هو الداعى كانت عبادة الصنم عبادة له (فان قيل) ما وجه تسمية الصنم بالطاغوت على التفسير

الثانى مع أنه لا يطلق الا على الشيطان كما مرّ (أجيب) بأنه أطلق عليه على سبيل المجاز لانّ الطغيان لما حصل بسبب عبادته والتقرب اليه وصفه بذلك اطلاقا لاسم السبب على المسبب بحسب الظاهر وقوله تعالى (أن يعبدوها) بدل اشتمال من الطاغوت لانّ الطاغوت مؤنث كأنه قيل اجتنبوا عبادة الطاغوت (فان قيل) على التفسير الاول انما عبدوا الصنم لا الشيطان (أجيب) بأنه الداعى الى عبادة الصنم (فائدة) نقل فى التواريخ أنّ الاصل فى عبادة الاصنام أنّ القوم مشبهة واعتقدوا فى الاله انه نور عظيم وأن الملائكة أنوار مختلفة فى الصغر والكبر فوضعوا تماثيل صورها على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقادهم أنهم يعبدون الله والملائكة (وأنابوا) أى رجعوا (الى الله) أى الى عبادة الله بكليتهم وتركوا ما كانوا عليه من عبادة غيره ثم انه تعالى وعد هؤلاء بأشياء أحدها قوله تعالى (لهم البشرى) أى فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فالثناء عليهم بصالح أعمالهم وعند نزول الموت وعند الوضع فى القبر وأما فى الآخرة فعند الخروج من القبور وعند الوقوف للحساب وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان *(تنبيه)* يحتمل أن يكون المبشر لهم هم الملائكة عليهم السلام لانهم يبشرونهم عند الموت لقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم وعند دخول الجنة لقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ويحتمل أن يكون هو الله تعالى لقوله تعالى تحيتهم يوم يلقونه سلام ولا مانع ان يكون من الله تعالى ومن الملائكة عليهم السلام فان فضل الله سبحانه واسع وقوله تعالى (فبشر عباد) قرأه السوسى بياء بعد الدال مفتوحة فى الوصل ساكنة فى الوقف والباقون بغير ياء (الذين يستمعون) أى بجميع قلوبهم (القول فيتبعون) أى بكل عزائمهم بعد انتقاده (أحسنه) أى عادلتهم عليه عقولهم من غير عدول الى أدنى *(تنبيه)* فى هذا وضع الظاهر موضع مضمر الذين اجتنبوا للدلالة على مبدا احسانهم وانهم نقاد فى الدين يميزون بين الحسن والاحسن والفاضل والافضل فاذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب أو مباح وندب اختاروا الندب حرصا على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثوابا ويدخل تحت ذلك أبواب التكاليف وهى قسمان عبادات ومعاملات فأمّا العبادات فكقولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله أكبر مع اقتران النية ويقرأ فيها بالفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة فى مواضعها الخمسة ويتشهد فيها ويخرج منها بالسلام لا شك انها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شئ من هذه الاحوال قال الرازى فوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة دون غيرها اه وكذا القول فى جميع أبواب العبادات قال فى الكشاف ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها على السبر وأبينها دليلا أو امارة ولا تكن فى مذهبك كما قال القائل * ولا تكن مثل عير قيد فانقادا * يريد المقلد اه وأما المعاملات فكانظار المعسر وابرائه فالابراء أولى وان كان الاول واجبا والثانى مندوبا وكذا القول فى جميع المعاملات

وقيل يسمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل يسمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها كالعفو والقصاص والعفو قال تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وعن ابن عباس هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما يسمعه ويكف عما سواه وروى عن ابن عباس آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزل فيهم فبشر عبادي الآية (أولئك) أي العالو الهمة والرتبة (الذين هداهم الله) عماله من صفات الكمال لديه (وأولئك هم أولوا الألباب) أي أصحاب العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة وقال أبو زيد نزل والذين اجتنبوا الطاغوت الآيتين في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والأحسن لا إله إلا الله وفي هذه الآية لطيفة وهي أن حصول الهداية في العقل والروح حادث فلا بد من فاعل وقابل فأما الفاعل فهو الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى أولئك الذين هداهم الله وأما القابل فاليه الاشارة بقوله تعالى وأولئك هم أولوا الألباب فإن الانسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقيقية في قلبه واختلف في معنى قوله تعالى (أفمن حق) وأسقط تاء التأنيث الدالة على اللين تأكيد النهي عن الأسف عليهم (عليه كلمة العذاب) فقال ابن عباس معنى الآية من سبق في علم الله أنه في النار وقيل كلمة العذاب قوله تعالى لأملأن جهنم الآية وقيل قوله تعالى هؤلاء للنار ولا أبالي وقوله تعالى (أفأنت تنقذ) أي تخرج (من في النار) جواب الشرط وأقيم فيه الظاهر مقام الضمير إذ كان الأصل أفأنت تنقذه وإنما وقع موقعه شهادة عليه بذلك والهمزة للانكار والمعنى لا تقدر على هدايته فتنقذه من النار وقال ابن عباس يريد أبا لهب وولده ويجوز أن تكون من موصولة في محل رفع بالابتداء وخبره محذوف واختلف في تقديره فقدره أبو البقاء كمن نجا وقدره الزمخشري فأنت تخلصه أي حذف لدلالة أفأنت تنقذ عليه وقدره غيرهما تتأسف عليه وقدره آخر يتخلص منه أي من العذاب وقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم) استدراك بين شبهي نقيضين أو ضدين وهما المؤمنون والكافرون أي جعلوا بينهم وبين المحسن اليهم وقاية في كل حركة وسكون فلم يجعلوا شيأ من ذلك إلا بنظر يدلهم على رضاه وقوله تعالى (لهم غرف) أي علالي من الجنة يسكنونها (من فوقها غرف) شديدة العلو مقابل لما ذكر في وصف الكفار ولهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمعنى لهم منازل في الجنة رفيعة ومن فوقها منازل أرفع منها (فإن قيل) ما فائدة قوله تعالى (مبنية) *أجيب بأن المنزل إذا بني على منزل آخر كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني فقوله تعالى مبنية فائدته أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل * ولما كانت المنازل لا تطيب إلا بالماء وكان الجاري أحسن وأشرف قال تعالى (تجري من تحتها) أي من تلك الغرف الفوقانية والتحتانية (الأنهار) أي المختلفة كما قال تعالى فيها أنهار من ماء

غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وقوله تعالى (وعد الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة فهو منصوب بفعله المقدر لان قوله تعالى لهم غرف في معنى وعدهم الله ذلك (لا يخلف الله الميعاد) لان الخلف نقص وهو على الله سبحانه محال وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقوله الغابر أي الباقي في الافق في ناحية المشرق والمغرب * ولما وصف الله تعالى الآخرة بوصف يوجب الرغبة العظيمة فيها وصف الدنيا بصفات توجب اشتداد النفرة عنها بقوله تعالى (ألم تر) أي تعلم (أن الله) أي الذي له كمال القدرة (أنزل من السماء) أي التي لا يستمسك الماء فيها الا بقدرة باهرة تقهر الماء على ذلك والمراد بالسماء الجرم أو السحاب (ماء) وهو المطر قال الشعبي كل ماء في الارض فمن السماء نزل ثم انه تعالى ينزله الى بعض المواضع ثم يقسمه (فسلكه) أي أدخل ذلك الماء خلال التراب حال كونه (ينابيع في الارض) أي عيونا ومجاري ومسالك كالعروق في الاجسام (ثم يخرج) الله تعالى (به) أي بالماء (زرعا مختلفا ألوانه) من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ومختلفا أصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها (ثم يهيج) أي ييبس (فتراه) بعد الخضرة مثلا (مصفرا) من يبسه لانه اذا تم جفافه حان له أن ينفصل عن منابته (ثم يجعله حطاما) أي فتاتا (ان في ذلك) أي التدبير على هذا الوجه (لذكرى) أي تذكيرا وتنبيها (لاولي الالباب) أي أصحاب العقول الصافية جدا فيتذكرون هذه الاحوال في النبات فيعلمون بدلالته على وحدانية الله تعالى شأنه وقدرته وأحوال الحيوان والانسان وانه وان طال عمره فلابد من الانتهاء الى أن يصير مصفر اللون محطم الاعضاء والاجزاء ثم تكون عاقبته الموت فاذا كانت مشاهدة هذه الاحوال في النبات مذكرة حصول مثل هذه الاحوال في نفسه في حياته فحينئذ تعظم نفرته عن الدنيا ولذاتها * ولما بين تعالى الدلائل على وجوب الاقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الاعراض عن الدنيا ولذاتها ذكر أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل الا اذا شرح الصدور ونور القلوب فقال سبحانه (أفمن شرح الله) أي الذي له القدرة الكاملة (صدره للاسلام) أي وسعه لقبول الحق فاهتدى (فهو) أي بسبب ذلك (على نور من ربه) أي الحسي اليه كمن أقسى الله تعالى قلبه دل على هذا (فويل) كلمة عذاب (للقاسية قلوبهم من ذكر الله) قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله تعالى على قوم الا نزع منهم الرحمة وأما نور الله تعالى فهو لطفه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقيل يا رسول الله فما علامة انشراح الصدر للاسلام قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت (فان قيل) ان ذكر الله تعالى سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان

قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فكيف جعله فى هذه الآية سببا لحصول القسوة فى القلب (أجيب) بأن النفس اذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل الى الطباع البهيمية والاخلاق الذميمة فان سماعها الذكر الله تعالى يزيدها قسوة وكدرة مثاله أن الفاعل الواحد تختلف أمثاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسوّد وجه القصار ويبيض ثوبه وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى انسانا واحدا يذكر كلاما واحدا فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وما ذاك الا بحسب اختلاف جواهر النفوس ولما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الآية وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حاضر وانسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر قال كل واحد منهما تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فكذا نزلت فازداد عمر رضى الله عنه ايمانا على ايمانه وارتد ذلك الانسان واذا عرف ذلك لم يبعد أن يكون ذكر الله تعالى يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القنوط والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة وقيل من بمعنى عن أى قست قلوبهم عن قبول ذكر الله وجرى على ذلك الجلال المحلى (أولئك) أى هؤلاء البعداء (فى ضلال مبين) أى بين قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه وفى أبى ابن خلف وقيل فى على وحمزة وأبى لهب وولده وقيل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أبى جهل (الله) الفعال لما يريد الذى له مجامع العظمة والاحاطة بصفات الكمال (نزل) أى بالتدريج للتدريب وللجواب عن كل شبهة (أحسن الحديث) أى القرآن روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا حدثنا فنزلت وكونه أحسن الحديث لوجهين أحدهما من جهة اللفظ والآخر من جهة المعنى أما الاول فلان القرآن أفصح الكلام وأبلغه وأجزله وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل فى أسلوبه مع أن كل طبع سليم يستلذه ويستطيبه وأما من جهة المعنى فهو منزه عن التناقض والاختلاف قال جل ثناؤه ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومشتمل على أخبار الماضين وقصص الاولين وعلى أخبار الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل وعلى الوعد والوعيد والجنة والنار وفى ايقاع لفظ الجلالة مبتدأ وبناء نزل عليه تفخيم لاحسن الحديث واستشهاد على حسنه وتأكيده لاستناده الى الله تعالى وانه من عنده وأن مثله لا يجوز أن يصدر الا عنه وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الاحاديث وقوله تعالى (كتابا) أى جامعا لكل خير بدل من أحسن الحديث وقيل حال منه بناء على أن أحسن الحديث معرفة لاضافته الى معرفة وأفعل التفضيل اذا أضيف الى معرفة فيه خلاف فقيل اضافته محضة وقيل غير محضة والصحيح الاول وقوله تعالى (متشابها) نعت لكتابا وهو المسوغ لمجىء الجامد حالا أو انه فى قوة مكتوب وتشابهه بتشابه أبعاضه فى الاعجاز والبلاغة والموعظة الحسنة لا تفاوت فيه أصلا فى لفظ ولا معنى مع كونه نزل مفرقا

فى نيف وعشرين سنة وأما كلام الناس فلابد فيه من التفاوت وان طال الزمان فى التهذيب سواء اتحد زمانه أم لا وقوله تعالى (مثانى) جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه أو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة وقيل لانه يثنى فى التلاوة فلا يمل كما جاء فى وصفه لا يخلق على كثرة الترداد (فان قيل) كيف وصف كتابا وهو مفرد بالجمع (أجيب) بأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشئ هى جملته لا غير ألا ترى انك تقول القرآن اسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك الانسان عظام وعروق وأعصاب الا انك تركت الموصوف الى الصفة وأصله كتابا متشابها فصولا مثانى ويجوز أن يكون مثانى منتصبا على التمييز من متشابها كما تقول رأيت رجلا حسنا شمائل (فان قيل) ما فائدة التثنية والتكرير (أجيب) بأن النفوس أنفر شئ عن حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظهم به وينصح ثلاث مرات وسبعا ليركزه فى قلوبهم ويغرسه فى صدورهم (تقشعر) أى تضطرب وتشمئز (منه) عند ذكر وعيده (جلود) أى ظواهر أجسام (الذين يخشون) أى يخافون (ربهم) والمعنى تأخذهم قشعريرة وهو تغير يحدث فى جلد الانسان عند ذكر آيات العذاب (ثم تلين) أى تطمئن (جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) أى عند ذكر وعده والمعنى اذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها وفى رواية حرمه الله على النار قال قتادة هذا نعت أولياء الله تعالى نعتهم الله تعالى بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم وانما ذلك فى أهل البدع وهو من الشيطان وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال قلت لجدتى أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون اذا قرئ عليهم القرآن قالت كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قال قلت لها ان ناسا اليوم اذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه قالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وروى ان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مر برجل من أهل العراق ساقط فقال ما بال هذا فقالوا انه اذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله تعالى سقط فقال انا لنخشى الله تعالى وما نسقط وقال ابن عمران الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون اذا قرئ عليهم القرآن فقال بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله الى آخره فان رمى بنفسه فهو صادق (فان قيل) لم ذكرت الجلود وحدها أولا فى جانب الخوف ثم قرنت بها القلوب ثانيا فى الرجاء (أجيب) بأن الخشية التى محلها القلوب اذا ذكرت فقد ذكرت القلوب

فكأنه قيل تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم فى أول وهلة واذا ذكر الله تعالى ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء فى قلوبهم وبالقشعريرة لينا فى جلودهم (فان قيل) ما وجه تعديه تلين بالى (أجيب) بأنه ضمن معنى فعل متعد بالى كأنه قيل سكنت أو اطمأنت الى ذكر الله تعالى (فان قيل) كيف قال الله تعالى الى ذكر الله ولم يقل الى رحمة الله (أجيب) بأن من أحب الله تعالى لاجل رحمته فهو ما أحب الله تعالى وانما أحب شيأ غيره وأما من أحب الله تعالى لالشئ سواه فهو المحب الحق وهى الدرجة العالية كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (ذلك) أى القرآن الذى هو أحسن الحديث (هدى الله) الذى له صفات الكمال (يهدى به من يشاء) أى وهو الذى شرح الله تعالى صدره أولا لقبول الهداية (ومن يضلل الله) أى يجعل قلبه قاسيا مظلما (فماله من هاد) أى يهديه وقرأ ابن كثير فى الوقف باثبات الياء بعد الدال والباقون بغير الياء واتفقوا فى الوصل على عدم الياء * ولما حكم تعالى على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وهو الضلال التام حكم عليهم فى الآخرة بحكم آخر وهو العذاب الشديد فقال (أفمن يتقى بوجهه سوء) أى شدة (العذاب) أى يجعله وقاية يقى بها نفسه لانه تكون يداه مغلولتين الى عنقه (يوم القيامة) فلا يقدر ان يتقى الا بوجهه وقال مجاهد يجر على وجهه فى النار وقال عطاء يرمى به فى النار منكوسا فأول شئ يلقى فى النار وجهه وقيل يلقى فى النار مغلولة يداه الى عنقه وفى عنقه صخرة عظيمة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشتعل النار فى تلك الصخرة وهى فى عنقه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عنه للاغلال التى فى يديه وعنقه وقيل المراد بالوجه الجملة وقيل نزلت فى أبى جهل ومعنى الآية أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب كمن أمن من العذاب بدخول الجنة فحذف الخبر كما حذف فى نظائره (وقيل) أى تقول الخزنة (للظالمين) أى الكافرين وكان الاصل لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلا عليهم بالظلم (ذوقوا ما) أى وبال الذى (كنتم تكسبون) أى تعملون فى الدنيا من المعاصى * ولما بين تعالى كيفية عقاب القاسية قلوبهم فى الآخرة وبين كيفية وقوعهم فى العذاب قال تعالى (كذب الذين) وأشار الى قرب زمان المعذبين من زمانهم بادخال الجار فقال تعالى (من قبلهم) أى من قبل كفار مكة أى مثل سبا وقوم تبع كذبوا رسلهم فى اتيان العذاب (فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى من جهة لا يخطر ببالهم ان الشر يأتيهم منها (فأذاقهم الله) أى الذى له القدرة الكاملة (الخزى) أى الذل والهوان من المسخ والقتل وغيرهما (فى الحياة الدنيا) أى العاجلة الدنيئة (ولعذاب الآخرة) أى المعد لهم (أكبر) أى من ذلك الذى وقع بهم فى الدنيا (لو كانوا) أى المكذبون (يعلمون) أى عذابها ما كذبوا ولكن لاعلم لهم أصلا ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا * ولما ذكر تعالى هذه الفوائد الكثيرة فى هذه المطالب بين أن هذه البينات بلغت حد الكمال والتمام فقال تعالى (ولقد ضربنا) أى جعلنا (للناس) أى عامة لان رسالته صلى الله عليه وسلم عامة (فى هذا القرآن) أى الجامع لكل علم وكل خير

(من كل مثل) أي يحتاج اليه الناظر في أمر دينه (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون به وقرأ نافع وقالون وابن كثير وعاصم باظهار الدال عند الضاد والباقون بالادغام وقوله تعالى (قرآنا عربيا) فيه ثلاثة أوجه أحدها أن يكون منصوبا على المدح لانه لما كان نكرة امتنع اتباعه للقرآن ثانيها أن ينتصب بيتذكرون أي يتذكرون قرآنا ثالثها أن ينتصب على الحال من القرآن على أنها حال مؤكدة وتسمى حالا موطئة لان الحال في الحقيقة عربيا وقرآنا توطئة له نحو جاء زيد رجلا صالحا (غير ذي عوج) أي مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف نعت لقرآنا أو حال أخرى (فان قيل) هلا قيل مستقيما أو غير معوج (أجيب) بأن في ذلك فائدتين احداهما نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال تعالى ولم يجعل له عوجا ثانيتهما أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الاعيان وقيل المراد بالعوج الشك واللبس قال القائل

وقد أتاك يقين غير ذي عوج * من الاله وقول غير مكذوب

(لعلهم يتقون) أي الكفر *(تنبيه)* وصف تعالى القرآن بثلاث صفات أولها كونه قرآنا والمراد كونه متلوا في المحاريب الى قرب قيام الساعة ثانيها كونه عربيا أي انه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ثالثها كونه غير ذي عوج قال مجاهد غير ذي لبس وقال ابن عباس رضي الله عنهما غير مختلف وقال السدي غير مخلوق ويروى ذلك عن مالك بن أنس وحكى شقيق وابن عيينة عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق * ولما شرح الله تعالى وعيد الكفار مثل لما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم بقوله تعالى (ضرب الله) أي الذي له الملك كله (مثلا) أي للمشركين والموحدين وقوله تعالى (رجلا) بدل من مثلا وقوله تعالى (فيه شركاء) يجوز أن تكون الجملة من مبتدا وخبر في محل نصب صفة لرجلا ويجوز أن يكون الوصف الجار وحده وشركاء فاعل به قال ابن عادل وهو أولى لقربه من المفرد وقوله تعالى (متشاكسون) صفة لشركاء والتشاكس التخالف وأصله سوء الخلق وعسره وهو سبب التخالف أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم يقال رجل شكس وشرس اذا كان سيئ الخلق مخالفا للناس لا يرضى بالانصاف (ورجلا سالما) أي خالصا من نزاع (لرجل) أي خالصا له لا شريك له فيه ولا منازع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بعد السين وكسر اللام بعدها والباقون بغير ألف وفتح اللام وهو الذي لا ينازع فيه من قولهم هو لك سلم أي مسلم لا منازع لك فيه وقوله تعالى (هل يستويان) استفهام انكار أي لا يستويان وقوله تعالى (مثلا) تمييز والمعنى اضرب لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل مملوك لشركاء بينهم اختلاف وتنازع وكل واحد يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه حوائجهم وهو متحير في أمره وكلما أرضى أحدهم غضب الباقون واذا احتاج اليهم فكل واحد يرده الى الآخر فبقي متحيرا لا يعرف أيهم أولى أن يطلب رضاه وأيهم يعينه في حاجاته فهو بهذا السبب في عذاب أليم وآخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الاخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأي هذين العبدين

أحسن حالا لاشك ان هذا أقرب الى الصلاح من حال الاول فان الاول مثل المشرك والثانى مثل الموحد وهذا المثال فى غاية الحسن فى تقبيح المشرك وتحسين الموحد (فان قيل) هذا المثال لا ينطبق على عبادة الاصنام لانها جمادات فليس بينها منازعة ولا تشاكس (أجيب) بأن عبدة الاصنام مختلفون منهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم فى الحقيقة انما يعبدون الكواكب السبعة وهم يثبتون بينها منازعة ومشاكسة ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الاعظم والمشترى هو السعد الاعظم ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الارواح الفلكية والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الارواح السماوية وحينئذ يحصل بين تلك الارواح منازعة ومشاكسة فيكون المثال مطابقا ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل لاشخاص من العلماء والزهاد مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصير أولئك الاشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله تعالى والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم ان المحق هو ذلك الرجل الذى هم على دينه وان من سواه مبطل وعلى هذا التقدير أيضا ينطبق المثال * ولما بطل القول باثبات الشركاء والانداد وثبت انه لا اله الا هو الواحد الاحد الحق قال الله تعالى (الحمد) أى الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أى كل الحمد لله الذى لا مكافئ له فلا يشاركه فيه على الحقيقة سواه لانه المنعم بالذات والمالك على الاطلاق (بل أكثرهم) أى أهل مكة (لا يعلمون) أى ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون به غيره من فرط جهلهم وقول البغوى والمراد بالاكثر الكل ليس بظاهر * ولما كان كفار مكة يتربصون موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الله تعالى بأن الموت يجمعهم جميعا بقوله تعالى (انك ميت) أى ستموت وخصه الله تعالى بالخطاب لان الخطاب اذا كان للرأس كان اصدع لاتباعه فكل موضع كان للاتباع وخص فيه صلى الله عليه وسلم بالخطاب دونهم فهم المخاطبون فى الحقيقة على وجه أبلغ (وانهم ميتون) أى سيموتون فلا معنى للتربص وشماتة الفانى بالفانى * (فائدة) * قال الفراء الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميت بالتخفيف من فارقته الروح ولذلك لم يخفف هنا وقوله تعالى (ثم انكم) فيه تغليب المخاطب على الغائب (يوم القيامة عند ربكم) أى المربى لكم بالخلق والرزق (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت وكذبوا واجتهدت فى الارشاد والتبليغ فلجوا فى التكذيب والعناد ويعتذرون بالاباطيل يقول الاتباع أطعنا سادتنا وكبراءنا وتقول السادات أغوتنا آباؤنا الاقدمون والشياطين ويجوز أن يكون المراد به الاختصام العام وجرى عليه الجلال المحلى وهو أولى وان رجح الاول الكشاف لما روى عن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله أتكون علينا الخصومة بعد الذى كان بيننا فى الدنيا قال نعم فقال ان الامر اذا لشديد وقال ابن عمر عشنا برهة من الدهر وكنا نرى ان هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين قلنا كيف نختصم ودينا واحد وكتابنا واحد حتى رأينا بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفنا أنها فينا نزلت وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى هذه الآية قال كنا نقول ربنا

واحد

واحد ودينناواحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا هو هذا وعن ابراهيم النخعي قال لما نزلت قالت الصحابة كيف نختصم ونحن اخوان فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا هذه خصومتنا وعن أبي العالية نزلت في أهل القبلة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليستحله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم فان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له أخذ من سيئاته فجعلت عليه وعن أبي هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال ان المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد كان شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ثم انه تعالى بين نوعا آخر من قبائح أفعالهم بقوله تعالى (فمن) أي لا أحد (أظلم) أي منهم هكذا كان الأصل ولكن قال تعالى (ممن كذب) تعميما (على الله) أي الذي الكبرياء رداؤه والعظمة ازاره بنسبة الولد والشريك اليه (وكذب) أي أوقع التكذيب لكل من أخبره (بالصدق) أي بالامر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (اذجاءه) أي فاجأه بالتكذيب لما سمع من غير وقفة ولا اعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم والباقون بالادغام ثم أردف ذلك بالوعيد فقال (أليس في جهنم) أي النار التي تلقى داخلها بالتجهم والعبوسة كما كان يلقى الحق وأهله (مثوى) أي مأوى (للكافرين) أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق واللام في للكافرين اشارة اليهم والاستفهام بمعنى التقرير * ولما ذكر من افترى وكذب ذكر مقابله وهو الذي جاء بالصدق وصدق به بقوله تعالى (والذي جاء بالصدق) قال قتادة ومقاتل هو النبي صلى الله عليه وسلم (وصدق به) هم المؤمنون فالذي بمعنى الذين ولذلك روعي معناه فجمع في قوله تعالى (أولئك) أي العالو الرتبة (هم المتقون) أي الشرك كما روعي معنى من في قوله تعالى للكافرين فان الكافرين ظاهر واقع موقع الضمير اذ الاصل مثوى لهم وكما في قوله تعالى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ثم قال تعالى ذهب الله بنورهم قال الزمخشري ويجوز أن يريد الفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته رضي الله تعالى عنهم الذين صدقوا به اهـ قال أبو حيان وفيه توزيع للصلة والفوج هو الموصول فهو كقولك جاء الفريق الذي شرف وشرف والاظهر عدم التوزيع بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الاولى وقيل بل الاصل والذين جاء بالصدق فحذفت النون تخفيفا كقوله تعالى كالذي خاضوا قال ابن عادل وهذا وهم اذ لو قصد ذلك لجاء بعده ضمير الجمع فكان يقال والذي جاؤا كقوله تعالى كالذي خاضوا ويدل عليه ان نون التثنية اذا حذفت عاد الضمير مثنى كقوله

أبني كليب ان عمي اللذا * قتلا الملوك وفككا الاغلالا

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والذي جاء بالصدق يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلا اله الا الله وصدق به الرسول أيضا بلغه الى الخلق وقال السدي والذي جاء بالصدق جبريل عليه السلام جاء بالقرآن وصدق به محمد صلى الله عليه وسلم تلقاه بالقبول وقال أبو العالية والكلبي والذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق به أبو بكر رضي الله عنه وقال عطاء والذي جاء بالصدق الانبياء وصدق به الاتباع وقال الحسن هم المؤمنون صدقوا به في الدنيا وجاؤا به في الآخرة وقوله تعالى (لهم ما يشاؤن) أي من أنواع الكرامات (عند ربهم) أي في الجنة يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه (ذلك) أي هذا الجزاء (جزاء المحسنين) لانفسهم بايمانهم وقوله تعالى (ليكفر الله عنهم) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ومعنى تكفيرها أن يسترها عليهم بالمغفرة *(تنبيه)* في تعلق هذه اللام وجهان أحدهما أنها متعلقة بمحذوف أي يسر لهم ذلك ليكفر ثانيهما أنها متعلقة بنفس المحسنين كأنه قيل الذين أحسنوا ليكفر أي لاجل التكفير وقوله تعالى (أسوأ الذي) أي العمل الذي (عملوا) فيه مبالغة فانه اذا كفر كان غيره أولى بذلك أو للايذان بأن الشئ الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الاسوأ لاستعظامهم المعصية أو أنه بمعنى السيئ كما جرى عليه الجلال المحلي كقولهم الناقص والاشج أعدلا بني مروان أي عادلاهم اذ ليس المراد به التفضيل والناقص هو محمد الخليفة سمي به لانه نقص أعطية القوم والاشج هو عمر بن عبد العزيز سمي به لشجة أصابت رأسه (ويجزيهم أجرهم) أي يعطيهم ثوابهم (بأحسن الذي) أي العمل الذي (كانوا يعملون) أي فيعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الاجر لحسن اخلاصهم فيها وهذا أولى من قول الجلال المحلي انه بمعنى الحسن وقوله تعالى (أليس الله) أي الجامع لصفات الكمال كلها المنعوت بنعوت العظمة والجلال (بكاف عبده) أي الخالص له استفهام انكار للنفي مبالغة في الاثبات وقرأ حمزة والكسائي بكسر العين وفتح الباء الموحدة وألف بعدها على الجمع وقرأ الباقون بفتح العين وسكون الباء على الافراد فقراءة الافراد محمولة على النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة الجمع على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام فان قومهم قصدوهم بالسوء كما قال الله تعالى وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وكفاهم الله تعالى شر من عاداهم ويحتمل أن يراد بقراءة الافراد الجنس فتساوي قراءة الجمع وقيل المراد أن الله تعالى كفى نوحا عليه السلام الغرق وابراهيم عليه السلام الحرق ويونس عليه السلام بطن الحوت فهو سبحانه وتعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك (ويخوفونك) أي عباد الاصنام (بالذين من دونه) وذلك ان قريشا خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم معاداة الاوثان وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون فأنزل الله تعالى هذه الآية وروي أنه صلى الله عليه وسلم بعث خالدا الى العزى ليكسرها فقال له سادنها أي خادمها لا تدركها أحذركها يا خالد ان لها شدة لا يقوم لها شئ فعمد خالد اليها

فهم ثم أنهما فنزلت هذه الآية * ولما شرح الله الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل فقال تعالى شأنه (ومن يضلل الله) أي الذي له الأمر كله (فما له من هاد) أي يهديه الى الرشاد (ومن يهد الله فما له من مضل) أي فهذه الدلائل والبينات لا تنفع الا اذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق اذ لا راد لفعله كما قال تعالى (أليس الله) أي الذي بيده كل شئ (بعزيز) أي غالب على أمره (ذي انتقام) أي من أعدائه بلى هو كذلك وفي هذا تهديد للكفار * ولما بين تعالى وعيد المشركين ووعد الموحدين عاد الى اقامة الدليل على تزييف طريق عبدة الاوثان وهذا الترتيب مبني على أصلين الاول ان هؤلاء المشركين مقرون بوجود الاله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد من قوله تعالى (ولئن سألتهم) أي من شئت منهم فرادى أو مجموعين واللام لام القسم (من خلق السموات) أي على ما لها من الاتساع والعظمة والارتفاع (والارض) أي على ما لها من العجائب وفيها من الانتفاع (ليقولن الله) أي وحده لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية قال بعض العلماء العلم بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم علم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فان من تأمل في عجائب بدن الانسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم انه لابد من الاعتراف بالاله القادر الحكيم الرحيم والاصل الثاني ان هذه الاصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله تعالى (قل أرأيتم) أي بعد ما تحققتم ان خالق العالم هو الله تعالى (ما تدعون) أي تعبدون (من دون الله) أي الذي هو ذو الجلال والاكرام (ان أرادني الله) أي الذي لا راد لامره (بضر) أي بشدة وبلاء (هل هن كاشفات ضره) أي لا تقدر على ذلك (أو أرادني برحمة) أي بعافية وبركة (هل هن ممسكات رحمته) أي لا تقدر على ذلك فثبت انه لابد من الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم قال مقاتل فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكتوا وقرأ أبو عمرو بتنوين التاء من كاشفات وممسكات ونصب الراء من ضره ورفع الهاء ونصب التاء من رحمته والباقون بغير تنوين فيهما وكسر الراء والهاء من ضره والتاء والهاء من رحمته واذا كانت هذه الاصنام لا قدرة لها على الخير والشر كانت عبادة الله تعالى كافية والاعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله تعالى (قل حسبي الله) أي ثقتي به واعتمادي (عليه يتوكل المتوكلون) أي يثق الواثقون (فان قيل) لم قال تعالى كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه (أجيب) بأنه انثهن تحقيرا لما يدعون من دونه ولانهم كانوا يسمونها بأسماء الاناث وهي اللات والعزى ومناة قال الله تعالى أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل يا قوم) أي الذين أرجوهم عند الملمات وفيهم كفاية في القيام بما يحاولون (اعملوا على مكانتكم) أي على حالتكم فيه تهديد أي انكم تعتقدون في أنفسكم انكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم وقرأ شعبة بألف بعد النون جمعا والباقون بغير ألف افرادا (اني عامل)

أى فى تقريرديني (فسوف تعلمون) أى بوعد لا خلف فيه (من يأتيه) منا ومنكم بسبب أعماله (عذاب يخزيه) فان خزى أعدائه دليل عليه وقد أخذهم الله تعالى يوم بدر (ويحل) أى ينزل (عليه عذاب مقيم) أى دائم وهو عذاب النار *(تنبيه)* المكانة بمعنى المكان فاستعيرت من العين للمعنى كما استعير لفظ هنا وحيث للزمان وهما للمكان (فان قيل) حق الكلام انى عامل على مكانتى فلم حذف (أجيب) بأنه حذف للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والايذان بأن حاله لا تقف وتزداد كل يوم قوة وشدة لان الله تعالى ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله ألا ترى الى قوله تعالى فسوف تعلمون توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم فى الدنيا والآخرة * ولما بين تعالى فى هذه الآيات فساد مذاهبهم أى المشركين تارة بالدلائل وتارة بضرب الامثال وتارة بذكر الوعد والوعيد وكان صلى الله عليه وسلم يعظم عليه اصرارهم على الكفر كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم وقال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات أردفه بكلام يزيل ذلك الحزن العظيم عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (انا أنزلنا) أى بما لنا من العظمة والقدرة التامة (عليك) يا أشرف الخلق (الكتاب) أى الكامل الشرف (للناس) أى لاجلهم فانه مناط مصالحهم فى معاشهم ومعادهم فهو للناس عامة لان رسالتك عامة وجعلنا انزاله مقرونا (بالحق) أى بالصدق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله (فمن اهتدى) أى طاوع الهادى (فلنفسه) أى فنفعه يعود الى نفسه (ومن ضل) أى وقع فى الضلال بمخالفته (فانما يضل عليها) أى فضرر ضلاله يعود اليه * ولما دل السياق على أن التقدير فما أنت عليهم بجبار لتقهرهم على الهدى عطف عليه قوله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) أى لست مأمورا بأن تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم وذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن الهداية والضلال من العبد لا يحصلان الا من الله تعالى لان الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم فكما أن الحياة واليقظة لا يحصلان الا بخلق الله تعالى كذلك الضلال لا يحصل الا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ومن عرف سر الله تعالى فى القدر هانت عليه المصائب * ولما بين سبحانه أن الهداية والضلال بتقديره قال تعالى (الله) أى الذى له مجامع الكمال وليس لشائبة النقص اليه سبيل (يتوفى الانفس) أى الارواح (حين موتها) أى موت أجسادها وتوفيها اماتتها وهى أن تسلب ماهى به حية حساسة دراكة من صحة أجزائها وسلامتها لانها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت وقوله تعالى (والتى لم تمت فى منامها) عطف على الانفس أى يتوفى الانفس حين موتها ويتوفى أيضا الانفس التى لم تمت فى منامها ففى منامها ظرف ليتوفى أى يتوفاها حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى ومنه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل حتى لا تميزوا ولا تتصرفوا كما أن الموتى كذلك فالتى تتوفى عند النوم هى الانفس التى يكون بها العقل والتمييز ولكل انسان نفسان احداهما نفس الحياة وهى التى تفارقه عند الموت ويزول بزوالها النفس

والاخرى هي النفس التي تفارقه اذا نام وهو بعد النوم يتنفس (فيمسك التي قضى عليها الموت) فلا يردها الى جسدها وقرأ حمزة والكسائي بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء بعد الضاد ورفع التاء من الموت والباقون بفتح القاف والضاد وسكون الياء بعد الضاد ونصب الموت (ويرسل الاخرى) أي يردها الى جسدها وهي التي لم يقض عليها الموت (الى أجل مسمى) أي الى الوقت الذي ضرب لموتها وقيل يتوفى الانفس أي يستوفيها ويقبضها وهي الانفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الانفس التي لم تمت في منامها وهي انفس التمييز قالوا والتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ولان نفس الحياة اذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس ورووا عن ابن عباس رضي الله عنه في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحريك فاذا نام العبد قبض الله تعالى نفسه ولم يقبض روحه قال الزمخشري والصحيح ما ذكرنا ولا لان الله تعالى علق التوفي والموت والمنام جميعا بالانفس وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وانما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام انتهى ويروى عن علي رضي الله تعالى عنه قال يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فاذا انتبه من النوم عاد الروح الى جسده بأسرع من لحظة ويقال ان أرواح الاحياء والاموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله فاذا أرادت العود الى أجسادها أمسك الله تعالى أرواح الاموات عنده وأرسل أرواح الاحياء حتى ترجع الى أجسادها الى أجل مدة حياتها وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى أحدكم الى فراشه فلينفض فراشه بداخل ازاره فانه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فان أمسكت نفسي فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين (ان في ذلك) أي التوفي والامساك والارسال (لآيات) أي دلالات على كمال قدرته وحكمته ورحمته وقال مقاتل لعلامات (لقوم يتفكرون) أي فيعلمون ان القادر على ذلك قادر على البعث (فان قيل) قوله تعالى الله يتوفى الانفس يدل على ان المتوفي هو الله تعالى ويؤيده قوله تعالى الذي خلق الموت والحياة وقوله تعالى عن ابراهيم عليه السلام ربي الذي يحيي ويميت وقال تعالى في آية أخرى اذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا فكيف الجمع (أجيب) بأن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى الا انه تعالى فوض كل نوع الى ملك من الملائكة ففوض قبض الارواح الى ملك الموت وهو الرئيس وتحته اتباع وخدم فأضيف التوفي في آية الى الله تعالى وهي الاضافة الحقيقية وفي آية الى ملك الموت لانه الرئيس في هذا العمل وفي آية الى اتباعه ثم ان الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا نحن لا نعبد هذه الاصنام لاعتقاد انها تضر وتنفع وانما نعبدها لاجل انها تماثيل لاشخاص كانوا عند الله تعالى من المقربين فنحن نعبدها لتشفع لنا أولئك المقربون عند الله تعالى فأجاب الله سبحانه عنه بقوله تعالى (أم اتخذوا) أي كلفوا أنفسهم بعد وضوح الدلائل عندهم (من دون الله) أي

الذى لامكافئ له ولامدانى (شفعاء) أى تشفع لهم عند الله تعالى *(تنبيه)* أم منقطعة فتقدر ببل والهمزة (قل) ياأشرف الخلق لهؤلاء البعداء (أولو) أى أيشفعون ولو (كانوا لا يملكون شيأ) أى من الشفاعة وغيرها (ولا يعقلون) أى أنكم تعبدونهم ولا غير ذلك وجواب لو محذوف تقديره ولو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم (قل) أى لهم (لله) أى الذى له كمال القدرة والعظمة (الشفاعة جميعا) أى هو مختص بها فلا يشفع أحد الا باذنه ثم قرر ذلك فقال (له ملك السموات والارض) أى فانه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم دون اذنه ورضاه (ثم اليه ترجعون) أى يوم القيامة فيكون الملك له أيضا حينئذ ثم ذكر تعالى نوعا آخر من أعمال المشركين القبيحة بقوله تعالى (واذا ذكر الله) أى الذى لا اله غيره (وحده) أى دون آلهتهم (اشمأزت) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد يعنى انقبضت وقال قتادة استكبرت وأصل الاشمئزاز النفور والاستكبار أى نفرت واستكبرت (قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى لا يؤمنون بالبعث (واذا ذكر الذين من دونه) أى الاصنام (اذا هم يستبشرون) أى يفرحون لفرط افتتانهم ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بالغ فى الامرين حق الغاية فيهما فان الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه والاشمئزاز ان يمتلئ غيظا وهما حتى ينقبض أديم وجهه قال مجاهد ومقاتل وذلك حين قرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة والنجم وألقى الشيطان فى أمنيته تلك الغرانيق العلا ففرح به المشركون وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الحج *(تنبيه)* قال الزمخشرى فان قلت ما العامل فى اذا ذكر قلت العامل فى اذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤا وقت الاستبشار قال أبو حيان أما قول الزمخشرى فلا أعلمه من قول من ينتمى الى النحو وهو ان الظرفين معمولان لفاجؤا ثم قال اذا الاولى تنتصب على الظرفية والثانية على المفعول به * ولما حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار هذا الامر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بذكر الدعاء العظيم فقال تعالى (قل اللهم) أى يا الله (فاطر السموات والارض) أى مبدعهما من العدم أى ألتجئ الى الله تعالى بالدعاء لما تحيرت فى أمرهم وعجزت فى عنادهم وشدة شكيمتهم فانه القادر على الاشياء والعالم بالاحوال كلها (عالم الغيب والشهادة) وصف تعالى نفسه بكمال القدرة وكمال العلم (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى من أمر الدين وعن الربيع بن خيثم وكان قليل الكلام لما أخبر بقتل الحسين وسخط على قاتله وقالوا الآن يتكلم فما زاد على ان قال آه أوقد فعلوا وقرأ الآية وروى انه قال على اثرها أوقتل من كان يجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجره ويضع فاه على فيه وعن أبى سلمة قال سألت عائشة رضى الله عنها بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم * ولما حكى الله تعالى عنهم هذا المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء أولها قوله تعالى (ولو أن للذين

ظلموا) أي أنفسهم بالكفر (ما في الارض جميعا) أي من الاموال (ومثله معه لافتدوا) اي اجتهدوا في طلب ان يفدوا أنفسهم (به من سوء العذاب يوم القيامة) وهذا وعيد شديد واقناط كلي لهم من الخلاص روى الشيخان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى لاهون أهل النار عذابا لو ان لك ما في الارض من شيء لكنت تفتدي به فيقول نعم فيقول الله قد أردت منك وفي رواية سألتك أهون من هذا وأنت في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت الا أن تشرك بي شيئا قوله اردت أي فعلت معك فعل الآمر المريد وهو معنى قوله في رواية قد سألتك ثانيها قوله تعالى (وبدا لهم من الله) أي الملك الاعظم (ما لم يكونوا يحتسبون) أي ظهر لهم أنواع من العذاب لم تكن في حسابهم وفي هذا زيادة مبالغة هو نظير قوله تعالى في الوعد فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقوله صلى الله عليه وسلم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال مقاتل ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة وقال السدي ظنوا أن أعمالهم حسنات فبدلت لهم سيآت لانهم كانوا يتقربون الى الله تعالى بعبادة الاصنام ويظنونها حسنات فبدت لهم سيآت ثالثها قوله تعالى (وبدا لهم) أي ظهر ظهورا تاما (سيآت ما كسبوا) أي مساوي أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله تعالى (وحاق) أي نزل (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أي يطلبون ويوجدون الهزء في العذاب ثم حكى الله تعالى عنهم طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة بقوله تعالى (فاذا مس الانسان) أي الجنس (ضر) أي فقر أو مرض أو غير ذلك (دعانا) أي في دفع ذلك (فان قيل) ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو (أجيب) بأن السبب في ذلك ان هذه وقعت مسببة عن قوله تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت على معنى انهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر آلهتهم فاذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره فقوله تعالى فاذا مس الانسان معطوف على قوله تعالى واذا ذكر الله وحده وما بينهما اعتراض مؤكد لانكار ذلك عليهم هذا محصل كلام الزمخشري واعترضه أبو حيان بان أبا علي يمنع الاعتراض بجملتين فكيف بهذه الجمل الكثيرة ثم قال والذي يظهر في الربط أنه لما قال ولو أن للذين ظلموا الآية وكان ذلك اشعارا بما ينال الظالمين من شدة العذاب وانه يظهر لهم يوم القيامة العذاب أتبع ذلك بما يدل على ظلمه وبغيه اذ كان اذا مسه ضر دعا الله تعالى فاذا أحسن اليه لم ينسب ذلك اليه كما قال تعالى (ثم اذا خولناه) أي أعطيناه (نعمة منا) أي تفضلا فان التخويل يختص به (قال انما أوتيته) أي المنعم به (على علم) أي على علم من الله تعالى اني له أهل وقيل ان كان ذلك سعادة في المال أو عافية في النفس يقول انما حصل ذلك بجده واجتهاده وان كان صحة قال انما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني وان حصل مال يقول حصل بكسبي وهذا تناقض أيضا لانه لما كان عاجزا محتاجا أضاف الكل الى الله تعالى وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده الى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح (بل هي فتنة) أي بلية يبتلى بها العبد (فان قيل) كيف ذكر النعمة أولا في قوله انما أوتيته

ثم أنثها ثانيا (أجيب) بأنه ذكر أولا لان النعمة بمعنى المنعم به كما مر وقيل تقديره شيأ من النعمة وأنث ثانيا اعتبارا بلفظها أولان الخبر لما كان مؤنثا أعنى فتنة ساغ تأنيث المبتدا لاجله لانه فى معناه كقولهم ماجاءت حاجتك وقيل هى أى الحالة أو القولة كما جرى عليه الجلال المحلى أو العطية أو النعمة كما قاله البقاعى (ولكن أكثرهم) أى أكثر هؤلاء القائلين هذا الكلام (لايعلمون) أن التخويل استدراج وامتحان (قد قالها) أى القولة المذكورة وهى قوله انما أوتيته على علم لانها كلمة أو جملة من القول (الذين من قبلهم) أى من الامم الماضية قال الزمخشرى هم قارون وقومه حيث قال انما أوتيته على علم عندى وقومه راضون به فكأنهم قالوها قال ويجوز أن يكون فى الامم الماضية آخرون قائلون مثلها (فما أغنى عنهم) أى أولئك الماضين (ما كانوا يكسبون) أى من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيآت ما كسبوا) أى جزاؤها من العذاب ثم أوعد كفار مكة فقال تعالى (والذين ظلموا) أى بالعتو (من هؤلاء) أى من مشركى قومك ومن للبيان أو للتبعيض (سيصيبهم سيآت ما كسبوا) أى كما أصاب أولئك (وماهم بمعجزين) أى فائتين عذابنا فقتل صناديدهم يوم بدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين فقيل لهم (أولم يعلموا أن الله) أى الذى له الجلال والكمال (يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) وان كان لا حيلة له ولاقوة امتحانا (ويقدر) أى يضيق الرزق لمن يشاء وان كان قويا شديد الحيلة ابتلاء فلا قابض ولا باسط الا الله تعالى ويدل على ذلك انا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه فلا بد لذلك من حكمة وسبب وذلك السبب ليس هو عقل الانسان وجهله فانا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق ونرى الجاهل الضعيف فى أعظم السعة وليس ذلك أيضا لاجل الطبائع والافلاك لان الساعة التى ولد فيها ذلك الملك السلطان القاهر قد ولد فيها عالم أيضا من الناس وعالم من الحيوان غير الانسان ويولد أيضا فى تلك الساعة عالم من النبات * فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة والشقاوة علمنا ان الفاعل لذلك هو الله تعالى فصح بهذا البرهان العقلى القاطع صحة قوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر قال الشاعر

فلا السعد يقضى به المشترى * ولا النحس يقضى علينا زحل
ولكنه حكم رب السماء * وقاضى القضاة تعالى وجل

(ان فى ذلك) أى البيان الظاهر (لآيات) أى دلالات (لقوم يؤمنون) أى بأن الحوادث كلها من الله تعالى بوسط أو غيره * ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) يا محمد ربكم المحسن اليكم يقول (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) أى أفرطوا فى الجناية عليها بالاسراف فى المعاصى واضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن (لا تقنطوا) أى لا تيأسوا (من رحمة الله) أى اكرام المحيط بكل صفات الكمال فيمنعكم ذلك القنوط من التوبة التى هى باب الرحمة وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى يا عبادى بسكون الياء وتسقط فى الوصل وفتحها الباقون وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى

تقنطوا بكسر النون بعد القاف والباقون بفتحها (ان الله) أى المتفضل على عباده المؤمنين (يغفر الذنوب) لمن تاب من الشرك (جميعا) لمن يشاء كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وأما الكافر اذا أسلم فان الله تعالى لا يؤاخذه بما وقع من كفره قال تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف *(تنبيه)* فى هذه الآية أنواع من المعانى والبيان حسنة منها اقباله عليهم ونداؤهم ومنها اضافتهم اليه اضافة تشريف ومنها الالتفات من التكلم الى الغيبة فى قوله تعالى من رحمة الله ومنها اضافة الرحمة لاجل أسمائه الحسنى ومنها اعادة الظاهر بلفظه فى قوله تعالى ان الله ومنها ابراز الجملة فى قوله تعالى (انه هو) أى وحده (الغفور) أى البليغ الغفر يمحو الذنوب عمن يشاء عينا وأثرا فلا يعاقب ولا يعاتب (الرحيم) أى المكرم بعد المغفرة مؤكدة بان وبالفصل وباعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا اقتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الذى تدعو له لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت هذه الآية وروى عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس انها نزلت فى وحشى قاتل حمزة رضى الله تعالى عنهما حين بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام فأرسل اليه كيف تدعونى الى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله سبحانه وتعالى الا من تاب وآمن وعمل صالحا فقال وحشى هذا شرط شديد لعلى لا أقدر عليه فهل غير ذلك فأنزل الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فقال وحشى أرانى بعد فى شبهة فلا أدرى أيغفر لى أم لا فأنزل الله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية قال نعم هذا فجاء فأسلم فقال المسلمون هذا له خاصة قال بل للمسلمين عامة وروى عن ابن عمر قال نزلت هذه الآية فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا وكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا قد أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بيده ثم بعثها الى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد والى اولئك النفر فاسلموا وهاجروا وروى عن ابن مسعود أنه دخل المسجد واذا قاص يقص وهو يذكر النار والاغلال فقام على رأسه فقال يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وعن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى وروى الطبرانى أنه صلى الله عليه وسلم قال ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال ألا ومن أشرك ثلاث مرات وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان فى بنى اسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين انسانا ثم خرج يسأل فاذا راهب فسأله فقال هل لى توبة فقال لا فقتله وجعل يسأل

فقال له رجل ائت قرية كذا فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله تعالى الى هذه أن تقربي والى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فغفرله وفى رواية فقال له انى قتلت تسعة وتسعين نفسا فهل لى من توبة فقال لا فقتله فكمل مائة ثم سأل عن أعلم أهل الارض فدل على عالم فقال انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى أرض كذا الى ان قال فوجدوه أدنى الى الارض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة وعن ابن عمر قال كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أو نقول ليس شئ من حسناتنا الاوهى مقبولة حتى نزلت أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذى يبطل أعمالنا فقيل لنا الكبائر والفواحش فكنا اذا رأينا من أصاب منها شيأ خفنا عليه ومن لم يصب منها شيأ رجونا له فانزل الله تعالى قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله وأراد بالاسراف ارتكاب الكبائر * ولما كان التقدير واقلعوا عن ذنوبكم فانها قاطعة عن الخير مبعدة عن الكمال عطف عليه استعطافا قوله تعالى (وأنيبوا) أى ارجعوا بكلياتكم وكلوا حوائجكم وأسندوا أموركم واجعلوا طريقكم (الى ربكم) أى الذى لم تروا احسانا الاوهو منه (واسلموا) أى وأخلصوا (له) أعمالكم (من قبل أن يأتيكم) أى وأنتم صاغرون (العذاب) أى القاطع لكل عذوبة المجرع لكل مرارة وصعوبة (ثم لا تنصرون) أى لا يتجدد لكم نوع نصر أبدا ان لم تتوبوا (واتبعوا) أى عالجوا أنفسكم وكلفوها ان تتبع (أحسن ما أنزل اليكم) أى على سبيل العدل كالاحسان الذى هو أعلى من العفو الذى هو فوق الانتقام باتباع هذا القرآن الذى هو أحسن ما نزل من كتب الله تعالى واتباع أحاسن ما فيه فتصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحسن الى من ظلمك هذا فى حق الخلائق ومثله فى عبادة الخالق بأن تكون كانك تراه الذى هو أعلى من استحضار أنه يراك الذى هو أعلى من أداء تهامع الغفلة عن ذلك * ولما كان هذا شديدا على النفس رغب فيه بقوله تعالى بمظهر صفة الاحسان موضع الاضمار (من ربكم) أى الذى لم يزل يحسن اليكم وأنتم تبارزونه بالعظائم وقال الحسن رضى الله عنه معنى الآية الزموا طاعته واجتنبوا معصيته فان فى القرآن ذكر القبيح لتجتنبه وذكر الادون لئلا ترغب فيه وذكر الاحسن لتؤثره وقيل الاحسن الناسخ دون المنسوخ لقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وقيل العزائم دون الرخص وقوله تعالى (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) أى ليس عندكم شعور باتيانه بوجه من الوجوه فيه تهديد وتخويف * ولما خوفهم الله تعالى بهذا العذاب بين انهم بتقدير نزوله عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلام الاول ماذكره بقوله تعالى (ان) أى كراهة أن (تقول نفس) أى عند وقوع العذاب وافرادها وتنكيرها كاف فى الوعيد لان كل أحد يجوز أن يكون هو المراد (ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) قال الحسن قصرت فى طاعة الله وقال مجاهد فى أمر الله

وقال

وقال سعيد بن جبير فى حق الله وقيل ضيعت فى ذات الله وقيل معناه قصرت فى الجانب الذى يؤدى الى رضا الله تعالى والعرب تسمى الجانب جنبا قال فى الكشاف هذا من باب الكناية لانك اذا أثبت الامر فى مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ألا ترى الى قول الشاعر

ان السماحة والمروءة والندى * فى قبة ضربت على ابن الحشرج

أى فانه لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج بل كنى عن ذلك فى قبة مضروبة عليه فأفاد اثباتها له والقبة تكون فوق الخيمة تتخذها الرؤساء وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة والدورى عن أبى عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (وان) أى والحال انى (كنت) أى كان ذلك فى طبعى (لمن الساخرين) أى المستهزئين المتكبرين المنزلين أنفسهم فى غير منزلتها وذلك أنه ما كفانى المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة أى تقول هذا لعله يقبل منها ويعفى عنها على عادة المعترفين فى وقت الشدائد لعلهم يعاودون الى أجمل العوائد الثانى من الكلمات التى حكاها الله تعالى عنهم بعد نزول العذاب عليهم ماذكره الله تعالى بقوله سبحانه (أو تقول) أى تلك النفس المفرطة (لو أن الله) أى الذى له القدرة الكاملة والعلم الشامل (هدانى) أى لبيان الطريق (لكنت من المتقين) أى الذين لا يقدمون على فعل الا مايدلهم عليه دليل الثالث من الكلمات ماذكره الله تعالى بقوله سبحانه (أو تقول) أى تلك النفس المفرطة (حين ترى العذاب) أى الذى واجهها عيانا (لو أن) أى ياليت (لى كرة) أى رجعة الى دار العمل (فأكون) أى تسبب عن رجوعى اليها أن أكون (من المحسنين) أى العاملين بالاحسان الذى دعا اليه القرآن *(تنبيه)* فى نصب فأكون وجهان أحدهما عطفه على كرة فانها مصدر فعطف مصدر مؤول على مصدر مصرح به كقولها

للبس عباءة وتقر عينى * أحب الى من لبس الشفوف

والثانى انه منصوب على جواب التمنى المفهوم من قوله تعالى لو أن لى كرة والفرق بين الوجهين أن الاول يكون فيه الكون متمنى ويجوز أن تضمر أن وان تظهر والثانى يكون فيه الكون مترتبا على حصول المتمنى لا متمنى ويجب أن تضمر أن * ثم أجاب الله تعالى هذا القائل بقوله سبحانه (بلى قد جاءتك اياتى) أى القرآن وهى سبب الهداية (فكذبت بها) أى قلت ليست من عند الله (واستكبرت) أى تكبرت عن الايمان بها (وكنت من الكافرين) فان قيل هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله لو أن الله هدانى ولم يفصل بينهما (أجيب) بأنه لا يخلو اما أن يقدم على اخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن واما أن تؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الاول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن واما الثانى فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط فى الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب (فان قيل) كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفى (أجيب) بأن قوله لو أن الله هدانى بمعنى ماهديت (ويوم القيامة)

أى الذى لا يصح فى الحكمة تركه (ترى) أى أيها المحسن (الذين كذبوا على الله) أى الحائز لجميع صفات الكمال بنسبة الشريك والولد اليه وقال الحسن هم الذين يقولون ان شئنا فعلنا وان شئنا لم نفعل قال البقاعى وكأنه عنى من المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه وابتدعوا قولهم انهم يخلقون أفعالهم قال ويدخل فيه من تكلم فى الدين بجهل وكل من كذب وهو يعلم أنه كاذب فى أى شئ كان فانه من حيث ان فعله فعل من يظن ان الله تعالى لا يعلم كذبه أى ولا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله وقوله تعالى (وجوههم مسودة) جملة من مبتدا وخبر فى محل نصب على الحال من الموصول لان الرؤية بصرية وقيل فى محل نصب مفعولا ثانيا لان الرؤية قلبية ورد بأن تعلق الرؤية البصرية بالاجسام وألوانها أظهر من تعلق القلبية بهما وذكر أن هذا السواد مخالف لسائر أنواع السواد (أليس فى جهنم مثوى) أى مأوى (للمتكبرين) أى الذين تكبروا على اتباع أمر الله تعالى وهو تقرير لانهم يرونه كذلك * ولما ذكر الله تعالى الذين أشقاهم اتبعهم حال الذين أسعدهم بقوله تعالى (وينجى الله) أى يفعل بماله من صفات الكمال فى نجاتهم فعل المبالغ فى ذلك (الذين اتقوا) أى بالغوا فى وقاية أنفسهم من غضبه فكما وقاهم فى الدنيا من المخالفات نجاهم هنا من العقوبات (بمفازتهم) أى بسبب فلاحهم لان العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة ويجوز أن يسمى العمل الصالح فى نفسه مفازة لانه سببها وقرأ حمزة والكسائى وشعبة بالف بعد الزاى جمعا على أن لكل متق مفازة والباقون بغير ألف بعد الزاى افرادا وقوله تعالى (لا يمسهم السوء) جملة مفسرة لمفازتهم كأنه قيل وما مفازتهم فقال لا يمسهم السوء فلا محل لها ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الذين اتقوا ومعنى الكلام لا يمسهم مكروه (ولا هم يحزنون) أى ولا يطرق بواطنهم حزن على فائت لانه لا يفوتهم شئ أصلا * ولما كان المخوف منه والمحزون عليه جامعين لكل ما فى الكون فكان لا يقدر على دفعهما الا القادر المبدع القيوم قال تعالى مستأنفا أو معللا مظهرا الاسم الاعظم تعظيما للمقام (الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما الذى نجاهم (خالق كل شئ) أى من خير وشر وايمان وكفر فلا يكون شئ أصلا الا بخلقه * ولما دل هذا على القدرة الشاملة وكان لا بد معها من العلم الكامل قال تعالى (وهو على كل شئ) أى مع القهر والغلبة (وكيل) أى حفيظ لجميع ما يريده قيوم لا عجز يلم بساحته ولا غفلة وقوله تعالى (له مقاليد السموات والارض) جملة مستأنفة والمقاليد جمع مقلاد مثل مفتاح ومفاتيح أو مقليد مثل منديل ومناديل أى هو مالك أمرها وحافظها وهى من باب الكناية لان حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى يملك مقاليدها ومنه قولهم فلان ألقيت اليه مقاليد الملك وهى المفاتيح والكلمة أصلها فارسية (فان قيل) ما للكتاب المبين والفارسية (أجيب) بأن التعريب قد أحالها عربية كما أخرج استعمال المهمل عن كونه مهملا قال الزمخشرى سأل عثمان النبى صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فقال يا عثمان ما سألنى أحد عنها قبلك تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله

وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير اهـ وروى هذا الطبراني بسند ضعيف بل رواه ابن الجوزى فى الموضوعات ثم قال الزمخشرى وتأويله على هذا ان الله تعالى فى هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات والارض من تكلم بها من المتقين أصابه وقال قتادة ومقاتل مفاتيح السموات والارض بالرزق والرحمة وقال الكلبي خزائن المطر والنبات * ولما وصف الله تعالى بالصفة الالهية والجلالة وهو كونه خالقا للاشياء وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض باسرها قال بعده (والذين كفروا) أى لبسوا ما اتضح من الدلالات وجحدوا (بآيات الله) أى دلائل قدرته الظاهرة الباهرة (أولئك) أى البعداء البغضاء (هم الخاسرون) لانهم خسروا أنفسهم وكل شئ متصل بها على وجه النفع وقال الزمخشرى والذين كفروا متصل بقوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم واعترض بينهما بأنه خالق الاشياء كلها وان له مقاليد السموات والارض واعترضه الرازى بأن وينجي جملة فعلية والذين كفروا جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز واعترض الآخر بأنه لا مانع من ذلك * ولما دعا كفار قريش النبي صلى الله عليه وسلم الى دين آبائهم قال الله تعالى (قل) أى لهم (أفغير الله) أى الملك الاعظم (تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) أى العريقون فى الجهل لان الدليل القاطع قد قام بأن الله تعالى هو المستحق للعبادة فمن عبد غيره فهو جاهل وقرأ نافع بتخفيف النون وفتح الياء وابن كثير بتشديد النون وسكون الياء وابن عامر بنونين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة وسكون الياء والباقون بتشديد النون وسكون الياء (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) أى الذى عملته قبل الشرك (فان قيل) الموحى اليهم جماعة فكيف قال لئن أشركت على التوحيد (أجيب) بأن تقدير الآية أوحى اليك لئن أشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك مثله أى أوحى اليك والى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة أى كل واحد منا (فان قيل) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم (أجيب) بأن قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزئيها ألا ترى أن قولك لو كانت الخمسة زوجا لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يلزم من هذا صدق ان فيهما آلهة وأنهما قد فسدتا وأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كما قاله أكثر المفسرين أو ان ذلك على سبيل الفرض المحال ذكر ليكون ردعا للاتباع * ولما كان السياق للتهديد وكانت العبارة شاملة لما تقدم على الشرك من الاعمال وما تأخر عنه لم يقيده بالاتصال بالموت اكتفاء بتقييده فى آية البقرة وهي ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر قال تعالى (ولتكونن) أى لاجل حبوطه (من الخاسرين) فان من ذهب جميع عمله لا شك فى خسارته اما من أسلم بعد ردته فانما يحبط ثواب عمله لا عمله كما نص عليه الشافعي *(تنبيه)* اللام الاولى موطئة للقسم

والاخر بان للجواب * ولما كان التقدير لا تشرك بنا عطف عليه قوله تعالى (بل الله) أى المتصف بصفات الكمال وحده (فاعبد) أى مخلصا له العبادة (وكن من الشاكرين) أى العريقين فى هذا الوصف لانه جعلك خير الخلائق أجمعين * ولما حكى الله تعالى عن المشركين انهم أمروا الرسول بعبادة الاصنام ثم انه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول أن يعبد الله ولا يعبد سواه وبين انهم لو عرفوا الله تعالى حق معرفته لما جعلوا هذه الاشياء الخسيسة مشاركة له فى العبودية قال (وما قدروا الله) أى الملك الاعظم (حق قدره) أى ما عظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره مع أنهم لو استغرقوا الزمان كله فى عبادته وخالص طاعته بحيث لم يخل شئ منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف اذا خلا بعضه عنها فكيف اذا عدل به غيره ولما بين أنهم ما عظموه تعظيما لائقا به أردفه بما يدل على كمال عظمته بقوله تعالى (والارض جميعا قبضته) وهو مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال أى ما عظموه حق عظمته والحال انه موصوف بهذه القدرة الباهرة كقوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه كذا وجميعا حال وهى دالة على أن المراد بالارض الارضون لان هذا التأكيد لا يحسن ادخاله الا على الجمع وقدم الارض على السموات لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها * ولما كان فى هذه الدنيا من يدعى الملك والقهر والعظمة والقدرة وكان الامر فى الآخرة بخلاف هذا لانقطاع الاسباب قال تعالى (يوم القيامة) ولا قبضة هناك لا حقيقة ولا مجازا وكذا الطى واليمين وانما هو تمثيل وتخييل لتمام القدرة * ولما كانوا يعلمون أن السموات سبع متطابقة بما يشاهدونه من سير النجوم جمع ليكون مع جميعا كالتصريح فى جمع الارض أيضا فى قوله تعالى (والسموات مطويات) أى مجموعات (بيمينه) قال الامام الرازى وههنا سؤالات الاول أن العرش أعظم من السموات السبع والارضين السبع ثم انه تعالى قال فى صفة العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم فكيف يجوز تقرير عظمة الله عز وجل بكونه حاملا للسموات والارض وأجاب بأن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرا على هذه الاجسام العظيمة كما أن حفظها وامساكها يوم القيامة عظيم ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادرا على امساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش السؤال الثانى قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه شرح حال لا تحصل الا فى القيامة والقوم ما شاهدوا ذلك فان كان هذا الخطاب مع المصدقين للانبياء فهم معترفون بأنه لا يجوز القول بجعل الاصنام شركاء لله فلا فائدة فى ايراد هذه الحجة عليهم وان كان الخطاب مع المكذبين بالنبوة فهم ينكرون قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة فكيف يمكن الاستدلال به على ابطال القول بالشرك وأجاب عنه بأن المقصود منه أن المتولى لابقاء السموات والارضين من وجوه العمارة فى هذا الوقت هو المتولى لتخريبها وافنائها يوم القيامة وذلك يدل على حصول قدرة تامة على الايجاد والاعدام ويدل أيضا على كونه قادرا غنيا على الاطلاق فانه

يدل

يدل على أنه اذا حاول تخريب الارض فكأنه يقبض قبضته وذلك يدل على كمال الاستغناء السؤال الثالث حاصل القول بالقبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الاجسام العظيمة فكما أن حفظها وامساكها يوم القيامة ليس الابقدرته تعالى فكذلك الآن فما الفائدة فى تخصيص هذه الاحوال بيوم القيامة وأجاب بأنه انما خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته فى الايجاد عند عمارة الدنيا يظهر كمال قدرته فى الاعدام عند خراب الدنيا * ولما كان هذا انما هو تمثيل بما يعهد والمراد به الغاية فى القدرة نزه نفسه المقدس عما ربما نسبه له المجسم والمشبه فقال تعالى (سبحانه) أى تنزه من هذه القدرة قدرته عن كل شائبة نقص (وتعالى) علو الايحاط به (عما يشركون) معه لانه لو كان له شريك ينازعه فى هذه القدرة أو بعضها لمنعه شيأ منها وهذه معبوداتهم لا قدرة لها على شئ البتة روى البخارى فى صحيحه فى التوحيد وغيره عن عبد الله بن مسعود قال جاء حبر من الاحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا كان يوم القيامة جعل الله تعالى السموات على اصبع والارضين على اصبع والماء والثرى على اصبع والخلائق على اصبع ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك فلقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه تعجبا وتصديقا لقول الحبر ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم وما قدروا الله حق قدره الآية وانما ضحك صلى الله عليه وسلم وتعجب لانه لم يفهم منه الا ما فهمه علماء البيان من غير تصور امساك ولا اصبع ولا هز ولا شئ من ذلك وانما يدل ذلك على القدرة الباهرة وأن الافعال العظام التى تتحير فيها الاذهان هينة عليه هوانا لا يصل السامع الى الوقوف عليه الا باجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة على التخييل وروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارة أين المتكبرون ثم يطوى الارضين ثم يأخذهن بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون اين المتكبرون وللبخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الارض قال أبو سليمان الخطابى ليس فيما يضاف الى الله عز وجل من وصف اليدين شمال لان الشمال محل النقص والضعف وقد ورد كلتا يديه يمين وليس عندنا معنى اليد الجارحة وانما هى صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهى حيث انتهى بنا الكتاب والاخبار المأثورة الصحيحة وهذا مذهب أهل السنة والجماعة رضى الله تعالى عنهم وقال سفيان ابن عيينة كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه انتهى وقد قدمنا أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه وان الخلف يؤولونه والاول أسلم والثانى أحكم * ولما ذكر تعالى كمال قدرته وعظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريق آخر يدل أيضا على كمال العظمة وهو شرح مقدمات يوم القيامة فقال (ونفخ فى الصور) أى القرن النفخة الاولى لان نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم (فصعق) أى مات (من فى السموات ومن

في الارض) واختلف فيمن استثنى الله تعالى بقوله سبحانه (الا من شاء الله) فقال الحسن هو الله وحده وقال ابن عباس جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام ثم يميت الله تعالى ميكائيل واسرافيل وجبريل وملك الموت وقيل حملة العرش وقيل الحور والولدان وقيل الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال جابر هو موسى عليه السلام لانه صعق فلا يصعق ثانيا وقال قتادة الله أعلم بهم وليس في القرآن والاخبار ما يدل على أنهم من هم وهذا أسلم (ثم نفخ فيه) أي في الصور نفخة (أخرى) أي نفخة ثانية (فاذا هم) أي جميع الخلائق الموتى (قيام) أي قائمون (ينظرون) أي يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت اذا فاجأه خطب جسيم وقيل ينتظرون أمر الله تعالى فيهم وهذا يدل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى لان لفظة ثم للتراخي وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بين النفختين أربعون قالوا أربعون يوما قال أبو هريرة أبيت قالوا أربعون شهرا قال أبيت قالوا أربعون سنة قال أبيت قال ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الانسان شئ الا يبلى الا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة وقوله تعالى فاذا هم يدل على أن قيامهم يحصل عقب هذه النفخة الاخيرة في الحال من غير تراخ لان الفاء تدل على التعقيب * ولما ذكر تعالى اقامتهم بالحياة التي هي نور البدن اتبعه بنور أرض القيامة فقال (وأشرقت) أي اضاءت اضاءة عظيمة مالت بها الى الحمرة (الارض) أي التي أوجدت لحشرهم وليست بأرضنا الآن لقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض (بنور ربها) أي خالقها وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه قال صلى الله عليه وسلم سترون ربكم وقال كما لا تضارون في الشمس في يوم الصحو وقال الحسن والسدي بعدل ربها (ووضع الكتاب) أي كتاب الاعمال للحساب لقوله تعالى وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وقيل الكتاب اللوح المحفوظ تقابل به الصحف وقيل الكتاب الذي أنزل الى كل أمة تعمل به واقتصر على هذا البقاعي (وجيء بالنبيين) أي للشهادة على أممهم واختلف في قوله تعالى (والشهداء) فقال ابن عباس يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لقوله تعالى جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وقال عطاء ومقاتل يعني الحفظة لقوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وقيل هم المستشهدون في سبيل الله * ولما بين تعالى أنه يوصل الى كل واحد حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها قوله تعالى (وقضي بينهم) أي العباد (بالحق) أي العدل ثانيها قوله تعالى (وهم لا يظلمون) أي لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم ثالثها قوله تعالى (ووفيت كل نفس ما عملت) أي جزاء ما عملته رابعها قوله تعالى (وهو أعلم بما يفعلون) أي فلا يفوته شيء من أفعالهم ثم فصل التوفية بقوله تعالى مقدما أهل الغضب (وسيق الذين كفروا) أي بالعنف

والدفع (الى جهنم) كما قال تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا أى يدفعون اليها دفعا وقوله تعالى (زمرا) حال أى جماعات فى تفرقة بعضهم على اثر بعض كل أمة على حدة (حتى اذا جاؤها) أى على صفة الذل والصغار وأجاب اذا بقوله تعالى (فتحت أبوابها) أى السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك وانما تفتح عند وصول الكفار اليها وقرأ الكوفيون فتحت وفتحت الآتية بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير (وقال لهم خزنتها) انكارا عليهم وتقريعا وتوبيخا (ألم يأتكم رسل منكم) أى من جنسكم لان قيام الحجة بالجنس أقوى (يتلون) أى يتلون مرة بعد مرة وشيأ فى اثر شئ (عليكم آيات ربكم) أى المحسن اليكم من القرآن وغيره (وينذرونكم) أى يخوفونكم (لقاء يومكم) وقولهم (هذا) اشارة الى يوم البعث (فان قيل) لم أضيف اليهم اليوم (أجيب) بأنهم أراد والقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة قال الزمخشرى وقد جاء استعمال اليوم والايام مستفيضا فى أوقات الشدة ويجوز أن يراد باليوم يوم البعث كله وجرى عليه البقاعى وهو أولى ولما قال لهم الخزنة ذلك (قالوا بلى) أتونا وتلوا علينا وحذرونا (ولكن حقت) أى وجبت (كلمة العذاب) أى التى سبقت فى الازل علينا هكذا كان الاصل ولكنهم قالوا (على الكافرين) تخصيصا بأهل هذا الوصف وبيانا لانه موجب دخولهم وهو تغطيتهم الانوار التى أتتهم بها الرسل عليهم الصلاة والسلام * (تنبيه) * فى الآية دليل على انه لا وجوب قبل مجئ الشرع لان الملائكة بينوا لهم أنهم مابقى لهم عذر ولا علة بعد مجئ الرسل عليهم الصلاة والسلام فلو لم يكن مجئ الرسل شرطا فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة وقيل كلمة العذاب هى قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ثم كأنه قيل فماذا وقع بعد هذا التقريع (قيل) وقع ان الملائكة قالت لهم (ادخلوا أبواب جهنم) أى طبقاتها المتجهمة لداخلها (خالدين) أى مقدرين الخلود (فيها) ولما كان سبب كفرهم بالآيات هو التكبر قالوا لهم (فبئس مثوى) أى منزل ومقام (المتكبرين) أى الذين أوجب تكبرهم حقوق كلمة العذاب عليهم فلذلك تعاطوا أسبابها * ولما ذكر تعالى أحوال الكافرين أتبعه أحوال أضدادهم فقال عز من قائل (وسيق الذين اتقوا ربهم) أى الذين كلما زادهم احسانا ازدادوا له هيبة (الى الجنة) وقوله تعالى (زمرا) حال أى جماعات أهل الصلاة المستكثرين منها على حدة وأهل الصوم كذلك الى غير ذلك من الاعمال التى تظهر آثارها على الوجوه (فان قيل) السوق فى أهل النار معقول لانهم لما أمروا بالذهاب الى موضع العذاب لابد وأن يساقوا اليه وأما أهل الثواب فاذا أمروا بالذهاب الى موضع السعادة والراحة فأى حاجة فيه الى السوق (أجيب) بأن المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسارى والخارجين على السلطان اذا سيقوا الى حبس أو قتل والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لانه لا يذهب بهم الا راكبين سراعا الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين هذا سوق تشريف واكرام وذاك سوق اهانة وانتقام وهذا من بدائع أنواع البديع وهو أن

يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على اكرامهم بحسن ثوابهم فسبحان من أنزله معجز المباني متمكن المعاني عذب الموارد والمثاني وقيل ان المحبة والصداقة باقية بين المتقين الى يوم القيامة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فاذا قيل لواحد منهم اذهب الى الجنة فيقول لا أدخلها الا مع أحبابي وأصدقائي فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون الى السوق الى الجنة * ولما ذكر تعالى السوق ذكر غايته بقوله تعالى (حتى اذا جاؤها) اختلف في جواب اذا على أوجه أحدها قوله تعالى (وفتحت أبوابها) والواو زائدة وهو رأي الكوفيين والاخفش وانما جيء هنا بالواو دون التي قبلها لان أبواب السجون مغلقة عادة الى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فانها تفتح انتظارا لمن يدخلها فعلى هذا أبواب جهنم تكون مغلقة لا تفتح الا عند دخول أهلها فيها فأما أبواب الجنة ففتحها يكون مقدما على دخولهم اليها كما قال تعالى جنات عدن مفتحة لهم الابواب فلذلك جيء بالواو فكأنه قال حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها ثانيها قوله تعالى (وقال لهم خزنتها) أي بزيادة الواو أيضا أي حتى اذا جاؤها قال لهم خزنتها ثالثها قال الزجاج القول عندي ان الجواب محذوف تقديره دخلوها بعد قوله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها أي حين الوصول (سلام عليكم) تعجيلا للمسرة بالبشارة بالسلامة التي لا عطب فيها (طبتم) أي صلحتم لسكناها لانها دار طهرها الله تعالى من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها الا مناسب لها موصوف بصفتها فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة الا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا تنقي أنفسنا من درن الذنوب وتمحو ضر هذه القلوب ثم سببوا عن ذلك (فادخلوها خالدين) أي مقدرين الخلود وسمى بعضهم الواو في قوله تعالى وفتحت واو الثمانية قال لان أبواب الجنة ثمانية وكذا قالوا في قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقيل تقدير الجواب حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها يعني أن الجواب بلفظ الشرط ولكنه بزيادة تقييده بالحال فلذلك صح وقدره الجلال المحلي بقوله دخلوها وقال ان قوله تعالى (وقالوا) عطف على دخلوها المقدر (الحمد) أي الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أي الملك الاعظم (الذي صدقنا وعده) في قوله تعالى تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا فطابق قوله الواقع الذي وجدناه في هذه الساعة (وأورثنا) كما وعدنا (الارض) أي الارض التي لا أرض في الحقيقة غيرها وهي أرض الجنة التي لا كدر فيها بوجه وفيها كل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وقولهم (نتبوأ) أي ننزل (من الجنة حيث نشاء) جملة حالية وحيث ظرف على بابها وقيل مفعول به وانما عبر عن أرض الجنة بالارض لوجهين أحدهما أن الجنة كانت في أول الامر لآدم عليه السلام لانه تعالى قال فكلا منها رغدا حيث شئتما فلما عادت الجنة الى أولاد آدم عليه السلام كان ذلك سببا للارث ثانيها ان الوارث يتصرف فيما ورثه كيف شاء من غير منازع فكذلك المؤمنون يتصرفون

في الجنة حيث شاؤا وأرادوا (فان قيل) كيف يتبوأ أحدهم مكان غيره (أجيب) بأن لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث شاء ولا يحتاج الى جنة غيره ولا يشتهي أحد الا مكانه مع أن في الجنة مقامات معنوية لا تمانع واردوها ولما كانت بهذا الوصف الجليل تسبب عنه مدحها بقوله (فنعم) أي أجرناهكذا كان الاصل ولكنه قال (أجر العاملين) ترغيبا في الاعمال وحثا على عدم الاتكال ولما ذكر سبحانه الذين اكرمهم من المتقين وما وصلوا اليه من المقامات أتبعهم أهل الكرامات الذين لا شاغل لهم عن العبادات فقال تعالى صارفا الخطاب لعلو الخبر الى أعلى الخلق لانه لا يقوم بحق هذه الرؤية غيره (وترى الملائكة) أي القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق وقوله تعالى (حافين) حال أي محدقين (من حول العرش) أي من جوانبه التي يمكن الحفوف بها بالقرب منها يسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتحميد والتقديس والاهتزاز خوفا من ربهم فاد خال من يفهم مع كثرتهم الى حد لا يحصيه الا الله تعالى أنهم لا يعلون حوله وهذا أولى من قول البيضاوي ان من زائدة وقوله تعالى (يسبحون) حال من ضمير حافين (بحمد ربهم) أي متلبسين بحمده يقولون سبحان الله وبحمده فهم ذاكرون له بوصفي جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق (وقضى بينهم) أي بين جميع الخلق (بالحق) أي العدل فيدخل المؤمن الجنة والكافر النار أو بين الملائكة باقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل) أي وقال المؤمنون من المقضي بينهم والملائكة وطي ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم (الحمد) أي الاحاطة بجميع أوصاف الكمال وعدل بالقول الى ما هو أحق بهذا المقام فقال (لله) ذي الجلال والاكرام علمنا ذلك في هذا اليوم عين اليقين كما كنا في الدنيا نعلمه علم اليقين * ولما كان هذا اليوم أحق الايام بمعرفة شمول الربوبية لاجتماع الخلائق وانفتاح البصائر وسعة الضمائر قال واصفاله سبحانه بأقرب الصفات الى الاسم الاعظم (رب العالمين) أي الذين ابتدأهم أول مرة من العدم وأقامهم ثانيا بما رباهم به من التدبير وأعادهم ثالثا بعد ما أفناهم بأكمل قضاء وتقدير وأبقاهم رابعا الا الى آخر وقيل ان الله تعالى ابتدأ ذكر الخلق بالحمد لله في قوله سبحانه الحمد لله الذي خلق السموات والارض وختم بالحمد في آخر الامر وهو استقرار الفريقين في منازلهم فنبه بذلك على تحميده في بداية كل امر وخاتمته والله أعلم بمراده واسرار كتابه وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين حديث موضوع وقوله عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها انه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر رواه الترمذي وغيره

(سورة المؤمن مكية)

قال الحسن الا قوله وسبح بحمد ربك لان الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل في الحواميم انها كلها مكية عن ابن عباس وابن الحنفية وتسمى سورة الطول وسورة غافر وهي خمس وقيل ثنتان

وثمانون آية وألف ومائة وتسع وتسعون كلمة وأربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفا
(بسم الله) الملك الاعظم الذى يعطى كلا من عباده ما يستحقه فلا يقدر أحد أن يناقض فى شئ
من ذلك ولا يعارض (الرحمن) الذى عمهم برحمته فى الدنيا بالخلق والرزق والبيان الذى لاخفاء
معه (الرحيم) الذى يخص برحمته من يشاء من عباده فيجعله حكيما وفى ملك الارض
وملكوت السموات عليما وقوله تعالى (حم) قرأه ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى
بامالة الحاء محضة وورش وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وقد سبق الكلام فى حروف التهجى
وقال ابن عباس حم اسم الله الاعظم وعنه قال الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وقيل
حم اسم السورة وقيل الحاء افتتاح أسمائه حليم وحميد وحى وحكيم وحنان والميم افتتاح
أسمائه ملك مجيد منان وقال الضحاك والكسائى معناه قضى ما هو كائن كأنهما اشارا
الى أن معنى حم حم بضم الحاء وتشديد الميم وهل يجوز أن يجمع حم على حواميم نقل ابن
الجوزى عن شيخه الجواليقى انه خطأ وليس بصواب بل الصواب أن يقول قرأت آل حم
وفى الحديث عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات
وقال الكميت وجدنا لكم فى آل حم آية * تأولها منا تقى ومعرب
ومنهم من جوّزه وروى فى ذلك أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم الحواميم ديباج القرآن
وقوله صلى الله عليه وسلم الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع جهنم والحطمة ولظى والسعير
وسقر والهاوية والجحيم فتجئ كل حم منهن يوم القيامة على باب من هذه الابواب فتقول لا يدخل
النار من كان يؤمن بى ويقرؤنى وقوله صلى الله عليه وسلم لكل شئ ثمرة وثمرة القرآن ذوات حم
هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم
وقوله صلى الله عليه وسلم الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب وقال ابن عباس لكل شئ
لباب ولباب القرآن الحواميم قال ابن عادل فان صحت هذه الاحاديث فهى الفصل فى ذلك أى
فتدل على جواز الجمع وقال البيضاوى فى حم السجدة ولعل افتتاح هذه السبع بحم وتسميتها به
لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة فى النظم والمعنى أى أخذا مما قيل ان حم اسم من أسماء
القرآن وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع من الحدود والاحكام والمعارف والاكرام
اما خبر لحم ان كانت مبتدأ واما خبر لمبتدا مضمر واما مبتدأ وخبره (من الله) أى الجامع
لجميع صفات الكمال ولما كان النظر هنا من بين جميع الصفات الى العزة والعلم أكثر لاجل أن
المقام لاثبات الصدق وعدا ووعيدا قال تعالى (العزيز) أى فى ملكه (العليم) بخلقه
فبين تعالى انه بقدرته وعلمه أنزل القرآن الذى يتضمن المصالح والاعجاز ولولا كونه عزيزا
عالما لما صح ذلك (غافر الذنب) أى بتوبة وغير توبة للمؤمن ان شاء وأما الكافر فلا بدّ من
توبته بالاسلام (وقابل التوب) أى ممن عصاه وهو يحتمل أن يكون اسما مفردا مرادا به الجنس
كالذنب وأن يكون جمعا لتوبة كتمر وتمرة (شديد العقاب) أى على الكافر (فان قيل) ان شديد
صفة مشبهة فاضافته غير محضة بكل حال بخلاف اسم الفاعل اذا لم يرد به الحال ولا الاستقبال

كغافر الذنب وقابل التوب فان اضافته محضة تفيد التعريف قال سيبويه كل ما اضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة وتوصف به المعارف الا الصفة المشبهة ولم يستثن الكوفيون شيأ (أجيب) بأن شديد معناه مشدد كاذين بمعنى مأذون فتمحض اضافته أو الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج مع أمن الالتباس أو بالتزام مذهب الكوفيين وهو أن الصفة المشبهة يجوز أن تمحض اضافتها أيضا فتكون معرفة يقولون في نحو حسن الوجه يجوز أن تصير اضافته محضة وقال الرازي لانزاع في جعل غافر وقابل صفتين وانما كان كذلك لانهما يفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك شديد العقاب لان صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد فمعناه كونه بحيث يقال شديد عقابه وهذا المعنى حاصل أبدا فلا يوصف بأنه حصل بعد ان لم يكن قال ابو حيان وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه ويلزمه ان يكون حكيم عليم ومليك مقتدر معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد ولانها صفات لم تحصل بعد ان لم تكن ويكون تعريف صفاته بأل وتنكيرها سواء اه وهذا لا يقوله مبتدئ في علم النحو فكيف من يصنف فيه ويقدم على تفسير كتاب الله تعالى اه قال الزمخشري فان قلت ما بال الواو في قوله وقابل التوب قلت فيها نكتة جليلة وهي افادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين ان يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وان يجعلها محاءة للذنوب كان لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول اه قال ابن عادل وبعد هذا الكلام الانيق وابراز هذه المعاني الحسنة قال ابو حيان وما أكثر تبجح هذا الرجل وشقشقته والذي افادته الواو الجمع وهذا معلوم من ظاهر علم النحو اه وانشد بعضهم

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

وقال آخر

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب بالعقوبة أتبعه التشويق الى الفضل فقال تعالى (ذي الطول) اي سعة الفضل والانعام والقدرة والغنى والسعة والمنة فلا عائله في شيء من ذلك أحد ولا يدانيه قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا اله الا الله وقابل التوب ممن قال لا اله الا الله شديد العقاب لمن لا يقول لا اله الا الله ذي الغنى عمن لا يقول لا اله الا الله وقال الحسن ذو الفضل وقال قتادة ذو النعم ثم علل تمكنه من كل شيء من ذلك بوحدانيته فقال تعالى (لا اله الا هو اليه) وحده (المصير) أي المرجع فلو جعل معه الها آخر يشاركه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة الى عبوديته شديدة فكان الترغيب والترهيب الكاملان حاصلين بسبب هذا التوحيد وقوله تعالى اليه المصير مما يقوي الرغبة في الاقرار بالعبودية له روي أن عمر رضي الله تعالى عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشأم فقيل له تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر الى فلان سلام عليك وانا أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو بسم الله الرحمن الرحيم حم الى قوله تعالى اليه المصير وختم الكتاب وقال لرسوله لا تدفعه اليه حتى تجده صاحيا ثم امر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع وأحسن النزوع وحسنت توبته فلما بلغ عمر امره قال هكذا

فاصنعوا اذا رأيتم انا كم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا له الله تعالى ان يتوب عليه ولا تكونوا اعوانا للشيطان عليه * ولما قرر تعالى ان القرآن كتاب انزله ليهتدى به فى الدين ذكر احوال من يجادل لغرض ابطاله فقال (ما يجادل) أى يخاصم ويمارى اى يفتل الامور الى مراده (فى آيات الله) اى فى ابطال انوار الملك الاعظم المحيط بصفات الكمال الدال كالشمس على انه تعالى اليه المصير بأن يغش نفسه بالشك فى ذلك (الا الذين كفروا) قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون فى القرآن قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وقوله تعالى وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما يتمارون فى القرآن فقال انما أهلك من كان قبلكم انهم ضربوا كتاب الله بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم عنه فكلوه الى عالمه وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمعت أصوات رجلين اختلفا فى آية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فى وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب *(تنبيه)* الجدال نوعان جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل اما الاول فهو حرفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتى هى أحسن وحكى عن قوم نوح قولهم يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وأما الثانى فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية فجدالهم فى آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر ومرة هذا شعر ومرة هو قول الكهنة ومرة أساطير الاولين ومرة انما يعلمه بشر واشباه هذا * ولما أثبت أن الحشر لابد منه وان الله تعالى قادر كل القدرة لانه لا شريك له وهو محيط بجميع أوصاف الكمال تسبب عن ذلك قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم) أى تنقلهم بالتجارات والفوائد والجيوش والعساكر واقبال الدنيا عليهم (فى البلاد) كبلاد الشأم واليمن فانهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) وقد كانوا فى غاية القوة والقدرة على القيام بما يحاولونه وكانوا حزبا واحدا لم يفرقهم شئ ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا وفرقهم اختلاف الالسنة والاديان وكان للاجمال من الردع فى بعض المواطن ماليس للتفصيل قال تعالى (والاحزاب) أى الامم المتفرقة الذين لا يحصون عددا ودل على قرب زمان الكفر من الانجاء من الغرق بقوله (من بعدهم) كعاد وثمود (وهمت كل أمة) أى من هؤلاء (برسولهم) أى الذى أرسلناه اليهم (ليأخذوه) أى ليتمكنوا من اصابته بما أرادوه من تعذيب أو قتل ويقال للاسير أخيذ وقال ابن عباس ليقتلوه ويهلكوه (وجادلوا بالباطل) أى بالامر الذى لا حقيقة له وليس له من ذاته الا الزوال كما تفعل قريش ومن ضاهاهم من العرب ثم بين علة مجادلتهم بقوله تعالى (ليدحضوا) أى ليزيلوا (به الحق) أى الذى جاءت به الرسل عليهم السلام (فأخذتهم) أى أهلكتهم وهم صاغرون وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال والباقون بالادغام (فكيف كان عقاب) لهم أى هو واقع موقعه وهم يمرون على ديارهم

ويرون أثرهم وهذا تقريع فيه معنى التعجب *(تنبيه)* حذفت ياء المتكلم اشارة الى ان أدنى شيء من عذابه بأدنى نسبة كاف في المراد ولما كان التقدير فحقت عليهم كلمة الله تعالى عطف عليه (وكذلك) أي ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالاخذ (حقت كلمة ربك) أي المحسن اليك وهي لاملأن جهنم الآية (على الذين كفروا) لكفرهم وقرأ نافع وابن عامر بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الافراد وقوله (انهم أصحاب النار) في محل رفع بدل من كلمة ربك أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ومعناها كما وجب اهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب هلاكهم بعذاب النار في الآخرة أو في محل نصب بحذف لام التعليل وايصال الفعل ولما بين تعالى أن الكفار بالغوا في اظهار العداوة للمؤمنين بقوله ما يجادل في آيات الله وما بعده بين تعالى أن الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حوله يبالغون في اظهار المحبة والنصر للمؤمنين فقال تعالى (الذين يحملون العرش) وهو مبتدأ وقوله (ومن حوله) عطف عليه وقوله تعالى (يسبحون) خبره (بحمد ربهم) أي المحسن اليهم قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال وكأنهم يرون ذنوب بني آدم وقيل انهم اليوم أربعة فاذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بأربعة اخر كما قال تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وهم من أشراف الملائكة وأفضلهم اقربهم من محل رحمة ربهم قال ابن الخازن وجاء في الحديث أن لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ولكل واحد منهم أربعة أجنحة جناحان منها على وجهه مخافة أن ينظر الى العرش فيصعق وجناحان يهفو بهما في الهواء ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد ما بين أظلافهم الى ركبهم كما بين سماء الى سماء وقال ابن عباس حملة العرش ما بين كعب أحدهم الى اسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ويروى أن أقدامهم في تخوم الارض والارضون والسموات الى حجزتهم وهم يقولون سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح وقال ميسرة بن عرفة ارجلهم في الارض السفلى ورؤسهم خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم اشد خوفا من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفا من أهل السماء التي تليها والتي تليها أشد خوفا من التي تليها وقال مجاهد بين الملائكة والعرش سبعون ألف حجاب من نور وسبعون ألف حجاب من ظلمة وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ان ما بين شحمة اذنه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام وأما صفة العرش فقيل انه من جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام ويكسى العرش كل يوم سبعين ألف لون من نور ولا يستطيع أن ينظر اليه خلق من خلق الله تعالى كلها والاشياء كلها

فى العرش كحلقة فى فلاة وقال مجاهد بين السماء السابعة والعرش سبعون ألف حجاب حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة وقيل ان العرش قبلة أهل السماء كما أن الكعبة قبلة أهل الارض وأما من حول العرش فهم الكروبيون وهم سادات الملائكة قال وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فاذا استقبل بعضهم بعضا هلل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم على أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فاذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا اله غيرك أنت الاكبر الخلق كلهم لك راجعون ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد الا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ما بين جناحى احدهم مسيرة ثلثمائة عام وما بين شحمتى أذنيه الى عاتقه أربعمائة عام وقد احتجب الله عز وجل عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابا من نار وسبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور وسبعين حجابا من در أبيض وسبعين حجابا من ياقوت أحمر وسبعين حجابا من زبرجد أخضر وسبعين حجابا من ثلج وسبعين حجابا من ماء وسبعين حجابا من برد وما لا يعلم علمه الا الله تعالى فسبحان من له هذا الملك العظيم ولما كان تعالى لا يحيط به علما أحد من خلقه أشار الى أنهم مع قربهم كغيرهم لا فرق فى ذلك بينهم وبين من فى الارض السفلى بقوله تعالى (ويؤمنون به) لان الايمان انما يكون بالغيب فهم يصدقون بأنه واحد لا شريك له ولا مثل له ولا نظير له (فان قيل) ما فائدة قوله تعالى ويؤمنون به ولا يخفى على أحد ان حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون (أجيب) بأن فائدته اظهار شرف الايمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا فأبان بذلك فضل الايمان ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفا لانه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف وكان أقرب ما يتقرب به الى الملك لتقربه الى أهل ودنه سبحانه بقوله تعالى (ويستغفرون) أى يطلبون محو الذنوب عينا وأثرا (للذين آمنوا) أى أوقعوا هذه الحقيقة فهم يستغفرون لمن فى مثل حالهم وصفتهم وفى ذلك تنبيه على ان الاشتراك فى الايمان يجب أن يكون أدعى شئ الى النصيحة وأبعث على امحاض الشفقة وان تفاوتت الاجناس وتباعدت الاماكن فانه لا تجانس بين ملك وانسان ولا بين سماوى وأرضى قط ولكن لما جاء جامع الايمان جامعه التجانس الكلى والتناسب الحقيقى حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الارض قال تعالى ويستغفرون لمن فى الارض واستغفارهم بأن يقولوا (ربنا) أى أيها المحسن الينا بالايمان وغيره فهو معمول لقول مضمر فى محل نصب على الحال من فاعل يستغفرون أو خبر بعد خبر (وسعت كل شئ رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك كل شئ وعلمك كل شئ فأزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل الى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للاغراق فى وصفه بالرحمة والعلم كان ذاته رحمة وعلم واسعان

كل

كل شيء وأكثر ما يكون الدعاء بذكر الرب لأن الملائكة قالوا في هذه الآية وقال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقال نوح عليه السلام رب ان قومي كذبون وقال رب اغفر لي ولوالدي وقال ابراهيم عليه السلام رب أرني كيف تحيي الموتى وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك وقال يوسف عليه السلام رب قد آتيتني من الملك وقال موسى عليه السلام رب أرني انظر اليك وقال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي وقال سليمان عليه السلام رب اغفر لي وهب لي ملكا وقال عيسى عليه السلام ربنا أنزل علينا مائدة من السماء وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين (فان قيل) لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم خص لفظ رب بالدعاء (أجيب) بأن العبد يقول كنت في العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني الى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك واحسانك سببا لاجابة دعائي (فاغفر للذين تابوا) أي رجعوا اليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوها عينا وأثرا فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها (واتبعوا) أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج ان لزموا (سبيلك) المستقيم الذي لا لبس فيه ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب وكان سبحانه وتعالى له ان يعذب من لا ذنب له وان يعذب من غفر ذنبه قالوا (وقهم عذاب الجحيم) أي اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم فانك وعدت من كان كذلك بذلك ولا يبدل القول لديك وان كان يجوز أن تفعل ما تشاء وان الخلق عبيدك ولما طلبوا من الله سبحانه وتعالى ازالة العذاب عنهم وكان ذلك لا يستلزم الثواب قالوا مكررين صفة الاحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان (ربنا) أيها المحسن الينا (وأدخلهم جنات عدن) أي اقامة (التي وعدتهم) أي اياها وقولهم (ومن صلح) معطوف على هم في وعدتهم وقدموا قولهم (من آبائهم) على قولهم (وأزواجهم وذرياتهم) لأن الآباء أحق الناس بالاجلال وقدموا الازواج في اللفظ على الذرية لانهم أشد الصاقا بالشخص وطلبوا لهم ذلك لأن الانسان لا يتم نعيمه الا بأهله قال سعيد بن جبير يدخل الجنة المؤمن فيقول اين أبي أين ولدي وزوجتي فيقال له انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول اني كنت أعمل لي ولهم فيقال ادخلوهم الجنة (انك أنت) أي وحدك (العزيز) أي فأنت تغفر لمن شئت (الحكيم) فكل فعلك في أتم مواضعه فلا يتهيأ لاحد نقضه ولا نقصه (وقهم السيآت) أي بأن تجعل بينهم وبينها وقاية بأن تطهرهم من الاخلاق الحاملة عليها (فان قيل) هذا مكرر مع قوله وقهم عذاب الجحيم (أجيب) بأن التفاوت حاصل من وجهين أحدهما أن يكون قولهم وقهم عذاب الجحيم دعاء مذكورا للاصول وقولهم وقهم السيآت دعاء مذكورا للفروع وهم الآباء والازواج والذريات ثانيهما أن يكون قوله وقهم عذاب الجحيم مقصورا على ازالة عذاب الجحيم وقوله وقهم السيآت يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف يوم القيامة والسؤال والحساب فيكون تعميما بعد تخصيص وهذا أولى وقال بعض المفسرين ان الملائكة طلبوا ازالة عذاب النار عنهم بقولهم وقهم عذاب الجحيم وطلبوا ايصال الثواب اليهم بقولهم وأدخلهم جنات عدن ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا من العقائد الفاسدة بقولهم وقهم السيآت وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر

الميم والهاء وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم ثم قالت الملائكة (ومن تق السيئات) أي جزاءها كلها (يومئذ) أي يوم تدخل فريقا الجنة وفريقا النار المسببة عن السيئات وهو يوم القيامة (فقد رحمته) أي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها معها أن يسمى رحمة فإن تمام النعيم لا يكون إلا بزوال التحاسد والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيئات ولذلك قالوا (وذلك) أي الأمر العظيم جدا (هو الفوز العظيم) أي النعيم الذي لا ينقطع في جوار ملك لا تصل العقول إلى كنه عظمته وإجلاله هذا آخر دعاء الملائكة للمؤمنين قال مطرف أنصح عباد الله تعالى للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين ثم إنه تعالى بعد أن ذكر أحوال المؤمنين عاد إلى ذكر أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله تعالى وهم المذكورون في قوله تعالى ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فقال تعالى مستأنفا مؤكدا لإنكارهم آيات الله تعالى (إن الذين كفروا) أي أوقعوا الكفر ولو لحظة (ينادون) يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرض عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم (لمقت الله) أي الملك الأعظم إياكم (أكبر) والتقدير لمقت الله لأنفسكم أكبر (من مقتكم أنفسكم) فاستغنى بذكرها مرة وقوله تعالى (إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) منصوب بالمقت الأول والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة كان الله تعالى يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان يدعوكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن وذكروا في تفسير مقتهم أنفسهم وجوها أولها أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا ثانيها أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين يدعونهم إلى الكفر في الدنيا والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم كقوله تعالى اقتلوا أنفسكم والمراد أن يقتل بعضكم بعضا ثالثها قال محمد بن كعب إذا خطبهم إبليس وهو في النار بقوله ما كان لي عليكم من سلطان إلى قوله ولوموا أنفسكم ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم وأما الذين ينادون الكفار بهذا الكلام فهم خزنة جهنم وعن الحسن لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر وقيل معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وإذ تدعون تعليل والمقت أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال فالمراد منه أبلغ الإنكار وأشده وعن مجاهد مقتوا أنفسهم حين رأوا أعمالهم ومقت الله تعالى إياهم في الدنيا إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون أكبر وقال الفراء معناه ينادون إن مقت الله يقال ناديت إن زيدا قائم وناديت لزيد قائم وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي بإدغام الذال في التاء والباقون بالإظهار ثم إنه تعالى بين أن الكفار إذا خوطبوا بهذا الخطاب (قالوا ربنا) أي أيها المحسن إلينا بما تقدم في دار الدنيا (أمتنا اثنتين) أي إماتتين (وأحييتنا اثنتين) أي إحياءتين قال ابن عباس

وقتادة والضحاك كانوا أمواتا فى أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى فى الدنيا ثم أماتهم الموتة الاولى التى لابدّ منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهما موتتان وحياتان وهو كقوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم وقال السدى أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم للمسئلة ثم أميتوا فى قبورهم ثم أحيوا فى الآخرة وقيل واحدة عند انقضاء الاجال فى الحياة الدنيا وأخرى بالصعق بعد البعث أو الارقاد بعد سؤال القبر ورد بأن الصعق ليس بموت ومافى القبر ليس بحياة حتى يكون عنه موت واغا هو اقدار على الكلام كما أقدر سبحانه الحصا على التسبيح والحجر على التسليم والضب على الشهادتين (فاعترفنا بذنوبنا) أى بكفرنا بالبعث (فهل الى خروج) من النار الى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك (من سبيل) أى طريق ونظيره هل الى مردمن سبيل والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذى كانوا عليه فى الدنيا كان فاسدا باطلا تمنوا الرجوع الى الدنيا ليشتغلوا بالاعمال الصالحة (فان قيل) الفاء فى قوله تعالى فاعترفنا بذنوبنا تقتضى أن تكون الامانة مرتين والاحياء مرتين سببا لهذا الاعتراف فما وجه هذه السببية (أجيب) بأنهم كانوا منكرين البعث فلما شاهدوا هذا الاحياء بعد الامانة مرتين لم يبق لهم عذر فى الاقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الاقرار كالمسبب عن تلك الامانة والاحياء * ولما كان الجواب قطعا لا سبيل الى ذلك علله بقوله تعالى (ذلكم) أى القضاء النافذ العظيم العالى بتخليدكم فى النار مقتا منه لكم (بأنه) أى كان بسبب أنه (اذا دعى الله) أى الملك الاعظم من أى داع وفى اعراب قوله تعالى (وحده) وجهان أحدهما انه مصدر فى موضع الحال وجاز مع كونه معرفة لفظا لكونه فى قوة النكرة كأنه قيل منفردا ثانيهما وهو قول يونس انه منصوب على الظرف والتقدير دعى على حدته وهو مصدر محذوف الزوائد والتقدير أوحدته ايحادا (كفرتم) بتوحيده (وان يشرك به) أى يجعل له تعالى شريك (تؤمنوا) أى تصدقوا بالاشراك (فالحكم) أى فتسبب عن القطع بأنه لا رجعة وأن الكفار ماضرتوا الا أنفسهم مع ادعائهم العقول الراجحة ونحو ذلك أن الحكم كله (لله) أى المحيط بصفات الكمال (العلى) أى عن أن يكون له شريك (الكبير) أى الذى لا يليق الكبر الا له * ولما قصر الحكم عليه دل على ذلك بقوله تعالى (هو) أى وحده (الذى يريكم) أى بالبصر والبصيرة (آياته) أى علاماته الدالة على تفرده بصفات الكمال وأنه لا يجوز جعل هذه الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله عز وجل فى العبودية ومن آياته الدالة على كمال القدرة والعظمة قوله تعالى (وينزل لكم من السماء) أى جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بامساكه الى حين الحكم بنزوله (رزقا) أى أسباب رزق كالمطر لاقامة أبدانكم لان أهم المهمات رعاية مصالح الاديان ومصالح الابدان والله تعالى راعى مصالح أديان العباد باظهار البينات والآيات وراعى مصالح أبدانهم بانزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الاديان كموقع الارزاق من الابدان وعند حصولهما يكمل الانعام الكامل وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (وما يتذكر) ذلك تذكرا

تاماً فيتعظ بهذه الآيات (الا من ينيب) أى يرجع الى الله تعالى ويقبل بكليته الى الله تعالى فى جميع أموره فيعرض عن غير الله تعالى ولهذا قال عز من قائل (فادعوا) وصرح بالاسم الاعظم فقال تعالى (الله) الذى له صفات الكمال أى فاعبدوه (مخلصين له الدين) أى الافعال التى يقع الجزاء عليها فمن كان يصدق بالجزاء وبأن ربه غنى لا يقبل الا الخالص اجتهد فى تصفية أعماله فيأتى بها فى غاية الخلوص عن كل ما يمكن أن يكدر من غير شائبة شرك جلى أو خفى كما أن معبوده واحد من غير شائبة نقص (ولو كره) أى الدعاء منكم (الكافرون) أى الساترون لانوار عقولهم * ولما ذكر تعالى من صفات كبريائه كونه مظهراً للآيات ذكر ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهى قوله تعالى (رفيع الدرجات) وهذا يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع فان حملناه على الاول ففيه وجهان أولهما انه تعالى يرفع درجات الانبياء والاولياء ثانيهما يرفع درجات الخلق فى العلوم والاخلاق الفاضلة فجعل لكل أحد من الملائكة درجة معينة كما قال تعالى عنهم وما منا الا له مقام معلوم وجعل لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعين لكل جسم درجة معينة فجعل بعضها سفلية كدرة وبعضها فلكية وبعضها من جواهر العرش والكرسى وأيضاً جعل لكل واحد مرتبة معينة فى الخلق والخلق والرزق والاجل فقال تعالى وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وجعل لكل واحد من السعداء والاشقياء فى الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفى الآخرة تظهر تلك الآثار وان حملنا الرفيع على المرتفع فهو سبحانه وتعالى أرفع الموجودات فى جميع صفات الكمال والجلال *(تنبيه)* فى رفيع وجهان أحدهما انه مبتدأ والخبر (ذو العرش) أى الكامل الذى لا عرش فى الحقيقة الا هو فهو محيط بجميع الاكوان ومادة لكل جماد وحيوان وعال بجلاله وعظمته عن كل ما يخطر فى الاذهان وقوله تعالى (يلقى الروح) أى الوحى سماه روحاً لانه تحيا به القلوب كما تحيا الابدان بالارواح (من أمره) قال ابن عباس أى رضاه وقوله يلقى يجوز أن يكون خبراً ثانياً وأن يكون حالا ويجوز أن تكون الثلاثة أخباراً لقوله تعالى هو الذى يريكم آياته * ولما كان أمره تعالى عالياً على كل أمر أشار الى ذلك باداة الاستعلاء فقال تعالى (على من يشاء) أى يختار (من عباده) للنبوة وفى هذا دليل على أنها عطائية وقوله (لينذر) أى يخوف غاية الاتقاء والفاعل هو الله تعالى أو الروح أو من يشاء أو الرسول والمنذر به محذوف تقديره لينذر العذاب (يوم التلاق) أى يوم القيامة فان فيه تتلاقى الارواح والاجساد وأهل السماء والارض وقال مقاتل يلتقى الخلق والخالق تعالى وقال ميمون بن مهران يلتقى الظالم والمظلوم وقيل يلتقى العابدون والمعبودون وقيل يلتقى فيه المرء مع عمله والاولى أن تفسر الآية بما يشمل الجميع (يوم هم بارزون) أى خارجون من قبورهم وقيل ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو شجر أو تلال أو غير ذلك وقيل بارزون كناية عن ظهور حالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى يوم تبلى

قوله ويجوز أن تكون الثلاثة أخبار الخ يؤخذ منه الوجه الثانى اه

السرائر والاولى أيضا أن تفسر الآية بما يشمل الجميع كما قال تعالى (لا يخفى على الله) أى المحيط علما وقدرة (منهم) أى من أعمالهم وأحوالهم (شئ) وان دق وخفى ويقول الله تعالى فى ذلك اليوم بعد فناء الخلق (لمن الملك اليوم) أى يامن كانوا يعملون أعمال من يظن أنه لا يقدر عليه أحد فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول تعالى (لله) أى الذى له جميع صفات الكمال ثم دل على ذلك بقوله تعالى (الواحد) أى الذى لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسمة ولا غيرهما (القهار) أى الذى قهر الخلق بالموت وقيل يجيبونه بلسان الحال أو المقال فيقولون ذلك وقال الرازى لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولا يبعد أيضا أن يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمعا آخرين وليس على التعيين (فان قيل) الله تعالى لا يخفى عليه شئ منهم فى جميع الايام فما معنى تقييد هذا العلم بذلك اليوم (أجيب) بأنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا أنهم اذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم فهم فى ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف الى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمون فى الدنيا كما قال تعالى ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وقال تعالى يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم وهو معنى قوله تعالى وبرزوا لله الواحد القهار ولما أخبر تعالى عن اذعان كل نفس بانقطاع الاسباب أخبرهم بما يزيد رعبهم ويبعث رغبتهم وهو نتيجة تفرده بالملك فقال تعالى (اليوم تجزى) أى تقضى وتكافأ (كل نفس بما) أى بسبب ما (كسبت) أى عملت لا تترك نفس واحدة لان العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم والحكمة قد منعت من اهمال أحد منهم فيجزى المحسن باحسانه والمسئ باساءته (لا ظلم اليوم) أى بوجه من الوجوه (ان الله) أى التام القدرة الشامل للعلم (سريع الحساب) أى بليغ السرعة فيه لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره فى وقت حساب ذلك الغير ولا يشغله شأن عن شأن لانه تعالى لا يحتاج الى تكلف عد ولا يفتقر الى مراجعة كتاب ولا شئ فكان فى ذلك ترجية وتخويف الفريقين لان المؤمن يرجو اسراع البسط بالثواب والظالم يخشى اسراع الاخذ بالعذاب وعن ابن عباس اذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة الا فيها ولا أهل النار الا فيها * ثم نبه تعالى بقوله سبحانه (وأنذرهم يوم الآزفة) أى القيامة على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى اقتربت الساعة قال الزجاج انما قيل لها آزفة لانها قريبة وان استبعد الناس مداها لان ما هو كائن قريب والآزفة فاعلة من أزف الامر اذا دنا وحضر كقوله تعالى فى صفة القيامة أزفت الآزفة أى قربت قال النابغة * أزف الترحل غير ان ركابنا * لما تزل برحالنا وكأن قد وقال كعب بن زهير

بان الشباب وهذا الشيب قد أزفا * ولا أرى لشباب بائن خلفا

* (تنبيه) * الآزفة نعت لمحذوف مؤنث كيوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال وأسماء القيامة تجرى على التأنيث كالطامة والحاقة لانها من جع معناها على الداهية ويوم القيامة له أسماء كثيرة تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله منها يوم البعث وهو ظاهر

ومنها يوم التلاق للماضر ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه وقيل المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فان عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف وقال أبو مسلم هو يوم حضور الاجل فان يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب * ولما ذكر تعالى اليوم هول أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى (اذ القلوب) أى من كل من حضره ترتفع (لدى) أى عند (الحناجر) أى حناجر المجوعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم بمعنى أنها زالت عن اماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج * ثم أسند اليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى (كاظمين) أى ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجارى أنفاسهم وأخذ بجميع احساسهم * ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع فى مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا (ما للظالمين) أى العريقين فى الظلم (من حميم) أى قريب صادق فى مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم (ولا شفيع يطاع) فيشفع لهم * (تنبيه) * احتج المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة عن المذنبين فقالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه أولها أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفى الشفيع كقولك ما عندى كتاب يباع لا يقتضى نفى الكتاب فهذا ينفى ان لهم شفيعا يطيعه الله تعالى ما من شفيع الا من بعد اذنه ثانيها أن المراد بالظالمين فى هذه الآية ههنا الكفار لانها وردت فى زجر الكفار قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثالثها أن لفظ الظالمين اما أن يفيد الاستغراق أولا فان كان المراد جميعهم فيدخل فيه الكفار وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعا لان بعضه كفار وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع وان لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع * ولما أمر الله تعالى بانذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى (يعلم خائنة الاعين) أى خيانتها التى هى أخفى ما يقع من أفعال الظاهر جعل الخيانة مبالغة فى الوصف وهو الاشارة بالعين قال أبو حيان من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد * ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى (وما تخفى الصدور) أى القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لان الافعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الاعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال فى سائر الاعمال وأما أفعال القلوب فهى معلومة لله تعالى لقوله عز وجل وما تخفى الصدور وقوله تعالى (والله) أى المتصف بجميع صفات الكمال (يقضى بالحق) أى الثابت الذى لا ينتفى يوجب عظيم الخوف لان الحاكم اذا كان عالما بجميع الاحوال وثبت أنه لا يقضى الا بالحق فى كل مادق وجل كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى ولما عوّل الكفار فى دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الاصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى (والذين يدعون) أى يعبدون (من دونه) وهم الاصنام (لا يقضون) لهم (بشئ) من الاشياء أصلا فكيف يكونون

شركاء الله تعالى وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة اخبارا عنهم بذلك * ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الامر له وحده قال تعالى مؤكدا لاجل أن أفعالهم تقتضي انكار ذلك (ان الله) أي المنفرد بصفات الكمال (هو) أي وحده (السميع) أي لجميع أقوالهم (البصير) أي بجميع أفعالهم ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون و يفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه فثبت أن الامر له وحده فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون فان كل أحد يحجم عنها حتى يصل الامر اليه صلى الله عليه وسلم فيقول أنا لها أنا لها ثم يذهب الى المكان الذي أذن له فيه فيشفع فيشفعه الله تعالى فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل احد الى داره جنته أو ناره * ولما أوعدهم سبحانه بصادق الاخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار وختمه بالانذار بما يقع في دار القرار للظالمين الاشرار أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة ممن تتبع الديار والاعتبار بما كان لهم فيها من عجائب الآثار فقال عز من قائل (أولم يسيروا في الارض) أي في أي أرض ساروا فيها (فينظروا) أي نظر اعتبار كما هو شأن أهل البصائر (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (الذين كانوا) أي كانا للارض عريقين في عمارتها (من قبلهم) أي قبل زمانهم من الكفار كعاد وثمود (كانوا هم) أي المتقدمون لما لهم من القوة الظاهرة والباطنة (أشد منهم) أي من هؤلاء (قوة) أي ذوات ومعاني واغا جيء بالفصل وحقه أنه يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرأ ابن عامر منكم بكاف والباقون بهاء الغيبة (و) أشد (آثارا في الارض) لان آثارهم لم يندرس بعضها الى هذا الزمان وقد مضى عليه ألوف من السنين وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن ومع قوتهم (فأخذهم الله) أي الذي له صفات الكمال أخذ غلبة وقهر وسطوة (بذنوبهم) أي بسببها (وما كان لهم) من شركائهم الذين ضلوا بهم هؤلاء ومن غيرهم (من الله) أي المتصف بجميع صفات الكمال (من واق) أي يقيهم عذابه والمعنى ان العاقل من اعتبر بغيره وان الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء * ولما كذبوا رسلهم أهلكهم الله تعالى عاجلا وقرأ ابن كثير في الوقف بالياء بعد القاف والباقون بغير ياء واتفقوا على التنوين في الوصل ثم ذكر تعالى سبب أخذهم بقوله تعالى (ذلك) أي الاخذ العظيم (بأنهم) أي الذين كانوا من قبل (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي الآيات الدالة على صدقهم دلالة هي من وضوح الامر بحيث لا يسع منصفا انكارها وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها * ولما كان مطلق الكفر كافيا في العذاب عبر بالماضي فقال تعالى (فكفروا) أي سببوا عن اتيان الرسل عليهم السلام اليهم الكفر بهم (فأخذهم الله) أي الملك الاعظم اخذ غضب (انه قوي) أي متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه بعقاب دون عقابه * ولما سلى تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر الكفار الذين

كذبوا الانبياء عليهم السلام قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أي على مالنا من العظمة (موسى بآياتنا) أي الدالة على جلالنا (وسلطان) أي أمر قاهر عظيم جدا لا حيلة لهم في مدافعة شئ منه (مبين) أي بين في نفسه يتبين لكل من يمكن اطلاعه عليه انه ظاهر وذلك الامر هو الذي كان يمنع فرعون من الوصول الى أذاه مع ماله من القوة والسلطان (الى فرعون) اي ملك مصر (وهامان) أي وزيره (وقارون) أي قريب موسى (فقالوا) أي هؤلاء ومن معهم هو (ساحر) لعجزهم عن مقاهرته اما من عدا قارون فأولا وآخرا بالقوة والفعل وأما قارون ففعله آخرا بين انه مطبوع على الكفر وان آمن أولا وان هذا كان قوله وان لم يقله بالفعل في ذلك الزمان فقد قاله في النية فدل ذلك على انه لم يزل قائلا به لانه لم يتب منه ثم وصفوه بقولهم (كذاب) لخوفهم من تصديق الناس له (فلما جاءهم بالحق) أي بالامر الثابت الذي لا طاقة لاحد بتغيير شئ منه كائنا (من عندنا) على مالنا من القهر فآمن معه طائفة من قومه (قالوا) أي فرعون وأتباعه (اقتلوا) أي قتلا حقيقيا بازالة الروح (أبناء الذين آمنوا) به أي فكانوا (معه) أي خصوهم بذلك واتركوا من عداهم فلعلهم يكذبونه (واستحيوا نساءهم) أي اطلبوا احياءهن بأن لا تقتلوهن قال قتادة هذا غير القتل الاول لان فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم فمعناه أعيدوا عليهم القتل لئلا ينشؤا على دين موسى فيقوى بهم وهذه العلة مختصة بالبنين فلهذا أمر بقتل الابناء واستحياء نسائهم (وما) أي والحال انه ما (كيد الكافرين) تعميما وتعليقا بالوصف (الا في ضلال) أي مجانبة للسداد الموصل الى الظفر والفوز لانه ما أفادهم أولا في الحذر من موسى عليه السلام ولا آخرا في صد من آمن به مرادهم بل كان فيه تبارهم وهلاكهم وكذا أفعال الفجرة مع أوليائه تعالى ما حفر أحد منهم لاحد منهم حفرة مكرا الا أركسه الله تعالى فيها (وقال فرعون) أي أعظم الكفرة في ذلك الوقت لرؤساء أتباعه عندما علم انه عاجز عن قتله وملأه ما رأى منه خوفا دافعا عن نفسه ما يقال من انه ما ترك موسى عليه السلام مع استهانته به الا عجزا عنه موهما ان قومه هم الذين يردونه عنه وانه لولا ذلك لقتله (ذروني) أي اتركوني على أي حالة كانت (أقتل موسى) وزاد في الايهام للاغبياء والمناداة على نفسه عند البصراء بقوله (وليدع ربه) أي الذي يدعوه ويدعي احسانه اليه بما يظهر على يديه من هذه الخوارق وقيل كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى وفي منعه من قتله وجوه أولها لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيتحيل في منع فرعون من قتله وثانيها قال الحسن ان أصحابه قالوا له لا تقتله فانما هو ساحر ضعيف ولا يمكن ان يغلب سحرنا فان قتلته أدخلت الشبهة على الناس ويقولون انه كان محقا وعجزوا عن جوابه فقتلوه وثالثها أنهم كانوا يحتالون في منعه من قتله لاجل ان يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب تلك الاقوام لان من شأن الامراء ان يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من قبل ذلك الملك

وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون * ثم ذكر فرعون السبب الموجب لقتل موسى عليه السلام وهو اما فساد الدين أو فساد الدنيا فقال (انى أخاف) أى ان تركته (أن يبدل دينكم أو ان يظهر فى الارض الفساد) أى لابد من وقوع أحد الامرين اما فساد الدين واما فساد الدنيا أما فساد الدين فلان القوم اعتقدوا ان الدين الصحيح هو دينهم الذى كانوا عليه فلما كان موسى عليه السلام ساعيا فى افساده اعتقدوا انه ساع فى افساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو ان يجتمع عليه أقوام ويصير ذلك سببا فى وقوع الخصومات واثارة الفتن وبدأ فرعون بذكر الدين أولا لان حب الناس لاديانهم فوق حبهم لاموالهم * ولما توعد فرعون موسى عليه السلام بالقتل لم يأت فى دفع شره الا بأن استعان بالله واعتمد على فضله كما قال تعالى (وقال موسى انى عذت) أى اعتصمت عند ابتداء الرسالة (بربى) ورغبهم فى الاعتصام به ونبههم بقوله (وربكم) أى المحسن الينا أجمعين وأرسلنى لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا (من كل متكبر) أى عات طاغ متعظم على الحق هذا وغيره (لايؤمن) أى لايجدد له تصديق (بيوم الحساب) من ربه له وهو يعلم انه لابد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده فيحكم على ربه بما لايحكم به على نفسه وبهذين الامرين يقدم الانسان على اتقاء الناس لان المتكبر القاسى القلب قد يحمله طبعه عن ايذاء الناس الا انه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له عن الجرى على موجب تكبره فاذا لم يحصل له الايمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعيا له الى الايذاء لان المانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائل فلاجرم تعظم القسوة والايذاء * واختلف فى الرجل المؤمن فى قوله تعالى (وقال رجل مؤمن) أى راسخ الايمان (من آل فرعون) أى من وجوههم ورؤسائهم (يكتم ايمانه) أى يخفيه خفاء شديدا خوفا على نفسه فقال مقاتل والسدى كان قبطيا ابن عم فرعون وهو الذى حكى الله تعالى عنه وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى وقيل كان اسرائيليا وعن ابن عباس لم يكن فى آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى عليه السلام الذى قال ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم وعن جعفر بن محمد ان مؤمن آل فرعون قال ذلك سرا وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه جهارا أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وروى عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا وقال له أنت الذى تنهانا عما كان يعبد آباؤنا قال أنا ذلك فأقبل أبو بكر رضى الله تعالى عنه فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم فكان أبو بكر أشد من ذلك وعن أنس بن مالك قال ضربوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله قالوا من هذا قيل هذا ابن أبي قحافة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأكثر العلماء كان اسم الرجل حزقيل وقال ابن اسحق جبريل وقيل حبيب * ولما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام انه ما زاد في دفع فرعون وشره على الاستعاذة بالله تعالى بين أنه تعالى قيض له انسانا أجنبيا حتى ذب عنه بأحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة فقال (أتقتلون رجلا) أى هو عظيم في الرجال حسا ومعنى ثم علل قتلهم له بما ينافيه فقال (أن) أى لاجل أن (يقول) قولا على سبيل الانكار (ربي) أى المربي والمحسن الى (الله) أى الجامع لصفات الكمال (وقد) أى والحال أنه قد (جاءكم بالبينات) أى الآيات الظاهرات من غير لبس (من ربكم) أى الذي لا احسان عندكم الا منه ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية على أن الاقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريق التقسيم فقال (وان يك) أى هذا الرجل (كاذبا فعليه) أى خاصة (كذبه) أى كان وبال كذبه عليه وليس عليكم منه ضرر فاتركوه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) أى العذاب عاجلا ولصدقه ينفعه ولا ينفعكم شيأ (فان قيل) لم قال بعض الذي يعدكم وهو نبي صادق لابد لما يعدهم ان يصيبهم كله (أجيب) بأنه انما قال ذلك ليهضم موسى بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم انه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا فضلا عن ان يتعصب له وهذا أولى من قول أبي عبيدة وغيره ان بعض بمعنى كل وأنشد قول لبيد

ترّاك أمكنة اذا لم أرضها * أو ترتبط بعض النفوس حمامها

وأنشد أيضا قول عمرو بن سهم

قد يدرك المتأني بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال الآخر

ان الامور اذا الاحداث دبرها * دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

وقوله (ان الله) أى الذي له مجامع العظمة (لا يهدى) الى ارتكاب ما ينفع واجتناب ما يضر (من هو مسرف) باظهار الفساد وبتجاوز الحدود (كذاب) فيه احتمالان أحدهما ان هذا اشارة الى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى عليه السلام والمعنى ان الله تعالى هدى موسى عليه السلام الى الاتيان بالمعجزات الباهرة ومن هداه الله تعالى الى الاتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا فدل على ان موسى عليه السلام ليس من المسرفين الكذابين ثانيهما أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى عليه السلام كذاب في ادعائه الالهية والله تعالى لا يهدى من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره * ولما استدل مؤمن آل فرعون على انه لا يجوز قتل موسى عليه السلام خوف فرعون وقومه ذلك العذاب الذي توعدهم به في قوله يصبكم بعض الذي يعدكم فقال (يا قوم) وعبر باسلوب الخطاب دون التكلم تصريحا بالمقصود فقال (لكم الملك) ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله (اليوم) وأشار الى ما عهدوه من الخذلان في بعض الازمان بقوله (ظاهرين) أى عالين على بني اسرائيل

وغيرهم ومازال أهل البلاء يتوقعون الرخاء وأهل الرخاء يتوقعون البلاء ونبه بقوله (فى الارض) أى أرض مصر على الاحتياج ترهيبا لهم وعرّفها لانها كالارض كلها لحسنها وجمعها المنافع ثم حذرهم من سخط الله تعالى فقال (فمن ينصرنا) أى أنا وأنتم أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر بعد افراده لهم بالملك ابعادا للتهمة وحثا على قبول النصيحة (من بأس الله) أى الذى له الملك كله (ان جاءنا) أى غضبا لهذا الذى يدعى أنه أرسله فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه أحد * ولما قال المؤمن هذا الكلام (قال فرعون) أى لقومه جوابا لما قاله هذا المؤمن (ما أريكم) من الآراء (الا ما أرى) أى انه صواب على قدر مبلغ علمى ولا أرى لكم الا ما أرى لنفسى وقال الضحاك ما أعلمكم الا ما أعلم (وما أهديكم) أى بما أشرت به عليكم من قتل موسى وغيره (الا سبيل الرشاد) أى الذى أرى أنه صواب لا أظهر شيأ وأبطن غيره ولما ظهر لهذا المؤمن أنّ فرعون ذل لكلامه ارتفع الى أصرح من الاسلوب الاوّل كما أخبرنا الله تعالى بقوله (وقال الذى آمن) أى بعد قول فرعون هذا الكلام الذى دلّ على عجزه وجهله وذله (يا قوم) وأكد لما رأى عندهم من انكار أمره وخاف منهم اتهامه فقال (انى أخاف عليكم) أى من المكابرة فى أمر موسى عليه السلام (مثل يوم الاحزاب) أى أيام الامم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم مع أنّ افراده أردع وأقوى فى التخويف وأقطع للاشارة الى قوّة الله تعالى وأنه قادر على اهلاكهم فى أقل زمان ولما أجمل فصل وبين أو أبدل بعد أن هوّل بقوله (مثل دأب) أى عادة (قوم نوح) أى فيما دهمهم من الهلاك الذى محقهم فلم يطيقوه مع ما كان فيهم من قوّة المجادلة والمقاومة لما يريدونه (وعاد وثمود) مع ما بلغكم من جبروتهم * (تنبيه) * لا بدّ من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم * ولما كان هؤلاء أقوى الامم اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال (والذين من بعدهم) أى بالقرب من زمانهم كقوم لوط (وما الله) أى الذى له الاحاطة بأوصاف الكمال (يريد ظلما للعباد) أى فلا يهلكهم الا بعد اقامة الحجة عليهم ولا يهلكهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد من حيث انّ المنفى فيه حدوث تعلق ارادته بالظلم * ولما أشرق من آفاق هذا الوعظ شمس البعث ونور الحشر قال (ويا قوم انى أخاف عليكم) وقوله (يوم التناد) أجمع المفسرون أنه يوم البعث وفى تسميته بهذا الاسم وجوه أوّلها أن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار كما حكى الله تعالى عنهم ثانيها قال الزجاج هو قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم ثالثها ينادى بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور فيقولون يا ويلنا رابعها ينادون الى المحشر خامسها ينادى المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر ياليتنى لم أوت كتابيه سادسها ينادى باللعنة على الظالمين سابعها يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثامنها ينادى بالسعادة والشقاوة الا ان فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا وفلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وهذه الامور كلها

تجتمع في هذا اليوم فلا بد من تسميته بها كلها ولما كان عادة المتنادين الإقبال وصف ذلك
اليوم بضد ذلك لشدة الاهوال فقال تعالى مبدلا أو مبينا (يوم تولون) أي عن الموقف
(مدبرين) قال الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا
الملائكة صفوفا فيرجعون الى أماكنهم فذلك قوله تعالى والملك على ارجائها وقوله تعالى يا معشر
الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا
بسلطان وقال مجاهد فارين من النار غير معجزين وقيل منصرفين عن الموقف الى النار ثم
أكد التهديد بقوله تعالى (ما لكم من الله) أي الملك الجبار الذي لا يذل (من عاصم) أي من فئة
تحميكم وتنصركم وتمنعكم من عذابه * ثم نبه على قوة ضلالهم وشدة جهالتهم فقال تعالى (ومن
يضلل الله) أي الملك المحيط بكل شئ (فما له من هاد) أي الى شئ ينفعه بوجه من الوجوه
(تنبيه) في قراءة هاد ما تقدم في قوله من واق * ولما قال لهم مؤمن آل فرعون ومن يضلل
الله فما له من هاد ذكر لهم مثالا بقوله تعالى (ولقد جاءكم) أي جاء آباءكم يا معشر القبط ولكنه عبر
بذلك دلالة على أنهم على مذهب الآباء كما جرت به العادة من التقليد ومن أنهم على طبعهم
لا سيما ان كانوا لم يفارقوا اماكنهم (يوسف) أي نبي الله ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله اسحق بن
خليل الله ابراهيم عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام (من قبل) أي قبل زمن موسى
عليه السلام (بالبينات) أي الآيات الظاهرات لا سيما في أمر يوم التناد (فما زلتم) أي
ما برحتم أنتم تبعا لآبائكم (في شك) أي محيط بكم لم تصلوا الى رتبة الظن (مما جاءكم به) من
التوحيد وقال ابن عباس من عبادة الله وحده لا شريك له فلم تنتفعوا البتة بتلك البينات
ودل على تمادي شكهم بقوله تعالى (حتى اذا هلك) فهو غاية أي فما زلتم في شك حتى هلك (قلتم لن
يبعث الله) أي الذي له صفات الكمال (من بعده) أي يوسف عليه السلام (رسولا) أي أقمتم على
كفركم وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة وهذا ليس اقرارا منهم برسالته بل هو ضم منهم الى
الشك في رسالته والتكذيب برسالة من بعده وقوله تعالى (كذلك) خبر مبتدأ مضمر أي الامر
كذلك أو مثل هذا الضلال (يضل الله) أي بما له من صفات القهر (من هو مسرف) أي مشرك
متغال في الامور خارج عن الحدود (مرتاب) أي شاك فيما تشهد به البينات بغلبة الوهم
والانهماك في التقليد ثم بين تعالى ما لاجله بقوا في الشك والاسراف فقال سبحانه (الذين
يجادلون) وهو مبتدأ أي يخاصمون خصاما شديدا (في آيات الله) أي المحيط بأوصاف الكمال
لا سيما الآيات الدالة على يوم التناد فانها أظهر الآيات وكذا الآيات الدالة على وجوده سبحانه
وتعالى وعلى ما هو عليه من الصفات والافعال وما يجوز عليه أو يستحيل (بغير سلطان) أي
برهان (أتاهم) وقوله (كبر) أي جدالهم (مقتا) خبر المبتدأ ويجوز في الذين أوجه أيضا منها
أنه بدل من قوله تعالى من هو مسرف وانما جمع اعتبارا بمعنى من ومنها أن يكون بيانا له ومنها
أن يكون صفة له وجمع على معنى من أيضا ومنها أن ينصب باضمار أعني وقال الزجاج قوله الذين
يجادلون تفسير لمسرف مرتاب يعني هم الذين يجادلون في آيات الله أي في ابطالها بالتكذيب

بغير سلطان أتاهم كبر مقتا (عند الله) أي الملك الاعظم (و) كبر مقتا أيضا (عند الذين آمنوا) أي الذين هم خاصته ودلت الآية على انه يجوز وصفه تعالى بأنه مقت بعض عباده الا انها صفة واجبة التأويل في حق الله تعالى كالغضب والحياء والعجب وقوله تعالى (كذلك) أي ومثل هذا الطبع العظيم (يطبع الله) أي الذي له جميع العظمة يدل على أن الكل من عند الله كما هو مذهب أهل السنة (على كل قلب متكبر) أي متكلف ماليس له وليس لاحد غير الله (جبار) أي ظاهر الكبر قوية قهار وقال مقاتل الفرق بين المتكبر والجبار ان المتكبر عن قبول التوحيد والجبار في غير الحق قال الرازي كمال السعادة في امرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل المتكبر كالمضاد للتعظيم لامر الله والجبار كالمضاد للشفقة على خلق الله وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان بتنوين الباء الموحدة ووصف القلب بالتكبر والتجبر لانه منبعهما كقولهم رأت عيني وسمعت أذني أو على حذف مضاف أي على كل ذي قلب متكبر جبار فهي حينئذ مساوية لقراءة الباقين بغير تنوين ثم ان فرعون عليه اللعنة أعرض عن جواب المؤمن لانه لم يجد فيه مطعنا (وقال فرعون ياهامان) وهو وزيره (ابن) وعرفه بشدة اهتمامه بالاضافة اليه في قوله (لي صرحا) أي بناء مكشوفا عاليا لايخفى على الناظر وان بعد من صرح الشيء اذا ظهر (لعلي أبلغ الاسباب) أي التي لا أسباب غيرها لعظمها وتعليله بالترجي الذي لا يكون الا في الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق فان عاقلا لا يعد مارامه في عداد الممكن العادي ولما كان بلوغها أمرا عظيما أورده على نمط مشوق اليه ليعطيه السامع حقه من الاهتمام تفخيما لشأنه ليتشوف السامع الى بيانه بقوله (أسباب السموات) أي الامور الموصلة اليها وكل ما أداك الى شئ فهو سبب اليه وقرأ الكوفيون بسكون الياء والباقون بالفتح وقرأ (فاطلع) حفص بنصب العين وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه جواب الامر في قوله ابن لي فنصب بأن مضمرة بعد الفاء في جوابه على قاعدة البصريين كقوله

يا ناق سيري عنقا فسيحا * الى سليمان فنستريحا

وهذا أوفق لمذهب البصريين ثانيها قال أبو حيان انه منصوب على التوهم لان خبر لعل جاء مقرونا بأن كثيرا في النظم وقليلا في النثر فمن نصب توهم ان الفعل المرفوع الواقع خبرا منصوب بأن والعطف على التوهم كثير وان كان لا ينقاس اهـ ثالثها على جواب الترجي في لعل وهو مذهب كوفي والى هذا نحا الزمخشري وتبعه البيضاوي قال وهو الاولى تشبيها للترجي بالتمني والباقون بالرفع عطفا على أبلغ أي فلعله يتسبب عن ذلك ويتعقبه اني أتكلف الطلوع (الى اله موسى) ولعله أراد أن يبني له صرحا في موضع عال يرصد فيه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله تعالى اياه أوان يرى فساد قول موسى فان اخباره عن اله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله اليه وذلك لايتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لا يقوى عليه الانسان وذلك لجهله بالله

تعالى وكيفية أسبابه (وانى لاظنه) أى موسى عليه السلام (كاذبا) فى دعوى الرسالة وفى ان له الها غيرى قال فرعون ذلك تمويها (وكذلك) أى مثل ذلك التزيين العظيم الشأن (زين) أى زين المزين النافذ الامر وهو الله تعالى حقيقة بخلقه والزامه لان كل ما دخل فى الوجود من المحدثات فهو خلقه والشيطان مجازا بالتسبب بالوسوسة التى هى بخلق الله تعالى (لفرعون سوء عمله) فى جميع أمره فأقبل عليه راغبا فيه مع بعده عن عقل أقل ذوى العقول فضلا عن ذوى الهمم منهم فضلا عن الملوك وأطاعه فيه قومه وقرأ غير الكوفيين (وصد) بفتح الصاد أى نفسه ومنع غيره وقرأ الكوفيون بضمها أى منعه الله تعالى (عن السبيل) أى طريق الهدى وهى الموصلة الى الله تعالى (وما كيد فرعون) أى فى ابطال ما جاء به موسى عليه السلام (الا فى تباب) أى خسار وهلاك عظيم محيط به لا يقدر على الخروج منه ✽ ولما كان فساد ما قال فرعون أظهر من أن يحتاج الى بيان أعرض المؤمن عنه (وقال الذى آمن) أى مشيرا الى وهن قول فرعون بالاعراض عنه بقوله (ياقوم) أى يا من لا قيام لى الا بهم وأنا غير متهم فى نصيحتهم (اتبعونى) أى كلفوا أنفسكم اتباعى لان السعادة غالبا تكون فيما يكره الانسان (أهدكم سبيل) أى طريق (الرشاد) أى الهدى لانه مع سهولته واتساعه موصل ولا بد الى المقصود وأما ما قال فرعون مدعيا انه سبيل الرشاد فلا يوصل الا الى النار فهو تعريض به شبيه بالتصريح به وفى هذا اشارة الى انه ينبغى لا دنى أهل الايمان أن لا يخلى نفسه عن الوعظ لغيره وقرأ ابن كثير باثبات الياء بعد النون وقفا ووصلا وأثبتها قالون وأبو عمرو وصلا لا وقفا وحذفها الباقون وصلا ووقفا ثم ان ذلك المؤمن زهدهم فى الدنيا وكرر (ياقوم) كما كرر ابراهيم عليه السلام يا أبت زيادة فى استعطافهم بقوله (انما هذه الحياة) وحقرها بقوله (الدنيا) اشارة الى دناءتها بقوله (متاع) اشارة الى انها جيفة لانها فى اللغة من جملة مدلولات المتاع فلا يتناول منها الا كما يتناول المضطر من الجيفة لانها دار النقلة والزوال والتزود والارتحال والاخلاد اليها هو أصل الشر كله ومنه تتشعب جميع ما يؤدى الى سخط الله تعالى ويجلب الشقاوة فى العاقبة ثم رغبهم فى الآخرة بقوله (وان الآخرة) أى لكونها مقصودة بالذات (هى دار القرار) أى التى لا تحول منها اصلا لانها الوطن المستقر قال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خيرا من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فكان الترغيب فى نعيم الجنان والترهيب من عذاب النيران من أعظم وجوه الترغيب والترهيب والآية من الاحتباك ذكر المتاع أولا دليلا على حذف التوسع ثانيا والقرار ثانيا دليلا على حذف الارتحال أولا ثم قال ذلك المؤمن لقومه (من عمل سيئة) أى ما يسوء من أى صنف كان الذكور والاناث المؤمنين والكافرين (فلا يجزى) أى من الملك الذى لا ملك سواه (الا مثلها) عدلا منه لا يزاد عليها مقدار ذرة ولا أصغر منها (ومن عمل صالحا) أى ولو قل (من ذكر أو أنثى وهو) أى والحال انه (مؤمن) اذ لا يصح عمل بدون ايمان

(فأولئك)

(فأولئك) أى العالو الرتبة والهمة (يدخلون الجنة) أى بأمر من له الامر كله بعد ان تضاعف لهم أعمالهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء (يرزقون فيها) أى الجنة من غير احتياج الى تحيل ولا الى أسباب (بغير حساب) لخروج مافيها لكثرته عن الحصر فان أدنى أهلها منزلة لو أضاف كل أهل الارض لكفاهم من غير أن ينقص من ملكه شئ وهذا من باب الفضل وفضل الله لا حد له ورحمته غلبت غضبه وأما جزاء السيئة فمن باب العدل فلذلك وقع الحساب فيها لئلا يقع الظلم قال الاصبهانى فاذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعد ترجح الوعد بسبق الرحمة الغضب فانهدمت قواعد المعتزلة ثم كرر الوعظ عليهم بقوله (وياقوم ما) أى أى شئ من الحظوظ والمصالح (لى) فى أنى (أدعوكم الى النجاة) والجنة شفقة عليكم ورحمة لكم واعترافا بحقكم (وتدعوننى الى النار) والهلاك بالكفر فالآية من الاحتباك ذكر النجاة الملازمة للايمان أولا دليلا على حذف الهلاك الملازم للكفران ثانيا والنار ثانيا دليلا على حذف الجنة أولا وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بفتح ياء مالى والباقون بسكونها واتفقوا على سكون الياء من تدعوننى * ولما أخبر ذلك المؤمن بقلة انصافهم اجمالا بينه بقوله (تدعوننى) أى توقعون دعائى الى معبوداتكم (لاكفر) أى لاجل ان أكفر (بالله) الذى له مجامع القهر والعز والعظمة والكبرياء (وأشرك به) أى أجعل له شريكا (ماليس لى به) أى بربوبيته (علم) أى نوع من العلم بصلاحيته لشئ من الشركة فهو دعاء الى الكذب فى شئ لا يحل الاقدام عليه الا بالدليل القطعى الذى لا يحتمل نوعا من الشرك فالمراد بنفى العلم نفى الاله كأنه قال وأشرك به ماليس باله وماليس باله كيف يعقل جعله شريكا لله * ولما بين أنهم يدعونه الى الكفر بين أنه يدعوهم الى الايمان بقوله (وأنا أدعوكم) أى أوقع دعاكم الآن وقبله وبعده (الى العزيز) أى البالغ العزة الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ وأما فرعون فهو فى غاية العجز فكيف يكون الها وأما الاصنام فانها أحجار منحوتة فكيف يعقل كونها آلهة وقرأ نافع وأنا بالمد بعد النون وقالون بمد ويقصر وورش بالمد لاغير والباقون بغير مد وقوله (الغفار) أى الذى يتكرر منه دائما محو الذنوب عينا وأثرا اشارة الى انهم يجب عليهم أن لا ييأسوا من رحمة الله تعالى بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فان الاله العالم وان كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يعارض لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة وقوله (لا جرم) رد لما دعوه اليه وجرم فعل بمعنى حق وفاعله (أنما) أى الذى (تدعوننى اليه) من هذه الانداد (ليس له دعوة) بوجه من الوجوه فانه لا ادراك له هذا ان أريد مالا يعقل وان أريد شئ مما يعقل فلا دعوة له مقبولة بوجه فانه لا يقوم عليها دليل بل ولا شبهة موهمة (فى الدنيا) أى التى هى محل الاسباب الظاهرة (ولا فى الآخرة) أى ليس له استجابة دعوة فيهما فسمى استجابة الدعوة دعوة اطلاقا لاسم أحد المتضايفين على الآخر كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وكقولهم كما تدين تدان وقيل ليس له دعوة أى عبادة فى الدنيا لان الاوثان لا تدعى الربوبية ولا تدعو الى عبادتها وفى الآخرة

تبرأ من عابديها ثم قال (وأن مردنا) أى مرجعنا (الى الله) أى الذى له الاحاطة بصفات
الكمال فيجازى كل أحد بما يستحقه (وأن المسرفين) أى المجاوزين للحدود الغريقين فى هذا
الوصف قال قتادة وهم المشركون لقوله تعالى (هم) أى خاصة (أصحاب النار) أى ملازموها
وعن مجاهد هم السفاكون للدماء بغير حلها وقيل الذين غلب شرهم هم المسرفون * ولما بالغ هذا
المؤمن فى هذا الشأن ختم كلامه بمخافة لطيفة هى قوله (فستذكرون) أى قطعا بوعد لا خلف
فيه مع القرب (ما أقول لكم) حين لا ينفعكم الذكر فى يوم الجمع الاعظم والزحام الذى يكون فيه
القدم على القدم اذا رأيتم الاهوال والنكال والزلزال ان قبلتم نصحى أو لم تقبلوه * ولما خوفهم
بذلك توعدوه وخوفوه بالقتل فعول فى دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على الله تعالى بقوله
(وأفوض) أى انا الآن بسبب انه لا دعوة لغير الله (أمرى) أى فيما تمكرونه بى (الى الله)
أى الذى أحاط بكل شئ قدرة وعلما فهو يحمى من يشاء وهو انما تعلم هذه الطريقة من
موسى عليه السلام حين خوفه فرعون بالقتل فرجع موسى عليه السلام فى دفع ذلك الشر
الى الله تعالى فقال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقرأ نافع
وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون * ولما علق تفويضه بالاسم العلم الجامع المقتضى
للاحاطة علل ذلك بقوله (ان الله) أى الذى لا يخفى عليه شئ (بصير) أى بالغ العلم (بالعباد)
ظاهرا وباطنا فيعلم من يستحق النصرة فينصره لاتصافه بأوصاف الكمال ويعلم من يمكر فيرد
مكره عليه بماله من الاحاطة قال مقاتل فلما قال هذه الكلمات قصدوا قتله (فوقاه الله) أى
حصل له وقاية تنجيه منهم جزاء على تفويضه (سيآت) أى شدائد (ما مكروا) دينا ودنيا
فنجا مع موسى عليه السلام قال قتادة وكان قبطيا تصديقا لوعده سبحانه بقوله تعالى أنتما ومن
اتبعكما الغالبون * ولما كان المكر السيئ لا يحيق الا بأهله قال تعالى (وحاق) أى نزل محيطا
بعد احاطة الاغراق (بآل فرعون) اى فرعون وأتباعه لاجل اصرارهم على الكفر ومكرهم
هذا ان قلنا ان الآل مشترك بين الشخص وأتباعه وان لم نقل ذلك فالاحاقة بفرعون من
باب أولى لان العادة جرت انه لا يوصل الى جميع اتباع الانسان الا بعد اذلاله وأخذه (سوء
العذاب) أى الغرق فى الدنيا والنار فى الآخرة (فان قيل) قوله تعالى وحاق بآل فرعون سوء
العذاب معناه انه رجع اليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين كقول العرب من حفر لاخيه جبا
وقع فيه منكبا فاذا فسر سوء العذاب بالغرق فى الدنيا ونار جهنم فى الآخرة لم يكن مكرهم
راجعا اليهم لانهم لا يعذبون بذلك (أجيب) بأنهم هموا بشر فأصابهم ما وقع عليه اسم السوء
ولا يشترط فى الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه وقوله تعالى (النار) فى اعرابه ثلاثة
أوجه أحدها انه بدل من سوء العذاب قاله الزجاج ثانيها انه خبر مبتدأ محذوف أى هو أى
سوء العذاب النار لانه جواب لسؤال مقدر وقوله تعالى (يعرضون) على هذين الوجهين
يجوز ان يكون حالا من النار وان يكون حالا من آل فرعون ثالثها انه مبتدأ وخبره يعرضون
(عليها غدوا وعشيا) أى صباحا ومساء قال ابن مسعود أرواح آل فرعون فى أجواف

طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح الى النار ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة وقال قتادة تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيا ما دامت الدنيا وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة * ثم أخبر الله تعالى عن مستقر آل فرعون يوم القيامة بقوله سبحانه وتعالى (ويوم تقوم الساعة) يقال لهم (ادخلوا آل) أى يا آل (فرعون) أى هو بنفسه وأتباعه لأجل اتباعهم له فيما أضلهم به (أشد العذاب) وهو عذاب جهنم أجارنا الله تعالى نحن وأحباءنا منها فانه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم وهذه الآية نص على اثبات عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الخاء وصلا وابتداء على أمر الملائكة بادخالهم النار والباقون بوصل الهمزة وضم الخاء وصلا وفى الابتداء بضم الهمزة واختلف فى العامل فى قوله تعالى (واذ) على ثلاثة أوجه أحدها انه معطوف على غدوا فيكون معمولا ليعرضون على النار فى هذه الأوقات كلها قاله أبو البقاء ثانيها انه معطوف على قوله اذ القلوب لدى الحناجر قاله الطبرى وتطرفيه لبعد ما بينهما وثالثها انه منصوب باضمار اذكر أى واذكر يا أشرف الخلق لقومك اذ (يتحاجون) أى الكفار (فى النار) أى يتخاصمون فيها أتباعهم ورؤساؤهم مما لا يغنيهم (فيقول الضعفاء) أى الأتباع (للذين استكبروا) أى طلبوا أن يكونوا كبراءهم الرؤساء (انا كنا لكم) أى دون غيركم (تبعا) أى أتباعا فتكبرتم على الناس بنا (فهل أنتم) أيها الكبراء (مغنون) أى كافون ومجزئون وحاملون (عنا نصيبا من النار) • (تنبيه) * تبعا اسم جمع لتابع ونحوه خادم وخدم قال البغوى والتبع يكون واحدا وجمعا فى قول أهل البصرة واحده تابع وقال الكوفيون هو جمع لا واحد له وجمعه أتباع وقيل انه مصدر واقع موقع اسم الفاعل أى تابعين وقيل مصدر ولكنه على حذف مضاف أى ذوى تبع ونصيبا منصوب بفعل مقدر يدل عليه قولهم مغنون وتقديره هل أنتم دافعون عنا نصيبا وقيل منصوب على المصدر قال البقاعى كما كان شيأ كذلك ألا ترى الى قوله تعالى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ فى موضع غنى فكذلك نصيبا ومن النار صفة لنصيبا (قال الذين استكبروا) أى من شدة ما هم فيه (انا كل) أى نحن وأنتم (فيها) فكيف نغنى عنكم ولو قدرنا أغنينا عن أنفسنا (ان الله) أى المحيط بأوصاف الكمال (قد حكم) بالعدل (بين العباد) أى فادخل أهل الجنة دارهم وأهل النار دارهم فلا يغنى أحد عن أحد شيأ فعند ذلك يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون كلهم الى خزنة جهنم يسألونهم كما حكى الله عنهم بقوله سبحانه وتعالى (وقال الذين فى النار) أى جميعا الأتباع والمتبوعون (لخزنة جهنم) أى لخزنتها فوضع جهنم موضع المضمر للتهويل أو لبيان محلهم فيها قال البيضاوى ويحتمل أن تكون جهنم أبعد دركاتها

من قولهم بئر جهنام أي بكسر الجيم والهاء وتشديد النون بعيد القعر وقال بعض أهل اللغة هي مشتقة من الجهومة وهي الغلظ سميت بذلك لغلظ عذابها وهي عجمية منعت من الصرف للتعريف والعجمة وقيل عربية ومنعت من الصرف للتعريف والتأنيث (ادعوا ربكم) أي المحسن اليكم بأنكم لا تجدون ألما من النار (يخفف عنا يوما) أي قدر يوم (من العذاب) أي شيأ فيوما ظرف ليخفف ومفعول يخفف محذوف أي يخفف عنا شيأ من العذاب في يوم ويجوز أن يكون من العذاب هو المفعول ليخفف ومن تبعيضية ويوما ظرفا فسألوا أن يخفف عنهم بعض العذاب لا كله في يوم ما الا في كل يوم ولا في يوم معين (قالوا) أي الخزنة لهم (أولم تك تأتيكم) على سبيل التجدد شيأ في اثر شيء (رسلكم) أي الذين هم منكم وأنتم جديرون بالاصغاء اليهم والاقبال عليهم لان الجنس الى الجنس أميل والانسان من مثله أقبل (بالبينات) أي التي لا شيء أوضح منها أرادوا بذلك الزامهم الحجة وتوبيخهم على اضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الاجابة وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها وكذلك رسلنا ورسلهم (قالوا) أي الكفار (بلى) أي أتونا كذلك (قالوا) أي الخزنة لهم (فادعوا) أي أنتم فانا لا نشفع لكافر (وما دعاء الكافرين) أي الذين ستروا مرأى عقولهم عن أنوار الحق (الا في ضلال) أي ذهاب في غير طريق موصل كما كانوا هم في الدنيا كذلك فان الدنيا مزرعة الآخرة من زرع شيأ في الدنيا حصده في الآخرة والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر الا من جنس ما غرس في الدنيا وفي هذا اقناطهم عن الاجابة * ولما ذكر تعالى وقاية موسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون وقومه من بقوله تعالى (انا) أي بما لنا من العظمة (لننصر رسلنا) أي على من عاداهم (والذين آمنوا) أي اتسموا بهذا الوصف (في الحياة الدنيا) أي بالزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز بالحجة والغلبة وان غلبوا في بعض الاحيان فان العاقبة تكون لهم ولو بأن يقيض الله تعالى لاعدائهم من يقتص منهم ولو بعد حين وقل أن تمكن أعداؤهم من كل ما يريدون منهم (ويوم يقوم الاشهاد) وهو جمع شاهد كصاحب وأصحاب والمراد بهم من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والانبياء والمؤمنين أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب وأما الانبياء عليهم الصلاة والسلام فقال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وأما المؤمنون فقال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس وقوله تعالى (يوم) بدل من يوم قبله أو بيان له أو نصب باضمار أعني يوم (لا ينفع الظالمين) أي الذين كانوا عريقين في وضع الاشياء في غير موضعها (معذرتهم) أي اعتذارهم (فان قيل) هذا يدل على انهم يذكرون الاعذار ولكن تلك الاعذار لا تنفعهم فكيف هذا مع قوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (أجيب) بأن هذا لا يدل على أنهم ذكروا الاعتذار بل ليس فيه الا ان ليس عندهم عذر مقبول وهذا لا يدل على أنهم ذكروه أم لا وأيضا يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر وقرأ نافع والكوفيون بالياء التحتية والباقون بتاء الخطاب

(ولهم) أي خاصة (اللعنة) أي البعد عن كل خير مع الاهانة بكل ضير (ولهم) أي خاصة (سوء الدار) أي الآخرة أي أشد عذابها * ولما بين تعالى انه ينصر الانبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ذكر نوعا من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال تعالى (ولقد آتينا) أي بما لنا من العزة (موسى الهدى) أي ما يهتدي به في الدين من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا) أي بما لنا من العظمة (بني اسرائيل) أي بعدما كانوا فيه من الذل (الكتاب) أي الذي أنزلناه عليه وآتيناه الهدى به وهو التوراة ايتاءً هو الارث لا ينازعهم فيه أحد توارثوه خلفا عن سلف ولا أهل له في ذلك الزمان غيرهم وأورثناهم من بعد موسى عليه السلام حال كونه (هدى) أي بيانا عاما لكل من تبعه (وذكرى) أي عظة عظيمة (لأولي الالباب) أي القلوب الصافية والعقول الوافية الشافية * ولما بين تعالى أنه ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى عليه السلام خاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (فاصبر) أي يا أشرف الخلق على أذى قومك كما صبر موسى عليه السلام على أذى فرعون (ان وعد الله) أي الذي له الكمال كله (حق) أي في اظهار دينك واهلاك أعدائك قال الكلبي نسخت آية القتل آية الصبر وقوله تعالى (واستغفر لذنبك) اما أن يكون المصدر مضافا للمفعول أي لذنب أمتك في حقك واما أن يكون ذلك تعبدا من الله تعالى ليزيده به درجة وليصير سنة يستن به من بعده (وسبح بحمد ربك بالعشي) هو من بعد الزوال (والابكار) قال الحسن رضي الله عنه يعني صلاة العصر وصلاة الفجر وقال ابن عباس رضي الله عنهما الصلوات الخمس وذلك أن العشي من زوال الشمس الى غروبها والابكار من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ولما ابتدأ بالرد على الذين يجادلون في آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على الترتيب المتقدم الى هنا نبه تعالى على الماهية التي تحمل الكفار على تلك المجادلة فقال تعالى (ان الذين يجادلون) أي يناصبون العداوة (في آيات الله) أي الملك الاعظم الدالة على تمام قدرته اللازم منه قدرته على البعث الذي في تذكره صلاح الدين والدنيا (بغير سلطان) أي برهان (اتاهم ان) أي ما (في صدورهم) أي يصدهم عن سواء السبيل قال ابن عادل ما حملهم على تكذيبك (الا كبر) أي تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم وآذن ذكر الصدور دون القلوب بعظمه جدا فانه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور والتي هي مساكنها (ما هم ببالغيه) قال مجاهد ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لان الله تعالى مذلهم وقال ابن قتيبة ان في صدورهم الا كبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك قال المفسرون نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ان صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويرد الملك علينا قال الله تعالى (فاستعذ) أي اعتصم (بالله) أي المحيط بكل شئ من فتنة الدجال ومن كيد من يحسدك ويبغي عليك وغير ذلك كما عاذ به موسى عليه السلام لينجز لك ما وعدك به كما أنجزله ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه هو) أي

وحده (السميع) أى لاقوالهم (البصير) أى لافعالهم ولما وصف تعالى جدالهم في الآيات بانه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالا فقال (لخلق السموات) أى على عظمها وارتفاعها وكثرة منافعها واتساعها (والارض) أى على ماترون من عجائبها وكثرة منافعها (أكبر) عند كل من يعقل (من خلق الناس) أى خلق الله تعالى لهم لانهم شعبة يسيرة من خلقهما فعلم قطعا أن الذى قدر على ابتدائه مع عظمه قادر على اعادة الناس على حقارتهم (ولكن أكثر الناس) وهم الذين ينكرون البعث وغيره (لايعلمون) أى لاعلم لهم أصلا بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم *(تنبيه)* تقدير هذا الكلام ان الاستدلال بالشئ على غيره ينقسم ثلاثة أقسام أحدها أن يقال لماقدر على الاضعف وجب أن يقدر على الاقوى وهذا فاسد ثانيها أن يقال لماقدر على الشئ قدر على مثله فهذا الاستدلال صحيح لماثبت فى الاصول ان حكم الشئ حكم مثله ثالثها أن يقال لماقدر على الاقوى الاكمل قدر على الاقل الارذل بالاولى وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ثم ان هؤلاء القوم يسلمون ان خالق السموات والارض هو الله تعالى ويعلمون بالضرورة ان خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه أولا فهذا برهان كلى فى افادة هذا المطلوب ثم ان هذا البرهان على قوته صار لايعرفه أكثر الناس والمراد منه الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال ان هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ولا حجة بل بمجرد الحسد والكبر والغضب * ثم لما بين تعالى ان الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وان الجدال بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر مثال فقال تعالى (ومايستوى) أى بوجه من الوجوه من حيث البصر (الاعمى والبصير) أى ومايستوى المستدل والجاهل المقلد (والذين آمنوا) أى أوجدوا حقيقة الايمان (وعملوا الصالحات) أى تحقيقا لايمانهم (ولا المسيء) أى ومايستوى المحسن والمسيء فلا زائدة للتوكيد لانه لماطال الكلام بالصلة بعد قسم المؤمنين أعاد معه لا توكيدا والمراد بالاول التفاوت بين العالم والجاهل وبالثانى التفاوت بين الآتى بالاعمال الصالحة وبين الآتى بالاعمال السيئة الباطلة * ولماتقرر هذا على هذا النحو من الوضوح الذى لامانع للانسان من فهمه ورسوخه قال تعالى (قليلا ماتتذكرون) أى يتعظ المجادلون وان كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد الا أنه قليلا ماتتذكرون فبين فى النوع الاول المعنى من الاعتقاد أنه علم أو جهل وفى النوع الثانى المعنى من العمل انه عمل صالح أو فاسد *(تنبيه)* التقابل يأتى على ثلاث طرق احداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية والثانية أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع الثالثة أن يتقدم مقابل الاول ويؤخر مقابل الآخر كقوله تعالى ومايستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور كل ذلك تفنن فى البلاغة وقدم الاعمى فى نفى

التساوى

التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب أو الالتفات للمذكورين بعد الاخبار عنهم أو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة والباقون بياء الغيبة نظرا لقوله تعالى ان الذين يجادلون وهم الذين التفت اليهم في قراءة الخطاب * ولما قرر الدليل على امكان وجود يوم القيامة أردفه بالاخبار عن وقوعها فقال تعالى (ان الساعة) أي القيامة التي يجادل فيها المجادلون (لآتية) أي للحكم بالعدل بين المسيء والمحسن لانه لا يسوغ في الحكمة عند أحد من الخلق أن يساوي بين محسن عبيده ومسيئهم (لا ريب) أي لا شك (فيها) أي في اتيانها * ولما حصل الحال في أمرها الى حد لاخفاء به أصلا نفى الايمان دون العلم فقال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أي لا يصدقون بها وما ذاك الا لعناد بعضهم ولقصور نظر الباقين على الحس * (تنبيه) * يأتي قبل قيام الساعة فتن أعظمها فتنة المسيح الدجال فعن هشام بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين خلق آدم عليه السلام الى قيام الساعة أكبر من خلق الدجال معناه أكبر فتنة وأعظم شوكة من الدجال وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال فقال انه أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية ولابي داود والترمذي عنه قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال اني أنذركموه وما من نبي الا أنذر قومه ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور والله سبحانه ليس بأعور وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي الا وأنذر قومه وأمته الاعور الدجال الا وانه أعور وان ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر وفي رواية مسلم بين عينيه ك ف ر يقرؤه كل مسلم وعن أسماء بنت يزيد الانصارية قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال فقال ان بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والارض ثلث نباتها والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والارض ثلثي نباتها والثالثة تمسك السماء قطرها كله والارض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم الا هلكت ومن أشد فتنته أن يأتي الاعرابي فيقول أرأيت ان أحييت لك ابلك ألست تعلم اني ربك فيقول بلى فيمثل له مثل ابله كأحسن ما تكون ضروعا وأسنمة ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول ان أحييت لك أباك وأحييت لك أخاك ألست تعلم اني ربك فيقول بلى فيمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه قالت ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم فأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء قلت يا رسول الله قد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال قال ان يخرج وأنا حي فأنا حجيجه والا فربي خليفتي على كل مؤمن قالت فقلت يا رسول الله انا لنعجن عجيننا فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين حينئذ قال يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس وروى البغوي بسنده عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث الدجال في الارض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار انتهى والذي جاء في صحيح

مسلم قالت قلت يارسول الله ما مكثه في الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذي كسنة يكفينا فيه صلاة يوم قال لا اقدروا له قدرا قلنا يارسول الله وما اسراعه في الارض قال كالغيث استدبرته الريح وفي رواية أبي داود فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فانها جواركم من فتنته ومنه ثم ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لد فيقتله وعن حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان مع الدجال اذا خرج ماء ونارا فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء بارد وأما الذي يرى الناس أنه ماء فنار تحرق فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى الناس أنه نار فانه ماء عذب بارد وعن أبي هريرة ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدث به نبي قومه انه أعور وانه يجيء بمثال الجنة والنار فالتي يقول انها الجنة هي النار واني أنذركم كما أنذر نوح قومه وعن المغيرة بن شعبة قال ماسأل أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر ماسألته وانه قال لي مايضرك قلت انهم يقولون ان معه جبال خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك اي أهون على الله من أن يجعل ماخلق الله بيده مضلا للمؤمنين ومشككا لقلوبهم بل انما جعله الله تعالى ليزدادوا ايمانا وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين وليس معناه ليس معه شيء من ذلك لما مر في الحديث ان معه ماء ونارا وذكر فيه أحاديث كثيرة وفي هذا القدر تذكرة لاولى الالباب أجارنا الله تعالى وأحبابنا من فتنته آمين * ولما بين تعالى ان القول بالقيامة حق وكان من المعلوم بالضرورة ان الانسان لا ينتفع في يوم القيامة الا بطاعة الله والتضرع اليه لاجرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات * ولما كان أشق انواع الطاعات الدعاء والتضرع لاجرم أمر الله تعالى به فقال سبحانه (وقال ربكم) اى المحسن اليكم بهدايتكم ووعدكم النصرة (ادعوني) اى اعبدوني دون غيري (أستجب لكم) اى أثبكم واغفر لكم بقرينة قوله تعالى (ان الذين يستكبرون) اي يوجدون الكبر (عن عبادتي) اى عن الاستجابة لي فيما دعوت اليه من العبادة بالمجادلة في آياتي والاعراض عن دعائي (سيدخلون) اى بوعد لا خلف فيه (جهنم) فتلقاهم جزاء على كفرهم بالتجهم والعبوسة والكراهة (داخرين) أي صاغرين حقيرين ذليلين وان فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلا منزلته للمبالغة والمراد بالعبادة الدعاء فانه من أبوابها وروي عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء مخ العبادة وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من لم يسأل الله تعالى يغضب عليه (فان قيل) انه صلى الله عليه وسلم قال حكاية عن ربه عزوجل من شغله ذكري عن مسئلتي اعطيته أفضل ما أعطي السائلين فهذا يقتضي ان ترك الدعاء أفضل فكيف من لم يسأل الله يغضب (أجيب) بأنه ان كان مستغرقا في الثناء على الله تعالى فهو أفضل من الدعاء لان الدعاء طلب الجنة والاستغراق في معرفة الله تعالى وجلاله أفضل من طلب الجنة والا فالدعاء أفضل وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر الدعاء هو العبادة ثم قرأ الآية (فان قيل) كيف قال تعالى ادعوني أستجب لكم وقد يدعو الانسان كثيرا فلا يستجاب له (أجاب) الكعبي بأن الدعاء انما يصح بشرط ومن دعا كذلك استجيب له وذلك الشرط هو ان يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ثم سأل نفسه فقال ان الله تعالى يفعل ماهو الاصلح بغير دعاء فما فائدة الدعاء وأجاب عنه بان فيه الفزع والانقطاع الى الله تعالى وأجاب الرازي عن الاول بأن كل من دعا الله تعالى وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه واجتهاده فهو في الحقيقة مادعا الله تعالى الا باللسان وأما القلب فهو يعوّل في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله تعالى فهذا انسان مادعا ربه وأما اذا دعا في وقت لا يكون القلب فيه ملتفتا الى غير الله تعالى فالظاهر أنه يستجاب له اه وقال القشيري الدعاء مفتاح الاجابة واسنانه لقمة الحلال وقرأ ابن كثير وشعبة بضم ياء سيدخلون وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء * ولما أمر الله تعالى بالدعاء فكانه قيل الاشتغال بالدعاء لابد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة فالدليل على وجود الاله القادر فقال تعالى مفتتحا بالاسم الاعظم (الله) أي المحيط بصفات الكمال (الذي جعل لكم) لاغيره (الليل) أي مظلما (لتسكنوا فيه) راحة ظاهرة بالنوم الذي هو الموت الاصغر وراحة حقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة (والنهار مبصرا) لتنتشروا فيه باليقظة التي هي احياء بالمعنى ففي الآية من الاحتباك حذف الظلام أولا لكونه ليس من النعم المقصودة في نفسها المادل عليه من الابصار الذي هو المقصود من نعمة الضياء المقصود في نفسه وحذف الانتشار لانه بعض ما ينشأ عن نعمة الابصار المادل عليه من السكون الذي هو المقصود الاعظم من الليل للراحة لمن ارادها والعبادة لمن اعتمدها واستزادها (فان قيل) هلا قيل بحسب رعاية النظم هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يقال جعل لكم الليل ساكنا والنهار مبصرا ولكنه لم يقل ذلك فما الحكمة فيه وفي تقديم ذكر الليل (أجيب) عن الاول بأن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات وأما النور واليقظة فأمور وجودية مقصودة بالذات وقد بين الشيخ عبد القادر في دلائل الاعجاز ان دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في الفرق (وأجيب) عن الثاني بأن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود فلهذا السبب قال تعالى في سورة الانعام وجعل الظلمات والنور (ان الله) أي ذا الجلال والاكرام (لذو فضل) أي عظيم جدا باختياره (على الناس) أي كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من المنافع (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) الله فلا يؤمنون وينسبون افعاله سبحانه الى غيره جهلا ويعملون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك وغيره (فان قيل) ما الحكمة في قوله تعالى ولكن أكثر الناس ولم يقل ولكن أكثرهم ولا يكرر ذكر الناس (أجيب) بأن في هذا التكرار تخصيصا لكفران النعمة بهم وانهم هم الذين يكفرون فضل الله تعالى ولا يشكرونه كقوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار * ولما بين تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الاله القادر قال تعالى (ذلكم) اى

ايها المخاطبون (الله) أى الملك الاعظم المعلوم لكل احد المتميز عن كل شئ بالافعال التى لا يشاركه فيها أحد (ربكم) أى المربى لكم المحسن اليكم (خالق كل شئ) أى بما ثبت من تمام قدرته لانه (لا اله الا هو) أى هو الجامع لهذه الاوصاف من الالهية والربوبية فهى أخبار مترادفة واذا كان خالق كل شئ (فأنى) أى فكيف ومن أى وجه (تؤفكون) أى تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره (كذلك) أى مثل هذا الصرف البعيد عن مناهج العقلاء (يؤفك) أى يصرف (الذين كانوا) أى مطبوعين على أنهم (با يات الله) أى ذى الجلال والكمال (يجحدون) أى ينكرون عنادا ومكابرة * ولما كان دلائل وجوده تعالى اما أن تكون من دلائل الآفاق وهى غير الانسان وهى أقسام وذكر منها أحوال الليل والنهار كما تقدم ذكر أيضا منها ههنا الارض والسماء فقال تعالى (الله) أى الذى له الاحاطة الكاملة بكل شئ (الذى جعل) أى وحده (لكم الارض) أى مع كونها فراشا ممهدا (قرارا) مع كونها فى غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرته (والسماء) أى على علوها وسعتها مع كونها أفلاكا دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار والاظلام (بناء) مظلة كالقبة من غير عماد وحامل * ثم ذكر دلائل النفس وهى دلالة أحوال بدن الانسان على وجود الصانع القادر الحكيم بقوله تعالى (وصوركم) والتصوير على غير نظام واحد لا يكون الا بقدرة قادر تام القدرة مختار (فأحسن صوركم) على أشكال وأحوال مع أنها أحسن الصور وليس فى الوجود ما يشبهها لم يخلق الله تعالى حيوانا أحسن صورة من الانسان كما قال تعالى فى أحسن تقويم قال ابن عباس رضى الله عنهما خلق الانسان قائما معتدلا يأكل ويتناول بيده وغير ابن آدم يتناول بفيه * ولما ذكر تعالى المساكن والساكن ذكر ما يحتاج اليه فى مدة السكن فقال سبحانه (ورزقكم من الطيبات) أى الشهية الملائمة للطباع وقيل هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب وعن الحسن انه قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام وذريته قالت الملائكة عليهم السلام ان الارض لا تسعهم قال الله تعالى فانه جاعل موتا قالوا اذا لا يهنأ لهم العيش قال تعالى فانى جاعل أملا * ولما دل هذا على التفرد قال تعالى على وجه الانتاج (ذلكم) أى الرفيع الدرجات (الله) أى المالك لجميع الملك (ربكم) أى المحسن اليكم لا غيره (فتبارك) أى ثبت ثباتا عظيما مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض (الله) المختص بالكمال (رب العالمين) كلهم فهو المحسن اليهم بالتربية وغيرها * ثم نبه تعالى بقوله سبحانه (هو الحى) بما يفيد الحصر بأنه لا حى على الدوام الا هو ثم نبه تعالى على وحدانيته بقوله سبحانه (لا اله الا هو) ثم أمر العباد بالاخلاص فى الدعاء فقال تعالى (فادعوه) أى اعبدوه (مخلصين له الدين) أى من كل شرك جلى أو خفى * ولما كان تعالى موصوفا بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له (الحمد) اى الاحاطة بأوصاف الكمال (لله) أى المسمى بهذا الاسم الجامع لجامع معانى الاسماء الحسنى (رب العالمين) أى الذى رباهم هذه التربية * وقال الفراء هو خبر وفيه اضمار الامر ومجازه فادعوه واحمدوه وعن ابن عباس

رضى الله عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين * ولما أورد على المشركين تلك الادلة الدالة على اثبات اله العالم أمره بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء الذين يجادلونك فى البعث مقابلا لانكارهم بالتوكيد (انى نهيت) أى ممن لا نهى لغيره نهيا عاما ببراهين العقول ونهيا خاصا بأدلة النقل (أن أعبد الذين تدعون) أى تعبدون (من دون الله) أى الذى له الكمال كله قال البقاعى ودل على أنه ما كان متعبدا قبل البعثة بشرع أحد بقوله (لما جاءنى البينات) أى الحجج وهى ما تقدم من الدلائل الدالة على أن اله العالم قد ثبت كونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق الا له وأما الاحجار المنحوتة والاخشاب المصورة فلا تصح أن تكون شركاء له * ثم نبه على أنه تعالى كما يستحق الافراد بالعبادة لذاته يستحقها شكرا لاحسانه بقوله (من ربى) أى المربى لى تربية خاصة هى أعلى من كل مخلوق سواى فانا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد * ولما أمره بما ينهى عنه أمره بما يتحلى به فقال (وأمرت أن أسلم) أى حين دعى الى الكفر (لرب العالمين) لان كل ما سواه مربوب له فالاقبال عليه خسار واذا نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمر بهذا لكون الآمر والناهى هو رب العالمين كان غيره مشاركا له فى ذلك لا محالة * ولما استدل تعالى على اثبات الالهية بدليل الآفاق وذكر منها الليل والنهار والارض والسماء ثم ذكر الدليل على اثبات الاله القادر بخلق الانفس وهو نوعان أحدهما حسن الصورة ورزق الطيبات ذكر النوع الثانى وهو كيفية تكوين البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينا الى آخر الشيخوخة والموت فقال تعالى (هو) أى لا غيره (الذى خلقكم من تراب) أى بخلق أبيكم آدم عليه السلام منه قال الرازى وعندى لا حاجة الى ذلك لان كل انسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى مخلوق من الدم والدم انما يتولد من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحال فى ذلك الحيوان كالحال فى تكوين الانسان فكانت الاغذية كلها منتهية الى النبات والنبات انما يكون من التراب والماء فثبت أن كل انسان متكون من التراب ثم ان ذلك التراب يصير نطفة كما قال تعالى (ثم من نطفة) أى من منى (ثم من علقة) أى دم غليظ متباعد حاله عن حال النطفة كما كان حال النطفة متباعدا عن حال التراب (ثم) بعد ان جرت شؤن أخرى (يخرجكم) أى يجدد اخراجكم شيأ بعد شئ (طفلا) أى أطفالا والتوحيد لارادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم لا تملكون شيأ ولا تعلمون شيأ (ثم) يدرجكم فى مدارج التربية صاعدين بالقوة فى أوج الكمال طورا بعد طور وحالا بعد حال (لتبلغوا أشدكم) أى تكامل قوتكم من الثلاثين سنة الى الاربعين وعن الشعبى صغر الغلام لسبع سنين ويحتلم لاربع عشرة وينتهى طوله لاحدى وعشرين وينتهى عقله لثمان وعشرين ويبلغ اشده لثلاث وثلاثين (ثم) يهبطكم بالضعف والوهن فى مهاوى السفول (لتكونوا شيوخا) ضعفاء غرباء قد ماتت قوتكم ووهنت أركانكم وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم الشين والباقون بكسرها (ومنكم من يتوفى) بقبض روحه (من قبل) أى قبل حال الشيخوخة أو قبل حال

الاشدية أو قبل هذه الاحوال اذا خرج *(تنبيه)* قوله تعالى لتبلغوا أشدكم متعلق قال الزمخشرى بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا أشدكم وكذلك لتكونوا وأما قوله (ولتبلغوا) أى كل واحد منكم (أجلا مسمى) فمعناه ويفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة (ولعلكم تعقلون) أى ما فى ذلك من العبر والحجج وتستدلون بهذه الاحوال العجيبة على وحدانية الله تعالى * ولما ذكر تعالى انتقال الاجسام من كونها ترابا الى ان بلغت الشيخوخة واستدل بهذه التقديرات على وجود الاله القادر أنتج قوله تعالى (هو) أى لا غيره (الذى يحيى ويميت) كما تشاهدونه فى أنفسكم فكما أن الانتقال من صفة الى صفة أخرى من الصفات المتقدمة يدل على الاله القادر فكذلك الانتقال من الحياة الى الموت وبالعكس يدل على الاله القادر * ولما كانت ارادته لا تكون الا تامة تسبب عن ذلك قوله تعالى (فاذا قضى أمرا) أى أراد أى أمر كان من القيامة أو غيرها (فانما يقول له كن فيكون) فلا يحتاج فى تكوينه الى عدة وتجشم كلفة وقرأ ابن عامر بنصب النون والباقون بالرفع وتقدم توجيه ذلك فى سورة البقرة ثم انه تعالى عاد الى ذم الذين يجادلون فى آيات الله مخاطبا بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم فقال (ألم تر) أى يا أنور الناس قلبا وأصفاهم لبا (الى الذين يجادلون) أى بالباطل (فى آيات الله) أى الملك الاعظم (أنى) أى كيف ومن أى وجه (يصرفون) أى عن التصديق وتكرير ذم المجادلة لتعدد المجادل والمجادل فيه أو للتوكيد وقوله تعالى (الذين كذبوا) يجوز أن يكون بدلا من الموصول قبله أو بيانا أو نعتا أو خبر مبتدا محذوف أو منصوبا على الذم (بالكتاب) أى بسببه فى جميع ماله من الشؤن التى تفوق الحصر وهو القرآن أو بجنس الكتب السماوية (وبما أرسلنا) أى على ما لنا من العظمة (به رسلنا) أى من جميع الملل والشرائع بكتاب كان أو بغيره ولذا تسبب عنه تهديدهم فى قوله تعالى (فسوف يعلمون) أى بوعد صادق لا خلف فيه ما يحل بهم من سطواتنا وقوله تعالى (اذ الاغلال فى أعناقهم) ظرف ليعلمون (فان قيل) سوف للاستقبال واذ للماضى فهو مثل قولك سوف أصوم أمس (أجيب) بأن المعنى على اذا الا أن الامور المستقبلة لما كانت فى اخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال قالوا وكما تقع اذا موقع اذ فى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها كذلك تقع اذ موقعها وقوله تعالى (والسلاسل) عطف على الاغلال فتكون فى الاعناق والسلاسل معروفة أو مبتدأ خبره محذوف تقديره فى ارجلهم وخبره (يسحبون) والعائد محذوف أى بها والسحب الجر بعنف والسحاب من ذلك لان الريح تجره أو انه يجر الماء (فى الحميم) أى الماء الحار الذى يكسب الوجوه سوادا والاعراض عارا والارواح عذابا والاجسام نارا (ثم فى النار يسجرون) أى يلقون فيها ويوقد بهم مكردسين كما يسجر التنور بالحطب كما قال تعالى وقودها الناس والحجارة والسجير الخليل الذى يسجر فى مودة خليله كقولهم فلان يحترق فى مودة فلان هذه كيفية عقابهم (ثم قيل لهم) تبكيتا أى بعد ان طال عذابهم وبلغ منهم كل مبلغ ولم يجدوا

ناصرا

قوله وأكدا التعبير الخ كذا في النسخ ولا يخفى ما فيه اهـ

ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم (أين) وأكدا التعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في قوله تعالى (ما كنتم) أي دائما (تشركون من دون الله) أي معه وهي الاصنام (قالوا ضلوا) أي غابوا (عنا) فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا وذلك قبل أن تقرن آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد منهم ما كنا نتوقع منهم (بل لم نكن ندعو) أي لم يكن ذلك في طباعنا (من قبل) أي قبل هذه الاعادة (شيأ) لنكون قد أشركنا به أنكروا عبادتهم اياها كقولهم في سورة الانعام والله ربنا ما كنا مشركين وقال الحسن بن الفضل أي لم نكن نصنع من قبل شيأ أي ضاعت عبادتنا لها كما يقول من ضاع عمله ما كنت أعمل شيأ ثم يقرنون بآلهتهم كما قال تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أي وقودها (كذلك) أي مثل اضلال هؤلاء المكذبين (يضل الله) أي المحيط علما وقدرة عن القصد النافع من حجة وغيرها (الكافرين) أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها الحق ثم صار لهم ذلك ديدنا (ذلكم) أي الجزاء العظيم (بما كنتم) أي دائما (تفرحون) أي تبالغون في السرور وتستغرقون فيه (في الارض بغير الحق) من الاشراك وانكار البعث فأشعر ذلك أن السرور لا ينبغي الا اذا كان مع كمال هذا الحقيقة وهي الثبات دائما للمفروح به وذلك لا يكون الا في الجنة (وبما) أي وبسبب ما (كنتم تمرحون) أي تبالغون في الفرح مع الاشر والبطر والنشاط الموجب للاختيال والتبختر والخفة بعدم احتمال الفرح *(تنبيه)* قوله تعالى تفرحون وتمرحون من باب التجنيس المحرف وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بحرف * ولما كان السياق لذم الجدال وكان الجدال انما يكون عن الكبر قال تعالى (ادخلوا) أي أيها المكذبون (أبواب جهنم) أي الابواب السبعة المقسومة لكم قال تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وسميت جهنم لانها تلقى صاحبها بتكبر وعبوس وتجهم (خالدين فيها) أي مقدرين الخلود (فبئس مثوى) أي مأوى (المتكبرين) أي عن الحق والمخصوص بالذم محذوف أي مثواكم (فان قيل) كان قياس النظم أن يقول فبئس مدخل المتكبرين كما تقول زرت بيت الله فنعم المزار وصليت في المسجد فنعم المصلى (أجيب) بان الدخول لا يدوم وانما يدوم المثوى فلذلك خصه بالذم وان كان الدخول أيضا مذموما * ولما زيف تعالى طريقة المجادلين في آيات الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر بقوله (فاصبر) أي على أذاهم بسبب المجادلة وغيرها (ان وعد الله) أي الجامع لصفات الكمال (حق) أي بنصرتك في الدارين فلا بد من وقوعه (فاما نرينك) قال الزمخشري أصله فان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل ألا ترى لا تقول ان تكرمني أكرمك ولكن اما تكرمني أكرمك قال أبو حيان وما ذكره من تلازم النون وما الزائدة ليس مذهب سيبويه انما هو مذهب المبرد والزجاج ونص سيبويه على التخيير (بعض الذي نعدهم) به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أي فذاك (أو نتوفينك) أي قبل تعذيبهم (فالينا يرجعون) أي فنعذبهم أشد العذاب فالجواب المذكور للمعطوف فقط (ولقد أرسلنا) أي بما لنا من العظمة (رسلا)

أى بكثرة (من قبلك) الى أممهم ليبلغوا عنا ما أمرناهم به (منهم من قصصنا) بما لنا من العظمة (عليك) أى أخبارهم وأخبار أممهم (ومنهم من لم نقصص عليك) لا أخبارهم ولا أخبار أممهم ولا ذكرناهم لك بأسمائهم وان كان لنا العلم التام والقدرة الكاملة روى ان الله تعالى بعث ثمانية آلاف نبى أربعة آلاف من بنى اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس (وما) أى أرسلناهم والحال انه ما (كان لرسول) أصلا (أن يأتى بآية) أى ملجئة أو غير ملجئة مما يطلب الرسول استجلابا للاتباع قومه له أو اقتراحا من قومه عليه (الا باذن الله) أى بأمره وتمكينه فان له الاحاطة بكل شئ فلا يخرج شئ عن أمره وهم عبيد مربوبون * (تنبيه) * معنى الآية أن الله تعالى قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس منهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات الا وقد جادله قومه وكذبوه فيها فصبروا وكانوا أبدا يقترحون على أنبيائهم عليهم السلام اظهار المعجزات الزائدة على الحاجة عنادا وعبثا وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله تعالى والله سبحانه علم الصلاح فى اظهار ما أظهروه دون غيره ولم يقدح ذلك فى نبوتهم فكذلك الحال فى اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن اظهارها صلاحا لا جرم ما أظهرناها (فاذا جاء أمر الله) أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما بنزول العذاب على الكفار (قضى) أى بأمره على أيسر وجه وأسهله بين الرسل ومكذبيهم (بالحق) الامر الثابت (وخسر هنالك) أى فى ذلك الوقت العظيم (المبطلون) أى المنسوبون الى ايثار الباطل على الحق المعاندون الذين يجادلون فى آيات الله فيقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة تعنتا وعبثا وقرأ قالون والبزى وأبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية وأبدلاها أيضا ألفا وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين * ولما ذكر تعالى الوعيد عاد الى ذكر ما يدل على وجود الاله القادر الحكيم والى ذكر ما يصلح أن يعد انعاما على العباد فقال تعالى (الله) أى الملك الاعظم (الذى جعل لكم) أى لا غيره (الانعام) أى الازواج الثمانية بالتذلل والتسخير وقال الزجاج الانعام الابل خاصة (لتركبوا منها) وهى الابل مع قوتها ونفرتها وقد تركب البقر أيضا (ومنها) أى من الانعام كلها (تأكلون) ولما كان التصرف فيها غير منضبط أجمله بقوله تعالى (ولكم فيها) أى كلها (منافع) أى كثيرة بغير ذلك من الدر والوبر والصوف وغيرها (ولتبلغوا عليها) وهى فى غاية الذل والطواعية ونبههم على نقصهم وعظم نعمته عليهم بقوله تعالى (حاجة) أى جنس الحاجة وقوله تعالى (فى صدوركم) اشارة الى أن حاجة واحدة ضاقت عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فلا تمسكها (وعليها) أى الابل فى البر (وعلى الفلك) أى فى البحر (تحملون) أى تحملون أمتعتكم الثقيلة من مكان الى مكان آخر وأما حمل الانسان نفسه فقد مر بالركوب (فان قيل) لم لم يقل وفى الفلك كما قال تعالى فى سورة هود قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين (أجيب) بأن كلمة على للاستعلاء فالشئ الذى يوضع على الفلك كما صح أن يقال وضع فيه صح أن يقال وضع عليه ولما صح

الوجهان

الوجهان كانت لفظة على أولى حتى تتم المزاوجة فى قوله تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون وقال بعضهم ان لفظ فيها هناك أليق لان سفينة نوح عليه السلام كما قيل مطبقة عليهم وهى محيطة بهم كالوعاء وأما غيرها فالاستعلاء فيه واضح لان الناس على ظهرها * ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها الله سبحانه وتعالى مشتملة على آيات كثيرة قال تعالى (ويريكم) أى فى كل لحظة (آياته) أى دلائل قدرته (فأى آيات الله) أى المحيط بصفات الكمال الدالة على وحدانيته (تنكرون) حتى تتوجه لكم المجادلة فى آياته وهذا استفهام توبيخ * (تنبيه) * أى منصوب بتنكرون وقدم وجوبا لان له صدر الكلام وتذكيره أشهر من تأنيثه قال الزمخشرى وقولك فأية آيات الله قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهو فى أى أغرب لابهامه قال أبو حيان ومن قلة تأنيث أى قول الشاعر

بأى كتاب أم بأية سنة * ترى حبهم عارا على وتحسب

قال ابن عادل وقوله وهو فى أى أغرب ان عنى أيا على الاطلاق فليس بصحيح لان المستفيض فى النداء أن تؤنث فى نداء المؤنث كقوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ولا نعلم أحدا ذكر تذكيرها فيه فيقول يا أيها المرأة الا صاحب البديع فى النحو وان عنى غير المناداة فكلامه صحيح يقل تأنيثها فى الاستفهام وموصولة وشرطية * ولما وصل الامر الى حد من الوضوح لا يخفى على أحد تسبب عنه لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعتاب المقتضى للرهب فقال تعالى (أفلم يسيروا) أى هؤلاء الذين هم أضل من الانعام لما حصل فى صدورهم من الكبر العظيم طلبا للرياسة والتقديم على الغير فى المال والجاه (فى الارض) أى أرض كانت سير اعتبار (فينظروا) نظر تفكر فيما سلكوه من سبلها ونواحيها (كيف كان عاقبة) أى آخر (الذين من قبلهم) أى مع قرب الزمان والمكان أو بعد ذلك (كانوا أكثر منهم) عددا وعددا ومالا وجاها (وأشد قوة) فى الابدان كقوم هود عليه السلام وبناء (وآثارا فى الارض) بنحت البيوت فى الجبال وحفر الآبار وبناء المصانع الجليلة وغير ذلك (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) بقوة أبدانهم وعظم عقولهم واحتيالهم وما رتبوا من المصانع لنجاتهم حين جاءهم الموت بل كانوا كامس الذاهب * (تنبيه) * ما الاولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به (فلما جاءتهم رسلهم) أى الذين قد أرسلناهم اليهم وهم يعرفون صدقهم وأمانتهم (بالبينات) أى المعجزات الظاهرات الدالة على صدقهم لا محالة واختلف فى عود ضمير فرحوا فى قوله تعالى (فرحوا بما عندهم من العلم) على وجهين أحدهما أنه عائد الى الكفار واختلف فى ذلك العلم الذى فرحوا به فقيل هو الاشياء التى كانوا يسمونها علما وهى الشبهات المحكية عنهم فى القرآن كقولهم ما يهلكنا الا الدهر وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم من يحيى العظام وهى رميم ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا فكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الانبياء كما قال تعالى كل حزب بما لديهم فرحون وقيل المراد علم الفلاسفة فانهم كانوا اذا سمعوا بوحى الله تعالى دفعوه وصغروا علوم الانبياء

عن علومهم كما روى عن بقراط أنه سمع بمجىء بعض الانبياء عليهم السلام فقيل له لو هاجرت اليه فقال نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا الى من يهدينا وقيل المراد علمهم بأمر الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كقوله تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم فلما جاءت الرسل عليهم السلام بعلوم الديانات ومعرفة الله عز وجل ومعرفة المعاد وتطهير النفس من الرذائل لم يلتفتوا اليها واستهزؤا بها واعتقدوا أن لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به ويجوز أن يكون المراد علم الانبياء وفرح الكفار به ضحكهم واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق) أى أحاط على وجه الشدة (بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى من الوعيد الذى كانوا قاطعين ببطلانه والوجه الثانى أنه عائد على الرسل وفيه وجهان أحدهما أن تفرح الرسل اذا رأوا من قوم جهلا كاملا واعراضا عن الحق وعلموا سوء غفلتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واعراضهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله تعالى وحاق بالجاهلين جزاء جهلهم واستهزائهم الثانى أن المراد أن الرسل فرحوا بما عند الكفار من العلم فرح ضحك واستهزاء (فلما رأوا) أى عاينوا (بأسنا) أى عذابنا الشديد ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله) أى الذى له مجامع العظمة ومعاقد العز ونفوذ الكلمة (وحده) لا نشرك به شيأ (وكفرنا بما كنا) أى جبلة وطبعا (به مشركين) يعنون الاصنام أى لانا علمنا أنه لا يغنى من دون الله شئ * ولما كان الكفر بالغيب سببا لعدم قبول الايمان عند الشهادة قال تعالى (فلم يك ينفعهم) أى لم يصح ولم يقبل بوجه من الوجوه (ايمانهم) أى لا يتجدد لهم نفعه بعد ذلك لانه ايمان الجاء واضطرار لا ايمان طواعية واختيار (لما رأوا) وأظهر موضع الاضمار زيادة فى الترهيب فقال تعالى شأنه (بأسنا) أى عذابنا لامتناع قبول الايمان حينئذ لانه لا يتحقق ولا يتصور الا مع الغيب وأما عند الشهادة فقد كشفت سريرته على أنه قد فاتت حقيقته وصورته ولو ردّ والعاد والمانهوا عنه (فان قيل) أى فرق بين قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم وبينه لو قيل فلم ينفعهم ايمانهم (أجيب) بأنه من كان فى نحو قوله تعالى ما كان لله أن يتخذ من ولد والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم ايمانهم (فان قيل) كيف ترادفت هذه الفاآت (أجيب) بأن قوله تعالى فما أغنى عنهم نتيجة قوله تعالى كانوا أكثر منهم وأما قوله تعالى فلما جاءتهم رسلهم فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى فما أغنى عنهم كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن الى الفقراء وقوله تعالى فلما رأوا بأسنا تابع لقوله تعالى فلما جاءتهم كأنه قال فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا فكذلك فلم يك ينفعهم ايمانهم تابع لايمانهم لما رأوا بأس الله تعالى وقوله تعالى (سنت الله) أى الملك الاعظم يجوز انتصابها على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أى الذى فعله الله تعالى بهم سنة سابقة من الله تعالى ويجوز انتصابها على التحذير أى احذروا سنة الله تعالى فى المكذبين (التى قد خلت فى عباده) وتلك السنة انهم اذا عاينوا العذاب آمنوا ولم ينفعهم ايمانهم (فائدة) رسمت سنة بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو

والكسائي بالهاء والباقون بالتاء وأمال الكسائي الهاء في الوقف (وخسر) أي هلك أي تحقق وتبين أنه خسر (هنالك الكافرون) أي العريقون في هذا الوصف فلا انفكاك بينهم وبين الكفر *(تنبيه)* هنالك في الاصل اسم مكان قيل استعير هنا للزمان ولا حاجة له فالمكانية فيه ظاهرة وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الا صلى عليه واستغفر له حديث موضوع وعن ابن سيرين رأى رجل في المنام سبع جوار حسان في مكان واحد لم ير أحسن منهن فقال لهن لمن أنتن فقلن لمن يقرأ آل حم

(سورة حم السجدة مكية)

وتسمى فصلت وهي أربع وخمسون آية وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمسون حرفا (بسم الله) الذي له أوصاف الكمال (الرحمن) الذي وسع كل شيء رحمة وعلما (الرحيم) الذي فصل الكتاب تفصيلا وبينه غاية البيان وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) ثم ان جعلتها اسما للسورة كانت في موضع الابتداء وخبره (تنزيل من الرحمن الرحيم) وان جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل خبرا لمبتدا محذوف أي هذا تنزيل وقال الاخفش تنزيل رفع بالابتداء وخبره (كتاب) فصلت وجرى على ذلك الجلال المحلي (فصلت) أي بينت (آياته) بالاحكام والقصص والمواعظ بيانا شافيا في اللفظ والمعنى حال كونه (قرآنا) أي جامعا التفصيل وهو مع جمع اللفظ وضبطه منثورا للؤلؤ منتشر المعاني لا الى حد ولا نهاية عند بل كلما دقق النظر جل المفهوم ولذلك قال تعالى (عربيا) لان لسان العرب أوسع الالسن ساحة وأعمقها عمقا وأغمرها باحة وأرفعها بناء وأفصحها لفظا وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعا وفي ذلك امتنان لسهولة قراءته وفهمه وقوله تعالى (لقوم يعلمون) أي العربية أولاهل العلم وهو النظر وهو متعلق بفصلت أي فصلت لهؤلاء وبينت لهم لانهم هم المنتفعون بها وان كانت مفصلة في نفسها لجميع الناس أو بمحذوف صفة لقرآنا أي كائنا لهؤلاء خاصة لما تقدم من المعنى *(تنبيه)* حكم الله تعالى على هذه السورة بأشياء أولها كونها تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور كقولك هذا بناء الامير أي مبنيه وهذا الدرهم ضرب السلطان أي مضروبه ومعنى كونها منزلة أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام أن يحفظ الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويؤديها اليه فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلا وثانيها كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم وذلك يدل على أن ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لان الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسبا لتلك الصفة فكونه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة والتنزيل المضاف الى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالا على أعظم وجوه الرحمة والنعمة والامر كذلك لان الخلق في هذا العالم كالمرضى

والمحتاجين والقرآن مشتمل على كل مايحتاج اليه المرضى من الادوية وعلى مايحتاج اليه الاصحاء من الاغذية فكان أعظم النعم من الله تعالى على أهل هذا العالم انزال القرآن عليه وثالثها كونه كتابا وهذا الاسم مشتق من الكتب وهو الجمع فسمى كتابا لانه جمع فيه علوم الاولين والآخرين ورابعها قوله تعالى فصلت آياته أى ميزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها وصف ذات الله تعالى وصفات التنزيه والتقديس وشرح كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعجائب أحوال خلقه من السموات والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والانسان وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الاخلاق ورياضة النفس وبعضها فى قصص الانبياء عليهم السلام وتواريخ الماضين وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس فى بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل مافى القرآن وخامسها قوله تعالى قرآنا وقد مر توجيه هذا الاسم وسادسها قوله تعالى عربيا أى انما نزل بلغة العرب ويؤيده قوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه وسابعها قوله تعالى لقوم يعلمون أى جعلناه قرآنا لاجل انا أنزلناه على قوم عرب بلغتهم ليفهموا منه المراد وثامنها وتاسعها قوله تعالى (بشيرا) أى لمن اتبع (ونذيرا) أى لمن امتنع وانقطع وعاشرها قوله تعالى (فأعرض أكثرهم) أى عن تدبره وقبوله (فهم) لذلك (لايسمعون) أى يفعلون فعل من لم يسمع لانهم لايسمعون سماع تأمل وطاعة فهذه صفات عشر وصف الله تعالى القرآن بها واحتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه أولها أنه تعالى وصف القرآن بكونه منزلا وتنزيلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتغير من حال الى حال فوجب أن يكون مخلوقا ثانيها أن التنزيل مصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين ثالثها أن المراد بالكتاب اما الكتاب وهو المصدر الذى هو المفعول المطلق واما المكتوب الذى هو المفعول رابعها ان قوله تعالى فصلت آياته يدل على أن متصرفا تصرف فيه بالتفصيل وذلك لايليق بالقديم خامسها انما سمى قرآنا لانه قرن بعض أجزائه ببعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل سادسها وصفه بكونه عربيا وانما صحت هذه النسبة لان هذه الالفاظ انما دلت على هذه المعانى بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وماحصل بجعل جاعل وفعل فاعل فلابد وأن يكون محدثا ومخلوقا وأجاب أهل السنة بأن كل هذه الوجوه المذكورة عائدة الى اللغات والى الحروف والكلمات وهى حادثة وذهب قوم الى أن فى القرآن من سائر اللغات كالاستبرق والسجيل فانهما فارسيان والمشكاة فانها حبشية والقسطاس فانه من لغة الروم وهذا فاسد لقوله تعالى قرآنا عربيا وقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه * ولما وصف الله تعالى القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولم يلتفتوا اليه بين أنهم صرحوا بهذه النفرة وذكر ثلاثة أشياء مذكورة عنهم فى قوله تعالى (وقالوا) أى عند اعراضهم ممثلين فى عدم قبولهم (قلوبنا فى أكنة) أى أغشية محيطة بها والاكنة جمع كنان كالأغطية جمع غطاء والكنان هو الذى تجعل فيه السهام والمعنى لانفقه ماتقول (مما تدعونا) أيها المخبر بأنه نبى (اليه) فلا

سبيل الى الوصول اليها التفقه أصلا (فان قيل) هلا قالوا على قلوبنا أكنة كما قالوا (وفى آذاننا) أى التى نسمع بها وهى أحد الطرق الموصلة الى القلوب (وقر) أى ثقل قد أصمها عن سماعه ليكون على نمط واحد (أجيب) بأنه على نمط واحد لانه لافرق فى المعنى بين قولك قلوبنا فى أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى انا جعلنا على قلوبهم أكنة ولو قيل انا جعلنا قلوبهم فى أكنة لم يختلف المعنى والمعنى انا فى ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع (ومن بيننا وبينك حجاب) أى حاجز من جبل أو نحوه فلا تلاقى ولا ترائى (فاعمل) أى على دينك (اننا عاملون) على ديننا أو فاعمل فى ابطال أمرنا اننا عاملون فى ابطال أمرك (فان قيل) هل لزيادة من فى قولهم من بيننا وبينك حجاب فائدة (أجيب) بنعم لانهم لو قالوا وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى ان حجابا حاصل وسط بين الجهتين وأما بزيادة من فالمعنى أن الحجاب ابتداء منا وابتداء منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك كلها مستوعبة بالحجاب لافراغ فيها * ولما أخبروا باعراضهم وعللوا بعدم فهمهم لما يدعو اليه أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجواب يبين أنهم على محض العناد فقال تعالى (قل) اى لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شئ من أمرك بشئ يقبله ذو عقل فادعوا ما ينادى عليهم بالعجز (انما أنا بشر مثلكم) أى لست غير بشر مما لا يرى كالملك والجنى بل واحد منكم والبشر يرى بعضهم بعضا ويسمعه ويبصره فلا وجه لما تقولونه أصلا (يوحى الىّ) أى بطريق تخفى عليكم ولولا الوحى ما دعوتكم (أنما الهكم) أى الذى يستحق العبادة (اله واحد) لا غير واحد وهذا ما دلت عليه الفطرة الاولى السوية وقامت عليه الادلة العقلية وأيدتها فى كل عصر الطرق النقلية وانعقد عليه الاجماع فى أوقات الضرورة النفسانية قال الحسن علمه الله تعالى التواضع * ولما قطع حجتهم وأزال علتهم تسبب عن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (فاستقيموا اليه) أى غير معوجين أصلا على نوع شرك بشفيع ولا غيره وعدى بالى لتضمنه معنى توجهوا والمعنى وجهوا استقامتكم اليه بطاعته ولا تميلوا عن سبيله (واستغفروه) أى اطلبوا منه غفران ذنوبكم وهو محوها عينا وأثرا حتى لا تعاقبوا عليها ولا تعاتبوا بالندم عليها والاقلاع عنها حالا ومآلا ثم هدد على ذلك فقال (وويل) كلمة عذاب أو واد فى جهنم (للمشركين) أى من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله تعالى (الذين لا يؤتون الزكاة) أى لبخلهم وعدم اشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل (وهم بالآخرة) أى الحياة التى بعد هذه ولا بعد لها (هم كافرون) واحتج من قال ان الكفار مخاطبون بفروع الشريعة بهذه الآية فقالوا ان الله تعالى توعدهم بأمرين أحدهما كونهم مشركين والثانى لا يؤتون الزكاة فوجب أن يكون لكل واحد من هذين تأثير فى حصول الوعيد وذلك يدل على ان لعدم ايتاء الزكاة مع الشرك تأثيرا عظيما فى زيادة الوعيد وهو المطلوب (فان قيل) لم خص تعالى من أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة (أجيب) بأن أحب شئ الى الانسان ماله وهو شقيق روحه فاذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته

وصدق نيته ونصوح طويته ألا ترى الى قوله تعالى ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم أى يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بانفاق الاموال وما خدع المؤلفة قلوبهم الا بلظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا الا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحروب وجوهدوا وفيه بعث للمؤمنين على اداء الزكاة وتخويف شديد فى منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة وقال ابن عباس هم الذين لا يقولون لا اله الا الله وهى زكاة الانفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وقال الحسن وقتادة لا يقرون بالزكاة ولا يرون ايتاءها واجبا وكان يقال الزكاة قنطرة الاسلام فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون فى الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم * ولما ذكر تعالى ما للجاهلين وعيدا وتحذيرا ذكر ما لاضدادهم وعدا وتبشيرا فقال تعالى مجيبا لمن تشوّق لذلك مؤكدا لانكار من ينكره (ان الذين آمنوا) أى بما آتاهم الله تعالى من العلم النافع (وعملوا الصالحات) من الزكاة وغيرها من أنواع الطاعات (لهم أجر) أى عظيم (غير ممنون) أى غير مقطوع جزاء على سماحهم بالفانى اليسير من أموالهم فى الزكاة وغيرها وما أمر الله تعالى من أقوالهم وأفعالهم فى الآخرة والدنيا والممنون المقطوع من مننت الحبل اذا قطعته ومنه قولهم قد منه السفر أى قطعه وقال مقاتل غير منقوص ومنه المنون لانه ينقص منه الانسان وقوته وأنشدوا لذى الاصبع العدوانى

انى لعمرك ما بابى بذى غلق * على الصديق ولا أجرى بممنون

وقيل غير ممنون به عليهم لان عطاء الله تعالى لا يمن به انما يمن المخلوق وقال السدى نزلت فى المرضى والزمنى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كأصح ما كانوا يعملون فيه روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به اكتب له مثل عمله اذا كان طليقا حتى أطلقه أو ألفته الى ولما ذكر سبحانه وتعالى سفههم فى كفرهم بالآخرة شرع فى ذكر الادلة على قدرته عليها وعلى كل ما يريد كخلق الاكوان وما فيها الشامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لا شريك له فقال منكرا عليهم ومقررا بالوصف لانهم كانوا عالمين بأصل الخلق (قل) يا أشرف الرسل لمن أنكر الخلق منكرا عليه بقولك (أئنكم) وأكد لانكارهم التصريح بما يلزمهم من الكفر بقوله تعالى (لتكفرون) أى توجدون حقيقة الستر لانوار العقول الظاهرة (بالذى خلق الارض) أى على سعتها وعظمها من العدم (فى يومين) فتنكرون قدرته على اعادة ما خلقه منها ابتداء مع اعترافكم بأنه ابتدأ خلقها وخلق ذلك منها وهذان اليومان الاحد والاثنين كما قاله ابن عباس وعبد الله بن سلام قال ابن الجوزى والاكثرون قال ابن عباس ان الله خلق يوما فسماه الاحد ثم خلق ثانيا فسماه الاثنين ثم خلق ثالثا فسماه الثلاثاء ثم خلق رابعا فسماه الاربعاء ثم خلق خامسا فسماه الخميس فخلق الله الارض فى يوم

الاحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ولذلك يقول الناس انه يوم ثقيل وخلق مواضع الانهار والشجر والقرى يوم الاربعاء وخلق الطير والوحش والسباع والهوام والآفة يوم الخميس وخلق الانسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت ولكن في حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر الى الليل (فان قيل) الايام انما كانت بدوران الافلاك وانما كان ذلك بعد تمام الخلق بالفعل (أجيب) بأن المراد في مقدار يومين أو نوبتين خلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون قال البيضاوي ولعل المراد من الارض ما في جهة السفل من الاجرام البسيطة ومن خلقها في يومين أنه خلق لها أصلا مشتركا ثم خلق لها صورا بها صارت أنواعها وكفرهم به الحادهم في ذاته تعالى وصفاته وقرأ قالون وأبو عمرو وهشام بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام وأدخلوا بين الهمزة المحققة والمسهلة ألفا وورش وابن كثير بتسهيل الثانية من غير ادخال والباقون بتحقيقهما من غير ادخال * ولما ذكر كفرهم بالبعث وغيره عطف على تكفرون قوله تعالى (وتجعلون) أي مع هذا الكفر (له أندادا) من الخشب المنجور ومن الحجر المنحوت شركاء في العبودية ولما بكتهم على قبح معتقدهم عظم ذلك بتعظيم شأنه سبحانه فقال تعالى (ذلك) أي الاله العظيم (رب العالمين) أي موجدهم ومربيهم وذلك يدل قطعا على جميع ماله من صفات الكمال * ولما ذكر تعالى ما هم به مقرون من ابداعها أتبعه بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك فالاول قوله تعالى (وجعل فيها رواسي) أي جبالا ثوابت وهو مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة الموصول للفصل بينهما بأجنبي وهو قوله تعالى وتجعلون فانه معطوف على لتكفرون كما تقرر (فان قيل) ما الفائدة في قوله تعالى (من فوقها) ولم يقتصر على قوله وجعل فيها رواسي كما اقتصر على قوله تعالى وجعلنا فيها رواسي شامخات وقوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بكم وقوله تعالى وجعل فيها رواسي (أجيب) بأنه تعالى لو قال وجعل لها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الاساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الارض الثقيلة عن النزول ولكنه تعالى قال جعلت هذه الجبال الثقال فوق الارض ليرى الانسان بعينه ان الارض والجبال الثقال على أثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وما ذاك الحافظ المدبر الا الله تعالى * ولما عيأ الارض لما يراد منها ذكر ما أودعها وهو النوع الثاني بقوله تعالى (وبارك فيها) أي بما خلق من البحار والانهار والاشجار والثمار وغير ذلك وقال ابن عباس يريد شق الانهار وخلق الجبال وخلق الاشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج اليه من الحيوانات * النوع الثالث قوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) أي أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به وقال محمد بن كعب قدر الاقوات قبل أن يخلق الخلق والابدان

اى أقواتا تنشأ منها بأن خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها فأضاف القوت الى الارض لكونه متولدا من تلك الارض حادثا فيها لان النحاة قالوا يكفى فى جنس الاضافة أدنى سبب فالشئ يضاف الى فاعله تارة والى محله أخرى أى قدر الاقوات التى يختص حدوثها بها وذلك لانه تعالى جعل كل بلدة معدة لنوع من الاشياء المطلوبة حتى ان أهل هذه البلدة يحتاجون الى الاشياء المتولدة فى تلك البلدة وبالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس فى التجارات واكتساب الاموال لتنتظم عمارة الارض كلها باحتياج بعضهم الى بعض فكان جميع ما تقدم من ابداعها وايداعها ما ذكر من متاعها دفعة واحدة على مقدار لا يتعداه ومنهاج بديع دبره فى الازل وارتضاه وقدره فأمضاه لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلا وانما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم اليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه وفى الارض أضعاف أضعاف كفايته ثم ذكر فذلكة خلق الارض وما فيها فقال تعالى (فى أربعة أيام) أى مع اليومين الماضيين كقولك بنيت بيتى فى يوم وأكملته فى يومين أى بالاول وقال أبو البقاء فى تمام أربعة أيام ولولا هذا التقدير لكانت ثمانية يومان فى الاول وهو قوله تعالى خلق الارض فى يومين ويومان فى الآخر وهو قوله تعالى فقضاهن سبع سموات فى يومين وأربعة فى الوسط وهو قوله تعالى فى أربعة أيام (فان قيل) انه تعالى ذكر خلق الارض فى يومين فلو ذكر انه خلق هذه الانواع الثلاثة الباقية فى يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وعن الغلط فلم ترك التصريح بذكر الكلام المجمل (أجيب) بأن قوله تعالى فى أربعة أيام (سواء) أى استوت الاربعة استواء لا يزيد ولا ينقص فيه فائدة زائدة على ما اذا قال خلقت هذه الثلاثة فى يومين لانه لو قال تعالى خلقت هذه الاشياء فى يومين لا يفيد هذا الكلام كون اليومين مستغرقين بتلك الاعمال لانه قد يقال عملت هذا العمل فى يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل بخلافه لما ذكر خلق الارض وخلق هذه الاشياء ثم قال فى أربعة أيام سواء دل على ان هذه الايام الاربعة صارت مستغرقة فى تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان ولم يفعل تعالى ذلك فى أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه لان هذا أدل على الاختيار وأدخل فى الابتلاء والاختبار ليضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فيكون أعظم لاجورهم لانه أدل على تسليمهم وجعل مدة خلقها ضعف مدة خلق السموات مع كونها أصغر من السموات دلالة على انها هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين الانس والجن فزادت لما فيها من كثرة المنافع وتباين أصناف الاعراض والجواهر لان ذلك أدخل فى المنة على سكانها والاعتناء بشأنهم وشأنها وزادت أيضا لما فيها من الابتلاء بالمعاصى والمجاهدات والمجادلات والمعالجات كل ذلك دلالة على أن المدة ما هى لاجل القدرة بل لاجل التنبيه على ما فى القدرة من المقدور وعجائب الامور قال البقاعى ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لاجراء أمرها على ما تعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت تنبيها على أنه بنى أمر دارنا هذه على الاسباب تعليما للتأنى وتدريبا للسكينة والبعد عن العجلة وقوله تعالى (للسائلين) فيه ثلاثة أوجه أحدها انه متعلق

بسواء بمعنى مستويات للسائلين ثانيها أنه متعلق بقدر أى قدر فيها أقواتها لاجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين ثالثها أنه متعلق بمحذوف كأنه قيل هذا الحصر لاجل من سأل فى كم خلقت الارض ومافيها ولما كانت السموات أعظم من الارض فى ذاتها باتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخى ولفظ الاستواء وحرف الغاية الدال على عظم الغاية فقال تعالى (ثم استوى) أى قصد قصدا هو القصد منتهيا قصده (الى السماء وهى) أى والحال أنها (دخان) قال المفسرون هذا الدخان بخار الماء وذلك أن عرش الرحمن كان على الماء قبل خلق السموات والارض كما قال تعالى وكان عرشه على الماء ثم ان الله تعالى أحدث فى ذلك الماء اضطرابا فأزبد وارتفع فخرج منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق منه اليبوسة وأحدث منه الارض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات (فان قيل) هذه الآية مشعرة بأن خلق الارض كان قبل خلق السموات وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها مشعر بأن خلق الارض بعد خلق السموات وذلك يوجب التناقض (أجيب) بأن المشهور أنه تعالى خلق الارض أولا ثم خلق بعدها السموات ثم بعد خلق السماء دحا الارض ومدها وحينئذ فلا تناقض قال الرازى وهذا الجواب مشكل لان الله تعالى خلق الارض فى يومين ثم انه فى اليوم الثالث جعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وهذه الاحوال لا يمكن ادخالها فى الوجود الا بعد أن صارت الارض منبسطة ثم انه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى الى السماء فهذا يقتضى أن الله تعالى خلق السماء بعد خلق الارض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال ثم قال والمختار عندى أن يقال خلق السماء مقدم على خلق الارض وتأويل الآية أن يقال الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد والدليل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فلو كان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين لصار تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال فثبت أن الخلق ليس عبارة عن الايجاد والتكوين بل عبارة عن التقدير والتقدير فى حق الله تعالى هو كلمته بأن سيوجده واذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى خلق الارض فى يومين معناه أنه قضى بحدوثها فى يومين وقضاء الله تعالى أنه سيحدث كذا فى مدة كذا لا يقتضى حدوث ذلك الشئ فى الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الارض فى يومين قد تقدم على احداث السماء وحينئذ يزول السؤال (فقال لها) أى السماء عقب الاستواء (وللارض ائتيا) أى تعاليا وأقبلا منقادتين وقوله تعالى (طوعا أو كرها) مصدران فى موضع الحال أى طائعتين أو كارهتين (قالتا أتينا) أى نحن ومافينا ومابيننا (طائعين) أى أتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيأ من الخطاب والجواب ونحو ذلك قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد سل من يدقنى (فان قيل) هلا قال طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى لانهما سموات وأرضون (أجيب) بأنه لما جعلهن مخاطبات ومجيبات ووصفهن بالطوع

والكره قال طائعين فى موضع طائعات نحو قوله ساجدين *(تنبيه)* جمع الامر لهما فى الاخبار لا يدل على جمعه فى الزمان بل قد يكون القول لهما متعاقبا (فان قيل) ان الله تعالى أمر السماء والارض فأطاعتا كما أن الله تعالى أنطق الجبال مع داود عليه السلام فقال تعالى ياجبال أوبى معه والطير وانطق الايدى والارجل فقال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقوله تعالى وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ واذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله تعالى فى ذات السموات والارض حياة وعقلا ثم يوجه الامر والتكليف عليهما ووجه هذا بوجوه الاول أن الاصل حمل اللفظ على ظاهره الا أن يمنع منه مانع وههنا لا مانع الثانى انه تعالى جمعهما جمع العقلاء فقال تعالى قالتا أتينا طائعين الثالث قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وهذا يدل على كونها عارفة بالله تعالى عالمة بتوجه تكليف الله تعالى وأجاب الرازى عن هذا بأن المراد من قوله تعالى ائتيا طوعا أو كرها الاتيان الى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة اذ لو كانت موجودة لم يجز فثبت أن حال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة واذا كانت معدومة لم تكن عارفة ولا فاهمة للخطاب فلم يجز توجه الامر اليها (فان قيل) روى مجاهد وطاوس عن ابن عباس انه قال قال الله للسموات والارض اخرجا ما فيكما من المنافع لمصالح العباد أما أنت ياسماء فاطلعى شمسك وقمرك ونجومك وأنت ياأرض فشقى أنهارك وأخرجى ثمارك ونباتك وقال لهما افعلا ما آمرتكما طوعا والا ألجأتكما الى ذلك حتى تفعلاه وعلى هذا لا يكون المراد من قوله أتينا طائعين حدوثهما فى ذاتهما بل يصير المراد من هذا الامر ان يظهرا ما كان مودعا فيهما (أجيب) بأن هذا لم يثبت لانه تعالى قال (فقضاهن) أى خلقهن خلقا ابداعيا (سبع سموات) وهذا يدل على أن حصول السماء انما حصل بعد قوله ائتيا طوعا أو كرها *(تنبيه)* الضمير للسماء على المعنى كما قال تعالى طائعين ونحوه أعجاز نخل خاوية ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات وسبع سموات حال على الاول وتمييز على الثانى وقوله تعالى (فى يومين) قال أهل الآثار ان الله تعالى خلق الارض يوم الاحد والاثنين وخلق سائر ما فى الارض يوم الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات وما فيها فى يوم الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم عليه السلام وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة ولذلك لم يقل هنا سواء ووافق هذا آيات خلق السموات والارض فى ستة أيام وعن ابن عباس رضى الله عنه أن اليهود أتت النبى صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والارض فقال خلق الله الارض يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الاربعاء الشجر والماء والمعايش والعمران والخراب فهذه أربعة وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة الى ثلاث ساعات بقين

منه

منه نخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حتى يموت من مات وفى الثانية التى الآفة على كل شئ مما ينتفع به وفى الثالثة خلق آدم فأسكنه الجنة وأمر ابليس بالسجود له وأخرجه منها فى آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال ثم استوى على العرش قالوا قد أصبت لو اتممت قالوا ثم استراح فغضب النبى صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون (فان قيل) اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك انما يحصل بطلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم (أجيب) بأن معناه انه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدار اليوم كما مر وقضاء الشئ اتمامه والفراغ منه قال ابن جرير وانما سمى الجمعة لان الله تعالى جمع فيه خلق آدم وخلق السموات والارض أى فرغ من ذلك وأتمه (وأوحى) أى ألقى بطريق خفى وحكم بثبوت قوى (فى كل سماء أمرها) أى الامر الذى دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل وزمام مبرم لا ينحل وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه الا الله تعالى. وقال السدى يعنى خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ولله فى كل سماء بيت تحج اليه وتطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل للكعبة بحيث لو وقعت منه حصاة لوقعت على الكعبة * ولما عم خص التى تلينا اشارة الى تشريفنا فقال تعالى صارفا القول الى مظهر العظمة تنبيها على ما فى هذه الآية من العظم (وزينا) أى بما لنا من العظمة (السماء الدنيا) أى القربى اليكم لاجلكم (بمصابيح) وهى النيرات التى خلقها الله فى السموات وخص كل واحدة بضوء معين وسير معين وطبيعة معينة لا يعلمها الا الله تعالى. ولا ينافى كون الدنيا مزينة بذلك أن تكون النجوم فى غيرها مما هو أعلى منها لان السياق دل على أنها زينة وقوله تعالى (وحفظا) فى نصبه وجهان أحدهما أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر أى وحفظناها بالثواقب من الكواكب حفظا والثانى أنه مفعول من أجله على المعنى فان التقدير وخلقنا الكواكب زينة وحفظا قال أبو حيان وهو تكلف وعدول عن السهل البين والمعنى وحفظناها من الشياطين الذين يسترقون السمع بالشهب أو من الآفات (ذلك) أى الامر الرفيع والشأن البديع (تقدير العزيز) أى الذى لا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ (العليم) أى المحيط علما بكل شئ فالعزيز اشارة الى كمال القدرة والعليم اشارة الى كمال العلم * ولما كان المتمادى على اعراضه كأنه جدد اعراضا غير اعراضه الاول قال تعالى مفصلا بعد قوله تعالى وأعرض أكثرهم (فان أعرضوا) أى استمروا على اعراضهم بعد هذا الشأن أو أعرض غيرهم عن قبول ما جئتهم به من الذكر بعد هذا البيان الواضح فى هذه الآيات التى دلت على الوحدانية والعلم والقدرة وغيرها من صفات الكمال أتم دلالة (فقل) أى لهم (أنذرتكم صاعقة) أى خذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقال المبرد الصاعقة المرة المهلكة لاى شئ كان والانذار التخويف وانما خص هاتين القبيلتين لان

قريشا كانوا يمرون على بلادهم * ثم علل ايقاع ذلك بقوله تعالى (اذ) يجوز أن يكون ظرفا لصاعقة وظرفيته لا تنافى عليته أى حين (جاءتهم) أى عادا وثمود (الرسل) لان الزمان الطويل يجوز نسبة ما وقع فى جزء منه اليه (من بين أيديهم) أى من قبلهم لان نذير الاول نذير لكل من أتى بعده بأنه ان واقع ما واقعه أتاه ما عذب به (ومن خلفهم) وهم من أتى اليهم لانهم لم يكونوا يعلمون اتيانهم فالخلف كناية عن الخفاء والقدام عن الجلاء وانهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم فأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم الا العتو والاعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم أى لآتينهم من كل جهة وعن الحسن انذروهم من وقائع الله تعالى فيمن قبلهم من الامم وعذاب الآخرة لانهم اذا حذروهم ذلك فقد جاؤهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم وأتوهم مقبلين عليهم ومدبرين عنهم وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الذال عند الجيم وأدغمها الباقون (أن) أى بأن (لا تعبدوا الا الله) أى الذى له صفات الكمال جميعا (قالوا) أى الكفار لرسلهم (لو شاء ربنا) الذى ربانا أحسن تربية أن يرسل الينا رسولا (لأنزل) الينا (ملائكة) فأرسلهم الينا بما يريده منا لكنه لم يرسل ملائكة فلم يشأ أن يرسل رسولا (فانا بما) أى بسبب ما (أرسلتم به) أى على زعمكم بأنكم رسل (كافرون) اذ أنتم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا روى أن أبا جهل قال فى ملا قريش التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالسحر والشعر والكهانة وكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة ابن ربيعة والله لقد علمت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فأتاه فقال له يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فلم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان كنت أردت الباه زوجناك عشر نسوة تختارهن من أى بنات قريش شئت وان كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به على ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرغت قال نعم قال فاسمع ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم تعوذ ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته الى أن بلغ قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم الا ما سكت ثم رجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا الا أنك قد صبأت الى محمد وأعجبك طعامه فان كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمدا أبدا وقال والله لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة وجاءنى بشئ والله ما هو شعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة الى قوله تعالى فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه وناشدته الرحم حتى سكت ولقد علمتم أن محمدا اذا قال شيأ لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب وفى رواية لمحمد بن كعب أنه قال انى سمعت قرآنا والله ما سمعت بمثله قط

ماهو بشعر ولا سحر ولا كهانة يا معشر قريش أطيعوني خلوا بينكم وبين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه والله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظفر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد الناس به قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم * ولما جمعهم الله فيما اجتمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به فصلهم وفصل ما اختلفوا فيه فقال مسببا عما مضى من مقالاتهم (فأما عاد) أي قوم هود عليه السلام (فاستكبروا) أي طلبوا الكبر وأوجدوه (في الارض) أي كلها التي كانوا فيها بالفعل وغيرها بالقوة أو في الكل بالفعل لكونهم ملكوها كلها ثم بين كبرهم انه (بغير الحق) أي الذي لم يطابق الواقع ثم ذكر تعالى سبب الاستكبار بقوله تعالى (وقالوا من أشد منا قوة) وذلك أن هودا عليه السلام هددهم بالعذاب فقالوا نحن نقدر على دفع العذاب بفضل قوتنا وكانوا ذوي أجسام طوال طول الطويل منهم أربعمائة ذراع كما سيأتي في سورة الفجر قال الله تعالى ردا عليهم (أولم يروا) أي يعلموا علما هو كالمشاهدة (أن الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (الذي خلقهم) ولم يكونوا شيأ (هو أشد منهم قوة) ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلا انقاد له فيما ينفعه ولا يضره وقوله تعالى (وكانوا بآياتنا يجحدون) أي يعرفون أنها حق وينكرونها عطف على فاستكبروا (فأرسلنا) أي بسبب ذلك على مالنا من العظمة (عليهم ريحا) أي عظيمة (صرصرا) أي شديدة البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجهد البدن ببردها فتكون كأنها تصره أي تجمعه في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوتها وتقطع القلب بصوتها فتقهر شجاعته وتعوق بشدة بردها كل ما مرت عليه وقوله تعالى (في أيام نحسات) أي مشؤمات جمع نحسة وقرأ ابن عامر والكوفيون بكسر الحاء من نحس نحسا نقيض سعد سعدا فهو نحس والباقون بسكونها فهو اما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر قال الضحاك أمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين وكانت الرياح عليهم من غير مطر روي أن الايام كانت آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء قال البيضاوي وما عذب قوم الا في يوم الاربعاء وعن عبد الله بن عباس انه قال الرياح ثمان أربع منها عذاب وهي العاصفة والصرصر والعقيم والقاصف وأربع منها رحمة وهي المبشرات والناشرات والمرسلات والذاريات وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى ما أرسل على عاد من الريح الا قدر خاتمي ففعلنا ذلك بهم (لنذيقهم عذاب الخزي) أي الذل والهوان (في الحياة الدنيا) كما استكبروا في الارض بغير الحق فيذلوا عند من تعظموا عليه في الدار التي اغتروا بها فتعظموا فيها فان ذلك أدل على القدرة عند من تقيد بالوهم (ولعذاب الآخرة) أي الذي أعد للمتكبرين في الآخرة بغير الحق (أخزى) أي أشد اهانة وهو في الاصل صفة المعذب وانما وصف به العذاب على الاسناد المجازي للمبالغة (وهم لا ينصرون) أي لا يوجد ولا يتجدد لهم نصر أبدا بوجه من الوجوه * ولما أنهى تعالى أمر صاعقة عاد شرع في بيان صاعقة ثمود فقال تعالى (وأما ثمود) وهم قوم صالح عليه السلام (فهديناهم) أي بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث

وعلى كل شئ فلا شريك لنا وكان بيان ذلك بالناقة غاية البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم التي هي سبب ابصار بصائرهم غاية الابصار فكرهوا ذلك لما يلزمه من تركهم طريق آبائهم وأقبلوا على لزوم طريق آبائهم (فاستحبوا) أي اختاروا (العمى) أي الكفر (على الهدى) أي الايمان قال القشيري قيل انهم آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا فأجراهم مجرى اخوانهم في الاستبدال فان قيل أليس معنى هديته حصلت فيه الهدى والدليل عليه قولك هديته فاهتدى وبمعنى تحصيل البغية وحصولها كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة (أجيب) بأنه لما مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق لهم عذرا ولا علة فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها (فأخذتهم صاعقة العذاب) أي بسبب ذلك أخذ قهر وهوان (الهون) أي ذي الهون وهو الذي يهينهم (بما كانوا) أي دائما (يكسبون) أي من شركهم وتكذيبهم صالحا عليه السلام * ولما أنهى الله تعالى الخبر عن الكافرين من الفريقين أتبعه الخبر عن مؤمنيهم بشارة لمن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ونذارة لمن صد عنه فقال تعالى (ونجينا) أي تنجية عظيمة بما لنا من القدرة (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذا الوصف من الفريقين (وكانوا) أي كونا عظيما (يتقون) أي يجدد لهم هذا الوصف في كل حركة وسكون فلا يقدمون على شئ بغير دليل (فان قيل) كيف يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمته وقد صرح تعالى بذلك فقال عز من قائل وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وجاء في الحديث الصحيح ان الله تعالى رفع عن هذه الامة هذه الانواع (أجيب) بأنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في الكفر عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة وان السبب الموجب للعذاب واحد وربما يكون العذاب النازل من جنس ذلك العذاب وان كان أقل درجة وهذا القدر يكفي في التخويف * ولما بين تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل تمام الاعتبار في الزجر والتحذير فقال تعالى (ويوم) أي واذكر يوم (يحشر) أي يجمع بكره بأمر قاهر لا كلفة فيه (أعداء الله) أي الملك الاعظم (الى النار) وقرأ نافع بنون مفتوحة وضم الشين ونصب أعداء على البناء للفاعل وهو الله تعالى والباقون بياء الغيبة مضمومة وفتح الشين على البناء للمفعول ورفع أعداء لقيامه مقام الفاعل وجه الاول أنه معطوف على نجينا فحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ووجه الثاني موافقة قوله تعالى (فهم) أي بسبب حشرهم (يوزعون) أي يساقون ويدفعون الى النار وقال قتادة يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا أي يوقف سوابقهم حتى تصل اليهم تواليهم * ولما بين تعالى اهانتهم بالوزع بين غايتها بقوله تعالى (حتى اذا ما جاؤها) أي النار التي كانوا بها يكذبون فما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور كما قال تعالى (شهد عليهم) وبين الشاهد وعدده بقوله تعالى (سمعهم) وأفرد السمع لعدم تفاوت الناس فيه (وأبصارهم) وجمعها لعظم تفاوت الناس فيها (وجلودهم بما كانوا يعملون) أي يجددون عمله مستمرين عليه * (تنبيه) * في كيفية تلك الشهادة ثلاثة

اقوال

أقوال أولها أن الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ثانيها أنه تعالى يخلق في تلك الاعضاء الاصوات والحروف الدالة على تلك المعاني ثالثها أن يظهر في تلك الاعضاء احوالا تدل على صدور تلك الاعمال من ذلك الانسان وتلك الامارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه (فان قيل) ما السبب في تخصيص هذه الاعضاء الثلاثة بالذكر مع ان الحواس خمسة وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس (أجيب) بأن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه لان ادراك الذوق انما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الانف مماسة لجرم المشموم فكانا داخلين في جنس اللمس وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج وهو من باب الكنايات كما قال تعالى لا تواعدوهن سرا وأراد النكاح وقال تعالى أو جاء احد منكم من الغائط والمراد قضاء الحاجة وقال صلى الله عليه وسلم أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيدا شديدا في اتيان الزنا لان مقدمة الزنا انما تحصل بالفخذ وقال مقاتل تنطق جوارحهم بما كتمت الانفس من عملهم وعن أنس ابن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يارب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى قال فيقول فاني لا أجيز اليوم على نفسي الا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين عليك شهودا قال فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل (وقالوا) أي الكفار الذين يحشرون الى النار (لجلودهم) مخاطبين لها مخاطبة العقلاء لما فعلت فعل العقلاء (لم شهدتم علينا) مع أنا كنا نحاج عنكم (قالوا) مجيبين لهم معتذرين (أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ) أراد نطقه على وجه لم يقدر على التخلف عنه فليس بعجب من قدرة الله الذي له مجامع العز (وهو خلقكم أول مرة) والعلم القطعي حاصل عندكم بأنكم كنتم عدما ثم نطفا لا تقبل النطق في مجاري العادات بوجه ثم طوركم في أدوار الاطوار كذلك الى أن أوصلكم الى حيز الادراك فقسركم على النطق بحيث لو أردتم سلبه عن أنفسكم ما قدرتم (واليه) لا الى غيره (ترجعون) فينبئكم بما كنتم تعملون * (تنبيه) * اختلف في قوله تعالى وهو خلقكم الآية فقيل هو من كلام الجلود وقيل هو من كلام الله تعالى كالذي بعده وموقعه تقريب ما قبله بأن القادر على انشائكم ابتداء وعلى اعادتكم بعد الموت أحياء قادر على انطاق جلودكم وأعضائكم (وما كنتم تستترون) أي عند ارتكابكم الفواحش خفية (ان يشهد عليكم سمعكم) وأكد بتكرير النافي فقال (ولا أبصاركم) جمع وأفرد لما مضى (ولا جلودكم) والمعنى انكم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم لانكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث جهلا منكم (ولكن) انما استتاركم لانكم (ظننتم) بسبب انكار البعث جهلا منكم (أن الله) الذي له جميع صفات الكمال

(لا يعلم) أي في وقت من الاوقات (كثيرا مما تعملون) وهو الخفيات من أعمالكم روى عن ابن مسعود قال كنت مستترا باستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون الله يسمع ما نقول فقال الآخر يسمع ان جهرنا وقال الآخر ان كان يسمع اذا جهرنا يسمع اذا أخفينا فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية قيل الثقفي عبد ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية وقوله تعالى (وذلكم) اشارة الى ظنهم هذا وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم) بدل منه وقوله تعالى (الذي ظننتم بربكم) نعت البدل والخبر (أرداكم) أي أهلككم وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزول عن ذهنه أن عليه من الله تعالى عينا كالئة ورقيبا مهيمنا حتى يكون في أوقاته وخلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملا ولا ينبسط في سره مراقبة من التشبه بهؤلاء الظانين * ولما كان الصباح محل رجاء للافراج فكان شر الاتراح ما كان فيه قال تعالى (فأصبحتم) أي بسبب ما أعطيتموه من النعم لتستنقذوا أنفسكم به من الهلاك كان سبب هلاككم (من الخاسرين) أي العريقين في الخسارة المحكوم بخسارتهم في جميع ذلك اليوم قال المحققون الظن قسمان أحدهما حسن والآخر فاسد فالحسن أن يظن بالله تعالى الرحمة والفضل والاحسان قال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله والظن الفاسد أن يظن أن الله تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الاحوال وقال قتادة الظن نوعان منج ومرد فالمنجي قوله اني ظننت أني ملاق حسابيه وقوله تعالى الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون والمردي هو قوله تعالى وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم (فان يصبروا فالنار مثوى) أي منزل (لهم) أي ان أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مقاما لهم (وان يستعتبوا) أي يسألوا العتبى وهو الرجوع لهم الى ما يحبون جزعا مما هم فيه (فما هم من المعتبين) أي المجابين اليها ونحوه قوله عز وجل أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص * ولما ذكر وعيدهم في الدنيا والآخرة أتبعه سبب كفرهم الذي هو سبب الوعيد فقال تعالى (وقيضنا) قال مقاتل هيأنا وقال الزجاج سببنا (لهم) أي للكفرة وأصل التقييض التيسير والتهيئة يقال قيضته للدواء هيأته له ويسرته وهذان ثوبان قيضان أي كل منهما مكافئ للآخر في الثمن وقوله تعالى (قرناء) أي نظراء من الشياطين حتى أضلوهم جمع قرين قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (فزينوا لهم) أي من القبائح (ما بين أيديهم) أي من أمر الدنيا حتى آثروها على الآخرة (وما خلفهم) أي من أمر الآخرة فدعوهم الى التكذيب وانكار البعث وقال الزجاج زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولا صانع الا الطبائع والافلاك قال القشيري اذا أراد الله بعبد سوأ قيض له اخوان سوء وقرناء سوء

يعملونه

يحملونه على المخالفات ويدعونه اليها ومن ذلك الشيطان وشر منه النفس وبئس القرين تدعو اليوم الى ما فيه الهلاك وتشهد غدا عليه واذا أراد الله بعبده خيرا قيض له قرناء خير يعينونه على الطاعة ويحملونه عليها ويدعونه اليها وروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا أراد الله بعبد شرا قيض له قبل موته شيطانا فلا يرى حسنا الا قبحه عنده ولا قبيحا الا حسنه عنده وعن عائشة اذا أراد الله بالوالى خيرا قيض له وزير صدق ان نسى ذكره وان ذكر أعانه وان أراد غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى * (تنبيه) * فى الآية دلالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافرين لانه تعالى قيض لهم قرناء سوء فزينوا لهم الباطل وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الكفر ولكن لا يرضاه كما قال تعالى ولا يرضى لعباده الكفر (وحق) أى وجب وثبت (عليهم القول) أى كلمة العذاب وقرأ أبو عمرو فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وقوله تعالى (فى أمم) محله نصب على الحال من الضمير فى عليهم أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم كثيرة وفى بمعنى مع (قد خلت) أى لم تتعظ أمة منهم بالاخرى (من قبلهم) أى فى الزمان (من الجن والانس) قد عملوا مثل أعمالهم وقوله تعالى (انهم) أى جميع المذكورين منهم وممن قبلهم (كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب وقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أصله وقالوا أى المعرضون ولكنه قال ذلك تنبيها على الوصف الذى أوجب اعراضهم (لا تسمعوا) أى شيأ من مطلق السماع (لهذا القرآن) وعينوه بالاشارة احترازا عن غيره من الكتب القديمة كالتوراة قال القشيرى لانه مقلب القلوب وكل من استمع له صبا اليه (والغوا) أى اهزؤا (فيه) أى اجعلوه ظرفا للغو بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات واللغط واللغو والتصدية أى التصفير والتصفيق وغيرها وقال ابن عباس كان بعضهم يعنى قريشا يعلم بعضا اذا رأيتم محمدا يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو وهو من باب لغى بالكسر يلغى بالفتح اذا تكلم بما لا فائدة فيه (لعلكم تغلبون) أى ليكون حالكم حال من يرجى له أن يغلب ويظفر بمراده فى أن لا يميل اليه أحد وسكت ونسى ما كان يقول وهذا يدل على انهم عارفون بأن من يسمعه مال اليه وأقبل بكليته عليه وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها (فلنذيقن الذين كفروا) أظهر فى موضع الاضمار اذ أصله فلنذيقنهم لكنه أظهر تعميما وتعليقا بالوصف (عذابا شديدا) فى الدنيا بالحرمان وما يتبعه من فنون الهوان وفى الآخرة بالنيران (ولنجزينهم) أى بأعمالهم (أسوأ) أى سوء العمل (الذى كانوا يعملون) أى وأظنين عليه (ذلك) أى الجزاء الاسوأ العظيم جدا (جزاء أعداء الله) أى الملك الاعظم ثم بينه بقوله تعالى (النار) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فى الوصل بابدال الهمزة الثانية المفتوحة واوا خالصة والباقون بتحقيقهما وأما الابتداء بالثانية فالجميع بالتحقيق ثم فصل بعض

ما فى النار بقوله تعالى (لهم فيها) أى النار (دار الخلد) أى فانها دار اقامة قال الزمخشرى فان قلت مامعنى قوله لهم فيها دار الخلد قال قلت ان النار فى نفسها دار الخلد كقوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة أى الرسول هو نفس الاسوة وقال البيضاوى هو كقولك فى هذه الدار دار سرور وبعنى بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة قال ابن عادل فى هذا نظر اذ الظاهر وهو معنى صحيح منقول أن فى النار دارا تسمى دار الخلد والنار محيطة بها اه وهذا أولى وقوله تعالى (جزاء) منصوب بالمصدر الذى قبله وهو جزاء أعداء الله والمصدر ينصب بمثله كقوله تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (بما كانوا بآياتنا) أى على مالنا من العظمة (يجحدون) أى يلغون فى القراءة وسماه جحدا لانهم لما علموا أن القرآن بالغ الى حد الاعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة وذلك يدل على انهم علموا كونه معجزا وأنهم جحدوا حسدا * ولما بين تعالى أن الذى حملهم على الكفر الموجب للعذاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ما يقولون فى النار بقوله تعالى (وقال الذين كفروا) أى غطوا أنوار عقولهم داعين بما لا يسمع لهم فهو زيادة فى عقوبتهم وحكايته لها وعظ وتحذير (ربنا) أى يا أيها الذى لم يقطع قط احسانه عنا (أرنا) الصنفين (اللذين أضلانا) أى عن المنهج الموصل الى محل الرضوان (من الجن والانس) لان الشيطان على ضربين جنى وانسى قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن وقال تعالى الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وقيل هما ابليس وقابيل بن آدم الذى قتل أخاه لان الكفر سنه ابليس والقتل بغير حق سنه قابيل فهما سنا المعصية وقرأ ابن كثير والسوسى وابن عامر وشعبة بسكون الراء من ارنا واختلس الدورى كسر الراء وكسرها الباقون وشدد ابن كثير النون من اللذين (نجعلهما تحت أقدامنا) فى النار اذلالا لهما كما جعلانا تحت أمرهما (ليكونا من الاسفلين) قال مقاتل أسفل منا فى النار وقال الزجاج ليكونا فى الدرك الاسفل من النار أى من أهل الدرك الاسفل وممن هو دوننا كما جعلانا كذلك فى الدنيا فى حقيقة الحال باتباعنا لهما وقال بعض الحكماء المراد باللذين اضلانا الشهوة والغضب والمراد بجعلهما تحت أقدامهم كونهما مسخرين للنفس مطيعين لها وأن لا يكونا مستولين عليها ظاهرين عليها * ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بذكر الوعد كما هو الغالب فقال تعالى (ان الذين قالوا) أى قولا حقيقيا مذعنين به بالجنان وناطقين باللسان تصديقا للداعى الله تعالى فى الدنيا (ربنا) أى المحسن الينا (الله) أى المختص بالجلال والاكرام وحده لا شريك له وثم فى قوله تعالى (ثم استقاموا) لتراخى الرتبة فى الفضيلة فان الثبات على التوحيد ومصححاته الى الممات أمر فى علو رتبته لا يرام الا بتوفيق ذى الجلال والاكرام سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن الاستقامة فقال أن لا تشرك بالله شيأ وقال عمر رضى الله عنه الاستقامة ان تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ روغان الثعلب وقال عثمان رضى الله عنه اخلصوا العمل لله وقال على رضى الله عنه أدوا الفرائض وقال ابن عباس رضى الله عنهما استقاموا على أمر الله تعالى بطاعته

واجتنبوا معصيته وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا اله الا الله حتى لحقوا بالله وقال قتادة كان الحسن اذا تلا هذه الآية قال اللهم ربنا ارزقنا الاستقامة وقال سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يا رسول الله اخبرني بأمر اعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم فقلت ما أخوف ما تخاف علي فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال هذا قال أبو حيان قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه (تتنزل عليهم الملائكة) قال ابن عباس عند الموت وقال قتادة اذا قاموا من قبورهم وقال وكيع بن الجراح البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث وهي (ألا تخافوا) قال مجاهد لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تحزنوا) على ما خلفتم من أهل وولد فانا نخلفكم في ذلك كله وقال عطاء بن أبي رباح لا تخافوا من ذنوبكم ولا تحزنوا فاني أغفرها لكم والخوف غم يلحق لتوقع المكروه والحزن يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار والمعنى ان الله تعالى كتب لكم الامن من كل غم فلن تذوقوه أبدا *(تنبيه)* يجوز في أن أن تكون المخففة أو المفسرة أو الناصبة ولا ناهية على الوجهين الاولين ونافية على الثالث (وأبشروا) أي املؤا صدوركم سرورا يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه وبريق سائر الجسد (بالجنة التي كنتم) أي كونا عظيما على ألسنة الرسل عليهم السلام (توعدون) أي يتجدد لكم ذلك كل حين بالكتب والرسل *(تنبيه)* فيما ذكر دلالة على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث يكون فارغا من الاهوال والفزع الشديد (فان قيل) البشارة عبارة عن الخبر الاول بحصول المنافع فأما اذا أخبر الشخص بحصول المنفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الاخبار الثاني اخبارا ولا يكون بشارة والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا اخبارا ولا يكون بشارة فما السبب في تسمية هذا الخبر بشارة (أجيب) بأن المؤمن قد يسمع بشارات الخير ولم يعلم بأن له الجنة فيكون ذلك بشارة أما اذا علم أنه من أهل الجنة باخبار نبي فانه اذا سمع هذا الكلام من الملائكة فانه يكون اخبارا *ولما أثبتوا لهم الخير ونفوا عنهم الضير علاوه بقولهم (نحن أولياؤكم) أي أقرب الاقرباء اليكم فنحن نفعل معكم كل ما يمكن أن يفعله القريب (في الحياة الدنيا) نجلب لكم المسرات وندفع عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات فنوقظكم من المنام ونحملكم على الصلاة والصيام ونبعدكم عن الآثام ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم (وفي الآخرة) كذلك حيث تتعادى الاخلاء الا الاتقياء قال السدي تقول الملائكة عليهم السلام نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة أي لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة (ولكم فيها) أي في الآخرة اي في الجنة وقبل دخولها في جميع أوقات المحشر (ما تشتهي) ولو على أدنى وجوه الشهوات كما يرشد اليه حذف المفعول (أنفسكم) من اللذائذ لاجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا (ولكم فيها) أي في الآخرة (ما تدعون) أي تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من القول وقوله تعالى (نزلا) حال مما تدعون أي هذا كله يكون لكم نزلا كما يقدم الى الضيف

عند قدومه الى ان يهيأ له ما يضاف به وأما ما يعطون فهو مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر * ولما كان من حوسب عذب فلا يدخل أحد الجنة الا برحمة الله تعالى أشار الى ذلك بقوله تعالى (من) أى كائن ذلك النزل من (غفور) له صفة المحو للذنوب عينا وأثرا على غاية لا يمكن وصفها (رحيم) أى بالغ الرحمة وهو الله تعالى واختلف فى تفسير قوله تعالى (ومن أحسن قولا) أى من جهة القول (ممن دعا الى الله) أى الذى عم بصفات كماله جميع الخلق فقال ابن سيرين والسدى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة أن لا اله الا الله وقال الحسن هو المؤمن الذى أجاب الله تعالى دعوته ودعا الناس الى ما أجاب اليه (وعمل) أى والحال أنه قد عمل (صالحا) فى نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه (وقال اننى من المسلمين) تفاخرا به وقطعا لطمع المفسدين وقال عكرمة هم المؤذنون وقالت عائشة رضى الله عنها ان هذه الآية نزلت فى المؤذنين وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله تعالى عنه وعمل صالحا صلى ركعتين بين الاذان والاقامة وعن عبد الله بن مغفل رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة ثلاث مرات ثم قال فى الثالثة لمن شاء وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى الصبر والغضب والحلم والجهل والعفو والاساءة فى الجزاء وحسن العاقبة * (تنبيه) * فى لا الثانية وجهان أحدهما أنها زائدة للتأكيد كقوله تعالى ولا الظل ولا الحرور لان الاستواء لا يكتفى بواحد الثانى أنها مؤسسة غير مؤكدة اذ المراد بالحسنة والسيئة الجنس اذ لا تستوى الحسنات فى أنفسها فانها متفاوتة ولا تستوى السيئات أيضا فرب واحدة أعظم من أخرى وهو مأخوذ من كلام الزمخشرى (ادفع) كل ما يمكن أن يضرك من نفسك ومن الناس (بالتى) أى بالخصال والاحوال التى (هى أحسن) على قدر الامكان من الاعمال الصالحات والعفو عن المسئ محسن والاحسان اليه أحسن منه (فاذا الذى بينك وبينه عداوة) عظيمة فاجأته حال كونه (كأنه ولى) أى قريب فاعل ما يفعله القريب (حميم) أى فى غاية القرب لا يدع مهما الا قضاه وسهله ويسره وشفى علله وقرب بعيده وأزال درنه كما يزيل الماء الحار الوسخ وقيل نزلت فى أبى سفيان بن حرب وكان عدوا مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وصار وليا مصافيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم * ثم نبه على عظيم فضل هذه الخصلة بقوله تعالى (وما يلقاها) أى على ما هى عليه من العظمة (الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) من الفضائل النفسانية وقال قتادة الحظ العظيم الجنة أى وما يلقاها الا من وجبت له الجنة وقوله تعالى (واما) فيه ادغام نون ان الشرطية فى ما الزائدة (ينزغنك من الشيطان نزغ) قال الزمخشرى النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه فيبعثه على ما لا ينبغى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو أريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر أو تسويله والمعنى وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن (فاستعذ بالله) أى استجر بالملك الاعلى من شر الشيطان واطلب من الله الدخول فى عصمته مبادرا الى ذلك وامض على شأنك ولا تطعه وتوكل

على الله تعالى (انه هو) أى وحده (السميع) أى لكل مسموع من استعاذتك وغيرها (العليم) اى بكل معلوم من نزغه وغيره فهو القادر على رد كيده وتوهين أمره ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (ومن آياته) الدالة على وحدانيته وأنه سميع عليم (الليل والنهار) باختلاف هيئتهما على قدرته على البعث وكل مقدور وقدم الليل على ذكر النهار تنبيها على أن الظلمة عدم والنور وجود والعدم سابق على الوجود (والشمس والقمر) اللذان هما الليل والنهار وقدم الشمس على ذكر القمر لكثرة نفعها * ولما ثبت أنه تعالى المنفرد بالخلق قال سبحانه (لا تسجدوا للشمس) التى هى من أعظم أوثانكم وأعاد النافى تأكيدا فقال (ولا للقمر) فانهما دالان على وجود الاله مخلوقان مسخران فلا ينبغى السجود لهما لان السجود عبارة عن نهاية التعظيم وهو لا يليق الا بالذى أوجدهما من العدم كما قال تعالى (واسجدوا لله) أى الذى له كل كمال من غير شائبة نقص واختلف فى عود الضمير فى قوله تعالى (الذى خلقهن) على أوجه أولاها عوده للآيات الاربع كما جرى عليه الجلال المحلى وقيل يرجع لليل والنهار والشمس والقمر قال الزمخشرى لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى والاناث يقال الاقلام بريتها وبريتهن وناقشه أبو حيان من حيث انه لم يفرق بين جمع القلة والكثرة فى ذلك لان الافصح فى جمع القلة أن يعامل معاملة الاناث وفى جمع الكثرة أن يعامل معاملة الانثى والافصح أن يقال الاجذاع كسرتهن والجذوع كسرتها وأجاب بعضهم بأن الزمخشرى ليس فى مقام بيان الفصيح من الافصح بل فى مقام كيف يجىء الضمير ضمير اناث بعد تقدم ثلاثة أشياء مذكرات وواحد مؤنث والقاعدة تغليب المذكر على المؤنث وقال البغوى انما قال خلقهن بالتأنيث لانه أجراها على طريق جمع التكسير ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث * ولما ظهر أن الكل عبيده وكان السيد لا يرضى باشراك عبده عبدا آخر فى عبادة سيده قال تعالى (ان كنتم اياه) أى خاصة بغاية الرسوخ (تعبدون) كما هو صريح قولكم فى الدعاء فى وقت الشدائد لاسيما فى البحر وفى الآية اشارة الى الحث على صيانة الآدميين عن أن يقع منهم سجود لغيره رفعا لمقامهم عن أن يكونوا ساجدين لمخلوق بعد ان كانوا مسجودا لهم فانه تعالى أمر الملائكة عليهم السلام الذين هم من أشرف خلقه بالسجود لآدم عليه السلام وهم فى ظهره فتكبر ابليس فأبد لعنته الى يوم القيامة (فان استكبروا) أى أوجدوا التكبر عن اتباعك فيما أمرتهم به من التوحيد فلم ينزهوا الله تعالى عن الشريك (فالذين عند ربك) أى من الملائكة قال الرازى ليس المراد بهذه العندية قرب المكان بل كما يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ويدل عليه قوله تعالى انا عند ظن عبدى بى وأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى (يسبحون له بالليل والنهار) أى دائما لقوله تعالى (وهم لا يسأمون) أى لا يملون ولقوله سبحانه وتعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون (فان قيل) اشتغالهم بهذا العمل على الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الاعمال مع انهم ينزلون الى الارض كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقال تعالى عن الذين قاتلوا يوم بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين (أجيب) بأن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا

بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة *(تنبيه)* اختلف في مكان السجدة فقيل هو عند قوله تعالى اياه تعبدون وهو قول ابن مسعود والحسن رضي الله عنهما حكاه الرافعي عن أبي حنيفة وأحمد رضي الله تعالى عنهما لانه ذكر السجدة قبله والصحيح عند الشافعي رضي الله تعالى عنه عند قوله تعالى لا يسأمون وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد ابن المسيب وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة رضي الله عنه لان عنده تم الكلام * ولما ذكر تعالى الدلائل الاربعة الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الارضية فقال تعالى (ومن آياته) الدالة على قدرته ووحدانيته (أنك) أي أيها الانسان (ترى الارض) أي بعضها بحاسة البصر وبعضها بعين البصيرة قياسا على ما أبصرت (خاشعة) أي يابسة لانبات فيها والخشوع التذلل والتقاصر فاستعير لحال الارض اذا كانت قحطة لانبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى وترى الارض هامدة وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو كما قال تعالى (فاذا أنزلنا) أي بما لنا من العظمة (عليها الماء) من الغمام أو غيره (اهتزت) أي تحركت حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كن يعالج ذلك بنفسه (وربت) أي تشققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وسما في الجو مغطيا لوجهها وتشعبت عروقه وغلظت سوقه فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه بعدما كانت قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الاطمار الرثة وقرأ السوسي ترى الارض في الوصل بالامالة بخلاف عنه والباقون بالفتح وفي الوقف أمال محضة أبو عمرو وحمزة والكسائي وورش بين بين والباقون بالفتح ثم استدل بذلك على القدرة على البعث فقال تعالى (ان الذي أحياها) أي بما أخرج من نباتها بعد أن كانت ميتة (لمحيي الموتى) كما فعل بالنبات من غير فرق (انه على كل شئ قدير) فهو قادر على احياء الارض بعد موتها وعلى احياء هذه الاجساد بعد موتها لان الممكنات بالنسبة الى القدرة متساوية فالقادر قدرة تامة على شئ منها قادر على غيره * ثم انه تعالى هدد من يجادل في آياته بالقاء الشبهات فيها بقوله تعالى (ان الذين يلحدون في آياتنا) أي القرآن على ما لها من العظمة بالطعن والتحريف والتأويل الباطل والالغاء فيها وقرأ حمزة بفتح الياء والحاء من لحد والباقون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد يقال لحد الحافر وألحد اذا مال عن الاستقامة بحفر في شق فالملحد هو المنحرف ثم اختص في العرف بالمنحرف عن الحق الى الباطل قال مجاهد يلحدون في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط وقال السدي يعاندون ويشاقون (لا يخفون علينا) أي في وقت من الاوقات ونحن قادرون على أخذهم متى شئنا أخذناه ولا يعجل الا من يخشى الفوات قال مقاتل نزلت في أبي جهل وقوله تعالى (أفمن يلقى في النار) أي على وجهه بأيسر أمر (خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) استفهام بمعنى التقرير والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار وأن المؤمنين بالآيات يأتون آمنين يوم القيامة حين يجمع الله تعالى عباده للعرض عليه للحكم بينهم بالعدل قال البغوي قيل هو حمزة وقيل هو عثمان وقيل عمار بن ياسر *(فائدة)* أم من في الرسم مقطوعة وقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) أي فقد علمتم

مصيرالمسيء والمحسن تهديد فمن أراد شيأ من الجزاء بن فليعمل أعماله فانه ملاقيه وقوله تعالى (انه بما تعملون) أي في كل وقت (بصير) أي عالم بأعمالكم فيه وعيد بالمجازاة وقوله تعالى (ان الذين كفروا بالذكر) أي القرآن (لما جاءهم) بدل من قوله تعالى ان الذين يلحدون أو مستأنف وخبران محذوف مثل معاندون أوهالكون أو أولئك ينادون ولما بالغ تعالى في تهديد الملحدين في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال تعالى (وانه) أي والحال انه (لكتاب) أي جامع لكل خير (عزيز) أي فهو كثير النفع عديم النظير يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر ولا يقرب منه ذلك ويعجز كل معارض ولا يعجز عن اقعاد مناهض وقال الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما كريم على الله تعالى وقال قتادة أعزه الله تعالى (لا يأتيه الباطل) لانه يمتنع منه بمتانة وصفه وجزالة نظمه وحلاوة معانيه فلا يلحقه تغيير (من بين يديه ولا من خلفه) أي لا يتطرق اليه الباطل من جهة من الجهات لان قدام أوضح ما يكون وخلف أخفى ما يكون فما بين ذلك من باب أولى والعبارة كناية عن ذلك لان صفة الله تعالى لا وراء لها ولا أمام لها على الحقيقة ومثل ذلك ليس وراء الله تعالى مرمى ولا دونه منتهى وقال قتادة والسدي الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه وقال الزجاج معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وعلى هذا فمعنى الباطل الزيادة أو النقصان وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يأتي بعده كتاب فيبطله ثم علل ذلك بقوله تعالى (تنزيل) أي بحسب التدريج لاجل المصالح (من حكيم) أي بالغ الحكمة فهو يضع كل شئ منه في أتم محله من وقت النزول وسياق النظم (حميد) أي بالغ الاحاطة بأوصاف الكمال من الحكمة وغيرها والتطهر والتقديس عن كل شائبة نقص يحمده كل خلقه بلسان حاله ان لم يحمده بلسان قاله (فان قيل) أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون (أجيب) بان الله تعالى حماه عن تعلق الباطل به بأن قيض قوما عارضوهم بابطال تأويلهم وافساد أقاويلهم فلم يخلوا طعن طاعن الا محوقا ولا قول مبطل الا مضمحلا ونحو هذا قوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ثم سلى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ما يقال) أي من الكفار أو من غيرهم (لك) يا أكرم الخلق مما يحصل به ضيق صدر وتشويش فكر (الا ما) أي شئ (قد قيل) أي حصل قوله على ذلك الوجه (للرسل من قبلك) فصبروا على ما أوذوا فاصبر كما صبروا (ان ربك) أي المحسن اليك بارسالك وانزال كتابه اليك ومن يكرم بمثل هذا لا ينبغي له ان يحزن لشئ يعرض له (لذو مغفرة) أي لمن تاب وآمن بك (وذو عقاب أليم) أي مؤلم لمن أصر على التكذيب وعلى هذا فقوله تعالى ان ربك الآية مستأنف وقيل مفسر للمقول كأنه قيل للرسل ان ربك لذو مغفرة وجرى على ذلك الزمخشري ونزل جوابا لقولهم هلا نزل القرآن بلغة العجم (ولو جعلناه) أي هذا الذكر بما لنا من العظمة (قرآنا) أي على ما هو عليه من الجمع (أعجميا) أي لا يفصح (لقالوا) أي هؤلاء المتعنتون (لولا) أي هلا ولم لا (فصلت) أي بينت (آياته) حتى نفهمها

وقولهم (أأعجمي) أي أقرآن أعجمي (و) نبي (عربي) استفهام انكار منهم وقال مقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على يسار غلام عامر بن الحضرمي وكان يهوديا أعجميا يكنى أبا فكيهة فقال المشركون انما يعلمه يسار غلام عامر فضربه سيده وقال انك تعلم محمدا فقال هو يعلمني فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ قالون وأبو عمرو بتحقيق الهمزة الاولى وتسهيل الثانية وادخال ألف بينهما وورش وابن ذكوان وابن كثير وحفص بتسهيل الثانية ولا ادخال وأسقط هشام الاولى والباقون بتحقيقهما وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل هو) أي هذا القرآن (للذين آمنوا) أي أردنا وقوع الايمان منهم (هدى) أي بيان لكل مطلوب (وشفاء) أي لما في صدورهم من داء الكفر والهوى وقيل من الاوجاع والاسقام متعلق كما قال الرازي بقولهم وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه الآية كأنه تعالى يقول هذا الكلام أرسلته اليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا هذه اللغة فكل من أعطاه الله تعالى طبعا مائلا الى الحق وقلبا داعيا الى الصدق فان هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء وأما من غرق في بحر الخذلان وشغف بمتابعة الشيطان فهو في ظلمة وعمى كما قال تعالى (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر) أي ثقل فلا يسمعون سماعا ينفعهم (وهو عليهم عمى) فلا يبصرون الداعي حق الابصار ثم قال الرازي وكل من أنصف علم ان التفسير على هذا الوجه الذي ذكرناه أولى مما ذكروه أي أنه متعلق بما قبله لان السورة تصير بذلك من أولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا لغرض واحد انتهى ولما بين بهذا بعدهم عن علياته وطردهم عن فنائه قال تعالى (أولئك) أي البعداء البغضاء مثالهم مثال من (ينادون) أي يناديهم من يريد نداءهم غير الله تعالى (من مكان بعيد) أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به (ولقد آتينا) أي على ما لنا من العظمة (موسى الكتاب) أي التوراة (فاختلف) أي وقع الاختلاف (فيه) وجه تعلقه بما قبله كأنه قيل انا لما آتينا موسى الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحاب الهدى ورده بعضهم فكذلك آتيناك الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه (ولولا كلمة) أي ارادة (سبقت) في الازل (من ربك) أي المحسن اليك بتأخير الحساب والجزاء للخلائق الى يوم القيامة (لقضي بينهم) أي في الدنيا فيما اختلفوا فيه من انصاف المظلوم من ظالمه قال تعالى بل الساعة موعدهم ولكن نؤخرهم الى أجل مسمى (وانهم لفي شك) أي المكذبين محيط بهم (منه) أي القضاء يوم الفصل (مريب) أي موقع في الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلا * ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (من عمل صالحا) أي كائنا من كان (فلنفسه) أي فنفع عمله لها لا لاحد يتعداها والنفس فقيرة الى التزكية بالاعمال الصالحة لانها محل النقائص فلذا عبر بها (ومن أساء) في عمله (فعليها) أي على نفسه خاصة ليس عليك منه شيء فخفف عن نفسك اعراضهم فانهم ان آمنوا

فنفع ايمانهم يعود اليهم وان كفروا فضرر كفرهم يعود اليهم والله سبحانه وتعالى يوصل الى كل احد ما يليق به من الجزاء (وما ربك) أى المحسن اليك بارسالك لتتميم مكارم الاخلاق (بظلام) أى بذى ظلم (للعبيد) أى هذا الجنس فلا يتصور أن يقع ظلم لاحد منهم أصلا لان له الغنى المطلق والحكمة البالغة (اليه) أى المحسن اليك لا الى غيره (يرد علم الساعة) أى أى لا سبيل الى معرفة وقت ذلك اليوم ولا يعلمه الا الله تعالى وكذا العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس الا عند الله ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين أحدهما قوله تعالى (وما تخرج من ثمرات) أى فى وقت من الاوقات وقرأ نافع وابن عامر وحفص بألف بعد الراء جمعا والباقون بغير ألف افرادا وقوله تعالى (من أكمامها) جمع كم وكمامة قال البقاعى تبعا للزمخشرى بالكسر فيهما وهو وعاء الطلع وكل ما غطى على وجه الاحاطة شيأ من شأنه أن يخرج فهو كم وقال الراغب الكم ما يغطى البدن من القميص وما يغطى الثمرة وجمعه أكمام وهذا يدل على أنه مضموم الكاف أو جعله مشتركا بين كم القميص وكم الثمرة ولا خلاف فى كم القميص أنه بالضم فيجوز أن يكون فى وعاء الثمرة لغتان دون كم القميص جمعا بين القولين والمثال الثانى قوله تعالى (وما تحمل من أنثى) حملا ناقصا أو تاما وأكد النفى باعادة النافى ليشهد كل على حياله (ولا تضع) حملا حيا أو ميتا (الا) حال كونه متلبسا (بعلمه) ولا علم لاحد غيره بذلك ومن ادعى علما به فليخبر بان ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلانى والبلد الفلانى تخرج فى الوقت الفلانى أو لا تخرج العام شيأ والمرأة الفلانية تحمل فى الوقت الفلانى وتضع فى وقت كذا أو لا تحمل العام شيأ ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علما الا الله تعالى (فان قيل) قد يقول الرجل الصالح من أصحاب الكشوف قولا فيصيب فيه وكذلك الكهان والمنجمون (أجيب) بأن أصحاب الكشوف اذا قالوا قولا فهو من الهام الله تعالى واطلاعه اياهم عليه فكان من علمه الذى يرد اليه وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شئ مما يقولونه البتة وانما غايتهم ادعاء ظن ضعيف قلما يصيب وعلم الله تعالى هو العلم اليقين المقطوع به الذى لا يشاركه فيه أحد جل ربنا وعلا (ويوم يناديهم) أى المشركين بعد بعثهم من القبور للفصل بينهم فى سائر الامور (أين شركائى) أى الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم فى هذا اليوم ويحمونكم من العقاب واللوم (قالوا) أى المشركون (آذناك) أى أعلمناك (ما منا) وأكدوا النفى بادخال الجار فى المبتدا (من شهيد) أى يشهد أن لك شريكا وذلك لما رأوا العذاب تبرؤا من الاصنام وقيل معناه ما منا أحد يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم فلا يبصرونها فى ساعة التوبيخ وقيل هذا كلام الاصنام كان الله تعالى يحييها وأنها تقول ما منا من شهيد أى أحد يشهد بصحة ما أضافوا الينا من الشركة وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالتهم عنهم انهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم وهو معنى قوله تعالى (وضل) أى ذهب وغاب وخفى (عنهم ما كانوا) أى دائما (يدعون) فى كل حين على وجه العبادة (من قبل) فهم لا يرونه فضلا عن انهم يجدون نفعه (وظنوا) أى فى ذلك الحال (ما لهم) وأبلغ فى النفى

بادخال الجار على المبتدا المؤخر فقال (من محيص) أى مهرب وملجا ومعدل ولما بين تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول باثبات الشركاء والاضداد لله تعالى فى الدنيا تبرؤا عن تلك الشركاء فى الآخرة بين تعالى أن الانسان فى جميع الاوقات متغير الاحوال فان أحس بخير وقدرة تعاظم وان أحس ببلاء ومحنة ذل بقوله تعالى (لايسأم) أى لايمل ولايعجز (الانسان) أى الآنس بنفسه الناظر فى اعطافه الذى لم يتأهل للمعارف الالهية والطرق الشرعية (من دعاء الخير) أى لايزال يسأل ربه المال والصحة وغيرهما (وان مسه الشر) أى من فقر وشدة وغيرهما (فيؤس) من فضل الله تعالى (قنوط) من رحمة الله تعالى والمعنى ان الانسان فى حال الاقبال لاينتهى الى درجة الاويطلب الزيادة عليها وفى حال الادبار والحرمان يصير آيسا قانطا وهذه صفة الكافر لقوله تعالى لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون * (تنبيه) * فى قوله تعالى يؤس قنوط مبالغة من وجهين أحدهما من طريق فعول والثانى من طريق التكرار واليأس من صفة القلب والقنوط أن تظهر آثار اليأس فى الوجه والاحوال الظاهرة ثم بين تعالى حال هذا الذى صار آيسا قانطا بقوله تعالى (ولئن) اللام لام القسم (أذقناه) أى آتينا ذلك الانسان (رحمة) أى غنى وصحة (منا) أى بمالنا من العظمة والقدرة (من بعد ضراء) أى شدة وبلاء (مسته) فانه يأتى بثلاثة أنواع من الاقاويل الفاسدة الموجبة للكفر والبعد من الله تعالى الاول منها ما حكاه الله بقوله سبحانه (ليقولن) بمجرد ذوق تلك الرحمة على أنها ربما كانت بلاء عظيما لكونها استدراجا الى الهلاك (هذا) الامر العظيم (لى) أى حق مختص بى وصل الى لانى استوجبته بعلمى وعملى ولايعلم المسكين أن أحدا لايستحق على الله تعالى شيأ لانه ان كان عاريا من الفضائل فكلامه ظاهر الفساد وان كان موصوفا بشئ من الفضائل والصفات الحميدة فهى انما حصلت بفضل الله واحسانه النوع الثانى من كلامه الفاسد قوله (وما أظن الساعة) أى القيامة (قائمة) أى ثابتا قيامها فقطع الرجاء منها سواء عبر عن ذلك بلسان قاله أو بلسان حاله لكونه يفعل أفعال الشاك فيها النوع الثالث من كلامه الفاسد قوله (ولئن) اللام لام القسم (رجعت) أى على سبيل الفرض أى ان هذا الكافر يقول لست على يقين من البعث وان كان الامر على ذلك ورددت (الى ربى) أى الذى أحسن الى بهذا الخير الذى أنا فيه (ان لى عنده للحسنى) أى الحالة الحسنى من الكرامة وهى الجنة فكما أعطانى فى الدنيا سيعطينى فى الآخرة ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الاقوال الثلاثة الفاسدة قال تعالى شأنه (فلننبئن) أى فلنخبرن (الذين كفروا) أى ستروا مادلت عليه العقول وصرائح النقول (بما عملوا) لاندع منه كثيرا ولا قليلا صغيرا ولا كبيرا فيرون عيانا ضد ماظنوه فى الدنيا من أن لهم الحسنى وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال ابن عباس رضى الله عنهما لنوقفنهم على مساوى أعمالهم (ولنذيقنهم) أى بعد اقامة الحجة عليهم بموازين القسط الوافية بمثاقيل الذر (من عذاب غليظ) أى شديد لايدع جهة من أجسامهم الا أحاط بها * ولما حكى الله تعالى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه

فى الآفات حكى أفعاله أيضا فقال (وإذا أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (على الانسان) أى الواقف مع نفسه نعمة تليق بعظمتنا (أعرض) أى عن التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى (ونأى) أى أبعد بعدا جعل بيننا وبينه حجابا عظيما (بجانبه) أى ثنى عطفه متبخترا (وإذا مسه الشر) أى هذا النوع قليله وكثيره (فذو دعاء) أى فى كشفه وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو الا عند المس وقد كان ينبغى له أن يشرع فى الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفا الى الله تعالى فى الرخاء ليعرفه فى الشدة وهو خلق شريف لا يفعله الا أفراد خصهم الله بلطفه (عريض) أى مديد العرض جدا وأما طوله فلا يسئل عنه وهذا كناية عن النهاية فى الكثرة تقول العرب أطال فلان الدعاء وأعرض أى أكثر ثم أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (قل) أى لهؤلاء المعرضين (أرأيتم) اى أخبرونى (ان كان) أى هذا القرآن (من عند الله) الذى له الاحاطة بجميع صفات الجلال والجمال (ثم كفرتم به) أى من غير نظر واتباع دليل (من أضل) منكم هكذا كان الاصل ولكنه قال (ممن هو فى شقاق) أى خلاف لاولياء الله تعالى (بعيد) أى عن الحق تنبيها على أنهم صاروا كذلك ومن صار كذلك فقد عرض نفسه لسطوات الله عز وجل (سنريهم آياتنا فى الآفاق) قال ابن عباس يعنى منازل الامم الخالية (وفى أنفسهم) أى بالبلايا والامراض وقال قتادة يعنى وقائع الله تعالى فى الامم الخالية وفى أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد فى الآفاق ما يفتح الله تعالى من القرى على محمد صلى الله عليه وسلم وفى أنفسهم فتح مكة وقال عطاء فى الآفاق يعنى أقطار السموات والارض من الشمس والقمر والنجوم فى آفاق الليل والنهار والاضواء والظلال والظلمات والنبات والاشجار والانهار وفى أنفسهم من لطائف الصنعة وبديع الحكمة فى كيفية تكوين الاجنة فى ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون *(تنبيه)* قال النووى فى تهذيبه قال أهل اللغة الآفاق النواحى الواحد أفق بضم الهمزة والفاء وأفق باسكان الفاء * ولما كان التقدير ولا نزال نكرر عليهم هذه الدلائل عطف عليه (حتى يتبين لهم) غاية البيان بنفسه من غير اعمال فكر (أنه) أى القرآن (الحق) أى الكامل فى الحقية الذى يطابق الواقع المنزل من الله تعالى بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائى به وقيل الضمير فى انه لدين الاسلام وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم (أولم يكف بربك) أى المحسن اليك بهذا البيان المعجز للانس والجان شهادة بأن القرآن من عند الرحمن *(تنبيه)* الباء زائدة للتأكيد كأنه قيل أولم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزاد فى الفاعل الامع كفى وقوله تعالى (أنه على كل شئ شهيد) بدل من ربك والمعنى أولم يكفهم فى صدقك أن ربك لا يغيب عنه شئ ما وقد شهد لك فيه بالاعجاز لجميع الخلق بكل ما تضمنته آياته ونطقت به كلماته ففيه أعظم بشارة بتمام الدين وظهوره على المعتدين ولما لم يبق بعد هذا التعنت مقال ولا شبهة أصلا لضال قال تعالى مناديا على من جحد واستمر على عناده

(ألا انهم) أى هؤلاء الكفرة (فى مرية) أى جحد وجدال وشك وضلال عن البعث (من لقاء ربهم) أى المحسن اليهم بأن خلقهم ورزقهم لانكارهم البعث ثم كرر كونه قادرا على البعث وغيره بقوله تعالى (ألا انه) أى هذا المحسن اليهم (بكل شئ) أى من الاشياء جملتها وتفصيلها كلياتها وجزئياتها أصولها وفروعها غيبها وشهادتها ملكها وملكوتها (محيط) قدرة وعلما بكثير الاشياء وقليلها كلياتها وجزئياتها فيجازيهم بكفرهم وقول البيضاوى تبعا للزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات حديث موضوع

(سورة شورى مكية)

وهى ثلاث وخمسون آية وثمانمائة وست وستون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفا

(بسم الله) الذى أحاط بصفات الكمال (الرحمن) الذى عمت رحمته سائر عباده (الرحيم) الذى خص أولياءه بما ترضاه الهيته من رحمته وقوله تعالى (حم عسق) تقدم الكلام فى أمثال هذه الفواتح وسئل الحسين بن الفضل لم قطع حم عسق ولم يقطع كهيعص فقال لانها سورة أولها حم فجرت مجرى نظائرها فكان حم مبتدأ وعسق خبره ولانهما عدا آيتين وأخواتها مثل كهيعص والمص والمر عدت آية واحدة وقيل لان أهل التأويل لم يختلفوا فى كهيعص وأخواتها أنها حروف تهج لا غير واختلفوا فى حم فأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلا وقيل معناها حم أى قضى ما هو كائن روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال ح حلمه م مجده ع علمه س سناؤه ق قدرته أقسم الله تعالى بها وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبى رباح ح حرب قريش يعز فيها الذليل ويذل فيها العزيز فى قريش م ملك يتحول من قوم الى قوم ع عدو لقريش يقصدهم س سنين كسنى يوسف تكون فيهم ق قدرة الله تعالى النافذة فى خلقه وروى عن ابن عباس أنه قال ليس من نبى صاحب كتاب الا أوحيت اليه حم عسق فلذلك قال تعالى (كذلك) أى مثل هذا الايحاء العظيم الشأن (يوحى اليك) أى ما دمت حيا لا ينقطع ذلك عنك (والى) أى وأوحى الى (الذين من قبلك) أى من الرسل الكرام والانبياء الاعلام ومن جملة ما أوحى اليهم أن أمتك أكثر الامم وأنك أشرف الانبياء وأخذ على كل منهم العهد باتباعك وأن يكونوا من أنصارك وأتباعك وقوله تعالى (الله) أى الذى له الاحاطة بأوصاف الكمال فاعل الايحاء * ولما كان نفوذ الامر دائرا على العزة والحكمة قال تعالى (العزيز) أى الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) الذى يصنع ما يصنعه فى أتقن محاله فلذلك لا يقدر أحد على نقض ما أبرمه ولا نقص ما أحكمه *(تنبيه)* ما تقرر من أن الله تعالى فاعل الايحاء هو على قراءة كسر الحاء من يوحى وهى قراءة غير ابن كثير وأما على قراءة ابن كثير بفتح الحاء فيجوز أن يرتفع بفعل مضمر كأنه قيل من يوحيه فقيل الله كيسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ويجوز أن يرتفع بالابتداء وما بعده خبر

والجملة قائمة مقام الفاعل وأن يكون العزيز الحكيم خبرين أو نعتين والجملة من قوله تعالى (له مافي السموات) أي من الذوات والمعاني (ومافي الارض) كذلك خبر أول أو ثان على حسب ما تقدم في العزيز الحكيم قال الزمخشري لم يقل تعالى أوحى اليك ولكن قال يوحي اليك على لفظ المضارع ليدل على أن ايحاء مثله عادة وكونه عزيزا يدل على كونه قادرا على مالانهاية له وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات وقوله تعالى له مافي السموات ومافي الارض يدل على كونه متصفا بالقدرة الكاملة النافذة في جميع أجزاء السموات والارض على عظمتها وسعتها بالايجاد والاعدام وأن مافي السموات ومافي الارض خلقه وملكه * ولما كان العلو مستلزما للقدرة قال تعالى (وهو العلي) على كل شئ علو رتبة وعظمة ومكانة لاعلو مكان وملابسة (العظيم) بالقدرة والقهر والاستعلاء وقوله تعالى (تكاد السموات) قرأه نافع والكسائي بالياء التحتية والباقون بالفوقية وقوله تعالى (ينفطرن) أي يتشققن قرأه شعبة وأبو عمرو بعد الياء بنون ساكنة وكسر الطاء مخففة والباقون بعد الياء بتاء فوقية مفتوحة وفتح الطاء مشددة وقوله تعالى (من فوقهن) في ضميره ثلاثة أوجه أحدها أنه عائد على السموات أي كل واحدة منهن تنفطر فوق التي تليها من عظمة الله تعالى أو من قول المشركين اتخذ الله ولدا كما في سورة مريم أي يبتدئ انفطارهن من هذه الجهة فمن لابتداء الغاية متعلقة بما قبلها الثاني أنه يعود على الارضين لتقدم ذكر الارض الثالث أنه يعود على فرق الكفار والجماعات الملحدين قاله الاخفش الصغير وقال الزمخشري كلمة الكفر أي على التفسير الثاني انما جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال ينفطرن من تحتهن أي من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل يكدن ينفطرن أي من الجهة التي فوقهن دون الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عز وجل يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم فجعل الحميم مؤثرا في أجزائهم الباطنة اه * ولما بين تعالى أن سبب كيدودة انفطارهن جلال العظمة التي منها كثرة الملائكة وشناعة الكفر بين لها سببا آخر وهو عظم قول الملائكة فقال تعالى (والملائكة يسبحون) أي يوقعون التنزيه لله تعالى متلبسين (بحمد ربهم) أي باثبات الكمال للمحسن اليهم تسبيحا يليق بحالهم فلهم بذلك زجل وأصوات لاتحملها العقول ولاتثبت لها الجبال *(تنبيه)* عدل عن التأنيث ولم يقل يسبحن مراعاة للفظ المذكر وضمير الجمع الجم اشارة الى قوة التسبيح وكثرة المسبحين (فان قيل) قوله تعالى (ويستغفرون لمن في الارض) عام فيدخل فيه الكفار وقد لعنهم الله تعالى فقال سبحانه أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يكونون لاعنين لهم ومستغفرين لهم (أجيب) بوجوه الاول أنه عام مخصوص بآية غافر ويستغفرون للذين آمنوا الثاني أن قوله تعالى لمن في الارض لايفيد العموم لانه يصح أن يقال استغفر والبعض من في الارض دون البعض ولو كان صريحا في العموم لما صح ذلك الثالث يجوز أن يكون المراد بالاستغفار أن لايعاجلهم

قوله استغفروا لبعض الخ الظاهر اسقاط لفظ بعض ومع اسقاطه ففيه نظر اه

بالعقاب كما فى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا الى أن قال تعالى انه كان حليما غفورا الرابع يجوز أن يقال انهم يستغفرون لكل من فى الارض اما فى حق الكفار فبطلب الايمان لهم وأما فى حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيآتهم فانا نقول اللهم اهد الكفار وزين قلوبهم بنور الايمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر وهذا استغفار فى الحقيقة وقوله تعالى (ألا ان الله) أى الذى له الاحاطة بصفات الكمال (هو) أى وحده (الغفور الرحيم) تنبيه على أن الملائكة وان كانوا يستغفرون للبشر الا أن المغفرة المطلقة لله تعالى وهذا يدل على أنه تعالى يعطى المغفرة التى طلبوها ويضم اليها الرحمة (والذين اتخذوا من دونه) أى غير الله تعالى (أولياء) أى أندادا وشركاء يعبدونهم كالاصنام (الله) أى المحيط بصفات الكمال (حفيظ) أى رقيب ومراع وشهيد (عليهم) أى على أعمالهم ولا يغيب عنه شئ من أعمالهم فهو ان شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعد للكافرين وان شاء تاب عليهم ومحا ذلك عينا وأثرا ولم يعاقبهم وان شاء محاه عينا وأبقى الاثر حتى يعاقبهم (وما أنت) يا أشرف الرسل (عليهم بوكيل) أى حتى يلزمك أن تراعى جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم فتحفظها وتقسرهم على تركها ونحو ذلك مما تتولاه الوكيل بما يقوم فيه مقام الموكل سواء قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن أم قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وغير ذلك اذ ما عليك الا البلاغ (وكذلك) أى ومثل ذلك الايحاء (أوحينا) أى بما لنا من العظمة (اليك قرآنا) أى جامعا لكل حكمة مع الفرق لكل ملتبس (عربيا) فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب (لتنذر) أى به (أم القرى) أى أهل مكة التى هى أم الارض وأصلها منها دحيت أو لشرفها أو وقع الفعل عليها عدالها عداد العقلاء أو غير ذلك اذ ما عليك الا البلاغ وقوله تعالى (ومن حولها) معطوف على أهل المقدر قبل أم القرى والمفعول الثانى محذوف أى العذاب والمراد بمن حولها قرى الارض كلها من أهل البدو والحضر وأهل المدر والوبر والانذار التخويف (وتنذر) أى الناس (يوم الجمع) أى يوم القيامة يجمع الله تعالى فيه الاولين والآخرين وأهل السموات والارضين ويجمع الارواح بالاجساد ويجمع بين العامل وعمله ويجمع بين الظالم والمظلوم (لا ريب) أى لا شك (فيه) لانه ركز فى فطرة كل أحد وقوله تعالى (فريق) يجوز فيه وجهان أحدهما أنه مبتدأ وساغ هذا فى النكرة لانه مقام تفصيل وخبره (فى الجنة) أى تفضلا منه ورحمة وهم الذين قبلوا الانذار وبالغوا فى الحذار ويجوز أن يكون الخبر مقدرا تقديره منهم فريق وساغ الابتداء بالنكرة حينئذ لشيئين تقديم خبرها جارا ومجرورا ووصفها بالجار بعدها والثانى أنه خبر مبتدا مضمر أى هم اى المجموعون فريق دل على ذلك قوله تعالى يوم الجمع وقوله تعالى (وفريق فى السعير) أى عدلا منه فيه مامر وهم الذين خذلهم الله تعالى ووكلهم الى أنفسهم (فان قيل) يوم الجمع يقتضى كون القوم مجتمعين والجمع بين الصنفين محال (أجيب) بأنهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين قال القشيرى كما أنهم فى الدنيا فريقان فريق فى راحات الطاعات وحلاوات العبادات

وفريق

وفريق في ظلمات الشرك وعقوبات الحسد والشك فكذلك غداهم فريقان فريق هم أهل اللقاء وفريق هم أهل البلاء والشقاء روى الامام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قابضا على كفيه ومعه كتابان فقال أتدرون ما هذان الكتابان قلنا لا يا رسول الله فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفا في الاصلاب وقبل أن يستقروا نطفا في الارحام اذهم في الطينة منجدلون فليس يزاد فيهم ولا ينقص منهم اجمال من الله عليهم الى يوم القيامة ثم قال للذي في يده اليسرى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا نطفا في الاصلاب وقبل أن يستقروا نطفا في الارحام اذهم في الطينة منجدلون فليس يزاد فيهم ولا ينقص منهم اجمال من الله تعالى عليهم الى يوم القيامة فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل اذن فقال اعملوا وسددوا وقاربوا فان صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وان عمل أي عمل وان صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وان عمل أي عمل ثم قال فريق في الجنة وفريق في السعير عدل من الله تعالى أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (ولو شاء الله) أي المحيط بجميع أوصاف الكمال (لجعلهم) أي المجموعين (أمة واحدة) للثواب أو للعذاب ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا فريقين مقسطين وظالمين ليظهر فضله وعدله وأنه الجبار الواحد القهار لا يبالي بأحد وهو معنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء) ادخاله (في رحمته) بخلق الهداية في قلبه فتكون أفعالهم في مواضعها وهم المقسطون ويدخل من يشاء في نقمته بخلق الضلالة في قلوبهم فيكونوا ظالمين فلا تكون أفعالهم في مواضعها فالمقسطون مالهم من عدو ولا نكير (والظالمون) أي العريقون في الظلم الذين ساء ظلمهم وهم الكافرون فيدخلهم في لعنته (مالهم من ولي) أي يلي أمورهم فيجتهد في اصلاحها فيدفع عنهم العذاب (ولا نصير) ينصرهم من الهوان فيمنعهم من النار وعلى هذا التقدير فالآية من الاحتباك وهو ظاهر ذكر الرحمة أولا دليلا على اللعنة ثانيا والظلم وما معه ثانيا دليلا على اضداده أولا وهذا تقرير لقوله تعالى الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل أي أنت لا تقدر أن تحملهم على الايمان ولو شاء الله تعالى لفعله لأنه أقدر منك لكنه تعالى جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا * ولما حكى الله تعالى عنهم أولا انهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لست عليهم بوكيل أي لا يجب عليك أن تحملهم على الايمان فان الله تعالى لو شاء لفعله أعاد ذلك الكلام على سبيل الانكار بقوله تعالى (أم اتخذوا من دونه أولياء) كالاصنام وهذه أم المنقطعة فتقدر ببل التي للانتقال وبهمزة الانكار أو بالهمزة فقط أو ببل فقط أي ليس المتخذون أولياء (فالله) أي المختص بصفات الكمال (هو) وحده (الولي) قال ابن عباس وليك يا محمد وولي من اتبعك والفاء جواب الشرط المقدر كأنه قال ان أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي لا ولي سواه وقيل هي لمجرد العطف ويجري على هذا الجلال المحلي وعلى الأول الزمخشري (وهو) أي ومن شأن هذا الولي (يحيي الموتى)

أي يجدد احياءها في كل وقت يشاؤه (وهو) وحده (على كل شيء قدير) فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء * ولما منع تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الايمان منع المؤمنين أن يشرعوا معهم في المخاصمات والمنازعات بقوله تعالى (وما اختلفتم) أي أنتم والكفار (فيه من شيء) أي من أمور الدنيا أو الدين (فحكمه الى الله) أي مفوض الى الذي هو الولي لا غيره يميز المحق من المبطل بالنصر والاثابة والمعاقبة وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل المتشابه فارجعوا فيه الى المحكم من كتاب الله (ذلكم الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (ربي) أي الذي لا أمر بيد غيره في ماض ولا حال ولا استقبال (عليه) أي وحده (توكلت) أسلمت جميع أمري (واليه) لا الى غيره (أنيب) أي أرجع بالتوبة اذا قصرت في شيء من فروع شرعه وأرجع الى كتابه اذا نابني أمر من الامور فأعرف منه حكمه فافعلوا أنتم كذلك واجعلوه الحكم تفلحوا ولا تعدلوا عنه في شيء من الاشياء تهلكوا وقوله تعالى (فاطر) أي مبدع (السموات والارض) خبر آخر لذلكم أو صفة أو خبره (جعل لكم) أي بعد أن خلقكم من الارض (من أنفسكم أزواجا) حيث خلق حواء من ضلع آدم فيكون بالسكون اليها بقاء نوعكم (ومن) أي وجعل لكم أي لأجلكم من (الانعام) التي هي أموالكم وجمالكم وبها أعظم أقواتكم (أزواجا) أي ذكورا واناثا يكون بها أيضا بقاء نوعها (يذرؤكم) بالمعجمة أي يخلقكم ويكثركم من الذرء وهو البث (فيه) أي في هذا التدبير وهو جعل الناس والانعام أزواجا ليكون بينهم توالد فانه كالمنبع للبث والتكثير فالضمير للاناسي والانعام بالتغليب واختلف في الكاف في قوله تعالى (ليس كمثله شيء) فجرى الجلال المحلي على انها زائدة لانه تعالى لا مثل له وجرى غيره على أنها ليست زائدة لانه اذا نفي عمن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى وحاصله كما قال التفتازاني ان قولنا ليس كذاته شيء وقولنا ليس كمثله شيء عبارتان كلاهما من معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته الاولى صريحا والثانية كناية مشتملة على مبالغة وهي أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل ألا ترى أن قولهم مثل الامير يفعل كذا ليس اعترافا بوجود المثل له فالمعنى هنا أن مثل مثله تعالى منفي فكيف بمثله وأيضا مثل المثل مثل فيلزم من نفيه نفيهما وقال البغوي المثل صلة أي ليس كهو شيء فأدخل المثل للتوكيد كقوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به اه وهذا كالتأويل الاول وقيل ان المراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله تعالى مثل الجنة فيكون المعنى ليس كصفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وأما قوله تعالى ولله المثل الاعلى فمعناه أن له الوصف الاعلى الذي ليس لغيره مثله ولا يشاركه فيه أحد (وهو) أي والحال أنه هو لا غيره (السميع البصير) أي الكامل في السمع والبصر بكل ما يسمع ويبصر (فان قيل) هذا يفيد الحصر مع أن العباد أيضا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين (أجيب) بأن السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال كما أن الكمال في كل الصفات ليس الا لله تعالى فهذا هو المراد من هذا الحصر (له) أي

وحده (مقاليد السموات والارض) أي خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الامطار والانبات وغيرهما وقد ثبت أنه ابتدعهما وأن له جميع ما فيهما مما اتخذ من دونه وليا وغيره قال القشيري والمفاتيح الخزائن وخزائنه هي مقدوراته اه ولما حصر الامر فيه دل عليه بقوله تعالى (يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) امتحانا (ويقدر) أي يضيقه لمن يشاء ابتلاء كما وسع على فارس والروم وضيق على العرب وفاوت في الافراد بين افراد من وسع عليهم ومن ضيق عليهم فدل ذلك قطعا على أنه لا شريك له وانه هو المتصرف وحده فتطمح بذلك افكار الموفقين من عباده عن غيره ليقبلوا عليه ويتفرغوا له فان عبادته هي المقاليد بالحقيقة استغفروا ربكم انه كان غفارا الآيات ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيآتهم ولادخلناهم جنات النعيم الآية ثم علل ذلك بقوله تعالى (انه بكل شئ عليم) أي فلا فعل له الا وهو جار على أتقن ما يكون من قوانين الحكمة فيفعله على ما ينبغي * ولما نظم وحيه الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ذكر تفصيل ذلك بقوله تعالى (شرع لكم) أي طرق وبين طريقا ظاهرا بينا واضحا لكم أيتها الامة الخاتمة من الطرق الظاهرة المستقيمة (من الدين) وهو ما يعمل فيجازى عليه (ما) الذي (وصى به) توصية عظيمة بعد اعلامه بأنه شرعه (نوحا) في الزمان الاقدم وهو أول أنبياء الشريعة قال مجاهد أوصيناك واياه يا محمد دينا واحدا (والذي أوحينا اليك) أي من القرآن وشرائع الاسلام (وما وصينا) أي بما لنا من العظمة الباهرة التي ظهرت بها تلك المعجزات (به ابراهيم) الذي نجيناه من كيد نمروذ بالنار وغيرها ووهبنا له على الكبر اسمعيل واسحق وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها (وموسى) الذي أنزلنا عليه التوراة موعظة وتفصيلا لكل شئ (وعيسى) الذي أنزلنا عليه الانجيل هدى ونورا وموعظة وادخرناه في سمائنا لتأييد شريعة الفاتح الخاتم صلى الله عليه وسلم * ثم بين المشروع الموصى به والموحى الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (أن أقيموا) أي أيها المشروع لهم من هذه الامة الخاتمة ومن الامم الماضية (الدين) وهو الايمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله تعالى ومحله النصب على البدل من مفعول شرع أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب وما ذلك المشروع أو الجر على البدل من هاء به ولما عظمه بالامر بالاجتماع أتبعه بالتعظيم بالنهي عن الافتراق بقوله تعالى (ولا تتفرقوا فيه) أي ولا تختلفوا في هذا الاصل أما فروع الشرائع المختلفة فقال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا قال قتادة الموصى به تحليل الحلال وتحريم الحرام وقال الحكم تحريم الامهات والبنات والاخوات وقال مجاهد لم يبعث الله تعالى نبيا الا وصاه باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والاقرار لله تعالى بالطاعة فذلك دينه الذي شرعه وقيل هو التوحيد والبراءة من الشرك ويجري على هذا الجلال المحلي والكل يرجع اليه (كبر) أي عظم وشق (على المشركين) حتى

ضاقت به صدورهم (ماتدعوهم اليه) أيها النبي الفاتح الخاتم من الاجتماع ابداعلى ماأجمعوا عليه وقت الاضطرار من وحدانية الواحد القهار فلاجل كبره عليهم هم يسعون في تفرقكم فان تفرقتم كنتم تابعتم العدو الحسود وخالفتم الولي الودود * ثم نبه تعالى على أن الامور كلها بيده بقوله تعالى (الله) الذي له مجامع العظمة ونفوذ الامر (يجتبي) أي يختار (اليه) أي الى هذا الدين الذي تدعوهم اليه (من يشاء) اجتباءه (ويهدى اليه) بالتوفيق للطاعة (من ينيب) أي من يقبل الى طاعته * ولما بين تعالى أمر كل الانبياء عليهم السلام والامم بالاخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل أن يقول فلماذا نجدهم متفرقين أجاب بقوله تعالى (وما تفرقوا) أي المشركون من قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم (الامن بعد ماجاءهم العلم) أي بالتوحيد أو ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم أو بأن التفرق ضلال متوعد عليه (بغيا بينهم) أي فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية على أن ذهبت كل طائفة الى مذهب ودعوا الناس اليه وقبحوا ماسواه طلبا للذكر والرياسة فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل الا أنه تعالى أخر عنهم العذاب لان لكل عذاب عنده أجلا مسمى أي وقتا معلوما وهذا معنى قوله تعالى (ولولا كلمة) أي لاتبديل لها (سبقت) أي في الازل (من ربك) أي المحسن اليك بجعلك خير الخلائق وامامهم بتأخيرهم (الى أجل مسمى) ضربه لآجالهم ثم يجمعهم في الآخرة (لقضى) على أيسر وجه وأسهله (بينهم) حين الافتراق باهلاك الظالم وانجاء المحق قال ابن عباس والذين أريدوا بهذه الصفة هم اليهود والنصارى لقوله تعالى في آل عمران وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم وقوله تعالى في سورة لم يكن وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءتهم البينة وكذلك في قوله تعالى (وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) أي المتفرقين هم اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هم هذه الامة الذين أورثوا القرآن ولما نسخ كتابهم ماتقدمه كان غيرهم كأنه مات فورثوه كما قال تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فكان حالهم في تمكنهم من التصرف في الكتاب بالحفظ والفهم وعدم المنازعة في ادعائه حال الوارث والموروث منه (لفي شك منه) أي من كتاب لايعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الايمان أو من القرآن فيقولون انه سحر وشعر وكهانة ونحو ذلك وقيل في شك من محمد صلى الله عليه وسلم وجرى على ذلك الجلال المحلى (مريب) أي موقع في التهمة (فلذلك) أي التوحيد (فادع) بأشرف الخلق الناس (واستقم) أي على الدعوة (كما أمرت) أي أمرك الله تعالى (ولا تتبع) أي بعمل (أهواءهم) في شيء ما فان الهوى لايدعو الى خير والمقصود من كل أحد أن يفعل ماأمر به (وقل) لجميع أهل الفرق وكل من يمكن له القول فانك أرسلت الى جميع الخلق (آمنت بما أنزل الله) أي الذي له العظمة الكاملة (من كتاب) أي جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض روى أن رجلا أتى عليا فقال يا أمير المؤمنين ما الايمان

أو كيف الايمان قال الايمان على أربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد والصبر على أربع شعب على الشوق والشفق والزهادة والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصائب ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات واليقين على أربع شعب تبصرة الفطنة وتأويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الاولين فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنة ومن عرف السنة فكأنما كان في الاولين والعدل على أربع شعب على غامض الفهم وزهرة الحلم وروضة العلم وعلم الحكم فمن فهم جمع العلم ومن علم لم يضل في الحكم ومن علم عرف شرائع الحلم ومن حلم لم يفرط أمره وعاش في الناس والجهاد على أربع شعب على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شد ظهره ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ومن صدق في المواطن قضى الذى عليه ومن شنئ الفاسقين غضب لله تعالى وغضب الله تعالى له فقام الرجل وقبل رأسه (وأمرت) أى ممن له الامر كله (لاعدل) أى لاجل أن أعدل (بينكم) أيها المفترقون في الاديان من العرب والعجم من الانس والجن ثم علل ذلك بقوله (الله) أى الذى له الملك كله (ربنا وربكم) أى موجدنا ومتولى جميع أمورنا فلهذا أمرنا بالعدل على سبيل العموم لان الكل عباده (لنا أعمالنا) خاصة بنا لا تعدونا الى غيرنا (ولكم أعمالكم) خاصة بكم لا تعدوكم الى غيركم فكل مجازى بعمله (لا حجة) أى لا خصومة (بيننا وبينكم) وهذا قبل أن يؤمر بالجهاد كما قاله الجلال المحلى وقال ابن الخازن هذه الآية منسوخة بآية القتال وكذا قال البغوى ولكن قال البيضاوى وليس في الآية ما يدل على متاركته رأسا حتى تكون منسوخة بآية القتال (الله) أى الذى هو أحكم الحاكمين (يجمع بيننا) أى في المعاد لفصل القضاء (واليه) أى لا الى غيره (المصير) أى المرجع حسا ومعنى لتمام عزته وشمول عظمته (والذين يحاجون في الله) أى يوردون تشكيكا في دين الملك الاعظم ليعيدوا الناس بعد ما دخلوا في نور الهدى الى ظلام الضلال (من بعد ما استجيب له) أى استجاب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فأظهر دينه على الدين كله قال قتادة هم اليهود قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم وتشكيكهم أو من بعد ما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم الناس فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته (حجتهم) أى التى زعموها حجة (داحضة) أى زائلة باطلة (عند ربهم) أى المحسن اليهم باضافة العقل الذى جعلهم به في أحسن تقويم وقال الرازى تلك المخاصمة هى أن اليهود قالوا ألستم تقولون ان الاخذ بالمتفق عليه أولى من الاخذ بالمختلف فيه فنبوة موسى عليه السلام وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست متفقا عليها فوجب الاخذ باليهودية فبين تعالى فساد هذه الحجة وذلك ان اليهود أجمعوا على انه انما وجب الايمان بموسى عليه السلام لاجل ظهور المعجزات على قوله وهاهنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد صلى الله عليه وسلم واليهود قد شاهدوا تلك المعجزات فان

كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فهنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان كان لايدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته بظهور المعجزات لانه يكون تناقضا *(تنبيه)* والذين يحاجون مبتدأ وحجتهم مبتدأ ثان وداحضة خبر المبتدأ الثاني والثاني وخبره خبر الاول وأعرب مكي حجتهم بدلا من الموصول بدل اشتمال * ولما قرر تعالى هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال (وعليهم) أي زيادة على قطع الاحسان (غضب) أي عقوبة تليق بحالهم المذموم ووصفهم المذموم ومنه الطرد فهم مطرودون عن بابه مبعدون عن جنابه مهانون بحجابه (ولهم) مع ذلك (عذاب شديد) في الآخرة لاتصلون الى حقيقة وصفه (الله) أي الذي له جميع الملك (الذي أنزل الكتاب) أي جنس الكتاب (بالحق) أي متلبسا على أكمل الوجوه بالامر الثابت الذي لا يبدل (والميزان) أي الشرع الذي توزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو العدل قال مجاهد سمي العدل ميزانا لان الميزان آلة للانصاف والتسوية وقال ابن عباس أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس فيجب على العاقل أن يجتهد في النظر والاستدلال ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد * ولما كان صلى الله عليه وسلم يهددهم بيوم القيامة ولم يروا لذلك أثرا قالوا على سبيل السخرية متى تقوم الساعة وليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمد وأصحابه قال تعالى (وما يدريك) أي يا أكمل الخلق (لعل الساعة) أي التي يستعجلون بها (قريب) وذكر قريب وان كان صفة لمؤنث لان الساعة في معنى الوقت أو البعث أو على معنى النسب أي ذات قرب أو على حذف مضاف أي مجيء الساعة قال مكي ولان تأنيثها مجازي وهذا ممنوع اذ لايجوز الشمس طالع ولا القدر فائر *(تنبيه)* لعل معلق للفعل عن العمل أي ما بعده سد مسد المفعولين ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الساعة وعنده قوم من المشركين وقالوا مستهزئين متى الساعة تقوم نزل قوله تعالى (يستعجل بها) أي يطلب أن تكون قبل الوقت المضروب لها (الذين لايؤمنون بها) أي لا يتجدد لهم ذلك أصلا وهم غير مشفقين منها ويظنون كذب القائل بها (والذين آمنوا) وان كانوا في أول درجات الايمان (مشفقون) أي خائفون خوفا عظيما (منها) لان الله تعالى هداهم بايمانهم فصارت صدورهم معادن المعارف وقلوبهم منابع الانوار فأيقنوا بما فيها من الاهوال الكبار فخافوا لالطافتهم أن يكونوا مع صلاحهم من أهل النار (ويعلمون أنها الحق) اعلاما بأنهم على بصيرة من أمرها فهم لا يستعجلون بها فالآية من الاحتباك ذكر الاستعجال أولا دليلا على حذف ضده ثانيا والاشفاق ثانيا دليلا على حذف ضده أولا *(فائدة)* روي ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم بصوت جهوري في بعض أسفاره فناداه يا محمد فقال له صلى الله عليه وسلم نحوا من صوته هاؤم فقال متى الساعة فقال له صلى الله عليه وسلم ويحك انها كائنة فما أعددت لها فقال حب الله تعالى وحب رسوله فقال أنت مع من أحببت والغرض انه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها ومن أحب الله تعالى ورسوله فعل ما أمرا به واجتنب ما نهيا عنه فهي المحبة الكاملة نسأل الله الكريم من فضله أن يوفقنا وأحبابنا لطاعته

واجتناب معاصيه (ألا ان الذين يمارون) أي يخاصمون ويجادلون (في الساعة) أي القيامة وما تحتوي عليه (لفي ضلال) أي ذهاب جائر عن الحق (بعيد) جدا عن الصواب فانّ لها من الادلة الظاهرة ما ألحقها بالمحسوسات كما قال القائل لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ولما أنزل الله عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة كان ذلك من لطف الله تعالى بعباده كما قال عز من قائل (الله) أي الذي له الامر كله (لطيف) أي بالغ في اللطف والعلم وايقاع الاحسان (بعباده) وقال ابن عباس حفي بهم وقال عكرمة بار بهم وقال السدي رفيق بهم وقال القشيري اللطيف العالم بدقائق الامور وغوامضها وقال الرازي هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي أما لطفه بالمؤمنين فواضح وأما الكافر فأقل لطفه به أنه لا يعاجله في الدنيا ولا يعذبه فوق ما يستحق في الاخرى وقال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم بدليل قوله تعالى (يرزق من يشاء) أي مهما شاء على سبيل من السعة والضيق او التوسعة لا مانع له من شيء من ذلك فكل من رزقه الله تعالى من مؤمن وكافر وذي روح فهو ممن يشاء الله تعالى أن يرزقه قال جعفر الصادق اللطف في الرزق من وجهين أحدهما انه جعل رزقك من الطيبات والثاني انه لم يدفعه اليك مرة واحدة (وهو القوي) أي القادر على ما يشاء (العزيز) فلا يقدر أحد أن يمنعه من شيء يريده ولما بين بهذا أن الرزق ليس الا بيده أتبعه ما يزهد في طلب رزق البدن ويرغب في رزق الروح فقال تعالى على سبيل الاستئناف (من كان) أي من شريف أو دني (يريد) أي بعمله (حرث الآخرة) أي أعمالها والحرث في اللغة الكسب (نزد له) أي بعظمتنا التي لا يقدر أحد على تحويلها (في حرثه) قال مقاتل بأن يعينه على الاعمال الصالحة ويضاعف بالواحدة عشرة الى ما شاء الله تعالى من الزيادة وقال الزمخشري انه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز (ومن كان) أي من قوي أو ضعيف (يريد) أي بعمله (حرث الدنيا) أي ارزاقها التي تطلب بالكد والسعي وتستغني به مكتفيا به مؤثرا له على الآخرة (نؤته منها) أي ما قسمناه له ولو تهاون به ولم يطلبه لاتاه وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بسكون الهاء واختلس قالون كسرة الهاء وعن هشام اختلاس الكسرة في الهاء والاشباع والباقون باشباع الكسرة (وما) أي والحال ان طالب الدنيا بعمله ما (له في الآخرة من نصيب) لان الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وروى أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بشر هذه الامة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكن في الارض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب أي لان هذا تهاون بالآخرة فلم ينوها وهي أشرف من أن تقبل على من أعرض عنها فانها ضرة الدنيا وضدها فالدنيا بخساستها تقبل على من أعرض عنها وتبعد عمن أقبل عليها حتى تهلكه في مهاويها والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضعاف اقباله وتنادي من أدبر عنها المنتهي عن غيه وضلاله فلما سمى الله تعالى كلا القسمين حرثا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب وصرف هذه المتاعب الى ما يكون في الزائد الباقي أولى من صرفها لما يكون

فى التناقص والانقضاء قال الرازى فى اللوامع أهل الارادة على أصناف مريد الدنيا ومريد
الآخرة ومريد الحق جل وعلا وعلامة ارادة الدنيا ان يرضى فى زيادة دنياه بنقص دينه
والاعراض عن فقراء المسلمين وان تكون حاجاته فى الدنيا مقصورة على الدنيا وعلامة ارادة
الآخرة بعكس ذلك وأما علامة ارادة الله تعالى كما قال تعالى يريدون وجهه فطرح الكونين
والعزلة عن الخلق والخلاص من يد النفس انتهى وحاصله أن يستغرق أوقاته فى التوفية
بحقوق الحق وحقوق الخلق وتزكية النفس لا طمعا فى جنة ولا خوفا من نار بل امتثالا لاجل
الملك الاعلى لانه أهل لذلك مع اعترافه بأنه لن يقدر الله تعالى حق قدره ولما بين تعالى أعمال
الآخرة والدنيا اتبعه بيان ما هو الاصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال تعالى (أم) أى بل
(لهم) أى كفار مكة (شركاء) أى على زعمهم وهم شياطينهم (شرعوا) أى سنوا بالتزيين
(لهم) أى الكفار (من الدين) أى الفاسد فى العبادات والعادات (ما لم يأذن به الله) أى
الملك الذى لا أمر لاحد معه كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم
وانما أضيفت اليهم لانهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ولما كانت سببا لضلالهم جعلت شارعة
لدين ضلالتهم كما قال ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس وقال ابن عباس
شرعوا لهم دينا غير دين الاسلام (ولولا كلمة الفصل) أى القضاء السابق بتأخير الجزاء أو ولولا
الوعد بأن الفصل يكون بينهم يوم القيامة (لقضى بينهم) أى بين الذين امتثلوا أمره والتزموا
شرعه وبين الذين اتبعوا ما شرعوه لمن سموهم شركاء فى أقرب وقت ولكنه قد سبق القضاء فى
الازل بمقادير الاشياء وتحديدها على وجوه الحكمة فهى تجرى على ما حداها لا يتقدم شئ منها
ولا يتأخر ولا يتبدل ولا يتغير وستنكشف لهم الامور وتظهر مخبآت المقدور فلا يقع الفصل
الا فى الآخرة كما سبق به القضاء (وان الظالمين) بشرع ما لم يأذن به الله من الشرك وغيره
(لهم عذاب أليم) أى مؤلم بليغ ايلامه ثم انه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل
الثواب مبتدئا بالاول منهما بقوله تعالى (ترى) أى فى ذلك اليوم (الظالمين) أى الواضعين
الاشياء فى غير مواضعها (مشفقين) أى خائفين أشد الخوف كما هو حال من يحاسبه من هو
أعلى منه وهو مقصر (مما كسبوا) أى عملوا معتقدين انه غاية ما ينفعهم (وهو) أى
جزاؤه ووباله الذى من جنسه حتى كأنه هو (واقع بهم) لا محالة سواء أشفقوا أم لم يشفقوا ثم ذكر
الثانى بقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهى التى أذن الله تعالى فيها غير خائفين
مما كسبوا لانهم مأذون لهم فى فعله وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه (فى روضات الجنات) أى
فى الدنيا عما يلذذهم به الله تعالى من لذائذ الاقوال والافعال والمعارف والاحوال وفى الآخرة
حقيقة بلا زوال وروضة الجنة أطيب بقعة فيها وفيه تنبيه على أن عصاة المؤمنين من أهل الجنة
لانه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم فى روضات الجنات وهى البقاع الشريفة من
الجنة فالبقاع التى دون تلك الروضات لا بد وان تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وقوله تعالى (لهم ما يشاؤون عند ربهم) يدل على ان تلك الاشياء حاضرة عنده

مهيأة والعندية مجاز *(تنبيه)* عندربهم يجوز أن يكون ظرفا ليشاؤن قاله الحوفي أوللاستقرار والعامل في لهم قاله الزمخشري وقوله تعالى (ذلك) أى الخير العظيم الرتبة الجليل القدر (هو الفضل الكبير) أى الذى يصغر ما لغيرهم في الدنيا يدل على أن الجزاء المرتب على العمل انما حصل بطريق الفضل من الله تعالى لا بطريق الوجوب والاستحقاق وقوله تعالى (ذلك) أى الجزاء العظيم من الجنة ونعيمها مبتدأ خبره (الذى يبشر الله) أى الملك الاعظم والعائد وهو به محذوف تفخيما للمبشر به لان السياق لتعظيمه بالاشارة وبجعلها بأداة البعد وبالوصف بالذى وذكر الاسم الاعظم والتعبير بلفظ العباد في قوله تعالى (عباده) مع الاضافة الى ضميره سبحانه * ولما أشعر بصلاحهم بالاضافة نص عليه بقوله تعالى (الذين آمنوا) أى صدقوا بالغيب (وعملوا) تحقيقا لايمانهم (الصالحات) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الياء وفتح الباء الموحدة وكسر الشين مشددة والباقون بفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم الشين مخففة من بشره * ولما كان كأنه قيل فما الطلب في هذه البشارة لان الغالب أن المبشر وان لم يسأل يعطى بشارته كما وقع لكعب لما أذن الله تعالى بتوبته ركض راكض على فرس وسعى ساع على رجليه فأوفى على جبل سلع ونادى يا كعب بن مالك أبشر فقد تاب الله عليك فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءه الذى سمع صوته خلع عليه ثوبيه وهو لا يملك يومئذ غيرهما واستعار له ثوبين قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل) أى لمن توهم فيك ما جرت به عادة المبشرين (لا أسألكم) أى الآن ولا في مستقبل الزمان (عليه) أى البلاغ بشارة أو نذارة (أجرا) أى وان قل (الا) أى لكن أسألكم (المودة) أى المحبة العظيمة الواسعة (في القربى) أى مظروفة فيها بحيث تكون القربى موضعا للمودة وظرفا لها لا يخرج شئ من محبتكم عنها *(تنبيه)* في الآية ثلاثة أقوال أولها قال الشعبي أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولده وكان له فيهم قرابة فقال الله عز وجل قل لا أسألكم عليه أجرا على ما أدعوكم اليه الا أن تودوا القربى اى تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة والمعنى انكم قربي وأحق من أجابني وأطاعني فاذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى وصلوا رحمي ولا تؤذوني والى هذا ذهب مجاهد وقتادة وغيرهما ثانيها روى الكلبي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس في يده سعة فقالت الانصار ان هذا الرجل هداكم وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه بها فردها عليهم ونزل قوله تعالى قل لا أسألكم عليه أى على الايمان أجرا الا المودة في القربى أى لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم قاله سعيد بن جبير وعمرو ابن شعيب ثالثها قال الحسن معناه الا أن تودوا الله تعالى وتتقربوا اليه بالطاعة والعمل الصالح فالقربى على القول الاول القرابة التى بمعنى الرحم وعلى الثاني بمعنى الاقارب وعلى الثالث فعلى بمعنى القرب والتقرب والزلفى (فان قيل) طلب الاجر على تبليغ الوحي لا يجوز

لوجوه أحدها أنه تعالى حكى عن أكثر الانبياء التصريح بنفي طلب الاجر فقال تعالى في قصة نوح وما أسألكم عليه من أجر الآية وكذا في قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ورسولنا أفضل الانبياء فأن لا يطلب الاجر على النبوة والرسالة أولى ثانيها انه صلى الله عليه وسلم صرح بنفي طلب الاجر فقال قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقل ما سألتكم من أجر فهو لكم ثالثها أن التبليغ كان واجبا عليه قال تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية وطلب الاجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء رابعها أن النبوة أفضل من الحكمة وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ووصف الدنيا بأنها متاع قليل قال تعالى قل متاع الدنيا قليل فكيف يحسن بالعقل مقابلة أشرف الانبياء بأخس الاشياء خامسها أن طلب الاجر يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحة النبوة فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجرا البتة على التبليغ والرسالة وههنا قد ذكر ما يجري مجرى طلب الاجر وهو المودة في القربى (أجيب) بأنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الاجر على التبليغ وأما قوله تعالى الا المودة في القربى فالجواب عنه من وجهين الاول أن هذا من باب قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

يعني أني لا أطلب منكم الا هذا وهذا في الحقيقة ليس أجرا لان حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وقال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا والآيات والاخبار في هذا كثيرة واذا كان حصول المودة بين المسلمين واجبا فحصولها في حق أشرف المرسلين أولى فقوله الا المودة في القربى تقديره والمودة في القربى ليست أجرا فرجع الحاصل الى أنه لا أجر البتة * الثاني أن هذا استثناء منقطع كما مر تقديره في الآية وتم الكلام عند قوله قل لا أسألكم عليه أجرا ثم قال الا المودة في القربى أي أذكركم قرابتي فيكم فكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر واختلفوا في قرابته صلى الله عليه وسلم فقيل هم فاطمة وعلي وأبناؤهما وفيهم نزل انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وروى زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اني تارك فيكم كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي قيل لزيد بن أرقم فمن أهل بيتي فقال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وروى ابن عمر عن أبي بكر رضي الله عنه قال ارقبوا محمدا في أهل بيته وقيل هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخمس وهم بنو هاشم وبنو المطلب الذين لم يفترقوا جاهلية ولا اسلاما وقيل هذه الآية منسوخة واليه ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل قال البغوي وهذا قول غير مرضي لان مودة النبي صلى الله عليه وسلم وكف الأذى عنه ومودة أقاربه والتقرب الى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين * ولما كان التقدير فمن يقترف سيئة فعليه وزرها ولكنه طوى لان المقام للبشارة كما يدل عليه ختم الآية عطف عليه قوله تعالى (ومن يقترف) أي يكتسب

ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج (حسنة) أى ولو صغرت (نزد) بما لنا من العظمة (له فيها) أى فى الحسنة (حسنا) أى بمضاعفة الثواب ومن الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدى به فيها الى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شئ قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقيل المراد بها العموم فى أى حسنة كانت الا أنها لما ذكرت عقب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد فى تلك المودة (ان الله) أى الذى لا يتعاظمه شئ (غفور) لكل ذنب تاب منه صاحبه وكان غير الشرك وان لم يتب منه ان شاء فلا يصدن أحدا سيئة عملها عن الاقبال على الحبيب (شكور) أى فهو يجزى بالحسنة أضعافها وان قلت والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن الى المطيعين فى ايصال الثواب اليهم وفى أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضيل * ثم ذكر الله تعالى الجواب عن طعن الكفرة فى النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (أم) أى بل (يقولون افترى) أى محمد صلى الله عليه وسلم (على الله) الذى أحاط بصفات الكمال فله العلم الشامل لمن يتقول عليه والقدرة التامة على عقابه (كذبا) حين زعم أن هذا القرآن من عنده وأنه أرسله بهذا الدين (فان يشأ الله) أى الذى له الاحاطة بالكمال (يختم) أى يربط (على قلبك) بالصبر على أذاهم بهذا القول وغيره وقد فعل وقال قتادة يعنى يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما آتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله كذبا لفعل به ما أخبر عنه فى هذه الآية أى أنه لا يجترئ على افتراء الكذب الا من كان فى هذه الحالة والمقصود من هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ومثاله أن ينسب رجل بعض الامناء الى الخيانة فيقول الامين ذلك لعل الله خذلنى أعمى قلبى وهو لا يريد اثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وانما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه وقوله تعالى (ويمح الله) أى الذى له الامر كله (الباطل) وهو قولهم افترى مستأنف غير داخل فى جزاء الشرط لانه تعالى يمحو الباطل مطلقا وسقطت الواو منه لفظا لالتقاء الساكنين فى الدرج وخطا حملا للخط على اللفظ كما كتبوا سندع الزبانية عليه وأما الحق فانه ثابت شديد مضاعف فلذا قال (ويحق) أى يثبت على وجه لا يمكن زواله (الحق) أى كل ما من شأنه الثبات لانه أذن فيه وأقره (بكلماته) أى التى لو كان البحر مدادا لها لنفد وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم وأعلى كلمة الاسلام عليهم (انه عليم) أى بالغ العلم (بذات الصدور) أى ماهو فيها مما يعلمه صاحبها أو مما لا يعلمه فيبطل باطله ويثبت حقه وان كره الخلائق ذلك ولتعلمن نبأه بعد حين ولقد صدق الله تعالى فأثبت ببركة هذا القرآن كل ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم وأبطل بسيف هذا البرهان كل ما كانوا يخالفونه فيه ومن أصدق من الله قيلا قال ابن عباس لما نزل قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وقع فى قلوب قوم منها شئ وقالوا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبريل عليه السلام فأخبره أنهم اتهموه فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فانا نشهد أنك صادق فنزل (وهو) أى لا غيره (الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه سئل أبو الحسن البوشنجى عن التوبة فقال اذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة فى قلبك وروى جابر أن أعرابيا دخل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال

اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله تعالى عنه يا هذا ان سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين فقال يا أمير المؤمنين ما التوبة قال اسم يقع على ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية واذابتها فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته وقال سهل بن عبد الله التوبة الانتقال من الاحوال المذمومة الى الاحوال المحمودة وقال بعضهم هى الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على أن لا يعود اليه فى المستقبل وعن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يا أيها الناس توبوا الى الله فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة وعن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله جعل فى المغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها وروى أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ولما كان القبول قد يكون فى المستقبل مع الاخذ عما مضى قال الله تعالى تفضلا منه ورحمة (ويعفو عن السيئات) أى التى كانت التوبة منها صغيرة كانت أو كبيرة وعن غيرها فلا يؤاخذ بها ان شاء لان التوبة تجب ما قبلها كما أن الاسلام الذى هو توبة خاصة يجب ما كان قبله وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان هو وراحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فايس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك اذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح (ويعلم) أى والحال أنه يعلم كل وقت (ما تفعلون) فيجازى ويتجاوز عن اتقان وحكمة وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتاء الخطاب اقبالا على الناس عامة وهذا خطاب للمشركين وقرأ الباقون بالغيبة نظرا الى قوله تعالى عن عباده وقال تعالى بعد ويزيدهم من فضله ولما رغب بالعفو زاد بالاكرام فقال تعالى (ويستجيب) أى يوجد بغاية العناية والطلب اجابة (الذين آمنوا) أى دعاء الذين أقروا بالايمان فى كل ما دعوا به أو شفعوا عنده فيه لانه لولا ارادته لهم الاكرام بالايمان ما آمنوا وعدى الفعل بنفسه ولم يقل ويستجيب للذين آمنوا تنبيها على زيادة برهم ووصلهم به (وعملوا) تصديقا لدعواهم الايمان (الصالحات) فيثيبهم النعيم المقيم (ويزيدهم) أى مع ما دعوا به ما لم يدعوا به ولم يخطر على قلوبهم (من فضله) أى تفضلا منه عليهم ويجوز أن يكون الموصول فاعلا أى يجيبون ربهم اذا دعاهم كقوله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم واستجاب كأجاب ومنه

وداع دعا يا من يجيب الى الندا • فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما معناه ويثيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات

ويزيدهم من فضله سوى ثواب أعمالهم تفضلا منه وروى أبو صالح عنه يشفعهم ويزيدهم من فضله قال فى اخوان اخوانهم ثم أتبع المؤمنين بذكر ضدهم فقال تعالى (والكافرون) أى العريقون فى هذا الوصف القاطع الذين منعتهم عراقتهم من التوبة والايمان (لهم عذاب شديد) بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل ولا يجيب دعاءهم وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فالآية من الاحتباك ذكر الاستجابة أولا دليلا على ضدها ثانيا والعذاب ثانيا دليلا على ضده أولا * ولما قال تعالى انه يجيب دعاء المؤمنين ورد سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يظهر أثر الاجابة فكيف الجمع بينه وبين قوله تعالى ويستجيب الذين آمنوا فأجاب تعالى عنه بقوله تعالى (ولو) أى وهو يقبل ويستجيب والحال أنه لو (بسط الله الرزق) لهم هكذا كان الاصل لكن قال (لعباده) لئلا يظن خصوصية ذلك بالتائبين اذ لا فرق بين التائب وغيره (لبغوا) أى طغوا (فى الارض) أى لصاروا يريدون كل ما يشتهون فيكثر القتل والسلب والنهب ونحو ذلك من أنواع الفساد قال خباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية وذلك انا نظرنا الى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع وتمنيناها فنزلت وذكر فى كون بسط الرزق موجبا للطغيان وجوه الاول ان الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل امتنع كون البعض محتاجا الى البعض وذلك موجب خراب العالم وتعطيل المصالح ثانيها أن هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلا ومن العشب ما يشبعهم قدموا على النهب والغارة ثالثها أن الانسان متكبر بالطبع فان وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية وهو التكبر واذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر وعاد الى التواضع والطاعة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ومركبا بعد مركب وملبسا بعد ملبس (ولكن ينزل) أى لعباده من الرزق وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاى والباقون بفتح النون وتشديد الزاى (بقدر) أى بتقدير لهم (ما يشاء) أى ما اقتضته مشيئته (انه) وقال تعالى (بعباده) ولم يقل بهم لئلا يظن ان الامر خاص بمن وسع عليهم أو ضيق عليهم (خبير بصير) يعلم جميع ظواهر أمورهم وبواطنها فيقيم كل أحد فيما يصلح له من صلاح وفساد وعدل وبغى روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله عز وجل فى حديث طويل وفيه يقول الله عز وجل ما ترددت فى شئ أنا فاعله ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الغنى ولو أفقرته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الفقر ولو أغنيته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا الصحة ولو اسقمته لافسده ذلك وان من عبادى المؤمنين من لا يصلح ايمانه الا السقم ولو أصححته لافسده ذلك وذلك انى أدبر أمر عبادى بعلمى بقلوبهم انى عليم خبير وقرأ ما يشاء انه نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالياء ولهم أيضا ابدالها واوا والباقون بتحقيقهما واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والقصر والروم والاشمام (وهو)

أى لا غيره (الذى ينزل الغيث) أى المطر الذى يغاث به الناس وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وتشديد الزاى والباقون بسكون النون وتخفيف الزاى (من بعد ما قنطوا) أى يئسوا من نزوله وعلموا أنه لا يقدر على انزاله غيره ولا يقصد فيه سواه ليكون ذلك أدعى لهم الى الشكر وقال تعالى (وينشر رحمته) أى يبسط مطره كما قال تعالى وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته وان كان الاصل بنشره لانه بين أنه غيث فقال رحمته بيانا وتعميما فينزل من السحاب المحمول بالريح من الماء ما لو اجتمع عليه الخلائق ما أطاقوا عمله فتصبح الارض ما بين غدران وأنهار ونبات نجم وأشجار وزهر وحب وثمار وغير ذلك من المنافع الصغار والكبار فلله ما أعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة فيخرج من الارض التى هى من صلابتها تعجز عنها المعاول نجما هو فى لينه ألين من الحرير وفى لطافته ألطف من النسيم ومن سوف الاشجار التى تنثنى فيها المناقير أغصانا ألطف من ألسنة العصافير فيا أجلف من ينكر اخراجه الموتى من القبور أو يحيد عن ذلك بنوع من الغرور (وهو) أى لا غيره (الولى) الذى لا أحد أقرب منه الى عباده فى شئ من الاشياء (الحميد) الذى يستحق مجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائما بحبله (ومن آياته) أى العظيمة على استحقاقه لجميع صفات الكمال (خلق السموات) التى تعلمون أنها متعددة لما ترون من أمور الكواكب (والارض) أى جنسها على ما هما عليه من الهيآت وما اشتملا عليه من المنافع والخيرات وقوله تعالى (وما بث) أى فرق ونشر يجوز أن يكون مجرور المحل عطفا على السموات أو مرفوعه عطفا على خلق على حذف مضاف أى وخلق ما بث قال أبو حيان وفيه نظر لانه يؤول الى جره بالاضافة لخلق المقدر فلا يعدل عنه (فيهما) أى فى السموات والارض (من دابة) أى شئ فيه أهلية الدبيب بالحياة والحركة من الانس والجن والملائكة وسائر الحيوانات على اختلاف ألوانهم وأصنافهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وأقطارهم ونواحيهم (فان قيل) كيف يجوز اطلاق الدابة على الملائكة (أجيب) بوجوه أولها ما مر من أن الدابة عبارة عما فيه الروح والحركة والملائكة لهم الروح والحركة ثانيها أنه قد يضاف الفعل الى جماعة وان كان فاعله واحدا منهم ومنه قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ثالثها قال ابن عادل لا يبعد ان يقال انه تعالى خلق فى السموات أنواعا من الحيوانات يمشون مشى الاناسى على الارض وروى العباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش الحديث (وهو) أى لا غيره (على جمعهم) أى هذه الدواب من ذوى العقول وغيرهم للحشر بعد تفريقهم بالقلوب والابدان بالموت وغيره (اذا) أى وقت (يشاء قدير) أى بالغ القدرة كما كان بالغ القدرة عند الايجاد من العدم يجمعهم فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ثم خاطب المؤمنين بقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) أى بلية وشدة (فبما كسبت أيديكم) أى من الذنوب وقرأ نافع وابن عامر بغير فاء والباقون بالفاء لان ما شرطية

أو مضمنة معناه وأما من أسقطها فقد استغنى بما في الباء من معنى السببية (فان قيل) الكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة بها (أجيب) بأن المراد من لفظ اليد ههنا القدرة واذا كان هذا المجاز مشهورا مستعملا كان لفظ اليد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيها لله تبارك وتعالى عن الاعضاء واختلفوا فيما يحصل في الدنيا من الآلام والاسقام والقحط والغرق والمصائب هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أولا فمنهم من أنكر ذلك لوجوه أولها قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت بين تعالى ان ذلك انما يحصل يوم القيامة وقال تعالى مالك يوم الدين أى يوم الجزاء وأجمعوا أن المراد منه يوم القيامة ثانيها مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق فيمتنع أن تكون عقوبة على الذنوب بل حصول المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل ثالثها ان الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار تكليف ودار جزاء معا وهو محال وقال آخرون هذه المصائب قد تكون أجزية على ذنوب متقدمة لهذه الآية ولما روى الحسن قال لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق الا بذنب وما يعفو الله أكثر وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أصابكم من مصيبة الآية قال صلى الله عليه وسلم وسأفسرها لك يا على ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا الله عنه فى الدنيا فانه أحلم من أن يعود بعد عفوه وتمسكوا أيضا بقوله تعالى بعد هذه الآية أو يوبقهن بما كسبوا وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك بسبب كسبهم قيل لابى سليمان الدارانى ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساء اليهم قال انهم علموا أن الله تعالى انما ابتلاهم بذنوبهم وقرأ هذه الآية وأجاب الاولون بأن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان فى التكليف لا من باب العقوبة كما فى حق الانبياء والاولياء بل ذلك لزيادة درجات وفضائل وخصوصيات لا يصلون اليها الا بها لان أعمالهم لم تبلغها فهى خير من الله تعالى لهم ويحمل قوله تعالى فبما كسبت أيديكم على ان الاصلح عند اتيانكم بذلك الكسب انزال هذه المصائب عليكم (ويعفو عن كثير) أى من الذنوب بفضله ورحمته فلا يعاقب عليها ولولا عفوه وتجاوزه ما ترك على ظهرها من دابة قال الواحدى بعد أن روى حديث على وهذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى لان الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفر عنهم بالمصائب وصنف عفا عنهم فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه فهذه سنة الله تعالى مع المؤمنين وأما الكافر فانه لا تعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة (وما أنتم بمعجزين) أى فائتين ما قضى عليكم من المصائب فى الارض (وما لكم من دون الله) ولا فى شئ أراده سبحانه منكم كائنا ما كان (من ولى) أى يكون متوليا لشئ من أموركم بالاستقلال (ولا نصير) يدفع عنكم شيأ يريده سبحانه بكم (ومن آياته) أى الدالة على تمام قدرته واختياره ووحدانيته (الجوارى) أى

السفن الجارية (في البحر كالاعلام) أي كالجبال قالت الخنساء في مرثية أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

أي جبل في رأسه نار شبهت به أخاها روي أن النبي صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي هذا البيت قال قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت في رأسه نارا وقال مجاهد الاعلام القصور واحدها علم وقال الخليل بن أحمد كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم (فان قيل) الصفة متى لم تكن خاصة بموصوفها امتنع حذف الموصوف فلا تقول مررت بماش لان المشي عام وتقول مررت بمهندس وكاتب والجري ليس من الصفات الخاصة فما وجه ذلك (أجيب) بأن قوله تعالى في البحر قرينة دالة على الموصوف فلذلك حذف ويجوز أن تكون هذه صفة غالبة كالابطح والابرق فوليت العوامل دون موصوفها وقرأ نافع وأبو عمرو باثبات الياء وصلا لا وقفا وابن كثير وهشام باثباتها وقفا بخلاف عن هشام والباقون بحذفها وقفا ووصلا وأمال الجواري محضة الدوري عن الكسائي وفتح الباقون (ان يشأ) أي الله الذي جعلكم فيها على ظهر الماء آية بينة سقط اعتبارها عندكم لشدة الفكم لها (يسكن الريح) الذي يسيرها وأنتم مقرون بأن أمرها ليس الا بيده وقرأ نافع بألف بعد الياء جمعا والباقون بغير ألف افرادا (فيظللن) أي فيتسبب عن ذلك أنهن يظللن أي يقمن ليلا كان أو نهارا (رواكد) أي ثوابت لا تجري (على ظهره) أي البحر (ان في ذلك) أي ما ذكر في حال السفن في سيرها وركوبها بما لا يقدر عليه الا الله تعالى بدليل ما للناس كافة من الاجماع على التوجه في ذلك اليه خاصة والانخلاع عما سواه (لآيات) أي على احاطته سبحانه بجميع صفات الكمال (لكل صبار) أي على البلاء والشدة (شكور) أي على نعمائه وهو المؤمن الكامل يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (أو) أي أو يشأ في كل وقت أراده (يوبقهن) أي يهلكهن بعصف الريح بأهلهن (بما كسبوا) أي أهلهن من الذنوب (ويعفو) أي ان يشأ (عن كثير) من ذنوبهم فلا يعاقب فينجيهم بعوم أو حمل على خشبة أو غير ذلك وان يشأ يرسل الريح طيبة فينجيها ويبلغها أقصى المراد الى غير ذلك من التقادير الداخلة تحت المشيئة وقوله تعالى (ويعلم) قرأه نافع وابن عامر برفع الميم مستأنفا والباقون بالنصب معطوف على تعليل مقدر أي ليغرقهم لينتقم منهم وليعلم (الذين يجادلون) أي عند النجاة بالعفو (في آياتنا) أي يكذبون القرآن أي علم ظهور للناس (ما لهم من محيص) أي مهرب من العذاب وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم أو النفي معلق عن العمل وقوله تعالى (فما أوتيتم) خطاب للمؤمنين وغيرهم (من شيء) أي من أثاث الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا) أي القريبة الدنية لا نفع فيه لاحد الا مدة حياته وذلك جدير بالاعراض عنه وعما يسببه من الاعمال الا ما يقرب الى الله تعالى (وما) أي والذي (عند الله) أي الملك الاعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلما من نعم الدارين (خير) أي في نفسه وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضة لانقطاع نفعها فسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته وجعله من متاع الدنيا تنبيها على انقراضه وأما

الآخرة فهي خير (وأبقى) والباقي خير من الخسيس الفاني * ثم بين تعالى أن هذه الخيرية انما تحصل لمن كان موصوفا بصفات الصفة الاولى قوله سبحانه وتعالى (للذين آمنوا) أى أوجدوا هذه الحقيقة (وعلى) أى والحال أنهم على (ربهم) أى الذى لم يروا احسانا قط الا منه وحده عمار باهم من الاخلاص (يتوكلون) أى يحملون جميع أمورهم عليه كما يحمل غيرهم متاعه على من يتوهم منه قوة على الحمل ولا يلتفتون فى ذلك الى شئ غيره أصلا لينتفى عنهم بذلك الشرك الخفى كما انتفى بالايمان الشرك الجلى وهذا رد على من زعم أن الطاعة توجب الثواب لانه يتوكل على عمل نفسه لا على الله تعالى فلا يدخل تحت الآية الصفة الثانية قوله عز وجل (والذين يجتنبون) أى يكلفون أنفسهم أن يجانبوا (كبائر الاثم) أى جنس الفعال الكبائر التى لا توجد الا فى ضمن افرادها ويحصل بها دنس النفس فيوجب عقابها مع الجسم وعطف على كبائر قوله تعالى (والفواحش) وهى ما أنكره الشرع والعقل والطبع ؛ فالكبائر كل ذنب تعظم عقوبته كالقتل والزنا والسرقة والفواحش ما عظم قبحه من الاقوال والافعال وقال مقاتل ما يوجب الحد وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة النساء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الباء الموحدة قبل الياء الساكنة وهى للجنس فهى بمعنى قراءة الجمع كما قرأ الباقون بفتح الموحدة وألف بعدها وبعد الالف همزة مكسورة والاولى أبلغ لشمولها المفردة الصفة الثالثة قوله تبارك وتعالى (واذا ما غضبوا) أى غضبا هو على حقيقته من أمر مغضب فى العادة وبين بضمير الفصل أن بواطنهم فى غفرهم كظواهرهم فقال تعالى (هم يغفرون) أى هم الاخصاء والاحقاء بأنهم كلما تجدد لهم غضب جددوا غفرا أى محو الذنوب عينا وأثرا مع القدرة على الانتقام فسجاياهم تقتضى الصفح دون الانتقام ما لم يكن من الظالم بغى لانه لا يؤاخذ على مجرد الغضب الا متكبر والتكبر لا يصلح لغير الاله وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط الا أن تنتهك حرمات الله تعالى وروى ابن أبى حاتم عن ابراهيم النخعى قال كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا اذا قدروا غفروا الصفة الرابعة قوله تعالى (والذين استجابوا) أى أوجدوا الاجابة بما لهم من العلم الهادى الى سبيل الرشاد (لربهم) أى الداعى لهم الى اجابة احسانه اليهم قال الرازى المراد من هذا تمام الانقياد (فان قيل) أليس أنه لما جعل الايمان فيه شرطا فقد دخل فى الايمان اجابة الله تعالى (أجيب) بأنه يحمل هذا على الرضا بقضاء الله تعالى من صميم القلب وأن لا يكون فى قلبه منازعة الصفة الخامسة قوله سبحانه وتعالى (وأقاموا) أى أداموا (الصلاة) الواجبة (وأمرهم) أى كل ما ينوبهم مما يحوجهم الى تدبير (شورى بينهم) أى يتشاورون فيه مشاورة عظيمة مبالغين بما لهم من قوة الباطن ولا يعجلون فى أمورهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور الصفة السادسة قوله تعالى (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم بعظمتنا من غير حول منهم ولا قوة (ينفقون) أى يديمون الانفاق فى سبيل الله تعالى كرما منهم وان قل ما بأيديهم اعتمادا على فضل الله تعالى لا يقبضون أيديهم كالمنافقين (والذين اذا أصابهم البغى) أى وقع بهم وأثر فيهم وهو التمادى على الرمى بالشر (هم ينتصرون)

أى ينتقمون ممن ظلمهم عند ظلمه كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سميت الثانية سيئة لمشابهتها للاولى فى الصورة قال مقاتل يعنى القصاص وهى الجراحات والدماء وقال مجاهد والسدى هو جواب القبيح اذا قال أخزاك الله يقول أخزاك الله واذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدى قال سفيان بن عيينة سألت سفيان الثورى عن ذلك فقال ان شتمك رجل فتشتمه أو يفعل كذا فتفعل به فلم أجد عنده شيأ فسألت هشام بن حجر عن ذلك فقال الجارح اذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك وتشتمه وقد تكفلت هذه الجمل بأمهات الفضائل الثلاث العلم والعفة والشجاعة على أحسن الوجوه فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء الى العلم وبالنفقة الى العفة وبالانتصار الى الشجاعة حتى لا يظن أن اذعانهم للمضى مجرد ذل والقصر على المماثلة دعاء الى فضيلة التقسيط بين الكل وهى العدل وهذه الاخيرة كافلة بالفضائل الثلاث فان من علم المماثلة كان عالما ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفا ومن قسر نفسه على ذلك كان شجاعا وقد ظهر من المدح بالانتصار بعد المدح بالغفران أن الاول للعاجز والثانى للمتغلب المتكبر بدليل البغى (فان قيل) هذه الآية مشكلة لوجهين الاول انه لما ذكر قبله واذا ما غضبوا هم يغفرون كيف يليق أن يذكر معه ما يجرى مجرى الضد له وهو والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون الثانى أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وقال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (أجيب) بأن العفو على قسمين أحدهما أن يصير العفو سببا لتسكين الفتنة ورجوع الجانى عن جنايته والثانى أن يصير العفو سببا لمزيد جراءة الجانى وقوة غيظه وغضبه فآيات العفو محمولة على القسم الاول وهذه الآية محمولة على القسم الثانى وحينئذ يزول التناقض روى أن زينب أقبلت على عائشة تشتمها فنهاها النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم سبيها وأيضا فانه تعالى لم يرغب فى الانتصار بل بين أنه مشروع فقط ثم بين أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة بقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ثم بين أن العفو أولى بقوله تعالى (فمن عفا) أى باسقاط حقه كله أو بالنقص منه لتحقق البراءة عما حرم من المجاوزة (وأصلح) أى أوقع الاصلاح بين الناس بالعفو والاصلاح لنفسه ليصلح الله ما بينه وبين الناس فيكون بذلك منتصرا من نفسه لنفسه (فأجره على الله) أى المحيط بجميع صفات الكمال فهو يعطيه على حسب ما يقتضيه مفهوم هذا الاسم الاعظم وهذا سر لفت الكلام اليه عن مظهر العظمة وقوله صلى الله عليه وسلم ما زاد الله بعفو الاعزا (انه لا يحب الظالمين) أى لا يكرم الواضعين للشئ فى غير محله فيترتب عليهم عقابه (ولمن انتصر) أى سعى فى نصر نفسه بجهده (بعد ظلمه) أى بعد ظلم الغير له وليس قاصدا التعدى عن حقه ولو استغرق انتصاره جميع زمان التعدى (فأولئك) أى المنتصرون لاجل دفع الظالم عنهم (ما عليهم) وأكد باثبات الجار فقال تعالى (من سبيل) أى عتاب ولا عقاب لانهم فعلوا ما أبيح لهم من الانتصار روى النسائى عن عائشة قالت ما علمت حتى دخلت على زينب وهى غضبى فأقبلت على فأعرضت

عنها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم دونك فانتصري فاقبلت عليها حين رأيتها قد يبس ريقها في فيها ما ترد على شيئا فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه واحتجوا بهذه الآية على أن سراية القود مهدورة لانه فعل مأذون فيه فيدخل تحت هذه الآية (انما السبيل) أي الطريق السالك الذي لا امنع منه أصلا (على الذين يظلمون الناس) أي يوقعون بهم ظلمهم تعمدا عدوانا (ويبغون) أي يتجاوزون الحدود (في الارض) بما يفسدها بعد اصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعا وعلما وعملا (بغير الحق) أي الكامل لان الفعل قد يكون بغيا وان كان مصحوبا بحق كالانتصار المقرون بالتعدي فيه (أولئك) أي البعداء من الله تعالى (لهم عذاب أليم) أي مؤلم بما يلامه أبدانهم وأرواحهم بما آلموا من ظلموه (ولمن صبر) أي عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى (وغفر) أي صرح باسقاط العقاب والعتاب بمحو عين الذنب وأثره (ان ذلك) أي الفعل الواقع منه البالغ في العلو حدا لا يوصف (لمن عزم الامور) أي معزوماتها بمعنى المطلوبات شرعا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال مامن عبد ظلم مظلمة فعفا عنها الله الا أعزه الله تعالى بها نصرا (ومن يضلل الله) أي الذي له صفات الكمال بأن لم يوفقه (فماله من ولي) أي يتولى أمره في الهداية بالبيان لما أخفاه الله تعالى عنه (من بعده) أي من بعد اضلال الله تعالى له وهذا صريح في جواز أن الاضلال من الله تعالى وأن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى وقال تعالى (وترى الظالمين) موضع وتراهم لبيان أن الضال لا يضع شيأ في موضعه * ولما كان عذابهم حتما عبر عنه بالماضي فقال (لما رأوا العذاب) أي يوم القيامة المعلوم مصير الظالم اليه (يقولون) أي مكررين لما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل (هل الى مرد) أي الى دار العمل (من سبيل) أي طريق فيتمنون حينئذ الرجوع الى الدنيا لتدارك مافات من الطاعات الموجبة للنجاة (وتراهم) أي في ذلك اليوم والضمير في قوله تعالى (يعرضون عليها) يعود على النار لدلالة العذاب عليها * ثم ذكر حالهم عند عرضهم على النار بقوله تعالى (خاشعين) أي خاضعين حقيرين بسبب مالحقهم (من الذل) لانهم عرفوا اذلال ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه (ينظرون) أي يبتدئ نظرهم المكرر (من طرف) أي تحريك الاجفان (خفي) أي ضعيف النظر يسارقون النظر الى النار خوفا منها وذلة في أنفسهم كما ينظر المقتول الى السيف فلا يقدر على ملء عينه منه ولا يفتح عينه انما ينظر ببعضها ويصح أن تكون من بمعنى الباء أي بطرف خفي ضعيف من الذل (فان قيل) قد قال الله تعالى في صفة الكفار انهم يحشرون عميا فكيف قال تعالى هنا انهم ينظرون من طرف خفي (أجيب) بانهم يكونون في الابتداء هكذا ثم يصيرون عميا أو أن هذا في قوم وذلك في قوم آخرين وقيل ينظرون الى النار بقلوبهم والنظر بالقلب خفي * ولما وصف تعالى حال الكفار حكى مايقوله المؤمنون فيهم فقال تعالى (وقال) أي في ذلك الموقف الاعظم على سبيل التعيير لهم والتبكيت والتوبيخ والتقريع (الذين آمنوا) أي أوقعوا هذه الحقيقة سواء كان ايقاعهم لها في أدنى الرتب أو أعلاها (ان الخاسرين) أي

الذين كملت خسارتهم (الذين خسروا أنفسهم) بما استغرقها من العذاب (وأهليهم) بمفارقتهم لهم اما في اطباق العذاب ان كانوا امثالهم في الخسران أو في دار الثواب ان كانوا من أهل الايمان (يوم القيامة) أي هو يوم فوت التدارك لانه للجزاء لا للعمل لفوات شرطه بفوات الايمان بالغيب لانكشاف الغطاء وهذا القول يحتمل أن يكون واقعا في الدنيا أو يوم القيامة اذا رأوهم على تلك الصفة وقوله تعالى (ألا ان الظالمين) أي الراسخين في هذا الوصف (في عذاب مقيم) أي دائم يحتمل أن يكون من تمام كلام المؤمنين وأن يكون تصديقا من الله تعالى لهم (وما كان) أي ماصح ووجد (لهم) وأغرق في النفي فقال تعالى (من أولياء) أي فما لهم من ولي لان النصرة اذا انتفت من الجمع انتفت من الواحد من باب أولى (ينصرونهم) أي يوجدون نصرهم في وقت من الاوقات (من دون الله) أي الملك الاعظم أي لا في الدنيا بان يقدروا على انقاذهم من وصف الظلم ولا في الآخرة بانقاذهم من العذاب (ومن يضلل الله) أي يوجد اضلاله ايجادا بليغا بما أفاده الفك على سبيل الاستمرار بعدم البيان أو بعدم التوفيق بعد البيان (فما له) بسبب اضلال من له جميع صفات الكمال وأغرق تعالى في النفي بقوله سبحانه (من سبيل) أي طريق الى الحق في الدنيا والى الجنة في الآخرة * ولما ذكر تعالى الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال تعالى (استجيبوا لربكم) أي أجيبوه بالتوحيد والعبادة فانه الذي لم تروا احسانا الا وهو منه (من قبل أن يأتي يوم) هو يوم القيامة (لا مرد له من الله) أي الذي له جميع العظمة فانه اذا أتى به لا يرده واذا لم يكن له مرد منه لم يكن له مرد من غيره ومتى عدم ذلك أنتج قوله تعالى (ما لكم) وأغرق في النفي بقوله تعالى (من ملجأ) أي تلجؤن اليه (يومئذ) أي في ذلك اليوم وزاد في التأكيد باعادة النافي وما في حيزه ابلاغا في التحذير فقال تعالى (وما لكم من نكير) أي انكار لما اقترفتموه لانه مدون في صحائفكم تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم (فان أعرضوا) أي عن الاجابة فيما دعوتهم اليه (فما أرسلناك) أي بما لنا من العظمة (عليهم حفيظا) أي تقهرهم على امتثال ما أرسلناك به (ان عليك الا البلاغ) لما أرسلناك به وأما الهداية والاضلال فالينا وهذا كما قال الجلال المحلي قبل الامر بالجهاد (وانا اذا أذقنا) أي بالعظمة التي لا يمكن مخالفتها (الانسان) أي بما جبلناه عليه من النقص وعدم التمالك (منا رحمة) قال ابن عباس رضي الله عنهما نوعا من أنواع الاكرام من صحة أو غنى أو نحو ذلك (فرح بها) أي بتلك الرحمة وأفرد ضمير فرح نظرا للفظ الانسان اشارة الى أنه مطبوع على أنه ليس عليه الامن نفسه ولو كان أهل الارض كلهم على غير ذلك ونعمة الله تعالى عليهم وان كانت في الدنيا عظيمة الا أنها بالنسبة الى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سميت ذوقا فبين تعالى أن الانسان اذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به وعظم غروره ووقع في العجب والكبر وظن أنه فاز بكل المنى ووصل الى أقصى السعادات وهذه طريقة من ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وجمع ضمير الانسان في قوله تعالى (وان تصبهم) باعتبار معناه (سيئة) أي شئ يسوءهم في الحال كالمرض والفقر والقحط (بما قدمت أيديهم) أي قدموه وعبر بالايدى

لان أكثر الافعال بها (فان الانسان) أى الآنس بنفسه المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب
سيئة تضره (كفور) أى بليغ الكفران ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويعظمها ولم يتأمل
سببها وتصدير الشرطية الاولى باذا والثانية بان لان اذاقته النعمة محققة من حيث انها عادة
مقتضية بالذات بخلاف اصابة البلية واقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع الضمير
فى الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة فان كان فى نعمة أشر وبطر وان
كان فى نقمة ايس وقنط فهذا حال الجنس من حيث هو ومن وفقه الله تعالى جنبه ذلك كما قال
صلى الله عليه وسلم المؤمن ان أصابه سراء شكر فكان خيرا وان أصابه ضراء صبر فكان خيرا
* ولما ذكر تعالى اذاقة الانسان الرحمة واصابته بعدها السيئة أتبع ذلك بقوله تعالى (لله) أى
الملك الاعظم وحده (ملك السموات) كلها على علوها وتطابقها وكبرها وعظمها وتباعد أقطارها
(والارض) جميعها على تباينها وتكاثفها واختلاف اقطارها وسكانها واتساعها (يخلق)
أى على سبيل التجدد والاختيار والاستمرار (ما يشاء) وان كان على غير اختيار العباد لئلا
يغتر الانسان بما ملكه من المال والجاه بل اذا علم أن الكل ملك لله وملكه وانما حصل له ذلك
القدر انعاما من الله تعالى عليه فيصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة * ثم ذكر من أقسام تصرفه
تعالى فى العالم أنه يخص بعض الناس بالاولاد الاناث والبعض بالذكور والبعض بهما
والبعض محروم من الكل كما قال تعالى (يهب) أى يخلق (لمن يشاء) أولادا (اناثا) فقط ليس
معهن ذكر (ويهب لمن يشاء الذكور) فقط ليس معهم أنثى وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو
بتسهيل الهمزة الثانية كالياء وتبدل أيضا واوا خالصة والباقون بتحقيقهما وفى الابتداء
الجميع بالتحقيق واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا مع المد والتوسط والقصر ولهما أيضا
تسهيلها مع المد والقصر والروم والاشمام (أو يزوجهم) أى الاولاد فيجعلهم أزواجا أى صنفين
حال كونهم (ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما) أى لا يولد له قال الرازى وفى الآية سؤالات
الاول أنه قدم الاناث فى الذكر على الذكور أولا ثم قدم الذكور على الاناث ثانيا فما السبب أى
فما الحكمة فى هذا التقديم والتأخير الثانى أنه نكر الاناث وعرف الذكور وقال فى الصنفين
معا أو يزوجهم ذكرانا واناثا الثالث أنه لما كان حصول الولد هبة من الله تعالى فيكفى
فى عدم حصوله أن لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله الى قوله تعالى ويجعل من يشاء عقيما
الرابع هل المراد بهذا الحكم جمع معينون أو الحكم على الانسان المطلق ثم قال والجواب
عن الاول أن الكريم يسعى فى أن يقع الختم على الخير والراحة فاذا وهب الانثى أولا ثم أعطى
الذكر بعدها فكأنه نقله من الغم الى الفرح وهذا غاية الكرم أما اذا أعطى الذكر أولا ثم أعطى
الانثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح الى الغم فذكر الله تعالى هبة الانثى أولا ثم ثنى بهبة الذكر
حتى يكون قد نقله من الغم الى الفرح فيكون أليق بالكرم قيل من يمن المرأة تبكيرها بالانثى
قبل الذكر لان الله تعالى بدأ بالاناث وأما تقديم ذكر الذكور على ذكر الاناث ثانيا فلان الذكر
أكمل وأفضل من الانثى والافضل مقدم على المفضول وأما الجواب عن تنكير الاناث وتعريفهم

الذكور فهو أن المقصود منه التنبيه على ان الذكر أفضل من الانثى وأما قوله تعالى أو يزوجهم ذكرانا وإناثا فهو أن كل شيئين يقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية في يزوجهم عائدة على الاناث والذكور والمعنى يجعل الذكور والاناث أزواجا أي يجمع له بينهما فيولد له الذكور والاناث وأما الجواب عن قوله تعالى عقيما فالعقيم هو الذي لا يلد ولا يولد له يقال رجل عقيم وامرأة عقيم وأصل العقم القطع ومنه قيل الملك عقيم لانه تقطع فيه الارحام بالقتل والعقوق وأما الجواب عن الرابع فقال ابن عباس رضي الله عنهما يهب لمن يشاء اناثا يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما الا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له الا الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا يريد محمدا صلى الله عليه وسلم كان له من البنين ثلاثة على الصحيح القاسم وعبد الله وابراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ويجعل من يشاء عقيما يريد يحيى وعيسى عليهما السلام وقال أكثر المفسرين هذا على وجه التمثيل وانما الحكم عام في كل الناس لان المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الاشياء كيف شاء فلا معنى للتخصيص ثم انه تعالى ختم الآية بقوله تعالى (انه عليم) أي بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها (قدير) أي شامل القدرة على تكوين ما يشاء * ولما بين تعالى حال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان انه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه فقال تعالى (وما كان) أي وما صح (لبشر) من الاقسام المذكورة وحل المصدر الذي هو اسم كان ليقع التصريح بالفاعل والمفعول على أتم الوجوه فقال تعالى (أن يكلمه) وأظهر موضع الاضمار اعظاما للوحي وتشريفا لمقداره فقال تعالى (الله) أي يوجد الملك الاعظم الجامع بصفات الكمال في قلبه كلاما (الا) أن يوحي اليه (وحيا) أي كلاما خفيا يوجده فيه بغير واسطة بوجه خفي لا يطلع عليه أحد اما مشافهة كما ورد في حديث المعراج واما بالهام أو رؤية منام كما رأى ابراهيم عليه السلام في المنام أن يذبح ولده أو بغير ذلك سواء خلق الله تعالى في المتكلم قوة السماع له وهو أشرف هذه الاقسام أم لا ومن الثاني قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وأوحى ربك الى النحل وأوحى في كل سماء أمرها (أو) الا (من وراء حجاب) أي من وجه لا يرى فيه المتكلم مع السماع للكلام على وجه الجهر كما وقع لموسى عليه السلام (أو يرسل رسولا) من الملائكة اما جبريل عليه السلام أو غيره * (تنبيه) * ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله تعالى وتنظر اليه ان كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر اليه فقال لم ينظر موسى الى الله عز وجل فأنزل الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا (فيوحي) أي الرسول الى المرسل اليه أن يكلمه (باذنه) أي الله تعالى (ما يشاء) أي الله عز وجل وقرأ نافع برفع اللام من يرسل وسكون الياء من يوحي والباقون بنصب اللام والياء أما القراءة الاولى ففيها ثلاثة أوجه أحدها أنه رفع على اضمار مبتدأ أي هو يرسل ثانيها انه عطف على وحيا على أنه حال لان وحيا في تقدير الحال أيضا فكأنه قال الا موحيا اليه أو مرسلا ثالثها أن يعطف على ما يتعلق به

من وراء اذ تقديره أو يسمع من وراء حجاب ووحيا في موضع الحال عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه أو يرسل والتقدير الا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا وأما القراءة الثانية ففيها ثلاثة أوجه أحدها أن يعطف على المضمر الذي يتعلق به من وراء حجاب اذ تقديره أو يكلمه من وراء حجاب وهذا الفعل المقدر معطوف على وحيا والمعنى الا بوحي أو سماع من وراء حجاب أو ارسال رسول ولا يجوز أن يعطف على أن يكلمه لفساد المعنى اذ يصير التقدير وما كان لبشر أن يرسل الله رسولا بل يفسد لفظا ومعنى وقال مكي لانه يلزم منه نفي الرسل ونفي المرسل اليهم ثانيها أن ينصب بأن مضمرة وتكون هي وما نصبته معطوفين على وحيا ووحيا حال فيكون هذا أيضا حالا والتقدير الا موحيا أو مرسلا ثالثها انه معطوف على معنى وحيا فانه مصدر مقدر بأن والفعل والتقدير الا بأن يوحي اليه أو بأن يرسل ذكره مكي وأبو البقاء (انه) أي هذا الذي له هذا التصرف العظيم في هذا الوحي الكريم (علي) أي بالغ العلو جدا عن صفات المخلوقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بواسطة وتارة بغير واسطة اما عيانا واما من وراء حجاب (وكذلك) أي ومثل ايحائنا الى غيرك من الرسل (أوحينا) بما لنا من العظمة (اليك) يا أفضل الرسل (روحا) قال ابن عباس نبوة وقال الحسن رحمة وقال السدي وحيا وقال الكلبي كتابا وقال الربيع جبريل وقال مالك بن دينار القرآن وسمي الوحي روحا لانه مدبر الروح كما أن الروح مدبر للبدن وزاد عظمته بقوله تعالى (من أمرنا) أي الذي نوحيه اليك * ثم بين تعالى حال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قبل الوحي بقوله سبحانه (ما كنت) أي فيما قبل الاربعين التي مضت لك وأنت بين ظهراني قومك (تدري) أي تعرف قبل الوحي اليك (ما الكتاب) أي القرآن (ولا الايمان) أي تفصيل الشرائع على ما جددناه لك بما أوحيناه اليك وهو صلى الله عليه وسلم وان كان قبل النبوة قد كان مقرا بوحدانية الله تعالى وعظمته فانه كان يصلي ويحج ويعتمر ويبغض اللات والعزى ولا يأكل ما ذبح على النصب لكنه لم يكن يعلم الرسل على ما هم عليه ولاشك أن الشهادة له صلى الله عليه وسلم نفسه بالرسالة ركن الايمان ولم يكن له علم بذلك وكذلك الملائكة فصح نفي المنفي لفوات جزئه وقال محمد بن اسحق بن خزيمة الايمان هنا الصلاة لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أي صلاتكم وقيل هذا على حذف ومعناه ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان حين كنت طفلا في المهد وقيل الايمان عبارة عن الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وقال بعضهم صفات الله تعالى على قسمين منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقول ومنها ما لا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة * (تنبيه) * ما الاولى نافية والثانية استفهامية والجملة الاستفهامية معلقة للدراية فهي في محل نصب لسدها مسد مفعولين والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من الكاف في اليك وفي الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبدا قبل النبوة بشرع وفي المسئلة خلاف للعلماء فقيل كان يتعبد على دين ابراهيم عليه السلام وقيل غيره والضمير في قوله تعالى (ولكن جعلناه نورا) يعود اما للروح واما للكتاب واما لهما وهو أولى لانهما

مقصود واحد فهو كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقال ابن عباس رضي الله عنهما يعني الايمان وقال السدي يعني القرآن (نهدي) على عظمتنا (به من نشاء) خاصة لا يقدر أحد على هدايته بغير مشيئتنا (من عبادنا) بخلق الهداية في قلبه بالتوفيق فهذه لا يقدر عليها أحد غير الله تعالى وأما الهداية بالتبيين والارشاد فهي قوله تعالى (وانك) يا أفضل الخلق (لتهدي) أي تبين وترشد وأكده لانكارهم ذلك (الى صراط) أي طريق واضح جدا (مستقيم) أي شديد التقوم وهو دين الاسلام وقوله تعالى (صراط الله) أي الملك الاعظم الجامع لصفات الكمال وقرأ سراط في الموضعين قنبل بالسين وخلف بالاشمام أي بين الصاد والزاي والباقون بالصاد الخالصة * ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بأنه مالك لما في السموات والارض بقوله تعالى (الذي له ما في السموات وما في الارض) خلقا وملكا وعبيدا (ألا الى الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال الذي تعالى عن مثل وند وهو الكبير المتعال لا الى غيره (تصير) أي على الدوام وان كانت في الظاهر في ملك غيره بحيث يظن الجاهل ان ملكها مستقر له قال أبو حيان أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله زيد يعطي ويمنع أي من شأنه ذلك ولا يراد به حينئذ حقيقة المستقبل (الامور) كلها من الخلق والامر معنى وحسا كما كانت الامور كلها مبتدأة منه وحده وفي ذلك وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له حديث موضوع

(سورة الزخرف مكية)

وهي تسع وثمانون آية وثمانمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف

(بسم الله) أي الذي له مقاليد الامور كلها فهو يعطي من يشاء وان طال سؤله (الرحمن) الذي نال بره جميع خلقه على حسب منازلهم عنده (الرحيم) الذي يقرب اليه من يشاء زلفى وان وصل في البعد الى الحد الاقصى وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (حم) والواو في قوله تعالى (والكتاب) أي القرآن (المبين) أي مظهر طريق الهدى وما يحتاج اليه من الشريعة عاطفة ان جعلت حم قسما والا كانت للقسم وقوله تعالى (انا جعلناه) أي أوجدنا هذا الكتاب (قرآنا عربيا) أي بلغة العرب جواب القسم وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من واد واحد كقول أبي تمام

وثناياك انها اغريض * (أي طلع وبرد وقيل كل أبيض طري) ولآل تؤم وبرق وميض

والتوم جمع تومة وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة والوميض مصدر ومض أي لمع لمعا خفيفا * (تنبيه) * احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه الاول أنها تدل على أن القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق الثاني أنه وصفه بكونه قرآنا وهو اسم لما جمع قرآنا لانه جعل بعضه مقرونا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعا الثالث

وصفه بكونه عربيا وانما يكون عربيا لان العرب اختصت بوضع ألفاظه فى اصطلاحهم وذلك يدل على أنه مجعول والتقدير حم ورب الكتاب المبين ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم وأجاب الرازى عن ذلك بأن هذا الذى ذكرتموه حق لانكم استدللتم بهذه الوجوه على كون الحروف المتواليات والكلمات المتعاقبة محدثة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذى ينازعكم فيه (لعلكم) أى يا أهل مكة (تعقلون) أى لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من ان تفهموا معانيه وأحكامه وبديع وصفه ومعجز وضعه ونظامه فترجعوا عن كل ما أنتم عليه من المغالبة ولابد أن يقع هذا التعقل فان القادر اذا عبر باداة الترجى حقق ما يقع ترجيه ليكون بين كلامه وكلام العاجز فرق وقوله تعالى (وانه) أى القرآن عطف على انا أى مثبت (فى أم الكتاب) أى أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ وقال قتادة أم الكتاب أصل الكتاب وأم كل شئ أصله وقال ابن عباس أول ماخلق الله تعالى القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق فالكتاب مثبت عنده فى اللوح المحفوظ كما قال تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ (فان قيل) ما الحكمة فى خلق هذا اللوح المحفوظ مع انه تعالى علام الغيوب يستحيل عليه السهو والنسيان أجيب بأنه تعالى لما أثبت فى ذلك أحكام حوادث المخلوقات ثم ان الملائكة اذا شاهدوا أن جميع الحوادث انما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه وقيل المراد بأم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب والمعنى أن سورة حم واقعة فى الآيات المحكمة التى هى الاصل والام وقرأ حمزة والكسائى فى الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها واتفقوا فى الابتداء بالهمزة على الضم وقوله تعالى (لدينا) أى عندنا بدل من الجار قبله (لعلى) أى رفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا من بينها (حكيم) أى ذو حكمة بالغة أو محكم فى أبواب البلاغة والفصاحة (أفنضرب) أى انهملكم فنضرب أى ننحى مجاوزين (عنكم الذكر) أى القرآن وفى نصب قوله تعالى (صفحا) أوجه أحدها انه مصدر من معنى نضرب لانه يقال ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه قال طرفة

اضرب عنك الهموم طارقها * ضربك بالسيف قونس الفرس

واضرب بفتح الباء أصله اضربن بنون التوكيد الخفيفة فحذفت النون وحركت الباء بالفتح و لطارق مايطرق بالليل والقونس منبت شعر الناصية وهو عظم نابت بين أذنى الفرس ثانيها انه منصوب على الحال أى صافحين ثالثها أن يكون مفعولا من أجله وقيل غير ذلك (أن) أى أنفعل ذلك لان (كنتم قوما مسرفين) أى مشركين لانفعل ذلك وهو فى الحقيقة علة مقتضية لترك الاعراض وقرأ نافع وحمزة والكسائى بكسر الهمزة على ان الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهالا لهم وماقبلها دليل الجزاء وقرأ الباقون بفتحها وذكر تعالى تأنيسا للنبى صلى الله عليه وسلم وتأسية وتعزية وتسلية قوله سبحانه وتعالى

(وكم أرسلنا) أى على مالنا من العظمة (من نبى فى الاولين) أى فى الامم الماضية ثم حكى حالهم الماضية بقوله تعالى (وما) أى والحال انه ما (يأتيهم) وأغرق فى النفى بقوله تعالى (من نبى) أى فى أمة بعد أمة أو زمان بعد زمان (الا كانوا) أى خلقا وطبعا (به يستهزؤن) كما استهزأ قومك بك فلا ينبغى أن تتأذى من قومك بسبب تكذيبهم واستهزائهم لان المصيبة اذا عمت خفت *(تنبيه)* كم خبرية مفعول مقدم ومن نبى تمييز وفى الاولين متعلق بالارسال أو بمحذوف على انه صفة لنبى (فأهلكنا) أى فتسبب عن الاستهزاء بالرسل انا أهلكنا (أشد منهم) أى من قريش الذين يستهزؤن بك (بطشا) أى قوة وكان الاصل الاضمار ولكنه أظهر الضمير صارفا أسلوب الخطاب الى الغيبة اقبالا على نبيه صلى الله عليه وسلم تسلية له وابلاغا فى وعيدهم (ومضى) أى سبق فى آيات الله (مثل) أى صفة (الاولين) فى الاهلاك وفى ذلك وعد للرسول صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم مثل ما جرى على الاولين واللام فى قوله تعالى (ولئن) لام قسم (سألتهم) أى سألت قومك (من خلق السموات) على علوها وسعتها (والارض) على كثرة عجائبها وعظمها وقوله تعالى (ليقولن) حذف منه نون الرفع لتوالى النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين (خلقهن) الذى هو موصوف بأنه (العزيز) أى الذى لا يغالب (العليم) بما كان وما يكون *(تنبيه)* هذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى اذ لو جاء على اللفظ لجئ فيه بجملة ابتدائية كالسؤال فكان الجواب هنا الله كما فى غيره من الآيات لكنه عدل عنه الى المطابقة المعنوية مذكورا للفعل تأكيدا لاغراقهم زيادة فى توبيخهم وتنبيها على عظم غلطهم * ولما تم الاخبار عنهم ابتدأ الادلة على نفسه بذكر مصنوعاته فقال تعالى (الذى جعل لكم) ولو كان ذلك قولهم لقالوا لنا (الارض مهادا) أى فراشا قارة ثابتة كالمهد للصبى ولو شاء لجعلها مزلة لا يثبت فيها شئ كما ترون من بعض الجبال فالانتفاع بها انما حصل لكونها واقفة ساكنة فانها لو كانت متحركة ما أمكن الانتفاع بها فى الزراعة والابنية وستر عيوب الاحياء والاموات ولان المهد موضع راحة الصبى فكانت الارض مهادا لكثرة ما فيها من الراحات وقرأ الكوفيون بفتح الميم وسكون الهاء والباقون بكسر الميم وفتح الهاء وألف بعد الهاء (وجعل لكم فيها سبلا) أى طرقا تسلكونها وذلك ان انتفاع الناس انما يكمل اذا سعوا فى أقطار الارض فهيأ تعالى تلك السبل ووضع عليها علامات ليحصل الانتفاع ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك فى مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك ثم ذكر الغاية فى ذلك فقال تعالى (لعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا الى مقاصدكم فى الاسفار وغيرها فتتوصلون بها الى الاقطار الشاسعة والاقاليم الواسعة أو لتهتدوا الى الحق فى الدين (والذى نزل) أى بحسب التدريج ولولا قدرته تعالى الباهرة لكان دفعة واحدة أو قريبا منها (من السماء) أى المحل العالى (ماء) أى لزرعكم وثماركم وشرابكم بأنفسكم وأنعامكم (بقدر) أى بقدر حاجتكم اليه من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم (فأنشرنا) أى أحيينا (به) أى الماء (بلدة) أى مكانا يجتمع فيه للاقامة يعتنون باحيائه

يتعاونون على دوام ابقائه (ميتا) أى كان قد يبس نباته وعجز أهله عن ايصال ماء اليه ليحيا به قال البقاعى ولعله أنث البلد وذكر الميت اشارة الى أن بلوغها فى الضعف والموت بلغ الغاية بضعف أرضه فى نفسها وضعف أهله عن احيائه (كذلك) أى مثل هذا الاخراج العظيم الذى شاهدتموه فى النبات (تخرجون) من قبوركم أحياء والمعنى ان هذا الدليل كما دل على قدرة الله تعالى وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه أنه جعلهم أحياء بعد الاماتة كهذه الارض التى انتشرت بعدما كانت ميتة وقيل بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الارض بماء كالمنى كما تنبت الارض بماء المطر قال ابن عادل وهذا ضعيف لان ظاهر لفظ الاشارة الاعادة فقط دون هذه الزيادة ثم شرع تعالى فى اكمال ما تقتضيه الحال من الاوصاف فقال عز من قائل (والذى خلق الازواج) أى الاصناف المتشاكلة التى لا يكمل شئ منها غاية الكمال الا بالآخر على ما دبره سبحانه فى نظم هذا الوجود (كلها) من النبات والحيوان وغير ذلك من سائر الاكوان لم يشاركه فى شئ منها أحد وقال ابن عباس رضى الله عنه الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقال بعض المحققين كل ما سوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف وكونها أزواجا يدل على انها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فأما الحق تعالى فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال تعالى والذى خلق الازواج كلها فهو مخلوق فدل هذا على ان خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية قال الرازى وأيضا علماء الحساب يثبتون ان الفرد أفضل من الزوج من وجوه الاول ان الاثنين لا توجد الا عند حصول وحدتين فالزوج محتاج الى الفرد والفرد هو الوحدة وهى غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج الثانى ان الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة فكان الفرد أفضل من الزوج ثم ذكر وجوها أخر تدل على ان الفرد افضل من الزوج واذا كان كذلك ثبت ان الازواج ممكنات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغنى عما سواه (وجعل لكم من الفلك) أى السفن العظام فى البحر (والانعام) كالابل فى البر (ما تركبون) وحذف العائد لفهم المعنى تغليبا للمتعدى بنفسه فى الانعام على المتعدى بواسطة فى الفلك والعائد مجرور فى الاول أى فيه منصوب فى الثانى وذكر الضمير وجمع الظهور فى قوله تعالى (لتستووا على ظهوره) نظرا للفظ ما ومعناها * ولما أتم النعمة بخلق ما تدعو اليه الحاجة وجعله على وجه دال على ماله من الصفات ذكر ما ينبغى أن تكون من غايتها على ما هو المتعارف بينهم من شكر المنعم فقال دالا على عظم قدر النعمة وبعد غايتها وعلو أمر الذكر بحرف التراخى (ثم تذكروا) أى بقلوبكم وصرف القول الى وجه التربية حثا على تذكر احسانه للانتهاء عن كفرانه والاقبال على شكرانه فقال تعالى (نعمة ربكم) أى الذى أحسن اليكم بنعمة تسخيرها

لكم وما تعرفونه من غيرها (إذا استويتم عليه) أى على ما تركبونه وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خلق البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يمكن الانسان من تصريف هذه السفينة الى أى جانب شاء فاذا تذكر ان خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصرف الانسان ولتحريكاته انما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد لطاعة الله تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعم الله تعالى التى لا نهاية لها ولما كان تذكر النعمة يبعث الجنان واللسان والاركان على الشكر لمن أسداها قال عز من قائل (وتقولوا) أى بألسنتكم جمعا بين القلب واللسان (سبحان الذى سخر) أى بعلمه الكامل وقدرته التامة (لنا هذا) أى الذى ركبناه سفينة كانت أو دابة (وما) أى والحال أنا ما (كنا له مقرنين) أى مطيقين والمقرن المطيق للشئ الضابط له من أقرنه أى أطاقه قال الواحدى كأن اشتقاقه من قولك صرت له قرنا ومعنى قرن فلان أى مثله فى الشدة وقيل ضابطين وقال أبو عبيدة قرن لفلان أى ضابط له والقرن الحبل ومعنى الآية ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وان نطيقهما فسبحان من سخر لنا هذا بقدرته وحكمته روى الزمخشرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون وروى أحمد وأبو داود والترمذى وقال حسن صحيح عن على رضى الله عنه انه وضع رجله فى الركاب وقال بسم الله فلما استوى على الدابة قال الحمد لله سبحان الذى سخر لنا هذا الآية ثم حمد ثلاثا وكبر ثلاثا ثم قال لا اله الا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت ثم ضحك فقيل مم تضحك يا أمير المؤمنين قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت فقلنا ما يضحكك يا رسول الله قال ان ربك يعجب من عبده اذا قال العبد لا اله الا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت ويقول علم عبدى انه لا يغفر الذنوب غيرى وروى أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه على دابة فلما استقر عليها كبر ثلاثا وحمد الله تعالى ثلاثا وسبح الله ثلاثا وهلل الله تعالى واحدة وضحك ثم أقبل عليه فقال ما من امرئ مسلم ركب دابة فصنع كما صنعت الا أقبل الله عليه يضحك اليه كما ضحكت اليك

• ولما كان راكب الفلك فى خطر الهلاك وراكب الدابة كذلك أيضا لان الدابة قد يحصل لها ما يوجب هلاك الراكب وكذا السفينة قد تنكسر فوجب على الراكب أن يذكر أمر الموت ويقول (وانا الى ربنا) خاصة لا قدرة على هذه التنقلات على هذه المراكب لا الى غيره (لمنقلبون) أى لصائرون بالموت وما بعده الى الدار الآخرة انقلابا لا ايئاب معه الى هذه الدار وفى الآية تنبيه بالسير الدنيوى على السير الاخروى وأكد لاجل انكارهم البعث

• ولما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله(١) بين انهم مع اقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزءا كما قال تعالى (وجعلوا له من عباده) الذين أبدعهم كما أبدع غيرهم

(١) قوله ليقولن الله الذى فى هذه السورة خلقهن العزيز العليم اه

(جزأ) أي ولدا هو لحصرهم في الاناثى أحد قسمي الاولاد وكل ولد فهو جزء من والده قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني ومن كان له جزء كان محتاجا فلم يكن الها وذلك لقولهم الملائكة بنات الله فثبت بذلك طيش عقولهم وسخافة آرائهم وقرأ شعبة بضم الزاي والباقون بسكونها وهما لغتان واذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة الى الزاي * ولما كان هذا في غاية الغلط من الكفر قال مؤكدا لانكارهم ان يكون كفرا (ان الانسان) أي هذا النوع الذي هو بعضه (لكفور مبين) أي بين الكفر في نفسه مناد عليها بالكفر وقوله تعالى (أم اتخذ) أي أعالج هو نفسه فاخذ هو بعد المعالجة وهو خالق الخلق كلهم (مما يخلق) أي يجدد ابداعه في كل وقت (بنات) استفهام توبيخ وانكار أي فلم يقدر بعد التكلف والتعب على غير البنات التي هي أبغض الجزأين اليكم ثم عطف على قوله تعالى اتخذ ليكون منفيا على أبلغ وجه لكونه في حيز الانكار (وأصفاكم) وهو السيد الكامل وأنتم عبيده أي خصكم (بالبنين) اللازم من قولكم السابق ثم بين كون البنات أبغض اليهم بقوله تعالى (واذا) أي جعلوا ذلك والحال انه اذا (بشر) أي من أي مبشر كان (أحدهم) أي أحد هؤلاء البعداء البغضاء (بما ضرب) أي جعل (للرحمن) الذي لا نعمة على شيء من الخلق الا وهي منه (مثلا) أي شبها بنسبة البنات اليه لان الولد يشبه الوالد والمعنى اذا أخبر أحدهم بالبنت تولد له (ظل) أي صار (وجهه مسودا) أي شديد السواد لما يعتريه من الكآبة (وهو كظيم) أي ممتلئ غما فكيف تنسب البنات اليه تعالى هذا ما لا يرضى عاقل ان يمر بفكره فضلا عن ان يتفوه به وقوله تعالى (أومن ينشأ) أي على ما جرت به عوائدكم (في الحلية) يجوز في من وجهان أحدهما أن تكون في محل نصب مفعولا بفعل مقدر أي أو يجعلون من ينشأ في الحلية والثاني انه مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ جزء أولدا أو جعلوه له جزأ والمعنى ان التي تتربى في الحلية تكون ناقصة الذات لانه لولا نقصانها في ذاتها لما احتاجت الى تزيين نفسها بالحلية وقرأ حمزة والكسائي وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أي يربى والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين واذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفا ولهما أيضا تسهيلها بالروم والاشمام ثم بين نقصان حالها بطريق آخر بقوله تعالى (وهو) أي والحال انه وقدم في افادة الاهتمام قوله تعالى (في الخصام) أي المجادلة اذا احتيج اليها فيها (غير مبين) أي مظهر حجته لضعفه عنها بالانوثة قال قتادة في هذه الآية قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها الا تكلمت بالحجة عليها ثم بين تعالى جرأتهم على ما لا ينبغي لعاقل أن يتفوه به بقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم) متصفون بأشرف الاوصاف وهو انهم (عباد الرحمن) أي العام النعمة الذين ما عصوه طرفة عين (اناثا) وذلك أدنى الاوصاف خلقا وخلقا ذاتا وصفة فهذا كفر ثالث كالكفرين قبله وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بكسر العين وبعدها نون ساكنة ونصب الدال والباقون بعد العين بباء موحدة مفتوحة وبعدها الف ورفع الدال ثم قال تعالى تهكما بهؤلاء القائلين ذلك وتوبيخا لهم

وانكاراعليهم (أشهدوا) أى أحضروا (خلقهم) أى خلق اياهم فشاهدوهم اناثافان ذلك مما يعلم بالمشاهدة وقرأ نافع بهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مضمومة مسهلة كالواو وسكون الشين وادخل قالون بينهما ألفا ولم يدخل ورش والباقون بهمزة واحدة مفتوحة وفتح الشين (ستكتب) بكتابة من وكلناهم بهم من الحفظة الذين لا يعصوننا فنحن نقدرهم على جميع ماأمرهم به (شهادتهم) أى قولهم فيهم انهم اناث الذى لا ينبغى أن يكون الا بعد تمام المشاهدة فهو قول ركيك سخيف ضعيف كما أشار اليه التأنيث (ويسئلون) عنها عند الرجوع الينا قال الكلبى ومقاتل لما قالوا هذا القول سألهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال مايدريكم انهم اناث قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال تعالى ستكتب شهادتهم ويسئلون عنها فى الآخرة هذا يدل على أن القول بغير دليل منكر وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم قال المحققون هؤلاء الكفار كفروا فى هذا القول من ثلاثة أوجه أولها اثبات الولد ثانيها أن ذلك الولد بنت ثالثها الحكم على الملائكة بالانوثة * (تنبيه) * قال البقاعى يجوز أن يكون فى السين استعطاف الى التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به فانه قد روى أبو أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح الله أو يستغفره ثم نبه سبحانه على أنهم عبدوهم مع ادعاء الانوثة فيهم فقال تعالى مجيبا لهم فى ذلك وفى جعل قولهم حجة دالة على صحة مذهبهم وهو من أوهى الشبه (وقالوا) أى بعد عبادتهم لهم ونهيهم عن عبادة غير الله تعالى (لوشاء الرحمن) أى الذى له عموم الرحمة (ماعبدناهم) أى الملائكة فعبادتنا اياهم بمشيئته فهو راض بها ولولا أنه راض بها لعجل لنا العقوبة فاستدلوا بنفى مشيئة عدم العبادة على الرضا بها وذلك باطل لان المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض مأمورا كان أو منهيا حسنا كان أو غيره ولذلك جهلهم فقال تعالى (مالهم بذلك) أى المقول من الرضا بعبادتها (من علم ان) أى ما (هم الا يخرصون) أى يكذبون فى هذه النتيجة التى زعموا أنها دلتهم على رضا الله تعالى بكفرهم فيترتب عليهم العقاب * ولما بين تعالى بطلان قولهم بالعقل أتبعه بطلان قولهم بالنقل فقال تعالى (أم آتيناهم) أى على مالنا من العظمة (كتابا) أى جامعا لما يريدون اعتقاده من أقوالهم هذه (من قبله) أى القرآن أخبرناهم فيه أنا جعلنا الملائكة اناثا وانا لا نشاء الا ما هو حق نرضاه ونأمر به (فهم به) أى فتسبب عن هذا الاتيان أنهم به وحده (مستمسكون) أى موجدون الاستمساك به فيأخذون بما فيه لم يقع ذلك * ولما بين تعالى أنه لا دليل لهم على صحة قولهم البتة لا من العقل ولا من النقل بين أنه لا حامل لهم يحملهم عليه الا التقليد بقوله تعالى (بل قالوا انا وجدنا آباءنا) أى وهم أرجح منا عقولا وأصح منا أفهاما (على أمة) أى طريقة عظيمة يحق لها أن تقصد وتؤم ثم أكدوا قطع الرجاء المخالف عن لفتهم عن ذلك فقالوا (وانا على آثارهم) أى خاصة لا غيرها (مهتدون) أى متبعون فلم نأت بشئ من عند أنفسنا ولا غلطنا فى الاتباع

واقتفاء الآثار فلا اعتراض علينا بوجه هذا قولهم في الدين بل في أصوله التي من ضل
في شيء منها هلك ولو ظهر لاحد منهم خلل في سعي أبيه الدنيوي الذي به يحصل الدينار والدرهم
ما اقتدى به أصلا وخالفه أي مخالفة ماهذا الاقصور نظر ومحض عناد ثم أخبر تعالى أن غيرهم
قال هذه المقالة بقوله سبحانه (وكذلك) أي ومثل هذه المقالة المتناهية في البشاعة فعلت
الامم الماضية مع اخوانك الانبياء عليهم السلام ثم فسر ذلك بقوله تعالى (ما أرسلنا) أي مع
مالنا من العظمة (من قبلك) أي في الازمنة السالفة (في قرية) وأغرق في النفي بقوله تعالى
(من نذير) وبين به أن موضع الكراهة والخلاف الانذار على مخالفة الاهواء (الا قال
مترفوها) أي أهل الترفه بالضم وهي النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف يكون خاصا
بالمترف وذلك موجب لقلة الهم وللراحة والبطالة (انا وجدنا آباءنا) أي وهم أعرف منا
بالامور (على أمة) أي أمر جامع يستحق أن يقصد ويؤم ثم أكدوا كما أكد هؤلاء فقالوا
(وانا على آثارهم) أي لا على غيرها (مقتدون) أي راكبون سنن طريقتهم لازمون لها ففي
هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) أي يا أفضل الخلق لهؤلاء البعداء البغضاء
(أولو) أي أتبغون ذلك ولو (جئتكم بأهدى) أي بأمر أعظم في الهداية وأوضح في الدلالة
(مما وجدتم) أي أيها المقتدون بالآباء (عليه آباءكم) أي كما تضمن قولكم انكم تقتفون
في اتباعكم بالآثار في أعظم الاشياء وهو الدين الذي الخسارة فيه خسارة للنفس وأنتم
تخالفونهم في أمر نفس الدنيا اذا وجدتم طريقا أهدى في التصرف فيها من طريقتهم
ولو أمرا يسيرا ويفتخر أحدكم بانه أدرك من ذلك مالم يدرك أبوه فحصل من المال أكثر
مما حصل فيه له من نظر ما أقصره ومتجر ما أخسره وقرأ ابن عامر وحفص قال بصيغة
الماضي أي قال المنذر أو الرسول وهو النبي صلى الله عليه وسلم والباقون قل بصيغة الامر للنبي
صلى الله عليه وسلم ثم أجابوه بأن (قالوا) مؤكدين ردا لما قطع به كل عاقل سمع هذا الكلام من
انهم يبادرون النظر في الدليل والرجوع الى سواء السبيل (انا بما أرسلتم به) أي أنت ومن
قبلك (كافرون) أي ساترون لما ظهر من ذلك جهدنا حتى لا يظهر لاحد ولا يتبعكم فيه
مخلوق وان كان أهدى مما كان عليه آباؤنا فعند هذا لم يبق لهم عذر فلهذا قال تعالى (فانتقمنا)
أي بما لنا من العظمة التي استحقوا بها (منهم) فأهلكناهم بعذاب الاستئصال ثم عظم أمر
النقمة بالامر بالنظر فيها في قوله (فانظر) يا أفضل الرسل (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر
(المكذبين) لرسلنا فانهم أهلكوا أجمعون ونجا المؤمنون أجمعون فليحذر من رد رسالتك
من مثل ذلك وهذا تهديد عظيم لكفار قريش * ثم بين تعالى وجها آخر يدل على فساد التقليد
بقوله تعالى (واذ) أي واذكر يا أفضل الخلق اذ (قال ابراهيم) أي الذي هو أعظم آبائهم ومحط
فخرهم والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن أهل الكتاب وغيرهم (لابيه) من غير أن يقلده
كما قلدتم أنتم آباءكم (وقومه) الذين كانوا هم القوم في الحقيقة لاحتوائهم على ملك جميع
الارض (انني براء) أي بريء (مما تعبدون) أي في الحال والاستقبال (الا الذي فطرني)

أى خلقنى (فانه سيهدين) أى يرشدنى لدينه ويوفقنى لطاعته * (تنبيه) * فى هذا الاستثناء أوجه أحدها أنه استثناء منقطع لانهم كانوا عبدة أصنام فقط ثانيها أنه متصل لانه روى أنهم كانوا يشركون مع البارى غيره ثالثها أن تكون الاصفة بمعنى غير على أن تكون ما نكرة موصوفة قاله الزمخشرى قال أبو حيان وانما أخرجها فى هذا الوجه عن كونها موصولة لانه يرى أن الا بمعنى غير لا يوصف بها الا النكرة وفيها خلاف وعلى هذا يجوز أن تكون ما موصولة والا بمعنى غير صفة لها (وجعلها) أى ابراهيم (كلمة) أى كلمة التوحيد المفهومة من قوله انى الى سيهدين (باقية فى عقبه) أى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى لانه عليه السلام مجاب الدعوة وقال ومن ذريتى ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم (لعلهم) أى أهل مكة (يرجعون) عما هم عليه الى دين أبيهم فانهم اذا ذكروا ان أباهم الاعظم الذى بنى لهم البيت وأورثهم الفخر قال ذلك تابعوه قال الله تعالى (بل متعت هؤلاء) أى الذين بحضرتك من المشركين وأعداء الدين (وآباءهم) أى مددت لهم فى الاعمار مع اسباغ النعم وسلامة الابدان من البلايا والنقم ولم أعاجلهم بالعقوبة فابطرتهم نعمتى وتمادى بهم ركوب ذلك الباطل (حتى جاءهم الحق) أى القرآن (ورسول مبين) أى مظهر لهم الاحكام الشرعية وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ولما جاءهم الحق) أى الكامل فى حقيقته بمطابقة الواقع اياه من غير التباس ولا اشتباه وهو القرآن العظيم (قالوا) مكابرة وعنادا وحسدا من غير وقفة ولا تأمل (هذا) مشيرين الى الحق الذى يطابقه الواقع فلا شئ أثبت منه وهو القرآن الكريم (سحر) أى خيال لا حقيقة له (وانا به كافرون) أى عريقون فى ستره بخصوصه حتى لا يعرفه أحد ولا يكون له تابع ثم ذكر تعالى نوعا آخر من كفرهم بقوله تعالى (وقالوا لولا) أى هلا (نزل) يعنى من المنزل الذى ذكره محمد صلى الله عليه وسلم وعينوا مرادهم ونفوا اللبس فقالوا (هذا القرآن) أى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وادعى أنه جامع لكل خير (على رجل من القريتين) أى مكة والطائف (عظيم) لانهم قالوا منصب الرسالة منصب شريف فلا يليق الا برجل شريف وصدقوا فى ذلك الا أنهم ضموا اليه مقدمة فاسدة وهى أن الرجل الشريف عندهم هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلا تليق رسالة الله تعالى به وانما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال يعنون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود بالطائف قال قتادة وقال مجاهد عتبة بن ربيعة من مكة وعبد ياليل الثقفى من الطائف وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو الوليد بن المغيرة من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى * (تنبيه) * قوله تعالى من القريتين فيه حذف مضاف قدره بعضهم من رجلى القريتين وقيل من احدى القريتين وقيل المراد عروة ابن مسعود الثقفى كان بالطائف وكان يتردد بين القريتين فنسب الى كليهما ثم رد الله تعالى عليهم اعتراضهم منكرا عليهم موبخا لهم بما معناه أنه ليس الامر مردودا ولا موقوفا عليهم بل الى الله تعالى وحده والله أعلم حيث يجعل رسالاته بقوله تعالى (أهم) أى أهؤلاء الجهلة

المعجزة (يقسمون) أى على التجدد والاستمرار (رحمت ربك) أى اكرام المحسن اليك وانعامه وتشريفه بأنواع اللطف والبر واعظامه بما ربك له من تخصيصك بالارسال اليهم لانقاذهم من الضلال وجعلك وأنت أفضل العالمين الرسول اليهم ففضلوا بفضيلتك مع أنك أشرفهم نسبا وأفضلهم حسبا وأعظمهم عقلا وأصفاهم لبا وأرحمهم قلبا ليتصرفوا فى تلك الرحمة التى هى روح الوجود وسر الامر لا بحسب شهواتهم وهم لا يقدرون على التصرف فى المتاع الزائل بمثل ذلك كما قال تعالى (نحن قسمنا) بمالنا من العظمة (بينهم) أى فى الامر الزائل الذى يعمهم ويجب تخصيص كل منهم بما لديه (معيشتهم) أى التى يعدونها رحمة ويقصرون عليها النعمة (فى الحياة الدنيا) التى هى أدنى الاشياء عندنا واشارة بتأنيثها الى انها حياة ناقصة لا يرضاها عاقل وأما الآخرة فمعبر عنها بالحيوان لانا لو تركنا قسمها اليهم لتفانوا على ذلك فلم يبق منهم أحد فكيف يدخل فى الوهم أن نجعل اليهم شيأ من الكلام فى أمر النبوة التى هى روح الوجود وبها سعادة الدارين (ورفعنا) أى بمالنا من نفوذ الأمر (بعضهم) وان كان ضعيف البدن قليل العقل (فوق بعض) وان كان قويا غزير العقل (درجات) فى الجاه والمال ونفوذ الامر وعظم القدر لينتظم حال الوجود فانه لا بد فى انتظامه من تشارك الموجودين وتعاونهم فتفاوتنا بينهم فى الجثث والقوى والهمم ليقتسموا الصنائع والمعارف ويكون كل ميسرا لما خلق له وجانحا لما هيئ لتعاطيه فلم يقدر أحد من دنى أو غنى ان يعدو قدره ويرتقى فوق منزلته ثم علل ذلك بما أثرته عمارة الارض بقوله تعالى (ليتخذ) أى بغاية جهده (بعضهم بعضا سخريا) أى ليستخدم بعضهم بعضا فيسخر الاغنياء بأموالهم الاجراء الفقراء بالعمل فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض هذا بماله وهذا بأعماله فيلتئم قوام العالم لان المقادير لو تساوت لتعطلت المعايش فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه اليه من هذا الامر الدنىء فكيف يطمعون فى الاعتراض فى أمر النبوة أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص ونكل العالى الى غيرنا قال ابن الجوزى فاذا كانت الارزاق بقدر الله تعالى لا بحول المحتال وهى دون النبوة فكيف تكون النبوة اهـ وهذا هو المراد بقوله تعالى صارفا القول عن مظهر العظمة الى الوصف بالاحسان اظهارا لشرف النبى صلى الله عليه وسلم (ورحمت ربك) أى المربى لك والمدبر لامرك بارسالك وانارة الوجود برسالتك التى هى أعظمها جديرة بأن تضاف اليه ولا يسمى غيرها رحمة (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الفانى فانه وان تأتى فيه خير فى استعماله فى وجوه البر بشرطه فهو بالنسبة الى النبوة وما قاربها مما دعا الى الاعراض عن الدنيا متلاش وقيل المراد بالرحمة الجنة وجرى عليه البغوى وتبعه الجلال المحلى وابن عادل وجرى على الاول البيضاوى وتبعه البقاعى وهو الظاهر من الآية الكريمة * (فائدة) * اتفق القراء هنا على قراءة سخريا بضم السين ثم بين تعالى حقارة الدنيا وخستها التى يفتخرون بها بقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس) أى أهل التمتع بالاموال بما فيهم من الاضطراب والانس بأنفسهم (أمة واحدة) أى فى الضلال بالكفر لاعتقادهم ان اعطاءنا

المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه لجهلهم الدنيا وجعلها محط أنظارهم وهممهم الا من عصمه الله تعالى (لجعلنا) أى فى كل زمان وكل مكان بما لنا من العظمة التى لا يقدر أحد على معارضتها لحقارة الدنيا عندنا وبغضنا لها (لمن يكفر) وقوله تعالى (بالرحمن) أى العام الرحمة دليل على حقارة الدنيا من جهة اعطائها الابعد الممقوت وعلى ان صفة الرحمة مقتضية لتناهى بسط النعم على الكافر لولا العلة التى ذكرها الله تعالى من الرفق بالمؤمنين وقوله تعالى (لبيوتهم) بدل من لمن بدل اشتمال باعادة العامل واللامان للاختصاص (سقفا من فضة) قال البقاعى كانه خصها أى الفضة لافادتها النور وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء الموحدة والباقون بكسرها وقرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين وسكون القاف على ارادة الجنس والباقون بضمها جمعا وقوله تعالى (ومعارج) جمع معرج وهو السلم أى من فضة أيضا وسميت المصاعد من الدرج معارج لان المشى عليها مثل مشى الاعرج (عليها) خاصة لتيسر أمرها لهم (يظهرون) أى يعلون ويرتقون على ظهرها الى المعالى (ولبيوتهم أبوابا) اى من فضة أيضا وقوله تعالى (وسررا) أى من فضة جمع سرير ودل على هدو بالهم وصفاء أوقاتهم وأحوالهم بقوله تعالى (عليها يتكئون) ودل على ما هو أعظم من الفضة بقوله تعالى (وزخرفا) أى ذهبا وزينة كاملة عامة *(تنبيه)* زخرفا يجوز أن يكون منصوبا بجعل أى وجعلنا لهم زخرفا وجوز الزمخشرى أن ينتصب عطفا على محل من فضة كانه قيل سقفا من فضة وذهب فلما حذف الخافض انتصب أى بعضها كذا وبعضها كذا وقيل الزخرف هو الذهب لقوله تعالى أو يكون لك بيت من زخرف فيكون المعنى ويجعل لهم مع ذلك ذهبا كثيرا وقيل الزخرف الزينة لقوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت فيكون المعنى نعطيهم زينة عظيمة فى كل باب (وان كل ذلك) أى البعيد من الخير لكونه فى الاغلب مبعدا عما رضينا (لما متاع الحياة الدنيا) أى التى اسمها دال على دناءتها يتمتع به فيها ثم يزول وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم بعد اللام بمعنى الا وحكى سيبويه أنشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا وتكون ان نافية أى وما كل ذلك الا متاع الحياة الدنيا وقرأ الباقون بالتخفيف فتكون ان هى المخففة من الثقيلة أى وانه كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا (والآخرة) أى الجنة التى لا دار تعدلها بل لا دار فى الحقيقة الا هى (عند ربك) أى المحسن اليك بأن جعلك أفضل الخلق (للمتقين) أى الذين هم دائما واقفون عن أدنى تصرف الا بدليل لا يشاركهم فيها غيرهم من الكفار ولهذا لما ذكر عمر رضى الله عنه كسرى وقيصر وما كانا فيه من النعم قال النبى صلى الله عليه وسلم ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة وقال صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر قطرة ماء وروى المستورد بن شداد قال كنت فى الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترى هذه هانت على أهلها حتى ألقوها قالوا من هوانها ألقوها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها أخرجه

الترمذي وقال حديث حسن وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وعن قتادة بن النعمان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبده حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء قال البقاعي ولا يبعد أن يكون ما صار اليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الابنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادي الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة حتى لا تقوم الساعة على من يقول الله أو في زمن الدجال لان من يبقى اذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث انه لا عداد لهم في جانب الكفرة لان كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة وان خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه (فان قيل) لم بين تعالى انه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سببا لاجتماع الناس على الكفر فلم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير سببا لاجتماع الناس على الاسلام (أجيب) بأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الاسلام لطلب الدنيا وهذا الايمان ايمان المنافقين فاقتضت الحكمة أن لا يجعل ذلك للمسلمين حتى ان كل من دخل في الاسلام يدخل لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى (ومن يعش) أي يعرض (عن ذكر الرحمن) أي الذي عمت رحمته فلا رحمة على أحد الا وهي منه تعالى كما فعل هؤلاء حين متعناهم وآباءهم حتى أبطرهم ذلك وهو شيء يسير جدا فأعرضوا عن الآيات والدلائل فلم ينظروا فيها الا نظرا ضعيفا كنظر من عشا بصره وهو من ساء بصره بالليل والنهار (نقيض) أي نسبب (له) عقابا على اعراضه عن ذكر الله تعالى (شيطانا) أي شخصا ناريا بعيدا من الرحمة يكون غالبا عليه محيطا به مثل قيض البيضة وهو القشر الداخل (فهو له قرين) أي مشدود به لا يفارقه فلا يمكنه التخلص منه ما دام متعاميا عن ذكر الله تعالى فهو يزين له العمى ويخيل اليه أنه على عين الهدى كما أن من يستبصر بذكر الرحمن يحضر له ملك فهو له ولي يبشره الى كل خير فذكر الله تعالى حصن حصين من الشيطان الرجيم متى خرج العبد منه أسره العدو كما ورد في الحديث (وانهم) أي القرناء (ليصدونهم) أي العاشين (عن السبيل) أي الطريق الذي من حاد عنه هلك لانه لا طريق له في الحقيقة سواه (ويحسبون) أي العاشون مع سيرهم في المهالك لتزيين القرناء باحضار الحظوظ والشهوات وابعاد المواعظ (أنهم مهتدون) أي عريقون في هذا الوصف لما يستدرجون به من التوسعة عليهم والتضييق على الذاكرين *(تنبيه)* ذكر الانسان والشيطان بلفظ الجمع لان قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين يفيد الجمع وان كان اللفظ على الواحد قال أبو حيان الظاهر أن ضميري النصب في وانهم ليصدونهم عائدان على من من حيث معناها وأما لفظها أولا فأفرد في له وله ثم راعى معناها فجمع في قوله تعالى وانهم ليصدونهم والضمير المرفوع على الشيطان لان المراد به الجنس ولان كل كافر معه قرينه وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها وقرأ (حتى اذا جاءنا) نافع وابن عامر وأبو بكر بعد الهمزة بعد الجيم على التثنية أي جاء العاشي والشيطان

والباقون بغير مد افرادا أى جاء العاشى (قال) أى العاشى تندما وتحسرا الانتفاع له به لفوات محله وهو دار العمل (ياليت بينى وبينك) أى أيها القرين (بعد المشرقين) أى ما بين المشرق والمغرب على التغليب قاله ابن جرير وغيره أو مشرق الشتاء والصيف أى بعد أحدهما عن الآخر ثم سبب عن هذا التمنى قوله جامعا له أنواع المذام (فبئس القرين) والمخصوص بالذم محذوف أى أنت لانك الذى قد أضللتنى وأوصلتنى الى هذا العيش الضنك والمحل الدحض قال أبو سعيد الخدرى اذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصيرا الى النار وفى فاعل قوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم) قولان أحدهما انه ملفوظ به وهو أنكم وما فى حيزها والتقدير ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب بالتأسى كما ينفعكم الاشتراك فى مصائب الدنيا فيتأسى المصاب بمثله ومنه قول الخنساء

ولولا كثرة الباكين حولى * على موتاهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن * أعزى النفس عنه بالتأسى

والثانى انه مضمر فقدره بعضهم ضميرا التمنى المدلول عليه بقوله ياليت بينى أى لن ينفعكم تمنيكم البعد وبعضهم اجتماعكم وبعضهم ظلمكم وجحدكم وعبارة من عبر بأن الفاعل محذوف مقصوده الاضمار المذكور ولا الحذف اذ الفاعل لا يحذف الا فى مواضع ليس هذا منها والمعنى ولن ينفعكم اليوم فى الآخرة (اذ ظلمتم) أى أشركتم فى الدنيا (أنكم فى العذاب مشتركون) أى لا ينفعكم الاشتراك فى العذاب ولا يخفف الاشتراك عنكم لان لكل واحد من الكفار والشياطين الحظ الاوفر من العذاب وقال مقاتل لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون فى العذاب كما كنتم تشتركون فى الدنيا *(تنبيه)* استشكل المعربون هذه الآية ووجهه أن قوله تعالى اليوم ظرف حالى واذ ظرف ماض وينفعكم مستقبل لاقترانه بلن التى لنفى المستقبل والظاهر أنه عامل فى الظرفين وكيف يعمل الحدث المستقبل الذى لم يقع الا بعد فى ظرف حالى وماض هذا مما لا يجوز (أجيب) عن اعماله فى الظرف الحالى على سبيل قربه منه لان الحال قريب من الاستقبال فيجوز فى ذلك قال تعالى فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا وقال الشاعر

سأسعى الآن اذ بلغت أناها * وهو اقناعى والا فالمستقبل يستحيل وقوعه فى الحال عقلا وأما قوله تعالى اذ ففيها للناس أوجه كثيرة قال ابن جنى راجعت أبا على فيها مرارا كثيرة فآخر ما حصلت منه ان الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء فى حكم الله تعالى وعلمه فاذ بدل من اليوم حتى كأنها مستقبلة أو كان اليوم ماض والى هذا نحا الزمخشرى قال واذ بدل من اليوم وحمل الزمخشرى على معنى اذ تبين وصح ظلمكم ولم يبق لاحد ولا لكم شبهة فى انكم كنتم ظالمين ونظيره * اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * أى تبين انى ولد كريمة ولما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم بالصمم والعمى بقوله تعالى (أفأنت) أى وحدك من غير ارادة الله تعالى (تسمع الصم) وقد أصممناهم بما صببنا فى مسامع أفهامهم من رصاص الشقاء

(او

(أو تهدى العمى) الذين أعميناهم بما غشينا به أبصار بصائرهم من أغشية الخسارة روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا تصميما على الكفر وتماديا فى الغى فنزلت أى هم فى النفرة عنك وعن دينك بحيث اذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم واذا أريتهم المعجزات كانوا كالعمى وقوله تعالى (ومن كان) أى جبلة وطبعا (فى ضلال مبين) عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين وفيه اشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم فى ضلال لا يخفى بين فى نفسه أنه ضلال وأنه محيط بالضال يظهر لكل أحد ذلك فهو بحيث لا يخفى على أحد فالمعنى ليس شئ من ذلك اليك بل هو الى الله تعالى القادر على كل شئ وأما أنت فليس عليك الا البلاغ فلا تتعب نفسك (فاما نذهبن بك) أى من بين أظهرهم بموت أو غيره وما مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم فى استجلاب النون المؤكدة (فانا منهم) أى من الذين تقدم التعريض بأنهم صم عمى ضلال لم تنفعهم مشاعرهم. (منتقمون) أى بعد فراقك لان وجودك بين أظهرهم هو سبب تأخير العذاب عنهم (أو نرينك) وأنت بينهم (الذى وعدناهم) أى من العذاب وعبر فيه بالوعد ليدل على الخير بلفظه وعلى الشر بأسلوبه (فانا) أى بما لنا من العظمة التى أنت أعلم الخلق بها (عليهم) أى على عقابهم (مقتدرون) على كلا التقديرين وأكدبان لأن أفعالهم أفعال من ينكر قدرته وكذا بالاتيان بنون العظمة وصيغة الافتعال (فاستمسك) أى اطلب وأوجد بجد عظيم على كل حال من أحوال الامساك (بالذى أوحى اليك) من حين نبوتك الى الآن فى الانتقام منهم وفى غيره (انك على صراط) أى طريق واسع واضح جدا (مستقيم) أى موصل الى المقصود لا يصح أصلا أن يلحقه شئ من عوج (وانه) أى الذى أوحى اليك فى الدين والدنيا (لذكر) أى لشرف عظيم جدا وموعظة وبيان (لك ولقومك) قريش خصوصا لنزوله بلغتهم والعرب عموما وسائر من اتبعك ولو كان من غيرهم روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا سئل لمن هذا الامر بعدك لم يخبر بشئ حتى نزلت هذه الآية فكان بعد ذلك اذا سئل لمن هذا الامر بعدك قال لقريش وروى ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان وروى معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا الامر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين وقال مجاهد القوم هم العرب فالقرآن لهم شرف اذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الاخص فالاخص من العرب حتى يكون الاكثر لقريش ولبنى هاشم وقيل ذكر لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك من المؤمنين بما هداهم الله تعالى به (وسوف تسئلون) أى عن القرآن يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له وقال الكلبى تسئلون هل أديتم شكر انعامنا عليكم بهذا الذكر الجليل وقال مقاتل يقال لمن كذب به لم كذبت فيسئل سؤال توبيخ وقيل يسئلون هل عملتم بما دل عليه القرآن من التكاليف وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال لما أسرى بالنبى صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى الى السموات العلى بعث له آدم وولده من

المرسلين عليهم السلام فأذن جبريل عليه السلام ثم اقام وقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل عليه السلام (واسأل من أرسلنا) أى على مالنا من العظمة (من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن) أى غيره (آلهة يعبدون) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسأل قد اكتفيت ولست شاكا فيه وهذا قول الزهرى وسعيد بن جبير وأبى زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسرى به وأمر أن يسألهم فلم يسأل ولم يشك وقال أكثر المفسرين سل مؤمنى أهل الكتاب الذين أرسلت اليهم الانبياء عليهم السلام هل جاءتهم الرسل الا بالتوحيد وهو قول مجاهد وقتادة والسدى ولم يسأل النبى صلى الله عليه وسلم على واحد من القولين لان المراد من الامر بالسؤال التقرير لمشركى قريش انه لم يأت رسول من الله تعالى ولا كتاب بعبادة غير الله تعالى * ولما طعن كفار قريش فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بكونه فقيرا عديم الجاه والمال بين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة التى لا يشك فى صحتها عاقل أورد عليه فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال تعالى (ولقد أرسلنا) أى بما ظهر من عظمتنا (موسى) أى الذى كان يرى فرعون انه أحق الناس بعظمته لانه رباه وكفله (بآياتنا) التى قهر بها عظماء الخلق وجبابرتهم فدل ذلك على صحة دعواه (الى فرعون) الذى ادعى أنه الرب الاعلى (وملائه) أى القبط (فقال) أى بسبب ارسالنا (انى رسول رب العالمين) أى مالكهم ومدبرهم ومربيهم فقالوا له ائت بآية فأتى بها (فلما جاءهم بآياتنا) أى بآيتى اليد والعصا اللتين شاهدوا فيهما عظمتنا ودلهم ذلك على قدرتنا على جميع الآيات (اذا هم) أى بأجمعهم (منها يضحكون) أى فاجؤا المجىء بها من غير توقف ولا تأمل بالضحك سخرية واستهزاء قيل انه لما ألقى عصاه صارت ثعبانا فلما أخذه صار عصا كما كانت ضحكوا * ولما أعرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا (وما) أى والحال انا ما (نريهم) على مالنا من الجلال والعلو وأغرق فى النفى باثبات الجار فقال تعالى (من آية) أى من آيات العذاب كالطوفان وهو ماء دخل بيوتهم ووصل الى حلوق الجالسين سبعة أيام والجراد وغير ذلك (الا هى أكبر) أى فى الرتبة (من أختها) أى التى تقدمت عليها بالنسبة الى علم الناظرين لها (وأخذناهم) أى أخذ قهر وغلبة (بالعذاب) أى أنواع العذاب كالدم والقمل والضفادع والبرد الكبار الذى لم يعهد مثله ملتهبا بالنار وموت الابكار فكانت آيات على صدق موسى عليه السلام بما لها من الاعجاز وعذابا لهم فى الدنيا موصولا بعذاب الآخرة فيا لها من قدرة باهرة وحكمة ظاهرة (لعلهم يرجعون) أى ليكون حالهم عندنا اذا نظرهم الجاهل بالعواقب حال من يرجى رجوعه (و) لما عاينوا العذاب (قالوا) لموسى أى قال فرعون بالمباشرة وأتباعه بالموافقة له (يا أيها الساحر) فنادوه بذلك فى تلك الحالة لشدة شكيمتهم وفرط حماقتهم أو لانهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحرا (ادع لنا ربك) أى المحسن اليك بما يفعل معك من هذه الافعال التى نهيتنا بها اكراما لك (بما) أى بسبب ما (عهد عندك) أى من كشف العذاب عنا ان آمنا (اننا لمهتدون) أى مؤمنون (فلما كشفنا) أى على مالنا من العظمة التى ترهب الجبال

قوله بعظمته أى بتعظيمه اياه اهـ

(عنهم العذاب) أى الذى أنزلناه بهم (اذا هم ينكثون) أى فاجؤا الكشف بتجدد النكث بالخلاف بعد الخلاف (ونادى فرعون) أى زيادة على نكثه (فى قومه) أى الذين هم فى غاية القيام معه وأمر كلا منهم أن يشيع قوله اشاعة تعم البعيد والقريب فتكون كانها مناداة اعلاما بأنه مستمر على الكفر لئلا يظن بعضهم انه رجع فيرجعون * ولما كان كانه قيل بم نادى أجاب بقوله (قال) أى خوفا من اعيان القبط لما رأى من أن ماشاهدوه من باهر الآيات مثله يزلزل ويأخذ القلوب (يا قوم) مستعطفا لهم باعلامهم أنهم لحمة واحدة ومستنهضا بوصفهم بأنهم ذو قوة على ما يحاولونه مقررا لهم على عذره فى نكثه بقوله (أليس لى) أى وحدى (ملك مصر) أى كله فلا اعتراض على من بنى اسرائيل ولا غيرهم (وهذه) أى والحال أن هذه (الانهار) أى أنهار النيل قال البيضاوى ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس وقال البقاعى كأنه كان قد أكثر من تشقيق الخلجان الى بساتينه وقصوره ونحو ذلك من أموره فقال (تجرى من تحتى) أى تحت قصرى أو أمرى أو بين يدى فى جنانى وزاد فى التقرير بقوله (أفلا تبصرون) أى هذا الذى ذكرته لكم فتعلموا ببصائر قلوبكم أنه لا ينبغى لاحد أن ينازعنى وهذا العمرى قول من ضعفت قواه وانحلت عراه (أم أنا خير) أى مع ما وصفت لكم من ضخامتى ومالى من القدرة على اجراء المياه التى بها حياة كل شئ (من هذا) وكنى باشارة القريب عن تحقيره ثم وصفه بما يبين مراده بقوله (الذى هو مهين) أى ضعيف حقير ذليل لانه يتعاطى أموره بنفسه وليس له ملك ولا قوة يجرى بها نهرا ولا ينفذ بها أمرا (ولا يكاد يبين) أى لا يقرب من أن يعرب عن معنى من المعانى لما فى لسانه من الحبسة فلا هو قادر فى نفسه ولا له قوة بلسانه على تصريف المعانى وتنويع البيان ليستجلب القلوب وينعش الالباب فتكثر أتباعه ويفخم أمره وقد كذب فى جميع قوله فقد كان موسى عليه السلام أبلغ أهل زمانه قولا وفعلا بتقدير الله تعالى الذى أرسله وأمره اياه ولكن اللعين استند هذا الى ما بقى فى لسانه من الحبسة تخييلا لاتباعه لان موسى عليه السلام ما دعا بازالة جميع حبسته بل بعقدة منها فانه قال واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى *(تنبيه)* فى أم من قوله أم أنا خير أقوال أحدها انها منقطعة فتقدر ببل التى للاضراب الانتقال وبالهمزة التى للانكار والثانى انها بمعنى بل فقط كقوله

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى * وصورتها أم أنت فى العين أملح

أى بل أنت الثالث أنها منقطعة لفظا متصلة معنى قال أبو البقاء أم هنا منقطعة فى اللفظ لوقوع الجملة بعدها فى اللفظ وهى فى المعنى متصلة معادلة اذ المعنى أنا خير منه أم لا وأينا خير قال ابن عادل وهذه عبارة غريبة أن تكون منقطعة لفظا متصلة معنى وذلك أنهما معنيان مختلفان فان الانقطاع يقتضى اضرابا اما ابطالا واما انتقالا ثم ان فرعون اللعين ظن ان القرب من الملوك والغلبة على الامور لا تكون الا بكثرة الاعراض الدنيوية والتحلى بحلى الملوك ولذا قال (فلولا)

أى فهلا (ألقى عليه) من عند مرسله الذى يدعى انه الملك بالحقيقة (أساورة) وقرأ حفص بسكون السين ولا ألف بعدها كالاحمرة والباقون بفتح السين وألف بعدها فاسورة جمع سوار كحمار وأحمرة وهو جمع قلة وأساورة جمع اسوار بمعنى سوار يقال سوار المرأة واسوارها والاصل أساوير بالياء فعوض من حرف المد تاء التأنيث كزنديق وزنادقة وبطريق وبطارقة (وقيل) بل هى جمع اسورة فهى جمع الجمع قاله الزجاج والسوار ما يوضع فى المعصم من الحلية (من ذهب) ليكون ذلك امارة له على صحة دعواه كما نفعل نحن عند انعامنا على أحد من عبيدنا بالارسال الى ناحية من النواحى لمهم من المهمات اذ كان من عادتهم انهم اذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فطلب فرعون من موسى عليه السلام مثل عادتهم (أو جاء معه) أى صحبته عند ما جاء الينا بهذا النبأ الجسيم والملم العظيم (الملائكة) أى هذا النوع وأشار الى كثرتهم بما بين من الحال بقوله (مقترنين) أى يقارن بعضهم بعضا بحيث يملؤن الفضاء ويكونون فى غاية القرب منه بحيث يكون مقارنا لهم ليجاب الى هذا الامر الذى جاء يطلبه كما نفعل نحن اذا أرسلنا رسولا الى أمر يحتاج الى دفاع وخصام ونزاع فكان حاصل أمره كما ترى انه تعزز باجراء المياه فأهلكه الله تعالى بها ايماء الى أن من تعزز بشئ دون الله تعالى أهلكه الله به واستصغر موسى عليه السلام وعابه بالفقر والعى فسلطه الله تعالى عليه اشارة الى أنه ما استصغر أحد شيأ الا غلبه أفاده القشيرى (فاستخف) أى بسبب هذه الخدع التى سحرهم بها فى هذا الكلام الذى هو فى الحقيقة محقر له موهن لامره قاصم لملكه عند من له لب (قومه) الذين لهم قوة عظيمة فحملهم بغروره على ما كانوا مهيئين له من خفة الحلم (فأطاعوه) أى بأن أقروا بملكه واعترفوا بربوبيته وردوا أمر موسى عليه السلام (انهم كانوا) أى بما فى جبلاتهم من الشر (قوما فاسقين) أى عريقين فى الخروج عن طاعة الله تعالى الى معصيته فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق (فلما آسفونا) أى أغضبونا فى الافراط فى العناد والعصيان منقول من اسف اذا اشتد غضبه حكى ان ابن جريج غضب فى شئ فقيل له أتغضب يا أبا خالد فقال قد غضب الذى خلق الاحلام ان الله تعالى يقول فلما آسفونا أى أغضبونا (انتقمنا منهم) أى أوقعنا بهم على وجه المكافأة بما فعلوا برسولنا عليه السلام عقوبة عظيمة منكرة مكروهة كأنها بعلاج (فأغرقناهم أجمعين) أى اهلاك نفس واحدة لم يفلت منهم أحد على كثرتهم وقوتهم وشدتهم *(تنبيه)* ذكر لفظ الاسف فى حق الله تعالى وذكر لفظ الانتقام كل واحد منهما من المتشابهات التى يجب تأويلها فمعنى الغضب فى حق الله تعالى ارادة العذاب ومعنى الانتقام ارادة العقاب بجرم سابق وقال بعض المفسرين معنى آسفونا احزنوا أولياءنا (فجعلناهم) أى بأخذنا لهم على هذه الصورة من الاغراق وغيره مما تقدمه (سلفا) أى متقدما للكل من يهلك بعدهم اهلاك غضب فى الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة أو قدوة لمن يريد العلو فى الارض فتكون عاقبته فى الهلاك فى الدارين أو احداهما عاقبتهم كما قال تعالى وجعلناهم أئمة يدعون

الى النار (ومثلا) أى حديثا عجيب الشأن سائرا سير المثل (للآخرين) أى الذين خلفوا بعدهم من زمنهم الى آخر الدهر فيكون حالهم عظة للناس واضلالا للآخرين فمن أريد به الخير وفق لمثل خير يرده عن غيه ومن أريد به الشر اقتدى به فى الشر وقرأ حمزة والكسائى بضم السين واللام والباقون بفتحهما فأما الاولى فتحتمل ثلاثة أوجه أحدها أنه جمع سليف كرغيف ورغف وسمع القاسم بن معن من العرب سليف من الناس كالفريق منهم والثانى أنه جمع سالف كصابر وصبر والثالث انها جمع سلف كاسد وأسد وأما الثانية فتحتمل وجهين أحدهما أن يكون جمعا لسالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا فى الحقيقة اسم جمع لا جمع تكسير اذ ليس فى ابنية التكسير صيغة فعل والثانى انه مصدر يطلق على الجماعة تقول سلف الرجل يسلف سلفا أى تقدم والسلف كل شئ قدمته من عمل صالح أو قرض وسلف الرجل آباؤه المتقدمون والجمع اسلاف وسلاف وقال طفيل سلفوا اسلافا قصد السبيل عليهم صروف المنايا والرجال تقلب واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين نزلت فى مجادلة عبد الله بن الزبعرى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى عليه السلام لما نزل قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم كما تقدم فى سورة الانبياء والمعنى ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى اياه (اذا قومك) اى من قريش (منه) أى من هذا المثل (يصدون) أى يرفع لهم ضجيج فرحا بسبب ما رأوا من سكوت النبى صلى الله عليه وسلم فان العادة قد جرت بان أحد الخصمين اذا انقطع أظهر الخصم الثانى الفرح والضجيج وقال قتادة يقولون ما يريد محمد منا الا ان نعبده ونتخذه الها كما عبدت النصارى عيسى (وقالوا أآلهتنا) أى التى نعبدها من الاصنام (خير أم هو) قال قتادة يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا وقال السدى وابن زيد يعنون عيسى عليه السلام قالوا انه يزعم محمد أن كل ما نعبد من دون الله فهو فى النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة فى النار قال الله تعالى (ما ضربوه) أى المثل (لك الا جدلا) أى خصومة بالباطل لعلمهم أن لفظ ما لغير العاقل فلا يتناول من ذكروه (بل هم قوم) أى أصحاب قوة على القيام فيما يحاولونه (خصمون) أى شديد والخصام روى الامام أحمد عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم يصدون بكسر الصاد والباقون بضمها وهما بمعنى واحد يقال صد يصد ويصد كعكف يعكف ويعكف وعرش يعرش ويعرش وقيل الضم من الصدود وهو الاعراض وقرأ الكوفيون أآلهتنا بتحقيق الهمزتين والباقون بتسهيل الثانية واتفقوا على ابدال الثانية ألفا ثم انه تعالى بين أن عيسى عبد من عبيده الذين أنعم عليهم بقوله تعالى (ان) أى ما (هو) أى عيسى عليه السلام (الا عبد) أى وليس هو باله (أنعمنا) أى بما لنا من العظمة (عليه) أى بالنبوة والاقدار على

قوله سلفوا السبيل الخ خرم اه

الخوارق (وجعلناه) أى بما خرقنا به العادة فى ميلاده وغير ذلك من آياته (مثلا) أى أمراعجيبا كالمثل لغرابته من أنثى فقط بلا واسطة ذكر كما خلقنا آدم من غير ذكر وأنثى وشرفناه بالنبوة (لبنى اسرائيل) الذين هم أعرف الناس به بعضهم بالمشاهدة وبعضهم بالنقل القريب المتواتر فيعرفون به قدرة الله تعالى على مايشاء حيث خلقه من غير أب (ولو نشاء) أى على مالنا من العظمة (لجعلنا) ماهو أغرب مما صنعناه من أمر عيسى (منكم) أى بجعلا مبتدأ منكم اما بالتوالد كما جعلنا عيسى عليه السلام من أنثى من غير ذكر وجعلنا آدم عليه السلام من تراب من غير أنثى ولا ذكر واما بالبداية (ملائكة فى الارض يخلفون) أى يخلفونكم فى الارض والمعنى ان حال عيسى عليه السلام وان كانت عجيبة فالله تعالى قادر على ماهو أعجب من ذلك وان الملائكة مثلكم من حيث انها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليدا كما جاز خلقها ابداعا فمن أين لهم استحقاق الالوهية والانتساب الى الله تعالى (وانه) أى عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) أى نزوله سبب للعلم بقرب الساعة التى هى تعم الخلائق كلهم بالموت فنزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قال صلى الله عليه وسلم يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتهلك فى زمنه الملل كلها الا الاسلام وروى انه ينزل على ثنية بالارض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين يقتل الدجال ويأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر وروى فى صلاة الصبح فيتأخر الامام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الامن آمن به وقال النبى صلى الله عليه وسلم كيف أنتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم وقال الحسن وجماعة وانه أى القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها ويخبركم أحوالها وأهوالها (فلا تمترن بها) حذف منه نون الرفع للجزم وواو الضمير لالتقاء الساكنين من المرية وهى الشك أى لاتشكن فيها وقال ابن عباس لاتكذبوا بها (واتبعون) أى أوجدوا تبعكم لى (هذا) أى كل ماأمرتكم به من هذا أو غيره (صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى لاعوج له وقرأ أبو عمرو باثبات الياء فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وصلا ووقفا (ولا يصدنكم الشيطان) أى عن هذا الطريق الواضح الواسع المستقيم الموصل الى المقصود بايسر سعى (انه لكم) أى عامة وأكد الخبر لان أفعال التابعين له أفعال من ينكر عداوته (عدو مبين) أى واضح العداوة فى نفسه منادبها وذلك بابلاغه فى عداوة أبيكم آدم عليه السلام حتى أنزلكم بانزاله عن محل الراحة الى موضع النصب عداوة ناشئة عن الحسد فهى لاتنفك أبدا (ولما جاء عيسى) أى الى بنى اسرائيل (بالبينات) أى المعجزات أى بآيات الانجيل وبالشرائع الواضحات (قال) منبها لهم (قد جئتكم) بما يدلكم قطعا على انى آية من عند الله وكلمة منه (بالحكمة) أى الامر المحكم الذى لا يستطاع نقضه ولا يدفع بالمعاندة لاخلصكم بذلك مما وقعتم فيه من الضلال (ولابين لكم) أى بيانا واضحا

(بعض الذى تختلفون) أى الآن (فيه) ولا تزالون تجددون الخلاف بسببه (فان قيل)
لم لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه (أجيب) بأنه بين لهم كل ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق
بأمر الدنيا فان الانبياء لم تبعث لبيانه ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم بامر دنياكم
ويحتمل أن يكون المراد أنه يبين لهم بعض المتشابه وهو ما يكون بيانه كافيا فى رد بقية المتشابه
الى المحكم بالقياس عليه فان الشأن فى كل كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه فالمحكم ما ليس
فيه التباس والمتشابه ما يكون ملتبسا وفيه ما يرده الى المحكم لكن على طريق الرمز والاشارة التى
لا يذوقها الا أهل البصائر ليتبين بذلك الصادق من الكاذب فالصادق الذى رسخ علما وايمانا
يرد المتشابه منه الى المحكم أو يعجز فيقول الله أعلم بمراده ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ولا
يتزلزل والكاذب يتبع المتشابه فيجريه على ظاهره كأهل الالحاد الجوامد المفتونين أو يؤوله
بحسب هواه بما لا يتمشى على قواعد العلم ولا يوافق المحكم فيفتتن * ولما بين لهم الاصول
والفروع قال (فاتقوا الله) أى خافوا من له الملك الاعظم من الكفر والاعراض عن دينه
لان له كل شئ منكم ومن غيركم ومن المعلوم لكل ذى عقل أنه لا يتصرف فى ملك الغير بوجه من
الوجوه الا باذنه (وأطيعون) أى فيما أبلغه عنه الحكيم من التكاليف فطاعتى لامره بما
يرضيه هو ثمرة التقوى وكلما زاد المتقى فى أعمال الطاعة زادت تقواه (ان الله) أى الذى اختص
بالجلال والجمال فكان أهلا لان يتقى (هو) أى وحده (ربى وربكم) أى المحسن الىّ واليكم
(فاعبدوه) أى بما أمركم به لانه صدقنى فى أمركم باتباعى بما أظهره على يدى فصار هو الآمر
لكم لا أنا (هذا) أى الامر العظيم الذى دعوتكم اليه (صراط) أى طريق واسع جدا واضح
(مستقيم) لا عوج فيه * ولما كان الطريق الواضح القويم موجبا للاجتماع عليه والوفاق عند
سلوكه بين تعالى أنهم اختلفوا فيه بقوله تعالى (فاختلف الاحزاب) أى الفرق المتحزبة (من بينهم)
أى اختلافا ناشئا ابتداء من بنى اسرائيل فى عيسى أهو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة وقوله تعالى
(فويل) كلمة عذاب (للذين ظلموا) أى وضعوا الشئ فى غير موضعه بما قالوه فى عيسى عليه
السلام (من عذاب يوم أليم) أى مؤلم واذا كان اليوم مؤلما فما الظن بعذابه (هل ينظرون)
أى هل ينظر كفار مكة أو الذين ظلموا (الا الساعة) أى ساعة الموت العام والبعث والقيامة
فان ذلك لتحقق أمره كأنه موجود منظور اليه وقوله تعالى (أن تأتيهم) بدل من الساعة (فان
قيل) قوله تعالى (بغتة) أى فجأة يفيد قوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى بوقت مجيئها قبله
(أجيب) بأنه يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه (الاخلاء) أى
الاحباء فى الدنيا على المعصية وقوله تعالى (يومئذ) أى يوم القيامة متعلق بقوله تعالى (بعضهم
لبعض عدو) أى يتعادون فى ذلك اليوم لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتحابون له سببا للعذاب
(الا المتقين) أى المتحابين فى الله على طاعة الله تعالى وهم الموحدون الذين يخالل بعضهم بعضا
على الايمان والتقوى فان خلتهم لا تصير عداوة روى أبو ثور عن معمر عن قتادة عن أبى اسحق
ان عليا قال فى الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين فقال يارب ان فلانا

كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني أني ملاقيك يارب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني فاذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما فيقول ليثنين أحدكم على صاحبه فيقول نعم الاخ ونعم الخليل ونعم الصاحب قال ويموت أحد الكافرين فيقول يارب ان فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فبئس الاخ وبئس الخليل وبئس الصاحب ثم بين تعالى ما يلقى به المؤمنين الذين قد تواددوا فيه سبحانه تشريفا لهم وتسكينا لما يقتضيه ذلك المقام من الاهوال بقوله تعالى (ياعباد) فأضافهم الى نفسه اضافة تشريف لان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين وفيه أنواع كثيرة توجب المدح أولها ان الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة وهذا تشريف عظيم بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى سبحان الذي أسرى بعبده وثانيها قوله تعالى (لا خوف) أي بوجه من الوجوه (عليكم اليوم) أي في يوم الآخرة مما يحويه من الاهوال والامور الشداد والزلزال وثالثها قوله تعالى (ولا أنتم تحزنون) أي لا يتجدد لكم حزن على شيء فات في وقت من الاوقات الآتية لانكم لا يفوتكم شيء تسرون به وقرأ شعبة بفتح الياء في الوصل وسكنها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحذفها الباقون وقفا ووصلا وقوله تعالى (الذين آمنوا) أي أوجدوا هذه الحقيقة يجوز أن يكون نعتا لعبادي أو بدلا منه أو عطف بيان له أو مقطوعا منصوبا بفعل أي أعني الذين آمنوا أو مرفوعا وخبره مضمر تقديره يقال لهم ادخلوا الجنة قال مقاتل اذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناديا عبادي لا خوف عليكم اليوم فاذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤسهم فيقول الذين آمنوا (بآياتنا) الظاهرة عظمتها في نفسها أولا وبنسبتها الينا ثانيا (وكانوا) أي دائما اهواؤهم كالجبلة والخلق (مسلمين) أي منقادين للاوامر والنواهي أتم انقياد فبذلك يعدلون الى حقيقة التقوى فينكس أهل الاديان الباطلة رؤسهم فيميز حسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم (ادخلوا الجنة) ولما كان السرور لا يكمل الا بالرفيق السار قال تعالى (أنتم وأزواجكم) أي نساؤكم اللاتي كن مشاكلات لكم في الصفات وأما قرناؤهم من الرجال فدخلوا في قوله تعالى وكانوا مسلمين (تحبرون) أي تسرون وتنعمون والحبرة المبالغة في الاكرام على أحسن الوجوه وقوله تعالى (يطاف) قبله محذوف أي يدخلون يطاف (عليهم) أي المتقين الذين جعلناهم بهذا النداء ملوكا (بصحاف من ذهب) فيها من ألوان الاطعمة والفواكه والحلوى ما لا يدخل تحت الوهم والصحاف جمع صحفة كجفنة وجفان قال الجوهري الصحفة كالقصعة والجمع صحاف قال الكسائي أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصحيفة تشبع الرجل والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف * ولما كانت آلة الشرب في الدنيا أقل من آنية الاكل جرى على ذلك المعهود فعبر بجمع القلة في قوله تعالى (وأكواب) جمع كوب وهو كوز مستدير مدور الرأس لا عروة له ايذانا بأنه لا حاجة أصلا الى تعليق شيء لتبريد أو صيانة

عن اذى أونحوذلك وقيل هوكالابريق الاأنه لاعروة له وقيل انه لاخرطوم له وقيل انه لاعروة له ولاخرطوم معا قال الجوالبقى ليتمكن الشارب من أين شاء فان العروة تمنع من ذلك وقال عدى

متكأ تصفق أبوابه * يطوف عليه العبد بالكوب

ثم انه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بيانا كليا فقال (وفيها) أى الجنة (ماتشتهى الانفس) من الاشياء المعقولة والمسموعة والملموسة جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات فى الدنيا (وتلذ الاعين) أى من الاشياء المبصرة التى أعلاها النظر الى وجهه الكريم جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق روى أن رجلا قال يارسول الله أفى الجنة خيل فانى أحب الخيل فقال ان يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أى الجنة شئت الافعلت فقال أعرابى يارسول الله أفى الجنة ابل فانى أحب الابل فقال يا أعرابى ان أدخلك الله الجنة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك وقرأ نافع وابن عامر وحفص بهاء بعد الياء باثبات العائد على الموصول كقوله تعالى الذى يتخبطه الشيطان من المس والباقون بغيرها بعد الياء كقوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وهذه القراءة مشبهة بقوله تعالى وما عملته أيديهم وهذه الهاء فى هذه السورة رسمت فى مصاحف المدينة والشأم وحذفت من غيرها وقد وقع لابى عبد الله الفاسى شارح القصيدة وهم فسبق قلمه فكتب الهاء منه محذوفة فى مصاحف المدينة والشأم مثبوتة فى غيرها فعكس * ولما كان ذلك لا يكمل الا بالدوام قال تعالى عائدا الى الخطاب لانه أشرف وآكد (وأنتم فيها خالدون) لبقائها وبقاء كل ما فيها فلا كلفة عليهم أصلا من خوف من زوال ولا خوف من فوات * ثم أشار الى فخامتها باداة البعد فقال تعالى (وتلك الجنة) أى العالية المقام (التى أورثتموها) شبه جزاء العمل بالميراث لانه يخلفه عليه العامل وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائى بادغام الثاء المثلثة فى المثناة وأظهرها الباقون (بما) أى بسبب ما (كنتم تعملون) أى مواظبين على ذلك لا تفترون لان العمل كان لهم كالجبلة التى جبلوا عليها فالمنة لربهم فى الحقيقة بما زكى لهم أنفسهم * ولما ذكر سبحانه الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال (لكم فيها فاكهة) أى ما يؤكل تفكها وان كان لحما وخبزا (كثيرة) ودل على الكثرة وعلى دوام النعمة بقصد التفكه لكل شئ فيها بقوله تعالى (منها) أى لا من غيرها مما يحفظ فيه القوت (تأكلون) فلا تنفد أبدا ولا تتأثر بأكل الآكلين لانها على صفة الماء النابع لا يؤخذ منها شئ الا خلف مكانه مثله فى الحال وورد فى الحديث أنه لا ينزع رجل ثمرة الا نبت مكانها مثلاها * (تنبيه) * لما بعث الله تعالى نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام الى العرب وكانت فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة ذكر الله تعالى هذه المعانى مرة بعد أخرى تكميلا لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ومن فى قوله تعالى منها تأكلون تبعيضية أو ابتدائية وقدم الجار لاجل الفاصلة ولما ذكر سبحانه الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن فقال تعالى (ان المجرمين) أى الراسخين فى قطع ما أمر الله به أن يوصل (فى عذاب جهنم)

قوله لانه يخلفه الخ كتب عليه الجمل أى يذهب العمل ويبقى جزاؤه مع العامل اه كرخى اه

أى النار التى من شأنها القاء داخلها بالتجهم والكراهة والعبوسة كما كان يعمل عند قطعه لاولياء الله تعالى (خالدون) لان اجتراءهم كان طبعا لهم لا ينفكون عنه أصلا ما بقوا (لا يفتر عنهم) أى لا يقصد اضعافه بنوع من الضعف فنفى التفتر نفى للفتور ومن غير عكس قال البيضاوى وهو من فترت عنه الحمى اذا سكنت قليلا والتركيب للضعف (وهم فيه) أى العذاب (مبلسون) أى ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج وعن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى خالدا لا يرى ولا يرى (وما ظلمناهم) نوعا من الظلم (ولكن كانوا) جبلة وطبعا وعملا وصنعا (هم الظالمين) لانهم بارزوا المنعم عليهم بالعظائم ونووا أنهم لا ينفكون عن ذلك ما بقوا والاعمال بالنيات * ولما كان مفهوم الابلاس السكوت بين تعالى انهم ابلسوا ساكتين دائما بقوله تعالى (ونادو) ثم بين أن المنادى خازن النار بقوله تعالى مؤكدا البعد بأداته (يا مالك ليقض علينا) أى سل سؤال الاحتما أن يقضى القضاء الذى لا قضاء مثله وهو الموت على كل واحد منا وجروا على عادتهم فى الغباوة والجلافة فقالوا (ربك) أى المحسن اليك فلم يروا الله تعالى عليهم احسانا وهم فى تلك الحالة ولا شك ان احسانه ما انقطع عن موجود أصلا وأقل ذلك انه لا يعذب أحدا منهم فوق استحقاقه ولذلك جعل النار دركات كما جعل الجنة درجات فأجاب مالك عليه السلام بان (قال) مؤكدا قطعا لاطماعهم لان كلامهم هذا هو بحيث يفهم الرجاء واعلاما بأن رحمة الله التى موضع الرجاء خاصة بغيرهم (انكم ماكثون) أى دائما أبدا لا خلاص لكم بموت ولا غيره وليس فى القرآن متى أجابهم هل أجابهم فى الحال أو بعد مدة لكن روى ابن عباس ان أهل النار يدعون مالكا خازن النار يقولون ليقض علينا ربك أى ليمتنا ربك فنستريح فيجيبهم مالك بعد ألف سنة انكم ماكثون أى مقيمون فى العذاب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يجيبهم بعد أربعين وعن غيره مائة سنة واختلفوا فى ان قولهم يا مالك ليقض علينا ربك على أى وجه طلبوه فقال بعضهم على التمنى وقال آخرون على وجه الاستغاثة والا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم من ذلك العذاب ثم انه تعالى ذكر ما هو كالعلة لذلك الجواب بقوله تعالى (لقد جئناكم) أى فى هذه السورة خصوصا وفى جميع القرآن عموما (بالحق) على لسان الرسل وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام (ولكن أكثركم للحق كارهون) لما فيه من المنع من الشهوات فلذلك أنتم تقولون انه ليس بحق لاجل كراهتكم فقط لا لاجل ان فى حقيته نوعا من الخفاء (فان قيل) كيف قال ونادوا يا مالك بعد ان وصفهم بالابلاس (أجيب) بأنها أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتا لشدة ما بهم روى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك ولما ذكر تعالى كيفية عذابهم فى الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم فى الدنيا فقال تعالى (أم أبرموا) أى أحكم كفار مكة (أمرا) أى فى المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رد أمرنا ومعاداة أوليائنا مع علمهم بانا مطلعون عليهم (فانا مبرمون)

أى محكمون أمرا فى مجازاتهم أى مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون قال مقاتل نزلت فى تدبيرهم المكر فى دار الندوة *(تنبيه)* أم منقطعة والابرام الاتقان وأصله فى الفتل يقال أبرم الحبل أى أتقن فتله وهو الفتل الثانى والاول يقال له سحيل قال زهير

لعمرى لنعم السيدان وجدتما * على كل حال من سحيل ومبرم

(أم يحسبون أنا) أى على مالنا من العظمة المقتضية لجميع صفات الكمال (لانسمع سرهم) أى كلامهم الخفى ولو كان فى الضمائر فيما بغضنا والسر ماحدث به الشخص نفسه أوغيره فى مكان خال ولما كان ربما وقع فى الاوهام ان المراد بالسمع انما هو العلم لان السر مايخفى وهو يعلم مافى الضمائر وهى مما يعلم حقق أن المراد به حقيقته بقوله تعالى (ونجواهم) أى تناجيهم فى كلامهم المرتفع فيما بينهم حتى كأنه على نجوة أى مكان عال فعلم أن المراد حقيقة السمع وأنه تعالى يسمع كل مايمكن أن يسمع (بلى) نسمع الصنفين كليهما على حد سواء (ورسلنا) وهم الحفظة من الملائكة على الجميع السلام على مالهم من العظمة بنسبتهم الينا (لديهم) أى عندهم وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها (يكتبون) أى يجددون الكتابة كل مايتجدد مايقتضيها لان الكتابة أوقع فى التهديد لان من علم ان أعماله محصاة مكتوبة يجتنب مايخاف عاقبته وعن يحيى بن معاذ الرازى من ستر عن الناس ذنوبه وأبداها للذى لايخفى عليه شئ فى السموات فقد جعله أهون الناظرين اليه وهو من علامات النفاق ولما تقدم أول السورة تبكيتهم والتعجيب منهم فى ادعائهم لله ولدا من الملائكة وهددهم بقوله تعالى ستكتب شهادتهم ويسئلون أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم (قل) أى لهؤلاء البعداء البغضاء (ان كان للرحمن) أى العام الرحمة (ولد) أى على زعمكم والمراد به الجنس لادعائهم فى الملائكة وغيرهم (فأنا) أى فى الرتبة وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بغير مد (أول العابدين) للرحمن العبادة التى هى العبادة ولا يستحق غيرها أن يسمى عبادة وهى الخالصة أى فأنا لا أعبد غيره لاولدا ولا غيره ولم يشأ لى الرحمن أن أعبد الولد ولا غيره أو يكون المعنى أنا أول العابدين للرحمن على وجه الاخلاص لم أشرك به شيأ أصلا فى وقت من الاوقات بما سميتموه ولدا أو شريكا أو غيرهما ولو شاء ماعبدته على وجه الاخلاص ولاشك عندكم وعند غيركم ان من أخلص لاحد كان أولى من غيره برحمته فلو أن الاخلاص له ممنوع ماشاءه لى ولولا أن عبادة غيره ممنوعة لشاءها لى ولو أن له ولدا لشاء لى عبادته فان عموم رحمته لكافة خلقه لكونهم خلقه وخصوصها بى لكونى عبده تمنع على زعمكم من أن يشقينى وأنا أخلص له فبطلت شبهتكم عنها بل بأقوى منها وهذا مما علق بشئ هو بنقيضه أولى وقال الزمخشرى ان كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم الى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض وهو المبالغة فى نفى الولد والاطناب فيه وأن لايترك

الناطق به شبهة الا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم فى باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها فهو فى صورة اثبات الكينونة والعبادة وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها ثم قال وقد تمحل الناس بما أخرجوه من هذا الاسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل باثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم باضافة الولد اليه وقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد اذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد اه وقال ابن عباس ان ان نافية أى ما كان له ولد فانى أول من عبده ربه وما علمت له ولدا ولو كان له ولد لله لعبدته تقربا اليه بعبادة ولده وروى أن النضر بن عبد الدار ابن قصى قال ان الملائكة بنات الله تعالى فنزلت فقال النضر ألا ترون انه قد صدقنى فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له ثم أنه تعالى نزه نفسه فقال (سبحان رب) أى مبدع ومالك (السموات والارض) أى اللتين كل ما فيهما ومن فيهما مقهور مربوب محتاج لا يصح أن يكون له منه سبحانه نسبة بغير العبودية بالايجاد والتربية * ولما كانت خاصة الملك أن يكون له ما لا يصل اليه غيره بوجه أصلا قال محققا الملكه لجميع ما سواه ومن سواه وملكه له ولم يعد العطف لان العرش من السموات (رب العرش) أى المختص به لكونه خاصة الملك الذى وسع كرسيه السموات والارض (عما يصفون) أى يقولون من الكذب من أن له ولدا أو شريكا وذلك ان اله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته وكل ما كان كذلك فهو لا يقبل التجزى بوجه من الوجوه والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشئ جزء فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا انما يعقل فيمن تكون ذاته قابلة للتجزى والتبعيض واذا كان ذلك محالا فى حق اله العالم امتنع اثبات الولد * ولما ذكر تعالى هذا البرهان القاطع قال تعالى مسببا عن ذلك (فذرهم) أى اتركهم على أسوأ أحوالهم (يخوضوا) أى يفعلوا فى باطلهم فعل الخائض فى الماء (ويلعبوا) أى يفعلوا فعل اللاعب فى دنياهم (حتى يلاقوا) أى يفعلوا بتصرم أعمارهم فى فعل ما لا ينفعهم فعل المجتهدين فى أن يلقوا (يومهم الذى يوعدون) أى بوعد لا خلف فيه وهو يوم القيامة فيظهر فيه وعيدهم والمقصود منه التهديد لانه تعالى ذكر الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا فلم يلتفتوا اليها لاجل استغراقهم فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا الى ذلك اليوم الموعود به ثم زاد فى التنزيه فقال تعالى (وهو الذى فى السماء اله) أى معبود لا شريك له (وفى الارض اله) تتوجه الرغبات اليه فى جميع الاحوال وتخلص اليه فى جميع أوقات الاضطرار فقد وقع الاجماع من جميع من فى السماء والارض على الهيته فثبت استحقاقه لهذه الرتبة وثبت اختصاصه باستحقاقها فى الشدائد فباقى الاوقات كذلك من غير فرق لانه لا مشارك له فى هذا الاستحقاق فعبادة غيره باطلة وقرأ قالون والبزى بتسهيلها مع المد والقصر وقرأ أبو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وقرأ ورش وقنبل بتسهيل

الثانية وابدالها أيضا ألفا وقرأ الباقون بتحقيقهما *(تنبيه)* كل من الظرفين متعلق بما بعده لان اله بمعنى معبود أى معبود فى السماء ومعبود فى الارض وحينئذ يقال الصلة لا تكون الاجملة أو ما فى تقديرها وهو الظرف وعديله ولا شئ منهما هنا أجيب بأن المبتدأ حذف لدلالة المعنى عليه وذلك المحذوف هو العائد تقديره وهو الذى هو فى السماء اله وهو فى الارض اله وانما حذف لطول الصلة بالمعمول فان الجار متعلق باله ومثله ما أنا بالذى قائل لك سوأ (وهو الحكيم) أى البليغ الحكمة فى تدبير خلقه (العليم) أى البالغ فى علمه بمصالحهم (وتبارك) أى وثبت ثباتا لا يشبهه ثبات لانه لا زوال له مع اليمن والبركة وكل كمال فلا شبيه له حتى يدعى أنه ولده أو شريك ثم وصفه تعالى بما يبين تباركيته واختصاصه بالالوهية فقال عز من قائل (الذى له ملك السموات) أى كلها (والارض) كذلك (وما بينهما) اى وما بين كل اثنين منهما والدليل على هذا الاجماع القائم على توحيده عند الاضطرار (وعنده) أى وحده (علم الساعة) أى العلم بالساعة التى تقوم القيامة فيها (واليه) أى وحده لا الى غيره (ترجعون) بأيسر أمر تحقيقا للملك وقطعا للنزاع فى وحدانيته وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الالتفات للتهديد (ولا يملك) أى بوجه من الوجوه فى وقت ما (الذين يدعون) أى يعبدون أى الكفار (من دونه) أى الله تعالى (الشفاعة) كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله وقوله تعالى (الا من شهد بالحق) أى قال لا اله الا الله فيه قولان أحدهما أنه متصل ان أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله والمعنى لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لاحد الا من شهد بالحق (وهم يعلمون) أى بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم وهم عيسى ومريم وعزير والملائكة فانهم يملكون ان يشفعوا للمؤمنين بتمليك الله تعالى اياهم لها والثانى هو منقطع ان خص بالاصنام (ولئن سألتهم) أى الكفار مع ادعائهم الشريك (من خلقهم) أى العابدين والمعبودين معا (ليقولن الله) أى الذى له جميع صفات الكمال لتعذر المكابرة من فرط ظهوره (فأنى) أى فكيف وأى جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والامر (يؤفكون) أى يصرفون عن اتباع رسولنا الآمر لهم بتوحيدنا فى العبادة كما أنا توحدنا فى الخلق وقرأ (وقيله) أى قول محمد صلى الله عليه وسلم عاصم وحمزة بخفض اللام والهاء على معنى وعنده علم الساعة وعلم قيله والباقون بنصب اللام ورفع الهاء على المصدر بفعله المقدر أى وقال (يا رب ان هؤلاء قوم) أى أقوياء على الباطل ولم يضفهم الى نفسه بأن يقول قومى ونحو ذلك من العبارات ولا سماهم باسم قبيلتهم لما شانه من حالهم (لا يؤمنون) أى لا يتجدد منهم هذا الفعل أصلا (فاصفح) أى اعف عفو من أعرض (عنهم) صفحا فلا تلتفت اليهم بغير التبليغ (وقل) أى لهم (سلام) أى شأنى الآن متاركتكم بسلامتكم منى وسلامتى منكم قال ابن عباس وهذا منسوخ بآية السيف وقال الرازى وعندى التزام النسخ فى مثل هذه المواضع مشكل لان الامر لا يقيد بالفعل الا مرة واحدة فسقطت دلالة اللفظ فأى حاجة الى التزام النسخ وأيضا فاللفظ المطلق قد يتقيد بحسب العرف فاذا كان كذلك فلا حاجة الى التزام النسخ

اهـ وجرى على النسخ الجلال المحلى فقال وهـذا قبل أن يؤمر بقتالهم وقوله تعالى (فسوف يعلمون) فيـه تهديد لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقرأ نافع وابن عامر بتاء الخطاب التفاتا والباقون بياء الغيبة نظرا لما تقـدم وماقاله البيضاوى تبعا للزمخشرى من أن النبي صلى الله عليـه وسـلم قال من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون حديث موضوع

(سورة الدخان مكية)

وقيـل الاقوله تعالى انا كاشفوا العـذاب قليـلا الآية وهي ست أوسبع أوتسع وخمسون آية وثلثمائة وست وأربعون كلمة وألف وأربعمائة واحـد وثلاثون حرفا

(بسم الله) الملك الجبار الواحـد القهار (الرحمن) الذى عم بنعمته سائر مخلوقاته (الرحيم) بأهـل وداده وقوله تعالى (حم) قرأه ابن ذكوان وشـعبة وحمزة والكسائى بامالة الحاء محضة وقرأه ورش وأبو عمـرو بالامالة بين بين والباقون بالفتح وتقدمت الاشارة الى شئ من أسرار أخواتها وقوله تعالى (والكتاب المبين) فيـه احتمالان الاول أن يكون التقدير هـذه حم والكتاب المبـين كقولك هـذا زيد والله الثانى أن يكون التقدير حم والكتاب المبـين (انا أنزلناه) فيـكون فى ذلك تقدير قسمين عـلى شئ واحـد ويجوز أن يكون انا أنزلناه جواب القسم وأن يكون اعتراضا والجواب قوله تعالى انا كنا منذرين واختاره ابن عطية وقيل انا كنا مسـتأنف وفيها يفرق يجوز أن يكون مسـتأنفا وأن يكون صفة ليلة ومابينهما اعتراض *(تنبيه)* يجوز أن يكون المراد بالكتاب هنا الكتب المتقدمة المنزلة على الانبياء عليهـم السـلام كما قال تعالى لقد أرسـلنا رسـلنا بالبينات وأنزلنا معهـم الكتاب ويجوز أن يـكون المراد به اللوح المحفوظ قال الله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت وعنـده أم الكتاب وقال تعالى وانه فى أم الكتاب لدينا لعـلى حكـيم ويجوز أن يكون المراد به القرآن واقتصر على ذلك البيضاوى وتبعه الجلال المحلى وعلى هـذا فقد أقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن فى ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقـد يقول الرجل اذا أراد تعظيم الرجل له اليـه حاجة أتشفع بك اليـك وأقسم بحقك عليك وجاء فى الحديث أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك لاأحصى ثناء عليك والمبين هو المشتمل على بيان مابالناس من حاجة اليه فى دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبينا وان كانت حقيقة الابانة لله تعالى لان الابانة حصلت به كقوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون فوصفه بالتكلم اذ كان غاية فى الابانة فكأنه ذو لسان ينطق مبالغة فى وصفه واختلف فى قوله سبحانه وتعالى (فى ليلة مباركة) فقال قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين هى ليلة القدر وقال عكرمة وطائفة انها ليلة البراءة وهى ليلة النصف من شعبان واحتج الاولون بوجوه الاول قوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر فقوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة مباركة يجب أن تكون هى تلك الليلة

المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض ثانيها قوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فقوله تعالى ههنا انا أنزلناه فى ليلة مباركة يجب أن تكون هذه الليلة المباركة فى رمضان فثبت انها ليلة القدر ثالثها قوله تعالى فى صفة ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر وقال تعالى ههنا فيها يفرق كل أمر حكيم وقال ههنا رحمة من ربك وقال تعالى فى ليلة القدر سلام هى واذا تقاربت الاوصاف وجب القول بأن احدى الليلتين هى الاخرى رابعها نقل محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن قتادة انه قال نزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتى عشرة ليلة مضت منه والقرآن لاربع وعشرين مضت من رمضان والليلة المباركة هى ليلة القدر خامسها ان ليلة القدر انما سميت بهذا الاسم لان قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم أن قدرها وشرفها ليس بسبب نفس الزمان لان الزمان شئ واحد فى الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة لها قدر عظيم ومن المعلوم ان منصب الدين أعظم من مناصب الدنيا وأعظم الاشياء وأشرفها شعبا فى الدين هو القرآن لانه ثبت به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل كما قال تعالى فى صفته ومهيمنا عليه وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لاشئ الا والقرآن أعظم قدرا وأعلى ذكرا وأعظم منصبا وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر هى التى وقعت فى رمضان علمنا أن القرآن انما أنزل فى تلك الليلة وهذه أدلة ظاهرة واضحة واحتج الآخرون على أنها ليلة النصف من شعبان بوجوه أولها أن لها اربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل فى تسميتها ليلة البراءة والصك ان البندار اذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة وكذلك الله تعالى يكتب لعباده المؤمنين البراءة فى هذه الليلة ثانيها انها مختصة بخمس خصال الاولى قال تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم والثانية فضيلة العبادة فيها روى الزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال من صلى فى هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله تعالى اليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان ثالثها نزول الرحمة قال صلى الله عليه وسلم ان الله يرحم أمتى فى هذه الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب رابعها حصول المغفرة فيها قال صلى الله عليه وسلم ان الله يغفر لجميع المسلمين فى تلك الليلة الا الكاهن والساحر ومدمن الخمر وعاق والديه والمصر على الزنا خامسها أنه تعالى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة تمام الشفاعة فى أمته قال الزمخشرى وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان فى أمته فأعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع الا من شرد عن الله شرود البعير اه وروى أن عطية الحرورى سأل ابن عباس عن قوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن فى جميع الشهور فقال ابن عباس يا ابن الاسود لو هلكت أنا ووقع فى نفسك هذا ولم

نحو جوابه لهلكت نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور في السماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالا فحالا وقال قتادة وابن زيد أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب الى السماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما في عشرين سنة وقوله تعالى (انا) أي على مالنا من العظمة (كنا) أي دائما العبادنا (منذرين) أي مخوفين استئناف بين به المقتضي للانزال وكذلك قوله تعالى (فيها) أي الليلة المباركة سواء قلنا انها ليلة القدر أو ليلة النصف (يفرق) أي ينشر ويبين ويفصل ويوضح مرة بعد مرة (كل أمر حكيم) أي محكم الامر لا يستطاع أن يطعن فيه بوجه من جميع ما يوحى به من الكتب وغيرها والارزاق والآجال والنصر والهزيمة والخصب والقحط وغيرها من جميع أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة الى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء فيزدادون بذلك ايمانا قال ابن عباس يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والارزاق والآجال حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان وقال الحسن ومجاهد وقتادة يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل عمل وأجل وخلق ورزق وما يكون في تلك السنة وقال عكرمة ليلة النصف من شعبان يبرم فيها أمر السنة وتنسخ الاحياء من الاموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد قال صلى الله عليه وسلم تقطع الآجال من شعبان الى شعبان حتى ان الرجل لينكح النساء ويولد له وقد خرج اسمه في ديوان الموتى وعن ابن عباس ان الله تعالى يقضي الاقضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها الى أربابها في ليلة القدر وروى أن الله تعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ووقع الفراغ في ليلة القدر فدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبريل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الاعمال قال ابن عادل الى اسرافيل وقال الزمخشري الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت قال الزمخشري وعن بعضهم يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على ألسنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيبته وقوله تعالى (أمرا) أي فرقا حال من فاعل أنزلناه أو من مفعوله أي أنزلناه آمرين أو مأمورا به كائنا (من عندنا) على مقتضى حكمتنا وقوله تعالى (انا كنا) أي أزلا وأبدا (مرسلين) جواب ثالث أو مستأنف أو بدل من قوله تعالى انا كنا منذرين أي لنا صفة الارسال بالقدرة عليها في كل حين والارسال لمصالح العباد لابد فيه من الفرقان بالبشارة والنذارة وغيرهما حتى لا يكون لبس فلا يكون لاحد على الله تعالى حجة قال البقاعي وهذا الكلام المنتظم والقول الملتئم بعضه ببعض المتراصف أجل رصف في وصف ليلة الانزال دال على انه لم ينزل صحيفة ولا كتابا الا في هذه الليلة فيدل على أنها ليلة القدر وللاحاديث الواردة في أن الكتب كلها نزلت فيها وكذلك قوله تعالى في سورة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر فان الوحي الذي هو مجمع ذلك هو روح الامر الحكيم ثم بين تعالى حال الرسالات بقوله تعالى (رحمة) وعدل لاجل

ما

ما اقتضاه التعبير بالرحمة عما كان من أسلوب التكلم بالعظمة من قوله منا الى قوله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بارسالك وارسال كل نبى مضى من قبلك فان رسالاتهم كانت اب الانوار فى العبادات وتمهيد الشرائع فى البلاد حتى استنارت القلوب واطمأنت النفوس بما صارت تعهد من شرع الشرائع وتوطئة الاديان فتسهلت طرق الرب لتعميم رسالتك حتى ملأت أنوارك الآفاق فكنت نتيجة كل من تقدمك من الرفاق وقال ابن عباس معنى رحمة من ربك أى رأفة منى بخلقى ونعمة عليهم بما بعثنا اليهم من الرسل وقال الزجاج أنزلناه فى ليلة مباركة للرحمة (انه هو) أى وحده (السميع العليم) أى ان تلك الرحمة كانت رحمة فى الحقيقة لان المحتاجين اما أن يذكروا حاجاتهم بالسنتهم أو لم يذكروها فان ذكروها فانه سميع وان لم يذكروها فهو تعالى عالم بها (رب) أى مالك ومنشئ ومدبر (السموات) أى جميع الاجرام العالية (والارض وما بينهما) مما تشاهدون من هذا الفضاء وما فيه من الهواء وغيره مما تعلمون من اكتساب العباد وغيرهما مما لا تعلمون ومن المعلوم انه ذو العرش والكرسى فعلم بهذا انه مالك الملك كله وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بخفض الباء الموحدة على البدل أو البيان أو النعت والباقون برفعها على اضمار مبتدا أو على انه مبتدأ خبره لا اله الا هو والمقصود من هذه الآية ان المنزل اذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذى هو القرآن فى غاية الشرف والرفعة (فان قيل) ما معنى الشرط الذى هو قوله تعالى (ان كنتم موقنين) (أجيب) بأنهم كانوا يقرون بأن للسموات والارض ربا وخالقا فقيل لهم ان كنتم يا أهل مكة موقنين بأنه تعالى رب السموات والارض فأيقنوا بأن محمدا عبده ورسوله * ولما ثبت بهذا النظر الصافى ربوبيته وبعدم اختلال التدبير على طول الزمان وحدانيته أنتج ذلك قوله تعالى (لا اله الا هو) أى والا لنازعه فى أمرهما منازع أو أمكن أن ينازع فيكون محتاجا لا محالة والا لدفع عنه من يمكن نزاعه له وخلافه اياه فلا يكون صالحا للتدبير والقهر لكل من يخالف رسله والانجاء لكل من يوافقهم على ممر الزمان وتطاول الدهر ومر الحدثان على نظام مستمر وحال ثابت مستقر ولما ثبت انه لا مدبر للوجود غيره ثبت قوله تعالى (يحيى ويميت) لان ذلك من أجل ما فيهما من التدبير وهو تنبيه على تمام دلائل التوحيد لانه لا شئ من فيهما يبقى ليسند التدبير اليه ويحال شئ من الامر عليه فهما جملتان الاولى نافية لما أثبتوه من الشركة والثانية مثبتة لما نفوه من البعث (ربكم) أى الذى أفاض عليكم ما تشاهدونه من النعم فى الارواح وغيرها (ورب آبائكم الاولين) أى الذى أفاض عليهم ما أفاض عليكم ثم سلبهم ذلك كما تعلمون فلم يقدر أحد منهم على ممانعة ولا طمع فى منازعة بنوع مدافعة (بل هم) أى بضمائرهم (فى شك) أى من البعث (يلعبون) أى يفعلون دائما فعل التارك لما هو فيه من أخذ الجد الذى لا مرية فيه الى اللعب الذى لا فائدة فيه ولا ثمرة له بوجه استهزاء بك يا أشرف الرسل فقال صلى الله عليه وسلم اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف قال تعالى (فارتقب) أى انتظر بكل جهدك عاليا عليهم ناظرا لاحوالهم نظر من هو حارس

لها (يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى ظاهر (يغشى الناس) أى المهتدين بهذا فقالوا اعندا تيانه (هذا عذاب أليم) أى يخلص وجعه الى القلب فيبلغ فى ألمه كما كنتم تؤلمون من يدعوكم الى الله تعالى واختلف فى هذا الدخان فروى أبو الصفاء عن مسروق قال بينما رجل يحدث فى كندة قال يجىء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام ففزعنا فأتينا ابن مسعود وكان متكئا فغضب فجلس فقال من علم فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن تقول لما لا تعلم لا أعلم فان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين فان قريشا ابطؤا عن الاسلام فدعاهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والارض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وان قومك قد هلكوا فادع الله تعالى لهم فقرأ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين الى قوله تعالى عائدون وهذا قول ابن عباس ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود وكان ينكر أن يكون الدخان الا هذا الذى أصابهم من شدة الجوع كالظلمة فى أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانا وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان فى هذه الحالة وجهين الاول ان فى سنة القحط يعظم يبس الارض فبسبب انقطاع المطر ترتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ويقولون كان بيننا امر ارتفع له دخان ولهذا يقال للسنة المجدبة الغبراء الثانى ان العرب يسمون الشئ الغالب بالدخان والسبب فيه ان الانسان اذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ويرى الدنيا كالمملوأة من الدخان ونقل عن على بن أبى طالب انه دخان يظهر فى العالم وهو احدى علامات القيامة ويروى أيضا عن ابن عباس فى المشهور عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر تبيت معهم اذا باتوا وتقيل معهم اذا قالوا قال حذيفة يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كالزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره وتكون الارض كلها كبيت أوقد فيه النار وقال صلى الله عليه وسلم باكروا بالاعمال ستا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة رواه الحسن واحتج الاولون بأنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (ربنا اكشف عنا العذاب) ثم عللوا ذلك بما علموا انه الموجب للكشف فقالوا مؤكدين (انا مؤمنون) أى عريقون فى وصف الايمان فاذا حمل على القحط الذى وقع بمكة استقام فانه نقل ان الامر لما اشتد على أهل مكة مشى اليه أبو سفيان فناشده الله والرحم وواعده ان دعالهم وأزال عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به فلما أزالها الله عنهم رجعوا الى شركهم أما اذا حمل على ان المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك لان عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون ولم يصح أيضا أن يقال انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون قال البقاعى ويصح أن يراد به

طلوع الشمس من مغربها روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها ثم قرأ الآية (أنى) أي كيف ومن أين (لهم الذكرى) أي هذا التذكر العظيم الذي وصفوا به أنفسهم وقرأ حمزة والكسائي انى بالامالة محضة وقرأ أبو عمرو بالامالة بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح وأمال الذكرى محضة أبو عمرو وحمزة والكسائي وأمال ورش بين بين والباقون بالفتح وكذلك الكبرى (وقد) أي والحال أنه قد (جاءهم) ماهو أعظم من ذلك وأدخل في وجوب الطاعة (رسول مبين) أي ظاهر غاية الظهور وموضح غاية الايضاح وهو محمد صلى الله عليه وسلم وأظهر دال قد نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وأدغمها الباقون (ثم تولوا عنه) أي أطاعوا ما دعاهم الى الادبار عنه من دواعي الهوى ونوازع الشهوات والحظوظ (وقالوا) أي زيادة على اساءتهم بالتولي (معلم) أي علمه غيره القرآن من البشر قال بعضهم علمه غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال آخرون انه (مجنون) أي يلقي الجن اليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي (انا) أي على ما لنا من العظمة (كاشفوا العذاب) أي بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فانه دعا فرفع عنهم القحط (قليلا) أي زمنا يسيرا قيل الى يوم بدر وقيل ما بقي من أعمارهم (انكم عائدون) أي ثابت عودكم عقب كشفنا عنكم الى الكفران لما في جبلاتكم من العوج وطباعكم من المبادرة الى الزلل فايمانكم هذا الذي أخبرتم برسوخه عرض زائل وخيال باطل وقوله تعالى (يوم نبطش) أي بما لنا من العظمة (البطشة الكبرى) أي يوم بدر منصوب بـ اذكر أو بدل من يوم تأتي والبطش الاخذ بقوة (انا منتقمون) أي منهم في ذلك اليوم وهو قول ابن عباس وأكثر العلماء وفي رواية عن ابن عباس انه يوم القيامة (ولقد فتنا) أي اختبرنا بما لنا من العظمة فعل الفاتن وهو المختبر الذي يريد أن يعلم حقيقة الحال بالابلاء والتمكين ثم الارسال (قبلهم) أي هؤلاء العرب ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم (قوم فرعون) أي مع فرعون لان ما كان فتنة لقومه كان فتنة له لان الكبير أرسخ في الفتنة بما أحاط به من الدنيا وسيأتي التصريح به في آخر القصة (وجاءهم) أي فرعون وقومه زيادة في فتنتهم (رسول كريم) هو موسى عليه السلام قال الكلبي كريم على ربه بمعنى أنه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة من الاكرام وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه قيل ما بعث نبي الا من أشراف قومه وأكرمهم ثم فسر ما بلغهم من الرسالة بقوله (ان أدوا الي) ما أدعوكم اليه من الايمان أي أظهروا طاعتكم بالايمان لي يا (عباد الله) أو أطلقوا بني اسرائيل ولا تعذبوهم وأرسلوهم معي كقوله فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم (اني لكم) أي خاصة بسبب ذلك (رسول) أي من عند الله الذي لا تكون الرسالة الكاملة الا منه (أمين) أي بالغ الامانة لان الملك الديان لا يرسل الا الامين كان كذلك وقوله عليه السلام (وأن لا تعلوا) معطوف على أن الاولى وأن هذه مقطوعة في الرسم والمعنى لا تتكبروا (على الله) تعالى باهانة وحيه ورسوله (اني آتيكم بسلطان) أي برهان (مبين) أي بين على رسالتي فتوعدوه حين قال لهم ذلك بالرجم فقال

(وانى عذت) أى اعتصمت وامتنعت (بربى) الذى ربانى على ما اقتضاه لطفه واحسانه الىّ (وربكم) الذى أعاذنى من تكبركم وقوة مكنتكم (أن ترجمون) أى أن يتجدد فى وقت من الاوقات قتل منكم لى فانى قلت انى أخاف أن يقتلون فقال تعالى سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا فمن أعظم آياتى أن لا تصلوا مع قوتكم وكثرتكم الى قتلى مع أنه لا قوة لى بغير الله الذى أرسلنى وقال ابن عباس أن ترجمون بالقول وهو الشتم وتقولوا هو ساحر وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى عذت بادغام الذال فى التاء والباقون بالاظهار وقرأ ورش باثبات الياء بعد النون فى ترجمون فى الوصل دون الوقف والباقون بغير ياء وقفا ووصلا وكذلك فاعتزلون الآتى * ولما كان التقدير فان آمنتم بذلك وسلمتم لى أفلحتم عطف عليه قوله تعالى (وان لم تؤمنوا لى) أى تصدقوا الاجل ما أخبرتكم به (فاعتزلون) أى كونوا بمعزل منى لا علىّ ولا لى فلا تتعرضوا الى بسوء فانه ليس جزاء دعائكم الى مافيه فلاحكم والفاء فى قوله تعالى (فدعا) تدل على أنه متصل بمحذوف قبله وتأويله أنهم كفروا ولم يرضوا فدعا موسى عليه السلام (ربه) الذى أحسن اليه سياسته وسياسة قومه ثم فسر مادعا به بقوله (ان هؤلاء) أى الحقيرين الاذلين الارذلين (قوم) لهم قوة على القيام فيما يحاولونه (مجرمون) أى موصوفون بالعراقة فى قطع ما أمرت به أن يوصل (فان قيل) الكفر أعظم حالا من الجرم فما السبب فى أنه جعل الكفار مجرمين حين أراد المبالغة فى ذمهم (أجيب) بأن الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون فاسقا فى دينه والفاسق فى دينه أخس الناس ثم تسبب عن دعائه لانه ممن يستجاب دعاؤه قوله تعالى (فأسر بعبادى) أى بنى اسرائيل الذين أرسلنا لاسعادهم باستنقاذهم ممن يظلمهم وتفريغهم لعبادتى وقوله تعالى (ليلا) نصب على الظرفية والاسراء سير الليل فذكر الليل تأكيد بغير اللفظ وانما أمره بالسير بالليل لانه أوقع بالقبط موت الابكار ليلا فأمر موسى أن يخرج بقومه فى ذلك الوقت خوفا من أن يعوقوا مع القبط * ولما علم الله تعالى أنهم ان تأخروا الى أن يطلع الفجر و يرتفع عنهم الموت منعوهم الخروج وان تأخروا الى آخر الليل أدركوهم قبل الوصول الى البحر فقتلوهم علل هذا الامر بقوله مؤكدا له لان حال القبط عندما أمرهم بالخروج كان حال من لا يتهيأ له الخروج فى قوله (انكم متبعون) أى مطلوبون بغاية الجهد من عدوكم فلا يغرنكم ماهم فيه عند أمركم بالخروج من الجزع من اقامتكم بين أظهرهم وسؤالهم لكم فى الخروج عنهم بسبب وقوع الموت الناشئ فيهم فان القلوب بيد الله تعالى فهو ينسى قلب فرعون بعد رؤية هذه الآيات حين يرتفع عنهم الموت ويفرغون من دفن موتاهم فيطلبكم لما دبرته فى القدم من سياستكم باغراقهم أجمعين ليظهر مجدى بذلك وأدفع عنكم روع مدافعتهم فانى أعلم أنه لا قوة لكم ولا طاقة بكم فلم أكلفكم بمباشرة شئ من أمرهم وقرأ نافع وابن كثير فاسر بوصل الهمزة بعد الفاء والباقون بقطعها قال الزمخشرى وفيه وجهان اضمار القول بعد الفاء أى فقال اسر بعبادى وجواب شرط مقدر كأنه قال ان كان الامر كما تقول فأسر بعبادى قال أبو حيان وكثيرا

ما يدعى حذف الشرط ولا يجوز الا لدليل واضح كأن يتقدمه الامر أو ما أشبهه * يقال سرى وأسرى لغتان * ولما أمره بالاسراء أمره بما يفعل فيه فقال تعالى (واترك البحر) أى اذا سرت بهم وتبعك العدو ووصلت بعد اليه وأمرناك بضربه لينفتح لتدخلوا فيه فدخلتم ونجيتم (رهوا) بعد خروجكم منه بأجمعكم وفى الرهو وجهان أحدهما أنه الساكن أى اتركه ساكنا قال الاعشى

يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة * ولا الصدور على الاعجاز تتكل

أى مشيا ساكنا على هينة قارا على حاله بحيث يبقى المرتفع من مائه مرتفعا والمنخفض منخفضا كالجدار وطريقه الذى سرتم به يابسا اذا سير سهل على الحالة التى دخلتم فيها الان موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق فأمر أن يتركه ساكنا على هينته قارا على حاله ليدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم والثانى أن الرهو الفجوة الواسعة وعن بعض العرب انه رأى جملا فالجا فقال سبحان الله رهو بين سنامين أى اتركه مفتوحا على حاله منفرجا (انهم جند مغرقون) أى متمكنون فى هذا الوصف وان كان لهم وصف القوة والتجمع الذى محطه النجدة الموجبة للعلو فى الامور * ولما أخبر تعالى عن غرقهم أخبر عن مخلفهم بقوله تعالى (كم تركوا) أى كثيرا ترك الذين سبق الحكم باغراقهم فغرقوا (من جنات) أى بساتين هى فى غاية ما يكون من طيب الارض وكثرة الاشجار وزكاء الثمار والنبات وحسنها الذى يستر الهموم ودل على كرم الارض بقوله تعالى (وعيون وزروع) أى ما هو دون الاشجار وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها ثم أخبر عن منازلهم بقوله تعالى (ومقام كريم) أى مجلس شريف هو أهل لان يقوم الانسان فيه لانه فى النهاية فيما يرضيه (ونعمة) وهى اسم لتنعم بمعنى الترفه والعيش اللين الرغد (كانوا فيها) أى دائما (فاكهين) أى فعلهم فى عيشهم فعل المتفكه المترفه لا فعل من يضطر الى اقامة نفسه وقوله تعالى (كذلك) خبر لمبتدأ مضمر أى الامر كما أخبرنا به من تنعمهم واخراجهم واغراقهم وانهم تركوا جميع ما كانوا فيه لم يغن عنهم شىء منه فلا يغتر أحد بما ابتليناه من النعم لئلا نصنع به من الاهلاك ما صنعنا بهم وقوله تعالى (وأورثناها) أى تلك الامور العظيمة عطف على تركوا (قوما) أى ناسا ذوى قوة فى القيام على ما يحاولونه وحقق انهم غيرهم تحقيقا لاغراقهم بقوله تعالى (آخرين) ليسوا منهم فى شىء وهم بنو اسرائيل وقيل غيرهم لانهم لم يعودوا الى مصر بل سكنوا الارض المقدسة ولما سكن القوم الآخرون بمصر ورثوا كنوزها وأموالها ونعمها ومقامها الكريم وقوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والارض) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم لهوانهم واذا لم تبك المساكن فما ظنك بالساكن الذى هو فيها تقول العرب اذا مات رجل خطير فى تعظيم مهلكه بكت عليه السماء والارض وبكته الريح وأظلمت له الشمس قال الفرزدق

فالشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكى عليك نجوم الليل والقمر

وقالت الخارجية

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
وقال جرير
لما أتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع

وذلك على سبيل التخييل والتمثيل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه قال الزمخشرى وكذلك ما يروى عن ابن عباس من بكاء مصلى المؤمن وآثاره فى الارض ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء تمثيل ونفى ذلك عنهم فى قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه بكت عليه السماء والارض اهـ وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من مسلم الا وله فى السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فاذا مات وفقداه بكيا عليه وتلا هذه الآية وقال على رضى الله عنه ان المؤمن اذا مات بكى عليه مصلاه من الارض ومصعد عمله من السماء وعن الحسن فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين يعنى فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الارض وقال عطاء بكاء السماء حمرة أطرافها وقال السدى لما قتل الحسين بن على رضى الله عنهما بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها وقرأ أبو عمرو عليهم فى الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائى بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف فحمزة بضم الهاء والباقون بالكسر (وما كانوا منظرين) أى لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا الى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير * ولما كان انقاذ بنى اسرائيل من القبط أمرا باهرا لا يكاد يصدق فضلا عن أن يكون باهلاك أعدائهم أكده سبحانه الاخبار بذلك اشارة الى ما يحق له من العظمة تنبيها على أنه قادر أن يفعل بهذا النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه كذلك وان كانت قريش يرون ذلك محالا وانهم فى قبضتهم فقال تعالى (ولقد نجينا) أى بما لنا من العظمة تنجية عظيمة (بنى اسرائيل) عبدنا المخلص لنا (من العذاب المهين) أى من استعباد فرعون وقتله ابناءهم وقوله تعالى (من فرعون) بدل من العذاب على حذف المضاف أو جعله عذابا لافراطه فى التعذيب أو حال من المهين أى واقعا من جهته (انه كان عاليا) أى فى جبلته العراقة فى العلو (من المسرفين) أى العريقين فى مجاوزة الحدود (ولقد اخترناهم) أى بنى اسرائيل بما لنا من العظمة (على علم) أى عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويجوز أن يكون المعنى مع علم منا بانهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات فى بعض الاحوال * ثم بين المفضل عليه بعد ان بين المفضل بقوله تعالى (على العالمين) أى الموجودين فى زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا اليهم من الرسل وقيل على الناس جميعا لكثرة الانبياء منهم وقيل عام دخله التخصيص ثم بين آثار الاختيار بقوله تعالى (وآتيناهم) أى على ما لنا من العظمة (من الآيات) أى العلامات الدالة على عظمتنا واختيارنا لهم من حين أتى موسى عبدنا عليه السلام فرعون الى أن فارقهم بالوفاة وبعد وفاته على أيدى الانبياء المقررين للشريعة عليهم السلام (ما فيه بلاء) أى اختبار مثله يميل من ينظره أو يسمعه الى غير ما كان عليه وذلك بفرق البحر وتظليل الغمام وانزال المن

والسلوى

والسلوى وغير ذلك مما رأوه من الآيات التسع (مبين) أى بين فى نفسه موضح لغيره (ان هؤلاء)
اشارة الى كفار قريش لان الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على انهم مثلهم
فى الاصرار على الضلالة والانذار على مثل ما حل بهم (ليقولون) أى بعد قيام الحجة البالغة
عليهم مبالغين فى الانكار (ان) أى ما (هى) وقولهم (الاموتتنا) على حذف مضاف أى
ما الحياة الا حياة موتتنا (الاولى) التى كانت قبل نفخ الروح كما سيأتى ان شاء الله تعالى فى
الجاثية ان هى الا حياتنا الدنيا وقال الجلال المحلى ان هى ما الموتة التى بعدها الحياة الا موتتنا
الاولى أى وهم نطف وقرأ حمزة والكسائى بالامالة محضة وأبو عمرو بين بين وورش بالفتح وبين
اللفظين والباقون بالفتح (وما نحن بمنشرين) أى بمبعوثين بحيث نصير ذوى حركة اختيارية
ننتشر بها بعد الموت يقال نشره وأنشره أحياه ثم احتجوا على نفى الحشر والنشر بقولهم (فأتوا)
أى أيها الزاعمون أنا نبعث بعد الموت (بآبائنا) أى لكوننا نعرفهم ونعرف وفور عقولهم
(ان كنتم صادقين) أى ثابتا صدقكم فى أنا نبعث يوم القيامة أحياء بعد الموت ثم خوفهم الله
تعالى بمثل عذاب الامم الخالية فقال تعالى (أهم خير) أى فى الدين والدنيا (أم قوم تبع)
أى ليسوا خيرا منهم فهو استفهام على سبيل الانكار قال أبو عبيدة ملوك اليمن كل واحد منهم
يسمى تبعا لان أهل الدنيا كانوا يتبعونه وموضع تبع فى الجاهلية موضع الخليفة فى الاسلام وهم
الاعاظم فى ملوك العرب وقال قتادة هو تبع الحميرى وكان من ملوك اليمن سمى بذلك لكثرة أتباعه
وكان هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير الى الاسلام فكذبوه ولذلك ذم الله تعالى قومه
ولم يذمه وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فانه كان قد أسلم وعنه صلى الله عليه وسلم
ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى وعن عائشة رضى الله عنها قالت لا تسبوا تبعا فانه كان رجلا
صالحا وذكر عكرمة عن ابن عباس انه كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن ملك وكان سار
بالجيوش نحو المشرق وحير الحيرة وبنى قصر سمرقند وملك بقومه الارض طولها والعرض وكان
أقرب المملكين الى قريش زمانا ومكانا وكان له بمكة المشرفة ما ليس لغيره من الآثار قال الرازى
فى اللوامع هو أول من كسا البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيام وطاف به
وحلق قال البغوى بعد أن ذكر قصته مع الانصار لما قتل ابنه غيلة فى المدينة الشريفة وما وعظ به
اليهود فى الكف عن خراب المدينة لانها مهاجر نبى من قريش انه صدقهم واتبع دينهم وذلك
قبل نسخه وعن الرياشى آمن تبع بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث بسبعمائة عام (فان قيل)
ما معنى قوله تعالى أهم خير أم قوم تبع مع انه لا خير فى الفريقين (أجيب) بأن معناه أهم خير فى القوة
والشوكة كقوله تعالى أكفاركم خير من أولئكم بعد ذكر آل فرعون ويجوز فى قوله تعالى (والذين
من قبلهم) أى مشاهير الامم كمدين وأصحاب الايكة والرس وثمود وعاد ثلاثة أوجه أحدها أن
يكون معطوفا على قوم تبع ثانيها أن يكون مبتدأ وخبره (أهلكناهم) أى بعظمتنا وان كانوا
أصحاب مكنة وقوة وأما على الاول فأهلكناهم اما مستأنف واما حال من الضمير المستكن
فى الصلة ثالثها أن يكون منصوبا بفعل مقدر يفسره أهلكناهم ولا محل لاهلكناهم حينئذ (انهم

كانوا) أى جبلة وطبعا (مجرمين) أى عريقين فى الاجرام فليحذر هؤلاء ان ارتكبوا مثل أفعالهم من مثل حالهم * ولما أنكر تعالى على كفار مكة قولهم ووصفهم بأنهم أضعف ممن كان قبلهم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة فقال تعالى (وما خلقنا السموات) أى على عظمها واتساع كل واحدة منها واحتوائها لما فضتها وجمعها الاتقان العمل كلما ازداد كان أبعد عن العبث * ولما كان الدليل على تطابق الارض دليلا دقيقا وحدها بقوله تعالى (والارض) أى على ما فيها من المنافع (وما بينهما) أى النوعين وبين كل واحدة منهما وما يليها (لاعبين) أى على ما لنا من العظمة التى يدرك من له أدنى عقل تعاليها عن اللعب لانه لا يفعله الا ناقص ولو تركنا الناس يبغى بعضهم على بعض كما تشاهدون ثم لا نأخذ لضعيفهم بحقه من قويهم لكان خلقنا لهم لعبا بل اللعب أخف منه ولم نكن على ذلك التقدير مستحقين للصفة القدسية وقد تقدم تقرير هذا الدليل فى أول سورة يونس وفى آخر سورة المؤمنين عند قوله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وفى ص عند قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا (ما خلقناهما) أى السموات والارض مع ما بينهما وقوله تعالى (الا بالحق) حال اما من الفاعل وهو الظاهر واما من المفعول أى الا محقين فى ذلك يستدل به على وحدانيتنا وقدرتنا وغير ذلك أو متلبسين بالحق (ولكن أكثرهم) أى هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم وهم يقولون ان هى الا موتتنا الاولى وكذا من نحا نحوهم (لا يعلمون) أى انا خلقنا الخلق بسبب اقامة الحق عليهم فهم لاجل ذلك يجترؤن على المعاصى ويفسدون فى الارض لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ولو تذكروا ما ذكرناه فى جبلاتهم لعلموا علما ظاهرا انه الحق الذى لا معدل عنه كما يتولى حكامهم المناصب لاجل اظهار الحكم بين رعاياهم ويشترطون الحكم بالحق ويؤكدون على أنفسهم انهم لا يتجاوزونه * ولما ذكر الدليل على اثبات البعث والقيامة ذكر عقبه يوم الفصل فقال تعالى (ان يوم الفصل) أى يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين العباد قال الحسن سمى بذلك لان الله تعالى يفصل فيه بين أهل الجنة والنار وقيل يفصل فيه بين المؤمن وما يكرهه وبين الكافر وما يريده (ميقاتهم) أى وقت موعدهم الذى ضرب لهم فى الازل وأنزلت فيه الكتب على ألسنة الرسل (أجمعين) لا يتخلف عنه أحد ممن مات من الجن والانس والملائكة وجميع الحيوانات وقوله تعالى (يوم لا يغنى) أى بوجه من الوجوه بدل من يوم الفصل أو منصوب باضمار أعنى أو صفة لميقاتهم ولا يجوز أن ينتصب بالفصل نفسه لما يلزم من الفصل بينهما بأجنبى وهو ميقاتهم (مولى) أى من قرابة أو غيرها (عن مولى) بقرابة أو غيرها أى لا يدفع عنه (شيأ) من الاشياء كثر أو قل (ولاهم) أى القسمان (ينصرون) أى ليس لهم ناصر يمنعهم من عذاب الله تعالى *(تنبيه)* المولى اما فى الدين أو فى النسب أو العتق وكل هؤلاء يسمون بالمولى فلما لم تحصل النصرة منهم فأن لا تحصل ممن سواهم أولى ونظير هذه الآية قوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ الى قوله تعالى ولاهم ينصرون وقال الواحدى المراد بقوله تعالى مولى عن مولى الكفار

لانه

لانه ذكر بعده المؤمن فقال تعالى (الامن رحم الله) أى أراد اكرامه الملك الاعظم وهم المؤمنون يشفع بعضهم لبعض باذن الله تعالى فى الشفاعة لاحدهم فيكرم الشافع فيه وقال ابن عباس يريد المؤمن فانه يشفع له الانبياء والملائكة *(تنبيه)* يجوز فى الامن رحم الله أوجه أحدها وهو قول الكسائى انه منقطع ثانيها أنه متصل تقديره لا يغنى قريب عن قريب الا المؤمنين فانهم يؤذن لهم فى الشفاعة فيشفعون فى بعضهم كما مرّ ثالثها أن يكون مرفوعا على البدلية من مولى الاول ويكون يغنى بمعنى ينفع قاله الحوفى رابعها أنه مرفوع المحل أيضا على البدل من واو ينصرون أى لا يمنع من العذاب الامن رحم الله (انه) أى وحده (هو العزيز) أى المنيع الذى لا يقدح فى عزته عفو ولا عقاب بل ذلك دليل على عزته فانه يفعل ما يشاء فيمن يشاء من غير مبالاة بأحد (الرحيم) أى الذى لا يمنع عزته أن يكرم من شاء * ولما وصف تعالى اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال سبحانه (ان شجرت الزقوم) هى من أخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله تعالى فى الجحيم وقد مرّ الكلام عليها فى الصافات ورسمت بالتاء المجرورة فوقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائى ووقف الباقون بالتاء على الرسم (طعام الاثيم) أى المبالغ فى اكتساب الآثام حتى صارت به الى الكفر قال أكثر المفسرين هو أبو جهل (كالمهل) أى وهو ما يمهل فى النار حتى يذوب من ذهب أو فضة وكل ما فى معناهما من المنطبعات سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص وقيل هو عكر القطران وقيل عكر الزيت وقرأ (يغلى فى البطون) أى من شدة الحر ابن كثير وحفص بالياء التحتية على ان الفاعل ضمير يعود على طعام وجوز أبو البقاء أن يعود على الزقوم وقيل يعود على المهل نفسه والباقون بالتاء الفوقية على أن الفاعل ضمير الشجر (كغلى) أى مثل غلى (الحميم) أى الماء الذى تناهى حره غليا وقد تقدّم وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى الدنيا لافسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن تكون طعامه ويقال للزبانية (خذوه) أى هذا الاثيم أخذ قهر فلا تدعوه يملك من أمره شيأ (فاعتلوه) أى جروه بقهر بغلظة وعنف وسرعة الى العذاب والاهانة بحيث يكون كأنه محمول وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر بضم التاء والباقون بكسرها وهما لغتان فى مضارع عتل قال البقاعى وقراءة الضم أدل على تناهى الغلظة والشدة من قراءة الكسر (الى سواء) أى وسط (الجحيم) أى النار التى هى غاية فى الاضطرام والتوقد وهو موضع خروج الشجرة التى هى طعامه (ثم صبوا فوق رأسه) أى ليكون المصبوب محيطا بجميع جسده (من عذاب الحميم) أى من الحميم الذى لا يفارقه العذاب فهو أبلغ مما فى آية يصب من فوق رؤسهم الحميم ويقال له توبيخا وتقريعا (ذق) أى العذاب (انك) وأكد بقوله (أنت) أى وحدك دون هؤلاء الذين يخبرون بحقارتك (العزيز الكريم) بزعمك وقولك ما بين جبليها أعز وأكرم منى وقرأ الكسائى بفتح الهمزة بعد القاف على معنى العلة أى لانك وقيل تقديره ذق عذاب الجحيم انك أنت العزيز والباقون بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة فتتحد القراءتان معنى وهذا

الكلام الذى على سبيل التهكم أغيظ للمستهزأبه ومثله قول جرير لشاعر سمى نفسه زهرة اليمن

ألم يكن فى رسوم قد رسمت بها * من كان موعظة يازهرة اليمن

وكان هذا الشاعر قد قال

أبلغ كليبا وأبلغ عنك شاعرها * أنى الاعز وأنى زهرة اليمن

ويقال لهم (ان هذا) أى الذى ترون من العذاب (ما كنتم به) أى جبلة وطبعا (تمترون) أى تعالجون أنفسكم وتحملونها على الشك فيه وتردونها عما ألهامن الفطرة الاولى من التصديق بالممكن لاسيما من جرب صدقه وظهرت خوارق العادات على يده بحيث كنتم لشدة ردكم له كأنكم تخصونه بالشك * ولما ذكر سبحانه وتعالى وعيد الكفار أردفه بآيات الوعد فقال (ان المتقين) أى العريقين فى هذا الوصف (فى مقام) أى موضع اقامة لايريد الحال فيه تحولا عنه (أمين) أى يأمن صاحبه فيه من كل مالا يحبه وقرأ نافع وابن عامر بفتح الميم أى فى مجلس أمين والباقون بضمها على المصدر أى فى اقامة وقوله تعالى (فى جنات) أى بساتين تقصر العقول عن ادراك كل وصفها بدل من قوله تعالى فى مقام أمين أو خبر ثان وقرأ (وعيون) ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائى بكسر العين والباقون بضمها * ولما كان لايتم العيش الابكسوة البدن أشار الى ذلك بقوله تعالى (يلبسون) ودل على الكثرة جدا بقوله تعالى (من سندس) وهو مارق من الحرير بعمل وجوها (واستبرق) هو ما غلظ منه بعمل بطائن وسمى بذلك لشدة بريقه وقوله تعالى (متقابلين) أى فى مجلسهم ليستأنس بعضهم ببعض حال وقوله يلبسون حال من الضمير المستكن فى الجار أو خبر ثان فيتعلق الجار به أو مستأنف (فان قيل) الجلوس على هذه الهيئة موحش لان كل واحد منهم يصير مطلعا على مايفعل الآخر وأيضا فقليل الثواب اذا اطلع على كثيره ينغص عليه (أجيب) بأن أحوال الآخرة ليست كأحوال الدنيا وقد قال تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل وقوله تعالى (كذلك) يجوز فيه وجهان أحدهما النصب نعتا لمصدر أى نفعل بالمتقين فعلا كذلك أى مثل ذلك الفعل ثانيهما الرفع على خبر مبتدا مضمر أى الامر كذلك * ولما كان ذلك لايتم السرور به الا بالازواج قال تعالى (وزوجناهم) أى قرناهم كما تقرن الازواج وليس المراد به العقد لان فائدة العقد الحل والجنة ليست بدار تكليف من تحليل أو تحريم (بحور) أى جوار بيض حسان نقيات الثياب (عين) أى واسعات الاعين قال البيضاوى واختلف فى انهن نساء الدنيا أو غيرهن * ولما كان الشخص فى الدنيا يخشى كلف النفقات وصف ماهنالك من سعة الخيرات فقال تعالى (يدعون) أى يطلبون طلبا هو غاية المسرة (فيها) أى الجنة أى يؤتون (بكل فاكهة) أى لايمتنع عليهم صنف من الاصناف لبعد مكان ولا فقدان ولا غير ذلك من الشان وفى ذلك ايذان بأنه مع سعته ليس فيه شئ لاقامة البنية وانما هو للتفكه والتلذذ حال كونهم مع ذلك (آمنين) فى غاية الامن من كل مخوف (لايذوقون فيها) أى الجنة (الموت) لانها دار خلود لادار فناء وقوله تعالى (الا الموتة الاولى) فيه أوجه أحدها أنه استثناء منقطع أى لكن

الموتة

الموتة الاولى قد ذاقوها ثانيها أنه متصل وتأولوه بأن المؤمن عند موته فى الدنيا يصير بلطف الله كأنه فى الجنة لاتصاله بأسبابها ومشاهدته اياها وما يعطاه من نعيمها فكأنه مات فيها ثالثها ان الا بمعنى سوى أى سوى الموتة التى ذاقوها فى الدنيا كما فى قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف أى سوى ما قد سلف رابعها ان الا بمعنى بعد أى لا يذوقون فيها الموت بعد الموتة الاولى فى الدنيا واختاره الطبرى لكن نوزع بأن الا بمعنى بعد لم يثبت وقد يجاب بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ خامسها قال الزمخشرى أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله الا الموتة الاولى موضع ذلك لان الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل ان كانت الموتة الاولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فانهم يذوقونها سادسها المراد بالمتقين أعم من الراسخين وغيرهم وان ضمير فيها يرجع للآخرة فالعاصى اذا أراد الله تعالى تعذيبه بالنار يذيقه فيها موتة أخرى كما جاء فى الاحاديث الصحيحة فيكون على المجموع سابعها أن الموتة الاولى فى الجنة المجازية فلا يكون ذلك بالمحال وذلك ان المتقى لم يزل فيها فى الدنيا قال بعض العلماء الدنيا اذا تحققت فى حق المؤمن التقى فانها جنة صغرى تولية سبحانه اياه فيها وقربه منه ونظره اليه وذكره له وعبادته اياه وشغله به وهو معه أينما كان (فان قيل) أهل النار لا يذوقون الموت أبدا فلم بشر أهل الجنة بهذا مع ان أهل النار يشاركونهم فيه (أجيب) بأن البشارة ما وقعت بدوام الحياة فقط بل مع حصول تلك الخيرات والسعادات فافترقا (ووقاهم) أى المتقين (عذاب الجحيم) أى التى تقدم أنها لكل كفار أثيم وأما غير المتقين من العصاة فيدخل الله تعالى من أراد منهم النار فيعذب كلا منهم على قدر ذنوبه ثم يميتهم فيها ويستمرون الى أن يأذن الله تعالى فى الشفاعة فيهم فيخرجهم ثم يحييهم بما يرش عليهم من ماء الحياة ثم يدخلهم الله تعالى الجنة روى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل ناس فى النار حتى اذا صاروا حمما أدخلوا الجنة فيقول أهل الجنة من هؤلاء فيقال هؤلاء الجهنميون وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال يعذب ناس من أهل التوحيد فى النار حتى يكونوا فيها حمما ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت الغثاء فى حمالة السيل ثم يدخلون الجنة وقوله تعالى (فضلا) مفعول لاجله أى فعل ذلك بهم لاجل الفضل وجعله أبو البقاء منصوبا بمقدر أى تفضلنا بذلك فضلا أى تفضلا * (تنبيه) * احتج اهل السنة بهذه الآية على أن الثواب يحصل من الله تعالى فضلا واحسانا وأن كل ما وصل اليه العبد من الخلاص من النار والفوز بالجنة فانما يحصل بفضل الله تعالى (من ربك) أى المحسن اليك بكمال احسانه الى اتباعك احسانا يليق بك قال الرازى فى اللوامع أصل الايمان رؤية الفضل فى جميع الاحوال * ولما عظمه الله تعالى باظهار هذه الصفة مضافة اليه صلى الله عليه وسلم زاد تعظيمه بالاشارة بأداة البعد فقال تعالى (ذلك) أى الفضل العظيم الواسع (هو) أى خاصة (الفوز) أى الظفر بجميع المطالب (العظيم) لانه خلاص عن المكاره ولم يدع جهة من الشرف الا ملأها وهذا يدل على أن

الفضل أعلى من درجات الثواب المستحق لانه تعالى وصفه بكونه فوزا عظيما وأيضا فان الملك العظيم اذا أعطى الاجير أجرته ثم خلع على انسان آخر فان تلك الخلعة أعلى من اعطاء تلك الاجرة * ولما بين تعالى الدليل وشرح الوعد والوعيد قال تعالى (فانما يسرناه) أى سهلنا القرآن سهولة كبيرة (بلسانك) أى هذا العربى المبين وهم عرب سجيتهم الفصاحة (لعلهم يتذكرون) أى يفهمونه فيتعظون به وان لم يتعظوا به ولم يؤمنوا به (فارتقب) أى فانتظر ما يحل بهم (انهم مرتقبون) أى منتظرون ما يحل بك فمفعولا الارتقاب محذوفان أى فارتقب النصر من ربك انهم مرتقبون بك ما يتمنونه من الدوائر والغوائل ولن يضرك ذلك وما رواه البيضاوى تبعا للزمخشرى أنه صلى الله عليه وسلم قال من قرأ حم الدخان ليلة جمعة أصبح مغفورا له رواه الترمذى وزاد الزمخشرى من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك ورواه البغوى عن أبى هريرة قال ابن عادل قال أبو أمامة رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتا فى الجنة والله تعالى أعلم بالصواب

قوله وزاد الزمخشرى نسخة البيضاوى التى بأيدينا فيها الحديثان اللذان فى الكشاف بمخالفة يسيرة فلعلها نسخة وقعت للمؤلف اه

(سورة الجاثية مكية)

الا قل للذين آمنوا يغفروا الآية وهى سبع وثلاثون آية وأربعمائة وثمانون كلمة وألفان ومائة واحد وتسعون حرفا

(بسم الله) الذى تفرد بتمام العز والكبرياء (الرحمن) الذى أحكم رحمته بالبيان العام للسعداء والاشقياء (الرحيم) الذى خص بملابسة طاعته الاولياء وتقدم الكلام على قوله تعالى (حم) ثم ان جعلتها اسما مبتدأ مخبرا عنه بقوله تعالى (تنزيل الكتاب) أى الجامع لكل خير لم يكن بد من حذف مضاف تقديره تنزيل حم تنزيل الكتاب وقوله تعالى (من الله) أى المحيط بصفات الكمال صلة للتنزيل وان جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ والظرف خبرا (العزيز) فى ملكه (الحكيم) فى صنعه * ولما كانت الحواميم كما روى أبو عبيدة فى كتاب الفضائل عن ابن عباس لبيان القرآن حذف ما ذكر فى البقرة من قوله تعالى خلق ليكون ما هنا أشمل فقال تعالى (ان فى السموات) أى ذواتهما بما لهما من الدلالة على صانعهما وخلقها على ما فيهما من العبر بما فيهما من المنافع وعظيم الصنعة وما لهما من الشرف الدال على تعددها بما فيهما من الكواكب (والارض) كذلك وبما حوت من المعادن والمعاش (لآيات) أى دلالات على وجود الاله القادر الفاعل المختار فان من المعلوم أنه لا بد لكل ذلك من صانع متصف بذلك وقال تعالى (للمؤمنين) لانهم برسوخهم فى هذا الوصف الشريف أهل للنظر لان ربهم يهديهم بايمانهم فشواهد الربوبية لهم منهما لائحة وأدلة الالهية فيهما واضحة * ولما ذكر سبحانه وتعالى النظر فى آيات الآفاق أتبعها آيات الانفس بقوله تعالى (وفى خلقكم) أى خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة الى أن صار انسانا المخالف لخلق الارض التى أنتم منها بالاختيار والعقل والانتشار والقدرة على السار والضار (وما) أى وخلق ما (يبث) أى ينشر ويفرق بالحركة الاختيارية على سبيل

التجدد والاستمرار (من دابة) مما تعلمون ومما لا تعلمون بما في ذلك من مشاركتكم بالاختيار والهداية للمنافع بادراك الجزئيات ومخالفتكم في الصورة والعقل وادراك الكليات وغير ذلك من مخالفة الاشكال والطبائع والمنافع وغير ذلك (آيات) دالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته وقرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء حملا على اسم ان والباقون بالرفع حملا على محل ان واسمها ولما كانت آيات الانفس أدق وأدل على القدرة والاختيار بما لها من التجدد والاختلاف قال تعالى (لقوم) أي فيهم أهلية القيام بما يحاولونه (يوقنون) أي يتجدد لهم العروج في درجات الايمان الى أن يصلوا الى شرف الايقان فلا يخالجهم شك في وحدانيته (واختلاف الليل والنهار) بذهاب أحدهما ووجود الآخر بعد ذهابه على التعاقب آية متكررة للدلالة على القدرة على الايجاد بعد الاعدام بالبعث وغيره (وما أنزل الله) أي الذي عمت عظمته فنفذت كلمته (من السماء من رزق) أي مطر وغيره من الاسباب المهيئة لاخراج الرزق (فأحيي به) أي بسببه (الارض) أي الصالحة للحياة ولذلك قال تعالى (بعد موتها) أي يبسها وتهشيم ما كان فيها من النبات (وتصريف) أي تحويل (الرياح) باختلاف جهاتها وأحوالها وقرأ حمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وقوله تعالى (آيات) فيه القراءتان المتقدمتان أما الرفع فظاهر وأما الكسر ففيه وجهان أحدهما أنها معطوفة على اسم ان والخبر قوله وفي خلقكم كأنه قيل وان في خلقكم وما يبث من دابة آيات والثاني أن تكون كررت تأكيدا لآيات الاولى ويكون في خلقكم معطوفا على في السموات كرر معه حرف الجر توكيدا ونظيره أن تقول ان في بيتك زيدا وفي السوق زيدا فزيدا الثاني تأكيد للاول كأنك قلت ان زيدا في بيتك وفي السوق وليس في هذه عطف على معمولي عاملين البتة * ولما كانت هذه الآية أوضح دلالة من بقيتها على البعث قال تعالى فيها (لقوم يعقلون) الدليل فيؤمنون وأبدى بعض المفسرين معنى لطيفا فقال ان المنصفين اذا نظروا في السموات والارض وأنه لا بد لهما من صانع آمنوا واذا نظروا في خلق أنفسهم ونحوها ازدادوا ايمانا فأيقنوا فاذا نظروا في سائر الحوادث عقلوا واستحكم علمهم * ولما ذكر هذه الآيات العظيمات قال تعالى مشيرا الى علو رتبتها بأداة البعد (تلك) أي الآيات المذكورة (آيات الله) أي حجج المحيط بصفات الكمال التي لا شيء أجل منها الدالة على وحدانيته (نتلوها) أي نقصها (عليك) سواء أكانت مرئية أو مسموعة ملتبسة (بالحق) أي الامر الثابت الذي لا يستطاع تحويله لسر بسحر ولا كذب (فبأي حديث) أي خبر عظيم صادق يتجدد علمه به يستحق أن يتحدث به واستغرق كل حديث فقال تعالى (بعد الله) أي حديث الملك الاعظم وهو القرآن (وآياته) أي حججه (يؤمنون) أي كفار مكة أي لا يؤمنون وقرأ ابن عامر وشعبة والكسائي بتاء الخطاب رأوا أن ذلك الخطاب صرف الى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى نتلوها عليك بالحق والباقون بياء الغيبة ردوه على قوله تعالى وفي خلقكم وهو أقوى تمكينا * ولما بين الآيات للكفار وبين أنهم اذا لم يؤمنوا بها بعد ظهورها فبأي حديث بعدها يؤمنون أتبعه

بوعيد عظيم لهم فقال تعالى (ويل لكل أفاك) أى مبالغ فى صرف الحق عن وجهه (أثيم) أى مبالغ فى اكتساب الاثم وهو أن يبقى مصرا على الانكار والاستكبار قال المفسرون يعنى النضر بن الحرث والآية عامة فيمن كان موصوفا بهذه الصفة وفسرهذا بقوله تعالى (يسمع آيات الله) أى دلالات الملك الاعظم الظاهرة حال كونها (تتلى عليه) بجميع مافيها وهى القرآن من سهولة فهمها وعذوبة ألفاظها وظهور معانيها وجلالة مقاصدها مع الاعجاز وهى القرآن العظيم فكيف اذا كان التالى أشرف الخلق وقرأ حمزة والكسائى باماله محضة وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح (ثم يصر) أى يدوم دواما عظيما على قبح ماهو فيه حال كونه (مستكبرا) أى طالبا للكبر عن الاذعان وموجدا له (كأن) أى كأنه (لم يسمعها) أى حاله عند السماع وقبله وبعده على حد سواء (فبشره) أى على هذا الفعل الخبيث (بعذاب أليم) أى مؤلم والبشارة على الاصل أو التهكم وقرأ ابن كثير وحفص أليم بالرفع والباقون بالجر (واذا علم) أى بلغه (من آياتنا) أى القرآن (شيأ) وعلم أنه من آياتنا (اتخذها هزوا) أى مهزوّا بها *(تنبيه)* فى الضمير المؤنث وجهان أحدهما أنه عائد على آياتنا يعنى القرآن والثانى أنه يعود على شيأ وان كان مذكرا لانه بمعنى الآية كقول أبى العالية

نفسى بشئ من الدنيا معلقة * الله والقائم المهدى يكفيها

لانه أراد بشئ جارية يقال لها عتبة والمعنى اتخذ ذلك الشئ هزوا الا أنه تعالى قال اتخذها للاشعار بأن هذا الرجل اذا أحس بشئ من الكلام انه من جملة الآيات المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد وقوله تعالى (أولئك لهم عذاب مهين) أى ذو اهانة اشارة الى معنى كل أفاك أثيم ليدخل فيه جميع الافاكين فحمل أولا على لفظها فأفرد ثم على معناها فجمع كقوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب فقال (من ورائهم) أى أمامهم لانهم فى الدنيا (جهنم) قال الزمخشرى والوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو قدام قال

أليس ورائى ان تراخت منيتى * أدب مع الولدان أزحف كالنسر

ومنه قوله تعالى من ورائهم اى من قدامهم اه ثم بين تعالى أن ما ملكوه فى الدنيا لا ينفعهم بقوله تعالى (ولا يغنى) اى ولا يدفع (عنهم ما كسبوا) من الاموال فى رحلهم ومتاجرهم والاولاد (شيأ) من الاغناء وقوله تعالى (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى من الاوثان عطف على ما كسبوا وما فيهما اما مصدرية أو بمعنى الذى أى لا يغنى عنهم كسبهم ولا اتخاذهم أو الذى كسبوه ولا الذى اتخذوه (ولهم عذاب عظيم) اى لا يدع جهة من جهاتهم ولا زمانا من أزمانهم ولا عضوا من أعضائهم الاملأه (فان قيل) قال تعالى فى الاول مهين وفى الثانى عظيم فما الفرق بينهما (أجيب) بأن كون العذاب مهينا يدل على حصول العذاب مع الاهانة وكونه عظيما يدل على كونه بالغا الى أقصى الغايات فى الضرر وقوله تعالى (هذا هدى) اشارة الى القرآن يدل عليه قوله تعالى (والذين كفروا بآيات ربهم) هى القرآن أى هذا القرآن كامل فى الهداية

كما تقول زيد رجل أى كامل فى الرجولية وأيما رجل (لهم عذاب) كائن (من رجز) أى شديد العذاب (أليم) أى بليغ الايلام * ولما ذكر تعالى ذكر الربوبية ذكر بعض آثارها وما فيها من آياته فقال مستأنفا دالا على عظمتها بالاسم الاعظم (الله) أى الملك الاعلى المحيط بجميع صفات الكمال (الذى سخر) أى وحده من غير حول منكم ولا قوة فى ذلك بوجه من الوجوه (لكم البحر) أيها الناس بركم وفاجركم بما جعل فيه مما لا يقدر عليه الا الواحد لا شريك له فاعل بالاختيار من القابلية للسير فيه من الرقة واللدونة (لتجرى الفلك) أى السفن (فيه بأمره) أى باذنه ولو كانت موقرة بأثقال الحديد الذى يغوص فيه أخف شئ منه كالابرة وما دونها ففى ذلك دلالة ظاهرة على وحدانيته لان جريان الفلك على وجه الماء لا يحصل الا بثلاثة أشياء أحدها الرياح التى توافق المراد وثانيها خلق وجه الماء على الملاسة التى تجرى عليها الفلك وثالثها خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغرق فيه وهذه الاحوال لا يقدر عليها أحد من البشر (ولتبتغوا) أى تطلبوا بشهوة نفس واجتهاد بما تحملون فيه من البضائع وتتوصلون اليه من الاماكن والمقاصد بالصيد والغوص على اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك (من فضله) لم يصنع شيأ منه سواه (ولعلكم تشكرون) نعمه على ذلك (وسخر لكم ما فى السموات) من شمس وقمر ونجوم بها وغير ذلك بحيث لا يمكنكم الوصول اليه بوجه (وما فى الارض) من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيره ولو شاء لجعله كما فى السماء لا وصول لكم اليه وقوله تعالى (جميعا) توكيد لما دل عليه معنى ما من العموم وقيل حال من ما فى السموات وما فى الارض وقوله تعالى (منه) حال أى سخرها كائنة منه تعالى لا صنع لاحد غيره فى شئ من ذلك قال ابن عباس كل ذلك رحمة منه وقال الزجاج كل ذلك تفضل منه واحسان وقال بعض العارفين سخر لك الكل لئلا يسخرك لشئ منها فتكون مسخرا لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى فانه يقبح بالمخدوم أن يخدم خادمه (ان فى ذلك) أى الامر العظيم من تسخيره لنا كل شئ فى الكون (لآيات) أى دلالات واضحات على أنهم فى الالتفات الى غيره فى ضلال مبين بعد تسخيره لنا ما لنا من الاعضاء والقوى على هذا الوجه البديع مع أن من هذا المسخر لنا ما هو أقوى منا (لقوم) أى ناس فيهم أهلية القيام بما يجعل اليهم (يتفكرون) فيعلمون أنه المتوحد باستحقاق الالهية فلا يشركون به شيأ واختلف فى سبب نزول قوله تعالى (قل) أى يا أفضل الخلق (للذين آمنوا) ادعوا التصديق بكل ما جاءهم من الله تعالى (يغفروا) أى يستروا سترا بالغا (للذين لا يرجون أيام الله) أى مثل وقائع الملك الاعظم المحيط بصفة الكمال فقال ابن عباس نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل عبد الله بن أبى غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر رضى الله عنه فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مقاتل ان رجلا من بنى غفار شتم عمر

بمكة فهم عمر أن يبطش به فنزلت بالعفو والتجاوز وروى ميمون بن مهران ان فنحاص
اليهودى لما نزل قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال احتاج رب محمد
فسمع ذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه فبعث النبى صلى الله عليه وسلم اليه فرده
وقال القرطبى والسدى نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة
كانوا فى أذى كثير من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنزلت ثم نسختها آية القتال قال الرازى وانما قالوا بالنسخ لانه يدخل تحت الغفران
أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا فلما أمر الله تعالى بالمقاتلة كان نسخا والاقرب أن يقال انه محمول على
ترك المنازعة وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية وقال ابن عباس لا يرجون
أيام الله أى ثوابه ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عذاب الامم الماضية وتقدم تفسير
أيام الله عند قوله تعالى وذكرهم بأيام الله وقوله تعالى (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) علة
للامر والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير
أو التنويع أو لكسب المغفرة أو الاساءة أو ما يعمهما وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بالنون
لنجزى نحن بما لنا من العظمة والباقون بالياء التحتية أى ليجزى الله سبحانه وتعالى * ولما
رغب سبحانه وتعالى ورهب وقرر انه لا بد من الجزاء زاد فى الترغيب والترهيب بأن النفع
والضر لا يعدوهم فقال تعالى شارحا للجزاء (من عمل صالحا) قل أو جل (فلنفسه) أى خاصة
عمله يرى جزاءه فى الدنيا والآخرة وهو مثل ضربه الله تعالى للذين يغفرون (ومن أساء) كذلك
(فعليها) خاصة اساءته كذلك وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار الذين كانوا يؤذون الرسول
والمؤمنين وذلك فى غاية الظهور لانه لا يسوغ فى عقل عاقل ان ملكا يدع عبيده من غير جزاء
ولاسيما اذا كان حكيما وان كانت نقائص النفوس غطت على كثير من العقول ذلك (ثم) أى
بعد الابتلاء بالاملاء فى الدنيا والحبس فى البرزخ (الى ربكم) أى الملك المالك لكم لا الى غيره
(ترجعون) أى تصيرون فيجازى المصلح والمسئ (ولقد آتينا) أى على مالنا من العظمة (بنى
اسرائيل الكتاب) أى الجامع للخيرات وهو يعم التوراة والانجيل والزبور وغيرها مما أنزل على
أنبيائهم عليهم السلام (والحكم) أى العلم والعمل الثابتين ثبات الاحكام بحيث لا يتطرق اليهما
فساد بما للعلم من الزينة بالعمل وللعمل من الاتقان بالعلم (والنبوة) التى تدرك بها الخيرات
العظيمة التى لا يمكن ابلاغ الخلق اليها بلوغا اكتسابيا منهم فأكثرنا فيهم من الانبياء عليهم السلام
(ورزقناهم) بما لنا من العظمة لاقامة أبدانهم (من الطيبات) أى الحلالات من المن والسلوى
وغيرهما (وفضلناهم) أى بما لنا من العزة (على العالمين) قال أكثر المفسرين على عالمى زمانهم
وقال ابن عباس لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحب اليه منهم أى لما آتاهم من
الآيات المرئية والمسموعة وأكثر فيهم من الانبياء مما لم يفعله بغيرهم ممن سبق وكل ذلك فضيلة
ظاهرة (وآتيناهم) مع ذلك (بينات من الامر) أى الموحى به الى أنبيائهم من الادلة القطعية
والاحكام والمواعظ المؤيدة بالمعجزات ومن صفات الانبياء الآتين بعدهم وغير ذلك مما هو

في غاية الوضوح لمن قضينا بسعادته وذلك أمر يقتضي الالفة والاجتماع وقد كانوا متفقين
وهم في زمن الضلال لا يختلفون الا اختلافا يسيرا لا يضر مثله ولا يعد اختلافا فلما جاءهم
العلم اختلفوا كما قال تعالى (فما اختلفوا) أي أوقعوا الاختلاف والافتراق بغاية جهدهم
(الا من بعد ما جاءهم العلم) أي الذي من شأنه الجمع على المعلوم فكان ما هو سبب الاجتماع سببا
لهم في الافتراق (بغيا) أي للمجاوزة في الحدود التي اقتضاها لهم طلب الرياسة والحسد وغيرهما
من نقائص النفوس (بينهم) أي واقعا فيهم لم يعدهم الى غيرهم وقد كانوا قبل ذلك وهم تحت
أيدي القبط في غاية الاتفاق واجتماع الكلمة على الرضا بالذل ولذلك استأنف قوله تعالى
الذي اقتضاه الحال على ما يشاهده العباد من أفعال الملوك فيمن خالف أمرهم مؤكدا لاجل
انكارهم (ان ربك) أي المحسن اليك (يقضي بينهم) أي باحصاء الاعمال والجزاء عليها (يوم
القيامة) أي الذي ينكره قومك الذين شرفناهم برسالتك (فيما كانوا) أي لما هو لهم كالجبلة (فيه
يختلفون) بغاية الجهد والمعنى أنه لا ينبغي للمبطل أن يفرح بنعم الدنيا فانها وان ساوت نعم المحق
أو زادت عليها فانه سيرى في الآخرة ما يسوءه وذلك كالزجر لهم * ولما بين تعالى انهم أعرضوا
عن الحق بغيا وحسدا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدل عن تلك الطريقة وأن يتمسك
بالحق وأن لا يكون له غرض سوى اظهار الحق فقال تعالى (ثم) أي بعد فترة من رسلهم ومجاوزة
رتب كثيرة عالية على رتبة شريعتهم (جعلناك) أي بما لنا من العزة والقدرة (على شريعة) أي
طريقة واسعة عظيمة ظاهرة مستقيمة سهلة موصلة الى المقصود وهي جديرة بأن يشرع الناس
فيها ويخالطوها مبتدأة (من الامر) أي أمر الدين الذي هو حياة الارواح كما أن الارواح حياة
الاشباح (فاتبعها) أي اتبع بغاية جهدك شريعتك الثابتة بالحجج (ولا تتبع أهواء) أي آراء
(الذين لا يعلمون) أي لا علم لهم أو لهم علم لكنهم يعملون عمل من ليس لهم علم أصلا من كفار
العرب وغيرهم قال الكلبي ان رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع الى
دين آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن فأنزل الله تعالى هذه الآية * ثم علل هذا النهي مهددا
بقوله تعالى مؤكدا (انهم) وأكد النفي فقال عز من قائل (ان يغنوا عنك) أي لا يتجدد لهم نوع
اغناء مبتدأ (من الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما (شيأ) أي من اغناء أي ان اتبعتهم كما انهم
لن يقدروا لك على شيء من أذى ان خالفتهم وناصبتهم (وان الظالمين) أي الغريقين في هذا
الوصف وهم الكفرة وكان الاصل وانهم ولكنه تعالى أظهر للاعلام بوصفهم (بعضهم أولياء
بعض) اذ الجنسية علة الانضمام فلا توالوهم باتباع أهوائهم (والله) أي الذي له صفات الكمال
(ولي المتقين) أي الذين هم هم الاعظم الاتصاف باتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى
والمعنى ان الظالمين يتولى بعضهم بعضا في الدنيا وأما في الآخرة فلا ولي لهم ينفعهم في ايصال
الثواب وازالة العقاب وأما المتقون المهتدون فالله سبحانه وليهم وناصرهم (هذا) أي الوحي
المنزل وهو القرآن (بصائر) أي معالم (للناس) أي في الحدود والاحكام يبصرون بها ما ينفعهم
وما يضرهم (وهدى) أي قائد الى كل خير مانع من كل زيغ (ورحمة) أي كرامة وفوز ونعمة

(القوم يوقنون) أى ناس فيهم قوة القيام بالوصول الى العلم الثابت وتجديد الترقى فى درجاته الى مالا نهاية له وقوله تعالى (أم حسب) منقطعة فتقدر ببل والهمزة أو ببل وحدها أو بالهمزة وحدها ومعنى الهمزة فيها انكار الحسبان (الذين اجترحوا) أى اكتسبوا ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أى كاسبهم وقال تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار (السيآت) أى الكفر والمعاصى (أن نجعلهم) أى بما لنا من العظمة المانعة من الظلم المقتضية للحكمة (كالذين آمنوا وعملوا) تصديقا لاقرارهم (الصالحات) أى بأن نتركهم بغير حساب للفصل بين المحسن والمسىء * ولما كانت المماثلة مجملة بينها استئنافا بقوله تعالى (سواء) أى مستوا استواء عظيما (محياهم ومماتهم) أى حياتهم وموتهم وزمان ذلك ومكانه فى الارتفاع والسفول واللذة والكدر وغير ذلك من الاعيان والمعانى وقرأ حمزة والكسائى وحفص سواء بالنصب على الحال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور وهما كالذين آمنوا ويكون المفعول الثانى للجعل كالذين آمنوا أى أحسبوا أن نجعلهم مثلهم فى حال استواء محياهم ومماتهم ليس الامر كذلك وقرأه الباقون بالرفع على انه خبر ومحياهم ومماتهم مبتدأ ومعطوف والجملة بدل من الكاف والضميران للكفار والمعنى احسبوا أن نجعلهم فى الآخرة فى خير كالمؤمنين أى فى رغد من العيش مساوا لعيشهم فى الدنيا حيث قالوا للمؤمنين لئن بعثنا لنعطى من الخير مثل ما تعطون قال تعالى على وفق انكاره بالهمزة (ساء ما يحكمون) أى ليس الامر كذلك فهم فى الآخرة فى العذاب على خلاف عيشهم فى الدنيا والمؤمنون فى الآخرة فى الثواب بأعمالهم الصالحات فى الدنيا من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك وما مصدرية أى بئس حكما حكمهم هذا * ولما بين تعالى أن المؤمن لا يساويه الكافر فى درجات السعادة اتبعه بالدلائل الظاهرة على صحة ذلك فقال تعالى (وخلق الله) أى الذى له جميع أوصاف الكمال (السموات والارض) وقوله تعالى (بالحق) متعلق بخلق وقوله تعالى (ولتجزى) أى بأيسر أمر (كل نفس) أى منكم ومن غيركم معطوف على بالحق فى المعنى لان كلا منهما سبب فعطف العلة على مثلها أو انه معطوف على معلل محذوف والتقدير خلق هذا العالم اظهارا للعدل والرحمة وذلك لا يتم الا اذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت بين الدرجات والدركات من المحقين والمبطلين (بما) أى بسبب ما (كسبت) من خير أو شر (وهم) أى والحال انهم (لا يظلمون) أى لا يوجد من موجد ما فى وقت من الاوقات جزاء لهم فى غير موضعه هذا على ما جرت به عوائدكم فى العدل والفضل ولو وجد منه سبحانه وتعالى غير ذلك لم يكن ظلما منه لانه المالك المطلق والملك الاعظم فلو عذب أهل سمواته وأهل أرضه كلهم لكان غير ظالم فى نفس الامر فهذا الخطاب انما هو على ما يتعارفونه من اقامة الحجة بمخالفة الامر ثم عاد سبحانه وتعالى الى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال (أفرأيت) أى أعلمت علما هو فى تيقنه كالمحسوس بحاسة البصر التى هى أثبت الحواس (من اتخذ) أى بغاية جهده (الهه هواه) أى ما يهواه من حجر بعد حجر يراه أحسن روى عن أبى رجاء العطاردى وهو ثقة أدرك الجاهلية ومات سنة

خمس ومائة عن مائة وعشرين سنة قال كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها قال الاصمعي سئل ابن المقفع عن الهوى فقال هوان سرقت نونه فنظمه من قال

نون الهوان من الهوى مسروقة * فأسير كل هوى أسير هوان

وقال آخر أيضا

ان الهوى لهو الهوان بعينه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

(وأضله الله) أي عامله معاملة من أضله لعلمه بأنه أهل للاضلال قبل ... (على علم) منه تعالى أى عالما بأنه من أهل الضلالة قبل خلقه (وختم) زيادة على الاضلال الخاص (على سمعه) فلا فهم له فى الآيات المسموعة (وقلبه) أى فهو لا يعى ما من حقه وعيه (وجعل على بصره غشاوة) أى ظلمة فلا يبصر الهوى ويقدر هنا المفعول الثانى لرأيت أى أيهتدى وقرأ حمزة والكسائى بفتح الغين وسكون الشين والباقون بكسر الغين وفتح الشين وألف بعد الشين واذا صار بهذه المثابة (فمن يهديه) وأشار تعالى الى قدرته عليه بقوله سبحانه وتعالى (من بعد الله) أى ان أراد الله اضلاله الذى له الاحاطة بكل شئ أى لا يهتدى (أفلا تذكرون) أى ألم يكن لكم نوع تذكر فتتعظوا وفيه ادغام احدى التاءين فى الذال (وقالوا) أى فى انكارهم البعث مع اعترافهم بأنه تعالى قادر على كل شئ (ما هى) أى الحياة (الا حياتنا) أى أيها الناس (الدنيا) أى هذه التى نحن فيها (نموت ونحيا) (فان قيل) الحياة متقدمة على الموت فى الدنيا فمنكرو القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة (أجيب) من وجوه أولها أن المراد بقولهم نموت أى حال كونهم نطفا فى أصلاب الآباء وأرحام الامهات وبقولهم ونحيا ما حصل بعد ذلك فى الدنيا ثانيها نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا ثالثها قال الزجاج الواو للاجتماع والمعنى يموت بعض ونحيا بعض رابعها قال الرازى انه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ان هى الا حياتنا الدنيا ثم قال بعده نموت ونحيا يعنى أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ومنها ما لا يطرأ عليه الموت بعد ذلك وهو فى حق الاحياء الذين لم يموتوا بعد وقال البيضاوى يحتمل انهم أرادوا به التناسخ أى وهو ان روح الشخص اذا خرجت تنتقل الى شخص آخر فيحيا بعد ان لم يكن فانه عقيدة أكثر عبدة الاصنام (وما يهلكنا) أى بعد الحياة (الا الدهر) أى مر الزمان الطويل بغلبته علينا وطول العمر واختلاف الليل والنهار من دهره اذا غلبه (وما) أى قالوه والحال انه ما (لهم بذلك) أى المقول البعيد من الصواب وهو انه لا حياة بعد هذه وان الاهلاك منسوب الى الدهر على انه مؤثر بنفسه وأغرق فى النفى فقال تعالى (من علم) أى كثير ولا قليل (ان) أى ما (هم الا يظنون) أى بقرينة ان الانسان كلما تقدم فى السن ضعف وانه لم يرجع أحد من الموتى هذا ظنهم الفاسد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر فانى أنا الدهر أرسل الليل والنهار فاذا شئت قبضتهما وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسب أحدكم

الدهر فان الدهر هو الله تعالى ولا يقولن للعنب الكرم فان الكرم هو الرجل المسلم ومعنى الحديث ان العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل لانهم كانوا ينسبون اليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر كما أخبر الله تعالى عنهم فاذا أضافوا الى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان يرجع سبهم الى الله تعالى اذ هو الفاعل فى الحقيقة للامور التى يضيفونها الى الدهر فنهوا عن سبه (واذا تتلى) أى تتابع بالقراءة من أى تال كان (عليهم آياتنا) أى على مالها من العظمة فى نفسها وبالاضافة الينا حال كونها (بينات) أى فى غاية المكنة فى الدلالة على البعث فلا عذر لهم فى ردها (ما كان) أى بوجه من وجوه الكون (حجتهم) أى قولهم الذى ساقوه مساق الحجة (الا أن قالوا ائتوا بآبائنا) أى احياء (ان كنتم صادقين) أى فى انا نبعث فهو لا يستحق أن يسمى شبهة فسمى حجة بزعمهم أولان من كانت حجته هذه فليست له البتة حجة كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى (قل الله) أى المحيط علما وقدرة (يحييكم) أى حين كنتم نطفا (ثم يميتكم) أى بأن يخرج أرواحكم من أجسادكم فتكونون كما كنتم قبل الاحياء كما تشاهدون (ثم يجمعكم) أى بعد التفرق فيعيد فيكم أرواحكم كما كانت بعد طول مدة الرقاد منتهين (الى يوم القيامة) أى القيام الاعظم لكونه عاما لجميع الخلائق (لاريب) أى لاشك بوجه من الوجوه (فيه) بل هو معلوم علما قطعيا ضروريا (ولكن أكثر الناس) أى وهم القائلون ما ذكر (لا يعلمون) أى لا يتجدد لهم علم لما لهم من النفوس والتردد والسفول عن أوج العقل الى حضيض الجهل فهم واقفون مع المحسوسات لا يلوح لهم ذلك مع ماله من الظهور وقوله تعالى (ولله) أى الملك الاعظم وحده (ملك السموات) أى كلها (والارض) أى التى ابتدأكم منها تعميم للقدرة بعد تخصيصها (ويوم تقوم الساعة) أى توجد وتتحقق تحقق القائم الذى هو على كمال تمكنه وتمام أمره الناهض باعباء ما يريد ثم كرر للتأكيد والتهويل قوله تعالى (يومئذ) أى يوم تقوم يخسرون هكذا كان الاصل ولكنه قال تعالى للتعميم والتعليق بالوصف (يخسر المبطلون) أى الداخلون فى الباطل العريقون فى الاتصاف به الذين كانوا لا يرضون بقضائى * (تنبيه) * الحياة والعقل والصحة كأنها رأس مال والتصرف فيها بطلب السعادة الاخروية يجرى مجرى تصرف التاجر فى ماله لطلب الربح والكفار قد أتعبوا أنفسهم فى تصرفاتهم بالكفر والاباطيل فلم يجدوا فى ذلك اليوم الا الحرمان والخذلان ودخول النار وذلك فى الحقيقة نهاية الخسران (وترى) أى فى ذلك اليوم (كل أمة) أى أهل دين (جاثية) أى مجتمعة لا يخالطها غيرها وهى مع ذلك باركة على الركب رعبا واستيفازا لما لعلها تؤمر به جلسة المخاصم بين يدى الحاكم تنتظر القضاء الحاتم والامر الجازم اللازم لشدة ما يظهر لها من هول ذلك اليوم (كل أمة) من الجاثين (تدعى الى كتابها) أى الذى أنزل عليها وتعبدها الله تعالى به والذى نسخته الحفظة عليهم السلام من أعمالها ليطبق أحدهما بالآخر فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ومن خالفه هلك ويقال لهم حالة الدعاء (اليوم تجزون) أى على وفق الحكمة بأيسر أمر (ما) أى عين الذى

(كنتم) بما هو لكم كالجبلات (تعملون) أى مصرين عليه غير راجعين عنه من خير أو شر
(فان قيل) الجثو على الركب انما يليق بالخائف والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة (أجيب)
بأن المحق الآمن يشارك المبطل فى مثل هذه الحالة الى أن يظهر كونه محقا (هذا كتابنا) أى
الذى أنزلناه على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام (ينطق) أى يشهد شهادة هى فى بيانها
كالنطق (عليكم بالحق) أى الامر الثابت الذى يطابقه الواقع من أعمالكم وذلك بأن يقول
من عمل كذا فهو عاص ومن عمل كذا فهو مطيع فينطبق ذلك على ما عملتموه سواء بسواء من
غير زيادة ولا نقصان وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ * ولما كانت العادة جارية فى الدنيا
باقامة الحقوق بكتابة الوثائق وكانوا كأنهم يقولون ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول
المدة وبعد الزمان قال تعالى مجيبا بما يقرب الى عقل من يسأل عن ذلك (انا) أى على مالنا
من العظمة المغنية عن الكتابة (كنا) على الدوام (نستنسخ ما كنتم) طبعا لكم وخلقا (تعملون)
قولا وفعلا ونية أى نأمر الملائكة عليهم السلام بكتبها واثباتها عليكم وقيل نستنسخ أى نأخذ
نسخه وذلك أن الملكين يرفعان عمل الانسان فيثبت الله تعالى منه ما كان له من ثواب أو عقاب
ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم واذهب والاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة
كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم والاستنساخ لا يكون الا من أصل كما ينسخ من كتاب
كتاب وقال الضحاك نستنسخ أى نثبت وقال السدى نكتب وقال الحسن نحفظ * ثم بين تعالى
أحوال المطيعين بقوله تعالى (فأما الذين آمنوا) أى من الامم الجاثية (وعملوا) أى تصديقا
لدعواهم الايمان (الصالحات) أى الطاعات فوصفهم بالعمل الصالح بعد وصفهم بالايمان
يدل على أن العمل الصالح مغاير للايمان زائد عليه (فيدخلهم) أى فى ذلك اليوم (ربهم) أى
المحسن اليهم بالتوفيق بالايمان (فى رحمته) التى من جملتها الجنة والنظر الى وجهه الكريم
الذى هو الغاية القصوى وتقول لهم الملائكة تشريفا سلام عليكم أيها المؤمنون ودل على
عظمة الرحمة بقوله تعالى (ذلك) أى الاحسان العالى المنزلة (هو) أى لا غيره (الفوز المبين)
أى الظاهر الذى لا يخفى على أحد شئ من أمره لانه لا يشوبه كدر أصلا ولا نقص بخلاف ما كان
من أسبابه فى الدنيا فانها مع كونها كانت فوزا كانت خفية جدا على غير الموقنين * ثم بين تعالى
أحوال الفريق الآخر بقوله تعالى (وأما الذين كفروا) أى ستروا ما أمر الله تعالى به (أفلم) أى
فيقال لهم ألم (تكن) تأتيكم رسلى فلم تكن (آياتى) على مالها من عظمة اضافتها الىّ وأعظمها
القرآن (تتلى) أى تواصل قراءتها من أى تال كان فكيف اذا كانت بواسطة الرسل تلاوة
مستعلية (عليكم) لا تقدرون على دفع شئ منها * (تنبيه) * حذف المقول المعطوف عليه كما تقرر
اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة (فاستكبرتم) أى فتسبب عن تلاوتها التى من شأنها ايراث
الخشوع والاخبات والخضوع ان طلبتم الكبر لانفسكم أو جدتموه على رسلى وآياتى (وكنتم
قوما) أى ذوى قيام وقدرة على ما تحاولونه (مجرمين) أى عريقين فى قطع ما يستحق الوصل
وذلك هو الخسران المبين (واذا) أى وكنتم اذا (قيل) أى من أى قائل كان ولو على سبيل

التأكيد (ان وعد الله) أي الذي كل أحد يعلم أنه محيط بصفات الكمال (حق) أي ثابت لا محيد عنه مطابق للواقع من البعث وغيره لان أقل الملوك لا يرضى بأن يخلف وعده فكيف به سبحانه وتعالى فكيف اذا كان الاخلاف فيه مناقضا للحكم وقرأ (والساعة) حمزة بالنصب عطفا على وعد الله والباقون برفعها وفيه ثلاثة أوجه أحدها الابتداء ومابعدها من الجملة المنفية وهو قوله تعالى (لاريب) أي لاشك (فيها) خبرها ثانيها العطف على محل اسم ان لانه قبل دخولها مرفوع بالابتداء ثالثها انه عطف على محل ان واسمها معا لان بعضهم كالفارسي والزمخشري يرون أن لان واسمها موضعا وهو الرفع بالابتداء (قلتم) أي راضين لانفسكم بحضيض الجهل (ماندرى) أي الآن دراية علم ولو بذلنا جهدنا في محاولة الوصول اليه (ماالساعة) أي لانعرف حقيقتها فضلا عما تخبروننا به من أحوالها *(تنبيه)* الساعة هنا مرفوعة باتفاق (ان) أي ما (نظن) أي نعتقد ما تخبروننا به عنها (الا ظنا) وأما وصوله الى درجة العلم فلا (ومانحن) وأكدوا النفي فقالوا (بمستيقنين) أي بموجود عندنا اليقين في أمرها قال الرازي القوم كانوا في هذه المسئلة على قولين منهم من كان قاطعا بنفي البعث والقيامة وهم المذكورون في قوله تعالى وقالوا ماهي الا حياتنا الدنيا ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه لانهم لكثرة ماسمعوه من الرسل عليهم السلام ولكثرة ماسمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم المذكورون في هذه الآية ويدل على ذلك أنه حكى تعالى مذهب أولئك القاطعين ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الاول * ولما وصلوا الى حد عظيم من العناد التفت الى أسلوب الغيبة اعراضا عنهم ايذانا بشدة الغضب عليهم فقال تعالى (وبدا) أي ولم يزالوا يقولون ذلك الى أن بدت لهم الساعة بما فيها من الاوجال والزلازل والاهوال وظهر (لهم) غاية الظهور (سيآت ما عملوا) في الدنيا فتمثلت لهم وعرفوا مقدار جزائها واطلعوا على جميع ما يلزم على ذلك (وحاق) أي أحاط (بهم) على حال القهر والغلبة قال أبو حيان ولا يستعمل الا في المكروه (ما كانوا) جبلة وطبعا (به يستهزؤن) أي يوجدون الهزء به على غاية الشهوة واللذة ايجاد من هو طالب لذلك وهذا كالدليل على ان هذه الفرقة لما قالوا ان نظن الا ظنا انما ذكروه استهزاء وسخرية فصار هذا الفريق أشر من الفريق الاول لان الاولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهؤلاء ضموا الى الاصرار على الانكار الاستهزاء وقرأ حمزة في الوقف بتسهيل الهمزة بعد الزاي كالواو وله أيضا ابدالها ياء ونقل عنه أيضا غير ذلك (وقيل) أي لهم على أفظع الاحوال وأشدها قولا لامعقب له فكأنه بلسان كل قائل (اليوم ننساكم) أي نترككم في العذاب (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) أي كما تركتم الايمان والعمل للقائه وقيل نجعلكم بمنزلة الشئ المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم هذا ولم تلتفتوا اليه (ومأواكم النار) ليس لكم براح عنها (ومالكم من ناصرين) ينقذونكم من ذلك بشفاعة ولا مقاهرة فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب ثلاثة أشياء قطع الرحمة عنهم وتصيير مأواهم النار وعدم الانصار لانهم أتوا

بثلاثة أنواع من الاعمال القبيحة وهى الاصرار على انكار الدين الحق والإستهزاء به والسخرية والاستغراق فى حب الدنيا وهو المراد بقوله تعالى (ذلكم) أى العذاب العظيم (بأنكم اتخذتم) أى بتكليف منكم لانفسكم (آيات الله) أى الملك الاعظم (هزوا) أى استهزاء بها ولم تتفكروا فيها وقرأ اتخذتم ابن كثير وحفص باظهار الذال عند التاء والباقون بالادغام (وغرتكم الحياة الدنيا) الدنيئة لضعف عقولكم فآثرتموها لكونها حاضرة وأنتم كالبهائم فقلتم لا حياة غيرها ولا بعث ولا حساب ولو تعقلتم وصفكم لها الاداكم الى الاقرار بالآخرة (فاليوم) أى بعد ايوائهم فيها (لا يخرجون منها) أى النار لان الله تعالى لا يخرجهم ولا يقدر غيره على ذلك وقرأ حمزة والكسائى بفتح الياء التحتية وضم الراء والباقون بضم الياء وفتح الراء (ولا هم يستعتبون) أى لا يطلب من طالب تما منهم الاعتاب وهو الاعتذار لانه لا يقبل ذلك اليوم عذر ولا توبة

* ولما تم الكلام فى المباحث الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال عز من قائل (فلله) اى الذى له الامر كله (الحمد) أى الاحاطة بجميع صفات الكمال (رب السموات) اى ذوات العلو والاتساع والبركات (ورب الارض) أى ذات القبول للواردات (رب العالمين) أى خالق ماذكر اذ الكل نعمة منه دال على كمال قدرته فاحمدوا الله الذى هو خالق السموات والارضين وخالق كل العالمين من الاجسام والارواح والذوات والصفات فان هذه توجب الحمد والثناء على كل من المخلوقين والمربوبين * ولما أفاد ذلك غناه الغنى المطلق وسيادته وانه لا كفء له عطف عليه بعض اللوازم لذلك تنبيها على مزيد الاعتناء به لدفع ما يتوهمونه من ادعاء الشركة التى لا يرضونها لانفسهم فقال تعالى (وله) أى وحده (الكبرياء) أى الكبر الاعظم الذى لا نهاية له (فى السموات) كلها (والارض) جميعا اللتين فيهما آيات الموقنين روى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما أدخلته النار وفى رواية عذبته وفى رواية قصمته (وهو) وحده (العزيز) الذى يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ (الحكيم) الذى يضع الاشياء فى مواضعها ولا يضع شيأ الا كذلك كما أحكم أمره ونهيه وجميع شرعه وأحكم نظم هذا القرآن

جملا وآيات وفواصل وغايات بعد أن حرر معانيه وتنزيله فصار

معجزا فى نظمه ومعناه وما رواه البيضاوى تبعا

للزمخشرى من انه صلى الله عليه وسلم قال

من قرأ سورة حم الجاثية ستر الله

عورته وسكن روعته يوم

الحساب حديث

موضوع

تم

(تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع أوله سورة الاحقاف)